
عثمان أحمد عثمان
صفحات من
تجربتى
المكتب المصرى الحديث

صفحات من تجربتي

الطبعة الأولى ٦ ابريل ١٩٨١

الطبعة الثانية ٢٠ ابريل ١٩٨١

الناشر : المكتب المصرى الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٧٥٤١٢٧
٧ شارع نوبار بالاسكندرية تليفون ٢٦٦٠٢

صفحات من..

تجربتى

عثمان أحمد عثمان

المكتب المصري الحديث

الناشر

أحمد يحيى

٢ شارع شريف

عمارة اللواء ـ القاهرة

تليفون ٧٥٤١٢٧ ـ ٦٥٠٣٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ »

« صدق الله العظيم »

اكبر درس فى حياتى

وجدت اقوى اسلحتى فى الايمان بقوله تعالى :

« إن الله يدافع عن الذين آمنوا »

فكانت هذه التجربة ..

الإهداء

إلى روح أمى الأمية .. التى أرى فيها مصر كلها ..

إلى روح شقيقى إبراهيم أحمد عثمان .. الذى كان فكره أول خيط للنور أمامى .. واختطفه الموت منى وأنا فى بداية المشوار .. أخـــى الذى أرى فيه نموذجا رائعا لما أتمنى أن يكون عليه كل الشباب ..

إلى روح شقيقى محمد أحمد عثمان .. الذى أرى فيه مثالا للتضحية وإنكار الذات ..

إلى العامل المصرى العملاق .. الذى لم يخذلنى كلما لجـــأت إليه فى أى يوم من الأيام ..

إلى جميع أبنائى فى « المقاولون العرب » التى حملتها فــكرة فى رأسى طفلا .. فحملتنى أمجادها على رأسها شيخا .

إلى الانسان فى كل مكان .. والذى أضع تجربتى بين يديه لعله يجد فيها ما يفيد ..

إلى كل هؤلاء جميعا .. أهدى هذه الصفحات ..

كلمة اولى :

آخر ما كنت افكر فيه أن امسك بالقلم ، لاسطر صفحات على الورق . . فأنا مهندس ينفذ على الطبيعة كل ما يقوم بتخطيطه من اعمال . . ولست كاتبا يسبح فى بحر الافكار . .

وتعودت أن أجيد الحوار بالعمل دائما ، لانه يغنينى عن كل الكلمات .. فالعمل وحده يجيب فى النهاية على كل التساؤلات . . التى تعن لكل من يخطر على باله أن يعرف شيئا عن عثمان أحمد عثمان .

وكان ان تحدثت كثيراً مع ابنائى فى الاسماعيلية ، عما علمته لى الايام ، لعلهم يجدون فيما أقوله لهم ما يفيدهم . .

وذات مرة وجدت من بينهم من يطلب إلى أن أسجل لهم ، تلك الذكريات . . ولم أقف كثيراً عند ذلك المطلب ؛ لأن الكتابة ليست من بين ما خصنى الله به من اهتمامات . .

ولكنهم حاولوا مرة أخرى . . وتحول المطلب إلى إلحاح . . ولم أجد بدا من أن أستجيب . .

واخيراً خرجت عن عادتى . . لاضع أمام الشباب كله تجربتى . .

فرحت أولا أقلب الفكرة ، كما تعودت دائما ، أن اقلب فى راسى كل ما يجد إلى عقلى طريقاً من بين الافكار التى تخطر على بالى ، أو التى أسمعها من الآخرين . .

واقتنعت . . ولكنى وقفت طويلا أمام التنفيذ . . وهذه أول مرة اتوقف فيها أمام تنفيذ أى فكرة اقتنع بها . .

إن القلم ليس مهنتي . . وليس لدى الدافع الذاتى لأن أكتب ، لانى لست فى حاجة لأن اقول . .

وعاد ابنائى الشباب يطاردوننى . . وهنا لم أجد مفراً من أن أجلس إلى المكتب ، لا . . لأتحول من مهندس إلى كاتب . . ولكن لأسجل لهم ما عشته من تجارب .

وأنكر أننى بدأت تنفيذ الفكرة ، منذ أواخر شهر ديسمبر عام ١٩٧٨ . . ولكن ضيق وقتى ، وتعدد اهتماماتى شدنى كثيراً بعيداً عن المكتب ، الذى جلست إليه ، لأسجل هذه الصفحات . .

وعندما عرف أبنائى بأننى بدأت فعلا ، فى تنفيذ فكرتهم . . لاحقونى ، ومنوا أنفسهم بأن أضع قريبا تجربتى بين أيديهم . .

وقبل أن أجلس لأسطر سطرا واحداً وقفت أمام سؤال كبير هو :

من أين أبدأ ، حتى لا أجعل من هذه الصفحات ساحة لذكرياتى . . ولكن لكى أقدم فقط للشباب القدر الذى يفيدهم . .

وكان على أن أعود . . بشريط ذكرياتى منذ أول أيام حياتى لكى أنتقى خلال مشوار الطريق ، من بين كل ما صادفنى ، القدر الذى يفيد كل من يقرأ هذه الصفحات ، حتى لا يجدنى أحدثه عن نفسى ، دون أن يجد من الحديث ما هو فى غير حاجة إليه . .

والتفت إلى الوراء ، لأسترجع رحلة صعود الجبل . . فوجدتها تبدأ منذ أن تركنى والدى وأنا فى الثالثة من عمرى . . عندما بدأت أمى « رحمها الله » رحلة كفاح مجيدة ، من أجل أن تضعنى أنا وأخوتى على أول الطريق . .

ولذلك لم أجد مفراً من أن أبدأ من تلك اللحظة فى حياتى ، لأسجل ذلك المشوار الطويل ، لأن تلك الفترة كان لها أعظم الأثر . . ليس على حياة عثمان أحمد عثمان .. ولكن على كل ما استطاع أن يحققه من نجاحات وحتى الآن . .

وكان فيها الكثير من التجربة ، التى لابد أن يعرفها أبنائى الشباب ، حتى ولو كان ذلك على حساب ، ما لا يصح أن أبوح به من أسرار ، بعد أن بلغت كل ذلك المكان . .

عثمان احمد عثمان

المرحلة الأولى

نحو الهدف

- طفولتى ورحلة الألف ميل
- المدخل الصحيح
- من أنت ؟ .. سؤال لا انساه
- انا واولادى
- آخر صدمة فى حياتى
- الخط الوطنى للمقاولون العرب
- بداية رحلتى الى الملايين
- من مشرق العالم العربى الى مغربه
- هكذا أرى العلاقات المصرية العربية

طفولتى ..

ورحلة الألف ميل

اختار ربى والدى إلى جواره ، عندما كنت فى الثالثة من عمرى . . ،

تركنى مع ثلاثة من أشقائى . . وشقيقتين ، وكان أكبرنا لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، أما حسين أصغرنا فكان ما يزال رضيعا . .

تركنا ونحن فى أشد الحاجة إليه ، وكان على أمى أن تعول أسرتنا الكبيرة التى أصبحت بلا عائل ، وبلا موارد مالية أيضا . .

كان عليها أن تبدأ مسيرة الطريق الطويل الشاق ، لتتذوق من أجلنا الوان المرارة والألم . . وكان عليها أن تتمسك بسلاح الاصرار والأمل ، والصبر والايمان ، حتى تخلق منا رجالا . .

ولم يكن أمامها ـ رحمها الله ـ إلا أن تحتضننا وأن تضحى بكل شىء من أجلنا . .

كانت ترى الدنيا كلها فينا . .

وكانت أمى شابة فى ربيع العمر ، وكان طبيعيا أن يفاتحها أشقاؤها فى أمر زواجها . . قالوا لها : إنهم لا يريدون أن يضيع عمرها هدرا . .

وجاء البعض يطلب يدها ، فلم توافق ، ورفضت أن يفاتحها أحد فى أمر زواجها . .

قالت : انها لن تفرط فينا ، ولن تسمح لنفسها أن تبدأ حياة جديدة ، فى بيت ترى فيه أحداً غيرنا ، أو نرى نحن فيه رجلا لها بعد والدنا . .

ولما حاولوا إقناعها ، أصرت على موقفها ، وهى تقول :

لن أسعد نفسى ، وأشقى أولادى . . !

وأرادت أمى أن تتدبر الموقــف بسرعة بعــد غياب والدى ، وكان أن بدأت رحلتها الطويلة الشاقة مع الزمن ، وهى رحلة أطلقت عليهـــا وأنا أعود بذاكرتى إلى بداية مشوار حياتى اسم « رحلة الألف ميل » . .

فماذا فعلت ؟ . .

كان والدى « رحمه الله » يمتلك محلا للبقــالة ، وكان يعمــل فى نفس الوقت فى تجارة الجملة بالاسماعيلية . .

وكان أكبر أشقائى المرحوم محمد أحمد عثمــان تلميذاً فى الشــهادة الابتدائية ، ولم تجد والدتى أمامها من حل إلا أن يترك محمــد المدرســة ليساعدها فى صراع الحياة من أجلنا . .

وكان أن كلفته بادارة محل البقالة . .

وتحمل « رحمه الله » ما فرضته عليه الأيام . .

كان عليه أن يصارع الحياة ، وكانت أمى تقف إلى جواره لتساعده وتشد من أزره .

كنا أسرة تتكون من سبعة أفراد ، ولم يكن يعولها إلا هذا الصــبى ، الذى لم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من عمره . . ولا أظن أن أحــداً كان له أى فضل علينا بعد الله ، وأمى ، إلا هو . . ولكن . . ماذا يمكن أن يفعل أى صبى فى مثل ســنه أمــام المســئولية الكبيرة التى كانت ملقــاة على عاتقه ؟ . .

كانت تلك المســـئولية أكبر منه بكثير ، وكان طبيعيا أن تكســـد التجارة ، وأن يفلس محل البقالة . . !

وكان هذا يعنى أن نحرم من مصدر الرزق الأساسى الذى كنا نعتمد عليه فى حياتنا ، بحيث لم يتبق لنا سوى أربعــة جنيهــات ، كانت والدتى تحصل عليها كدخل شهرى من أرض كانت تمتلكها . . وكان هناك أيضا بعض الحلى ، والمصوغات الذهبية ، التى ادخرتها أمـــى ، لتكون بمثابة الاحتياطى لنا فى مواجهة المحن . .

وكانت أمي تقوم بتربية الطيور ، وتعمل على تسمينها ، حتى توفر لنا طعامنا ، من البيض ، واللحوم ، دون أن ترهق دخلنا المحدود ، وكانت تبيع ما يزيد عن حاجتنا من الطيور والبيض . . لتغطى بعض التزاماتنا الاخرى . . وانكر . . أنه كانت عندنا « معزة » كنا ننظر إليها على أنها أحد أفراد أسرتنا الكبيرة . . فقد كنا نطلق عليها اسم . . « عيده » . . وكانت هذه « المعزة » توفر لنا بعض مصادر غذائنا التى كانت أمي تصر على أن تكون دائماً فى متناول أيدينا . .

كانت أمي تحتفظ بفضلات أكلنا لتقدمه كغذاء لمعزتنا ولطيورنا . . وشيء آخر . . قامت أمى ببناء فرن فى بيتنا ، حتى تخبز فيه بنفسها الخبز الطازج . .

كانت تريد أن توفر لنا ثمن الخبز الذى كان علينا أن نشتريه من السوق . . إن هذا الفرن كان أحد معالم بيتنا المتواضع . .

وكان أخوالى ميسورى الحال ، بحيث كان فى وسع أى واحد منهم أن يعفى أمي من معركة الحياة التى كانت تخوضها من أجلنا ، إلا أن أمي « رحمها الله » فضلت السير فى الطريق الصعب الذى تحفظ به كرامتها وكرامتنا ، دون أن يكون لأحد تأثير علينا إلا ما تفرضه صلة الرحم ، بالرغم من أن أخوالى لم يبخل أحد منهم علينا بشيء . .

ومرت الأيام إلى أن تدهورت حالتنا المادية بعد أن كسدت التجارة ، وافلس محل البقالة . . ولم تكن مصادر دخلنا الأخرى كافية لتغطية احتياجاتنا ، ووجدت والدتى « رحمها الله » الحل عندما قررت البحث عن وظيفة لشقيقى محمد ، وساعدنا أحد الأقارب فى إيجاد عمل له فى بنك التسليف الزراعى بالاسماعيلية مقابل ثلاثة جنيهات فى الشهر ، وكان تعيين محمد فتحاً كبيراً لنا . .

قبلت أمي الجنيهات الثلاثة ورفضت كل مغريات الجيش البريطانى بفطرتها الوطنية . .

وفتح شقيقى محمد بيتنا الذى حرصت أمي على أن يظل مفتوحا إلى أن شاء الله وأصبح هذا البيت يتسع لأسر الخمسة والخمسين ألف

عامل . . هى أسر أبنائى من العاملين فى أسرة المقاولون العرب الكبيرة . .

* * *

علمتنى امى الحياة :

وكانت امى « رحمهما الله » سيدة أمية . . أى انهما لم تكن تقرأ ولا تكتب ، ولكنها كانت فى نفس الوقت تحفظ عدداً كبيراً من آيات القرآن الكريم ، والكثير من الأحاديث النبوية الشريفة ، كما كانت على دراية بأصول الدين وتعاليمه . .

كانت شديدة الايمان بربها ، وكانت تؤدى فرائض الصلاة فى أوقاتها ، وكان من عاداتها أن تستيقظ مبكرة لتؤدى صلاة الفجر فى حينها ، ثم تجلس فى خشوع لترتل آيات من القرآن الكريم . . ثم تقوم بعد ذلك بمزاولة نشاطها اليومى . .

كان هذا المشهد يتكرر فى بيتنا كل صباح ، وكان سببا فى أن نستيقظ معها مبكرين . . وأنا نفسى ورثت عادة الاستيقاظ مبكراً عن والدتى ، وكان لهذه العادة الحميدة فضل كبير على حياتى . .

وكانت والدتى ، تعلمنا الوضوء والصلاة . . لقد أرادت أن تبث فينا قيم الدين ، ومكارم الأخلاق . .

صحيح كانت « رحمها الله » أمية ، ولكن خصها الله سبحانه وتعالى برجاحة العقل . . وقوة اليقين .

ولا يسعنى إلا أن أقول . . ان امى كانت بالنسبة لنا درع الوقاية ، والسياج الذى حمانا مما كان يمكن أن يعترض طريق حياتنا . .

وكان أن علمتنا الكثير . .

احتضنتنا ، ولم تفرط فينا . . فعلمتنا الحب . .

ووضعت حياتها تحت أقدامنا . . فعلمتنا التضحية .

ولم تحن رأسها لأحد ، كما أنها لم تمد يدها إلا لله سبحانه وتعالى . . فغرست فينا عزة النفس . .

وأصرت على أن يترك شقيقى محمد المدرسة ليعمل ، فعلمتنا أن العمل هو الطريق الوحيد الشريف الذى لا يصح أن ننظر لغيره كمصدر للرزق . .

وتحملت وكابدت الحياة فى جلد فعلمتنا الصبر .

ورأت نفسها فينا فعلمتنا إنكار الذات .

وقادت سفينة حياتنا دون أن تشرك معها أحداً فى أمرنا فعلمتنا تحمل المسئولية .

ولم تضعف ، ولم يهن عزمها . فعلمتنا العزيمة والتصدى والصلابة .

وخشعت لربها . فعلمتنا الايمان ومع الايمان تعلمنا الأمانة . .

وعرفت كيف توائم احتياجاتنا المتعددة مع مواردنا التى كانت محدودة . فعلمتنا كيف نتصرف . .

وحرصت علينا فعلمتنا الحرص .

وهكذا أصرت أمى « رحمها الله » على أن تغرس فينا كل هذه القيم وغيرها ، وصدق شاعرنا الكبير حافظ ابراهيم عندما قال :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

كلمات قالها شاعر ، ولكنها بالنسبة لى كانت حياتى التى عشتها ، وكانت تجربة طفولتى وشبابى .

إن الأم هى الأساس ، والبيت هو المدرسة الأولى فى المجتمع .

ولا أريد أن أقول . إن كل ما رسخ فى ذهنى وجرى فى عروقى مع دمى ، وأصبح جزءا من تكوينى ، كان لأمى « رحمها الله » الفضل الأول فى غرس بذرته الأولى فى أعماقى ، منذ بداية سنوات حياتى .

لقد ارتبطت بنا ، وربطتنا ببعضنا ، فعلمتنا روح الجماعة .

كما علمتنا أن نجد ، وأن نسعى ، دون أن نحمل كراهية لأحد ، فخلت قلوبنا من الحسد أو الحقد على الآخرين . .

فى هذا الجو نشأت .

أم تعلمنا « رحمها الله » معنى الوفاء . . وشقيق وقف إلى جـوارها يتلقى معها ضربات الحياة المرة ، دون أن يمكنها مـن أن تلحـق بنا أى ضرر . عندما يرضى بترك مدرسته ، راضيا بما تيسر له مـن تعليم ، حتى يكافح من أجل أن يرى نفسه فى أشقائه . . منتهى التضحية ، وقمة إنكار الذات ، وأعظم العطاء .

فى هذا الجو نشأت .

لا أقصد معاناة حياة أسرتنا بما أثقـل عاتقهـا مـن مسـئوليات وتبعات ، ولكنى أعنى جو الترابط الأسرى فى أحلى وأجمل صوره . .

هذا الجو الذى حرصت على أن يكون الأسـاس الأول الذى تقـوم عليه « المقاولون العرب » . .

إنه فى رأيى مجتمع الحـب الأول ، الذى تربيت فيه ، وانعـكست كل ظلاله على حياتى ، علميا ، وواقعيا . . إنها طفولتى التى مـا زلت أقـف طويلا لأتأملها ، وأتأمل أيامها . . كيف جرت أحداثها ؟ . . وكيف مـرت مرارتها ؟ . . وكيف أصبح أحلى ما أنا فيه الآن ، هو ثمـار لما كنت عليه من طفولة علمتنى كيف أواجه العواصف بشجاعة وبصدر رحب . . إنها طفولتى التى تعلمت فيها الكثير . .

إننى كلما عدت بذاكرتى إلى تلك الفترة الحـافلة مـن حياتى ، أرى أنها قد شكلت شخصيتى وأعطتنى عودا صلبا ، وعنادا هائلا ، ومـرونة لا حدود لها ، وتصميما لا يلين ، وكان على بكل هذه العـوامل أن أحقـق النجاح فى حياتى ، وأن أدرك الهدف الكبير الذى لم يكن بالنسبة لى أكثر من خيال . .

وفى رأيى أن إدراكى لذلك الهدف ، لم يكن مجرد صدفة ، وإنمـا كان خلاصة تفاعلات ومواقف كثيرة ، تشابكت ، فشكلت كل هـذا النسـيج المتناسق المتين . .

عثمان .. ايده خضره :

كان يحيط بباقى مساحة بيتنا سور فى مستوى حوائط الحجـرات وكانت هذه المساحة عبارة عن « حوش » مساحته نصف مساحة البيت ، الذى لم تكن مساحته تتجاوز ٢٥٠ مترا مربعا . .

وكلما تذكرت هـذا « الحـوش » عدت بذاكرتى إلى قصـة زرعت فى وجدانى التفاؤل وأنا طفل صغير . . لقد كبر معى هذا التفاؤل ، وأصـبح أحد معالم شخصيتى . . رغم كل ما صادفنى مـن عقبات . . وارتبطـت بتلك القصة عبارة « عثمان . . ايده خضرة » . . التى أطلقتها على أمى . . وكم كانت مصدر سعادة لها . . ولى .

بل إن هذا التعبير التلقائى البسيط ، ملأ قلبى بشحنات دافقة مـن الشعور بالأمل والتفاؤل ، احسب اننى ـ باحسـاس صـادق ـ عشـت متأثرا بها فى كل ما اقـدمت عليه مـن أعمـال ، وتغلبت بهـا على كل ما صادفنى من مشاكل أو عقبات ، .

كانت ظـروفنا صـعبة ، وكانت أمـى مشـغولة بتوفير متطلبات معيشتنا . .

واذكر اننى وقفت مرة أمام « حوش بيتنا » وأخذت اتساءل :

لماذا لا نستفيد من مساحة هذا الحوش فيما هو اهم من كونه أرضا خالية ؟ . .

ولماذا نكتفى بشجرتى القشدة والجوافة ، المزروعتين دون أن نجرب زراعات أخرى . .

وقلت لنفسى :

اليست أرضه صالحة للزراعة كأى أرض ؟ . . ولماذا لا نقوم بزراعته ببعض أنواع المزروعات من فاكهة وخضراوات أخرى ؟ . .

كانت تساؤلات غريبة فى تلك الوقـت ، ولكن لم انتظـر وبادرت على الفور ، بالبحث لها عن إجابات شافية . .

وبسرعة أخذت فى تنفيذ مـا فـكرت فيه ، كنت أريد أن أكون عمليا ،

وأن أبادر بتنفيذ كل ما يخطر على بالى من أفـكار مـا دامـت صـالحة للتنفيذ . . وقد لازمتنى هذه العادة حتى الآن . .

وكان أن بدأت أجرب بنفسى ، وأن أجمع المعلومات من الفـلاحين ، لكى أتعلم منهم كل شيء ، عن الحرث والرى والغرس والزراعة . .

وكان على أن أقوم بتجربة ما عرفته عن زراعة الأرض وخـدمتها ، وكان أن قمت بتسوية الحوش ، وبعد أن حرثته قمـت ببذر الحـب فيه ، وأخذت فى مراقبة إنباته ، وتعهدته بالرعاية إلى أن أعطـى ثمـاره مـن الفواكه ومن الخضراوات ، وأعطى أيضا ثماراً من مختلف المزروعات . . وسدت هذه الثمار حاجتنا ، فلم نحرم من أن نأكلها كغيرنا من الأطفال ، دون أن يتكبد دخلنا المتواضع عبء شرائها من الأسواق . . وكان لمعزتنا وطيورنا نصيب فيما كانت تغله أرض الحوش من إنتاج . .

واقـول بصراحـة لم تدفعنى الحـاجة وحـدها إلى زراعة أرض « الحوش » ولكن حب الاستطلاع دفعنى أيضا إلى ذلك . .

وكم كنت أشعر بالسعادة عندما كنت أرى الثمار الحقيقية فى متناول يدى ، وشجعنى نجـاحى على أن أسـتمر فى مـزاولتى هـواية زراعة الأرض ، التى أعتبرها أولى مهامى فى خدمة بلادى فى وقتنا الحاضر . . وعلمتنى هذه التجربة ، كيف يمكن أن يكون الانسان منتجا . .

وأعترف . . لقد تعلمت من تجـربتى المحـدودة ، التى مـارستها فى « حـوش » بيتنا ، الكثير ، ممـا أعتبره بداية طيبة لمعـالم تجـربتى الواسعة . .

تعلمت الكثير . . تعلمت الايمان بالله ، والخشوع لقدرته . . فعندمـا كنت أزرع الأرض ليخرج من بطنهـا الزرع ، كان يزرع فى قلبى ، ويثبت فى وجدانى وعقلى ، عظمة الخالق ، صـاحب الكون وحـده . . سـبحان القادر ، الذى يخرج من بطن الأرض هذا الرزق . .

وتعلمت . . أنه من جد وجد ، ومن زرع حصد . . وتعلمـت أن الرزق لا يسعى إلى الانسان ، ولكن كما قال الله سبحانه وتعالى :

« فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه » . .

وعلمتنى متابعة عملية الزراعة مــن بدايتهــا إلى نهــايتها ، المعنى الكبير للصبر . . فالصبر نصف الايمــان . . وإلى جــانب انه طيب فهــو جميل . . وقال عنه سبحانه وتعالى : « وبشر الصابرين »

وكنت احس هذا الاحساس ، بوعى فطرى ، حين كنت أرقب ظهــور النبتة ، واستواء الساق وتفتح الزهــرة ، ونضــوج الثمــرة ، وانفــلاق النواة . . إلخ ، وسبحان فالق الحب والنوى ، القادر على كل شيء ، فــكم علمتنى هذه التجربة ، وكم وطدت صلتى بالله وكشفت لخواطرى معــانى كنت أعجز عن فهمها لو لم اقــم بتجــربتها بنفسى ، كمــا أوضــحت لى تساؤلاتى ، كتلك التى تتردد فى صدر كل طفل يستقبل حياته ، بما تجيش به خواطره من أمور ، لا يستطيع أن يعيهــا ، أو يجــد الاجــابة عليهــا إلا بتجربة كتجربتى تلك ، أو ما يشبهها فى اى مجال من مجــالات الخلق والابداع . .

وكانت والدتى « رحمهــا الله » تداعبنى ، عندمــا وجــدتنى أزرع الأرض ، وهى تقول : عثمان . . إيده خضره . .

وقد لازمت هذه العبارة حياتى ، اثرت فى ، وتأثرت بها واظنهــا الآن طرفا لخيط التجربة الكبيرة التى أخوضها الآن مــن أجــل أن نزرع كل شبر فى أرض مصر . .

* * *

ذكريات يوم الخبيز :

ويحلو لى بين الحين والآخر . . أن ارجع بذكرياتى الى الوراء لأرى بداية طريق مشوار الستين عاما التى خلت من عمرى . .

أعود بتلك الذكريات القديمة الى بيتنا الذى ولدت فيه فى يوم ٦ أبريل سنة ١٩١٧ ، فى حارة عبد العزيز ، المتفرعة من شارع مكة ، بحى العرب بالاسماعيلية . .

كان يتكون من طــابق واحــد ، مبنى بالدبش والطين ، وكان ســقفه عبارة عن « تعريشة » مــن الخشــب والعــروق والجــريد ، ولا يزيد عدد حجراته على حجرتين . . حجرة لخزين البيت ، كما هى العــادة فى بيوت

البسطاء من أبناء شعبنا الطيب ، وحجرة للنوم ، لتحضننا جدرانها ، أنا وأمي وإخوتي ، فوق حصير ، كنا ننام عليه جميعا فـوق الأرض . . فلم يكن عندنا دولاب ، أو سرير . .

وكان يوجد في أحـد أركان البيت « عشــة » الطيور ، وفي ركن آخـر « تعريشة الفرن » التي كانت تعد لنا أمي فيها الخبز مرة كل أسبوع . .

إنني أعود بذاكرتي إلى . . طبق « الفـــول المدمس » الذي كنا نلتف حوله جميعا كل صباح في أحد أركان البيت ، ونتنافس أنا وأشقائي على التهامه . . ولكن كانت هناك وجبة أخرى . . هي أشهى وجبات حياتي . .

كانت أمي تخبز كل يوم خميس ، وكنت أنتظر هذا اليوم على أحـر من الجمر ، وبمجرد أن يدق جرس المدرسة معلنا إنتهاء اليوم الدراسي ، كنت أطلق العنان لسـاقي حتى لا يفـوتني مـوعد كل خميس ، أو « كل خبيز » . .

كان هذا الموعد الأسبوعي مع رغيف خارج لتوه من الفرن ، ساخن ، طازج ، كنت أفتح قلبه ، وأضع فيه عدداً من البيضـات التي كانت أمـي تحتفظ بها خصيصا لهذه المناسـبة ، ثم أقفله وأعيده إلى الفـرن مـرة أخرى ، حتى يستكمل نضجه ، وينضج البيض الذي بداخله ، وأنفـرد به لأتلذذ بأشهى وجبة أحببتها في حياتي . . ما زلت أتذكرها ، وأتوق إليها ، وأتمنى لو كانت تتكرر مرة أخرى . .

وكم تمنيتها واشتقت لها لألتهمهـا وألتهـم معهـا ذكرياتي في أيام طفولتي . . ولكن أين هي ؟ . . أين أمـي . . التي كانت تمـد إلى يديهـا وكأنها تضم كل أماني دنياهـا وحياتهـا ، لكي أتلقـف منهـا الرغيف « السخن » . . لكنها أيام . . وقد مضت بخيرها . . وحلوها . . ومـرها . . ولم تعد إلا ذكرى . . ولكن مع الذكرى أقف . . أقف عند كل ما يمـكن أن تضيفه إلى تجربتي من خبرات .

ولكننى ابكيت أمى ايضا :

وإذا كانت عبارة « عثمان . . إيده خضره » مصدر سعادة لأمى ، إلا إن هناك ، عبارة أخرى طالما ابكتها ، وأزعجتها ، وهى « عثمان هو اللى عمل كده » . .

وكانت العبارة تزعج أمى وتبكيها فى تلك الايام ، دون أن تعرف أن ما يبكيها هو معالم ظهرت مبكرة مع تكوين شخصية ولدها . . وأنا نفسى لم اكن أعرف أن ما كنت افعله ، بتلقائية شديدة ، هو تعبير عن موهبة القدرة على التنظيم والترتيب ، وهو ما أعتبره الآن من أهم الأسس التى قامت عليها ، وكبرت بها شركة « المقاولون العرب » .

لم أكن أعرف فى تلك الوقت أن ما أفعله ، كان ترجمة أمينة لم أفهمها لما يمكن تسميته الثقة بالنفس . . وتعبيراً عما نسميه الآن المغامرة المحسوبة . .

واعود بذاكرتى إلى تلك الايام عندما كنت أصغر زملائى فى المدرسة سنا ، وعندما كنت أجد فسحة من الوقت الذى كنت أكرسه لرعاية زراعتى واستيعاب دروسى . . لألتقى مع زملائى فى المدرسة لكى نلعب . . وأتذكر أنهم كانوا يفسحون لى مجال القيادة بينهم ، وكانوا يستجيبون دائما إلى كل ما كنت أطرحه عليهم من اقتراحات ، أو افكار ، أطلب منهم تنفيذها ، دون فرض منى ، ولكن بكامل الرغبة منهم . .

فى تلك الأيام لم أكن قد تجاوزت العاشرة من عمرى ، وكان تمثال الجندى المجهول على قناة السويس ، يقع على مسافة حوالى ٦ كيلو مترات من مدينة الاسماعيلية ، وكانت لى عادة أن أحرض هؤلاء الأصدقاء على الذهاب إلى هناك حيث كنا نقيم معسكراً ، يمتد من مشرق الشمس حتى مغربها . .

وكنت وحدى الذى يقوم بتنظيم العمل بينهم ، كما كنت اقوم بتوزيع الأدوار عليهم ، وأطلب من كل منهم أن يحضر من منزله أحد أصناف الطعام ، وبذلك كنا نضمن لكل واحد منا وجبة شهية أثناء المعسكر . .

واذكر اننى كنت اطلب إليهم الا يبوح اى واحد منا بسر ماكنا نفعله ، حتى لا يتسرب الخبر إلى آبائنا وأمهاتنا حتى لا يحرمونا ، مما كنا نعتزم القيام به . .

وكان لهذه التجربة فضل كبير على حياتى ، فقد تعلمت منها الاحتفاظ بالسر ، وكان لهذه العادة الطيبة أثر كبير على حياتى العملية فيما بعد ، خاصة أن مجال المقاولات الذى يعتمد على نظام العطاءات ، يتطلب الكتمان الشديد فى العمل . .

وأثناء هذه الرحلات ، كنت اقوم أنا بدور القيادة أيضا . . كما كنت اقوم بتنظيم شئونها . .

واذكر اننى كنت اقترح عليهم . . أنه بدلا من أن يستأجر كل منا دراجة ، يشترك كل اثنين فى دراجة واحدة ، وبذلك نجحت فى تخفيض نفقات استئجار الدراجات إلى النصف . . وشىء آخر أيضا : كنت أطلب اليهم الا يحملوا معهم اى أطعمة ، من منازلهم ، إلا الخبز وحده . .

وكانت تعليماتى أن يحمل كل منا « سنارة » لكى نقوم باصطياد السمك ، الذى كنا نحتفظ ببعضه لغذائنا ، والباقى لنشترى بثمنه ما يلزمنا من مستلزمات طعامنا ، من خضراوات أو بطيخ أو شمام ، من الفلاحين الموجودين فى المنطقة ، فقد كانوا يأخذون السمك مقابل ما كنا نحتاج إليه من طعام .

إن كل ما كنت افعله ، كان مصدر سعادتهم ، إلا انه كان فى نفس الوقت مصدر نكد أهاليهم ، عندما كانوا يبحثون عن أطفالهم ، وأولادهم ، فلا يجدونهم . .

وكان طبيعيا أن ينشغل الأهالى بالبحث عنهم ، حتى يعرفوا أنهم كانوا برفقتى ، فيظلون على أعصابهم ، إلى أن يعودوا إليهم . .

وهكذا كنت دائما موضع اتهام اهالى أصدقائى . .

كانوا يقولون اننى المسئول عن إغراء ابنائهم ، بالذهاب إلى هذه الرحلات . . وكان عثمان دائماً فى نظرهم « هو اللى عمل كده » . .

وكانت تلك الاتهامات تزعج أمى كثيرا ، وطالما أبكتها وأبكتنى معها عندما كانت تحنرنى ، وهى تطلب منى الا أعود مرة أخرى إلى مثل هذه الشقاوة . . ولكننى كنت عنيداً ، ولذلك لم أرجع يوما عمـــا كان يراودنى من أفكار . . من يومها وحتى الآن . .

وكان لنجاحنا فى تحقيق مثل هذه الرحلات وغيرهـــا ، مـــا عزز لدينا الايمان بأن اقتحام العقبات والتصدى لما يعترضنا من مشاكل ، والتغلب عليها ممكن دائما بالتعاون والأناة فى التفكير ، وحشـــد الجهـــد بخـــطة مدروسة ، لبلوغ الغاية التى نسعى إلى تحقيقها .

* * *

وحالت ظروف حياتنا التى أشرت إليها ، من أن يخصص لى أو لأى من إخوتى ، مصروف خاص ، على نحو ما تجرى به العـــادة بين الأسر ، بل لقد كان تدبيرنا جميعاً أن نستغنى بقدر المستطاع عن النقود . .

لكننى حين تجاوزت مرحلة الطفولة ، شعرت بين أقرانى وزملائى ، بالحاجة إلى مصروف جيب « شخصى » ولم يطرأ فى خاطرى ، ولو للحظة واحدة ، مجرد التفكير ، أو الرغبة فى التحدث بذلك إلى أمى . .

وذات يوم فوجئت أمى ، بالقطع المعدنية أو الفضية من النقود ، تملأ جيبى الصغير ، فسألتنى بدهشة عن مصدرها ، فطمأنتها باننى قـــررت العمـــل « صـــبى ميكانيكى » عند على اســـماعيل « الميكانيكى » لبضـــع ساعات قليلة من النهـــار بعـــد انتهـــاء يومـــى الدراسى ، ولم أكن ــ أول الأمر ــ أعلم عن الأجر الذى حدده لى ، شيئا ، إلا حينما وضع فى يدى فى نهاية اليوم الأخير مـــن أول أســـبوع عمـــل لديه ، مبفخمســـة وعشرين قرشاً ، أجرى عن عمل أسبوع . .

كانت فرحتى لا تقدر ، حين استوى شعورى من قبل ، على مفهـــوم « العمل » بعد أن تصديت « للعمل » فى زراعة حديقتنا الصغيرة ، لحساب نفسى ، وبعد أن جنيت ثمرة عملى ، وشاركت بها فى مســـاعدة أسرتى . . وكانت فرحتى بنفس القـــدر ، أو يزيد ، حين عملت عند « الغير » وجنيت من ثمار عملى بهذا الأجر الأسبوعى والذى لم يزد على خمسة وعشرين قرشاً . .

وكانت سعادتى بما حصلت عليه من « المال » وإن لم يتعد قروشا قليلة ، بمجهودى الذاتى لا يفوقها غير سعادتى بأنى وفرت على أمى طلب « المصروف الشخصى » ، ومشقة تدبيره لى . . والحرج الذى تصورت أنها ستشعر به عندما تعجز عن ذلك أو ترفضه . .

وكما سبق أن قلت كانت أمى هى التى زرعت فينا منذ البداية هذا الاتجاه ، عندما بحثت لشقيقى محمد عن وظيفة ، وزرعت فينا الايمان بأن العمل قيمة وعبادة ، وأنه ليس عيبا أن نعمل فى أى عمل مهما كان . . وأن العيب شىء آخر حرصت أمى على أن تبعدنا عنه . .

المهم . . كنت سعيداً بالأجر الذى كنت أتقاضاه كصبى ميكانيكى ، لأنه كان من نتيجة جهدى الذاتى ، وأنا فى تلك السن المبكرة ، دون أن أطلب مليما واحداً من والدتى ، كما كان يفعل كل من كان فى مثل سنى فى تلك الأيام . .

***

ولم تكن نظرة أمى محدودة ، فقد كانت تذهب بآمالها وأمانيها إلى ما وراء ما كنا نعيش فيه . .

كانت ترى النور من خلال الظلام ، فبينما كنا نعيش فى ظلمة الليل ، كانت هى تحيا بأفكارها فى نور الفجر ، فهى إذا كانت « رحمها الله » قد قررت أن يترك محمد المدرسة لكى يتحمل معها مسئولية إعاشة أسرتنا الكبيرة ، إلا أنها كانت تعمل على أن يسلك باقى أولادها طريق التعليم حتى النهاية . .

وكان أن تمنت دائما أن يتم المرحوم الدكتور إبراهيم عثمان دراسته ليصبح مهندسا . . وكانت تريد أن أصبح طبيبا ، وأن يصبح المهندس حسين عثمان محاميا . .

وكانت بالرغم من قسوة الأيام تزرع فينا الأمل ، وترويه بالثقة بالنفس ، وتفرش لنا الأرض بسماد الطموح . . وكان حرصها شديداً على أن توفر لكل واحد منا الجو المناسب لكى ينمو ويكبر ، ليتحقق حلمها فينا . .

واعود بذاكرتي إلى تلك الأيام لأتساءل . . ما كان أحوج أمي « رحمها الله » أن تجعلنا نسلك طريق شقيقي محمد ، وهل كان ممكنا أن يلومها أحد إذا ما كانت قد فعلت ذلك ؟ . . وهل كان ممكنا أن نلومها عندما نكبر ، لأنها فعلت ما كانت تستطيعه ؟ . .

وأرد على ذلك بقولي : بالتأكيد كنا لن نلومها ، لأنها لم تفعل غير ما كان في وسعها ، ولو استطاعت لفعلت . . ولكنها لم تركع أمام قسوة الحياة ، وركعت لله وحده ، فزادها صموداً . . كما أنها لم تستسلم لمغريات الجيش البريطاني في المنطقة ، ولم تقع فريسة في شباكه . .

ففي تلك الأيام كانت سياسة المستعمر البريطاني تعمل على إبعاد تفكير أبناء الاسماعيلية عن التعليم ، وكان أن أخذت القيادة البريطانية في الاغداق على كل من يعمل في معسكراتها بالمرتبات والأجور الكبيرة ، وكانت شركة قناة السويس تفعل نفس الشيء . .

ولا أظن أن أي شاب قارب سنه الستة عشر عاما ، قد وجد صعوبة في تلك الأيام في الحصول على عمل ، يدر عليه دخلا يتراوح ما بين العشرين والثلاثين جنيها في الشهر ، إذا ما أراد أن يعمل لدى معسكرات الجيش لبريطاني أو في شركة قناة السويس . .

كان يحدث ذلك في الوقت الذي لم يكن خريج كليات الجامعة ، وكلية الهندسة بالذات يحصل على أكثر من اثنى عشر جنيها في الشهر . .

ولا أريد أن أقول إن شدة جذب هذه السياسة لأبناء الاسماعيلية كانت تؤدي إلى إغلاق المدرسة الابتدائية الوحيدة التي كانت بالمدينة ، فقد أخذ عدد التلاميذ يتناقص فيها إلى أن أصبح عددهم ثمانين تلميذا فقط ، مما دفع وزارة المعارف العمومية في تلك الأيام ، وهو الاسم الذي كانوا يطلقونه على وزارة التربية والتعليم ، إلى أن ترسل إنذارا إلى ناظر المدرسة ، تقول له فيه . . إنها ستضطر إلى إغلاق المدرسة في حالة الاستمرار في تناقص عدد تلاميذ مدرسته . .

إنها مدرستي الابتدائية ، وكانت لي فيها قصة أثرت على مجرى حياتي كلها . .

وانكر أننى التقيت لأول مرة ، فى هذه المدرسة ، بأستاذى المرحـوم الشيخ حسن البنا ، وكانت لى مع الرجـل « رحمـه الله » ومـع جمـاعة الاخوان المسلمين قصة طـويلة ، عندمـا كنت تلميذاً صـغيراً فى هـذه المدرسة . .

وكثيراً ما يجول بخاطرى سؤال :

كيف ادركت امى الأمية أهمية استمرارنا فى التعليم ؟ . .

ترى لو انها لم تصر على تعليمنا ، ولو انها استسلمت لكل الظروف التى كانت تحيط بها . . ترى أين كنا الآن ؟ . . وماذا كنا سنفعل ؟ . .

إن كل هذه الأسئلة ظلت تراود خاطرى ، ولم أجد لها جواباً شـافياً سوى أن ادعو لامى بالرحمة وان أقول : الحمد لله . .

واعود إلى تلك الأيام . . إلى أيام التلمذة . .

كان على كل واحـد منا أن يقـوم بدور حتى لا نترك أمنا تصـارع الحياة وحدها . .

وكان دورنا أن نكون تلاميذ متفـوقين فى دراسـتنا وكان علينا أن نحصل دائماً على درجات لا تقل عن ٧٥٪ حتى نتمتع بحقنا فى مجـانية التعليم . . وبالتالى . . نعفى أمنا من التفكير فى هم تدبير مصروفـاتنا فى المدارس . .

وضحت أمـى بقـطعة الأرض التى كانت تمتلكهـا وبحليهـا ومصوغاتها . . باعت كل شىء حتى تواجه متطلبات حياتنا ، ولتصـمد فى مواجهة التحديات . .

إن أمى بتقديرها لمسئوليتها ، وببعد نظرها ، وبتمسكها وإصرارها على تحقيق الغاية التى رسمتها لنا ، وقفت صـامدة دون هـذا الاغراء ، لترفع ــ وهى الأمية ــ امام أعيننا راية العلم وتمجده لنا ، ولتجعـل منه قبلة حياتنا وشبابنا ، ومستقبلنا . .

وحدث مرة أن رق قلب أحد أشقائها عليها ، قال لهـا : « إن العمـل

ثقيل » ، ثم اقترح عليها أن أكتفى أنا بالحصول على شهادة البكالوريا ، وعرض أن يقوم بنفسه بالبحث لى عن عمل يدر علينا دخلا يضـــاف إلى دخل أسرتنا المحــدود ، ورفضــت أمـــى هـــذا الاقتراح باصرار ، وكان انفعالها شديداً ، لأنه حاول أن يفاتحها فى أمر يتعلق بمستقبل أولادها ، وقالت له : أنا لم أطلب منك شـيئا ، كمــا اننى لم اشــك إليك ظـروفى ، وحاول خالى إقناعها برأيه ولكنها قاطعته وهى تقول له :

اتركنى وشأنى ، فأنا التى ارسم مســتقبل أولادى ، وعندمـــا أجــد نفسى مضطرة للأخذ بهذه الفكرة ، ســأعمل بهـــا مـــن تلقـــاء نفسى دون مشورة من أحد ، إننى أسأل نفسى كلما تذكرت هذه المناقشة وأنا أقول :

ترى لو كانت أمى قد استجابت لاقتراح خالى ، فماذا كان شأنى أنا الآن ؟ . . وأين كنت ؟ . . ومرة أخرى لا أســتطيع إلا أن اقــول : الحمــد لله . .

وذهبت إلى المدرسة السعيدية :

المهم . . بعد حصولى على الشهادة الابتدائية من الاسماعيلية رحلت إلى القاهرة وكانت أول مرة أغترب فيها عن الاسماعيلية وكنت صبيا فى الثالثة عشرة من عمرى ، أفـــارق لأول مـــرة فى حياتى ، أمـــى ، وأهلى ، وإخوتى ، وبلدى ، التى كانت حدودها ، هى آفاق أحــلامى ، والآمـــى ، وأمالى . .

ولم تكن المرحلة الابتدائية ، كما هـــى عليه الآن لأنهـــا كانت المرحلة التى تؤهل الطالب ، للدراســـة الثانوية مباشرة ، كانت تعـــادل مـــرحلة الاعدادية ، حاليا . .

ولم يكن بالاسماعيلية فى ذلك الوقت ، مـــدرسة ثانوية . . ولذلك كان لابد للصبى فى سن الثالثة عشرة ،أن يرحل إلى القاهرة ليواصل دراسته الثانوية بها .

وهكذا ، وبفضل تفوقى فى النجاح فى الشهادة الابتدائية ، تمكنت من الالتحاق بالمدرسة السعيدية بل وبالقسم الداخلى بالمدرســـة الســـعيدية الثانوية . .

وفى هذه المدرسة التقيت بواحد من زملائى . . صعيدى من قنا ، اسمه أنور عبد الفتاح أبو سحلى ، الذى يشغل الآن منصب وزير العدل . .

وكانت لى معه قصة مثيرة ، تنبأت فيها بشركة المقاولون العرب ، عندما كنت طالباً فى بداية دراسة علوم الهندسة . . بعد أن حصلت فى سنة ١٩٣٥ على شهادة البكالوريا .

***

فى الهندسة :

لا أعرف . . هل حياة كل الناس مجموعة من القصص والحكايات . . أم أن حياتى قدر لها أن تكون كذلك . .

وتستوقفنى هنا قصة دخولى كلية الهندسة . .

انها قصة طويلة : خرجت منها لأول مرة بأزمة تخطيتها . . والحمد لله لم تترك فى نفسى عقدة . . كانت أول مرة أجد فيها نفسى وواقعى وجها لوجه ، فماذا حدث ؟ . .

كانت أمى تريدنى أن ادخل كلية الطب ، لأصبح طبيبا . .

ولم يكن فى وسع أى منا انا أو إخوتى أن يرفض لها طلبا ، أو أن يعصى لها أمراً . . لم يكن ذلك بسبب ضعف فينا ، أو تسلط منها علينا ، ولكن تقديرا منا لدورها معنا ، ولما كانت تفعله من أجلنا وقبل ذلك كله . . وفاء منا لها . .

كانت أول من علمنى الوفاء الذى أصبح جزءاً من تكوينى ، واخذ يجرى فى شرايينى واختلط فيها مع دمى وكيانى . .

وكما اقول دائما . . إن الحب والوفاء وجهان لعملة واحدة . . وإنه بدونهما أو بدون أى منهما يفقد الانسان العديد من أسلحته وهو بصدد معركة الحياة . .

وكان أن طبقت فى حياتى ، ما رضعته فى طفولتى . .

وكان فضل الله علىّ عظيما . .

وأنكر أنه كان على فى تلك الأيام أن أكتب فى الاســــتمارة التى كنا نتقدم بها لامتحان البكالوريا اســـم الكلية التى كان كل واحـــد يرغب فى الالتحاق بها ، وكان أن كتبت فى استمارتى اسم كلية الطب ، على أنهـــا رغبتى ، تماما كما كانت تريد أمى ، وكان مجموعى والحمـــد لله يؤهلنى للالتحاق بها وتحولت أوراقى تلقائيا إلى هذه الكلية ، وحـــاولت خـــلال الفترة ما بين تقديم استمارة امتحان البكالوريا ، وظهور النتيجـــة إقناع أمى طالبا رضـاءهـا ، على أن ادخل كلية الهندسة بدلا مـــن كلية الطـــب ، واستعنت بأشقائى ، وأشقائها فى محاولاتى معهـــا ، ووافقـــت أمـــى فى النهاية ، وكانت فرحتى بمـــوافقتها أكبر مـــن فـــرحتى بالحصـــول على شهادة البكالوريا . .

وكان ذلك يعنى أن الباب أصبح مفتوحا أمـــامى لكى أحقـــق أمنية غالية ، ظلت تراودنى دائما ، ونذرت لها نفسى منذ طفولتى ، لا لأن أصبح مهندسا ، ولكن لكى أعمل بالمقاولات بعد تخرجى من كلية الهندسة .

ففى طفولتى ، كان إعجابى بخالى . . الشيخ محمـــد حســـين ، الذى كان يعمل بالمقاولات فى ذلك الوقت ، قد بلغ حـــداً جعلنى أتعلق بفـــكرى وخواطرى ، بكل حركة وبكل سكنة ، فى أعماله ، وكانت رؤيتى تتجسد فى الأعمال الكبرى التى يتولى انشاءها ، والتى جعلت من خالى فى نظرى ، صورة تصورتها لنفسى فى مستقبل أيامى وتحول الاعجـــاب إلى رغبة ، والرغبة ، إلى أمل ، والأمـــل إلى هـــدف شـــدنى إليه ، وســـيطر على كل تفكيرى ، إلى حد جعلنى أقارن فى تأملاتى بين الأعمال التى يقـــوم بهـــا خالى ، وبين الأعمال التى تنفذها الشركات الأجنبية الكبرى التى كانت تعمل فى منطقة القناة وأجهزتها الحديثة ، وارتسمت فى خيالى ــ من هذه المقارنة صورة المستقبل الذى أتخيله لنفسى ، والتمعـــت فى نفسى فـــكرة ، صغتها فى سؤال سألته لنفسى وكنت أدرك فى ذلك الوقـــت معنى الأمـــل ، وأميز بين الواقـــــع وبين الخيال ، وقلت « لماذا لا أكون مقـــــاولا مثل خالى » ؟ . .

ولذلك حددت لنفسى ، خط الســـير فى حياتى . . إلى كلية الهندســـة ، لا لكى أصبح مهندسا فقط ، ولكن لكى أصبح مقاولا متعلما . .

هكذا كانت أحلامى ، ولم يكن أمـــامى إلا أن أعمــل على الالتحـــاق بكلية الهندسة . . ولم أنتظر عندمـــا وافقـــت أمـــى ، وبادرت بالانطـــلاق والفرحة تملأ قلبى إلى كلية الطب حيث طلبت تحويل أوراقـــى إلى كلية الهندسة . .

شهادة فقر . .

وكانت فرحتى بدخول الهندسة ، لا تفوقها غير فرحتى بموافقة أمى عليها ، وتحقيق رغبتى دون أن أعصى لها أمرا . . وانطلقـــت بالفـــرحتين إلى آفاق أحلامى ودخلت كلية الهندسة ، ولكن . .

أنكر أن مسجل كلية الطب حاول إثنائى عن رغبتى . .

وكان أن حاول إغرائى بالاستمرار فى كليته ، ولكن دون جدوى . .

كان التحاقى بكلية الهندسة له أبعاد عندى لا يعرفها أحد غيرى . .

المهم . . سحبت أوراقـــى مـــن كلية الطـــب . . وحملتهـــا إلى كلية الهندسة . . وسألنى مسجل الكلية :

ـ أين المصروفات والرسوم المقررة ؟ . .

ـ كم ؟ . .

ـ أربعون جنيها

قلت له وأنا فى أشد حالات الدهشة :

ـ لماذا ؟

ـ إنها كذلك ؟

ـ ولكننى لم أتعود على مدى ســـنوات حياتى فى المدارس أن أدفـــع مثل هذه المصروفات . .

ونظر الى الرجل بدهشة أكبر وهو يقول :

ـ لماذا ؟ . .

ـ لأننى دائما من المتفوقين . .

قال وهو يقلب أوراقى :

ـ إن شرط التفوق هو الحصــول على ٧٥٪ كحـد أدنى مــن مجمــوع الدرجات .. أما أنت فمجموعك ٦٨٪ فقط .

ـ لم أحصل على هذا المجموع إلا هذه السنة فقط ، وأنا على اســتعداد أن أحضر لك الأوراق التى تثبت ذلك ..

ـ المهم عندى الحصول على مجموع التفوق هذا العام ..

ـ ولكننى لا أستطيع أن أدفع هذه المصروفات ..

ـ لماذا ؟ ..

ـ لأننى لا أملكها ولا أستطيع توفيرها ..

ـ هذا ليس من شأنى ..

ـ ألا يوجد حل آخر ؟

ـ شهادة فقر ..

ـ ألا يوجد بديل آخر ؟

ـ هى الحل الوحيد ..

ـ ما هى شهادة الفقر ؟

قال الرجل فى دهشة :

ـ ألا تعرف الفقر .. أريد شهادة تثبت أنك معدم ..

وسكت ولم أقل شيئا ، فقد كانت كلماته قاسية خاصة أنه قالها أمام مشهد من مجموعة من زمــلائى .. كانت أشــبه بطعنة خنجــر وجههــا مسجل الكلية إلى كبريائى .. كانت كطلقات الرصاص التى استقرت فى قلبى .. وأخذت أتطلع إلى وجه الرجل ، وكنت كمن يريد أن يقول له :

كيف لا أعرف الفقر ، وأنا أعيشه فى كل لحظة من لحظات حياتى ..

وتمالكت نفسى بسرعة وأنا أتساءل :

ماذا يمكن أن يفيد النقاش مع مثل ذلك الرجل !!

كانت الكلمات قد خرجت من شفتيه كما قلت ، وكأنها طلقات مــدفع رشاش أصاب بها قلبى ، فكاد أن يمزقه ..

كان يطلقها على مسمع ، ومشهد من زملاء تقدموا الى الجامعة ، و « المصروفات » تملأ أيديهم . . وأكثر منها ، كان يملأ جيوبهم . . وفى هذه اللحظات القاسية ، والمفارقة المؤلمة التى سمعتها وشهدتها فى هذه الواقعة ، تجسد لدى مدى الفوارق التى تحجز الناس ، بعضهم عن البعض ، وتفرق بينهم ، وتتحكم فى مصائرهم . .

ولم أنتظر ، وبادرت بالخروج من مكتب مسجل الكلية ، وأنا أقول لنفسى :

إنها كأس كلها مرارة ، وعلى أن أتجرعها ، حتى أدخل كلية الهندسة ، أو أن ألفظها فتتطاير كل آمالى وأحلامى فى الهواء . .

وكان على حتى أتجرع الكأس أن أبحث عن أى واحد ليدلنى وليساعدنى فى الحصول على شهادة الفقر التى اصبحت احد الشروط ، إن لم تكن الشرط الرئيسى لالتحاقى بكلية الهندسة . .

وسألت أكثر من واحد عن شهادة الفقر ، وقال لى أحدهم . . إنها عبارة عن طلب يكتب على عرضحال تمغة بصيغة معينة ، ويقوم بالتوقيع عليه شاهدان ، وبعد أن يصدق شيخ الحارة على توقيعهما ، ويعتمد مأمور قسم الشرطة التابع له هذه الشهادة تصبح بعد ذلك سارية المفعول . .

المهم ، أعددت شهادة الفقر المطلوبة ، ثم قمت بتقديمها إلى مسجل الكلية . . وأمسك الرجل بالشهادة ، وبعد أن قرأ صيغتها ، قام بمراجعتها للتأكد من استكمال إجراءات التصديق عليها ، وبعدها وافق على قبول أوراقى . .

صحيح . . إن المشكلة كانت قد انتهت ، ولكن ما حدث ، ظل فترة من الوقت يهز كيانى بعنف . . كأن إصرارنا على مصارعة الزمن ينسينا الواقع المر الذى كنا نعيش فيه . .

أدركت لأول مرة ماذا يعنى الفقر؟

إنهم لم يجدوا جملة يعبرون بها عن حالة الذين كانوا يعانون من ضيق ذات اليد مثلى سوى بشهادة أطلقوا عليها « شهادة فقر » . .

وحاولت أن أجد مبررا لهذه التسمية ، وكان أن قلت لنفسى :

إن هذه التسمية تمثل أبشع صور الفوارق بين الناس ، ويحتمل أن يكون لهم هدف من ورائها وهو أن ينكروا أمثالى بواقعهم المر . .

بقى اسم شهادة الفقر عالقا فى ذهنى ، وصحيح أن كل ما حققته من نجاح حتى الآن لم يستطع أن يمحو هذا الاسم من ذاكرتى ، إلا أننى أستطيع أن أقول . . إن طلب هذه الشهادة منى كان له فضل كبير على ما حققته من نجاح ، إن هذا الاسم أثار فى نفسى بركانا من التحدى ، والاصرار على تغيير الواقع ، المر ، الاليم ، من أجل الملايين من أبناء شعبنا الطيب على قدر ما أستطيع . .

إننى لم أعتبر شهادة الفقر بالرغم من كل ما سببته لى من آلام نفسية ، دعوة لليأس ، بقدر ما أخذت أنظر إليها باعتبارها مناجاة للأمل ، كان على أن أنتصر على الواقع الأليم لتحويله إلى طاقة هائلة تشق الظلام بهالة من النور ، وكان على أهم من ذلك أن أقاوم إصابتى بمرض الحقد المدمر ، فقد علمتنى أمى « رحمها الله » أن الحقد عادة ما يدمر صاحبه ، قبل أن يدمر الآخرين ، وأذكر فى هذه المناسبة قولا مأثورا سمعته من أمى مرة ، وهى تقول « غير . . ومتحسدش »

ولا أريد أن أقول أخذت على نفسى عهدا ، بما يسر الله لى من فضل أنعم به على ، أن لا أرد تلميذا أو طالبا يقصدنى ، لا أقول ذلك منا منى ، فقد كنت أعيش ظروفهم من قبلهم . . إنه سر بينى وبين كل منهم ، وليس فى وسعى أن أبوح به لأحد . . ولكننى أردت أن أقول لهم عندما يستطيع أحد منهم أن يفعل مثل هذا الأمر ، فلا ينبغى أن يتردد فى الاقدام عليه حتى ولو للحظة واحدة . .

إنها سعادتى التى أجدها عندما لا يتعرض أى واحد للموقف الذى تعرضت له عندما طلبوا منى شهادة فقر ، حتى سمحوا لى بدخول كلية الهندسة . .

* * *

عم حسنين الفراش والدراجة :

دخلت كلية الهندسة جامعة القاهرة . .

وجدت الحل لمشكلة السكن ، فقد كانت شقيقتى الكبرى ، متزوجة من فضيلة الشيخ على حسب الله ، وكان استاذاً بجامعة الأزهر الشريف فى ذلك الوقت ، وكانت تقيم فى شقة تحت الربع بباب الخلق ، وكان شقيقى المرحوم الدكتور ابراهيم عثمان طالباً فى كلية الهندسة ، وكان يقيم معها ، وبادرت بالانضمام إليه فى منزل شقيقتى ، إنها والدة الدكتور عبد المنعم حسب الله الأستاذ بطب القاهرة ومدير المستشفى التخصصى الحديث لشركة المقاولون العرب والمهندس صلاح حسب الله النائب الأول لرئيس مجلس إدارة شركة المقاولون العرب والمهندس سامح حسب الله عضو مجلس الادارة بالشركة ، وكما سبق أن قلت ، كنت اقيم بالقسم الداخلى بالمدرسة السعيدية بسبب تفوقى ، أما كلية الهندسة فلم تكن فيها اقسام داخلية ، كما لم يكن معروفا فى ذلك الوقت نظام المدن الجامعية التى يأوى إليها الطلبة المغتربون ، وفى بيت شقيقتى توفر لى الكثير من الأمور ، التى تتعقد عادة أمام غيرى من الطلبة الذين يقيمون بمفردهم بعيداً عن أسرهم ، لقد كانت شقيقتى تقوم باعداد ما أحتاج إليه ، من مأكل ، وملبس ، دون أن ترهقنى فى التفكير فى مثل هذه الأمور . .

وبقيت مشكلة المواصلات ، فقد كان على أن اقطع المسافة يومياً من باب الخلق بالقاهرة إلى مبنى كلية الهندسة بالجيزة سيراً على الأقدام مرتين كل يوم ، ولم يكن ذلك حباً منى لرياضة المشى التى أفضلها الآن ، ولكن بسبب ضيق ذات اليد وعدم استطاعتى دفع ثمن تنكرة الترام ، وكان على أن أجد حلا لهذه المشكلة ، أولا لطول المسافة مما كان يتسبب فى ضياع الوقت الذى أحتاجه فى استذكار دروسى ، وثانيا لأن المشوار من باب الخلق إلى الجيزة وبالعكس كان يمثل إرهاقا جسديا لا طاقة لى به ، وجاءت شقيقتى فى أحد الأيام لتضع فى يدى مائة وعشرين قرشا دفعة واحدة . .

قلت لها : ماذا تريدين منى أن افعل بهذا المبلغ ؟ . .

قالت : أريدك أن تستخرج به اشتراكا فى الترام ، بدلا من أن تدفع ثمن التذكرة مرتين كل يوم . .

وراودتنى فى تلك اللحظة فكرة ، بادرت بتنفيذها على الفور . .

سألت نفسى لماذا لا أشترى بهذا المبلغ ، دراجة بدلا من تجديد اشتراك الترام مرة كل ثلاثة اشهر ، وأن أدفع نفس المبلغ الذى قد يتكرر دفعه مرات ومرات أثناء سنوات الدراسة . .

وقلت لنفسى : إن الدراجة يمكن أن تستمر معى طوال سنوات الدراسة كما اننى اذا كنت قد وجدت قيمة اشتراك الترام هذه المرة ، فيحتمل كثيرا الا اجده فى المرات القادمة . . وأيضاً إذا كان فى استطاعة أختى أن تدفع كل مرة ، فلماذا احمله لها إذا كان هناك حل بديل . . واقتنعت بالفكرة ، واذكر اننى ذهبت أسأل عن ثمن الدراجة ، فوجدت أن ثمنها جنيهان ، ولم انتظر ، وبادرت بالسفر إلى الاسماعيلية وكان بها عم عثمان ابو ربع ، والحاج عبد القادر العجلاتى ، من أصحاب الورش التى تقوم ببيع وشراء وإصلاح الدراجات . . وذهبت إلى كل منهما لأسأله عن بعض مخلفات الدراجات التى أصبحت كهنة عنده ولا يقوم باستخدامها فى عمله ، وحصلت على مكونات دراجة ، وقد قمت بتجميع هذه المكونات بنفسى ، دون أن أستعين بأى واحد منهما ، حتى لا ادفع له مقابل . .

ونجحت فى صناعة دراجة . .

وكانت تجربة مثيرة لم تكلفنى أكثر من ستين قرشا .

وبقيت بعد ذلك مشكلة نقل هذه الدراجة إلى القاهرة ،

واذكر اننى قمت بعرض الأمر على كمسارى القطار الذى كان يعمل على خط السكة الحديد بين الاسماعيلية والقاهرة . . ووافق الرجل على أن اصطحب الدراجة معى فى القطار . . ووصلت إلى القاهرة ومعى دراجتى التى اخذت فى استخدامها فى قطع المسافة بين الكلية وباب الخلق . .

ولا أعرف . . لماذا أصبحت دراجتى هدفا يتطلع إليه « عم حسنين

الفـراش » بالكلية . . وكان رجـلا خفيف الدم والحـركة أيضـا ، حلو اللسان . . محبوبا من جميع الطلبة ، ولم يكن معى ما أقـدمه له سـوى مبادلته مشاعره الطيبة نحوى . . ولكن تطلعات الرجل لم تكن تقـف عند حد تبادل المشاعر ، كان القادرون يقدمون له البقشيش مـن وقـت إلى آخر . .

وكم كنت أتمنى أن أضـع يدى فى جيبى لأناوله بعض القـروش أو الملاليم كما كان يفعل زملائى . . ولكن من أين ؟ :

وكنت أقول لنفسى ربما « عم حسنين » قد أدرك هـذا الأمـر فـأجل مطالبته لى الى ما بعد التخرج من الكلية . . كما كنت أقول أيضا : يحتمل كثيراً أنه أراد أن يدخر مـا كان يمـكن أن أعطيه له على دفعـات كبقية زملائى ليتقاضاه دفعة واحدة ، المهم ان عم حسنين أبدى اهتماما كبيرا بدراجتى ، وفى إحدى المرات طلب منى أن أهديها له ، بعد حصـولى على البكالوريوس . . فوعدته بذلك .

جاءنى خبر حصولى على البكالوريوس وركبت دراجتى وذهبت إلى الكلية لأتأكد من النتيجة . . وكان عم حسنين أول من قابلنى ، وقال لى : وهو فى أشد اللهفة : مبروك عليك النجاح . . وابتسم ، فأدركت مـا كانت تعنيه ابتسامته ، فقد كان يذكرنى بالدراجة . . ولم أنتظر وبادرت أقـول له بسرعة : أنا عند وعدى !

ولو سئلت يومهـا ، عن أعز مـا أملك . . لقلت هـى الدراجـة التى صـنعتها بيدى . . ووهبت أعز مـا أملك . . إلى عم حسـنين . . وفـاء بوعدى . .

وسلمته الدراجة ، ولكننى فـوجئت بعـد أن تركته أنه ليس فى جيبى مليم واحد . . إننى لم أكن أمتلك حتى ثمـن تذكرة الترام ، تمـاما كأول يوم قدمت فيه إلى كلية الهندسة وهـكذا أعطيته الدراجـة كمـا وعدته ، وعدت ماشياً على قدمى لأبدأ قصة كفاح جديدة من أول الطريق . .

أكبر صدمة فى حياتى :

كنت أشـعر بأننى بدأت أضـع قـدمى على بداية الطـريق لتحقيق

ذاتي . . وكنت سعيدا بدراستي . وكنت أتمنى الا تكون فى حياتى احداث تعترض سيرى فى تلك الطريق ، كنت أتمنى أن تنتهى القصة فى هذه المرحلة بالدراجة ولكن حدث فجأة ما لم أكن اتوقعه عندما كنت فى السنة الأولى بكلية الهندسة وتلقيت فى تلك الأيام صدمة كادت أن تعصف بحياتى كلها كانت أول واكبر صدمة فى حياتى ، ماتت امي .

ولم يكن فى وسعى أن أتحمل الخبر . .

رأيت الدنيا سوداء مظلمة ، وليس فيها حتى ضوء عود ثقاب . .

وبعدها عشت أسبوعا كاملا كالتائه ، ولم يكن هناك ما يسيطر على فكرى الا أن كل شيء قد انتهى .

كان خبر وفاتها كالزلزال هز كل كيانى . . لأن الارتباط الذى توثق بيننا وبينها قد قوى أواصر الحب بين كل منا بالآخر ، وكان لتماسكها أمام الظروف القاسية ، وما فرضته علينا من الحرمان ، حافزاً لنا للتصدى معها لهذه الظروف ، وتجاوزها ، بالسعى ، وبالعمل ، بما يمنع عنا أى إحساس باضطهاد أو بنقص أو بظلم أو شعور بحقد أو انطواء ، يجنح بنا عن الغاية التى حددتها لكل منا . .

كانت أمنياتها لنا تحديداً لخط السير فى حياة كل منا ، وكانت الشحنة الدافعة لنا على السهر ، والعكوف على الدراسة ، واستذكار الدروس . . لكى تحقق لنا ولها هذه الأمانى الحلوة العزيزة ، ولكى نفرغ لبذل الجهد والسعى لبلوغها ، إرضاء لها ، لا يشغلنا عنه شاغل سوى ما تحدد لكل منا من واجبات أو أدوار للمعاونة فى تحمل أعباء الأسرة . .

وعلى هذا النحو من الترابط الأسرى بين أفراد الأسرة من الاخوة الأربعة ، وأختيهم ، وفى ظل أمومة حانية ، وحازمة فى نفس الوقت ، استطعنا ، أن نحقق التفوق فى دراساتنا .

وكنت شديد التأثر بكل ما تقوله ، بعد أن احتوت بشخصيتها القوية ، كل حياتنا ، لا بالتسلط ، ولكن بما اجتمع فيها ــ وبما ارتأى لنا نحن الصغار ــ من عواطف الأمومة ، والأبوة معا . . أليست هى التى « عششت » علينا ، واستطاعت بما قدمته من تضحية ، أن تخفف من ألم

الشعور والحرمان من الأب . .

نعم . . استطاعت ، أن تجمع إلى أمومتها الحانية ، كل خصائص الأبوة الحازمة الواعية كبديل عن الأبوة التى افتقدناها ، بوفاة أبينا ، فكانت لنا ، الأب ، والأم . . معاً . . ومن هنا كانت إلى جانب ما تبذله لنا من رعاية وحنان ، وعطف ، لا تكف عن إسداء النصح ، وإعطاء القدوة فينا ، تنصحنا به ، أو تعلمنا إياه . . علمتنا الكثير . . الكثير . . الذى شكل حياتنا ، وخطط لمسارنا ، وأثر فينا وفى سلوكنا ، دون تسلط منها ، أو ضعف منا ، ولقد حرصت ، وباصرار ، على أن يظل لأبنائها وبناتها ، ما تميزت هى به من طهارة القلب ، وصفاء السريرة ، ونقاء الطوية ، وحسن النية ، فقد كانت بما أوتيت من شفافية الحس ، تدرك ـ لا شك ـ بما قد يعتمل فى صدور أبنائها ، من مشاعر تفرضها المقارنة بين حياتهم ، وما يعتريها من ضيق وشظف ، وبين حياة غيرهم من الناس ، وما يرفلون فيه من النعم ورغد العيش ، فكانت ـ رحمها الله ـ تعمل على إزالة ما قد يلوث براءة الطفولة فى صدورنا الصغيرة ، فكنت كثيراً ما أسمع منها هذه الجملة التى وعتها مداركى بعد أن شببت عن الطوق . . « **غير . . ولا تحسدش** » . .

كانت هى حقاً مدرستى الأولى . . وظلت وستظل فى وجدانى ، رمزاً حياً ، ونبراساً هادياً ، ومثلا ، وقدوة فى كل ما تمثلها فيه ، واستلهمت دعوتها لى ورضاءها عنى فى كل ما أقدمت عليه من أعمال طوال حياتى . .

إننى لم أهتز فى حياتى بالرغم من كل ما تلقيته من صدمات إلا مرتين . .

هذه المرة عندما ماتت أمى . .

وفى سنة ١٩٤٩ عندما تلقيت صدمة وفاة شقيقى إبراهيم . .

ولا أريد أن اقول لم أهتز كثيراً عندما أعلنوا تأميم شركة المقاولون العرب . . لأننى كنت ساعتها قد وجدت بداية الطريق . . أما وفاة والدتى وأخى إبراهيم ، فقد حدث عندما كنت فى مفترق الطرق ، ولم يكن قد وقع

اختيارى على الطريق بعد . .

ومع وفاة أمى وجدت نفسى أقف عند منعطف خطير فى حياتى ، وجدت نفسى فى منعطف لم أكن أتوقعه ، ولم أكن قد وضعته فى حساباتى من قبل . .

نعم أمى ماتت . . وهل يستعصى أحد على الموت ؟ . . وسبحان من له الدوام . . لكنها المفاجأة ، التى فوجئت بها على غير توقع . . فبينما كنت فى غمرة الانبهار بدراستى لعلوم الهندسة . . علمت بالخبر المفجع الذى ظل يرعد فى جنبات نفسى . . أمى ماتت ؟ . . أمى ماتت ؟ . . ولم يسعفنى دمع يخفف من وقع الصدمة أو يمتص صداها المدوى فى صدرى . . وتساءلت . . هل انطفأت شعلة الأمل فى حياتنا ؟ . . هل توقف فجر الأمل عن البزوغ ؟ . . وهل . . وهل . . وهل . . وعشرات من التساؤلات الهائمة ، التى كادت تطيح بكل وجدانى . . بل وكادت تذهب بعقلى مذاهب شتى من الظنون والأوهام . .

واستسلمت لما لا حيلة لى ولا لأحد فيه . . استسلمت لقضاء الله ، وعدت بشبابى طفلا صغيرا . . صغيرا . . لا أدرى من أمرى شيئا ، حين كان زوج أختى المرحوم الأستاذ على حسب الله . . يصطحبنى مع شقيقتى وشقيقى إبراهيم ، لنسافر الى الاسماعيلية ، ولكى نحضر إجراءات الدفن والجنازة ولنوارى جسد أمنا وأغلى حب عرفته حياتنا . . لنواريه التراب .

حاول الرجل أن يواسينى ، ولكنه كان يعرف . . ماذا يعنى بالنسبة لى وفاة أمى . . وباءت محاولات الرجل بالفشل ، فقد كانت الصدمة أكبر من أن تداويها أية مواساة . .

عندما سمعت الخبر أحسست أن كل شىء حى فى نفوسنا قد مات . .

كانت أمى بالنسبة لنا كل شىء فى حياتنا . . بل كانت هى الحياة ذاتها ، وأخذت أسأل نفسى :

من يمكن أو يستطيع أن يتولى شئوننا من بعدها ؟ . .

ومن غيرها يمكن أن يتحمل أو يتكبد ما تحملته أو تكبدته من

أجلنا ؟ . .

فقـدنا أعز مـن فى حياتنا . . كانت القلب الوحيد الذى ينبض مــن أجلنا . . كانت ربانا لسفينتنا ، التى تتقاذفها الامــواج ، فى عرض بحــر الحياة الهائج بلا شطآن . . وسافرت إلى الاسماعيلية مع إخوتى وزوج أختى . . وكنت صامتا مع نفسى لا أتكلم . . وأخذ شريط طويل للأحــداث التى مرت بنا يجرى بينما كانت الدموع تنساب من عينى ، على جــانبى خدى . .

وفى الاسماعيلية أعدت ترتيبات الجنازة . .

وحملناها فى داخل نعشها إلى مثواها الاخير . . وهكذا دفنا تحــت التراب بأيدينا ، أحن من فى الدنيا علينا ، ولم يكن الأمــر بيدنا ، والأمــر أمر الله . . وعدنا جميعا إلا هى ، فقد بقيت عند ربها . .

تركتنا نواجه قسوة الأيام وحدنا ونحن فى أشد الحــاجة إليهــا . . ولا أريد أن أقول . . تركتنا ونحن فى وسط الطريق . .

ونحن لم نكن نعـرف حتى ســاعة فــراقها إلى أين ســيكون مصيرنا ؟ . .

وفى الاسماعيلية اقمنا سرادقا كبيراً ، استقبلنا فيه جمعا كبيراً من المعزين . . أقارب وأصدقاء ومجاملين . .

وعند منتصف الليل ، انفض الجمع ، وذهــب المجــاملون . . وبقيت وحدى أنا وإخوتى ، لأول مرة فى حياتنا من غير أمى . .

ماتت أمى ، قبل أن ترى بعينيها ، مــا حققــه أبناؤهــا مــن غرس يديها . . ماتت . . وأحسســت أن بســمة الحياة التى كانت ترقص على شفاه كل منا . . قد ماتت معها . . لقد كنا نسعى بالجهد . . والكد . . لكى نحقق لها أملها فينا . .

ومضى أسبوع على وفاة أمى ، لم أكن خلاله ، أدرى مــن أمــر نفسى شيئا . . وتزاحمت الخواطر ، تقذف بى فى متاهــاتها ، لا تلبث أن تردنى إلى سؤال أسأله لنفسى . . ماذا نفعل ، بعد أن ماتت أمى ؟ . . ولولا بقية من إيمان فى ذلك الوقت لفسدت حياتنا . . وانهارت آمالنا ، وهى لم تزل

نبتا لم يستو على ساقه بعد .. ولكننى سرعان ما تذكرت نصائحها وتوصياتها لنا . . تذكرت ماذا كانت تريد منا ، وفجأة وجدتنى أجلس إلى نفسى . .

كان على أن أواجه الحقيقة ، التى كان لابد أن أواجهها ماتت أمى .

نعم ماتت ، والأعمار بيد الله ، لا بيدنا ولا بيدها . .

وسألت نفسى : ماذا كانت تريد أمى ؟

كان جوابى : كانت تريدنا جميعا أنا وإخوتى ، وقد تخرجنا من الجامعة . .

وسألت نفسى : ما هو إذن المطلوب منى ؟ . .

وكان الجواب : أن نسعى لتحقيق الهدف الذى استشهدت ـ رحمها الله ـ وهى تكافح من أجله . .

وبادرت أسأل نفسى من جديد . . كيف ؟ . .

وكان جوابى : بالتماسك واستكمال المسيرة التى بدأتها . .

وسألت نفسى مرة أخرى : وهل نستطيع ؟ . .

وكان جوابى : الحمد لله تركتنا بعد أن قويت عظامنا والتى كانت لحماً عند وفاة والدنا ، وبعد أن أصبحنا قادرين على أن نصمد ونقاوم ، وفرق كبير بين حالنا عندما تركنا والدنا ، والحالة التى أصبحنا عليها عندما تركتنا أمى . .

وقلت لنفسى : لقد وضعتنا ـ رحمها الله ـ قبل أن تفارقنا إلى الأبد على الطريق الصحيح ، وبعد أن قطعنا عليه شوطا ، وأصبحنا فى مأمن من ان نتوه . . ماتت بعد أن تركت لنا كنزاً لا يفنى من القيم ، والاخلاقيات ، والمبادىء التى أرست قواعدها فى نفوسنا فأصبحت من اقوى أسلحتنا .

كانت مناقشة هامة مع نفسى ، وبعدها تحولت كل همومى إلى طاقة هائلة ، وتحول كل اليأس الى أمل . . وتحول الظلم الى نور . .

ولكن الشىء الوحيد الذى بقى وسيظل هو أنها شربت المر فى

تربيتنا . . ولم تمهلهـا الحياة لترى أن العلقـم الذى ذاقته مـن أجلنا ، تحول فى أفواهنا إلى شراب شهى ، . طيب المذاق ، ولكنهـا كانت إرادة الله . .

صحيح أننى كنت أجد فى شقيقتى الكبرى ـ ومـا أزال ـ تعـويضاً عنها محاولا أن أفعل معهـا مـا كنت أتمنى أن أعوض به أمـى ، ولكن الحقيقة التى لا يمكن أن نهرب منها أبدا وهى أن الأم لا يعوضها أحد . . لأنها الانسان الوحيد فى هذه الدنيا الذى لا يريد من فلذة كبده شـيئا . . وتفعل كل ما تفعله له دون أن تنتظر المقابل ، إن حنانها له طعم خاص لم اتذوقه من أحد منذ أن فارقتنا وحتى الآن . .

وكان علينا أن نعود إلى القاهرة لكى نستكمل دراستنا ، وبعـد عدة شهور تخرج إبراهيم من كلية الهندسة . . وأصـبح معيداً . . وأضـاف بمرتبه دخلا جديداً إلى دخلنا . . وتحمل مع شقيقى محمد أمـرنا . وكان أن انتقلنا من شقة شقيقتى إلى شقة استأجرها لنا إبراهيم فى منطقـة الدقى بالقرب من كلية الهندسة . .

روحها تجمعنا على الحب :

وكان من فضل الله علينا ، ومن أسباب نعمه ، وما أودعه فى قلب أمنا « رحمها الله » من حب أفاضت به علينا جميعا ، وتأثرنا به فى علاقـاتنا ، كل منا بالآخر ، أن جعلنا نتصرف كفريق متكامل ، فى ملعـب الحياة ، إن صح التعبير . . فكان كل منا يعمل لبلوغ الهدف ، لا فـرق أن يكون هـذا الهدف لأى واحد منا ، إن كان من صنع محمد ، أو إبراهيم ، أو حسـين أو عثمان . . ذلك أن تحقيقه لنفسه هو الغاية التى يسعى إليها الفـريق كمجموع .

أسرة واحدة ، يجمع بينها الحب ، ووحدة الغاية . . ذلك هو الاطـار الذى كنا نعمل ونتصرف من خلاله . .

وقد تركز تفـكيرنا ، فى أول الأمـر ، بعـد وفـاة أمنا على أن ندبر امورنا ، وفقا للوضع ، والظروف التى نشأت بعد وفاتها . . وكان محمـد أسبقنا ، بما تفوق به علينا من قوة التجربة والتصـدى للمسـئولية ، منذ

وفاة أبينا ، ليبادر بحمل عبئنا فى التصرف والتدبير . . وكان جديراً بهذه المهمة التى نذر نفسه لها طواعية واختياراً . . فها هــو ، يمســك بدفــة السفينة ، وها هو يبلغ فى مستوى قيادتها درجــة الربان . . فيسرع إلينا بالقاهرة ، ليبلغنا باقتراح مشروع أعده ، لأول عمــل تجــارى يعــزز به موارد الأسرة . . ولهذا المشروع قصة . .

كان علينا بعد وفاة والدتى ألا نواصل الانكباب على الدراسة وحدها فقد كان علينا أن نبحث عن مصادر للرزق أيضا . .

والتقينا فى تلك الأيام نتدارس أمرنا . .

* * *

عم عثمان الطحان :

فى أحد الأيام حضر إلى القاهرة شقيقى الأكبر محمد عثمان ، وكان أخى إبراهيم كما قلت قد تخرج من الجامعة ، بينما كنت ما أزال طــالباً حتى تلك اللحظة . .

طلب محمد من إبراهيم مبلغ خمسين جنيها . .

ولما سألناه لماذا ؟

قال : سوف نشارك رجلا من الاسماعيلية اسمه أمين عبد الرحمــن على إنشاء ماكينة طحين . . ثمنها مائة جنيه ، نتحمل نحن النصف وهو النصف . . كان تصوره أن مشاركتنا فى هذا المشروع يمكن أن تساعدنا على توفير ما نحتاج إليه من نقود ، ولكن إبراهيم كان يتحمــل الانفــاق على وعلى حسين ، وأعفى محمد من النصيب الأكبر فى مصاريفنا بعد أن كان قد تحمل كثيراً . . ولذلك لم يكن معه المبلغ المطلوب . .

وعاد محمد إلى الاسماعيلية ولكنه عاد بعد عام يطرح نفس الفكرة.

واعترض إبراهيم على المشروع ، قائلا : إن إمــكانياتى لا تســمح ، ولكننى عندما ناقشت الفكرة مع محمــد وتفــاهمت معــه وفهمــت منه تفاصيلها ، اســتطعت إقناع إبراهيم بضرورة أن يقــوم بتدبير المبلغ . . ووافق إبراهيم ولكن كانت مشكلة . . فلم نجد معه إلا عشرين جنيهــا . .

ولم يكن أمامنا إلا أن نقترض الباقى . . وقد حدث . .

وعاد محمد إلى الاسماعيلية ليبدأ تنفيذ المشروع مع شريكه ، وكان على أن أعود معه لأشرف على التنفيذ . .

وكان علينا أن نقوم باعداد المكان الذى سنقيم فيه المطحن ، قبل أن نعمل على إحضار الماكينة ، وذهبت إلى الحاج عيسى فى فايد وكان صاحب محجر دبش وكان يبيع المتر ، بعشرين قرشاً ، ولكنى استطعت أن أحصل عليه منه باثنى عشر قرشاً فقط . . كيف ؟ . . ذلك ما يتوقف على القدرة على التعامل مع المواقف واختيار المداخل الصحيحة وهذا ما أريد أن يتعلمه أبنائى الشباب . وحصلنا على الكميات اللازمة . .

وكانت إمكانياتنا محدودة ، فلم نجد ما نشترى به الأسمنت الذى كنا فى حاجة إليه ، لاستخدامه فى عملية البناء ، وكانت ترعة الاسماعيلية قريبة منا ، لذلك قررت أن نستعيض بطينها عن الأسمنت . . ولم نشتر إلا شكارة أسمنت واحدة استخدمناها فى تكحيل المبانى كلها . . وهنا يجب أن يتعلم الانسان كيف يتصرف ويقتصد ويختار أنسب الحلول . .

ثم ذهبنا بعد ذلك إلى الزقازيق ، وأحضرنا الماكينة ، وقمت أنا بتركيبها مع أمين عبد الرحمن دون أن نحتاج إلى فنيين . . وفرنا أجر تركيبها . . وكان ينقصنا بناء وتركيب الأبواب ، وقد رأينا تأجيلها إلى ما بعد تشغيل الماكينة ، وبعد أن نكون قد حققنا عائداً يمكن أن نستفيد به فى استكمال ما لم يستكمل ، قمنا بحفر بئر مياه ، لا تزال موجودة حتى الآن ، وقد تعودت أن أشرب من ماء هذه البئر كلما ذهبت إلى مكانها حتى أسترجع أحلى ذكرياتى حيث يوجد الآن فى مكانها مقر فرع الاسماعيلية ومنطقة القناة وسيناء للمقاولون العرب . .

المهم . . بدأت مع تشغيل ماكينة الطحين حملة دعائية واسعة ، وكان أن ذهبت إلى المقاهى وإلى التجمعات أخبر الناس بمشروعنا الجديد . .

وكانت هذه الحملة لما حققته من نتائج ، بداية إدراكى لأهمية دور الأعلام فى التعريف بالمشروعات وطبيعة عملها ونوعية إنتاجها ، وزاد الاقبال على التعامل معنا . . وبدأ يتصاعد صافى الايراد من خمسة

وعشرين قرشا إلى ستين قرشا إلى جنيه واحد فى اليوم ، وكان المطحن يحقق ضعف إيراده أيام تواجدى فى الاسماعيلية ، فقد كانت تربطني بالناس علاقة حب ومودة ، وأنكر أن زبائننا كانوا ينادونني فى تلك الأيام باسم « عم عثمان الطحان » . .

وكم كنت سعيداً بهذا اللقب الذى يعبر عن ثقة متبادلة بينى وبين المتعاملين مع مطحننا الجديد . . وكانت بداية معرفتى الحقيقية بقيمة حب الناس ، ولكن فجأة تهددنا الخطر عندما أخذ دكتور اسمه رفعت وكانت زوجته إنجليزية يدس لنا لدى السلطات البريطانية . .

كان يمتلك ماكينة طحين ، فخاف على نفسه من منافستنا له . . فقرر أن يتخلص منا ، وأن يغلق مشروعنا حتى ينفرد وحده بالسوق ، ذهبت زوجته إلى الحكمدار الانجليزى وطلبت منه التدخل لاغلاق المطحن ، وكان طبيعيا أن يستجيب لرغبتها فهى إنجليزية مثله . .

وأنكر بينما كنا منهمكين فى العمل توقفت سيارتان حكوميتان فجأة أمام المطحن ، ونزل منهما حكمدار محافظة بور سعيد الانجليزى حيث كانت الاسماعيلية تتبعها فى ذلك الوقت ، ومعه عدد من الجنود ، وطلب أن نتوقف عن العمل وهو يلوح بالتهديد والوعيد . .

ولم نجد أمامنا إلا أن نستجيب . . ولكن بعد أن غادر المكان أعدنا تشغيل الماكينة ، وإن بقينا تحت التهديد باغلاقها مرة أخرى فى أى وقت من الأوقات . .

وكان علينا ضرورة أن نقوم بترخيصها ، حتى نأمن جانب أى تهديد . . تبين لنا أن هذا الترخيص يتطلب الحصول على عقد إيجار للأرض المقام عليها المشروع من إدارة الأملاك الأميرية للدولة . .

لم تكن تلك هى المشكلة الوحيدة ، ولكن كانت هناك قضية منظورة أمام المحكمة بسبب المحضر الذى حرره الحكمدار ضدنا وحتى يحكم لصالحنا كان لابد من أن ننتهى من إجراءات الترخيص بأسرع ما يمكن . .

وأنكر أن محامينا فى هذه القضية كان المرحوم الاستاذ محمود

حسين .. الذى ترافع لصالحنا دون مقابل ..

وعندما سمع أهالى الاسماعيلية بما حدث لنا ، نصحنا بعضهم بأن نذهب إلى رجل اسمه الشيخ عبد السلام عطوان عضـــو مجلس النواب ، وقالوا لنا إنه رجل طيب تعود على أن يقدم الخير دائمـــا ، وألا يتردد فى مساعدة كل من يقصـــده ، ذهبت إليه فى بلدته الحســينية ، وكان معــى شقيقى محمد ، وجدنا الرجل كما قالوا لنا ..

وكم هزتنى روحه الانسانية فى استقبالنا ، وللمعاملة الكريمـــة التى تلقيناها من الرجل ، والتى هى فى الواقع نموذج لما يجب أن يجــرى بين الناس فى علاقاتهم الانسانية ، التى تعج بها الحياة وشواغلها ، وبهــذه المعاملة ، زال عنا حاجز الحرج أو التهيب فى لقائنا برجــل هــو عضــو بمجلس النواب .. وحلت الألفة فى هذا اللقاء ، بما شجعنا على أن نتقدم له بعرض مشكلتنا ، فتطوع لحلها ..

استقبلنا بود ظاهر مرحبا ، ولم يسألنا عما نريد ولكنه سألنا : هــل تناولنا طعام الغداء ؟ ..

لماذا لا نعيد تلك الأيام التى كان من ســبقونا منزهين فيهـــا عن كل هوى ؟ ..

ورغم اعتذارنا ، إلا إن الرجل أصر على الا نفاتحه فى شيء إلا بعد أن نتناول الغداء .. وفعلا حدث ما أصر عليه ، بل رفض أن نتحدث معـــه فى أى أمر إلا بعد أن نتناول الشاى .. ولم نجد أمامنا إلا أن نستجيب ..

فعل الرجل ذلك دون أن يعرفنا ، بعد ذلك سألنا : ماذا بكم ؟

رويت له ما حدث بالضبط وطلبت إليه أن يتدخل لمساعدتنا ، ورحب بخدمتنا كما رحب باستقبالنا تماما .. وأبدى استعداده للذهـــاب معنا ، وقضاء حاجتنا ، وحدد لنا موعداً التقينا فيه معـــه أمـــام مبنى مصـــلحة الأملاك الأميرية بالقاهرة .

وفى الموعد المحدد حضر الرجل ليجدنا فى انتظاره .

كان رحمه الله رجلا شهما وسيما ، تشع الطيبة من عينه ، اصطحبنا بنفسه إلى مكتب الموظف المختص ، وقام بعــرض الموضـــوع عليه ، ولم

يغادر المكان إلا بعد أن حصل لنا على الموافقة التى نطلبها .

واستأنن الشيخ عبد السلام عطوان وانصرف ، وعدنا ، أنا وشقيقى إلى الاسماعيلية واستكملنا الاجراءات الخاصة بالترخيص وحصلنا عليه ، وقدمنا الترخيص كمستند أساسى لنا فى القضية ، وحصلنا على حكم لصالحنا . . مع حلول موعد اول جلسة . . وبعدها بدات ماكينتنا تعمل فى أمان كمصدر للرزق لنا واجهنا به الأيام . .

* * *

من يصدق :

ومضت الشهور والسنوات بعد أن تخرجت من كلية الهندسة واتجهت للعمل فى المقاولات وقطعت صلتى بذلك المشروع ، ولكن شقيقى محمد ظل مع شريكه ، عندما اتسع مجال المقاولات أمامى وكان ذلك فى عام ١٩٤٤ طلبت من محمد أن يتفرغ للعمل معى ، ولكن محمد ناقش معى موقفنا من أمين عبد الرحمن ، وماكينة الطحين ، وكان موقفى واضحا .

قلت له : إن مكان الماكينة سوف نستخدمه كمخزن لمعداتنا ، أما أمين عبد الرحمن فيجب أن يحصل على حقوقه كاملة ويبحث لنفسه عن مشروع بديل ، واستدعيت الرجل وشرحت له الموقف . . اقتنع ، ولكنه طلب منى مائة جنيه أخرى بالاضافة إلى نصيبه البالغ مائة وخمسين جنيها لكى يتمكن من أن يقيم مشروعا جديدا . . لم أكتف بأن أعطيه المبلغ ولكن قمت بما هو أكثر من ذلك ، لقد استوردت له ماكينة حديثة رأسا من انجلترا واقمت له منشآتها ، دون أن أكلفه مليما واحدا . . أليس ذلك حق للعشرة وواجب للوفاء .

وراح يدير مشروعه المستقل ، ولكن الصلة استمرت بيننا ، وانضم فيما بعد ابنه إلى أسرة « المقاولون العرب » بعد تخرجه من كلية الهندسة ، وما زال يعمل فيها حتى الآن ، أما الشيخ عبد السلام عطوان فلم أره منذ أن تركناه أمام مصلحة الأملاك بالقاهرة إلا بعد ما يقرب من عشرين عاما . .

ذات يوم من عام ١٩٥٤ كنت أجلس بمكتبى ، ووجدت سكرتيرى يحمل لى ورقة مكتوبا عليها اسم الشيخ عبد السلام عطوان ، وأنه يريد مقابلتى . . وعلى الفور قفز إلى مقدمة رأسى ذلك الموقف النبيل الذى وقفه معى هذا الرجل الكريم ، فقلت لسكرتيرى : استدعيه على الفور . .

ونهضت من خلف مكتبى لأستقبله عند الباب ، واستقبلته استقبالا حاراً كما استقبلنى من قبل . . فهذا أقل ما يجب أن أفعله مع مثل هذا الرجل . . اصطحبته إلى داخل المكتب وجلسنا معاً . . وكان الرجل مندهشاً من شدة حفاوتى به ، طلبت له الشاى ، ثم القهوة . . وبينما كنت أتجاذب معه أطراف الحديث قال لى :

إن ابن أخى حصل على بكالوريوس التجارة ، ويريد أن يعمل معك ، وكان العمل فى الشركة فى ذلك الوقت لا يسمح بأن ينضم إلى أسرة العاملين بها مثل هذا المؤهل إلا أننى رحبت على الفور .

وقلت للرجل : اعتبره من الآن أحد أبناء أسرة الشركة ، وسألته أين ابن أخيك ليتسلم العمل . .

قال : يوجد بمكتب السكرتير . .

وعلى الفور استدعيته وتعرفت عليه ، وسلمته العمل ، واهتز الشيخ عبد السلام عطوان وتأثر كثيراً مما فعلت ، وقال لى : ربنا يقدرنا على رد جميلك . .

قلت للرجل : خيرك سابق ، ألا تتذكر يا شيخ عبد السلام ما حدث منك لنا ذات يوم . .

قال : ماذا حدث منى ؟

وحاولت أن أذكره بشتى الطرق بالخدمة الجليلة التى قدمها لنا ، ولكن الرجل اعترف بصراحة أنه لا يتذكر !

قلت له : عموما اعتبر أن الشركة شركتك وتحت أمرك فى أى وقت فى كل ما تطلبه .

شكرنى الرجل وقمت بوداعه إلى خارج مكتبى ، ولكننى استقبلت

بعد ذلك من بين افـراد أسرته مـا يزيد على العشرين ، هـم الآن مـن السواعد الفتية التى ارتفع بها صرح « المقاولون العرب » . .

انصرف الرجل ولكن لم ينصرف مـن ذهنى الدرس الذى يجـب أن يتعلمه كل إنسان من هذه القصة ، يجب أن يتعلم أن مـن يقـدم خيراً ، يجد خيراً ، والخير الذى نقدمه لا يجب أن ننتظر رداً له فى نفس اللحظة ، ولا ينبغى أن نفعل الخير لانسان يستطيع رد الجميل فى وقته . . فمـن أدراك أن الذى لا يستطيع اليوم قد يسـتطيع غداً ، درس أخـر ، علق فى ذهنى نتيجة لهذه القصة . .

كان الشيخ عبد السلام عطوان لا يعـرف ان الذى أسـدى له هـذه الخدمة سيصبح فى هذا الشـأن ، وأنا أيضـا لم اكن أعرف أن الشـيخ عبد السلام عطوان سوف يرانى يوماً ما ويطلب منى هذا الطلب . . ولكن الأيام تعلمنا ، كيف يكون الوفاء . .

إن الوفاء قيمة كبيرة يجب أن نتمسـك بهـا ولا نفـرط فيهـا . . فلا يصح أن يكون الانسان إلا وفيا ، ولا ينسى من قدم له يد العون فى يوم من الأيام . . بل عليه أن يقدمها وفاء للوفاء ذاته . . فلا يصح أن يمنع أى منا نفسه عن أداء خدمة لانسان حتى ولو لم يعرفه إذا كان يستطيعها ، لأن أحداً منا لا يعرف ماذا تخفى الأيام . .

* * *

وقبل أن أطوى هذه الصفحة من تجربتى ، اقف لاتأمل أحداثها . .

ماذا أعطتنى ؟ . . وماذا أخذت منها ؟ . .

أجد فيها تجربة رائدة ، لكل أم يجب أن تقف وراء أولادها ، مضحية بنفسها . .

وتجربة لكل أخ كبير ، شاء له القدر أن يتحمل مسئولية إخوته ، من بعد والده . .

واستخلصت من كل ما فى تلك الصفحات من مـواقف ، كيف يفـكر الانسان ، فى أن يستفيد من وقته ومن كل شيء ، فى الطبيعة من حوله .

فعلت ذلك ، عندما زرعت « حوش » منزلنا ، فــأنتج أطيب الثمـــار ، وفعلت ذلك عندما كنت أنظم الرحلات لزملائي ، فتعلمت مبادىء الادارة ، والتجارة ، والاقتصاد ، عندما كنت أخفض تكاليف الرحلة إلى أقل قــدر ممكن ، وعندما كنت أقوم بترتيب كل شئونها . . وعندمـــا كنت أســتبدل السمك بالفاكهة والخضراوات .

فعلت ذلك ، عندما وجدت نفسي ، أحتاج الى النقود ، وكان من الممكن أن أحصل عليها بمجهودي ، فلم اتردد لحظة واحدة ، في أن أعمل صــبي ميكانيكي . .

فعلت ذلك ، عندما وجدت في يدي ، دفعة واحدة أكثر من جنيه ، فبدلا من أن أستخرج به اشتراكا في الترام ، فــكرت في أن أشــترى دراجــة ، ترحمني من تكرار دفع قيمة الاشتراك ، وتعلمت من تلك التجربة أيضــا كيف يكون الوفـــاء بالوعد ، وكان أن تعلمــت مـــن تلك الفترة الكثير . فما كان مشروع « ماكينة الطحين » إلا سعياً مني وشقيقي ، من أجل أن نذبر بعرقنا ، قوت يومنا .

وتعلمت أيضا كيف نحفظ العشرة . ونحسن إلى مــن تعــامل معنا ورافقنا فترة من رحلة حياتنا كما فعلت مع : أمين عبد الرحمن .

وتعلمت أيضا ، من الشيخ عبد السلام عطــوان ، رحمــه الله ، كيف تكون رحابة الصدر ، وكيف أنه يجب عل الانسان ، أن يقــدم الخير أولا وعلمتني تلك القصة أيضا ، كيف يجب أن يكون الوفاء . .

وعلمتني أيضا كيف أن من لا يستطيع اليوم قد يستطيع غداً ، ولذلك فلا يصح أن اتجاهل أي إنسان مهما كان قدره .

علمني مــوت أمــي مبكرا ، كيف اتحمــل المكاره ، وأتلقـــى أقسى الصدمات . .

علمتني قصة شهادة الفقر ، كيف يجــب أن يكون التحــدى ، وكيف ألقيت بالحقد خلف ظهري . .

كلهـــا دروس مســـتفادة ، افـــادتنى كثيرا فى حياتى . . فـــوجدت أن اضعها تحت نظر أبنائى .

* * *

فى خضم هذه الأحداث المثيرة ، والمتباعدة عبر مســـيرة حياتى ، منذ تركنى والدى يتيمـــا فى الثالثة مـــن عمـــرى ، إلى أن حصـــلت على بكالوريوس الهندســـة . . فى خضـــم هـــذه الأحـــداث حملت بكالوريوس الهندسة من القاهرة وعدت به إلى الاسماعيلية ، لابدأ منها مرة أخرى ، مشوارا طويلا مع المقاولات ، والحياة والأحداث . .

المدخل الصحيح

● من الاسماعيلية بدأت قصة كفاحى .
● خسارة المال ضئيلة مهما كبرت وخسارة الرجـــال كبيرة مهما صغرت .
● كنت اول عامل فى المقاولون العرب .
● اول عدة شغل .. ستة عروق ولوح وسقالة قيمتها ســتة جنيهات .
● من انت ؟ سؤال لن انساه .

المدخل الصحيح :

ومن الاسماعيلية أيضا . . بدأت قصة كفاحى . .

كان قد استهوانى العمل فى المقاولات ، فرحت أبحث عن نقطة البداية نحو الطريق الذى كنت قد اخترته ووجدت فى دراسة الهندسة مدخلى إليه . . ولم انتظر وبادرت بالذهاب إلى شقيقى إبراهيم ، لأناقش معه الأمر . . قبل أن أضع قدمى على أول خطوة فى الطريق . . وسألنى ماذا تريد أن تفعل ؟

قلت له : أريد أن أعمل فى المقاولات

وأطرق شقيقى إبراهيم قليلا ، ثم التفت ناحيتى وهو يقول :

ولكن من أين لك بالامكانيات ؟ . . ألا تعرف أن العمل فى هذا المجال يحتاج إلى حد أدنى من رأس المال لكل من يريد أن يسلك طريقه ؟

وكنت قد قررت أن أبدأ المشوار مع خالى لذا فقد قلت له :

سأبدأ مع خالى أولا ، وعندما أجد معى الحد الأدنى من رأس المال سأستقل بالعمل وحدى ، وأبدأ فى البحث عن نفسى وراح إبراهيم يحذرنى وهو يقول :

إنه طريق محفوف بالمخاطر !

قلت : أحب أن أسير فى هذا الطريق لأجرب حظى ، حتى إذا ما نجحت واصلت المشوار ، أما إذا لم يوفقنى الله ، فان بكالوريوس كلية الهندسة ما يزال معى ، ولن أعدم وسيلة فى الحصول على وظيفة مهندس .

وفى تلك الأيام كان أمر أسرتنا قد استقر ، وأصبح إبراهيم معيدا فى كلية الهندسة ويتحمل مسئولية الانفاق على حسين الذى كان ما يزال طالبا بنفس الكلية . وكان محمد قد أدى رسالته نحونا ، وبالتالى لم يكن عليه إلا أن يتحمل مسئوليته فى إعالة زوجته وأولاده . واستقرت كل واحدة من أختينا مع زوجها لذلك قلت لابراهيم :

سوف أتحمل مسئولية نفسى ، فلم يعد أى واحد من أفراد أسرتنا يحتاج إلى مساعدتى ، فماذا يمنع من أن أخوض هذه التجربة ؟

قال : ماذا تقصد ؟ . .

وترددت بينى وبين نفسى فى أن أقول له ما فى صدرى ، ولكن لأننى كنت أرتاح كثيرا مع إبراهيم ، اخذت اتحدث معه كما لو كنت اتحدث مع نفسى : وقلت له :

دعنى أبوح لك بسرى الذى اختزنته منذ طفولتى فى عقلى تمنيت منذ طفولتى يا إبراهيم أن أكون مقاولا ، وقد كبرت معى هذه الأمنية ، منذ أن كنت اتردد على أعمال المقاولات التى كان خالى يتولاها ، حتى أصبحت هدفا ، وبقيت هذه الأمنية فى أعماقى . . لقد بهرنى اتساع حجم نشاطه ، وحجم الثروة الطائلة التى حققها من وراء أعماله . .

ومضيت فى حديثى إلى ابراهيم وأنا أقول له : كنت أحلم كلما كنت أذهب مع خالى إلى مواقع عمل الشركات الأجنبية العملاقة فى منطقة القناة أن أكون مقاولا مثله ، ولكن بنفس إمكانيات تلك الشركات بما لها من أوناش كبيرة ومعدات ضخمة ، وكان جميع العاملين فيها من المصريين ، وكانت السيطرة للأجانب ، لذلك قلت لنفسى وقتها لماذا لا يكون هناك مهندس مصرى ، يعمل مقاولا يستثمر طاقات أبناء بلده لصالح بلده . .

وكان أن ذكرته بالرحلة التى كانت قد نظمتها الكلية إلى القناطر الخيرية أثناء عملية إنشاءاتها الجديدة ، عندما لفت نظرى هو إلى أن المتعاقد على تنفيذ المشروع من الناحية الاسمية ، كان شركة إنجليزية ، أما من الناحية الفعلية ، فان جميع العاملين فيها بما فيهم المهندسون

فقد كانوا وجوها مصرية سمراء ، وليس من بينهم خواجة واحد .

كان إبراهيم يستمع إلى فى صمت . وأنا أستطرد فى حديثى له :

أتذكر يا إبراهيم أيضا الرحلة التى نظمتها الكلية إلى كوبرى قصر النيل عندما كان تحت التنفيذ ، لقد أكدت فى نفسى هذا الهـدف . كمـا أن نجاحات طلعت حرب العظيمة تشدنى إليه بقوة ، إن كل هـذه العـوامل حفرت فى نفسى هدفا كبيراً ، ليس بيدى أن أتخلى عن السير فى طـريقه ، تركنى إبراهيم أقول ما فى نفسى ، دون أن يقول كلمـة واحـدة . . وكانت أول مرة أحدثه فيها بأفكارى وأحـلامى ، وأطـرق إبراهيم قليلا ، وكان يبدو مذهولا مما سمعه منى ، وخشيت أن يكون قد تصـور أننى فقـدت قواى العقلية ، فأخذت أنظر فى وجهه ، وأنا أنتظر منه كلمة واحدة .

وفجأة أخذ يضحك ليعبر عما اختلج فى نفسـه مـن مشـاعر فى تلك اللحظة ، كان يبدو كمن يريد أن يقول لى :

أين نحن من كل هؤلاء ؟ يا عثمان ؟

تداركت الموقف على الفور وأنا أقـول له لا أقصـد أن أكون مثل أى من كل هؤلاء بقفزة واحـدة ، ولكن بالصـبر والجهـد وبالعمـل . . وبالتدريج . . وأردت أن أقول لك إننى أردت أن أضـع قـدمى على أول الطريق ، ولم يتحمس إبراهيم كثيرا لأحلامى ، إلا إنه وافق فى النهـاية على أن أبدأ العمل فى الطريق الذى اخترته لنفسى ، قال لى وهو يضـغط الكلمات فى فمه :

إذا كانت هذه هـى رغبتك ، فعليك أن تجـرب العمـل فى المقـاولات بنفسك ولن أتأخر فى تقديم كل العون لك قد تأتيك الفـرصة يا عثمـان ، وكان أخى عظيما للغاية وهو يقول لى :

قرأت قديما مثلا يقول : ليس هناك على الأرض أقوى مـن رجـل عاش من أجل فكرة . . فقد تكون واحدا ممن ينطبق عليهم هذا المثل .



مع خالى :

ولم أنتظر وبادرت بالذهاب إلى خالى ، كنت أحمل فى رأسى علمى ، وأحلامى ، وصورة شركات المقاولات الكبرى التى كانت تعمل فى مصر خاصة فى منطقة القناة ، وقصص نجاحات المصريين فى تنفيذ أعمال الشركات ، وملحمة طلعت حرب وما حققه من انتصارات .

فماذا حدث ؟

وذهبت إلى خالى لأبحث عنده عن الخبرة التى لا يمكن أن احصل عليها الا بالتدريب العملى ، كما كنت أريد فى نفس الوقت أن أحصل على الحد الأدنى من المال اللازم لمساعدتى على الاستقلال بالعمل مستقبلا . . وكان رأيى فى البداية أن النجاح الذى كنت أحلم به يحتاج إلى ثلاثة عناصر رئيسية هى : العلم والخبرة والمال ، تحت عنوان كبير اسمه القيم والأخلاقيات فى أصول الدين ، وأتاح لى خالى فرصة العمل معه . .

وخلال الفترة التى عملتها مع خالى ، كان شغلى الشاغل هو الحصول على الخبرة ، والتمرس على العمل ، والالمام بكل أبعاد المهنة ، لذلك لم يكن لساعات العمل أى حساب عندى ، ولكننى كنت حريصا على محاسبة نفسى كل يوم . . كم أضفتُ إلى معلوماتى من عملى فى اليوم السابق ، وإلى أى حد وصلت خبرتى ؟ . .

وكانت تشدنى فى تلك الأيام الآفاق الرحبة التى كنت أسعى اليها ، لذلك لم أسأل نفسى مرة واحدة ، كم مرتبى ؟ . .

وكان خالى قد رفع مرتبى عدة مرات خلال الثمانية عشر شهرا التى عملتها معه ، ليتضاعف من اثنى عشر جنيها إلى اربع وعشرين جنيها ، دون ما أعلم ، ودون ما أطلب ذلك ، ولكن كل ما كنت افعله هو أننى أعطيت نفسى بالكامل للعمل .

أذكر أننى كنت أول من يذهب إلى موقع العمل مع شروق الشمس قبل أن يذهب أصغر عامل ، كما كنت أغادر موقع العمل عند الغروب ، وكنت أعكف بعد مغادرتى موقع العمل فى كل يوم على إعداد التقارير

التى توضح ما تم تنفيذه من حجم العمل فى ذلك اليوم ، وإعداد خطة العمل لما هو مطلوب تنفيذه فى اليوم التالى ، وكنت أعد تقريرا شاملا عن حجم العمل بشكل عام ، لكى أعرف الموقف بالكامل بالنسبة لما أنا مكلف به من مهام ، وبقيت هذه العادة تلازمنى طوال حياتى ، وحتى الآن .

وكانت بداية عملى فى أعمال خالى ، مع المرحوم المهندس ميرغنى المداح ، والمهندس أمين الشاذلى ، وكان لهما فضل كبير على ، حيث تعلمت منهما الكثير ، كان لى أسلوب منفرد فى العمل ، كنت أحدث مهندس فى العملية ، ومع ذلك وجدت نفسى دون أن أدرى ، أو أقصد المسئول الأول عن كل ما كان يجرى تنفيذه فى موقع العمل ، وكان إحساسى ، وأنا أنزل إلى كل عملية ، أنى لم أزل أتعلم ، وأنى بما أبذله من جهد ، وعرق ، أكسب كثيرا من المراس ، والتجربة ، فلا أحسب لهذا الجهد حسابا ، إلا بمقدار ما أكسبه من خبرة ، ودون حساب لمواعيد ، أو وقت ، أو متاعب تعترضنى ، أيا كانت ودون حساب لأى أجر أنتظره ، اللهم سوى ما أحققه من النجاح فيما كنت أكلف به من أعمال . .

أعطيت عملى ، فأعطانى ، ولا أريد أن أقول إننى أعطيته باخلاص دون أن أنتظر المقابل ، وكان العائد أضعاف ما كنت أتوقع .

وبعد ثمانية عشر شهرا حصلت على خبرة كبيرة ، لا يستطيع أن يحصل عليها غيرى فى سنوات عديدة ، وقفت مع نفسى وقفة حساب .

ما أحلى الوقوف مع النفس ، لمحاسبتها ، أو للتخطيط لها . . أو لمراجعتها ، لنجعل من سلوكنا مع غيرنا ، مرآة ، لسلوكنا مع أنفسنا .

وخلال عام ١٩٤٢ ، فاتحت خالى برغبتى فى الاستقلال عنه وقد اعترض فى بداية الأمر ، ولكنه اضطر إزاء إصرارى على موقفى ، بأن يوافق وأن يطلب من وكيل أعماله تصفية حساباتى ، وأعطانى مستحقاتى . .

وذهبت إلى الرجل لأجد مفاجأة فى انتظارى ، كان صافى مستحقاتى مائة وثمانين جنيها ، لم أعرف لماذا ؟ . .

وأخذت أسأل عن السبب ، وجاءنى الجواب من خالى وهو يقول :

كنت قد رفعت مرتبك بسبب تفوقك فى العمل ولكننى فى نفس الوقت فضلت عدم صرف الزيادة لك ، وادخارها لحسابك لتكون رصيدا ينفعك فى اى وقت تحتاج إليها فيه ، وكنت حتى تلك اللحظة ما أزال فى مفترق الطرق ووضعت مبلغ المائة والثمانين جنيها فى جيبى . . وتوكلت على الله .

ووجدت نفسى بعد ذلك أنا والواقع وجها لوجه . .

بداية المشوار :

ها أنذا . . ابدأ طريقى إلى الغاية التى اخترتها . . لا أحمل معى فيه ، غير الاصرار والايمان بالله والثقة بالنفس ، يحدوها الأمل . . ويعتصرها التحدى . . وغير مبلغ المائة والثمانين جنيها ، التى هى رأسمالى ، ثم كلمات يرن صداها مدويا فى سمعى ووجدانى مما أوصتنى به أمى ، واختزنته فى ذاكرتى ، ورسخ فى ضميرى ، وسريرتى . . ها هى صورة امى ، تعود إلى خيالى ، بكلماتها النابضة ، وما ضربته من أمثال ، لتحفزنى على العمل . .

اخترت الطريق ، ولم أكن أعرف عندما وضعت قدمى فوق أول خطوة عليه إلى أين سينتهى بى المطاف فيه . . وكل ما كنت أعرفه أننى كنت أسير إلى المجهول . .

وتذكرت وأنا فى طريقى إلى بيتنا بعد أن غادرت مواقع عمل خالى بعض الحكم التى كنت اسمعها من امى « رحمها الله » ، عندما كانت تقول لنا : « **اخسر القرش . . ولا تخسر الرجل . . فالمال يعوض . . اما الرجال فلا يعوضون** » . .

وتعلمت من هذه الحكمة أن خسارة المال ضئيلة مهما كبرت وخسارة الرجال كبيرة مهما صغرت . .

ولا أعرف لماذا سيطرت هذه الحكمة على كيانى وتفكيرى ورحت اسبح فى رحابها ، اتأمل ما وراءها ، وكان أن وضعتها نصب عينى فى علاقاتى مع كل من تعاملت معهم أو عملوا معى .

اتخذت منهم جميعا أخوة ، واصدقاء ، وأبناء ، واحسنت إليهم

جميعا . . حتى هؤلاء الذين أساءوا معاملتى . .

تعلمت من هذه الحكمة أنه بتضافر محبة الرجال وتكاتفهم يشتد الساعد ، ويعلو صرح البناء ، وتعلمت منها أيضا . . أنه عندما تحرص على من معك ، فانهم يحرصون عليك ، وانك إذا ما ضحيت من أجلهم يضحون من أجلك ، وإذا ما احترمتهم يزداد تقديرهم لك ، وإذا ما أعطيتهم ، كان عطاؤهم لك أكثر بكثير . .

إن العمل بمثل هذه الحكمة ، يجعل جمع المال إذا كان هدفا لك ، سهل المنال .

وكنت أسأل نفسى : إذا ما انفض الناس من حولك ، فمن إذن سيقف إلى جانبك ، ومن هو الذى سيساعدك على أن تسير فى الطريق الصحيح الذى تريده ؟

والجواب . . كما وجدته بنفسى :

لن تجد أحداً معك ، وبالتالى لن تجد من يساعدك فى الوصول إلى هدفك ، وبالتالى ستجد نفسك وحيداً . . وهذا يعنى أنك لن تحصل على ما تريد . . إن لم يكن الرجال خلفك وأمامك وعن يمينك وشمالك . .

وقفت أمام هذه الحكمة أستخلص منها أهم ما تعنيه من قيم جعلتنى أؤمن ، وما أزال بأن أغلى ما يجب أن أتمسك به وأن يكون عندى هو الانسان . .

وتمكنت من بناء المقاولون العرب ، ليس بالمال ، ولكن بالعلاقات الانسانية الطيبة التى جعلت قلوب الناس كلها معى . . فحولتها من مجرد فكرة . . إلى كل هذا الكيان العملاق الذى تجسد بهذا الحب فأصبحت بالنسبة لى بعد ذلك قاعدة الانطلاق إلى ما حققته وأحققه من نجاحات فى كل المجالات بما فيها المجال الذى أتصدى له الآن . .

إنهم كوادر فنية فتية ، حرصت على أن أربطهم ببعضهم وبى بالحب وحده . . الحب الذى يتجسد فى أسمى معانيه فى مثل هذا المثل الشعبى البسيط . .

وبينما كنت أسبح بالأفكار فى بحر المجهول فى تلك الوقت ، تذكرت أيضا حكمة أخرى كانت أمى « رحمها الله » ترددها كثيرا .

كانت تقول : « **اللى ملهوش كبير ، يشترى له كبير** »

وحاولت أن أفهم . . ماذا كانت تقصد أمى من ترديد هذه الحكمة ، وكانت مناقشات مع نفسى ، أدركتُ معها بعض المفاهيم الجميلة التى تعنيها هذه الحكمة الشعبية ، إنها تعنى المسئولية بكل ما لها من أبعاد ، وكل ما فيها من معان .

وكان أن فهمت كلمة كبير بمعنى مسئول ، يتولى تحمل العبء ، ويضع التخطيط ، ويمارس التنفيذ ، ويشرف على كل أمر من الأمور ، وبمعنى آخر مسئول يقود أوركسترا العمل الذى يتولاه ، فيوزع الأدوار بين العازفين ليعزفوا لحنا متناسقا ، منسجما ليس فيه نشاز . .

ويعنى أيضا ان هذا الكبير يجب أن يحاط علما بكل شىء مما يجرى فى مكان العمل من أصغر صغيرة ، إلى اكبر كبيرة ، وأن تكون يداه واثقة فى العمل ، وعليه أن يترك فى نفس الوقت من يتولى التنفيذ ، ليتصرف بمنتهى المرونة والثقة وهو يعرف أن هذا المسئول لا يتدخل فى أمور عمله ، ولكن فقط يريد أن يعرف ماذا يفعل . حتى يطمئن إلى سلامة الأداء ، وكان أن قررت أن أبدأ بما فى هاتين الحكمتين من معان . . وعرفت فيما بعد أنهما يتضمنان أقوى ما فى علم الادارة والتنظيم والقيادة من مفاهيم ، وعملت على أن احب الناس ، ولا أخسرهم ، واضحى بالمال من أجلهم ، وكيف أنظم وانسق عملى ، وأمور نفسى قبل ان يلفت نظرى إلى تلك أحد غيرى ، فكيف بدأت ؟

* * *

اول مقر للشركة :

كان لابد لى من مقر أزاول منه نشاطى ، وساعدنى فى تلك الدكتور سليمان عيد « رحمه الله » وكان أحد أقارب والدتى الذى خصص لى حجرة فى عيادته الخاصة بالحى الافرنجى بالاسماعيلية . .

وكانت تلك الحجرة أول مقر للشركة العملاقة التى قامت على أكتاف

أبنائها كمنارة لفن البناء والتشـــييد وتنفيذ المشروعات الكبيرة . . ليس على مستوى الشرق الأوسط وحده ، ولكن على مستوى العالم كله . .

وكان على أن أبادر باستخراج أول ســجل تجــارى لمزاولة نشــاط المقاولات .« عثمان أحمد عثمان » مهندس ومقاول ، وقمــت بتعليق لافتة كتبت عليها هذا الاسم ، بعد أن كنت قد تعلمت من قبل قيمـــة الاعلام فى نجاح الأعمـــال ، عندمـــا قمــت بأول حملة إعلامية فى حياتى لعبت دورا كبيرا فى إنجاح ماكينة الطحين . .

وفى أول الأمر . . فكرت فى الكيفية التى سأبدأ بها عملى . . ومن أين ستكون نقطة الانطلاق . .

وتعــود بى الذاكرة إلى هــذه الأيام . . التى أجترهــا بحلوهـــا . . ومرهـا . . فتفعــم قلبى بالســعادة والرضـــا . . حين أتصـــور أول يوم ، انطلقت فيه*إلى العمل . .

وكان عثمان أحمد عثمان أول عامل فى الشركة التى تحولت فيما بعد إلى المقاولون العرب « عثمان أحمد عثمان وشركاه » والتف فيها حــوله أكثر من ٥٥ ألف عامل فيها . . هم جميعا فى مكان الأبناء من قلبه . .

وأذكر أننى قمت فى ذلك الوقت بشراء خشب مستعمل من مخلفـــات الجيش البريطانى ، لأصنع منه أول مكتب فى أثاث الشركة ، وهذا المكتب ما زال موجودا حتى الآن ، استأجرت نجــارين لتصــنيعه ، واشـــتركت معهما فى العمل بيدى لتخفيض التكاليف إلى أقل حد ممكن .

وكنت أقوم بتنظيف تلك الحجرة كل مساء بعد أن أنتهى من أعمالى التى كانت تتطلب تواجــدى فى المكتب . وهــكذا قمــت باعداد أول تنظيم للعمل .

وأذكر فى تلك الأيام أننى كنت أخرج كل يوم فى بداية نشاطى أتجول فى الاسماعيلية ، أذهب الى المقاهى وأماكن التجمعات ، لأقدم نفسى إلى من لم يكن يعرفنى ، معلنا للجميع أننى بدأت مزاولة نشاط المقاولات . . اتصــلت بجميع الناس فى حملة إعلامية واســـعة النطـــاق شـــملت الاسماعيلية كلها ، وكان ما بدأت أعمله أمرا جديدا بالنسبة لهــم ، فقــد

كانت أول مرة يرون فيها مهندسا يتخلى طواعيه عن المركز المرموق ليعمل مقاولا . . لأن المهندس كان شيئا كبيرا جدا بالنسبة لأهالى الاسماعيلية فى نلك الوقت ، كنلك استنكر كثيرون أن أعمل بالمقاولات . وكان بعضهم يستوقفنى فى الشارع أو المقهى ليقول لى : أنت مهندس ولا يصح أن تضحى بمستقبلك بالعمل فى المقاولات . كان تصورهم أن المستقبل هو الوظيفة ، ولم يعرفوا أن المستقبل بالنسبة لى كان شيئا آخر .

ولا أنكر أننى فاتحت أحدا بما كان فى صدرى من آمال وطموح بعدما دار بينى وبين أخى إبراهيم من مناقشات حول قرار الاشتغال بالمقاولات ، وكانت شقيقتى الكبرى من بين النين قدموا لى النصيحة . قالت لى : ماذا عليك بكل هذا العذاب « والبهدلة » وانت تستطيع أن تصبح مهندس رى « قد الدنيا » .

وسرت رغم كل نلك فى الطريق الذى كنت قد اخترته منذ أن كنت طفلا .

* * *

الاصلاح والترميم :

ولكن ما هى طبيعة الأعمال التى كنت مستعدا لتنفيذها فى نلك الوقت ؟

كانت إمكانياتى كما قلت من الناحية المالية محدودة جدا ، فليس معى رأس المال الكافى ، ولم أكن أمتلك « عدة الشغل » اللازمة ، وإن كانت امكانياتى الفنية كبيرة .

ولنلك كان على أن أقبل أول عمل وكان مجرد إعداد رسم كروكى لدكان لكى يحصل صاحبه على الترخيص اللازم لادارته ، وكنت أقبل ما يضعه فى يدى أى منهم مقابل نلك العمل . . فمنهم من كان يدفع خمسة جنيهات ، ومنهم من كان يدفع جنيها واحدا ، دون أن أعترض على ما يدفعه لى أى منهم نظير العمل الذى قدمته له وكنت أقوم باعداد مثل تلك الرسومات لبعضهم بلا مقابل ، لم أكن حريصا فى نلك الوقت

على المقابل الذى كان لابد أن أحصل عليه، ولكن كنت حــريصاً على أن أبدأ، ويبدأ مكتبى فى مزاولة نشاطه . .

كان ذلك هو هدفى . .

وكانت حسن معــاملتى للناس ســبباً فى حبهــم لى، لذلك راحــوا يشجعوننى، ويسندون إلى ما لديهم من أعمال بسيطة.

كان إعداد رسم كروكى لدكان هــو أول عمــل قمــت به فى مجــــال التصميم الهندسى، أما أول عمل قمــت به فى مجــال التنفيذ فــكان هــو الاصلاح والترميم.

كان يكلفنى أحد الناس بترميم شقته، أو إدخال بعض الاصلاحات على منزله، ولم أتردد فى قبول هذه الأعمال المتواضعة، لأنه كان على أن أسلك هذا الطريق إذا أردت الوصول الى ما هو فى رأسى من أحلام . .

كانت أحلامى فعلا كبيرة . . ولكن أدركت أن هذه هى بدايتها.

* * *

المعلم عثمان . .

ودخلت مجال الانشاء والتشييد لأول مرة فى حياتى، عندمــا كلفنى دكتور يونانى كان يقيم فى الاسماعيلية بانشاء جــراج، واســتعرت عدة الشغل التى نفذت بها تلك العملية مــن الآخــرين، لأننى لم أكن فى ذلك الوقت أمتلك الحد الأدنى اللازم لذلك . . وكان ذلك الموقــف ســبباً فى أن أخصص مكسبى مــن تلك العملية فى شراء أول عدة شــغل . . عبارة عن ستة عروق ولوح وسقالة كانت هى الطريق الى كل مــا تضــمه الشركة الآن من معدات عملاقة على أحدث ما فى العصر من تكنولوجيا.

وكانت قيمة العملية مائة وستة جنيهات، والمكسب ستة جنيهات.

وأقمت لنفس الرجل جراجا آخر . . وبلغ مكسبى هذه المرة خمســة عشر جنيها . . استخدمتها أيضا فى شراء «عدة شغل» جديدة . .

وقمت بعد ذلك بتنفيذ عدة عمليات لبناء عدد مــن البيوت، أذكر أننى ربحت من أولها عشرة جنيهات، ومن الثانية خمسة عشر جنيها، ومــن

الثالثة عشرين جنيها . .

وتوالى تنفيذ مثل تلك العمليات ، وبدأ يتصاعد منحنى أعمالى ، ويتصاعد معه إيرادى . .

ولكن لم انتقل حتى الآن إلى مجال المقاولات الحقيقى .

كنت اقوم فى تلك الايام بأكثر من وظيفة فى وقت واحد . . كنت أنا المخزنجى وأنا امين الخزنة ، وأنا عامل التليفون ، وانا ساعى المكتب أيضا . . كنت أقوم بكل هذه الوظائف إلى جوار اننى مقاول بالدرجة الاولى . .

وأحيانا كنت أقوم بدور العامل أيضا عندما يتخلف اى عامل من العمال عن الحضور للعمل لأى سبب من الأسباب عندما كنت أتولى تنفيذ مهمته . .

وفى تلك المرحلة من حياتى كنت أقوم بترتيب وتنظيم العمل ، والاشراف على كل شىء بنفسى دون أن يساعدنى أحد . .

كنت أخرج من المنزل فى حارة عبد العزيز ، وأتجه إلى شارع مكة . . وكان فى آخر هذا الشارع مخبز بلدى ، كنت أشترى منه رغيفا طازجا ساخنا ، وقد أخرجوه لتوه من الفرن ، وكان يوجد بجوار المخبز بائع طعمية ، كنت أشترى منه « طعمية » ساخنة ما يكفى لحشو الرغيف ، كنت أضع « الطعمية » فى الرغيف والتهمه .

كانت تلك الوجبة مقررة على كل صباح ، وكنت اظل عليها حتى نهاية اليوم ، ولذلك كنت اطلق عليها اسم « أكلة الاسمنت المسلح » . .

اتجه بعد ذلك إلى مكان العملية التى كنت اقوم بتنفيذها قبل ان يصل إليها أى عامل من العمال . . وكانت عادتى أن أقوم بتوفير كل ما تحتاجه العملية من لوازم العمل ، من مواد بناء ومستلزمات فى مساء اليوم السابق ، حتى يبدأ تنفيذ العمل على الفور عند وصول العمال ، وحتى لا يكون نقص اى شىء فى العملية سببا فى تأخير العمل .

وادركت من تجربتى أن استيقاظى مبكرا ، والذهاب الى مقر العمل قبل اى عامل ، وتوفير مستلزمات العمل فى حينها ليجد العمال كل شىء

جاهزا .. يتسبب فى رفع نسبة الربح بشكل تلقائى دون أى تدخل آخر منى إلى ٢٠٪ بالضبط .

وأدركت أيضا أن مجرد تواجدى فى العمل قبل غيرى من العاملين فيه ، يفرض على الجميع عدم التأخير ، كما أن تواجدى بينهم لا يجعل أيا منهم يتراخى أو يهمل .

وأدركت أيضا أن المعاملة الحسنة تجعل كلا منهم يعطيك من المجهود كل ما فى وسعه .

وأطلق على العمال فى تلك الأيام اسم « المعلم » ، فقد كانوا يجدوننى دائما بينهم ، وكنت أنا الذى أقوم بترتيب العمل وتنظيمه لهم ، وتقسيمه فيما بينهم ، وتوزيع الأدوار عليهم كما كنت أقوم بتوفير كل المتطلبات لهم ، وبصرف أجورهم ، وكل شىء بالنسبة لهم .

إنهم لم يتعودوا على أن يروا بينهم مهندسا ، فقد كان المهندس بالنسبة لهم شيئا كبيرا ، وكان أبرز من كانوا يرون أثناء العمل هو الملاحظ ، وكانوا يطلقون اسم المعلم على كل من كان يقوم بتنظيم العمل لهم ، وتوزيعه عليهم ..

وعندما وجدونى أقوم بهذا الدور وبحسن نية منهم بدلا من أن ينادوننى « يا باشمهندس » كانوا ينادوننى « يا معلم » ..

وكم كنت سعيدا بهذا اللقب ، الذى أعتز به ، وأعتبره من أبرز الألقاب التى أطلقت على فى حياتى .

وظل هذا اللقب يلازمنى حتى الآن .. حتى أن أولادى وأولاد إخوتى لا ينادوننى فيما بينى وبينهم إلا بهذا اللقب ..

المعلم « راح » المعلم « جه » ..

وكم أنا سعيد منهم بهذه الكلمة ، لأنها تعيد الى ذهنى ماضيا ، كثيرا ما يشدنى الحنين إليه بكل ما فيه من حلاوة ومرارة ..

* * *

المهم .. مرت الأيام لتتسع دائرة أعمالى ، بحيث أصبحت فى حاجة

إلى من يعاونني ، خاصة في الأمور الادارية في المكتب ، لكي أتفرغ لأعمال المقاولات ، ولكي أعطيها كل وقتي . . بحثت عمن يتولى هذا العمل ، وكلفت كل من أعرفهم بالبحث معي ، وفي أحد الأيام ، اتصل بي في التليفون الحاج إبراهيم أيوب زوج شقيقتي الصغرى .

قال لي : وجدت لك من يعاونك يا باشمهندس ، وهو موجود عندي الآن بالمحل وإذا كان وقتك يسمح فيمكنك أن تأتي لكي تتفق معه . .

وذهبت الى محل زوج شقيقتي . . هناك التقيت مع رياض يوسف أسعد ، أول موظف انضم إلى فريق الشركة بعد عثمان أحمد عثمان .

كان الرجل يعمل موظفا لدى الجيش البريطاني ، وكانت وظيفته ذات دخل مضمون ، لذلك تردد في بداية الأمر في أن يقبل العمل في القطاع الخاص ، وخاصة مع شاب ناشيء مثلي . حاولت إقناعه بشتى الطرق ، ولم يوافق إلا بعد أن عرضت عليه زيادة مرتبه الذي كان يتقاضاه من ستة جنيهات إلى ثمانية ، وأعددت له مكتبا يجلس عليه معي في نفس الحجرة التي كان بها مكتبي ، والتي هي كل مقر الشركة في ذلك الوقت .

وكان أول يوم يتسلم فيه العمل معي هو يوم أحد .

انتظرته يومها في المكتب ، حتى الساعة الحادية عشرة دون أن يحضر ، فتصورت أنه رجل ليس على المستوى الذي أريده من الهمة والحيوية والرغبة في العمل ، وكان أن سألته عندما حضر :

أين كنت ؟ . . ولماذا تأخرت ؟ . .

وأجابني الرجل بسرعة : كنت في الكنيسة .

واطمأن قلبي من أول لحظة ، فقد عرفت أنه رجل يعرف الله ، ويرعى أمور دينه فلابد أن من يرعى أمور دينه لابد أن يرعى أمور الآخرين ، ومصالحهم ، ولابد ان يكون امينا في علاقاته معهم . .

ولم انتظر وبادرت بتسليمه العمل ، ثم تركت مكتبي لمزاولة أعمالي الأخرى . وعندما عدت في نهاية اليوم وجدته قد قام بترتيب وتنظيم كل شيء في المكتب على أحسن ما يكون .

وكم كنت سعيداً بنشاطه الذي ظل يلازمه طوال فترة عمله معي

حتى أحيل إلى المعاش وهو يشغل وظيفة « مدير خزائن شركة المقاولون العرب » ، وبقيت الصلات الطيبة بينى وبينه لا تنقطع ، كما أن ولديه ألبير ، ولطيف ، وابنته مارسيل ، قد انضموا إلى فريق العاملين بالشركة الآن . .

ومع اتساع حجم نشاطى ، أخذ العمال يترددون على مكتبى بشكل يسبب الازعاج لمرضى الدكتور سليمان عيد ، الذى كانت طبيعة عمله تختلف تماما عما كنت أقوم به من أعمال ، وكان أن أخذت قرارى بنقل مكتبى إلى مكان آخر دون أن يطلب منى الرجل ذلك ، نقلت مقر المكتب إلى حجرتين من حجرات منزلنا الذى ولدت فيه ، وكنت ما أزال حتى تلك اللحظة أقيم فيه . .

* * *

بداية الأسطول . . دراجة

واتسع نشاط المكتب فى مكانه الجديد ، كما زاد عدد موظفيه .

كان رياض أسعد قد تولى نيابة عنى الشئون الادارية والمالية ، واصبحت فى حاجة أيضاً إلى ملاحظ يتواجد معى فى مواقع العمليات التى كنت اقوم بتنفيذها وليساعدنى فى مباشرة العمل ، وانضم إلينا المعلم زكى بيومى ، لكى يقوم بذلك الدور ، والتحق بالعمل معنا فى ذلك الوقت « عم » إبراهيم الساعى لكى يباشر عملية خدمة المكتب .

واحتاجت أعمالى الكثيرة فى تلك الايام إلى تليفون وكان أول تليفون قمت بتركيبه باسمى يحمل رقما ما أزال اتذكره ، حتى الآن وهو « ٣٤٩ الاسماعيلية » .

وأذكر أننى اشتريت دراجة لرياض اسعد فى تلك الأيام لكى تسعفه فى تنقلاته لمباشرة مهامه ، حيث كنت اقوم بتكليفه بتحصيل ما لنا من مستحقات عند الغير ، وبالاتفاق مع تجار مواد البناء على توريد الكميات التى كانت تلزمنا لانجاز عملياتنا . .

وكانت علاقتى بهم جميعا طيبة ، ولا أذكر ان أحدهم تأخر فى يوم

مــن الأيام عن توريد مــا كنت أطلبه مــن المواد التى كانوا يمــارسون تجارتهم فيها . . وكثيرا مــا لم يكن معــى ثمــن مــواد البناء التى كنت أشتريها ، وكانوا لا يطالبوننى بالثمن ، وينتظرون حتى أقــوم بالســداد من تلقاء نفسى ، ولم يكن ذلك التصرف منهم إلا نتيجــة لما آمنت به ، منذ البداية ، وهو ضرورة إقامة علاقات طيبة مع الناس . .

* * *

اول سيارة :

وفى تلك الفترة بدأ نشاطى يمتد إلى خارج الاسماعيلية ، وإن كان لم يتعد المنطقة المحيطة بها ، وأصبحت فى حاجة إلى ســيارة ، وأذكر أننى اشتريت سيارة « أوبل » مستعملة ، وقد قمــت بتجــديد « مــوتورها » ، وظلت تلك السيارة معى ، وقد عملت على تجديد موتورها ثلاث مــرات ، وقد قطعت بها اكثر من ٣٠٠ الف كيلو متر . .

وهكذا . . كنت أول سائق انضم إلى فريق العاملين ، أمــا الســائق الثانى فكان « الأسطى بهلول » الذى ما يزال حتى الآن يعمــل بالشركة « شيخا للسواقين » . .

انضم إلينا عندما اشتريت أول سيارة لورى بعــدما أصــبح حجــم نشاطنا يحتاج إليها ، توفيراً للأجور المرتفعة التى كنا ندفعها للغير . .

وكانت هذه التجربة بداية اقتناعى بأن تمتلك الشركة أسطول النقل الخاص بها لكى ينقل لها ، بل ويســتخدم اســتخداما تجــاريا بالنقــل للآخرين ، كنت قد اشتريت تلك السيارة من مخلفات الجيش البريطــانى بمائة وخمسين جنيها .

وقمت بنفسى بتعليم « الأسطى بهلول » قيادة السيارات . . وبعــد أن اتقن المهنة ، تولى العمل على اللورى ، وكثيراً ما كنت اركب إلى جواره ، وكم كنت سعيداً فى ذلك الوقت ، لأننى بدأت أشعر بالتقدم الملحوظ الذى راح يتجه إليه نشاطى عندما بدأ يتسع يوما ، بعد يوم .

أقول كنت اشعر بالســعادة وليس الرضــاء ، لأن الرضــاء ، معناه اقتناع الانسان بما حققه ، أما السعادة فتعبر عن التفاؤل الذى يدفع إلى

مزيد من الاستمرار . . أقصد فى العمل .

* * *

ورشة البلاط :

وأذكر أنني كنت أقـــوم بشراء البلاط الذى كنا نقـــوم بتركيبه فى العمليات التى كنت أقوم بتنفيذها ، وكنت أســـعى إلى تخفيض التكاليف إلى أقل سعر ممـــكن ، بشرط ألا يكون ذلك على حســـاب الجـــودة التى اتخذت منها هدفا أصيلا لكل ما قامت شركتى على امتداد تاريخهـــا كله بتنفيذه من أعمال عملاقة ، وستظل تتحدى الزمن وتحكى قصـــة عطـــاء الانسان ، وجدت أن شراء البلاط يكلفنى الكثير ، لذلك فكرت فى إنشـــاء ورشة بلاط . . وحسبت التكاليف ، فوجدت أن إنشـــاءها يوفـــر الكثير ، لذلك لم أتردد لحظة واحدة وبادرت بانشاء ورشـــة بلاط قمـــت بتركيب معداتها ، وتصنيع موتورها بنفسى . . كان إنتاجها يزيد على احتياجـــات عملياتى ، لذلك كنت اقوم ببيع ما يتبقى من إنتاجها ، وأصبحت ورشـــة البلاط أحد مصادر الدخل الجديد ، والتى ساعدتنى على أن أقـــف على قدمى فى تلك الفترة .

* * *

اول ازمة :

وتعرض مكتبى فى تلك الأيام لأزمات متعددة ، وكنت أقول كعادتى فى كل مرة « ربنا يسهل »

وأذكر أن رياض أسعد طلب منى مرة مائة وثلاثين جنيها ، كان لابد من دفعها كأجور عمال وصنايعية » ، وثمن بعض مواد البناء ، لم يكن فى وسعى فى ذلك الوقت تدبير ذلك المبلغ .

قلت له : حاضر . . ربنا يسهل يا رياض ، كان ذلك فى يوم جمعة . .

وخرجت كعادتى فى مثل هذا اليوم من كل أسبوع للتجول فى شوارع الاسماعيلية لتحقيق مزيد من الاتصـــال بالناس ، وكان أمـــر تدبير ذلك المبلغ يسيطر على تفكيرى وبينما كنت أتساءل : مـــن أين ســـيتسنى لى الحصول عليه ! !

وفى الطريق إلى المسجد لتأدية فريضة صلاة الجمعة التقيت صدفة بالحاج احمد أبو نكرى شقيق الفريق فؤاد أبو نكرى ـ الذى كان يشغل منصب قائد القوات البحرية اثناء حرب أكتوبر ، ففى الوقت الذى كنت مشغولا فيه بأمر تدبير المبلغ المطلوب منى ، كان هو مشغولا بكيفية إصلاح « سحارته » التى يروى منها أرضه . . فاستوقفنى ليستشيرنى فى أمر إصلاحها ، كان قد بناها أكثر من مرة ، وفى كل مرة كانت تنهار بعد الانتهاء من بنائها مباشرة ، ولا يعرف السبب الذى يؤدى إلى ذلك . . وسألنى : ماذا يفعل ؟

ووعدته أن أذهب معه بعد صلاة الجمعة ، لكى أقوم بمعاينتها . . وكان يلزم ذلك العمل « ميزان مياه » للتعرف على ميزانية انسياب المياه عبر « السحارة » ، ومنسوبها . . ولم يكن معى فى ذلك الوقت ذلك الميزان لأن ثمنه كان مائة وعشرين جنيها ، ولم تمكنى إمكانياتى بعد من القدرة على شرائه . . لذلك قمت باستعارته من صديقى المهندس هنرى أبادير مهندس رى الاسماعيلية فى ذلك الوقت ، وذهبت مع الحاج أحمد أبو نكرى ، وقمت بمعاينة « السحارة » وعرفت العيب الفنى الذى يتسبب فى انهيارها .

وفى اليوم التالى مباشرة قمت باصلاحه ، وعدت إلى الاسماعيلية . .

وفوجئت بالرجل يرسل لى مظروفا مغلقا عندما فتحته وجدت بداخله مائة وخمسين جنيها . .

أصابتنى الدهشة لأول وهلة . . لأن المجهود الذى بذلته أقل من ذلك المقابل . وحمدت الله سبحانه وتعالى ، على جزيل عطائه . . حيث هيأ لى ما احتاجه ومرت الأزمة بسلام . .

* * *

كل راسمالى فى خطر :

مرة أخرى تعرض المكتب لموقف صعب . . لم يكن يعانى من ضائقة مالية فى ذلك الوقت ، ولكن كل رأسمالى كان عرضة للضياع . .

كنت أقوم بتنفيذ عملية بالقرب من مدينة السويس ، وحل موعد

صرف رواتب العمال ، ودبرت المبالغ اللازمة وسلمتها إلى رياض أسعد ليتوجه بها صباح اليوم التالى إلى موقع العمل ، ليحصل العاملون على مستحقاتهم ، وكان وقتها ، فصل الشتاء ، وركب رياض دراجته واتجه إلى مكان العملية ، وحدث أن تغير الجو فجأة وهطلت الأمطار بغزارة شديدة .

وبينما هو فى الطريق ، إذ بالدراجة تنحرف به إلى ترعة صغيرة على جانب الطريق ، وسقط رياض والدراجة والحقيبة التى يحمل فيها ما كان معه من نقود ، وهى كل ممتلكاتنا فى ذلك الوقت .

وتمكن الرجل من أن ينجو من الغرق ، وخرج من الترعة وحمل حقيبته ، وأمسك بيده دراجته ، وذهب إلى مطحن كان بالقرب منه ، وكان يجلس بجواره رجلان ، أراد رياض أن يحتمى بهما ولكنهما كانا من الأشرار . . لقد راودتهما نفساهما فى الانقضاض عليه ، وبينما كانا يدبران الأمر فيما بينهما ، أتت سيارة ، ووقفت فجأة ، ويبدو أنها جاءت خصيصاً من أجلهما ، لأنهما فرا إليها ، وفرت بهما ، بما كان معهما إلى حيث كانت تريد ، وحمد رياض ربه الذى أنقذه ، وانقذنى ، وانقذ ما كان معه ، وراح يجفف عرقه ويجمع شتات أعصابه ، وتمكن من ساقيه ، وبدأ فى استكمال رحلته من جديد . .

إلا أنه بعد بضعة كيلو مترات ، انحرفت به دراجته الى نفس الترعة مرة أخرى ، وسقط فيها . . وبينما كان يحاول النجاة هو والحقيبة والدراجة ، إذ بالدماء تتجمد فى عروقه مرة أخرى . . لقد تحقق من نهايته هذه المرة . .

لاحظته سيارة دورية إنجليزية ، حيث كانت تكثر دورياتهم فى تلك المنطقة بالذات ، لأنها كانت مركزاً لنشاط كبير للفدائيين . . اتجه أحد من كانوا فى السيارة نحو رياض وسارع رياض ، يروى له قصته ، ويطلب منه نجدته ، قبل أن يسدد الرصاص إلى قلبه . . ولكن الجندى الانجليزى ــ ركله الى حيث هو ، وانصرف وحمد رياض ربه مرة أخرى . . واستكمل مشواره ووصل إلى موقع العمل وأدى مهمته وعندما عاد ليروى لى ما حدث . . قلت :

الحمد لله . . إن الحرام لم يجد له طريقاً إلى أموالى . . لا من قريب ولا من بعيد . .

حفظت الله . . فحفظنى . . وأخذت فى مداعبته ، وأنا أعبر عن فرحتى بنجاته وأنا أقول له :

لماذا لم تأخذ معك المرتبة يا رياض . . وأخذنا نقهقه من الضحك ، فقد كان يتولى رياض تحصيل كل مستحقاتنا عند الغير ، وكان يحتفظ بها معه . . ولم يكن لدينا مكان يضع فيه رياض ما يتجمع لديه من نقود ، فلم يصل حجم تعاملاتنا فى ذلك الوقت إلى الحد الذى يتطلب خزينة ، لذلك كان يأخذ كل رأسمالى معه إلى منزله ، وكان لا يأمن أن يضعه فى اى مكان إلا بين مرتبتى السرير الذى كان ينام عليه . .

وظل رياض على هذه الحال ، إلى أن استطعت ان ادبر له المكان الذى يحتفظ فيه بما يتجمع لديه من نقود . .

الحديد حلال :

كنت حريصا منذ البداية على ان يكون خطى مستقيما . . أراعى الله فى كل امورى وتصرفاتى ، وأذكر أننى تعرضت فى تلك الفترة لاختبار صعب ، لولا شدة إيمانى ، كان من الممكن ان انحرف إلى الطريق الذى حرصت طوال حياتى على ان اكون بعيدا عنه .

وكانت أسباب الاغراء كثيرة ، ولكننى على قناعة كافية بأن الدنيا لا يمكن أن تغنى عن الآخرة . .

إنها اسس وضعتها لنفسى ، وتأكدت من سلامتها . . لكى يقوم البناء صحيحا وسليما ومتينا ، وحرصت على تأكيد تلك الأسس فى نفس وقلب وعقل كل من عمل معى . .

كان المكتب يقوم بتنفيذ عملية « بالكون طائر » بسينما مصر بالاسماعيلية ، كان ذلك فى بداية ارتيادى لمشروعات الانشاء . . اختفى الحديد من السوق فجأة ، وظل على هذا الحال حوالى شهرين . . وكان يعمل معى وقتها صديق طفولتى سيد خفاجه وكان شديد الحرص على نجاحى . .

وكانت مسألة نقص الحديد ، وتوقف العمل تشغله كثيراً . . فذات يوم بينما كان يجلس على المقهى بين أصدقائه ، التقى بأحد السائقين الذين كانوا يعملون مع الجيش البريطاني ، وتطور الحديث بينهما ، وتطرق لموضوع نقص الحديد واتفق معه على أن يقوم بتهريب حمولة جرار حديد مقابل ١٠٠ جنيه ، من إحدى العمليات التى كان السائق ينقل الحديد إليها .

وجاءنى سيد خفاجة وهو يكاد يطير من الفرحة ليبلغنى بخبر الصفقة التى نجح فى أن يعقدها لصالحى ، وكانت مفاجأة بالنسبة له ، عندما قلت وأنا فى أشد حالات الضيق ، آسف . .

وكانت صدمة شديدة له أيضاً . .

وذهل الرجل من موقفى وسألنى عن سبب رفضى . .

فقلت له لا اريد يا سيد أن أعود نفسى على مثل هذه الصفقات ، إنها حرام ، ولا أريد أن يدخل مالى إلا كل ما هو حلال . .

وسخر منى سيد خفاجة وهو يقول لى : « خليك فى الحلال بتاعك »

ثم تركنى وانصرف . .

ومرت عدة أيام وتوفر الحديد أثناءها فى السوق ، وقد حصلت على الكمية التى كنت أحتاج إليها ، ولكن بثمن وصل إلى ستة أضعاف ثمن الكمية التى كان سيحصل به عليها سيد خفاجة . .

إن ذلك الفارق الكبير فى الثمن ، فى الوقت الذى لا يوجد فيه الحديد فى السوق ، والعمل المتوقف ، كان من شأنه ان يغرينى بأن أقبل الصفقة التى عقدها لصالحى صديقى ، ولكننى رفضت متمسكاً بقيمى واخلاقياتى ، ودينى ، ولا يسعنى إلا أن أقول لأبنائى من الشباب :

لا تسلم نفسك يا ولدى لأى من مغريات الدنيا ، مادام فيها ما يغضب الله . . وإذا كان لك صديق يدفعك بحسن نية إلى أن ترتكب الخطأ . . فعليك أن ترشده ، وتعيده إلى حظيرة الايمان بالله . لأنه هو الطريق الوحيد الذى يصل بك إلى بر الأمان . .

وكانت تلك « البالكونة » أول عمل من نوعه يتم تنفيذه فى

الاسماعيلية .

وكانت الشائعات تملأ المدينة بأنها ستنهار بمجرد « فك الشــدة » ، ولن تتحمل أية حمولة يمكن ان توضع عليها . ولم أعلق بكلمة واحدة .

ولكن عندما انتهيت من العمل وجاء وقت « فك الشدة » كمــا يقــول المعماريون وضعت فوقها حمولة تقدر بضعف الحمولة التى كان مقــررا لها أن تتحملها طبقا للمواصفات .

وتجمع معظم أهــل الاســماعيلية فى ذلك الوقــت ، لكى يشــاهدوا البالكونة وهى تنهار ، كما كانت تردد الاشاعات .

واذكر اننى أحضرت كرسيا وجلست تحت « البالكونة » تماما وكان يجلس الى جوارى سيد خفاجة . . وتعالت الأصوات تطالبنى بالابتعــاد عن المكان الذى كنت أجلس فيه . . بينما كان سيد خفــاجة يصرخ بأعلى صوته وهو يردد « الحديد حلال » « الحديد حلال »

وتم فك الشدة ، ولم يحــدث إلا كل خير . . وتأكد لى مبدأ عملت به فى كل حياتى ، هو أن عمــل الانســان هــو الذى يدافــع عنه فى الدنيا وفى الآخرة ، وأنه مهما كثرت إشاعات الناس ، ومهما كثر كلامهــم حــولك ، فلا تلتفت وراءك ، وامش فى طــريقك ، حتى لا يضــيع وقتك ومجهــودك ما دمت متأكداً مما تفعل .

* * *

مرحلة جديدة

مواقف قليلة ، من تجربة كبيرة .

مواقف أردت أن أرويهــا ليس على انهــا هــى كل التجــربة التى عشتها ، ولكن على اعتبار أنها علامات ومعالم على الطريق ، كانت أكثر من غيرها بروزاً للتعبير عن تلك المرحلة الهامة مــن حياتى ، والتى كنت ما أزال فيها فى دور التكوين ، وكنت موضع اختبار عملى وحقيقى مع كل ما تعلمته من قيم ، وما رسخ فى نفسى من إيمان ، والحمد لله . . واصــلت السير على الطريق المستقيم ، وكان فضل الله على عظيما . .

وانتقلت إلى تنفيذ العمليات الكبيرة . . وبدأت مـرحلة جـــديدة فى حياتى ومقاولاتى .

لم يكن العمل المكلف به هذه المرة ، كالأعمال التى نفذتها من قبل . . إن المطلوب تنفيذه . . « ڤيلا » كاملة متكاملة ، مرة واحدة ، وكان إنشـــاء تلك « الڤيلا » بداية تحـول كبير فى أعمـــالى فى ذلك الوقـت ، وكان لذلك الموضوع قصــة مثيرة ، لعــب القــدر فيهـــا ، دورا كبيرا ، ورتب المولى سبحانه وتعالى لها ترتيبا دقيقا ، وكان المكتب يعانى من ضائقة مــالية شديدة فى ذلك الوقت . . وفى صباح أحد الأيام جاءنى رياض أسعد يطلب منى مائة وخمسين جنيها ، لكى يدبر بها أمور بعض الأعمـــال ، ولم يكن معى منهـــا حتى مـــائة وخمســـون قـــرشا ، ولما عرف رياض منى ذلك سألنى :

ماذا أفعل الآن ؟ .

قلت له : اذهب إلى بعض الذين نتعامل معهم ، وما يزال لنا عندهـــم باقى مستحقات . . ربما تستطيع تدبير المبلغ .

وكان أن رد على بأنه ذهب من غير مـــا أطلب منه ذلك ، ولم يحصـــل من أى منهم على أى مبلغ .

قلت له كعادتى : حاضر . . ربنا يسهل . .

تلفت الرجل حوله ، وهو فى أشد حالات الارتباك والحيرة . . وتركته وأنا أكثر منه حيرة ، وذهبت إلى القنطـــرة لمباشرة عملية صـــغيرة كنت أقوم بتنفيذها هناك ، وبعد ان تفقـــدت العملية ، وقمـــت بترتيب العمـــل اللازم فيها ، اتجهت إلى منطقـــة فنارة ، فى طـــريق الســـويس ، لمباشرة عملية صغيرة أخرى لى هناك ، وأثناء عودتى ، تذكرت أننى نسيت بعض الأوراق الهامة الخاصة بعملية فنارة فى المكتب ، وكان لابد أن أعود إلى الاسماعيلية مرة أخرى ، وهنا تدخل القدر ، لا ليغير مســـار ســـيارتى ، ولكن لكى يضيف وقفة جـــديدة تنقلنى إلى مـــرحلة هـــامة فى مجـــال أعمالى . . كيف ؟

عندما وصلت إلى المكتب ، فوجئت برجل بدوى يدفع الباب ، ويدخـــل

إلى حجرة المكتب ، فى نفس اللحظة التى كنت اعتزم فيها مغادرته ، بعد أن حصلت على ما كنت أحتاجه منه ، ولم تكن لى بذلك الرجل سابق معرفة . . ولكن كعادتى . . رحبت به كما أرحب بكل من يقابلنى فى أى مكان سواء أكان يعرفنى أو لا يعرفنى .

وبادرنى الرجل يسأل :

هل أنت المهندس عثمان أحمد عثمان . .

فلما أجبته بالايجاب . . قال :

انا عواد فليح من قرية المسخوطة فى أبو صوير .

قلت له : أهلا وسهلا يا عم « الشيخ عواد »

قال : أريد أن أبنى بيتا لى فى قريتى .

قلت : بكل سرور . . حاضر . .

وطلبت منه أن يعود مرة أخرى بعد أسبوع حتى أتمكن من إعداد الرسم الهندسى الخاص بالمنزل ، لعرضه عليه لابداء ملاحظاته حتى اضعها فى اعتبارى قبل أن نبدأ التنفيذ ، وكان أن رد بتلقائية شديدة وطيبة متناهية ، هل المسألة تحتاج إلى رسومات ؟ . .

وامسك بعصاه وراح يخطط بها على الأرض وهو يقول لى :

اريد طرقة طويلة ، يقام على كل جانب من جانبيها اربع حجرات . . فهل هذه المسألة تحتاج إلى رسومات وكروكيات . . فضحكت وقلت له : أبدا يا عم عواد . .

وامسكت بالقلم ، ثم قمت بتخطيط رسم كروكى للمنزل الذى يريده . . وانا اقول له :

سأعد الرسم بهذا الشكل يا « عم الشيخ عواد » .

ولكن الرجل رفض أن ينتظر . . وقال :

اريد كل شىء الآن . .

قلت له ، كيف يا رجل استطيع ذلك ، إن العملية تحتاج الى العديد

من الحسابات فينبغى أن اذهب إلى هناك ، لكى أعاين الموقع ، وأعرف كيف سأقوم بنقل مواد البناء اللازمة ، وعدة الشغل التى سنعمل بها ، وكذلك أسعار مواد البناء ، حتى أستطيع حساب التكاليف اللازمة . .

ولكن الرجل قاطعنى وهو يقول : أنت مهندس ، وتستطيع أن تحسب كل شيء الآن وكان لابد أن ارضيه فقد جاءنى متحمسا ، وكان لا يصح أن أطفيء حماسه . . ومع أن هناك أمورا كثيرة تحتاج الى ترتيب ، إلا إننى قمت بحساب عشوائى سريع للتكاليف ، وضعت فيها احتمالا لما يمكن أن نتعرض له من ظروف ، لم نكن نعرفها فى ذلك الوقت ، فأضفت الى حساب التكاليف نسبة ٢٥٪ احتياطى .

وقلت له إن تكاليف العملية أربعة آلاف جنيه « يا عم الشيخ عواد »

ولم ينتظر الرجل ، أو يناقش وقال على الفور : أنا موافق

ووضع يده فى يدى وطلب منى أن نقرأ الفاتحة . . وبعد ذلك وضع الرجل يده فى جيبه ، وأخرج منه منديلا على شكل « صرة » . . قام بوضعها على المكتب ثم تأهب للانصراف . .

قلت له : ما هذا يا « عم الشيخ عواد » ؟ . .

قال : مبلغ خمسمائة جنيه . .

قلت له : ماذا سأفعل بها ؟

قال ربط كلام . .

وحاولت أن أحرر للرجل إيصالا بالمبلغ فرفض . . وكررت المحاولة ، ولكنه أصر على موقفه ، وهم الرجل بالانصراف . . دون أن يتفق معى حتى على موعد آخر نلتقى فيه ، لكى أذهب معه إلى موقع العملية ، لوضع الترتيبات اللازمة ، وكان أن قلت له :

لم نتفق على موعد نلتقى فيه يا عم « الشيخ عواد » .

فقال : الموعد الذى يناسبك .

واتفقت معه على تحديد للموعد الذى سنتقابل فيه . . والمكان الذى سينتظرنى عنده

وانصرف الشيخ عواد . . وجلست بعد ذلك مع نفسى . .

إن الموقف اكبر بكثير من ان اتركه يمر من غير ان اقف عنده . . لقد أكد عندى كل ما اقتنعت به من افكار تتصل بالايمان المطلق بضرورة تسليم أمورى لله سبحانه وتعالى ، وتعلمت منذ تلك اللحظة . . ألا اكون واحداً من الذين يحسبون الامور كثيرا .

صحيح لابد أن أخذ حذرى كما أمرنى ربى ، ولكن اقصد الا أسلم نفسى للمشاكل التى تعترض طريقى ، وأترك أمرى لله سبحانه وتعالى يتولاها نيابة عنى ، لم أكن على موعد مع الشيخ عواد فليح ، لكى يحضر لى دون سابق معرفة خمسمائة جنيه ، ولكننى كنت على موعد مع رياض لأدبر له مبلغ مائة وخمسين جنيها لا أعرف من أين لى بها . . منذ تلك اللحظة تعلمت أن يتسع صدرى لكل ما يصادفنى من عقبات على طريق حياتى ، كنت أقول لنفسى بعد ذلك الموقف :

ربما ما يغضبنى اليوم . . هو مصدر سعادتى غداً . لذلك خلت حياتى من الآلام والجروح ، وامتلأت فقط بالآمال والطموح . . ومنذ تلك الوقفة مع نفسى لم أحمل أى هم للمواقف الصعبة التى تعترضنى . .

نعم كنت وما ازال أقف واتصدى وأبذل من المجهود ما استطيعه . . ولكن آمنت بأن أسعى فقط ، ولكن ليس على إدراك النجاح . وهكذا كانت حياتى وما تزال مجموعة من المواقف الصغيرة فى حجمها ، ولكنها كانت كبيرة فى مدلولها . . ولأننى أدركت ذلك . . كان فضل الله على عظيما .

ولم أتركها تمر دون أن استخلص العبرة التى فيها . . فكانت لى كل هذه الحصيلة الضخمة من الخبرة والقدرة على مواجهة المواقف . .

لم أقف عند تلك النقطة عندما جلست أستوعب ذلك الموقف . . ولكن استوقفتنى صفة هامة كان لابد أن يتحلى بها أى انسان يعمل معى أو أتعامل معه . .

إنها الأمانة . . والثقة . . استأمننى الرجل دون أن يعرفنى . . ولكنه سمع عنى فقط ، وعرف أن سمعتى طيبة ، ولم تكن هذه السمعة إلا

نتيجة طبيعية للثقة التى أعطـاها لى الناس بفضـل حسـن معـاملتى ومراعاتى لربى فى كل تصرفاتى . .

ومـا كان ذلك الموقـف إلا إثباتا جـديداً ، وتأكيداً لا يأتيه الباطـل بضرورة أن أسير على الخط الذى اخترته لنفسى ، لأن مـا يحـدث ليس إلا تجسـيدا للنتائج الايجـابية التى كان لابد أن تترتب على مـا كنت أفعله . .

وهنا لابد أن أشير إلى قيمة التجـربة فى حياة أى إنسـان ، إنهـا توضح بما لا يدع مجالا للشك النتائج التى يقف عندها ، ويحـدد خـطاه على هدى منها . .

إنه موقف صغير . . ولكن أصبح عندى مقياسا للمواقف الكبيرة . .

كنت قد تأكدت فى تلك اللحظة من أن الأساس الذى وضعته سليم . . وليس أمامى الا أن أستكمل البناء ، وانتهيت الى أن أضـفت العـظات التى استفدتها من هذا الموقف إلى دستور حياتى ، وخـرجت بعـد ذلك لأستكمل برنامـج عملى اليومـى كالمعتاد ، وفى اليوم المحـدد ذهبت إلى الشيخ عواد فليح حيث كان ينتظرنى . .

وأذكر أننا التقينا فى أبو صوير ، وقمنا بتعـدية ترعة الاسـماعيلية « بالمعدية » ، وعلى الجانب الآخـر كان الشـيخ عواد قـد رتب وسـيلة المواصلات التى ستنقلنا إلى المكان . .

كانت عبارة عن حمارين ، وقد ركب كل واحد منا حمارا . . ثم سرنا فى طريق طـويل تتخلله المزارع حينا ، والصـحراء حينا آخـر ، إلى أن وصلنا إلى مكان ليس به بشر ، ولم أجد هناك أى دليل على الحياة . . فى ذلك المكان وقف الرجـل وقـال لى : أريد البيت هنا . . وقمـت بمعـاينة الموقع ، وإجراء حساباتى بناء على ما تجمع لدى من معلومـات ميدانية عن العملية التى كنت سأقوم بتنفيذها ، كانت تجـربة مثيرة مـن جميع الوجوه ، فلأول مرة أذهب إلى مغامرة فى العمل تبعد كل تلك المسافة عن الاسماعيلية من ناحية ، وتحيط بها كل الظروف التى رويتها مـن ناحية أخرى ، ولأول مرة أقبل تحمل كل ما كان قد ترتب عليها من صـعاب . .

سواء فى الانتقال إلى موقع العمل ، او فى نقل مواد البناء .

ولأول مرة اقوم بتنفيذ عملية كبيرة وسط تلك المخاطر المتعددة .

وهنا أريد أن أنكر درسا جديدا تعلمته من تلك العملية . .

تعلمت من كل ذلك ضرورة أن يذهب المقاول إلى موقع العمل لمعاينته ، حتى يجرى حساباته على أسس سليمة ، حماية لنفسه من أية مخاطر قد تنتظره فى الطريق ، فعندما اتفقت مع الشيخ عواد فليح ، لم أكن أعرف كل ما تبين لى من ملابسات عندما انتقلت إلى موقع العملية ، ولكن الله سلم . . والحمد لله . .

اختزنت ما استفدته من تلك التجربة إلى أن تقدمت فى عطاء السد العالى ، وقبل ان اقدم على أى عمل قمت بدراسة كاملة للموقع واجريت حسابات دقيقة ، وكانت لى هناك قصة أقامت الدنيا وأقعدتها . .

المهم . . بدأت فى تنفيذ العملية وحدثت فى تلك الأثناء قصة مثيرة . .

كنت قد قمت بنقل عشرين طن أسمنت إلى مكان العملية . . وأذكر فى ذلك اليوم أن الجو تغير فجأة . . وأصبح واضحا أنه ينذر بسقوط أمطار غزيرة . .

ولكننى كنت قد قمت بنقل الأسمنت ولم تكن أمامى حيلة أخرى إلا أننى طلبت من المعلم زكى بيومى الذى كان يعمل معى ملاحظا فى ذلك الوقت عدم مغادرة موقع العملية الا بعد أن يقوم بتغطية الأسمنت بالصاج والعروق لحمايته على قدر الامكان . . ولكن المعلم زكى بيومى لم يفعل ، وعاد إلى الاسماعيلية بعد عودتى مباشرة وأمطرت السماء فى تلك الليلة كما لم تمطر من قبل . . أمسكت قلبى بيدى طوال الليل خوفاً على الأسمنت ، إلى أن لاح نور الفجر ، فأديت فريضة الصلاة وانطلقت إلى موقع العمل لأطمئن على ما حدث . . وعند « المعدية » فوجئت بالمعلم زكى بيومى . .

سألته : أين كنت ؟

اجاب : فى الاسماعيلية . .

سألته : هل فعلت ما طلبته منك .

فأجاب : لا

وادركت هنا ان الاسمنت قد انتهى . . وسلمت أمرى لله . .

وعندما وصلت الى مكان العملية وجدت ربى الذى سلمت له أمـــرى قد سلم والحمد لله . . لم يحـــدث أى شىء ، ولم يتعـــرض الأســـمنت لأى خسارة . .

حيث تبين لى عندما حاولت أن أعرف سر عدم تعـــرض الأســـمنت للتلف ، انه كان موضوعا بالصدفة فوق مـــكان منحـــدر ، وكانت الأرض التى تحته أرضا صلبة . . فكانت المياه التى تسقط فوق الأسمنت تنحدر ولا تستقر عليه مـــن ناحية . . وكانت الأرض الرملية تمتص كل مـــا كان يتساقط من أمطار من ناحية أخرى ، استفدت مـــن ذلك الموقـــف الكثير الذى طبقته فى حياتى بعد ذلك ، فأصبح من بين أسباب نجاحى ، نعم إن الله أنقذنى فى تلك المرة من خسارة محققة . . ولكن لابد أن أتعلم ضرورة أن أتأكد من تأمين معـــداتى ، ومـــواد بنائى ، اينمـــا وجـــدت . . وحيثما ذهبت . . ليس ضد مخاطر الطبيعة ، ولكن ضـــد مخـــاطر البشر ايضا ، طبقت هنا قول الرسول الكريم . . « **اعقلها وتوكل** » . .

نعم أسلم أمورى لله . . ولكن بعد أن أكون قد أديت مـــا يجـــب على تأديته من واجب ، وعلمنى ذلك الدرس ، أن أول عمل أقوم به فى أى مكان أتولى فيه تنفيذ بعض الأعمال أن أقوم بتأمين معـــداتى ومـــواد بنائى ، وتصورت منذ تلك اللحظة مشهدا لا يفارق ذاكرتى حتى الآن . .

تصورت أن المقاول رجل احشاؤه خـــارج بطنه . . عليه أن يحميهـــا أولا كحل مؤقت . . ثم يُعيدها إلى الداخل بأسرع ما يمكن .

يعيدها بسرعة ، لأنها عُرضـــة لجميع الكلاب الضـــالة التى يســـيل لعابها ، لأن تنهشها .

وحرصت منذ ذلك الوقت أن أقوم ببناء علاقات صداقة ومـــودة طيبة مع الناس فى كل مكان أذهب إليه أو تمتد إليه أعمالى . .

كنت ومازلت أستعين بهـــم ، وأحـــرص على توفير فـــرص عمـــل لأبنائهم ، وأقبل تشغيل معداتهم . .

وحرصت أيضاً على أن أترك أثرا نافعا فيما بينهم من خلال ما كنت وما زلت أقيمه من مرافق خدمة عامة على قدر ما أستطيع .

حرصت على أن يعود المشروع الذى ينفذ بالقرب منهم بالنفع عليهم ، فحرصوا على ، وكانوا أكبر عوامل التأمين التى حمتنى ، وحمت معداتى إلى جانب حرصى ، وحرص رجالى على معداتنا ومواد بنائنا . .

كانت تجربة صغيرة ، استفدت منها عبراً كبيرة ، فأضفتها إلى المشاعل التى أنارت طريق حياتى ، فكنت أرى الهدف واضحاً .

والحمد لله . .

* * *

كانت ڤيلا عواد فليح إيذانا بدخولى مرحلة جديدة من مراحل العمل فى المقاولات . . وكان ذلك عام ١٩٤٦ ، والهدف هو أن أسعى لكى أصبح مقاولا كبيرا ، وصاحب شركة مقاولات كبرى ، وكانت عملية الشيخ عواد فليح ، حافزا على الانطلاق إلى آفاق جديدة لأعمال المقاولات . . ومع تزايد الطموح ، والتطلع الى مجالات أرحب لهذه الأعمال ، فلا بأس أن يطول بنا الطريق . . بل ولا بأس أيضاً . . أن تتكاثر الأشواك فى طريقنا ، فهذه سنة الحياة ، لمن أراد أن يركب الصعاب . . لكنه واصل ـ لا محالة ـ بايمانه وإصراره ،إلى ما يبتغيه . . مادام سلاحه فى مسيرته ، هو الاعتماد على الله ، ومادام هدفه تحقيق الخير . . له . . وللناس . . له أولا . . لا بأس . . وللناس بعد ذلك . . أو للناس أولا . . وله بعد ذلك ، أو له وللناس فى آن واحد ، **فالأمر فى أوله . . وفى آخره لله وحده . .**

واخيرا ، فقد كان الشعار الذى حملته بين جنبى ، هو القرش الحلال ، ومراقبة الله . . والضمير ـ فى كل خطواتى ، ولو كانت قفزاً . . بعد أن بدأت صعود السلم من أسفله درجة ، بعد درجة ، حتى وقفت فوق قمة الجبل . وأنا فى قلب أبنائى فى « المقاولون العرب » .

وبعدها بدأت فى تنفيذ العديد من المشروعات المماثلة لها والأكبر منها . . ولكن رويت قصتها بالذات على اعتبار أنها تمثل بداية منعطف جديدة فى طريق حياتى . .

كان إيمانى بالله ، وبرزقه الغيبى ، واعتمادى عليه ، وعلى القيم الأخلاقية التى تمسكت بها ، منذ تعلمتها ، والتزمت بها خلال مراحل حياتى ، كانت كلها المفتاح الأول ، والسبيل إلى بلوغ غايتى ، وكنت إلى ذلك شديد الحب لبلدى ، شديد الثقة بنفسى ، وبمقدرتى على تخطى العقبات ، شديد التفاؤل بالمستقبل .

كانت هذه كلها أدواتى وأسلحتى فى العمل ، والبذل بغير حساب ، فى أى عمل أكلف به ، وإتقانه ، واحترام الموعد والوقت ، مهما كلفنى ذلك من تضحية ، والوفاء بالوعد ، لا أحيد عنه ، أو اتنصل منه ، والاعتزاز بكلمتى والالتزام بما تعهدت به وبتنفيذه ، والبعد عن أساليب الدجل ، والكذب ، أو الاستغلال فى كافة صوره وأشكاله ، أو الانحراف . . وكل ذلك فى إطار من الايمان العميق ، بأنه فى النهاية لا يصح إلا الصحيح .

نعم . . كانت هناك أشواك فى الطريق . . لكن لذة الدنيا كلها ، فى اللحظة التى تتحول فى يد المؤمن بالله عن يقين ، إلى ورود . . تختلط برائحتها الجميلة رائحة العرق فى العمل والمثابرة ، والصبر .

فماذا حدث بعد ذلك . . .

* * *

من أنت ؟!؟
سؤال لن أنساه!

بدأت أتطلع فى تلك المرحلة إلى تنفيذ الأعمال الكبيرة . . أو بمعنى آخر . . المجال الحقيقى للمقاولات . .

فكل ما كنت اقوم بتنفيذه من أعمال حتى ذلك الوقت لا يمثل أكثر من محاولة للاستعداد لكى اقتحم ذلك المجال الواسع الكبير ومعى كل الأسلحة التى يمكن أن تحقق لى النجاح . .

وكانت الأعمال الكبيرة فى ذلك الوقت هى تلك التى تسندها كبرى الشركات إلى المقاولين أو التى تقوم الحكومة باسنادها إليهم . .

وحتى يتسنى لأى مقاول أن يقتحم ذلك المجال . . كان لابد له من سابقة أعمال .

لذلك رحت أسعى إلى بداية تلك السابقة لكى تكون أساسا لما تضمه من أعمال فيما بعد تعطى الثقة للشركات الكبيرة والحكومة لأن تسند لى مثل تلك الأعمال .

ورحت أخطو نحو الاقدام على تنفيذ العمليات الكبيرة ، بعد أن كانت إمكانياتى قد تجاوزت ما كان يمكن أن يسنده إلى الأهالى من أعمال . .

ووجدت فرصتى إلى ذلك فى إعلان صغير أعلنت فيه شركة عبود باشا عن عملية بناء سور لمصنع السماد بالسويس الذى أنشأه عبود باشا ، فى ذلك الوقت .

وعندما تقدمت للاعلان سألونى . .

من أنت ؟

نعم أعرف من أنا . . بما تيسر لى من إمكانيات ، وخبرة ، وما فى رأسى من طموح . . ولكنهم لا يعرفون . . وكان لابد أن يعرفوا . . ولكن كيف ؟

من أنت ؟ . .

سؤال حفظته عن ظهر قلب . .

فهناك فى حياتى أشياء معدودة . . حفرت فى نفسى الكثير . . فحفظتها . . وعندما رحت أعود إليها وجدتها كانت تمثل معالم بارزة على الطريق .

وكان ذلك السؤال من بين تلك الأشياء . . سألوه لى عندما رحت أرتاد الآفاق الحقيقية لمجال المقاولات حتى كسبت عطاء سور مصنع السماد ، الذى فتح أمامى الطريق فيما بعد لأن أتقدم فى عمليات الحكومة كما سأروى بعد قليل . .

وكان هذا السؤال يمثل منعطفا جديداً فى تلك المرحلة .

سألونى هذا السؤال أيضا عندما رحت أرتاد مجالات جديدة خارج مصر فى البلاد العربية .

وكونت هناك ثروة أتاحت لى تكوين شركة كبيرة قادرة على أن تهزم جميع كبرى شركات مصر فى عطاء السد العالى .

ولكن عاد نفس السؤال يطل برأسه مرة أخرى عندما سألتنى صخور أسوان وهى تتحدانى :

من أنت ؟

وبفضل الله نجحت فى تحطيم أنيابها ، وتصورت أن ذلك السؤال لن يعود ليطرح نفسه أمامى مرة أخرى .

ولكن عندما أمم نظام الحكم السابق شركتى ، كانت كل الظروف المحيطة تسألنى نفس السؤال : من أنت ؟ ! حتى تسلم ، أو تسلم شركتك من أن ينالها ما حدث لغيرها . .

ولكن تخطيت المرحلة بحمد الله . .

وبقيت المقاولون العرب عملاقة ، وكبرت وراحت تمتد يدهـــا إلى كل مكان فى مصر حتى زراعة صحرائها . .

ولكل هذه الأسباب فضلت أن أروى قصتى مع ذلك السؤال ، عندما وجدت نفسى أقف أمامه لأول مرة بوضوح فى حياتى .

كان قد صادفنى ذلك الســؤال عندمـــا ســعيت إلى الالتحـــاق بكلية الهندسة . . وصادفنى عندما فارقت أمى . . وصادفنى عندما تكاتفت مع شقيقى محمـــد لتدبير مـــوارد رزقنا فى الوقـــت الذى كنت مـــطالبا فيه بالانكباب على دراستى . . وصادفنى عندما ناقشت شـــقيقى إبراهيم فى أمر مستقبلى . . وصادفنى عندما قررت أن استقل فى العمـــل وأن أترك خالى وأذهب لكى أبحث عن نفسى . .

وصادفنى عندما كبرت إمكانياتى وأصبحت قـــادرا على أن أتقـــدم لتنفيذ العمليات الكبيرة . . وصادفنى عندما أقامت المقاولون العرب سدا للصواريخ فى مواجهة طيران إسرائيل بالرغم من إرادة الروس . .

صادفنى ذلك السؤال كثيراً . . وفى كل مـــرة عندمـــا كنت أجيب عليه كنت أجد نفسى أمام مرحلة جديدة تماما من مراحل حياتى . . ومـــراحل تطور « المقاولون العرب » معى .

فكيف بدأت قصة ذلك السؤال ؟ . .

* * *

عبود باشا :

كان أن قمت حتى ذلك الوقت بتنفيذ عمليات محدودة للأهالى لا يزيد حجم أكبر عملية منها عن كونها إنشاء منزل .

ولكن بدأت بعد ذلك فى التفكير فى أن أخطو خـــطوة أكثر اتســـاعا . . كان لابد أن أبحـــث عن العمليات الكبيرة التى تســـندها الشركات الى المقاولين . .

وكان أول تعامل لى مع شركة عبود باشا ســـنة ١٩٤٧ . . ذهبت إلى شركته مقاولا مغمورا ، أطلب منه إسناد بعض عملياته المحـــدودة لى . .

ولم اكن أعرف أن شركتى ستقف بعد عشر سنوات تقريبا عملاقة أمـام شركته تتحداها وتتحدى معها كل أباطـرة المقـاولات فى مصر ، والذين وقفوا جميعا ضدى فى عطاء السد العالى الذى انتصرت فيه ، ليس عليهم وحدهم ، ولكن كانت هناك ملحمة كبيرة خصصت لها مساحة واسعة من هذه الصفحات . .

كان عبود باشا قد حصل على قرض امريكى لبناء مصنع للسماد فى السويس ، وطرحت شركته عملية إنشاء سور ذلك المصنع فى عطاء . .

سافرت من الاسماعيلية إلى القـاهرة لكى أتقـدم لشراء كراسـة العطاء مثلى مثل غيرى . طـرقت باب الشركة ، لأطلب مقـابلة العضـو المنتدب لذلك المصنع . . وكان يشغل هذا المنصب وقتها عبد القوى باشـا احمد الذى شغل منصب وزير الأشغال فى فترة من الفترات .

ولم أتمكن من مقـابلة الرجـل وحـاولت . . وباءت كل محـاولاتى بالفشل . .

وسألنى احـد الموظفين عن السـبب الذى أريد مـن أجله مقـابلة عبد القوى باشا ، قلت له : أريد أن أتقدم فى عطاء سور مصنع السماد . .

وسألنى الرجل بدهشة من أنت ؟

قلت له : مهندس عثمان أحمد عثمـان ، صـاحب مـكتب مقـاولات بالاسماعيلية .

قال لى : لم أسمع عن هذا الاسـم مـن قبل

قلت : ولكننى مقـاول .

قال : أين « سابقة أعمالك .

وادركت . . ماذا يعنى الرجل فلم يكن قـد سـبق لى التعـامل مـع الشركات الكبيرة أو الحكومة . فمـن أين « بسـابقة » الأعمـال . . إننى لا أمتلكها ولكننى ذهبت إليهم لكى أسـعى إليهـا . لذلك بادرت اقـول للرجل : أريد أن تكون لى سابقة أعمال معكم . .

وكان رده : إن شركتنا تتعامل مع مقاولين معـروفين ، واسـماؤهـم مسجلة فى الشركة عندنا . . هؤلاء فقط هم المسموح لهم بالتقدم لكسـب عطاءات شركتنا .

كان موقفا صعبا .

وكأن كل من ليس لديه سابقة أعمال ليس من حقه أن تسند إليه الأعمال التى يستطيع القيام بها لتكون له تلك السابقة .

وكان ذلك الطلب حاجزا كبيرا . . وكان لابد من كسره حتى أستطيع أن أرتاد ، ما وراءه من مجالات . . ولكن كيف ؟

عندما يئست من مقابلة عبد القوى باشا . . لم أنتظر وذهبت إلى شقيقى الدكتور إبراهيم عثمان لأعرض الأمر عليه . . لعلنى أجد عنده حلا . .

وكان « رحمه الله » سكرتيرا عاما لنقابة المهندسين فى ذلك الوقت . . وكان هو صاحب فكرة إنشاء هذه النقابة ، وقد قام بتجسيد هذه الفكرة حتى أصبحت كيانا .

وكانت مفاجأة عندما طمأننى إبراهيم ، وهو يقول لى إنه يعرف عبد القوى باشا ، معرفة جيدة وأنه سيحاول أن يجد حلا لمشكلتى مع شركة السماد . .

واصطحبنى إبراهيم إلى مكتب عبد القوى باشا . . واستمع الباشا إلى قصتى ، وعلى الفور أمر بادراج اسمى ضمن أسماء المقاولين المقيدين عندهم . . وبذلك أصبح المستحيل ممكنا . . وأصبح من حقى الاشتراك فى العطاء . .

وفى طريق عودتنا إلى مكتب شقيقى إبراهيم أخذ يروى لى كيف كانت بداية علاقته بذلك الرجل ، ولكننى لم أستمع اليه ، فقد كنت سارحا بعقلى فى اتجاه أخر . . كنت سارحا مع طموحى ، والعقبات الضخمة التى كانت تقف فى طريق تحقيق هذا الطموح ، كنت أفكر فى « سابقة الأعمال » .

ورحت أقول لنفسى . . ترى لو لم أكن شقيق الدكتور إبراهيم عثمان . . ماذا كان سيكون موقفى الآن ؟ . . ترى كل من يريد أن يسجل اسمه فى سجل المقاولين المقيدين فى تلك الشركة واى شركة لابد أن يكون محسوبا على أحد ، أو قريبا لواحد من هؤلاء المحاسيب . .

وخلق ذلك الموقف فى نفسى بركانا هـائلا مـن التحـدى ، والرغبة فى التصميم على أن أبلغ الشوط حتى مداه . .

وكانت هذه الواقعة أحد العوامل التى أضفت نتيجتها إلى ما جنيته من خبرات . . وتعودت على أن أواجه اليأس بالاصرار والعزم . .

وترسبت فى ذهنى كلمات شقيقى عندما قال لى : « ليس هناك أقوى من رجل عاش من أجل فكرة » .

وكان إيمانى بالفكرة فعلا هو أقوى أسلحتى التى اعتمـدت عليهـا وانتصرت بفضل الله . . تحت راية . . « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » .

المهم . . اشتريت كراسة العطاء ثم عكفت على دراستها ، وكان معى فى ذلك الوقت شقيقى المرحوم محمد عثمان . . وكان حجم أعمـالى قـد اتسع ، وأصبحت فى ذلك الوقـت فى حـاجة إليه ليقـف إلى جـوارى . . وانضـم إلى فـريق العمـل معـى منذ عام ١٩٤٤ . وكنت أريد منه أن يساعدنى وأن أساعده ، فقد كان على واجب نحوه ، فهـو الذى سـاعد أمى فى أن تواصل مسيرتها من أجلنا . . وكان نشاطى قد زاد إلى الحـد الذى يسمح لى بأن أوفر له دخلا معقولا يضمن له الحياة الهـانئة هـو وأولاده دون أن يمثل ذلك عبئا على العمل . وكان لابد أن أبادر بضمه . .

صحيح كنت أقف إلى جـواره حتى لا أعرضـه لأى أزمـة مـادية ، ولكننى كنت فى تلك المرحلة فى حاجة لأن يضم جهده ليتعانق مع جهدى . . فهو شـقيقى الذى رأى نفسـه يومـا فى ، وكان أحـرص الناس على مصالحى . .

وانتهينا من دراسة العطاء ثم قدمنا مـظروفنا بين المظـاريف التى تقدمت . .

وأذكر أن عطـائى وقتهـا كان « ثلاثة عشر الف جنيه » ، وكنت كما عرفت فيما بعد أننى المقاول الصغير الوحيد الذى تقدم لذلك العطاء ، أما باقى المقاولين ، فكانوا عبارة عن شركات كبيرة . . من بينهـا شركة عبود باشا والعبد باشا ، ومختار إبراهيم .

وفى جلسة فتح المظاريف كان عطائى أقل العـطاءات وكان العـطاء

الذى يليه حوالى ثلاثين الف جنيه ، اى بفــارق ســبعة عشر الف جنيه دفعة واحدة . . . واستدعانى الباشا .

وكان هذا الأمر سببا فى أن يتبادر إلى خاطر عبد القوى باشا أحمد أننى شاب مندفع . . تصور اننى لا أفهم ماذا أفعل . . فاستدعانى الرجل إلى مكتبه ، ثم اخذ فى مناقشتى . .

شرحت له وجهة نظرى واقتنع بها الرجل . .

ولكن للحقيقة لم أشرح له كل وجهة نظــرى . . كانت هناك أســباب احتفظت بها فى نفسى ، ولكننى أنكر اننى قلت له بالحرف الواحد :

ياباشا . . أنا مقاول صغير . . مصروفاتى قليلة ، ومعــروف أن أى مقاول دائما يحمــل مصروفــاته على العملية التى يقــوم بتنفيذهـــا ، ولما كانت هذه الشركات كبيرة ، فان مصروفاتها كبيرة ايضا ، وكان لابد أن تحمل المصروفات على العملية ، لذلك يا باشا كان الفارق الضخم بين عطائى وبين اقل عطاء بعدى . .

ثم استطردت أقول للباشا :

أطمئنك بأننى درست العملية دراســة وافية مــن جميع وجــوهها ، وذهبت بنفسى إلى الموقع وقمت بمعاينته ، وقمــت أيضـــا بحســاب كل التكاليف بما فيها التكاليف المحتملة . .

وأخذ الباشا يستمع إلى دون أن يقاطعنى ، وفجــأة التفــت ناحيتى وهو يقول : مبروك يا إبنى . . ربنا يوفقك . .

بقى ما كنت قد اختزنته فى صدرى ولم أقله له . . كان سرا لا يصــح أن أبوح به لأحد ، فقد كنت أخشى إذا عرف به الباشا أن يعتبره نوعا من الجنون . . لم يكن هــدفى جمــع المال . . ولكن حلمــى منذ البداية كان فى تكوين شركة مقاولات كبيرة ترتاد المجالات الواسعة ، لذلك كنت أفعل كل ما من شأنه أن يحقق ذلك الهدف . .

وكان من بين ما كنت أفعله . تخفيض التكاليف إلى أقل حد ممــكن ، والاكتفاء بالحد الأدنى من الكسب ، ودفعنى ذلك إلى الحرص الشديد فى حساب التكاليف .

وكان ذلك الأمر سببا فى أن يسند إلى الأهالى العديد من العمليات التى تصاعد حجمها إلى أن أصبحت أقوم بتنفيذ العميات الكبيرة لهم . . وكنت أراعى ليس فقط الحصول على مكسب محدود ، ولكن تخفيض التكاليف إلى اقل حد ممكن . .

كنت أفعل ذلك فى الوقت الذى كنت أحرص فيه على أن يكون ما أقوم به من إنشاءات رمزا للمتانة والجودة فى دنيا المعمار .

وعندما تقدمت إلى عملية سور مصنع السماد لم يكن هدفى تحقيق مكسب كبير . . ولكن لكى أخطو نحو تنفيذ المشروعات الكبيرة . . كان هدفى الحصول على سابقة الأعمال التى تمكننى من التقدم فى العطاءات الكبيرة . . لذلك حسبت تكاليفى فى أضيق الحدود .

لم أحرص على المكسب ، ولكن حرصت على ألا تضيع منى العملية التى أردت أن أثبت بها نفسى وأتخذ منها نقطة وثوب نحو أهدافى . . كان هدفى تكوين شركة كبيرة ، واقتنعت أن هذا هو أحد الطرق التى تمكننى من تحقيق ذلك الهدف على أسس موضوعية وسليمة .

لذلك كانت تلك العملية بالنسبة لى ، هدفا لتجسيد حلم ، وليس وسيلة لجمع المال . .

المهم . . قمت بتوقيع عقد تنفيذ العملية ، وبدأت العمل ، وكان موقع العمل بمنطقة عتاقة بالقرب من السويس ، وهى منطقة منعزلة تقع فى قلب الجبل . .

وعشت فى كشك :

وقررت أن أقيم فى المنطقة إقامة كاملة . .

كانت العملية ستفتح الطريق أمام مستقبلى . .

وكان أن قمت بانشاء كشك لأجعل منه مكتبا لمباشرة أعمالى الادارية ولأتخذ منه أيضاً حجرة لأنام فيها . . نقلت مقر عملى كله الى ذلك الكشك ، خشيت أن يضيع وقتى فى الانتقال كل يوم من الاسماعيلية الى موقع العمل ، ومن موقع العمل إلى الاسماعيلية .

فعلت ذلك حتى لا يكون هناك ما يشغلنى أو يشد انتباهى غير عملى فقط . .

كل ذلك فضـلا عن المزايا الكبيرة التى اكتشـفتها بعـد ذلك وكان الفضل الأول فيها يعود إلى تواجدى فى قلب موقع العمل .

تعلمت أن التواجد الدائم فى موقع العمل لابد أن يكون صـفة لازمـة لأى مقاول يريد أن ينجح . .

وكان أن قلدنى جميع العـاملين ، فـوجدتهم دون أن أطلب منهـم ينامون معى فى موقع العمل . . وجدوا أن ذلك أفضل بالنسبة لهم بدلا من الذهاب إلى منازلهم بعد إرهاق العمل فى الوقت الذى يحتاجـون فيه إلى الراحة . . وأيضا ضرورة عودتهـم إلى مـكان العمـل فى وقـت مبكر وما يسببه ذلك لهم من زيادة فى الارهاق .

وكان ذلك أفضـل بالنسـبة لى أيضـا . . كانوا ينامـون مبكرين ويستيقظون مبكرين ، ولم يكن أمامهم إلا مباشرة ما هو وراءهـم مـن عمل ، وهم فى منتهى الجدية والنشاط من ناحية ، واستغلال الوقـت إلى أقصى درجة ممكنة من ناحية أخرى . .

أقول إن الوقت له قيمة كبيرة فى أعمال المقاولات .

ومن ناحية أخرى ، كان تواجدنا معا فى موقع العمل سببا فى أن أقيم معهم أقوى الروابط والعلاقات . . فلم يكن أمـامنا بعـد انتهـاء عملنا إلا أن نجلس نتسامر لبعض الوقت قبل أن ننام . .

وكان لتلك العـلاقات أثر كبير فى أن يتضـاعف إنتاجهـم ، حيث أصبحوا أكثر حرصا منى على تنفيذ العمل وإتقانه . .

فعلوا ذلك ليس خوفا منى ، ولكن حرصا منهم على العلاقات الطيبة التى ربطتنى بهم . . ولك أن تتصور من ذلك مدى ما ينعكس على العمـل من نتائج ايجابية ترجع إلى مثل هذه العـلاقات الطيبة ، التي لا تكلفـك شيئا أكثر من أن تحب الناس فيحبوك .

واستفدت من تلك التجربة أن الاقامة فى موقع العمل تمكن المقـاول

بسبب معايشته المستمرة للتنفيذ من أن يضع يده على نقـاط الضـعف ونقاط القوة فى العملية . .

* * *

درس كبير :

وتعلمت أثناء تنفيذ تلك العملية ألا استهين برأى اسمعه مهما كان ومهما كان صاحب هذا الرأى غير ذى قيمة أو شأن . .

وأنكر انه كان يوجد فى موقع العمل بمصنع السماد خبير أمـريكى ، وكان اسمه «كلارك ديفيد»

وكان الاتفـاق بينى وبين المصـنع على أن يتم بناء السـور طبقـاً لمواصفات معينة لمواد البناء .

وأنكر أننى كنت ادفع جنيهاً لتكاليف نقل المتر الواحـد مـن الزلط المطلوب من مكانه إلى موقع العمل ، كما كنت ادفع جنيهين لتكاليف نقل المتر الواحد من الرمل ، حيث كنت أقوم باحضاره من منطقـة كبريت . . لانها تقع على بعد تسعين كيلو متراً من موقع العملية .

ذات يوم وبينما أنا منهمك فى العمل ، جاءنى رجل صـعيدى ليس لى به سابق معرفة ، وقام بعرض عينة رمل كانت معـه أحضرهـا لى مـن محجر كان يعرفه ، ويبعـد ذلك المحجـر عن مـوقع العملية كيلو مترين فقط ، وامسكت العينة ثم قمت بفحصها فحصـا أوليا لاثبت أنهـا مـن النوع الممتاز ، وكانت لا تقل جـودة عن « الرملة » التى اسـتخدمتها فى العمل . .

ولما سألت الرجل عن مكان المحجر ، أبدى اسـتعداده لاصـطحابى إليه مقابل حصوله على خمسة جنيهـات . . وأعطيت الرجـل المبلغ ، ثم ذهبت معه إلى مكان الرملة حيث قمت باحضار عينة جديدة منها .

وأنكر أننى قمت بعـرض العينة على « كلارك » وأنه أبدى إعجـابه بها ، وقد قمنا بارسالها إلى كلية الهندسـة لاجـراء التجـارب عليهـا لاختبار مدى جودتها . وكانت النتائج رائعة ، وقد وافـق « كلارك » على

استخدامها ، لتخفيض نقل المتر الواحد من الرمل من جنيهين إلى عدة قروش .

وعرضت على الرجل الصعيدى أن يعمل معى مكافأة له على الخدمة الجليلة التى قدمها لى ووفاء منى له ، إلا إنه رفض وانصرف ، ولا أظن أنى رأيته منذ تلك اللحظة حتى الآن .

وكان على أن أقوم بتخفيض التكاليف إلى أقل حد ممكن ، ففتشت حولى عن أماكن قريبة يمكن أن نحضر منها نوعا بديلا من الزلط . . وفقنى الله الى العثور على منطقة قريبة لا يكلف إحضار المتر منها إلى موقع العمل أكثر من ٣٥ قرشا فقط . . وعرضت الأمر على « كلارك » وكان رجلا متفهما مرنا ، واستطعت أن أقيم معه علاقات صداقة طيبة . . بعد معاينة للعينتين ، العينة المستخدمة والعينة الجديدة ، وافق على الفور . . وكان ذلك سببا فى تحقيق وفر كبير فى تكاليف العملية .

واختزنت ما استفدته من تلك التجربة حتى استفدت منه كثيرا فى « السد العالى » عندما وقعت أكثر من سيارة من سياراتى الروسية الصنع فى النيل بسبب « خرطوم الفرامل » . . وكانت تلك المشكلة من أضخم المشاكل التى كان يمكن أن تغير مجرى سير العمل فى الموقع بدلا من أن نقوم نحن بتغيير مجرى نهر النيل . .

واذكر أن ميكانيكا مجهولا استوقفنى مرة ليقترح على حلا لهذه المشكلة ، وحاول بعضهم أن يقول إنه مجنون ، ولكننى أعطيته الفرصة كاملة ليقول كل ما يريد ، لأن التجربة علمتنى أن أستفيد من كل المواقف التى تصادفنى فى حياتى . .

جرب الميكانيكى ونجحت تجاربه وكان فضلها على العمل كبيرا .

* * *

الخطر الأول :

ويهمنى أن أسجل هنا أن كل الملحمة التى صنعتها لم تكن من فضل مهارة عثمان أحمد عثمان ، ولكنها كانت بارادة من الله سبحانه

وتعالى . . إن الله هو الذى أراد لهــذه الملحمــة أن تشــق طـريقها إلى النور . .

كان من بين المواقف التى صادفتنى . . مواقف لم اعتمد فيهــا على استخدام مواهبى ولا إمــكانياتى ولكنهــا إرادة الله وحــده التى كانت تتدخل فيها لتساعدنى على استكمال هذه المسيرة . .

وأذكر بهذه المناسبة أنه كان من بين العاملين معى « الريس حســن عثمان » . . وهو ليس قريبى وإن كانت مكانته عندى لا تقــل عن مــكانة إخوتى ، فقد ظل يعمل معى إلى أن أحيل إلى المعاش ، وأمرت أن يظــل يقبض مرتبه كاملا من الشركة مدى الحياة .

حدث مرة أن أرسلنا أحد العاملين معنا إلى السويس ليشــترى لنا طعام الغداء . . وكانت عادتنا ان نجلس معا على الارض ثم نضع الأكل أمامنا على أوراق الجرائد . . وعندمــا أحضر العــامل الأكل ذهبت إلى الكشك لكى أحضر أوراق جرائد نفترشها لنضع الأكل عليها . . وعندمــا قمت بفتح درج المكتب لأخرج مخلفــات الأوراق التى ســنفترشها منه ، فوجئت بثعبان يطل على برأسه مــن بين تلك الأوراق ، وتمــالكت نفسى بسرعة ، ثم قمــــت باغلاق الدرج ، وأسرعت لأخبر « الريس حســــن » بما حدث . .

وجاء ليتأكد بنفسه . .

وقام بعد ذلك باستدعاء جميع العمال ، وقمنا معا بنقــل المكتب مــن مكانه الى مكان بعيد ، وبحذر شديد أخرجنا الدرج ، ليقفز منه الثعبان ، وقد وفقنا الله فى أن نتمكن من قتله قبل أن يتمــكن مــن إيذاء أى واحــد منا . . وحمدت الله أنه لم يصبنى بأذى .

إنها رعاية ربى التى حمتنى من الثعبان ، وحمتنى فيما بعد مــن كل ثعابين البشر التى حاولت أن تلدغنى وفشلت . .

أذكر تلك الواقعة لأثبت بها أن كل ما حققته من نجاحات كان بارادة الله سبحانه وتعالى الذى يقول للشيء كن فيكون ، . . وهناك وقائع أخرى مماثلة سأذكرها فى حينها . .

وكما قال أحدهم مرة لو كان ذلك الثعبان قد تمكن منى لا قــدر الله ، لما كان الآن عثمان أحمد عثمان ، ولا كانت المقــاولون العــرب ، ولكنهــا إرادة الله .

المهم . . نجحت فى تنفيذ عملية سور مصــنع الســماد ، واذكر أننى حققت منها أرباحا تتجاوز ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه .

* * *

وبدات أعرف طريقى بوضوح أكثر . . ورحت أضع قدمى على أرض أصلب . . واستطعت فى ذلك الوقت أن أرى نور الفجر بعد طــول ظلمــة الليل . .

واصبحت قادرا على الزواج . .

أنا .. وأولادى

فكرت فى الزواج قبل ان اخطو فى الطريق الذى اخترته لنفسى منذ طفولتى ، وهو أن أعمل فى المقاولات بعد تخرجى من كلية الهندسة .

وكما سبق أن قلت ، فرضت الظروف على شقيقى محمد بعد وفاة والدنا الشيخ أحمد عثمان ، ان يكون له دور فى تحمل مسئولية أسرتنا الى جانب والدتى ، وكان طفلا لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره .

وبعد أن تخرج شقيقى ابراهيم من كلية الهندسة ، وعمل معيدا ، بها شارك محمد فى تحمل المسئولية بعد وفاة أمنا . .

وعندما تخرجت انا فى كلية الهندسة سنة ١٩٤٠ ، كان محمد قد تزوج من ابنة خاله . . واتفقت مع أخى ابراهيم على أن أتحمل انا مسئولية نفسى ، وأن يحمل هو مسئولية الانفاق على حسين الى أن يتخرج . . حتى يتسنى لمحمد ، أن يتحمل مسئوليات زوجته وأولاده ، الى جانب ما كان يقوم به من عمل يتصل بنشاطى ، الذى بدأته فى الاسماعيلية ، وكان خير عون لى فيه . .

ثم تخرج حسين فى كلية الهندسة فى سنة ١٩٤٢ . .

وهكذا كنا نشكل أنا واخوتى رباعيا منسجما فى السير بخطواتنا وأحلامنا الى الغاية التى ترسمناها ، للعمل على تحقيقها ، منفردين أو مجتمعين . .

اخوالى

ولا أنسى ما كان لأخوالى فى حياتنا من أثر ، وإن كانت أمنا قد كفتنا من حرج الحاجة اليهم بشجاعتها واعتزازها وحسن تدبيرها . . فان صلة الرحم كانت تفرض عليهم واجبات ومسئوليات تجاهنا ، وكانوا فوق ذلك بالنسبة لى قدوة اقتديت بها ، عندما كنت أتطلع للعمل بالمقاولات . .

وكما سبق أن قلت ، لقد تلقيت دروسى العملية فى المقاولات ، وتمرست عليها عند خالى . .

تزوجت شقيقتنا سكينة بفضيلة الشيخ الأستاذ على حسب الله ، وكان يعمل مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى ، وتزوجت شقيقتنا هانم من الحاج ابراهيم أيوب ، ويعمل تاجرا للأدوات الصحية بالاسماعيلية . .

زواج اخوتى

وكان محمد هو أول من تزوج من أشقائى . .

ثم تزوج ابراهيم من ابنة الأستاذ اسماعيل وهبى المحامى . .

ومرت الأيام ليتزوج حسين من شقيقتها . .

وبقيت أنا وحدى بلا زواج . .

وصحيح أننى أكبر سنا من حسين ، كما أننى تخرجت قبله بسنتين ، إلا انه كان على أن انتظر ، والا افكر فى أمر زواجى إلا فى الوقت المناسب ، للاقدام على هذه الخطوة . .

الزواج والعمل

وكان أن سألت نفسى بعد أن تخرجت من الجامعة :

هل من المناسب أن أبحث عن ابنة الحلال للزواج منها الآن ؟ . .

أم على أن انتظر الفرصة المناسبة بعد أن أتمكن من شق طريقى نحو المستقبل الذى كنت أحلم به . .

وبمعنى آخر .. على أن أتخير التوقيت المناسب للزواج ..

وكان أن قلت لنفسى :

إذا كان الزواج سيكون أحد العوامل المساعدة على تحقيق الأحلام الكبيرة التى كنت أسعى لتحقيقها ، فليس هناك ما يمنع من أن أبحث عن بنت الحلال ، التى تقبل مشاركتى فى تلك المرحلة الشاقة من حياتى ..

أما إذا كان هذا الزواج سيعمل على شدى الى الوراء كلما تقدمت فى طريقى ، لتحقيق احلامى ، فليس هناك ما يجبرنى على الاقدام على تجربة يمكن أن تخلق العراقيل فى الطريق الذى اخترته لنفسى ..

وكان هناك سبب ظاهر ، يغرينى على أن أقدم على هذه التجربة ، وهو أننى أصبحت وحيدا فى بيتنا بعد وفاة والدتى وزواج أشقائى وشقيقاتى .

وكان على أن أبحث عن ابنة الحلال لأتزوجها حتى ترعى شئونى ، ولتوفر لى ما كنت أحتاج اليه من راحة وحنان ، كلما عدت من عملى إلى بيتى ..

ولكن كانت هناك المشكلة .. أن الزواج يعنى مسئوليات جديدة ..

وكان أن أخذت أسأل نفسى كأى شاب فى مستهل حياته العملية ..

أين الشقة التى سأقيم فيها مع زوجتى ؟ . وقبل الشقة .. أين مفروشاتها ؟ . وأيضا أين المهر ، وثمن الشبكة ؟ .

وتلاحقت أسئلة أخرى كثيرة على تفكيرى بالدرجة التى خشيت معها أن تصبح فكرة الزواج التى راودتنى قضية ، أمضى الساعات الطويلة فى مناقشتها دون أن أصل إلى حل ..

المهم .. أدركت فى سنى المبكرة أن بكالوريوس الهندسة ليس هو نهاية مشوار المعاناة الذى كنت أسير فيه ، ولكنه ليس أكثر من جواز سفر أو تصريح مرور يسمح للشاب بالعبور الى ميدان الحياة العامة ، حيث يوجد الكفاح الحقيقى لكل من يريد أن يضع نفسه على الطريق الصحيح لمستقبله ..

تفتحت عيناى منذ طفولتى الحالمة ، والتى كانت تمتلىء بالمرارة والاسى على الحقيقة التى تقول : « إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » .

وعرفت .. أن الكفاح لا يعنى إلا الجهد والعرق ، وأنه ليس رحلة أو نزهة فى إحدى الحدائق الغناء .. ولكنه مشوار طويل يحتاج الى الاصرار والثقة بالنفس ..

إنه ملحمة من العمل الشاق الذى تفوح منها رائحة العرق الذى لابد أن يحوله العطاء المخلص الى أريج مسك يفوح شذاه .. وكان على أن اقطع شوطا طويلا من حياتى ، وأنا أسير أثناءه على شوك يدمى الأقدام ..

واقولها بصراحة .. إذا ما كان هناك من يرى اليوم أننى أسير على حرير ناعم الملمس فلابد وأن يعرف أننى صنعته من تلك الأشواك ..

واتخذت قرارا بتأجيل الزواج الى ما بعد بدء حياتى العملية .. وكانت تلك هى قناعتى ، وليس فى وسعى إلا أن أقول : الحمد لله ..

وهكذا وقفت طويلا ، مترددا أمام فكرة الزواج حتى يحين وقتها ..

واعجب كلما رأيت بعض شبابنا ممن اختاروا التعليم الجامعى ، وغيرهم ممن انتهت دراساتهم عند المؤهل المتوسط بالتعليم الفنى ، يتلهفون قبل الانتهاء من دراساتهم الى التفكير ، قبل الأوان ، فى الاقدام على الزواج ! !

كل و حد منهم يبدأ حياته العملية ، هو يفكر فى العروسة التى سيذهب لخطبتها ، حاملا شبكتها ومهرها ، وخاتم سليمان ليضعها فى بيت الزوجية السعيد ..

ذلك الأمر الذى يأخذ من الشباب جانبا كبيرا من اهتمامه بدراسته ، ويؤثر على قدرته فى التحمل والاستيعاب ، وما يمكن أن يحققه من التفوق فى دراسته وتخصصه ..

ومثل هذا التفكير الذى يتسلط على كل حواس الشباب ، يدفعه الى الفشل ، لأنه يسبق به تفكيره .. فى بناء مستقبله ، على أساس اقتصادى واجتماعى سليم ، بخطوات مدروسة محسوبة .. كما قد يتسبب ايضا فى

إجهاض حياته الزوجية قبل أوانها ، بذلك التسرع العشوائى فى تأسيس أسرته وبيته . .

ولكنى كرجل أعمال ، أرجو أن أستعير التعبير الذى يبدأ به وصف كل أساس متين ، لأى صرح ، أو بنيان . . « دك الخرسانة المسلحة » فى الأرض بجذور عميقة ، لتصبح قواعد راسية للبناء المطلوب ونقيم عليها البنيان راسخا ، وعاليا وشامخا . .

أليس الحال فى تأسيس الأسرة ، كحال هذا البنيان . . يجب التخطيط له وإرساء الأساس القوى ، والقواعد « الخرسانية المسلحة » ليقوم عليه الصرح الأسرى أو العائلى ، صامدا ، مسلحا بما يقيه شرور الأحداث وتقلباتها . .

نصيحة الشباب

إن شباب اليوم ، فى تعجله من أمره ، ما يكاد يتخرج من كليته ، أو معهده ، أو مدرسته ، ثم يدخل فى دوامة يدور فيها ، أو معها ، دون أن يعى أو يدرك ما ساق اليه نفسه وما قيد به مستقبله ، فلا ينظر الى أبعد من الدائرة التى حصر فيها كل آماله ، والتى ما تلبث أن تتحول الى « حلقة » خطر تطبق عليه ، ولا يستطيع منها فكاكا . . بعد أن استدان ودخل عش الزوجية الموعود مدينا ، ثم يظل حائرا بين الوفاء بديونه ، أو الوفاء بتكاليف حياته الجديدة ، وتكون النتيجة آخر الأمر ، وبالا على الأسرة ، وعلى الزوج ، والزوجة ، والأبناء . .

فبدلا من أن يحقق من نفسه ، طاقة انتاجيةنشطة ، وعاملة ، تتزايد إنتاجيتها وتتزايد معها موارده التى يحققها لمصلحته أولا ولمصلحة بلده ثانيا ، بدلا من ذلك نراه وقد تحول الى « طاقة » استهلاكية ، تتكاثر مصاريفها ومطالبها ، مع تزايد أفراد الأسرة وأعبائهم ، الى أن يتحول آخر الأمر الى أن يدور فى حلقة مفرغة ، فضلا عما قد يدفع به ذلك ، الى الانحراف ، أو الى الانطواء على نفسه . . أو بالقليل ، أو بالكثير ، الى البحث لاهثا عن مصادر جديدة للرزق ليواجه بها ، احتياجات أسرته

المتزايدة ، وقد يكون ذلك على حساب صحته ، أو كرامته . . وينسى فى خضم كل ذلك أين هو من مستقبله ؟ !

وارى أنه على كل شاب ، تهيأ بعد تخرجه ، واستواء عوده . . لأن يبنى مستقبله على أساس « خرسانى » مسلح ومتين . . أن يعرف أن مشوار الحياة ، طويل ، ملىء بالكفاح ، والعرق ، بل وبالدموع أحيانا ، وأن معاناته فى هذا الكفاح ، والتفرغ له ، ليس الا ، القواعد والأسس التى يبنى عليها صرح حياته ، ومستقبله . . وأن الزواج ليس إلا وسيلة لهذا المستقبل .. وأنه فى فترة تفرغه لكفاحه وبناء مستقبله ، قد يتعرض لألوان من الشقاء ، وقد تجبره الظروف ، وهو بصدد السعى لتحقيق ما اختطه لنفسه ، أن يجوع مرة ، أو يتعرض للمبيت فى العراء ، أو يواصل الليل بالنهار ، دون أن ينام أياما وأياما . . أو يقاسى مرارة الغربة ، أو الهجرة . . . الخ . . لو علم كل شاب ذلك .

وأنه لو أجل التفكير فى الزواج سنوات قليلة بعد تخرجه ، لكان ذلك أفضل وأجدى فى حياته ، ولأغناه ، عن التعرض لمشاكل كثيرة عائلية ، أو زوجية ، أو غيرها . . ولوفر على نفسه متاعب ومخاطر ، قد يعجز عن مواجهتها ، مادام لم يعد لها عدته ، أو يؤمن نفسه منها . . وليضمن لنفسه ، الاستقرار ، وتحقيق الغاية التى خطط لبلوغها ..

* * *

وخطر ببالى موضوع الزواج مرة أخرى عندما استطعت توفير امكانيات البداية . .وراودنى فى تلك الأيام التساؤل مرة أخرى :

هل أتفرغ لمسئوليات تكوين أسرتى . . ومسئوليات هذه الأسرة بعد تكوينها ؟ . .

ووجدت الجواب عندما استقر رايى على ضرورة أن « أبك الخرسانة » التى سأقيم فوقها صرح حياتى قبل أن اتحمل مسئولية أحد غيرى . .

ولذلك كان لابد أن أركز كل تفكيرى وأن اكرس كل طاقتى من أجل ذلك الهدف الكبير الذى كنت أسعى وراءه . .

كان يجب أن أبدأ حرا ، طليقا من أى قيد ، وبعيدا عن أية التزامات غير الالتزامات التى كان يتطلبها نجاحى فى عملى . .

قلت لنفسى : لا داعى لأن أتحمل مسئولية زوجة لها مطالب واحتياجات . . بالاضافة الى الالتزامات الأخرى لمن سوف يشرف بيتنا من أطفال . .

وكان أن اعفيت نفسى من كل محاسبة يمكن أن تفرض على ، غير ما كنت أحاسب به نفسى فى مجال عملى . .

كنت اكافح من اجل تحقيق أهداف التى كنت أحلم بها ، لذلك لم يكن يهمنى كثيرا أن أنام يوما فى العراء . . أو أن أتضور جوعا فى يوم آخر . .

وحاولت أن أبعد عن خاطرى فكرة الزواج . .

وكان أن قلت لنفسى :

ليس من المعقول أن أضيف عبئا آخر على مسئولياتى ، وأن أشقى معى الانسانة التى ستأتى الى بيتى قبل أن أهيىء الجو المناسب لحياتى وحياتها .

وانتابتنى المخاوف ، وأنا اقلب فكرة الزواج فى رأسى ، من أن يؤثر الزواج على نشاطى وعملى . .

ولا أريد أن أقول إن أحد أسباب ترددى كان يرجع الى تخوفى من أن اتعرض فى بداية حياتى الزوجية للأسئلة المعتادة :

أين كنت ؟ . . وماذا فعلت ؟ . . وكم معك ؟ . . ولماذا فعلت كذا ؟ . . ولماذا لم تفعل كذا ؟ . .

وغير ذلك من الاسئلة والاستفسارات التى تفرضها الحياة المشتركة مع زوجة . . أى زوجة !

من الضرورى أن يشركها زوجها معه فى كل شىء . . وعلى الأقل معظم الأشياء وكان أن قررت تأجيل فكرة الزواج . .

قلت : إن أحلاما كثيرة يمكن أن تتحطم عند الانسان بسبب الزواج المبكر . .

وكان خوف . . أن تتحكم مسئوليات الزواج فى تفكيرى فأصبح قصير النظر فى الكثير من تصرفاتى . . وقلت : إن مثل هــذا الزواج يمــكن أن « يقصف » عمر الطموح ، بل إنه ـ أيضا ـ يضعف من عطاء الانسان . .

وللدقة . . كان قــرارى تأجيل مــواجهة مســئوليات الزواج الى أن أصبح قادرا على تحملها . .

وبالضبط . . عندما يصــبح الزواج جــزءا مــن حياتى ، وليس عبئا عليها . .

. . واخيرا قررت الزواج :

بدأت مســيرة حياتى ، وأنا أبحــث عن نفسى الى أن جــاءت ســنة ١٩٤٨ . . وكما سبق أن قلت تخــرجت فى كلية الهندســة ســنة ١٩٤٠ ، وكان نجاحى بتفوق يتيح لى فرصة التعيين معيدا بها ، ولكننى كنت قــد حددت اتجاها ثابتا لنفسى ، وهو العمل فى المقاولات ، ولذلك لم أتزوج الا فى سنة ١٩٤٨ . .

وكنت خلال هذه السنوات فى سباق مع نفسى ، ومع الزمــن ، فيمــا قاسيته من مرارة ، وما تعرضت له من مخاطر وعوائق . . لكى أدرك أول طرف خيط لذلك الهدف . .

كان قرارى قد انتهى الى ضرورة الزواج بعد ثمــانى ســنوات مــن تخرجى من كلية الهندسة . . وبعد أن استطعت أن أقتطع ثلاثين جنيهــا فى الشهر من دخلى ، كى أرصدها لمصاريف بيتى . . أى المبلغ الذى كان لازما وقتها لكى أفتح بيتا بلا مشاكل فى الدخل . .

وكان شقيقى المرحوم الدكتور ابراهيم عثمان قد تزوج مــن كريمــة المرحوم الأستاذ اسماعيل وهبى المحامى ، وكنت بحكم طبيعة علاقتى به أكثر من التردد على منزله ، وكم كنت شديد الاحترام لأخلاقيات زوجته ، فهى من عائلة محافظة ، ومتدينة ، كما أنها تعكس أصــالة أولاد البلد . . وكان شقيقى المهندس حســين عثمــان رئيس مجلس ادارة المقــاولون العرب الآن قد تزوج إحدى شقيقاتها . .

إنها هى الأخرى صورة طبق الأصل من أختها فى كل أخلاقياتها . .

عنوان زوجتى . .

وزوجتى التى وقع عليها اختيارى ، هـى الشـقيقة الثالثة لزوجتى أخوى المرحوم ابرهيم ، وحسين . .

كنت كثيرا ما أراها وهى فى زيارة أى من أختيها ، وتحول احترامى لشقيقتها الى إعجاب بها . .

ولعل الذى شدنى اليها ، هـو أخـلاقياتها ، وأدبهـا ، وتدينهـا ، وعقليتها ، المتفتحة ، وتواضعها مع قوة شخصيتها وسماحتها وطيبتهـا وأذكر أننى فاتحت أخى ابراهيم بشأن التقدم للز اج منها .

قلت له : أريد . . أن أتز ج « سامية » أخت زوجتك . .

ولم ينتظر المرحوم ابراهيم ، وبادر بالذهاب الى والدها يعرض عليه أمر زواجى من ابنته . . ورحب الرجل الطيب وقمنا بعد ذلك باسـتكمال اجراءات الزواج . .

أمـا بيت الزوجية ، فـكان نفس البيت الذى تربيت ونشـأت فيه بالاسماعيلية . .

وتم زفافنا بالقاهرة فى حفل عادى بسيط ، ثم صحبت زوجتى بعـده إلى عش الزوجية الذى أعددته بالاسماعيلية . .

وأذكر . . أننى فى « صباحية» الزفـاف غلبتنى عادتى التى اعتدتهـا منذ فجر حياتى ، وكان أن استيقظت مبكرا ، ثم نهضت من فـراشى ، ثم ارتديت ملابسى ، وغادرت البيت فى السـاعة الخـامسة صـباحا لأباشر أعمالى كالمعتاد . .

وتكرر منى ذلك كثيرا ، ونحن عروسان . . فى شهر العسل . .

إنها عادتى الى يومنا هذا . .

ولا أظن أننى استشعرت أى حرج أو ضيق من جانب زوجتى ، فهى لم تصرح لى فى حينه عن أى شىء قد ضايقها الى أن فـاتحتنى بعـد أن تقادم بنا العهد . .

قالت إنها كانت تطوى مشاعر الغضب والضيق ، وتكتمها فى صدرها فى أول الأمر .

كم كانت تكتم منى بسببها فى نفسها . . كانت تحلم « بشهر عسل » ينتظرها ، مع زوجها ، كما تحلم أى بنت فى مثل سنها . . ولما لم تجد أمنية حياتها قد تحققت . . كتمت زوجتى فى صدرها ، وحبست مشاعرها ، ولم تعبر لى مرة واحدة عن ضيقها ، مع انها كما قالت ، فيما بعد : كادت أن تأكل نفسها . . ولكن بمرور الوقت ، أصبح الأمر عاديا جدا بالنسبة لها . . تعودت هى عليه أيضا فى كل أعمال بيتها . .

وكان من الممكن أن تدمر تلك الواقعة مستقبل أسرتنا . . ولكن زوجتى كانت على مستوى مسئولية بيتها ، أرادت أن تحافظ على ارتباطها بى ، أرادت أن تفتح بقدر ما تستطيع ـ الطريق لى وتتحمل معى أعباء الرحلة .

ويحمل ذلك الموقف لمسة انسانية كبيرة . . ترجمت قول رسولنا الكريم ، عندما قال فى حديث نبوى شريف :

« تخيروا لنطفكم فان العرق دساس »

أبرز ذلك الموقف الصغير معانى كبيرة ، وقيما سامية ، وأصالة لا حدود لها ، رضعت منها زوجتى عندما جسدت عطاء المرأة عندما تضحى . . فضحت بأغلى ما تتمناه صبية مثلها فى يوم عرسها . .

وهل هناك ابرز من هذا المثال ، لأية زوجة تريد أن تقف مع زوجها ، وتقدم له ما تستطيعه وهو يبنى المستقبل الذى تشاركه فيه جنى ثماره ؟ . .

وكم خفق قلبى لسامية عندما عرفت منها ذلك الموقف فيما بعد . .

وكم كبرت فى نظرى . .

وكم ملأت كل كيانى بالاطمئنان . .

وكم كنت حريصا على إسعادها . .

وهل يقابل الوفاء إلا بالوفاء . .

ولا أنكر أنها سألتنى مرة . . لماذا خـرجت مبكرا ؟ . . أو لماذا عدت إلى البيت متأخرا ؟ . . وابتعدت تماما عن التدخل فى شئون عملى . .

المهم . . كانت زوجتى على مستوى مسئولية بيتها ، وقـد عملت على المحافظة على ارتباطها بى . .

فى تصورى . . انها أدركت بحسها المرهف طبيعـة عملى ، فـأرادت بقدر ما تستطيع أن تساعدنى على شق طريقى . .

وما لبثت أن تعودت على ذلك ، ورضيت به ، بعـد أن أدركت ، مـدى الجهد ، والبذل ، والعمـل الدؤوب ، فى سـبيل بناء مسـتقبل أفضـل لنا ولأبنائنا ، وبعد أن عرفت الغاية التى كنت أسعى بكل قواى لتحقيقهـا ، وما كان يشدنى إليه الواجب فى كل ما كنت أكلف به من أعمال ، لكى أفى بالتزاماتى فيها . . وعندئذ تحولت هى أيضا ، بكل قواها ومشـاعرها ، لتعيننى فى مسيرة حياتى على النحو الذى صارت إليه . .

واهتمـت زوجتى بتكريس حياتهـا . . لى . . ولأولادنا . . ولبيتنا . . فلم تبخل بجهد ، أو بوقت تكرسه من أجل تربية أبنائنا بمـا تدركه مـن حس غريزى بأمومة غامرة . . وكم هى بذلك ، ذكرتنى بأمى ؟

وإذا كنت ، أحيانا أخلو للجلوس مع أبنائى حينا من الوقت انتهـز الفرصة ـ لا لكى أمرح معهم ، وإن كان ذلك واجبا على كل أب ـ وإنمـا لكى أحكى لهم تجربتى فى الحياة ، لتكون لهم قـدوة ، وليأخـذوا منهـا الدروس والعبرة ، التى قد تفيدهم فى حياتهم . .

كان على أن أعمل على إسعادها ، نظير تحملهـا فى بدء حياتنا معا فان الوفاء لا يمكن أن يقابل إلا بالعطاء . .

غرس هذا الموقف من جانبها فى نفسى راحة لا حدود لها . .

وأذكر حياتنا فى تلك الأيام ، فقد كانت تعمل على تهيئة كل وسـائل الراحة لى فى البيت ، ولم تكن تشغلنى بمشاكلها . .

وكانت حريصة على أن أتفرغ بالكامل لعملى . .

وكنت من جانبى أعمل على توفير كل احتياجات البيت ، واحتياجات

أولادنا الذين لم يكن عندى من الوقت ما أعطيه لهم . .

إنها زوجتى التى تعهدت أولادنا بالتربية والرعاية السليمة ، والحمد لله ، فجزاها الله عنى وعن أولادى كل خير . .

موقف اصيل . .

كانت من عادة زوجتى أن تقرأ على وجهى كمـــا يقــولون ، صــورة حالتى النفسية ، فاذا وجــدتنى ســعيدا ، ابتســمت ، وعملت على زيادة سعادتى . . وإذا ما وجدتنى على غير حالتى الطبيعية ، فانها كانت تعمل على إرضائى ، وإثارة الطمأنينة والهدوء إلى نفسى . .

واذكر أننى عدت مرة الى البيت ، وكنت فى أشد حالات الضيق . .

كان مطلوبا منى ســبعون جنيهــا ، وكان لابد أن تكون جــاهزة فى الصباح ، ولم يكن معى فى ذلك الوقت جنيه واحد منها . .

وكانت « الحاجة سامية » تقتطع من الثلاثين جنيها جــزءا تدخــره للزمن . .

وعندما وجدتنى فى ذلك الضيق النفسى سألتنى :

ماذا بك يا عثمان ؟

قلت : لا شىء . .

اردت الا اشركها مشاكلى ، حتى لا أضايقها ، ولكنهــا اســتطاعت بطريقتها أن تحصل منى على اعتراف عن أسباب ضيقى . .

وكانت مفاجأة عندما قالت لى :

السبعون جنيها المطلوبة موجودة يا عثمان . . ولم أتمالك نفسى مــن الدهشة وانا أقول لها :

من أين يا سامية ؟

قالت : من فلوسك يا عثمان « القــرشين دول عندى » كنت ادخــرهم من مصروف البيت . .

وذهبت إلى دولابها ، وأحضرت السبعين جنيها . .

وكم كانت فرحتي وسعادتي فى تلك اللحظة عندما ذهبت إلى دولابها ، ثم أحضرت لى مبلغ السبعين جنيها . . لم تكن سعادتى بالمبلغ ، ولكن بموقفها وتصرفها معى . .

كم كانت مهذبة وهى تحرص على ألا تجرح شعورى عندما قالت : « من فلوسك يا عثمان » . .

كانت قد احتاطت للزمن فراحت تدبر من مصروف البيت ما قد تحتاجه فى أيام الأزمات والمحن .

وقلت لها لحظتها :

إذن أنت شريكتى فى الشركة بهذا المبلغ ، فمن حقك أن يكون لك نصيب على قدر رأسمالك . .

ولا أريد أن أقول إننى أدخلت هذا المبلغ فى رأسمال الشركة باعتباره نصيبا لزوجتى . . ومن يدرى ؟ . . لا يعرف أحد . . « الخير فين » كما يقول المثل ، ربما يكون هذا المبلغ فيه الخير والبركة ، وهو السبب فى كل ما وصلت إليه الشركة من توفيق ونجاح ، وقد تكون بركته هى التى أنقذتها من كل ما تعرضت له فيما بعد من مواقف . .

وتعود زوجتى « الحاجة سامية » إلى تلك الذكريات أحيانا . .

وتطالبنى بذلك المبلغ . .

وعندما أعود إلى البيت الآن متأخرا بحكم مسئولياتى التى أحملها على عاتقى ، تحاول أن تخفف عنى . . فتسألنى ضاحكة :

أين كنت ؟ . . ولماذا تأخرت ؟ . .

ثم تضحك وهى تقول : « هات إللى عليك » . . .

أصبح الآن من حقى أن أسألك بعد أن نجحت فى تحقيق ما كنت تريد . .

إنها سيدة طيبة ، فاضلة ، وكان لمواقفها معى أثر كبير على مسيرة حياتى . .

فهى سيدة خيرة تجد سعادتها فى حب الخير وحب الناس

وهى لا تعرف شيئا اسمه الحقد ، وقد درجت على أن تقابل السيئة بالحسنة . .

فزادها الله من فضله .

* * *

أولادى :

ورزقنا الله بأربعة أولاد وبنت واحدة . .

المهندس محمود عثمان أكبر أولادى ، وهادية بنتنا الوحيدة ، والمهندس ابراهيم عثمان ، والمهندس أحمد/عثمان مسئول الأمن الغذائى فى بيتنا بأبراج حمامه وما توفره لنا ، ومزارع دواجنه وما تقدمه من بيض ودجاج . . ولحوم الضأن الذى يربى أغنامه ، وقد حرصت على أن أشجعه على أن تكبر معه هوايته وتصبح فى المستقبل مشروعات ، ومحمد أصغر أولادى ، لم ينته من دراسته حتى الآن . .

ولا يسعنى إلا أن أقول . . لم يكن عندى من الوقت ما يمكن أن أخصصه لأولادى عندما كنت فى معركتى مع الحياة من أجل أن أحقق أحلامى فيما وصلت إليه من نجاح . . ولكن أجد سعادتى عندما أجلس إليهم ، وخاصة فى المناسبات لأحدثهم ولأحكى لهم عن قصة حياتى ، ومعاناتى ، وتجاربى المرة والحلوة ، حتى يتعلموا منها الشىء الكثير . . إنها تجربة حياتى وأنا أحاول أن يتفهموها جيدا لتكون عبرا لهم ، ولغيرهم من شباب شعبنا الطيب . .

إنى أحكى لهم كيف عبرت السدود ، وكيف تخطيت الحواجز ، وكيف تذوقت كل ما فى الدنيا من مرارة وألم ، لكى أصنع لهم المستقبل الذى يعيشونه بلا معاناة . . لكى يعرفوا كيف أخرج والدهم خيوط الفجر من قلب الظلام . .

وأقول الحمد لله ، أننى سعيد بأولادى . . وأحرص على أن أعلمهم خبرتى ، إلا أننى لا يمكن أن أغالط نفسى ، فكيف لى أن أقارن حياتهم الآن ، بحياتى التى كنت أعيشها . . نشأت من بين العدم ، أما هم فقد

وجدوا بين ايديهم ملاعق من ذهب ، صنعتها حبات عرق والدهم الذى لم يظلم فى حياته أحد . .

وكم كنت أتمنى أن يسيروا على نفس الطريق . .

وفى رايى . . أن الشدائد تخلق الرجال ، وأن المعاناة تخلق أشياء كثيرة عند الانسان ، فهى التى تجعله قادرا على الابتكار والتصرف والمواجهة ، ولذلك كان لابد أن ألقنهم دروسا فى المعاناة التى لم يروها حتى يعملوا فى الحياة بنتائجها . .

إن الجو الذى نشأت فيه . . ليس هو ذلك الجو الذى نشأوا فيه ، كما أن الظروف التى عشتها ، تختلف تماما عن الظروف المحيطة بهم . .

هل يمكن أن يعيد أى منهم قصة عثمان أحمد عثمان ؟ . . هذا ما أرجوه وأتمناه من الله . . ولكنها بالتأكيد سوف تكون معجزة من نوع أخر . .

إن نصيحتى التى أرددها لهم دائما هى أن يحفظوا تلك التجربة عن ظهر قلب . . وإذا سألنى أحد عن أولادى أقول : يحمل ولدى أحمد الكثير عن صفاتى ، كما أننى أجد نفسى فى ولدى محمود فهو يحمل الكثير من طباعى منذ البداية وقد حرصت على أن يكون « ابن بلد » مثلى . .

وشهد محمود أكبر أولادى جانبا من حياتى التى عشتها قبل أن يستوى الكثير من إنجازاتى التى كنت أحلم بتحقيقها فى شبابى ، وقد حرصت على أن يتشرب من القيم والتقاليد التى شربت منها بالاسماعيلية . .

ومن هنا كان حرصى شديدا على الا ينفصل هو أو أى واحد من إخوته عن الاسماعيلية أو عن أهلها ، فهى بالنسبة لهم مجتمع الحب الحقيقى . .

* * *

ابنى محمود يقتفى اثرى :

وأراد محمود بسبب فرط إعجابه بتجربتى أن يقتفى اثرى ، وكان

أن قرر أن يسلك نفس طريقى ، وفضل أن يصبح بعد تخرجه فى كلية الهندسة مقاولا ، لحبه الشديد للمقاولات ، وان كنت قد منعته من أن يمتهن المقاولات ، إلا اننى حرصت على أن يعمل فى الأعمال الحرة ، فأقام مصنعا للمواد العازلة المستخدمة فى البناء . . أساعده على أن يشق طريقه بنجاح . وانا أعطيه تجربتى وأرقب باهتمام ممارسته حتى أرشدها له فى ضوء ممارستى ، التى أردت أن يتعلمها على الواقع بنفسه . .

وأحمد الله ، عندما أجد خطواته منتظمة ، وأسلوبه مرتبا ، وتصرفاته توحى بالاطمئنان . .

زواج محمود :

وكان من شدة تعلقه بطباعى أن قرر ألا يتزوج فور تخرجه من الجامعة مع أن كل الظروف المحيطة به تشجعه على ذلك . . أراد أن يؤكد قواعد المستقبل الذى أراده لنفسه ، قبل أن يخوض تلك التجربة ، الى أن جاءته اللحظة المناسبة ، ليفاتحنى فى ذلك الموضوع . .

كان الرئيس محمد انور السادات يسكن فى المنطقة التى نسكن فيها بناحية شارع الهرم ، ونشأت بيننا علاقة صداقة عائلية قوية ، وأولادنا يتبادلون الزيارات وكنت معجبا بطريقة تربية الرئيس لأولاده على التقاليد الريفية الأصيلة ، وتمنيت أن يفاتحنى ولدى محمود فى أن أطلب له يد إحدى كريمات الرئيس ، لكنه لم يفعل . .

وتزوجت كل من السيدة لبنى ، والسيدة نهى ، وبقيت جيهان الصغيرة . .

لم أشأ أن أفاتح ولدى محمود برغبتى ، لأن الزواج مسألة كانت تخصه وحده ، وهو وحده القادر على اختيار شريكة حياته دون تدخل منى ، إلى أن جاءنى ذات يوم ليقول لى : إنه يريد أن يتزوج ابنة الرئيس السادات . .

وأدركت أن ولدى قد ارتاح إلى جيهان السادات الصغيرة من بين شقيقاتها . . وأنه أعجب بطباعها . .

وكم كنت سعيدا . . فان رغبته كانت تجد هوى فى نفسى ، ولم أكن قد صارحته به . .

وذهبت لمقابلة الرئيس ، وعرضت عليه رغبة ابنى المهندس محمود عثمان فى أن يصبح أحد أولاده . .

وكانت جيهان الصغيرة فى ذلك الوقت دون السابعة عشرة من عمرها ، لذلك حاول الرئيس أن يعتذر على اعتبار أنها لا تزال صغيرة ، ولكننى لاطفت الرئيس قائلا : فلنحتكم الى الشريعة الإسلامية ، ونستشيرها فى أمر زواجها وضحك الرئيس وهو يقول إن الايمان لا يتجزأ يا عثمان . .

وكان أن عرض الأمر عليها ، ووافقت جيهان السادات الصغيرة على الارتباط بالمهندس محمود عثمان . .

وقمنا باتمام إجراءات عقد القران والزواج والحمد لله فهما موفقان فى حياتهما الزوجية ، ولا أجد من كل منهما إلا تجاوبا كبيرا نحو الآخر . .

وادعو لهما كأب بكل سعادة وتوفيق . .

إنهما سعيدان فى حياتهما الزوجية ، ولهما حياتهما الخاصة بهما . .

أما الرئيس السادات وأنا فنحن صديقان قبل هذا الزواج وأثناءه ، وسنظل كذلك باذن الله ما دامت صداقتنا خالصة ، على هدف واحد هو الأخوة فى الله والوطن . .

وكان زواج جيهان ومحمود نتيجة لتلك الأخوة المتينة وليس سببا لها . .

* * *

هادية وش خير :

رزقنا الله . . هادية . . بعد محمود . . وهى ابنتى الوحيدة . ولم اضعف فى حياتى بعد أمى إلا امام إبنتى . .

وما أزال احرص على ان أراها او اسمع صوتها فى التليفون كل

يوم . . ولكن تعدد مشاغلي واهتمـاماتي كثيرا مـا يحـرمني مـن تلك السعادة التي لا أجدها إلا مع ابنتي ومع أولادها .

كان ابنها عثمان أول حفيد لي . . وهو كل شيء في بيتنا بل يكاد يكون هو وأخته آمال وأضيف اليهما ابراهيم الوسيلة الوحيدة التي تخرجني من دوامة اهتماماتي لأعيش مع أولادي عيشة اي إنسان يسـتمتع مـع أفراد اسرته . .

وأنكر انني كذبت على ابنتي هادية مـرة واحـدة في حياتي عندمـا شربت من يدي لبنا مغشوشا . . وكنت لا أملك إلا أن أسقيه لها مـن بين يدي . . عندما أصدر نظام الحكم السابق قرار تأميمي كانت ابنتي هادية في المدرسة وكانوا يعلمونها أن قوانين التأميم تنطبق على الرأسـماليين المستغلين والاقطاعيين وأذناب الاسـتعمار . وكانت تسـألني هـل أنت كذلك يا بابا .

فكنت اجيبها بمنتهى الحسرة والألم . أيوه . . يا هادية .

كم كان سؤالها مؤلما . . ولكنها كانت طفلة لا تدري ماذا تقول ؟ ؟

ولا تعرف ماذا يترك ما تقوله من جروح في قلب والدها .

وكانت تسعى كعادة الاطفال لكي تحصل على مزيد من المعلومات .

ولم أجد أمامي إلا أن اترك لها مجلسـها في الوقـت الذي أنا فيه في أشد الحاجة لأن أداعبها وأجد راحتي معها .

كنت افضل أن اتركها مع حيرتها هي وبقية أسئلتها .

وكنت لا أستطيع أن أقول لها سوى . . نعم . .

إنها طفلة لو قلت لها الحقيقة كانت ستذهب الى المدرسة لكي تدافع عن نفسها وعن والدها . ولا أعرف ماذا يمكن أن يحدث لنا .

كانت تريد هادية أن تستكمل تعليمها بالجامعة . .

ولكن لأنها ابنتي الوحيدة . . ولأنني أعرف أن سعادة البنت في بيت زوجها ومع أولادها بدلا من أن آراها تواصل استكمال مراحل تعليمها .

كان المهندس يحيى أبو الغيط نائب رئيس مجلس الادارة بشركة

المقــاولون العــرب الآن تلميذا فى كلية الهندســة وكان يتلقــى تدريباته العملية معــى فى الشركة . . وتربى بيننا . . واعجبت برجـولته وقـــوة شخصيته ، وإخلاصه لعمله ولمن معه .

وعندما حصل على بكالوريوس الهندسة التحق بالعمل فى الشركة .

وكان إن فاتحنى ذات يوم برغبته فى أن يطلب يد كريمتى الوحيدة . . ولم أجــد فى المهندس يحيى أبو الغيط إلا كل مــن يتمناه أى أب فى زوج ابنته ، لذلك قررت على الفور الموافقة ، وأتممنا إجراءات الزواج .

ولأن هادية طيبة ، ســليمة القلب والنية ، خيره . . تحــب الخير لكل الناس وتحمل جميع صفات امها رزقها الله بزوج يحسن عشرتها كأراح ضميرى عليها وعلى مستقبلها . . فهو ابنى أيضا مثلها . .

* * *

أسرتى الكبيرة :

ولا تقف أسرتى عند حد زوجتى وأولادى ، ولكنها اتســعت لتشــمل جميع اخوتى وأولادهم وبناتهم . .

وكان أن تعهدت أولاد إبراهيم بعد وفاته كأولادى تماما . . واعطيت ولده المهندس إسماعيل عثمان عضو مجلس الادارة بالمقــاولون العــرب وأختيه كل العناية التى اعطيتها لأولادى . . لأنهــم أولادى أيضــا ، ولم يشعر اى منهم فى يوم من الأيام بغير ذلك الشعور . .

وأيضا . . أولاد شقيقى المرحوم محمــد عثمــان ، المهندس عثمــان محمد عثمان وشقيقه وهما من بين مهندسى شركة المقاولون العرب . .

وقمت باتمام إجــراءات زواج أخــواتهما البنات الســت ، تمـــاما كما قمت باتمام إجراءات زواج ابن شقيقى إســماعيل . . وزواج ابنتى هادية . . فهم جميعا أولادى . .

واتخذ من شقيقتى الكبرى عوضا لأمى ، قدمت لى الكثير ، ومهمــا فعلت معها لا أســتطيع أن أرد لهــا الجميل . . ولا أملك إلا أن احتضــن

أولادها كما احتضنتنى . . وكم أنا سـعيد بأولادهـا الأسـتاذ الدكتور عبد المنعم حسب الله الأستاذ بطب القاهرة ورئيس المستشفى التخصصى للمقاولون العرب ، والمهندس محمد صلاح الدين حسـب الله نائب رئيس مجلس إدارة المقاولون العرب وشقيقه سامح عضو مجلس إدارتها . .

وحرصت أيضا على توفير السعادة لشقيقتى الصغرى فى بيتها مـع زوجها وأولادها . .

لا أجد سعادتى إلا فى سعادتهم ، ولا أجد راحتى إلا معهم . .

ولا تقف أسرتى عند حد . . « آل عثمان » إنمـا أسرتى الكبيرة التى أعتز بها . . وأحرص عليها . . وأعطيتهـا كل نفسى هـى أسرة أبنائى فى المقاولون العرب . . إنها أسرتنا الكبيرة التى تضمنا جميعا . .

والحمد لله أنا سعيد جـدا بالخمسـة والخمسـين ألف ابن مـن أبنائى . .

ولا أجد فى هذه المذكرات إلا تسجيلا لبطولاتهم جميعا . . وعطـائهم الكبير الذى ملأ أسماع الدنيا كلها .. إننى أعتز ، بأصغر عامل منهـم ، تماما كما أعتز بأغلى أولادى . .

إن قلبى قد اتسع ليجد كل منهم مكانا له فيه . .

بارك الله فيهم جميعا . . وبارك لهم فى كل خطواتهم .

* * *

ولقد تعـرض كل ذلك الكيان الأسرى الكبير لأكبر صـدمة فى حياته كان من الممكن أن تتسبب فى ألا يكون موجودا . .

كانت تلك الصدمة فى نهاية عام ١٩٤٩ . .

آخر صدمة..
.. في حياتي

- بينما كنت اقوم ببناء مقر الاحلام كان القدر يرتب شيئا آخر ، مختلفاً تماماً عما كنت أقوم انا بترتيبه . . . وفقدت إبراهيم ! !
- أقول لأبنائي . . قبل ان يتصرف الانسان لابد أن يعرف قبل ان يقول كلمة .
- الرجال معادن ، ولا يمكن ان نقيس رجلا برجل آخر ، لأن تكوين كل منهم مختلف ، وطباعهم ليست واحدة . .
- لم أجد مـن يدافـع عني ويحميني ممـا كان يدبر لي غير عملي
- كلما التقيت برجل شريف مؤمن ، كنت أضعه في ذاكرتي ولا انساه ، والجأ إليه في المجال الذى يستطيع أن يعطي فيه . .
- الشرفاء لا يمكن التعرف عليهم إلا من خلال اختبار .
- انني اقتنعت بالحلال . . فزادني منه الله . . والحمد لله . .

اخر صدمة فى حياتى :

حدث ما لم أكن أتوقعه ، ولم يكن يخطر على بالى ، فى يوم من الأيام أن يحدث فى ذلك الوقت . .

كانت مفاجأة مروعة ثقيلة ، أليمة ، بددت كل نور الفجـر الذى كنت أوشكت أن أصل إليه . .

وتصورت فى تلك اللحظة أن كل شىء قد ضاع . .

وكان ذلك الموقف من أكبر الأحداث التى مرت بحياتى كلها . .

كان الحدث الأول عند وفاة أمى ، عندما وجـدت نفسى فى قلب بحـر هائج ليس له شطآن .

وكان بعد ذلك الموقف الأليم الذى تلقيت فيه ذات صباح صدمة وفاة شقيقى المرحوم الدكتور إبراهيم عثمان . .

كان إبراهيم « رحمه الله » يمثل شـيئا كبيرا جـدا فى حياتى . . كان العملاق الذى يقف خلف ظهرى ، ويساند كل خـطواتى ، ولكننى فقـدته فجأة لينتابنى الشعور بأننى فقدت كل شىء معه . .

وعدت لأقف فى مفترق الطرق مرة أخرى عندمـا رحـت أبحـث عن الأمل الذى كان يملأ رأسى ، فلم أجد منه حتى الفتات . .

تصورت أن الله سبحانه وتعـالى عندمـا قبض روح ابراهيم قبض معها روح كل ما كان يملأ نفسى من أحلام . .

اختفى النور ، ولم أر إلا الظلام . .

ولااريد أن أقول . . انطفأت شعلة الأمل ، ولم يبق إلا الألم . .

كان منعطفا خطيرا فى حياتى فلم أقف بعده عند منعطفات أخرى . .

فقد كانت المرة الأخيرة فى حياتى التى تصورت فيها أننى فقدت الطريق . .

فماذا كان يمثل إبراهيم« رحمه الله » بالنسبة لى ؟

كانت أمى هى التى أخذت بيدنا ، واحتضنتنا اجنحتها من أن تجرفنا تيارات الأيام . .

وماتت فى وقت كنا فى أشد الحاجة إليها فيه . .

وكان شقيقنا المرحوم محمد يقف إلى جوارها ، ذراعه بذراعها وتحوطنا جميعا رجولته المبكرة ، فمكن لنا معها أن نسير على هذا الطريق .

أما شقيقى إبراهيم فقد كان شيئا آخر تماما . .

عندما قررت العمل فى المقاولات راح يشجعنى ، ويأخذ بيدى ، ويساندنى بكل ما أعطاه الله من إمكانيات وقدرة على الاتصالات . .

كان ابراهيم ذراعى اليمنى ومستشارى الأول . .

أذكر أننى كنت ، أرجع إليه فى كل صغيرة وكبيرة من أمورى . . كنت اهتدى بنور آرائه . . وأقلب معه كل ما كان يجول بخاطرى من أفكار . .

كان إبراهيم « رحمه الله » شعلة من الذكاء ، كان بعيد النظر ، مرتب الأفكار . .

كنت أثق فيه وفى آرائه وفى قدراته ، ثقة لا حدود لها . . كنت أثق فيه أكثر من ثقتى بنفسى . .

وكثيرا ما كنت أستأنس بآرائه . .

كان « رحمه الله » كنزا من الأفكار . .

ولم يكن إبراهيم بالنسبة لى كل ذلك فحسب . . كان أستاذا فى كلية

الهندسة ، وكان سكرتيرا لنقابة المهندسين ، وأتاح له نلك الموقع اتصالات واسعة ، وكثيرا ما كنت ألجأ إليه للاستعانة بها ..

وكنت مقتنعا إذا ما كانت أمى قد أوصلتنى إلى بداية الطريق ، فإن إبراهيم هو رفيق الطريق . .

فكيف لى أن أسير فيها وحدى من بعده ؟ ففى الوقت الذى تلقيت فيه نبأ وفاته كنت استعد لاستقباله ـ لكى يعطينى كل جهده وينضم إلى . . ليتحمل المسئولية معى . .

وأنكر أننى فى عام ١٩٤٧ . . فاتحت إبراهيم فى أمر أن يتفرغ للعمل معى . .

كنت قد قلت له إن أعمالى قد اتسعت ، وأصبحت فى حاجة إليك . .

قلت له : لا أريد فقط الاكتفاء بمشورتك ، والاستفادة باتصالاتك ، ولكن أريد مشاركتك الأكثر إيجابية . .

وكان يعتنر فى كل مرة أفاتحه فيها ، بحجة أنه لم يبخل على بكل ما أطلبه منه ، وأن مسئولياته فى الجامعة وفى نقابة المهندسين متعددة وتمنعه من أن يتفرغ لى أو يعطينى أكثر مما أتوق إليه من وقته .

وأنكر أنه فى أكتوبر سنة ١٩٤٩ كان مكتبى عبارة عن حجرتين فى العمارة رقم ١٧٢ بشارع الخديو إسماعيل بالقاهرة .

وكان ابراهيم فى زيارتى ، وعدت أكرر عليه نفس الاقتراح الذى كان دائما يرفضه .

وأنكر أننى فى تلك المرة استطعت أن أقنعه ، ويبدو أنه كان مهيئا لنلك ، أو أعاد ترتيب أفكاره بسبب شدة إلحاحى عليه . .

قال لى : إننى رتبت أمورى بشكل يسمح لى بالتفرغ لمساعدتك . . وقررت أن أترك أمر مجلة المهندسين التى أحررها لتتولى النقابة مسئولية إصدارها .

كان إبراهيم يحصل على التمويل اللازم لاصداره هذه المجلة منى ، عندما كان يطلب أن أدفع له ثلاثين جنيها كلما جاء موعد أصدار عدد

منها وهو يقول لى أن هـذا المبلغ مقـابل إعلان سـأنشره عن مـكتبك ونشاطك فى تلك المجلة . .

ولكننى كنت أعطى المبلغ لابراهيم دون أن أقف كثيرا عند السـبب الذى كان يقوله لى .

كنت أعرف إنه مغـرم باصـدارها ، فـكنت أتولى أنا نفقـات ذلك الاصدار نيابة عنه ، وتكاليف طباعتها كانت لا تتجـاوز ذلك المبلغ فى ذلك الوقت . .

وأذكر أنه قال لى : إن اختياره وقع على المهندس أحمد جمال صادق السكرتير المساعد للنقابة ، لكى يتحمـل نيابة عنه مسـئولية سـكرتير النقـابة . . وأنه قـرر الاعتذار عن التدريس فى كلية الهندسـة بجـامعة عين شمس ، وأنه سيكتفى بالتدريس فى جامعة القاهرة فقط ، ويكتفـى بالمؤلفين اللذين قام بتأليفهما فى علم الهندسة الوصـفية ، وأنه ليس لديه نية تأليف كتب أخرى فى ذلك الوقت .

وكان حديثه معى فى أكتوبر ١٩٤٩ .

وكنت كمن يريد أن يقوم ليرقص فرحا بمـا كنت أسـمع منه ، ولكن اكتفيت بأن يرقص قلبى فى صدرى على نغمـات أحلى كلام كنت أريد أن أسمعه منذ زمن من بين شفتى إبراهيم . .

ومع اننى تعودت أن استمع كثيرا . . وأتحـدث قليلا لكننى فى هـذه المرة لم يمهلنى الصبر .

قاطعت إبراهيم وأنا أقول له :

إذن فلنبدأ الآن . .

وابتسم ابراهيم وهو يقول لى : ليس قبل نهاية العـام حتى أنتهـى من ترتيب كل تلك الأمور وإعدادهـا بالشـكل الذى أريده لأبعـدها عن تفكيرى تماما ، ولكننى اعتبارا مـن أول يناير ، أى بعـد ثلاثة أشـهر ، سوف أكون جاهزا ومستعدا لمعاونتك بشكل فعلى وشامل .

كان وعدا قاطعا من إبراهيم ، وعشـت أحسـب الليالى والأيام . . انتظارا لليوم الكبير استعدادا لاستقباله عندما يتفرغ للعمل معى . .

وانكر اننى رحت أرتب تقسيم العمـل بينى وبينه لكى نبدأ بمجـرد وصوله دون ان يضيع منا أدنى وقت . .

وبينما كنت أقوم ببناء قصر الاحلام كان القدر يرتب شـيئا آخـر ، مختلفا تماما عما كنت أقوم أنا بترتيبه . . «**وفقدت ابراهيم**»

وفجر اليوم الحزين . . يوم الثانى من ديسمبر سـنة ١٩٤٩ ، وكنت فى الاسماعيلية عندما دق جرس التليفون على خلاف العـادة . . فلم يدق عند ساعات الفجر أبدا . . فرفعت سـماعة التليفـون لأسـمع خبر أكبر صدمة فى حياتى . .

لا أنكر ان كنت قد انتظـرت فى تلك اللحـظة لاسـتماع المكالمة حتى أخرها ، أو إن كنت قد وضعت سماعة التليفون فى مـكانها ، إن كل مـا أنكره هو انها سقطت مـن يدى دون أن أدرى ، وإننى لم أدر بعـد ذلك شيئا من أمرى . . وتاه عنى كل شىء . .

ولكن كل ما كنت أدرية لأرويه عما حدث فى تلك اللحظة ، أن الدمـوع كانت تتدفق من عينى بلا حساب ، وتوقف عقلى عن التفكير للمرة الثانية والأخيرة فى حياتى ، ولفتنى دوامة لا أعرف لها آخر . .

وعلى الفور سافرت الى القاهرة ، واتجهت الى منزل ابراهيم لأجد أن كل شىء قد انتهى عند الفجر فى لحظة خاطفة بلا مقدمات .

وحاول العـديد إقناعى بأن يدفـن جثمـانه الطـاهر الحبيب فى القاهرة . . لكننى رفضت وصممت على أن يرقد الى جـوار أمـه ، لكى يحكى لها ، ما صار إليه حالنا من بعدها .

اتخذنا إجراءات ، ترتيبات نقل جثمـانه الى الاسـماعيلية ، وتكرر نفس المشهد الذى رأيته عند وفاة أمى مرة أخرى .

حملنا على اكتافنا نعشـه ، ونقلناه بأيدينا الى مثواه الأخير ، حيث واريناه التراب . . تركناه عند ربه ، وعدنا ، من غيره .

واحسست ، ونحن عائدون اننى دفنت معه ايضا كل مستقبلى ، فقد كان هو بالنسـبة لى المسـتقبل ذاته . . لأننا بنينا معـا احـلاما كبيرة

تصورت وقتها أن القدر أراد أن يضع بوفاته نهاية لها . .

دفناه وعدنا !

عدنا من غير شقيقنا ، وبقى هو الى جوار أمنا . .

وتماما . . كما حدث عندما ماتت أمى أقمنا سرادقا كبيرا استقبلنا فيه المعزين . .

وعند منتصف الليل انفض الجمع ، وبقيت انا واخوتى وكان فى نفس كل واحد منا ما يكفيه بسبب فقد أخيه . .

ولكن ما كان فى نفسى انا أكبر . . واقسى وامر . . كانت فى نفسى المرارة نفسها تماما ، عندما فقدت أمى ، وتصورت أن كل شىء قد انتهى معها ، شعرت أن كل شىء قد انتهى مع وفاة ابراهيم . .

اين الطريق

ظللت اسبوعا كاملا . . عشته مع نفسى ! !

وبينما كنت صامتا ، إذ بعشرات الأفكار والأسئلة تتصارع فى راسى :

. كيف أعيش من غيره ؟

ماذا أفعل من بعده ؟

وهل أستطيع مواصلة طريقى وحدى دون عونه ؟

كان تفكيرى قد اختلط بتفكيره . . وكانت الفكرة التى ننتهى اليها لا أعرف ما إذا كانت من بين افكارى أم من بين افكاره . . أم هى خلاصة ما ناقشناه معا من افكار . . لم تكن هناك حدود بين عقلى وعقله . .

وتساءلت . . إلى أينْ ؟

بعد أن شعرت بأننا كدنا أن نفلت من مأزق الزمن ، أراد الله أن يختفى هذا الشعور بموت أمى . .

وكان أن شعرت أننى بدأت أتلمس طريقى نحو المستقبل . . وإذ

بذلك الشعور يختفي مع موت ابراهيم :

أنكر أنني أمضيت أسبوعا كاملا وأنا أعيش بين كل تلك التساؤلات والأفكار ، ولكن سرعان ما وجدت نفسي أستيقظ من وسط كل تلك الهواجس . .

وأنكر كأن قوة ربانية انتزعتني مرة واحدة من غير مقدمات من وسطها . . وجدت نفسي أعيش لحظة صفاء ذهني . . واستطعت أن أرى إجابات واضحة لكل ما عشت أردده ، من تساؤلات

مات إبراهيم . . نعم وهذه إرادة الله ، والأمر ليس بأيدينا

ماذا كان يريد ابراهيم ؟

كان يريد أن يقف معي لكي نستطيع معا أن نقيم شركة قوية .

وتساءلت : كيف يمكن أن أصل إلى ذلك الهدف ؟

ووجدت الاجابة في الاستمرار في الطريق الذي كنت قد بدأته معه . . تماسكت . . وتحولت الانهزامية الى عزيمة ، وتحول اليأس الى إصرار . . وبدأت أكمل المشوار الذي بلغت ذروته ، ومعي فوق قمته فلذة كبده المهندس اسماعيل ابراهيم أحمد عثمان ، عضو مجلس الادارة بالشركة ، الكبيرة التي كان يحلم بها والده معي ، ولم تمهله المنية لأن يرى تفسير حلمه معي .

إن الحدث هزني بعنف . . هز كل كياني . . وكان سببا في أن أعيد النظر في أمر ملكية الشركة .

كانت الشركة في ذلك الوقت باسمي ، كان اسمها « عثمان أحمد عثمان مهندس ومقاول » .

وكان شقيقي المرحوم محمد يعمل معي كما قلت منذ عام ١٩٤٤ . .

وقمت باستدعاء محمد لأتفق معه على أمر مستقبلنا ، وتناقشت معه في أمر ، أن نقوم بتسجيل الشركة باسمي واسمه . .

وأنكر أن محمدا رفض الفكرة ولكن أمام إصراري لم يجد بدا من أن يقبل . .

تم تسجيل الشركة كما أردت . . محمد بنصيب الربع ، وأنا بنصيب

الثلاثة أرباع ، وكان نلك مع بداية عام ١٩٥٠ .

* * *

اول قفزة بعد الصدمة

وكان علينا أن نبدأ من جديد . ولكن البداية هذه المرة من غير ابراهيم . .

بدأنا مباشرة أعمالنا العادية التى كنا نقوم بتنفيذها . . الى أن كسبنا عطاء أول وأكبر عملية تسند الينا من الحكومة بعد شهر من وفاة ابراهيم .

كانت عملية سور مصنع السماد أول عملية كبيرة أحصل عليها من شركة كبيرة . .

وكان لابد ان أسير فى طريق تنفيذ الأعمال التى لا تقل عن نلك المستوى . تمنيت كثيرا أن أقوم بتنفيذ عمليات مع الحكومة ، لأنى إذا وصلت الى نلك المستوى من التعامل ، فان الطريق يكون قد استوى تماما أمامى وأكون قد تجاوزت كل ما يقف فى طريقى من عقبات تحول بينى وبين الاستمرار فى السير نحو الهدف الذى كنت قد وضعته لنفسى . .

وجاء موعد تحقيق تلك الأمنية مع بداية عام ١٩٥٠

وكانت وزارة المعارف العمومية قد طرحت عملية إنشاء مدرسة البنات الابتدائية بالاسماعيلية فى عطاء . . وتقدمت لشراء كراسة شروط نلك العطاء ، وبعد أن قمت بدراستها تقدمت اليه ، وعند فتح المظاريف كان عطائى أقل العطاءات ، كما أخذت نفسى على أن تكون عطاءاتى كذلك دائما . .

أريد أن أقول إن تلك العملية التى كان سعر عطائها ثلاثة وخمسين الف جنيه كانت تمثل بالنسبة لى قفزة كبيرة فى مجال الأعمال التى قمت بتنفيذها . . وكان كل مستقبلى مرهون بجودة تنفيذى لها .

رايت أن نجاحى فى القيام بها يمكن ان يكون معيارا لما يمكن أن

أكلف به من عمليات أخرى فيما بعد .

لذلك عقدت عليها آمالا كبيرة ، الأمــر الذى جعلنى أباشر تنفيذهــا بنفسى . .

وكان تفتيش المبانى فى ذلك الوقــت قــد طلب الى أن أقــوم بتعيين مهندس مختص للاشراف على تنفيذ العملية ، ووقــــع اختيارى على المهندس أحمد سليمان ، لكى يقوم بهــذا الدور ، وكان شــابا ، حــديث التخرج ، وهو يشغل الآن منصب كبير مهندسى شركة المقاولون العرب ، وهومن ابناء الاسماعيلية .

وانكر أننى قمت ببناء تلك المدرسة من أحجار منطقــة فــايد وكانت عادتى أن أذهب الى المحجر فى تلك المنطقة بنفسى لكى أنتقــى الأحجــار اللازمة لعملية البناء حجرا حجرا واقمتها منذ أكثر مــن ثلاثين عامــا ، ومع ذلك تبدو حتى الان وكأنها كما لو كانت حديثة الانشاء . .

ازمة مع المدير

وكان المهندس أحمد شاكر يعمل فى تلك الأيام مديرا عامــا لتفتيش المبانى ، وفى أحد الأيام ، قرر أن يقــوم بالتفتيش على عملية انشــاءات المدرسة ، وكانت المبانى قد وصلت الى الدور الثالث فى ذلك الوقــت ، تم تحديد يوم جمعة لزيارته المرتقبة ، وانتظرته ومعى أحمــد ســليمان منذ الصباح الباكر وحتى غروب الشمس . . كان ذلك فى شهر أغسطس .

وانتظرناه حتى غروب الشمس ، ولكنه لم يحضر .

وجاءنا بعد ذلك من يقول بأن موعد الزيارة قد تأجل الى يوم الجمعة القادم ، وانتظرناه فى الموعد الجديد حتى الساعة الثانية بعد الظهــر ولم يحضر ،مما جعلنا نفقد الأمل فى أنه سيقوم بزيارة مــوقع العمــل فى ذلك اليوم ، وكان أن اقترحــت على أحمــد ســليمان بأن نذهــب الى منزلنا لنتناول طعام الغــداء ، وطلبت الى الخفير أن يظــل فى مــوقع العمـــل لا يغــادره ، على أن يحضر لاســتدعائنا إذا حضر المدير العــــام أثناء غيابنا .

وانكر أن « الخفير » جاء بمجرد أن وصلنا الى المنزل ، ومعــه خبر

وصول المدير . . ذهبنا على الفور لمقابلته . .

كانت مفاجأة عندما استقبلنا الرجل بثورة عارمة . .

لم يتصور وهو المدير العام أن يحضر دون أن يجدنا فى انتظـاره . . إنه الرجل الذى تهتز له كل أركان جهاز مصلحة المبانى من الاسكندرية الى أسوان . فانهال تسفيها فى العمل الذى قمنا بانجازه ، واستقبلت كل ما قاله برحابة صدر ، لأننى كنت أعرف بخبرة تعاملى مـع الناس ، أن العيب ليس فى الانشـاءات التى قمنا بتنفيذهـا ، ولكن العيب فى أننا لم ننتظر مقدمه السعيد . . وتصور أن عدم انتظارنا له فى موقع العمل إهانة شديدة لشخصه الوقور . .

وتمالكت نفسى ومشاعرى ، وصبرت حتى تهدأ ثورته ، على أن أقـوم بعد ذلك بالتفاهم معه والاعتذار عن عدم تواجدنا فى مقر العملية فى لحظة وصوله ، موضحا له الأسباب التى دعتنا الى ذلك . .

وهنا يحلو ، لى أن أقـول لأبنائى الشـبـاب : إنه قبل أن يتصرف الانسان لابد أن يعرف الظروف المحيطة بالموقف الذى هو بصـدده ، قبل أن يفعل شيئا أو يقول كلمة ، وفى رأيى أن فهم طبائع البشر مهم جدا فى التعامل معهم ، ولذلك كان لابد ان اسـتوعب الموقـف قبل أن أتصرف ، لكن حماسة المهندس أحمد سليمان لم تمهله . كان شـابا ، ولم يتمـالك نفسـه إزاء ثورة المدير العـام ، ولذلك لم ينتظـر وبادر بالرد على المدير العام مدافعا عن دقة تنفيذنا للعمل . .

وكان مع أحمد سليمان حق فى كل ما قاله ، ولكن بحماسة الشباب لم يدرك ما كان المدير العام يهدف اليه من وراء ثورته . . وتكهرب الموقف فى لحظات ، لم أجد أمامى فى ذلك الوقت وسيلة لاصـلاح مـا حـدث إلا أن التزم الصمت ، فلم أنطق بكلمة واحدة . . وكنت قد أدركت أن كل شىء فى تلك اللحظة قد انتهى ، ولا يمكن تدارك الموقف . .

واتجه المدير العام ، وهو ينتفض بالغضب ، الى الكشك الذى أقمناه خصـيصا فى مـوقع العملية ، لنباشر العمـل منه ، ثم فتح بنفسـه دفتر الزيارات وكتب تقريرا طويلا عريضا ، حقر فيه كل شىء جميل ، ووصف

التنفيذ بأنه غير مطابق للمواصفات .

وكان ذلك يعنى إصـلاحات وتغييرات جـديدة يحتاج تنفيذهـا الى حوالى خمسة عشر ألف جنيه . .

واخـذت أفـكر بسرعة . . إنه المدير العـام ، وكان تقـديرى أنه لن يتراجع عن تقريره ، تحت أى سبب مـن الاسـباب ، وكان على فى نفس الوقت أن أقوم بتنفيذ كل ما سجله من ملاحظات . . ولكن أين لى بهـذا المبلغ الضخم ؟ .

واسودت الدنيا أمام عينى ، فى تلك اللحظة ، ولم أر إلا نور الله . .

وبعد أن كنت أعلق على هذه العملية كبار آمالى ، وجدتها فى أقل من ثانية تتحول الى مقبرة لطموحى .

إعادة نظر :

وكان أن جلست أقلب الأمـر ، بينى وبين نفسى ، ولم أجـد أمـامى الا أن أسافر الى القاهرة لمقـابلة المرحـوم الأسـتاذ اسـماعيل وهبى المحـامى والد زوجتى ، لكى أطلب منه أن يقيم لى دعوى ضـد تفتيش المبانى .

وذهبت الى المكتب لكى أقـوم بتجهيز الأوراق المطلوبة لاقـامة الدعوى . . اتصل بى فى تلك اللحظة تليفـونيا مهندس أول المبانى المقيم بالاسماعيلية ، وأبلغنى بأن المهندس شاكر أبو كرم سـيقوم غدا بزيارة العملية .

وكان الرجل يشغل فى ذلك الوقت منصب مدير أعمال ، وكان يعمـل مديرا لمكتب المهندس أحمد شاكر المدير العام .

وأذكر أننى حاولت الاعتذار عن انتظاره ، لأن ما حدث من المهندس أحمد شاكر لا وسيلة لعلاجه ، ولكن الرجل استطاع إقناعى بأن شـاكر أبو كرم رجل طيب القلب ، شديد الخـوف مـن الله سـبحانه وتعـالى ، وأقنعنى أننى لن أخسر شيئا إذا ما انتظرت يوما لمقابلته حتى أشرح له الموقف . . وافقت على الذهاب الى مـوقع العمـل ، لأكون فى اسـتقبال

الرجل . .

ولى هنا وقفة مع تلك الموقف . .

إن الرجال معادن ، ولا يمكن أن نقيس رجـلا برجـل آخـر . . لأن تكوين كل منهم مختلف ، وطباعهم ليست واحدة . .

كما أن المرونة فى التعامل أمر هام يجب ألا نتجاهله . . لا يصح ـ كما تقول الحكمة « أن يركب الانسان رأسه » ، لأنه ما دام هناك حل لأى مشكلة ، فلماذا العناد ؟

لذلك لم أتردد فى أن أقتنع بوجهة نظر مهندس أول المبانى عندما قال لى : إن شخصية شاكر أبو كرم تختلف عن شخصية أحمد شاكر .

كانت فرصة ، وقد خشيت أن تضيع منى وفى نفس الوقت تصورت أننى فى حالة عدم استقبالى له ، قد يتخذ موقفا مضادا منى وذلك مـا لم أكن أريده . .

المهـم . . حضر المهندس شـاكر أبو كرم فى الموعد المحـدد ، وكان طبيعيا أن يسألنى عما حدث بينى وبين المدير العام . . رويت له ما حدث بالضبط .

وقام الرجل بعد ذلك بتفقد المدرسة ، وأبدى إعجـابا شـديدا بدقـة التنفيذ ومتانته . . وإنكر أنه قال لى بالحرف الواحد :

« لا يوجد فى مصر كلها عمل يمكن أن أقارنه بهذا الأداء الرائع » .

وهدأت أعصابى ، وأنا أستمع الى هذه الكلمات . .

وكانت مفاجأة . . عندما طلب الرجل التقرير الذى كتبه المدير العام ، ثم قام بكتابة تقرير آخر سجل فيه أمام كل بند من بنود التقرير الأول ما يفيد أننا قمنا بتنفيذ جميع الملاحظات ، التى أبداها المدير العام . . نطقت فى تلك اللحظة بعبارة لا تزال حتى الآن أحد بنود دسـتور حياتى : « إن عملك هو الذى يدافع عنك » .

وأثبتت الأيام صحة هذا المبدأ الذى اعتنقته . .

وكم من المواقف التى تعرضت لهـا فى حياتى ، سـواء فى مصر أو فى البلاد العربية ولم أجد من يدافع عنى ويحمينى ممـا كان يدبر لى ، غير

عملى .

إن المدير العام الذى ثار ، وهاج ، وكتب تقريرا طويلا عريضا راجع نفسه ، ولم يجد أمام انبهاره بما قمنا بانجازه إلا أن يبعث بمدير مكتبه فى اليوم التالى مباشرة ، لزيارته ، لكى يصحح الموقف الذى خلفه وراءه اثناء غضبه .

واجد من المناسب هنا لأن أجيب على تساؤل ، كثيرا ماراود العديدين ، وهو أننى كيف استطعت أن أتعايش مع نظام ما قبل السادات ؟

الحقيقة أننى لم أتعايش مع ذلك النظام فى يوم من الأيام ، ولكن كنت شديد الاهتمام باتقان عملى . . كان عملى دائما يدافع عنى ، وهو الوحيد الذى أنقذ رقبتى من المشنقة التى كانت تنتظرنى . .

المهم . . الوفاء . . أدركت فى تلك اللحظة أن المهندس شاكر أبو كرم رجل طيب ، له ضمير حى ، يعرف الحق ، ويخاف الله ، واستقر اسمه فى راسى ولم انسه ، وعندما توليت أمر وزارة التعمير رحت أبحث عن فريق من المهندسين الشرفاء لمعاونتى ، وكان المهندس شاكر أبو كرم أول من سألت عنه ، وطلبت إليه أن يتعاون معى ، وعرفت انه قد أحيل الى المعاش ، وقمت على الفور باستدعائه ، وأصدرت قرارا بتعيينه « رحمه الله » مستشارا لوزارة التعمير .

وظل الرجل يعمل الى جوارى طوال الفترة التى أمضيتها فى العمل الوزارى الأول الذى كلفنى به الرئيس السادات .

أنقذنى ذلك الرجل من كارثة ، ودفع الظلم عنى ، وكان يفرض على الوفاء أن أفعل ذلك مع رجل لم يفعل إلا ما يرضى الله .

وأذكر بهذه المناسبة . . أنه كلما التقيت برجل شريف مؤمن ، كنت أضعه فى ذاكرتى ولا أنساه ، والجأ اليه فى المجال الذى يستطيع أن يعطى فيه كلما استدعى الأمر ذلك .

فالشرفاء لا يمكن التعرف عليهم إلا من خلال اختبار . . لذلك كنت أحرص كل الحرص على كل رجل عرفته من خلال تجربة .

الانجليز يحتلون المدرسة

لم تكن تلك الأزمة هى الوحيدة التى تعـرضت لهـا أثناء تنفيذ ذلك المشروع الكبير ، فى ذلك الوقت ، ولكن كانت هناك أزمة أخرى ، بعـد أن أصبحت المدرسة جاهزة للتسليم ، قامت قـوات الاحتلال البريطـانى فى الاسماعيلية بالاستيلاء عليها عندما ألغت حكومة الوفد فى سـنة ١٩٥١ معاهدة ١٩٣٦ . .

وتحركت فى تلك الأيام فصـائل الفـدائيين ضـد قـوات الاحتلال البريطـانى ، الأمـر الذى دفـع الانجليز الى التفـكير فى احتلال الاسماعيلية .

وكانت تلك المدرسة من بين المواقع التى كانوا قد قرروا احتلالها .

أذكر ما حدث عندما حضر ضابط إنجليزى ومعه عدد من الجنود الى المدرسة وكان كل واحد منهم يحمل مدفعا رشاشا . .

سألنى الضابط عن المسئول عن المدرسة ، ولما اجبته بأننى المقـاول الذى يقوم بتنفيذها ، قال : إن لديه تعليمات باحتلال المدرسة . .

وكان أن طلبت منه التوقيع لى على محضر إثبات حالة يفيد بأنهـم قاموا باحتلال المدرسة . . وافق الضابط على التوقيع على ذلك المحضر .

وفى أقل من دقائق كانت قوات الاحتلال قد حاصرت المدرسة من كل جانب ، وتمركز بعضها داخل المدرسة . . واتخذ البعض مـن سـطوحها مكانا لتوجيه نيرانهم الى صدور ابناء بلدى .

كان مشهدا مثيرا للأعصاب ، لا أنساه فى حياتى ، كنت حـزينا على الحـالة التى وصـلت اليهـا بلدى . . كان الانجليز يملكون كل شىء فى أمرها ، بينما كانت الأحزاب السياسية تتناحر على الفوز برضاء القصر والانجليز ، لكى تتمكن من الوصول الى كراسى الحكم ! !

كم احتقرت الساسة والسياسة ، فى ذلك الوقت . . لقد رأيت بنفسى ، وحدث معى ما حدث ، ولم أجد من يرد هؤلاء عن غيهم .

نعم كانت فصائل الفدائيين المخلصين تقوم بدورها الوطنى النبيل ،

ولكن أين كانت قيادة الجيش فى ذلك الوقت ؟ . وماذا كان دورها ؟

لا أعرف ؟ . .

ولكن كل ما أستطيع أن أقوله الآن إننى بصدد كتابة تجربتى الشخصية ولست بصدد كتاب لأسجل حال مصر التى وصلت اليه ـ إلى أن انقذتها الثورة ، التى كان الرئيس السادات أول من نسج خيوطها .

الأمانة :

وكان أن فكرت فى ذلك الوقت فى أى شيء افعله حتى امنع الانجليز من احتلال المدرسة ، على اعتبار أنها منفعة عامة لأبناء الاسماعيلية يتلقون فيها العلم . .

ولم أجد إلا أن أطلب من الضابط الانجليزى إعطائى مهلة ساعتين ، قبل أن تسيطر قواته على المدرسة ، لكى أتمكن من نقل معداتى التى كنت أستخدمها فى عملية البناء . .

وهدفى فى ذلك الوقت لم يكن نقل المعدات . . ولكن كان يتمثل فى خلع الأبواب الداخلية بالمدرسة ، على أمل أنهم عندما يجدونها كذلك قد يفكرون فى التخلى عنها . . وكان أن وافق الضابط على طلبى . . وقام بابلاغ صف الضابط الذى كان معه وانصرف . .

وكان معى فى ذلك الوقت شقيقى المرحوم محمد عثمان . . واذكر اننى طلبت منه أن يقوم على وجه السرعة باستدعاء جميع العاملين معنا . . وكلفتهم فور حضورهم بخلع الأبواب الداخلية ، وتحميلها على سيارة ، ونقلها الى مخازننا .

ورغم ذلك لم يتراجع الانجليز عن احتلالهم للمدرسة !

واذكر انه بعد فترة من احتلال المدرسة ، قام الانجليز باعادتها الى الحكومة المصرية . . ثم قامت ادارة المبانى باستدعائى لاصلاح ما أفسده الانجليز فى المدرسة . .

وكان من بين ما أسند إلى ، عملية تركيب أبواب جديدة ، بدلا من الأبواب التى تم خلعها . .

وانكر اننى قلت للمهندس شاكر ابو كرم وقتها إن الأبواب القديمة موجودة فى مخازنى ، لقد قمت بخلعها من المدرسة قبل احتلالها ، واحتفظت بها عندى . .

وانتابت الدهشة الرجل .

كان يتصور أنه ما دام أحد لم يطلبها منى ، فاننى سأخفيها . ولكن كيف اخفيها ، وقد رانى من لا يخفى عليه إى شىء . .

وكم كان ذلك الموقف كبيرا فى نظر الرجل . .

وكم كان أثره عظيما فى الاسماعيلية كلها .

كسبت من السمعة الطيبة ، التى ملأت المنطقة كلها ، عشرات اضعاف ثمن تلك الأبواب . . وتأكد عندى ، أن « القناعة كنز لا يفنى » ، وأن « مخافة الله أبقى » . .

ولم يكن هذا هو الموقف الوحيد من نوعه فى حياتى . . ولكننى اتخذت من نتائجه درسا لا انساه . . وحدث أننى تعرضت لنفس الموقف فى المملكة العربية السعودية . . عندما أضفت الى حساباتى ثلاثة عشر مليون ريال عن طريق الخطأ . . كان بمقدورى أن أخفيها ، ولكننى لم أفعل ، فكان الأثر الذى تركته فى نفسى ، هو نفس الأثر الذى تركه موضوع الأبواب ، واستفدت اضعاف تلك الريالات .

إننى اقتنعت بالحلال . . فزادنى منه الله ــ والحمد لله .

* * *

وأصبح الطريق أمامى مفتوحا بعد تنفيذ عملية مدرسة البنات ، لكى أقوم بتنفيذ العمليات الكبيرة . وكان لابد أن يسير منحنى حجم المشروعات التى أقوم بتنفيذها الى أعلى دائما وبشكل مستمر . .

وكان لا يصح إلا أن أصعد درجات السلم ، ولا اقف عند مستوى معين . .

فهل حدث ذلك ؟

الخط الوطنى
للمقاولين العرب

اتخذت الوطنية عندى مفهوما خاصا يختلف عن المفهوم السائد فى ذلك الوقت ، وما يزال العديدون يسيرون على أساسه حتى الآن .

فعلى الرغم من أننى لست من محترفى الكلام . . إلا أن رؤيتى الوطنية بمفهومى الذى حددته فى نفس الخط الوطنى فى حياتى ، إنها عمل يقتضى من كل مواطن أن يعطى وطنه بقدر ما يستطيع فى مجال عمله .

وعلى الرغم من أننى لم احترف السياسة ، فالوطنية إن لم تكن عندى شغلا بالسياسة ، فهى عندى النضال فى أى مجال كان . . سياسيا أو اقتصاديا أو علميا أو ثقافيا أو اجتماعيا ، أو عسكريا ، أو ثوريا ، حيثما انفتح السبيل أمام المواطن ، ليقدم ما يقدر عليه من مال أو جهد أو تضحية لوطنه . .

نعم كنت متعاطفا فى ذلك الوقت مع الفدائيين ، ولكن الوطنية اتخذت عندى بحكم طبيعة عملى ذلك المفهوم الذى تمنيت ، وما ازال اتمنى ، أن يجد له مكانا عند كل مصرى .

فالوطنية كما قلت ، ليست تشدقا بالعبارات ، كما أنها ليست تزاحما فى الوقوف أمام الميكروفونات ، ولكن هى أن يعطى كل مواطن وطنه فى مجال عمله . . ثبت عندى هذا المفهوم ، وأكدته التجربة الطويلة التى خاضتها « المقاولون العرب » فى المجال الوطنى ، والتى بدأت أول خيوطها مع إعادة بناء « كفر أحمد عبده » ، ثم بعد ذلك حضرت من السعودية خصيصا الى القاهرة ، لكى أساهم فى إعادة تعمير بور سعيد بعد عدوان ١٩٥٦ .

ثم تقدمت بعد ذلك لتنفيذ أكبر مشروع فى مصر والعالم ، وهو « السد العالى » ، وارتبطت منذ ذلك التاريخ شركتى بالأعمال الوطنية ، التى اتصلت أثناء هذا المشروع وبعده . .

فشركتى هى التى اقامت منشآت قلعة الصناعة المصرية فى كل مكان امتدت اليه يد التصنيع فى مصر بطولها وعرضها .

وشركة « المقاولون العرب » هى التى قادت معركة إنشاء قواعد الصواريخ ، ليس ضد إسرائيل فقط ، ولكن ضد الروس أيضا ، وهى التى ساهمت فى توسيع قناة السويس وانجزت كوبرى ٦ أكتوبر ونفق الشهيد أحمد حمدى وما الى ذلك من عشرات المشروعات التى أقامتها فى مصر كلها ، وعلى رأسها إعادة تعمير منطقة القناة بعد حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ .

مخاطرة فى « كفر احمد عبده »

واذكر فى تلك الأيام أن الانجليز كانوا قد دمروا قرية « كفر أحمد عبده » التى تقع بالقرب من السويس ، لأن الفدائيين كانوا قد اتخذوا منها مركزا لمباشرة عملياتهم ضد قوات الاحتلال . .

وكان لابد لهم أن ينتقموا من المدنيين فى الكفر ، لأنهم سمحوا للفدائيين باتخاذ قريتهم مركزا لنشاطهم .

واذكر أن الحكومة كانت قد طرحت مشروع إعادة بناء « كفر أحمد عبده » فى عطاء كنت من بين المقاولين الذين تقدموا لكسب ذلك العطاء . .

وكان قد أضيف سبب جديد دفعنى لأن أتقدم لكسب ذلك العطاء .

كان السبب مختزنا فى نفسى منذ أن كنت أرى الشركات الانجليزية فى منطقة القناة ، وحلمت أن تكون لى شركة مثلها ، ولكن ذات اتجاه وطنى . .

وقد واتتنى فى ذلك العطاء فرصة تأكيد هذا الدور لشركتى وهى فى بداية حياتها . .

نعم كنت متعاطفا مع الفدائيين . .

ولم اكن فى ذلك الوقت واحدا من الفدائيين الذين حملوا السلاح ،

لمكافحة الاستعمار ، لكننى آبيت واجبى فى خدمة بلدى ، عندمـا تقـدمت لاعادة بناء « كفر أحمد عبده » الذى دمره الانجليز .

وكان أن أقدمت على تلك العملية ، رغم كل ما كان يحبط بهـا مـن مخاطر ، مع اننى مقاول ناشىء كان يمكن ألا يتحمل رأسمالى ما يمـكن أن أتعرض له من خسائر .

وأنكر أن البعض نصحنى بألا أقـدم على تلك العملية ، على اعتبار أن الانجليز لن يسمحوا لى باعادة بناء « كفر أحمد عبده » ، وسأتعرض بسبب ذلك الى العديد من المضايقات . .

ومع ان ما تحسبه الآخرون كان على جانب كبير مـن الموضـوعية إلا أننى اقدمت وعانيت من « غلاسة » الاحتلال الانجليزى ، الكثير . .

وكان أن حدث انهم قاموا بتخريب ما كنت قـد أقمته مـن منشآت ، كما أنهم قاموا بتبديد الكثير من مواد البناء التى أستخدمها . . ولكن كل ذلك لم يمنعنى من استكمال إعادة بناء « كفر أحمـد عبده » وإعادة أهله إليه . .

كم عز على أن يظلوا فى العراء بلا مأوى . خاصة فى فصل الشتاء .

وكان أن نجحت واعدت بناء « كفر أحمد عبده » فى اقل من شـهرين واقمت مائة وواحداً وستين منزلا ، تشهد حتى الآن على صدق ما اقول .

كسبت العطاء ، لأن عطائى كان فى تلك العملية مائة وخمسـين الف جنيه . . وهو يمثل أقل العـطاءات كالعـادة التى أخـذت بهـا نفسى منذ البداية . وفتحت لى طـريق المسـتقبل على مصراعيه لأبنى هـذا الكيان العملاق . .

وأنكر أن حجم العملية كان كبيرا . . كانت أول عملية كبيرة متكاملة اغزو بها ، ليس مجال الانشاء والتشييد ، ولكن مجال التعمير من أوسع أبوابه . .

وكنت فى ذلك الوقت ما أزال المقاول البسيط الذى لا يتعـدى حجـم إنشاءاته أكثر من مدرسة استحوزت على كل اهتمـامه واعتبرهـا أول معبر يعبر من فوقه ليضع قدميه على الأرض الحقيقية للأحلام التى ظل يعيش فيها طوال الفترة السابقة من حياته .

من انت مرة اخرى ؟ !

وكل من تساءل فى ذلك الوقت : من هو عثمان أحمد عثمان ؟ كان على حق .

كنت ما ازال جديدا على دنيا عمالقة المقاولات .

واذكر أن عثمان باشا محرم الذى كان يشغل منصب وزير الأشغال فى ذلك الوقت ، قد تحفظ على إسناد العملية إلى . . كان الرجل يشك فى اننى أستطيع تنفيذ المهمة على الوجه المطلوب ، خاصة أنه لم تكن لى سابق تجربة تؤكد قدرتى على إنجاز ما هو مسند إلى من أعمال .

لذلك استدعيت لمقابلته . .

وكان المهندس شاكر أبو كرم يشغل منصب مدير مكتبه فى ذلك الوقت .

واستقبلنى الرجل ونبهنى بألا أنطق بكلمة واحدة عند مقابلتى للوزير . .

ومن الطريف الذى أذكره أن المهندس شاكر ابو كرم أخذ يعلمنى كيف أضع الطربوش على راسى ، وكيف أدخل مكتب الوزير ، . . وكيف اقف أمامه ، وكيف أخرج من المكتب بعد انتهاء المقابلة .

إنه معالى الوزير . .

وعندما دخلت لمقابلة معالى الوزير سألنى عن مدى تأكدى من الأسعار التى تقدمت بها ، وعن قدرتى على الانتهاء من العمل المطلوب منى فى الوقت المحدد .

وكان واضحا من طريقة حديثه أنه كان يريدنى أن أتراجع . . فقد كان خائفا من عدم استطاعتى التنفيذ . . .

كان من وجهة نظره أن أتراجع عن تعمير « كفر أحمد عبده » . . ولكنه كان من وجهة نظرى تراجعا عن أشياء كثيرة فى نفسى . .

إنه المستقبل بالنسبة لى . . فكيف اقبل أن اتراجع عنه ؟ . .

واذكر اثناء المقابلة ان عثمان باشا محرم سألنى عما إذا كنت شقيق المرحوم الدكتور إبراهيم عثمان .

فأجبته بالايجاب .

فترحم عليه . . وقال لى إنه كان صديقه ، ولكنه عاد يحذرنى من أنه لن يرحمنى إذا قصرت ، ولن يشفع لى عنده أننى شقيق المرحوم الدكتور ابراهيم عثمان . وقال لى :

إن العملية وطنية بالدرجة الأولى ، قبل أن تكون إنشائية .

واذكر أننى طمأنته بأننى سأكون عند حسن ظنه .

ومع انهم حذرونى من أن أفتح فمى بكلمة واحدة ، إلا أننى قلت له :

إننى لى بعض المطالب حتى أستطيع التنفيذ كما يجب .

فقال لى : ما هى ؟

قلت : تسهيل سفر العمال ، وصرف الأسمنت بانتظام ،

وقال لى : ستجد كل ما تريده ، إن الدولة كلها تحت تصرف هذه العملية .

وتأكد للوزير صدق عزمى على إنجاز المهمة التى كان مترددا فى شأن إسنادها لى . .

وبعد أن خرجت من مكتبه قمت بتوقيع العقد ، لكى أبدأ التنفيذ ولكن كان لا يمكن أن ينتهى إسناد العملية لى قبل أن أقدم خطاب ضمان يمثل ١٥٪ من قيمة عطائى فى العملية ، أى خمسة عشر الف جنيه .

ولم يكن معى المبلغ المطلوب . . ولكن هناك طريقة نلجأ إليها عادة نحن المقاولين فى مثل تلك الأمور . هى أن يذهب المقاول إلى أحد البنوك التى يتعامل معها ويطلب منه إصدار خطاب الضمان مقابل أن يدفع ١٠٪ من قيمة خطاب الضمان ، وليس من قيمة العملية ، أى الف وخمسمائة جنيه فقط .

وضحكت على الانجليز

واذكر أننى كنت أتعامل فى ذلك الوقت مع بنك « باركليز » والبنك العثمانى ، حيث كان لكل منهما فرع فى الاسماعيلية ، ولم يكن بنك مصر قد فتح له فرعاً هناك . .

وقمت بالاتصال بمدير البنك العثمانى ، وكان بنكا إنجليزيا ، وكانت تربطنى علاقة صداقة قوية مع مـــديره ، وكان لبنانيا يحمـــل الجنســـية المصرية .

أبدى تحفـظا على الموضـــوع ، على اعتبار أن تلك العملية بالذات موضع حرج بسبب ما كان يحدث من الفدائيين . . وحاولت إقناعه بشتى الطرق . . ولكنه لم يقتنع ، واتفقت معه فى النهاية على أن نذهب إلى مدير الفرع الرئيسى له بالقاهرة لعرض الأمر عليه ، واتفقنا على موعد نلتقـــى فيه عند البنك .

ولكنه وصل إلى البنك قبلى وقابل مـــديره وشرح له الموقـــف ، لأننى فهمت من لهجة حـــديثه معـــى عندمـــــا قـــــابلنى أنه على دراية كاملة بالموضوع . .

وحاول الرجل أن يعتذر لى عن تقـــديم خـــطاب الضـــمان . . ومعنى اعتذاره أننى لن أقـــوم بتنفيذ العملية . . وألهمنى الله فى تلك اللحـــظة فى الحديث معه ، ما جعله يسلم بطلباتى ، بل ويساندنى . .

وكان أن قال لى : كيف يعطينى خطاب الضمان فى الوقت الذى يفعل فيه الفدائيون ما يفعلونه ضد القوات الانجليزية فى منطقة القناة ؟

وكانت الاجابة التى الهمنى بها الله فى تلك اللحظة فى شكل تســـاؤل طرحته على الرجل عندما قلت له :

وهل أنتم فى حاجة إلى المزيد من إثارة مشاعر الناس ضدكم ؟

وهنا الفت نظر أولادى إلى ضرورة أن يتعلم الانســـان كيف يختار الأسلوب المناسب والمدخل المناسب لمواجهة كل موقف يمكن أن يعترض طريقه فى حياته . . حتى يستطيع أن يجد لنفسه منه مخرجا .

وكانت إجابتى على الرجل سببا فى أن يراجع موقفه ولكن القرار لم يكن بيده .

لذلك قرر أن يتصل بالمركز الرئيسى للبنك فى انجلترا ليعرض الأمـــر عليه . . استأذن منى فى أن انتظـــره خـــارج المكتب حتى لا أشـــهد عملية الاتصال وما يدور من حديث . .

وبعد لحظات عاد يستدعينى مرة أخرى ليبلغنى بالموافقة .

وكان أن طلب منى أن اقوم باتخاذ الاجراءات اللازمة نحو الحصول على خطاب الضمان المطلوب .

وحمدت الله على أنهم وافقوا على إعطائى خطاب الضمان المطلوب . ولكن لم يكن معى فى ذلك الوقت من المال ما أستطيع أن أبدأ به . . لذلك طلبت منه بأن يفتح لى البنك حسابا مكشوفا احصل بمقتضاه على ما أريد مقابل التنازل للبنك عن العملية لكى يتم صرف ما احتاجه مقابل هذا الضمان .
وبمقتضى ذلك تتحول مستحقات العمليةالتى يقوم بتنفيذها صاحب المشروع إلى البنك مباشرة . وعند نهاية العملية تتم تصفية الحساب بين البنك والمقاول .

وهذا النظام معروف ومتداول فى مجال المقاولات .

فوافق الرجل ولكنه اعتذر عن تقديم كل المبلغ الذى طلبته .

كنت قد طلبت فى ذلك الوقت مبلغ اربعين الف جنيه . ولكنه وافق على أن يتم صرف نصف المبلغ فقط .

ووافقت ، واتفقت معه على ذلك .

وقمت بتجهيز الأوراق اللازمة وحصلت على خطاب الضمان الذى قمت بتسليمه إلى وزارة الأشغال واتممت معها التعاقد .

وكانت مصلحة المبانى قد كلفتنى بأن اذهب إلى السويس لمقابلة المهندس محمد أبو السعود مساعد مدير الأعمال هناك ليقوم بتسليمى موقع العمل .

واستيقظت فى صباح اليوم التالى منذ الفجر لأذهب إلى السويس واصطحبت معى المرحوم عبد العزيز حسن معلم البياض ، والحاج على عبد العزيز مقاول البلاط .

وأذكر انه بينما كنا نسير بالسيارة ، قبل أن نغادر القاهرة ، وكان ذلك مع أول خيوط النور ، أن سيارتنا صدمت بائع لبن ، كان يركب دراجة . . ووقفنا لكى نتأكد من سلامته وسلامة دراجته ، وحمدنا الله أنه

لم يحدث له شيء أكثر من ان اللبن انسكب على الأرض . .

ولأنه ليس عندنا من الوقت ما نضيعه ، سألت الرجل : كم ثمن هــذا اللبن ؟

قال : جنيه ونصف .

فأخرجت من جيبى جنيهين وأعطيتهما له . . وانصرفنا .

وتناولت لتلك الواقعة البسيطة ليس من قبيل حشو هذه الصفحات ، ولكن لكى يتعلم منها الشباب درس احترام الوقت والحرص على إرضاء الآخرين . .

لقد كنا سببا فى أن يفقد الرجل سلعته وكان لابد أن « نطيب خاطره » من ناحية ومن ناحية ثانية ، ليس عندنا من الوقت ما نحن على استعداد لأن يضيع .

إن الوقت من ذهب وهو كالسيف إن لم تقطعه قطعك .

فلا يصح أن يضيع الانسان وقته الثمين فى أمور صغيرة . ويجب أن يتصرف بسرعة ، وينطلق إلى هدفه ما دام الأمر لا يساوى أن يشــغل به نفسه .

المهم . . اتجهت إلى السويس ، ووصــلنا إلى الكيلو ٩٩ حيث كانت هناك نقطة عسكرية إنجليزية تحيط بها قــوة مــن الدبابات . . والمدفعية المستعدة لاطلاق قذائفها ضد أى تحــرك لا ترضى عنه قــوات الاحتلال ، كانت مهمة تلك النقطة منع أى إنسان من دخول الســويس أو الخــروج منها الا بتصريح من الانجليز . .

ولك أن تتصور ما تتصوره . .

مصريون لا يدخلون مدينة مصرية إلا بتصريح من الانجليز . . منتهى المهانة لمصر . . والمصريين . .

وعند تلك النقطة منعنا الانجليز من دخــول الســويس . . وحــاولت بشتى الطرق . . ولكن دون جدوى .

ولما سألت عن الوسيلة التى تمكننى من دخول السويس قــالوا لى :

لابد من تصريح من السفارة البريطانية . .

ماذا قال
معالى الوزير ؟

وكان لابد أن أعود مرة أخرى كما طلبوا منى . .

ولكن لم أذهب إلى السفارة الانجليزية إنما ذهبت إلى وزارة الأشغال المصرية أولا . . وطلبت مقابلة الوزير عثمان باشا محرم ، وعندما قابلنى الرجل . . رويت له ما حدث ، فأعرب عن استنكاره وقال لى : أنه سيتصل بوزير الداخلية لكى يرسل معى شرطيا مسلحا . . على أن يتم إتباع نفس الأمر مع كل سيارة من سياراتى تذهب إلى مقر العملية . .

ولم امتلك أمام ما قاله لى : إلا أن أضحك فى نفسى . . وأخفى حزنى على بلدى فى صدرى .

فكيف يمكن لشرطى مسلح أن يتصدى للمصفحات التى رأيتها ؟ . . وكيف له أن يتصرف ؟ . .

وما كان منى إلا أن أخرج من مكتبه واتجه إلى مقر السفارة البريطانية لأبحث على حل معها لتلك المشكلة . .

واننى رايت هناك مشهدا لا يمكن أن انساه . . رأيت هناك الارهاب ذاته . .

وكان بمجرد اقترابى من السفارة أن تقدم نحوى مجموعة من الجنود الانجليز كانوا يصوبون فوهات بنادقهم إلى صدرى ، وهم يسألوننى عن السبب الذى قدمت من أجله إلى مبنى سفارتهم ، فرويت لهم ما حدث معى . .

وعدت بعد ذلك اسألهم :

هل انتم فى حاجة إلى مزيد من إثارة مشاعر الناس ضدكم ؟ وكان هذا المدخل قد نجح مع مدير البنك . . لذلك استخدمته أيضا فى السفارة ونجح . .

ووافقوا على تصريح لى بمقابلة مسئول فى السفارة . وحدد لى المسئول موعدا فى اليوم التالى ليبلغنى بموقف السلطات البريطانية من ذلك المطلب .

وفى الموعد المحدد ذهبت لأجدهم انتهوا الى أن يسمحوا لى ولمعداتى ومواد البناء اللازمة بدخول مدينة السويس لتعمير كفر احمد عبده . .

واتفقت معهم على تنظيم تلك العملية على أساس ان اى سيارة أو أى شخص يحمل خطابا منى يحمل ختم مكتبى يسمح له بدخول السويس . .

ولكنهم طلبوا صورة من ذلك الخطاب حتى يراجعوا كل ما يصدر من خطابات على أساس منها حتى لا يقوم آخرون بتزوير مثل تلك الخطابات وسلمتهم صورة . وأصبح الطريق إلى السويس مفتوحا أمامى بعد ذلك . . ليس لمباشرة أعمالنا فقط ولكن لمساعدة أى من أهالى المنطقة كان يريد أن يذهب إلى هناك أو يحضر من السويس أى شىء . وكان ذلك الخطاب مفتاحا للموقف كله . .

مطلوب القبض
على عثمان . . !

ولكن المفاجأة المضحكة فى ذلك الموقف هى اننى عندما عدت من السويس فى نهاية أول يوم حصلت فيه على ذلك التصريح . . وجدت خبرا ينتظرنى . .

كان ذلك الخبر يقول إن المباحث العامة تبحث عنى فى كل مكان . . وإنهم يريدوننى بأى ثمن . .

وفرحت جدا بذلك الخبر فى بداية الأمر لأننى كنت قد تصورت أن ذلك الاستدعاء من قبل وزارة الداخلية ، إنما بسبب ما كان قد دار من حديث بينى وبين عثمان باشا محرم . .

ولكن كانت المفاجأة عندما ذهبت إلى مبنى المباحث العامة ، وجدتهم يسألوننى عن سبب اتصالى بالسفارة البريطانية . ولم يكتفوا بالاجابة التى قدمتها لهم . ولكنهم أجروا معى تحقيقا طويلا . . ولم أجد ما أقوله

لهم فى نهـــايته إلا أننى إذا كنت قـــد ذهبت إلى السـفارة البريطـــانية ، فانما كان هدفى تعمير كفر أحمد عبده . . ذهبت اليها لا لأننى تخليت عن مصريتى ورحت أتعاون مـــع الانجليز ولكننى ذهبت لأننى أتعـــاون مـــع بلدى . . وما دمتم غير قادرين على توفير الحماية اللازمة لتمـكينى مـــن تعمير كفر احمد عبده فعلى انا ان ابحث عن الوسيلة التى تمكننى مـــن أن أعيد بناء قطعة من بلدى تأوى إخوة لى .

وانكر بهذه المناسبة انه كأن التاريخ يعيد نفسه ، فبينما كنت أقـــوم ببناء قواعد الصواريخ لقطع ذراع الطيران الاسرائيلى . . اتهمنى نظام الحكم السابق بأننى عميل لاسرائيل ولذلك الموضوع قصة طويلة . .

المهم بدأت تنفيذ العملية . .

وقد تعرضت للعديد من مضـــايقات قـــوات الاحتلال الانجليزى التى حاولت الاحتكاك بى أكثر من مرة لتوقف عمليات التنفيذ . . بل وصل أمر مضايقاتها إلى احتلال مواقع العمل أكثر من مرة بدباباتها ، وذات مـــرة أوقفوا العمل عشرة أيام كاملة . .

ورغم كل هذه المضايقات فاننى نجحت فى أن أنتهـــى مـــن المهمـــة ، وسلمت كفر أحمـــد عبده لوزارة الأشـــغال بعـــد أن أديت واجبى تجـــاه وطنى . . وتجاه مستقبلى . .

* * *

كانت تلك المرحلة من حياتى مـــرحلة البحـــث عن تحـــديد معـــــالم الطريق . .

وكلما وقفت اتأمل مراحلها أجد نفسى مشدوداً لأن أســجل صـــورة متكاملة لذلك المشهد المثير من مشاهد رحلة حياتى . .

نعم أصبحت أقف على أرض من الحقيقة ، ولكنهـــا ليســـت الأرض التى أريدها .

وكان على أن أكمل المشوار . . .

* * *

بداية رحلتى

إلى الملايين ..

استطعت حتى تلك اللحظة ان انجح فى تكوين شركة مقاولات ، وتجسدت الفكرة حتى أصبحت واقعا ، ولم يكن هدفى مجرد ذلك الواقع ، ولكن كان احد شروط تكوين هذه الشركة التى اشترطتها احلامى ، أن تكون كبيرة مثل الشركات الأجنبية العملاقة التى كنت أراها فى منطقة قناة السويس ، وكان لابد وأن أواصل السير على الطريق الذى بدأته ، حتى أدرك الهدف الذى أردته ، ولكن مع بداية نهاية سنة ١٩٥٠ كانت الظروف العامة فى مصر لا تشجع على ذلك . .

وكان أن زادت غطرسة الاحتلال الانجليزى فى منطقة القناة ، وكان من الصعب على أى مقاول أن يطمئن إلى مزاولة أعماله هناك . . وتقدمت إلى اكثر من ثمانية عطاءات فى مناطق أخرى ولم أكسب أيا منها ، وكانت المرة الوحيدة فى حياتى التى تقدمت فيها لعطاءات ولم اكسبها . . وحاولت كثيرا لأن أعرف السبب ، بل وحتى الان ما تزال محاولة معرفة ذلك السبب تخطر على بالى ، ولم أجد إلا أن إرادة الله سبحانه وتعالى هى التى شاءت ذلك . . ربما لكى انتقل الى مرحلة جديدة تماما فى حياتى وحياة الشركة معى . .

وكانت تلك الأزمة ، بداية الفتح الكبير ، الذى خطوت نحوه بعد ذلك لأحكى من خلال مواقفه وأحداثه قصة الانسان . .

وكان فى تلك الفترة أن وجدت نفسى ، لا أجد من الدخل ما أغطــى به التزاماتى ، أو أدفع منه أجور العاملين معــى ، ولم أجــد أمــامى إلا أن أقتطع من رأسمالى ما أسد به احتياجاتى ، رغم معرفتى بالآثار المدمرة لمثل ذلك التصرف . . وماذا يعنى أن يلجأ مقاول لأن يأكل من رأســماله ليس وحده . . بل وكان معه مجمــوعه مــن المهندســين والملاحــظين والعمال ، وكان لابد وأن يســتمر فى صرف أجــورهم ومــرتباتهم ، لكى يواجهوا الأعباء العائلية المطلوبة منهم . . وكان مجمــوع مســتحقاتهم يصل الى حوالى الف وثلثمائة جنيه فى الشهر . . وكان رأســمالى الذى إقتطــع منه ذلك المبلغ كل شــهر لا يتعـــدى العشرين الف جنيه فى ذلك الوقت . .

وكان معنى ذلك أن راسمالى الذى كونته عبر مســيرة ، الســنوات العشر الماضية ، سوف يأتى يوم بعــد عدة شــهور لا أجــد منه مليمــا واحدا . .

وكان الموقف مخيفا ومقلقا . .

وأذكر أن الدنيا ضاقت فى وجهى فى ذلك الوقت ، حتى أصبحت كمــا يقولون فى المثل « ثقب إبرة » ، ولكن تحول بحمد الله هذا « الثقــب » مــن حائل منيع ، إلى ميكروسكوب إستطعت أن أرى مــن خلف عدســاته كل الآفاق .

* * *

خطوة إلى المجهول

فجأة زارنى صديقى على شريف على غير موعد ، فوجدنى غارقا فى بحر من الحيرة ، فسألنى : ماذا بك يا عثمان ؟

فرحت أبوح له بكل ما فى صدرى ، ربما أجد فيمــا أقــوله مــا يريح نفسى .

وجرنا الحديث إلى إعلان كان قد قراه فى إحدى الصحف ، يفيد بأن وزارة الدفاع السعودية أعلنت عن عملية ، وتريد من يقــوم بتنفيذهــا ــ و ناقش معى فكرة أن أسافر إلى هناك ، وأتقدم فى عطــاء تلك العملية ،

ووافقت على اعتبار أن المغـــامرة لابد وأن تكون إحـــدى صـــفات رجـــل الأعمال . . ولعلنى أجد هناك مخرجا مـــن ازمتى ، وكان لابد وأن أرتاد آفاقا جديدة ، ومجالات أخرى بعيدة . . ولكن على أساس من الحساب .

وكان أن قررت أن أجرب حظى فى بلاد أخرى ، وحاولت الحصـــول على الصحيفة التى يوجد بها ذلك الاعلان الذى وجـــدته بعـــد أن أعيانى البحث عنه فى مكان مغمور ، وعلى مساحة محدودة باحـــدى الصـــفحات الداخلية بالصحيفة . . ورحـــت أتتبعـــه . رغم معـــارضة الكثيرين مـــن الأقارب والأصدقاء خوفا على من المجهول . . خـــاصة أن تلك المرة كانت المرة الأولى فى حياتى التى اقرر فيها السـفر خـــارج مصر . . وبدأت فى الســـؤال عن الاجـــراءات التى تتبع فى مثل ذلك الموقـــف ، وعرفـــت الخطوات . .

قمت أولا باستخراج أول جـــواز ســـفر فى حياتى ، وحملته ومعـــى الاعلان وذهبت إلى السفارة السعودية فى القـــاهرة لكى أطلب تأشـــيرة دخول إلى المملكة . . وسألونى على باب السفارة : من أنت . . ؟ !

قلت : عثمان أحمد عثمان مهندس ومقاول .

قالوا لى : لم نســـمع عنك مـــن قبل ، ولذلك لا نســـتطيع أن نمنحـــك التاشيرة المطلوبة .

قلت : وما هـــو المطلوب منى ، لكى تســـمعوا عنى ، حتى أســـتطيع الحصول على التأشيرة ؟ !

قالوا لى : أن تقدم لنا ما يثبت أنك مقاول . .

وكان نفس الموقف الذى حدث معى عندمـــا تقـــدمت لشراء كراســـة عطاء سور مصنع سماد السويس ولكن فى تلك المرة كنت قد حصلت على سابقة الأعمال .

وتركت السفارة ،وذهبت لكى أقوم باحضار الأوراق التى طلبوهـــا منى ، كشرط للحصول الى تأشـــيرة دخـــول الســـعودية ، وكان معـــى المهندس أحمد سليمان الذى اتخذت له نفس الاجراءات . .

وكان أن حزمنا حقائبنا واتجهنا إلى السعودية ، ومع كل منا مـــائة

وثلاثون جنيها كانت قد صرفتها له السلطات المصرية، لان يخـرج مـن البلاد بها . . ركبنا طائرة مـاركة« داكوتا » وبدأنا رحلة مـزعجة جـدا وشاقة جدا ، وكان صوتها يصـك الاذان . . كأنهـا بدورهـا أرادت أن تنضـم إلى عوامـل القلق ، والازعاج التى كانت تعترينى خـلال تلك الفترة . . وفى نهاية الرحلة هبطت بنا فى مطار جدة . .

«وشربت المقلب»

وهناك ركبنا سيارة تاكسى من المطـارإلى أقـرب لوكاندة . . لم يكن سائقها من بين مواطنى السعودية . . وقبل وصولنا إلى اللوكاندة ، فقدنا ثلث المبلغ الذى كان معنا دفعة واحدة عندما ضحك علينا سائق التاكسى واسـتولى على جميع المبلغ الذى كان معنا مقـابل أن غير لنا الجنيه المصرى بسبعة ريالات سعودية بينمـا كان الجنيه يسـاوى أحـد عشر ريالا . . وصدقت بمنتهى البسـاطة أن الجنيه المصرى يسـاوى سـبعة ريالات سعودية دون أن أكون قد أعطيت نفسى فرصة السؤال : وبمنتهى البساطة فعلت ذلك . . ولا أدرى كيف حدث ؟ !

وكأن المثل المتداول الذى يقـول : « لكل جـواد كبوة ، ولكل عالم هفوة » ، أراد أن يجرب نفسه معى أيضا .

اكتشفت بعد ذلك أن سـائق التاكسى « ضـحك علينا » وعرفـت أن الجنيه المصرى يساوى أحد عشر ريالا وليس سبعة ريالات . . ولكن بعد فوات الأوان . . « شربت المقلب » وكانت أول مرة « يضحك » فيهـا على أحد فى حياتى . .

وكانت تجربة جديدة . . وفلأول مرة أذهـب إلى بلاد غريبة ، كان أن تعلمت فيها الكثير . . واستفدت من نتائجها فى تعاملاتى بعـد ذلك فى كل البلاد التى ذهبت إليها . .

وتعلمت أن أسأل أكثر من مرة ، وأن أقوم أولا بجمع المعلومات عن البلد الذى أزوره قبل أن أتصرف . .

وتعلمت أن أجمع كل ما أنا فى حاجة إليه مـن معلومـات عن أى بلد أذهب إليه من سائق التاكسى الذى ينقلنى مـن المطـار إلى اللوكاندة . .

احصل منه على كل ما أريده دون أن يشعر وذلك عن طريق مجموعة من الأسئلة التى تبدو وكأنها غير مقصودة . .

وإن كنا فى تلك اللحظة قد منينا بخسارة فادحة عندما فقدنا ثلث ما كان معنا بكامل إرادتنا ، إلا إننى تعلمت . .

تعلمت أن أشترى قبل أن أبيع . . وهذه قيمة ليس لها ثمن .

المهم . . أمضينا ليلتنا فى « اللوكاندة » السيئة التى دلنا عليها نفس السائق ، وقال لنا إنها من أحسن لوكاندات جدة .

وخرجنا فى صباح اليوم التالى ، لكى نسعى إلى الله قبل أن نسعى إلى الدنيا ، ونؤدى العمرة ونزور قبر الرسول صلى الله عليه وسلم .

وعدنا إلى جدة . . عدنا نبحث عن الهدف الذى أتينا من أجله . .

وكان البحث قد أعيانا ، فجلست على سور كان بالقرب منا لأريح قدمى . . فوقعت عيناى على مقهى ، فذهبنا إليها وعرفنا أن جميع روادها من المصريين ، والتقينا بهم وحصلنا منهم على معلومات مفيدة جدا . . وكان ذلك كل ما نجحنا فى الحصول عليه فى ذلك اليوم .

مزقت كل الخطابات

وفى صباح اليوم التالى توجهت إلى أحد البنوك لزيارة مديره . . وكان مصريا . . وكان معى له خطاب توصية من أحد أصدقائه . . وعندما التقيت به ، استقبلنى ببشاشة بعثت فى قلبى الاطمئنان ، لكن بعد عدة دقائق استأذن منى على أن يعود مرة أخرى بعد قليل . . انتظرت . . وطال انتظارى . . فسألت عنه . . وعرفت أنه غادر البنك إلى منزله ، ولن يعود إلا صباح اليوم التالى . .

وفى تلك اللحظة وجدت نفسى أخرج من جيبى كل ما جاء فيه من خطابات حملتها معى من القاهرة من أصدقائى لأصدقائهم فى السعودية يطلبون منهم مساعدتى ، وقمت بتمزيقها كلها حتى لا تراودنى نفسى فى أن اذهب مرة أخرى إلى مصرى آخر ، قد يعاملنى نفس المعاملة ، ويكون ذلك سبب ان يتغير رأيى فى أبناء بلدى .

وكان أن اعتبرت ذلك الانسان شاذا عن المجمـوع . . ولكنني أردت ان أروى قصتة ليتعلم أبنائى الشـباب أن أحـدا لا يعـرف مـا تخفيه الايام . .

فمن تتنكر له اليوم ، قد تحتاج إليه غدا . .

إن الدنيا دولاب دائر . .

وبدأت أواصـل رحلتى فى السـعودية بين الملاليم والملايين دون أن اذهب لأحد من المصريين . .

وكانت قصة مثيرة . . وقفت فى أحد فصولها فى مهب الريح ، عندمـا فتشت فى جيوبى بعد أن دفعت حساب اللوكاندة ـ فلم أجد مليما واحدا . ووقفت فى فصل آخر منها لا أعرف كيف أحمل الملايين التى سـعت إلى دون أن أتوقعها . . !

كانت قصة ذات مشـاهد مثيرة . . وكان تداعى أحـداثها غريبا . . عجيبا . . لا يحكمه منطق ولا يخضـع لمعـايير القياس . . ولكنهـا إرادة الله . . « ملك الملوك إذا وهب ، لا تسألن عن السبب » .

قصة تروى حكاية الصراع الدفين داخـل كل نفس . . حيث يوجـد اليأس والرجاء . . وبقدر ما يغلب أحدهما على الآخر ، بقدر ما يستطيع الانسان أن يقطع أميالا ، على طريق الألف ميل . .

لا احد يعرف

وكان أن « ركلت » اليأس . . وأسلمت نفسى للرجاء . . فكانت شركة « المقاولون العرب » التى حملتها فى رأسى فـكرة ، وعلى كتفـى شركة . . فحملتنى فوق صرحها الكبير لأروى على هـذه الصـفحات قصـة حياة أمجادها . . لتكون عبرة لمن يريد أن يكافح ويفتح لنفسه ولآماله طريقاً ، يحفره بأظافره فى أصلب أنواع الصخور . .

توكلت على الله سبحانه وتعالى . . ورحت أسأل عن من يعرف شيئا عن الاعلان الذى سافرت من أجله . . واتضح لى أن أحدا لا يعرف شيئا عنه فى السعودية كلها إلا الأمير مشـعل وزير الدفـاع فى ذلك الوقـت . .

وذهبت لكى أسأل عن مقر وزارة الدفاع حيث يوجد الأمير مشعل ، فوجدت من يقول لى إنها توجد فى منطقة الجشلة . . وعندما ذهبت إلى هناك ، وجدت من يقول لى إن هناك « جشلة » أخرى فى مكة هى التى توجد بها وزارة الدفاع ، وذهبت إليها وقابلت أمير المنطقة ـ أى حاكمها . . الذى قال لى إن الأمير مشعل يوجد فى الطائف وإن أحداً لا يعرف شيئا عن أمر ذلك الاعلان غيره .

وسألته عن كيفية الوصول إلى الأمير مشعل . . فأجابنى بأن إبراهيم الطاسانى مدير الطيران المدنى هو الذى يعرف الطريق .

وسألته عن المكان الذى يوجد فيه إبراهيم الطاسانى :

قال لى : جدة . .

وكان على أن أعود إلى جدة مرة أخرى لأسأل عنه . . وعثرت عليه بعد بحث مضن وطويل وألقيت بنفسى على أحد المقاعد التى كانت فى مكتبه لأستريح بعض الوقت ، قبل أن أبدأ رحلة بحث أخرى . . رويت له الموضوع بعد أن حصلت على قسط من الراحة ، لعلى أحصل أيضا على قسط من المعلومات . . فقال لى إن الأمير مشعل ليس فى الطائف ، ولكنه فى الرياض .

ونزلت الاجابة على كالصاعقة . . وبعد أن التقطت أنفاسى سألته وكيف أتصل به ؟

قال لى : أن ترسل برقية تتضمن ملخص الموضوع ، ولا تنس أن تكتب فى البرقية العنوان الذى تقيم فيه حتى يأتيك الرد عليه . .

لا اجد مليما فى جيبى

شكرت الرجل وانصرفت لأنفذ ما قاله لى . .

وعندما ذهبت إلى اللوكاندة وجدت مفاجأة كبيرة فى انتظارى . .

لم يكن معى أنا وأحمد سليمان إلا قيمة إيجار مبيتنا فى اللوكاندة . . فقط عن الفترة السابقة ، ولم نجد معنا ما نحتاج إليه لارسال البرقية ، وما يكفى لتغطية نفقاتنا المنتظرة . . .

وكانت قيمة إرســال البرقية أربعين ريالا ، كان لابد مــن تدبيرهــا ولكن كيف ؟

تزاحمت الأفكار وعلامات الاستفهام فى رأسى ، لم أجــد إلا إجــابة واحدة ، نطقت بها شفتاى دون أن أدرى عندمــا رددت قــوله ســبحانه وتعالى « لا تقنطوا من رحمة الله » .

كانت الكلمات الكريمة تنساب من بين شــفتى كاجــابة وحيدة لكل ما يدور فى خلدى من تساؤلات . . وفى نفس اللحــظة وقعــت عيناى على صديق قديم . . لم أره منذ سنوات طويلة . . وحاولت أن أعرف فى البداية عما إذا كان هو أم لا ؟

وعندما تبين لى أنه « على البيك » . . سألت نفسى : ترى هل ما يزال يذكر الصداقة التى كانت بيننا ؟ . . وقبل أن تأتينى الاجابة « أقبل هــو نحوى مهللا : أهلا ياعثمان . . وسألنى :

ماذا جاء بك هنا ؟ فرويت له القصة . . وعرفت أنه مســافر فى نفس اليوم الى القاهرة . .

وقبل أن يتركنى سألنى :

هل يلزمك أى شىء ؟

قلت له : الفلوس

فأجاب . جزاه الله كل خير ــ وهو يضع يده فى جيبه . . كم تريد ؟

قلت : يكفى مائتا جنيه . . أو بقدر ما تسمح ظروفك . .

واقترضــــت منه المبلغ الذى طلبته ، بعــــد أن دارت بينى وبينه دردشة . . كان هدفى فيها الحصول على مــزيد مــن المعلومــات عن البلد الذى وجدت فيه نفسى . . خاصة بعد مــا حــدث مــن ســائق التاكسى . . وكانت المعلومات التى حصــلت عليهــا منه أهــم بكثير مــن المبلغ الذى اقترضته منه ، لأننى استفدت منها فى تقدير قيمة العطاء الذى تقدمت به فيما بعد ، واستفدت بها فى الكثير من الأمور الاخرى هناك ، وكانت تلك المقابلة الهامة تمثل بداية معرفتى بقيمة جمع معلومات بالنسبة لتقــدير العطاءات . . عندما يكون الانسان فى بلاد غريبة يذهب إليها لأول مرة . .

ولم تنقطع صلتى بصديقى بعد ان سددت له المبلغ الذى اقترضته منه ولكن عرضت عليه أن يعمل معى ووافق على العرض ، واستمر معى ثلاث سنوات . . اختار لنفسه بعدها طريقاً آخر غير طريقنا وفتح مكتبا هندسيا . .

عدت الى أحمد سليمان ومعى المائتا جنيه . . اطمئنه ، وأصطحبته ، وذهبنا إلى اقرب مكتب بريد وأرسلنا البرقية . . وانتظرنا .

وكان أن سهرت أنا وافكارى وآلامى وآمالى إلى أن لاح نور الفجر بعدها بدات تنسحب ظلمة الليل . . وبقيت أمامى ظلمة سؤالى عن مصدر الاعلان الذى لم أعرف كيف الوصول اليه حتى تلك اللحظة . . وكان أن ادیت صلاة الفجر والصبح ، ورحت كعادتى أتلو ما تيسر من ايات الله البينات من مصحف ما يزال لا يفارقنى حتى الان . . واستمر الحال على تلك الوضع ستة أيام ، وليال أخرى وكدت أن افقد الأمل . .

« داكوتا » اخرى

وفى اليوم السابع ، بينما كنت أتجول بين طرقات « اللوكاندة » ، لأضيع الوقت الثقيل . . سمعت من يسأل عن عثمان أحمد عثمان ، وتلفت حولى لأجد من يسألنى : هل تعرف نزيلا اسمه : عثمان أحمد عثمان . ؟ !

فقلت له : أنا

قال لى : « عبى جشك » . . و « الأمير مشعل يبغاك بالطايف »

فسألته إلى أين ؟

أجابنى بأن الأمير مشعل قد أرسل برقية إلى إبراهيم الطاسانى يبلغه فيها أنه فى انتظار المقاول فى الطائف . . وسألته من أنت ؟

قال : أنا سائق إبراهيم الطاسانى . . وأرسلنى خصيصا لذلك الغرض .

اصطحبت احمد سليمان ومعنا حقائبنا وذهبنا إلى مطار جدة لنجد طائرة « داكوتا » فى انتظارنا . . أقلعت بنا إلى حيث يوجد وزير الدفاع . . وعندما وصلنا وجدنا من ينتظرنا فى المطار ، فتعرف علينا

واصطحبنا معه إلى « اللوكاندة » التى كان مقررا أن ننتظـر فيهـا حتى يطلبنا سمو الأمير مشـعل . . الذى بدأ حـديثه معنا بالاسـتفسار عن إمكانياتنا لانجاز مثل ذلك العمل الكبير ، طمأنته على أن كل شيء سـيتم على أكمل وجه . . تحـدثنا بعـد ذلك فى التفـاصيل واتفقنا على سـعر ثلاثمائة ريال سعودى للمتر المسطح ، واشترط الأمير مشعل ضرورة أن ننتهى من العملية خلال عام واحد . .

وطلب سمو الأمير بعد ذلك إعداد الرسـومات الهندسـية الخـاصة بالعملية ، وكان أن أوضحت له أن إعدادها يتطلب تواجدى فى القاهرة . . وأبديت استعدادى للسفر ولكنه فضل أن أقوم باعداد كروكيات مبدئية ، لاختصار الوقت حتى لا يتأخر التنفيذ ، ثم يتم بعد ذلك إعداد الرسومات النهائية .

اين اضع الملايين ؟ !

وعدت إلى « اللوكاندة » ، وقمت أنا وأحمـد سـليمان باعداد رسـم كروكى يعتبر أساسا للعمـل الذى سـنقوم بتنفيذه ، وكانت معنا أدوات الرسم التى يحتاجها أى مهندس يجد نفسه فى ذلك المأزق .

والفت هنا نظر أولادى الشباب الى ضرورة التزام الدقة ، والتنظيم والترتيب فى العمل ، عندما كنا نحمـل معنا مـا نحتاج اليه مـن أدوات هندسية تلزم تنفيذ العمل .

وعرضـنا على سـمو الأمير الكروكيات التى حـازت إعجـابه وتقديره . . وقمنا بعد ذلك باستكمال إجراءات التعـاقد طبقـا لما اتفقنا عليه على أساس أن مسـاحة مسـطحات المبانى تصـل إلى خمسـة وعشرين الف متر مسطح ، سعر تنفيذ المتر ثلاثمـائة ريال سـعودى . . وكان أن قمنا بتوقيع العقد ، وكانت قيمته سبعة ملايين ونصـف مليون ريال سعودى .

وطلب منى الأمير أن أبدأ العمل على الفور .

وكان أن أوضحت له أن جميع أموالنا بالقـاهرة وغير مسـموح لنا طبقا للقوانين المصرية بتحويل العمـلات إلى الدول الأخـرى . . لذلك . .

لكى نبدأ ، لابد وأن يتم صرف مبلغ لنا تحت الحساب ، ووافق الأمير على أن يصرف لنا ما يعادل ٣٠٪ من المبلغ فورا ، أى ٥ر٢ مليون ريال سعودى . . واشترط أن نقوم بتقديم خطاب ضمان ، قبل أن يتم الصرف . .

الناس معادن

وكان أن ذهبت إلى البنك العربى فى جدة ، وحدث معى موقف غريب هناك ، لابد وأن أنكره . . انكر أننى كنت أرتدى بنطلونا وقميصا ولم تكن ملابسى انا واحمد من الأناقة بمكان ، لقد كنا منذ فترة غرباء ، وليس هناك من يقضى لنا احتياجاتنا . وعندما رآنا مدير البنك ، أبدى عدم اهتمامه ، وسألنى بنفور شديد : عما أريد ؟ . .

فأجبته : بأننى أريد خطاب ضمان لصرف مبلغ تحت الحساب من قيمة ما يستحق لنا مقابل تنفيذ عملية الكلية الحربية فى الرياض .

وعاد يسألنى مرة أخرى : وبأى مبلغ تريد الضمان ؟ قلت : ٥ر٢ مليون ريال سعودى .

وكانت إجابتى مفاجأة له ، فطلب العقد لكى يطلع عليه . .

وعندما قدمته له . . بدت عليه الدهشة . . وراح ينظر مرة إلى العقد ، ومرة إلى منظرى الذى لم يعجبه ، بسبب سوء حالة هندامى . .

وأخيرا . . قال : إننى لا أستطيع إعطاءك الخطاب إلا بعد الرجوع إلى القاهرة ، وعليك أن تدفع قيمة ثمن البرقية التى سنرسلها للاستعلام عنك ، وتأتى بعد ثلاثة أيام لتعرف الرد .

وانتظرت ، وفى اليوم الثالث ذهبت اليه وكان معى أحمد سليمان ، وكان الاستقبال هذه المرة مختلفا تماما . . هب واقفا . . مهللا . . ومرحبا . . وأظهر كل ما يمكن إظهاره من مظاهر الحفاوة والتكريم ، وما كان منه إلا أن قام بترك مكتبه الضخم الذى كان يجلس خلفه كالقزم بأخلاقياته . . وقام بتقديم الكراسى لنا بيده ، ولم يجلس إلا بعد أن جلسنا . .

اهملنا ذلك الرجل مرة ، عندما لم يعجبه هندامنا . . واهتم بنا مرة

أخرى عندما وصله رد القاهرة بضماننا مع إننا نحن نفس الأشــخاص ولكن كل الذى حدث أن المظاهر خــدعته فلم يتبين الحقيقــة فى البداية ، وعندما تبينها عدل عن تصرفاته . .

لذلك أقول لأولادى من الشــباب إن « الناس معــادن » . . وليســوا مظاهر ، فاحذر يا ولدى أن تقع فى مثل ذلك « المطب » . .

المهم ـ حصلنا على خطاب الضــمان المطلوب وعدنا مــن جــدة الى الطائف حيث يوجد الأمير مشعل . . وقــام الأمير باســتدعاء محــاسب الوزارة لكى يتسلم منا الخطاب ، ويسلمنا المبالغ المطلوبة ، واصــطحبنا الرجل معه إلى حجرة لها باب خشبى غير مغلق . . قام بدفعه . . وكانت المفاجأة . . أكوام من الفضة تملأ جميع أركان الحجــرة ـ راح يعــد لنا الكميات التى اتفقنا عليها ، وأنا لا أكاد أصدق نفسى إن ما يحدث أمامى حقيقــة . . طلب منى حملهــا إلى خــارج الحجــــرة ، وقلت له : ولكننى لا أستطيع حمل كل هذه الكميات الكبيرة مرة واحدة . . ولابد أن تجــدوا لكم تصريفا فى ذلك الموضوع .

وكان مشهدا مثيرا . . وجدت نفسى ، أقف أمامه لأول مــرة . . وحتى تلك اللحظة لم أصدق ، إننى أصبحت فعلا صاحب كل تلك الملايين .

ذهب الرجل إلى الأمير مشعل ، ليبلغــه برغبتى فى أن تتولى الوزارة نقل الأموال إلى البنك الذى سأودعه فيه ، وأمر الأمير بتخصيص سبعة لوريات تتولى حمل الأموال من الطــائف إلى جــدة ، تتقــدمها ســيارة حراسة مسلحة .

ساعتها نظرت إلى السماء خاشعا رافعــا يدى وقلت : « ســبحانك ربى » . . سبحان مغير كل حال . .

كنت لا أجد منذ أسبوع أربعين ريالا لأرسل بهــا البرقية . . أصــبح بين يدى الآن مليونان ونصف مليون ريال دفعة واحــدة . . هــى مقــدم سبعة ملايين ريال . .

ولم أجد ما أقوله سوى :

الحمد لله . . وضاعت منى بعد تلك الجملة كل الكلمات

ملأت الملايين السيارات السبعة واتجهنا بها إلى جدة التى وصلنا اليها عند الغروب ، فوجدنا باب البنك مغلقا ، انتابتنى الحيرة الشديدة ، ورددت فى نفسى إلى أين سنذهب بكل هذه الأموال ؟ . . وبينما كنت أعيش فى تلك الحيرة ، وقع نظرى مصادفة على جرس الباب ، فقمت بالضغط عليه ، فأطل علينا من شرفة الدور الثالث مدير البنك ، يسأل : ماذا نريد ؟

قلت له : إيداع فلوس .

فأجاب : سأحضر فورا . .

نزل من استراحته ، واستدعى مجموعة من الحمالين قاموا بادخال « جوالات » الفضة الى البنك وهو يسألنى باندهاش شديد :

كم عدد الريالات ؟ التى تملأ الجوالات ؟

وأجبته : مليونان ونصف مليون ريال .

وطلبت منه : إيصالا باستلامها . .

قال : ليس قبل أن ننتهى من عدها . .

وسألته : ومتى ستنتهى من العد ؟ . .

قال : بعد ثلاثة أيام . .

وتركته وانا غارق فى الحلم الكبير . . وبعد ثلاثة أيام عدت اليه مرة أخرى ، لأجده انتهى من عد الملايين . . واعد الايصال الدال على استلامه لها وسلمه لى ، وأنا لا أصدق . ولكن حتى تلك اللحظة لم أكن أصدق ما حدث . . خاصة وأن شريط الأحداث راح يمر برأسى بسرعة . . وكأننى أمام قصة من قصص الأساطير . . لذلك أردت أن أتأكد عما إذا كان ما حدث حلما أم حقيقة . فسألت مدير البنك عن إمكانية تحويل جزء من تلك الأموال الى القاهرة ؟

فأجابنى : أى مبلغ تريده سيتم تحويله فورا . .

وطلبت منه تحويل ما يعادل مبلغ خمسة وعشرين ألف جنيه مصرى إلى البنك العثمانى بالاسماعيلية تلغرافيا ، وقام الرجل بالتحويل ووصل

المبلغ فى اليوم التالى لتحـويله مباشرة . . كمـا عرفـت عند عودتى الى مصر .

وكان يجب أن أعود إلى القاهرة بأسرع ما يمكن لكى اقـوم باعداد التصور النهائى للرسومات الهندسية التى سيتم على أساسها التنفيذ ، ودراسة الموقـف التنفيذى والامـكانيات اللازمـة . . والاسـتعداد لبدء العمل . .

وكان أن قمت باعداد برنامج عمل متكامـل يأخـذ فى اعتباره جميع الجوانب الفنية ، والمالية ، والاقتصادية ، والاجتمـاعية ، وبدأنا العمـل على أساس من ذلك البرنامج بخطوات محسوبة ومدروسة ، وانتظرت فى القاهرة لترتيب بعض الأمور وعاد المهندس أحمد سليمان إلى الرياض ، ومعه مجموعة العاملين اللازمين لبدء العمل . . وكان عددهـم اثنا عشر عاملا ، وأربعة موظفين ، أقاموا فى بادىء الأمـر فى حجـرة واحـدة فى إحدى اللوكاندات بما فيهم أحمد سليمان ، وانضممت فور وصولى إليهم فى تلك الحجرة . . ولم تستمر إقامتنا فيها طويلا .

وكان أن قررنا الانتقال للاقامة فى قلب موقع العمل كما تعلمت مـن درس مصنع السماد . . اشترينا كميات من الواح الخشب وقمنا باعداد عدة أكشاك اقمنا فيها جميعا ، كما أعددنا كشـكا للمـطبخ . . وكشـكا لدورة المياه ، وعشنا جميعا حياة الأسرة الواحـدة . واتسـع بعـد ذلك الموقـع لمئات العمـال ، والملاحـظين ، والموظفين ، والمهندسـين الذين انضموا الينا ، ونجحنا فى الانتهاء من العملية فى الوقت المحدد .

وكانت دقة تنفيذنا . . ومتانة انشاءاتنا . . والتزامنا بمـواعيدنا . . واحترامنا للغير ولأنفسنا سـببا فى أن تثق الحـكومة السـعودية فينا ، فأسندت إلينا العديد من المشروعات بعد ذلك ، فى جميع أرجاء السعودية بطولها وعرضها . . سواء فى الرياض ، أو الظهران ، أو الدمام ، أو جدة ، أو المدينة وغيرها من مناطق المملكة . .

وقفة هامة

وبدأت دائرة أعمالى تتسع ونشاط الشركة يزداد . . ولكن ما حـدث لم يكن محض مصادفة فقط . ولذلك اقول لأولادى الشباب :

نعم هبط على المال فجاة ، وبأكثر مما كنت أتوقع ، ولكن ما حدث لم يكن من قبيل المصادفة . . تلك الأمـوال لم تهبط على حيث أنا قـاعد . . ولكنني وجدتها ، لانني كنت أسعى . .

إن المصادفة لا تسعى إلى أحد ، ولكنها دائما تقابل ذلك الذى يسعى اليها ، ويطول سعيه من أجلها . . وأقول للشباب أيضا :

المهم أن يكون للانسان هدف . . ذلك هو طرف الخيط الذى أمسكت به ، وتتبعته حتى أصبحت « المقاولون العرب » كما هـى الآن . . علامـة كبيرة على طريق إثبات قدرة الانسان المصرى على الصمود والتحـدى ، والتصدى ، وقابليتة للتطور ومسايرة العلم ، واستطاعته لأن يقف موقف الند من أى إنسان فى أية أرض . . ولا أقصد بما أقـول نفسى . . ولكننى أعنى الأسرة الكبيرة التى وصل عددهـا الآن إلى مـا يزيد عن خمسـة وخمسين الف عامل ، واصبحت تنفـذ أعمـالا بأكثر مـن نصـف مليار جنيه .

على أن ماأود أن أذكره هنا ، بهـذه المناسـبة ، أن المال حين يأتى فيما نتوقعه أو فيما لا نتوقعه ، لا يأتى مصادفة ، أو بضربة حـظ فقـط وانما يأتى المال بالسعى إليه والعمـل والعـرق ، بل والدمـوع أحيانا ، فالسماء لا تمـطر ذهبا ولا فضـة ، والتجـربة والمعـاناة . . وغير ذلك مما يعترض حياة الانسان من عقبات أو مشاكل هى المدخـر الحقيقـى الذى يصقل شخصيته ، ويمنحه القـوة ، والقـدرة على الصـمود لهـا واقتحامها ، وتخطيها . . وهـى ـ أى التجـارب ـ هـى التى تصـنع الرجـال ، بل هـى ذخيرة الحياة للأحياء ، وهـكذا كانت « المقـاولون العرب » مصنعا للتجارب التى انصهر فيها كل العاملين بها ، واستمرت اعمـالى فى المملكة العـربية السـعودية منذ ذلك الوقـت ، وإلى بداية الستينات عندما بدأ السد العالى يستولى على كل جهـودى ووقتى على اعتبار انه مشروع قومى كبير كانت مصر كلها تقـف مـوقف التحـدى فيه . .

ابرز الشخصيات

لست بصدد تعديد المشروعات التى أنجزتها . . ولكننى بصدد الوقوف أمام المعالم الكبيرة التى كانت بمثابة نقط تحول بارزة على طريق حياتى .

والتقيت خلال الفترة التى عشتها فى المملكة العربية السعودية بأبرز الشخصيات التى كانت تجلس فوق قمة الحكم هناك .

اكبر شخصية عربية فى المملكة السعودية

هناك التقيت فى الرياض بأكبر شخصية فى المملكة السعودية عام ١٩٥٣التقيت بجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، وكان اللقاء فى آخر أيام حياته .

وعلمتنى خبرتى فى أعمال المقاولات القدرة على الحكم على نوعية الأشخاص من الوهلة الأولى . .

كان جلالة الملك عبد العزيز ، ملكا اسما ، وعملا ، . . وأنكر أنه كان مريضا فى تلك الوقت وعندما طلبنا مقابلته ، وعرف أننا مصريون ، سمح لنا بالمقابلة على الفور . .

وكانت أول مرة فى حياتى التقى فيها مع أصحاب « العروش » . . وكان أن وجدت نفسى أمام ملك بكل ما تشمله الكلمة من معنى ، ملك نجح فى أن يؤسس مملكة . . كان نوعية مختلفة عن الملوك لم أر مثلها حتى الآن .

التقيت بعد ذلك بالكثير من الملوك والرؤساء ، والمشايخ والأمراء . . ولكن كنت أجد نفسى فى أكثر من مرة أمام ملوك لا يحملون إلا لقب « صاحب الجلالة » مجردا من كل صفاته . . ورغم الانتصارات العظيمة التى حققها لبلاده ، فلم يغير من طبيعة حياته . . كم كان وهو يجلس فوق عرشه بسيطا ، ومتواضعا ، وطيبا ، وقويا ، الأمر الذى شدنى كثيرا الى ذلك الرجل أن البترول كان قد بدأ يتدفق بكثرة فى بلاده ، ومع ذلك

كان يعيش فى قصر المربع الذى أقيم من الطوب اللبن ، وقد خلا مـــن كل مظاهر الترف والبهرجة . . إلا جهاز تكييف . . ألحق بالحجرة التى كان يقيم فيها نظرا لكبر ســنه ، وظــروفه الصــحية التى كانت قـــد بدأت فى التدهور . .

وكعادة الحكماء . . كان قليل الكلام . . وكما هــو حـــال الزعمـــاء ، لا تلمس فى عينيه إلا الاصرار . . وكعادة العرب ، فقد كان كريما . .

كان رجلا استطاع أن يجمع بين الطيبة والقوة ، وكان لا يحــكم بين الناس إلا بالعدل . .

كانت تلك هى المرة الأولى والأخيرة التى رأيت فيها الرجل « رحمــه الله » . .

وكان أن انتقل إلى رحمة الله فى أواخر نفس العـــام الذى التقيت به فيه ، وكانت وفاته بالطائف . . وحدد ثانى يوم وفاته موعدا لنقل جثمانه الى الرياض ، ليدفن فى مدافن العائلة . .

وعندما سافرنا إلى الرياض لتقديم العــزاء للأسرة المالكة هناك . . فـــوجئنا بمـــراسم للجنازة ، لم نكن نتوقعهـــا لجنازة مثل ذلك العـــاهل الكبير . . قد ذهبنا إلى المطار لنكون فى انتظـــار الطـــائرة التى ســـتصل حاملة الجثمان . . وعندما هبطت الطائرة ، تقدم إليهـــا أولاده ، وقـــاموا بنقل جثمان والدهم بأيديهـــم إلى ســـيارة كانت تنتظـــر خصـــيصا لذلك الغرض . . انطلقت إلى حيث توجد المدافـــن . . وتصـــورنا لحـــظتها أن مراسم الجنازة ستبدأ من هناك . . وذهبنا بسرعة لكى نلحق بالجنازة .

وهناك كانت المفاجأة التى لم نكن نتوقعها . .

عندما وصلنا الى مدافن الأسرة لم نجد عندهـــا الا اولاده . . وكانوا قد واروا جثمانه تحت التراب . . ولم يتركوا أدنى أثر يقول إن هذا هـــو قبر الرجل صاحب التاريخ الحافل المجيد . .

وسألنا وقتها عن المكان الذى يمـــكن أن نقـــوم فيه بتقـــديم واجـــب العزاء ، وكان الرد أكثر غرابة من المشهد . .

قـــالوا لنا : إن هناك دفترا يوجـــد فى أحـــد القصـــور خصص لذلك

الغرض . . ولم تكن هناك وسيلة أخرى لتقديم العزاء .

وكان أن أثار المشهد عدة تساؤلات ، أردت أن أحصل على إجابة لها .

فكيف لا تكون هناك مراسم جنازة كبيرة ترتفع الى مستوى ما للرجل من دور مؤثر وفعال فى تاريخ بلاده ؟ . .

وكانت الاجابة :

إن هذه هى المراسم الشرعية للجنازة . . والملك عبد العزيز « رحمه الله » يستوى فى مثل هذا الأمر مع أى مسلم . . فالكل سواسية أمام الله . .

وانعقد بعد ذلك مجلس العائلة فور حدوث الوفاة . . وأعلن تنصيب ابنه جلالة الملك سعود .

وكان هو أولى الأمراء بالملك . . وكان يسير على نهج تقليد حميد . . كان يجلس فى مندرته اعتبارا من الساعة الخامسة بعد الظهر كل يوم ليستقبل فى مجلسه كل من يقصده ، وكان يضم الوزراء والأمراء والمسئولين . . عندما كان يتقدم له أى مواطن بأية شكوى ، كان يصدر تعليماته الفورية لوزرائه بحل المشكلة ، ليتمكن المواطن من حقه . .

واذكر أن جميع من كانوا يحضرون مجلسه يؤدون صلاة العشاء معه ، ثم ينتقل الجميع بعد ذلك الى مائدة عشاء الملك . .

وكثيرا ما كنت أحضر مجلس جلالته .

وقد قام بافتتاح عدد من المشروعات الكبيرة التى نفذتها لبلاده فى عهد فترة حكمه . . منها مستشفى الدمام ، ومبنى الكلية الحربية . .

اكثرهم حبا لمصر

وكان أن تولى الحكم من بعده شقيقه المرحوم جلالة الملك فيصل . . وكان يتبع نفس التقليد الذى كان يتبعه الملك سعود . . حتى قبل أن يتولى مقاليد الملك ، كان بيته مفتوحا فى كل وقت لكل من يقصده . .

كان جلالة الملك عبد العزيز شديد الحب لمصر وللمصريين ، وكان

كذلك الملك سعود . . أما الملك فيصل فكان حبه لمصر والمصريين يفوق كل تصور . . لم ينافسه من الزعماء العرب الذين التقيت بهم فى حب مصر إلا المرحوم عبد السلام عارف ، الذى تولى رئاسة العراق فى فترة ما بعد عبد الكريم قاسم . .

وكان الملك فيصل ذا أفق سياسى واسع ، وكان رجلا داهية فى السياسة ، وكان سليم الحكم على المواقف الدولية . . كان مختلفا عن شقيقة الملك سعود الذى كان يهتم كثيرا بالمسائل الاجتماعية ، قليل الاهتمام بالمسائل السياسية .

أقمت علاقة صداقة متينة مع جلالته على أساس من احترامى لعملى ، وتأدية ما كلفت به من مهام بدقة وإتقان . .

وأذكر أنه كان « رحمه الله » عف اللسان . . وحتى عندما كان نظام الحكم السابق فى مصر يعرض بأسرته لم يخطىء مرة واحدة فى حق مصر . . وقد سمعته يتحدث فى مكة بعد أن كان نظام الحكم السابق فى مصر قد مسح الأرض بأسرته وبلاده . .بسلاطة لسانه . ولم يعلق بكلمة واحدة جارحة لمصر . . وكل ما قاله الرجل فى كلمته إن أمتنا لها عدو مشترك واحد ، يجب أن تتجه اليه إمكانياتنا ، وأنظارنا ، وألسنتنا ، وأفعالنا جميعا . .

كان « رحمه الله » ـ يحترم كلمته ، ويعى أبعاد ما تجتازه أمته من مواقف .

كان لا ينقاد لأحد ، ولكنه كان يسير خلف الرؤية السليمة ، وأذكر أن طبيعة شخصيته كانت من طبيعة شخصية الرئيس السادات . . لذلك لم أستغرب عندما التقيا على هدف واحد ، بحكم ما أوتى كل منهما من حكمة ، وبعد نظر ، ورؤية بعيدة متكاملة لكل الأمور . كان الرجل « رحمه الله » يعى دور مصر تماما ، ولم يتوان فى يوم من الأيام بالفعل قبل القول ، وكان يهمه كثيرا دعم موقف مصر ، تمكينا لها من أداء دورها نحو أمتها . . كان موقفه « رحمه الله » من معركة أكتوبر معروفا ، واضحا . .

وأذكر أن الرئيس أنور السادات كان قد عرض فكرة مشاركة

السعودية والكويت لمصر فى إنشاء مشروع خـط الأنابيب « السـوميد » الذى يربط بين الاسكندرية والسويس . . وكان هدف الرئيس السادات هو أن يضرب مثلا لما يجب أن يكون عليه التضامن العربى .

وعلى الفور استجاب الرجل ـ « رحمه الله » ـ الى ما هـو أبعـد . . عرض على الرئيس السادات أن يقوم هو وحده بتمويل المشروع لحساب مصر ، لتقيمه وحدها دون ما مشاركة مـن أحـد . . على أن تقـوم مصر بتسديد الأموال عندما تسمح ظروفها بذلك . وإن كان الرئيس السـادات اعتذر عن قبول العرض . .

وقد أنشأ مع مصر شركة إسكان مشتركة رأسـمالها مـائتا مليون دولار ، وأقام معها شركة استثمار ، ومجموعة مشروعات أخـرى منهـا مدينة الملك فيصل .

وكانت وفـاته ـ « رحمـه الله » ـ خسـارة كبيرة ، ليس للسـعودية وحدها ، ولكن للأمة العربية كلها .

صاحب فضل

وتولى من بعده جلالة الملك « خالد » وكانت علاقتى معه وثيقة منذ أن كان أميرا . . وهو من أكثر الناس طيبة ، وتمسكا بقيم الدين ، وتعاليمه السمحة . يتمتع بالهدوء ، والقوة ، والكرم ، لا تخـرج مـن بين شـفتيه الا الكلمة البلسم التى تداوى الجروح .

وكانت بداية علاقتى به عندما قمت بانشاء بعض المنشآت الخـاصة لجلالته ولابنه فى الطائف ، فارتحت إلى شخصيته ، وكثيرا ما كنت أقوم بزيارته ، واقصد إلى مجلسه كلما وجدت الوقت الذى يسمح لى بذلك .

كانت لى مع جلالته قصة إنسانية ، حفرت كثيرا فى نفسى ، واستقرت فى أعماقى اكثر ، وكانت اكبر دليل على معـدنه الطيب الذى لا يصـدأ ، وستجد تلك القصة فى فصل التأميم مكانا بارزا لها . .

طريقى إلى قلوبهم
فى كل مكان

وكان طريقى الى ما أقمته من علاقات فى حياتى ، مع كل من التقيت

بهم معروفا . ولم احد فى يوم من الايام عنه ، هذا الطريق هـو التزامـى بمواعيد تسليم كل ما أكلف به من أعمال مـن ناحية ، ودقـة مـا اقـوم بتنفيذه من ناحية ثانية .

وكانت علاقتى مع الأمير « سعود بن جلوى » حاكم المنطقة الشرقية فى السعودية أكبر دليل على سلامة هذا المنهج فى حياتى .

كان ذلك الرجل صعبا الى أبعد الحـدود . . كان مخيفـا ، جـريئا ، حازما ، كان لا يعرف الخوف ، الا من الله سبحانه وتعـالى ، ولا يسـمح إلا بما يمليه عليه ضميره . .

واذكر أنه كان له موقف معروف ، كان حديث المنطقة فى ذلك الوقت .

فقد دهم بلدوزر امريكانى أحد السعوديين ، فما كان منه الا أن أمر بأن يدهم نفس البلدوزر قائده الذى قد دهم المواطن السعودى ، دون أن يقيم اى اعتبار لما كان يمكن ان يحدث له أو لبلاده من الأمريكان . .

وكان حزمه سببا فى أن تسـير كل المنطقـة التى كان يحـكمها على صراط مستقيم لا نشعر فيها الا بكل الأمن ، ولا نعيش إلا كل الأمان . . بينما كانت تعيش فى المنطقة الآلاف من أبناء مختلف الجنسـيات . . كان يقف كل منهم عند حده ، ولم يحـدث فى يوم مـن الأيام أن سـمعنا عن حادثة سرقة واحدة ، وقعت مـن أى مـن كل هؤلاء ، خـوفاً مـن ذلك الرجل . .

وكان مجـرد الاقتراب منه ، ضربا مـن الخيال لكل مـن يحـاول ذلك . .كان ذلك سببا فى الا أحاول ولو مرة واحدة أن اقيم معـه اى نوع من العلاقات . . تفرغت بالكامل لانجاز ما كنت مكلفا بتنفيذه من مهـام ، دون اى دخل لى باى أمر آخر .

وعندما سمع الرجل عن إنجازاتى ، ورأى ما كنت أقوم بتنفيذه جاء يسأل عنى ، وتعرف علي ، ووقف الى جـوارى فى كل شيء وقـربنى منه كثيرا واحترمنى اكثر . وكان لمساعدته لى فضل كبير على ما قمت به من أعمال فى منطقته .

واذكر أن مواقفه معى كانت موضع اندهاش الكثيرين ، الذين كانت

ترهبهم قوة شخصيته .

وأكدت لى علاقتى به أن عملى هو الذى يدافع عنى ، واتخذت من تلك التجربة مبدأ أثبتت الأيام سلامته ، عندما لم يقف إلى جوارى فى التجربة المرة التى خضتها مع نظام الحكم السابق إلا حسن أدائى . .

علاقات متساوية

وعندما ذهبت إلى البلادالعربية لم تقف علاقاتى عند الذين يجلسون فى القمة ولكننى كنت شديد الحرص على أن تكون علاقتى على نفس المستوى مع الذين يجلسون فى القاع .

وكان لتلك المعاملة صدى ، ورد فعل كثيرا ما أسعدنى . . وأختار من بين ما صادفنى من قصص اعتبرتها قياسا للاختيار . . قصة « متعب »

كان أن التقيت فى السعودية بصبى عمره لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، وكان أن طلب منى أن ينضم إلى الورش الخاصة بشركتى ليتعلم قيادة سيارة لورى ، ولم أتردد فى أن أسمح له بتحقيق رغبته . وظل يعمل معى الى أن أصبح شابا . .

وعندما بدأت فى تصفية أعمالى هناك ، أبدى رغبته فى أن يحضر معى الى القاهرة . ولكننى فضلت أن يبقى لكى يخدم بلده ، لأنها أولى بمجهوده . .

مرت بعد ذلك الأيام ، وكبر متعب فى بلده ، وأصبح من رجال الأعمال ، وامتلك ثروة طائلة .

وذات يوم شده الحنين لأن يرانى ، فحضر الى القاهرة خصيصا لذلك الغرض ، وعندما طلب مقابلتى رحبت به كثيرا . ولكننى تصورت فى بداية الأمر أنه جاء يطلب منى خدمة ، لذلك عندما طالت جلسته معى ، فهمت أنه يتحرج أن يطلب ما يريد ، وما كان منى الا أن حاولت أن أعفيه من ذلك الحرج الذى تصورته فبادرته قائلا :

هل تريد أى خدمة يا متعب ؟

وكانت إجابته مفاجأة بالنسبة لى . .

قال : حضرت خصيصا من بلدى الى القــاهرة ، فقــط لكى أراك . . وأسلم عليك . . وسأعود الى السعودية فور انتهاء المقابلة . .

هزتنى مشاعره من وجدانى . . وحركت بداخلى مشــاعر لا حــدود لها . .

وبينما كنت أقوم بتوديع متعب قفزت الى ذهنى عبارة قلتها لنفسى :

قلت : إن التصرف يذهب ، ولكن أثره يبقى . .

ترى لو لم أعامل متعب المعـاملة الطيبة . . هــل كان ســيتذكرنى ، ويأتى خصيصا لزيارتى ؟

وأجبت نفسى :

بالطبع . . لا

وكان فضل تجربتى على كبيرا . .

* * *

أستوت الشركة على عرشها فى دنيا المقاولات . . فراح يمتد بصرها من السعودية إلى المنطقة العربية كلها . . فكانت لها فى الكويت جــولات ولى معها قصة أخرى . .

من مشرق العالم العربى الى مغربه

فى الكويت

كان تواجدى فى السعودية سببا فى أن يمتد بصرى إلى كل ما حولها من الدول ، والامارات العربية . . وفكرت فى أن يمتد إليها نشاطى أيضا .

وبدأت فى السعى لأن أذهب الى الكويت .

فأرسلت رسالة الى صديقى أحمد قاسم الذى سافر الى هناك فى عام ١٩٥٤ خشية أن يتم القبض عليه ضمن جماعة الاخوان المسلمين الذين كان مطلوبا وضعهم فى سجون النظام الذى كان يحكم مصر فى ذلك الوقت . وطلبت منه أن يحيطنى علما عن طبيعة العمل والأعمال فى الكويت .

وقد أرسل يقول لى :

تعال لكى ترى بنفسك . .

سافرت الى هناك ــ فماذا رأيت ؟

رأيت الكويت فى حاجة كبيرة الى مزيد من التطور . . ورأيت فيها التخلف بكل ما تمثله الكلمة من أبعاد ، وكانت بالنسبة لمجال البناء والتشييد بكرا لم يمسسها بشر . .

وجدت هناك فى نفس الوقت خمس شركات أجنبية تسيطر على كل الأعمال ، ومع ذلك لم تفعل أى شىء . . وحرصت فقط على أن تظل الكويت كذلك .

كانت تضرب حولها حصارا حديديا . . فلا هى راغبة فى تعميرها . . وليس عندها الاستعداد لأن تسمح لغيرها بأن يفعل ذلك .

ولم أجد ما أستطيعه كنتيجة لتلك الزيارة إلا أن أقبل الدخول فى مسابقة لاعداد تصميمات لعدة مدارس كانوا يريدون إنشاءها هناك فى ذلك الوقت .

وكانت المسابقة مطروحة على مستوى دولى . .

وقبلت الدخول فى تلك المسابقة مع إننى رجل تنفيذ ، ولست رجل تصميم لعلنى أجد فى مثل تلك المسابقة مدخلا ما الى الكويت لكسر الحصار المفروض عليها . . ونجحنا فى أن نكسب ثلاثة مدارس من بين اثنتى عشرة مدرسة كانت مطروحة فى المسابقة التى تقدم لها معى عدد من الشركات العالمية الكبيرة . . ولكننى لم أنجح فى أن أجد لى طريقا الى تنفيذ أية عمليات عبر ذلك المدخل . .

وعدت مرة أخرى الى حيث أتيت ، ولكننى لم أرجع عن الفكرة . . بل ظلت الكويت تحتل مكانا بارزا فى مؤخرة رأسى انتظارا لفرصة تمكننى من أن اقتحم الحصار .

وجاءت الفرصة بالصدفة ، كانت الارادة الالهية وحدها قد رتبت كل شيء ، دون ما تدخل منى أو من غيرى . . ووجدت ما بذلت قصارى جهدى من أجله ولم ادركه . . وجدته يأتينى من تلقاء نفسه . . فى ظرف ووقت لم أكن أتوقع بأى حال أن يكون لمثل ذلك الموضوع فيه أدنى مجال .

كنت فى زيارة لفرانكفورت ، واقلعت بى الطائرة من هناك قاصدة انقرة فى تركيا ، لتتجه بعد ذلك الى القاهرة ، طبقا لخط السير المخطط لها . واصيبت محركاتها بعطل فنى ، الأمر الذى فرض عليها أن تهبط هبوطا اضطراريا فى مطار فيينا الذى ظلت فيه ساعتين كاملتين حتى تم اصلاح ذلك العطل .

وبينما كنت أجلس فى « الترانزيت » فى انتظار إصلاح الطائرة سمعت صوتا « يا باشمهندس عثمان . . يا باشمهندس عثمان » . . وعندما التفت الى صاحب الصوت وجدته رجلا مصرى الجنسية يتجه

نحوى لكى يصافحنى . . وحاولت وأنا أصافحه أن أتذكره . . واتضح لى أنه كان يعـرفنى ، ولم يسـبق لى التعـــرف عليه . . لأننى لا أنسى أى شخص قابلته مرة واحدة مهما طال الزمن ، وتصورت أنه مصرى يسمع عنى ، وأن ظروفه فى بلد غريب قـد تكون قـد قسـت عليه ، لذلك بادرته بالسؤال : هل تريد منى أية خدمة ؟

قال : شكرا : لكننى أردت أن أسألك :

لماذا لا تريد أن تتقدم لتنفيذ عمليات فى الكويت ؟

قلت : كيف لا أريد . . ؟ بل أنا حائر أبحث عن مـدخل إلى هناك ولم أجد . .

قال : إن الأمير فهد مدير الأشغال هو الذى يستطيع أن يسـهل لك ذلك الأمر . . وهو رجل طيب وأنا أعمل معه فى مكتبه .

قلت : وكيف الوصول إليه ؟

قال : نحـن متجهـون الآن إلى بروكسـل . . واسـتطيع أن أعطيك عنوان الفندق الذى سـننزل فيه ، وجميع المعلومـات التى تحتاجهـا للاستدلال علينا . . وعندما تحضر سأمكنك من مقابلته فورا .

وحصلت منه على المعلومات اللازمة ، وذهب كل منا فى طريقه بعد أن استأذن من الآخر . .

وفور عودتى إلى القاهرة ، تحـدثت فى ذلك الموضـوع مـع المهندس بهجت حسنين نائب رئيس مجلس ادارة المقاولون العرب الآن ، واتفقنا على أن يسافر الى بروكسل لمقابلة الأمير فهد . . وكلفته بزيارة معـرض دولى كان مقاما هناك ربما قد يجد فيه من العدد والآلات الحـديثة الذى يمكن أن نضيفه إلى معداتنا .

وسافر المهندس بهجت حسنين ، وقابل الأمير فهـد ، وعرف منه أن الكويت تعتزم انشاء مبنى للبلدية ، ومبنى لمجلس الأمـة الكويتى ، وأنه تم إعداد العطاء الخاص بهما وتم تسليمه للشركات الخمس التى سـبق وأشرت إليهـا . . وأبدى الأمير فهـد اسـتعداده لأن يكتب اسـمنا فى العطاء .

مفاجاة منهلة

وبعد عشرة أيام من عودة بهجت حسنين من مقابلته ، سـافرنا إلى الكويت ، وقمنا بشراء كراسة العطاء لكى نتقدم بها مع تلك الشركات .

وكانت معركة كبيرة بالنسبة لى ، وكان على أن أستخدم كل وسائلى المشروعة فى مهنتى من أجل ان أمسك بالفرصة حتى لا تضيع منى .

وعلمتنى التجـربة أن الفـرص غير قـابلة للتكرار . . خـاصة وان الاتجاه بأعمالى الى الكويت كان بالنسبة لى هـدفا كبيرا كنت انتظـر لحظة تحقيقه .

ووضعت خطتى ، التى ساعدتنى على تنفيذها ، عوامل كثيرة خارجة عن إرادتى .

كانت الشركات الخمس الكبيرة لا تعـرفنى ، وإذا عرفتنى فليس فى مقدورها أن تعرف حجم ونوعية إمكانياتى .

وبدأت دراسة العملية فى كتمان شديد .

وقمت بدراسة كل شيء يتعلق بالعملية على الواقع ، دون أن يشـعر أحد .

كما سافرت إلى مختلف دول أوربا لكى ادرس هناك أسعار ما كنت سأقوم باستيراده من مستلزمات . . كالزجاج ، والشـبابيك ، والأبواب ، والأدوات الصحية ، والأدوات الكهربائية .

ووضـعت فى اعتبارى أن الشركات الكبيرة الخمس سـتتفق فيما بينها ، ولن يتنافسوا على العملية . . وحدث ما توقعته .

وكان من بين عناصر الخطة التى رسمتها ونفذتها بمنتهـى الدقـة الا يتواجد فى الكويت اى أحد مـن طـرفى حتى يتأكد لتلك الشركات عدم جديتى فى السعى نحو الحصول على كسب ذلك العطاء .

وقبل موعد تقديم العطاء بيومين فقط ، كلفت أحـد مهندسى شركتى بالسفر سراً إلى الكويت ، وطلبت منه أن يكون على اتصال دائم بى لكى أزوده بما يستجد من معلومات أو تعديلات .

وذهب المهندس فى الموعد المحدد ، وقام بوضع عطائنا فى الصــندوق المخصص لذلك

وكانت المفاجأة . .

كان مــا حــدث مثار دهشـــة الجميع هناك فى ذلك الوقــت ، وكانت مفاجأة اكبر عندما تم فتح المظاريف حيث كان عطــاؤنا اقــل عطــاء تم التقدم به ، وكان العطاء الذى يلينا يزيد عن عطائنا بمقدار « ٢٥ » مليون روبية .

واتصل بى مهندسنا من الكويت ، وزف لى الخبر وهو يكاد يطير من الفرحة .

وفهمت وقتها أننى نجحت فى كسر الحصار ، وأن خطتى قد حققــت كل نتائجها ، وأن الطريق أصبح مفتوحا امامى الى الكويت .

وسافرت إلى الكويت والتقيت هناك مع المرحــوم أميل البســتانى ، وكان أحد أصحاب إحدى الشركات الخمس ، ولم تكن لى سابق معــرفة به .

كان الرجل يتصور أن هدفى من العملية هــو مجــرد الحصــول على المال ، ولم يكن يعرف أن هدفى كان هو كسب أرض جديدة ، يمتد اليهــا نشاط شركتنا الكبيرة ، بغض النظر عن العائد المادى .

كانت المسألة بالنسبة لى تحقيق حلم ، لذلك فليس مــن الســهل أن افرط فى العملية . . لأن التفريط فيها يعنى بالنسبة لى التفريط فى آمالى التى نمت معى منذ طفولتى ، واسعى من أجل إدراكها .

اخفيت عليه تمســكى بتنفيذ العملية . . وأردت أن اشـــترى منه . . أردت أن اعرف أبعاده . . وأردت ان اعرف واتأكد من سلامة مــوقفى فى العملية .

وقد عرض على فــكرة أن أتنازل عن العملية مقــابل حصــولى على خمسين الف جنيه . . أبديت له ملامح استعدادى لقبول التنازل . . ولكن ليس بالمقابل الذى عرضه . . وطـــال بينى وبينه الحــوار إلى أن وصــل المبلغ الذى أبدى استعداده لأن يدفعه لى مقــابل التنازل عن العملية الى

ربع مليون جنيه .

ونجحت فى استدراجه وتأكد لى من عرضه سلامة موقفى ، وهو ما كنت أحرص على معرفته منه ووعدته بأن أعيد التفكير بناء على عرضه . . وتلك لغة يفهمها رجال الأعمال ، تفيد الاعتذار المهذب وانتهت المقابلة .

وبدأت فى تنفيذ العملية ، والحمد لله أنجزتها فى الوقت المحدد ، على أحسن وأكمل وجه . . ولن يجد من يزور الكويت أجمل أو أحلى أو أمتن من الانشاءات التى أقمتها للكويت فى مبنى البلدية ومبنى مجلس الأمة .

بل إن تلك الانشاءات من الانشاءات التى أعتز بها كثيرا من بين ما أقمته من إنشاءات فى مختلف البلاد والدول .

وكانت تلك العملية ، بداية لعمليات كثيرة أخرى ، قمت بتنفيذها فى الكويت بعد أن نجحت فى أن أكسر الحصار الذى فرضته الشركات الخمس عليها . .

ولم أكتف بأن أكسر احتكارهم ، ولكننى تعقبتهم حتى تمكنت من طردهم نهائيا من الكويت ، بل ومن المنطقة كلها بعد ذلك .

وقد فتحت الطريق معى ، ومن بعدى ، لكل من استهدف الكويت مجالا لأعماله ، من بين رجال الأعمال المصريين .

وكان العامل المصرى العملاق هو الذى نجح فى أن يحقق ذلك الهدف . بمتانة ودقة أدائه ، ورخص أسعاره ، التى لم تستطع أن تصمد تلك الشركات أمامها .

علاقاتى معهم

وأثناء تواجدى فى الكويت استطعت أن أقيم عدداً كبيراً من الاتصالات والصلات والعلاقات مع مختلف الناس هناك .

وكانت تربطنى علاقه طيبة مع الشيخ سالم الصباح ، كان رحمه الله رجلا شهما ، طيبا ، كريما . . يعبر عن الأصالة بكل معانيها .

وربطتنى علاقة صداقة متينة أيضا مع الشيخ جابر الأحمد ، ولم

الكبيرة ، التى كانت تعمل فى منطقة القناة .

وكانت الشركة قد واجهت الشركات الاجنبية فى السعودية ، وانتصرت عليها . . وسبق أن طردت مثل تلك الشركات من الكويت ، بعد أن كسرت احتكارها للعمل هناك .

وكنا فى تلك اللحظة التى يكلمنى فيها عبد السلام عارف نقوم بتنفيذ اضخم سد من نوعه فى العالم ، ولكن لم يرد ذلك الخاطر على بالى بقوة ، مثلما ورد فى تلك المرة . . ويبدو أنه فى تلك المرة كانت المواجهة مع الشركات الأجنبية ذات بعد وطنى قومى . . وكنت قد حلمت أن تكون شركتى قادرة على تنفيذ المشروعات الوطنية التى تنفذها شركات اجنبية .

وتقدمنا لشراء كراسة العطاء ، وقمنا بعد ذلك بدراسة المشروع دراسة عملية وميدانية من جميع جوانبه ، ولم نستغل رغبة العراق فى أن يسند الينا مثل ذلك المشروع الذى كان عطاؤنا فيه سبعة ملايين جنيه . . وهو أقل العطاءات كما ثبت عند فتح المظاريف . . وكسبنا العملية ، وبدأنا التنفيذ على الفور .

واثناء تنفيذ العملية كنت أسافر الى العراق مرة كل شهر ، وكان الرئيس عبد السلام عارف يستقبلنى فى كل مرة أذهب فيها الى هناك ، وكان رحمه الله ، شديد الاعجاب بالمقاولون العرب . . وربطتنى به علاقة صداقة قوية .

واذكر أنه فى كل مرة كنت أقوم بزيارته فيها ، كان يحدد الساعة الواحدة ظهرا بالذات موعداً للمقابلة ، وكان رحمه الله ، يفرغ نفسه تماما لتستمر مقابلته لى أطول وقت ممكن ، وكان يتعمد ان تستمر المقابلة حتى يحين موعد الغداء ، الذى كان يصمم على أن أتناوله معه ، وعلى مائدته فى بيته .

وكثيرا ما كان يتطرق الحديث بيننا الى موضوعات شتى ، وكانت علاقتى به وثيقة ، الى الحد الذى جعلنى اتحدث معه بدون حرج ، فى أى موضوع يخطر على بالى .

وقلت له ذات مرة :

إن عبد الكريم قـــاسم كان يريد أن يحتل الكويت ويضـــمها الى العراق ، وكان هناك نزاع على الحدود بين البلدين ، وسمعت بعد ذلك أن الكويت قدمت للعراق فى عهدكم ثلاثين مليون دينار ، مقـابل اعترافـكم بالحدود التى تريدها الكويت مع بلدكم .

وانكر فى تلك اللحظة ، أن الرجل تغير فجأة ورأيته فى صـورة لم أره فيها لا قبل ولا بعد تلك اللحظة . . كما لو كانت تلك الكلمـة قـد حـركت بداخله كل ما كان يختزنه من وطنية وحب لبلده . .

قال لى : وهو فى حالة تعبر عن القوة والحزم والحسم :

تقطع يدى يا عثمان ، اذا كانت قد فعلت ذلك . . كانت تلك هى الجملة الوحيدة التى نطقها الرجل ، وان كان ما لاحظته من مشـاعر تجيش فى صدره لا يسعها كتاب .

وكان رحمه الله رجلا مسلما لا يطيق مجرد سماع كلمة الشـيوعية . وكثيرا ما تحدث فى شأن عدم رضائه عن أى بلد يسمح لمبادىء الشيوعية الهـدامة ، أن تتغلغـل فيه . . خـــاصة اذا كان ذلك البلد ، بلدا عربيا ، أو إسلاميا .

وقد عبر لى عن الكثير الذى فى نفسه من آمال كان يتوق لأن يحققها لبلده ولأمته ، ولكن المنية لم تمهله وكانت وفاته صـدمة كبيرة بالنسـبة لى .

فى آخر مرة كنت فى زيارته كان قد دعانى الى زيارة عائلية للعـراق ، مع زوجتى وأولادى ، وقـد قبلت دعوته وعدت الى القـاهرة ، وبدأت فى اتخاذ اجراءات السفر ، وأصبحت مسـتعدا له . . وفـاجأنى الخبر قبل موعد سفرى بيوم واحد ، وعرفت أن الطائرة قد احترقت به فى الجو .

وكم كان حزنى على فقده كبيرا .

حزنت عليه ليس لأنه صديق فحسـب ، ولكن لأنه كان ، رحمـه الله ، من الزعماء العرب القلائل الذين لا يعوضون ، كان « رحمـه الله » يحـب مصر بجنون . . وعبر لى عن ذلك الحب مرة عندما قال :

ليس هناك ما هو أعز على قلبى بعد العراق يا عثمان إلا مصر .

رحمه الله . . وطيب ثراه .

كان رجلا والرجال قليل .

لم يكتمل المشروع

تولى الحكم فى العراق أحمد حسن البكر . . بعد عبد الرحمن عارف وكان صورة مختلفة تماما عن عبد السلام عارف . . كان شديد الكراهية بلا أى سبب لمصر وللمصريين .

وأثناء قيامنا بتنفيذ العملية ، راح يحتك بنا ، ويتحرش برجالنا هناك ، هو ومن معه من اتباع ، وبلغت قمة تعنته عندما راح يستخدم معداتنا استخداما سيئا ، رغما عن أبنائى هناك .

وكانت العراق قد تعرضت لفيضان مدمر ولم يجدوا غير معداتنا لاستخدامها فى إزالة آثار ذلك الفيضان . . ونحن لم نمانع فى استخدام معداتنا فى ذلك الغرض النبيل . . ولكن الأمر الذى رفضناه هو الاستخدام السيىء للمعدات .

وكانت المعدات ثقيلة ، مرتفعة الثمن ، وإذا أريد استخدامها فى موقع غير الموقع الذى نعمل فيه ، كان لابد من تحميلها فوق آليات صنعت خصيصا لذلك الغرض ، ولكن تسييرها لمسافات طويلة كفيل بأن يسبب إتلافها ، وقامت سلطات العراق بتسيير تلك المعدات لمسافة ألفى كيلو متر ذهابا وإيابا . . ولذلك أصيبت المعدات بالتلف .

وحاولنا لفت نظر العراق فى ذلك الوقت الى المخاطر التى يمكن أن تتعرض لها المعدات ، والى الآثار التى يمكن أن تترتب على ذلك ، خلال ادائها فى تنفيذ المشروع ، الذى تعمل فيه . . وكان رد الفعل من السلطات هناك أن قامت باجراءات انتقامية ضد رجالنا ، وحاولوا إلقاء القبض على الكثيرين منهم .

وأمام تعنت السلطات العراقية . . ذهب بعض أبنائنا الى السفارة المصرية هناك للاحتماء بها ، والبعض الآخر فضل الفرار الى الكويت ،

والبعض الثالث أختار أن يفر الى الأردن .

وكم كان ذلك الموقف صعبا على نفسى . . فلأول مرة أرى أبنائى يتعرضون لما لم يتعرضوا له فى حياتهم ، دون أن أستطيع أن أفعل لهم شيئا ، وهم الذين قبلت أن أتعرض لكل ما تعرضت له بعد التأميم من أجل الحفاظ عليهم .

وتركنا المشروع دون أن يكتمل تنفيذه ، وتركنا هناك كل ما كان لنا من معدات ومستحقات . . وسلمت أمرى لله سبحانه وتعالى . .

وكم كان ولا يزال يريحنى كثيرا تسليم أمرى لله . . وتعودت فى حياتى كلها الا اشكو من بشر الى بشر . . تعودت أن أشكو له وحده ، وألقى عليه كل همومى ولم يخذلنى سبحانه تعالى مرة واحدة فى حياتى . . والحمد لله .

وصلتنى كل مستحقاتى

حصلت بعد فترة على جميع مستحقاتى .

تخصصت شركة المقاولون العرب فى إقامة قواعد الصواريخ وحظائر الطائرات ، واضافت ذلك التخصص إلى كل ما ابدعت فيه من تخصصات ، واصبحت خبرة ابنائها من أرقى أنواع الخبرات العالمية فى هذا المجال . . وجاء العراق يطلب تلك الخبرة فبعث بوزير من عنده خصيصا لكى يتفاهم معى فى ذلك الخصوص .

وعندما استقبلت الوزير وعرفت أن العراق يريد أن نقيم له عددا من قواعد الصواريخ وحظائر الطائرات ، وافقت على طلبه ، بشرط أن يعيدوا لنا مستحقاتنا ومعداتنا ، التى تركناها بعد كل ما حدث منهم لنا فى عملية كركوك .

طلب الوزير منى العودة لاستكمال ذلك المشروع ، ولكننى قابلت طلبه بالرفض .

وقلت له : أريد حقوقنا قبل أن نبدأ فى تنفيذ ما تريدونه منا .

ولم يكن امام العراق الا أن يوافق ، وكانت حاجتهم شديدة ،

ورغبتهم ملحة ، لتنفيذ مثل تلك القواعد .

وحصلت على كل حقوق رجالنا ، وبعـدها قمـت بانشـاء قـواعد للصواريخ وبشم الطائرات . . ملأت كل مكان أرادت العراق أن تقيمهـا فيه .

وحمدت الله . . وأنا أقول لنفسى : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » .

وأثناء ترديدى لكلمات ربى كان يمـر فى رأسى شريط ذكرياتى مـع الحلال والحرام .

وقلت لنفسى : إننى أجنى ثمار الحلال الذى زرعته . . وكان فضل الله على عظيما .

* * *

تجربتى فى الأردن

طلبت معظم الدول العربية من « المقاولون العرب » أن تنفذ فى بلادها مشروعات لها وكان أن منعنا من الذهاب إلى الدول التى لم يمتد اليهـا نشاط الشركة انشغالنا الشديد بما كانت تقـوم بتنفيذه مـن مشروعات كبيرة داخل مصر ، كان على رأسها السـد العـالى ، الذى يمثل وحـده ملحمة كبيرة .

ولكنها قامت بتنفيذ سد المخيبة الذى أجمعت عليه إرادة جميع الدول العربية .

كان أن انعقد مؤتمر القمة العـربى سـنة ١٩٦٥ لدراسـة مشـكلة تحويل مياه نهر الأردن .

طرح المشروع فى عطاء دولى ، تقدمت شركة المقاولون العـرب لشراء العـطاء ، الذى تقـدمت لشرائه مختلف الشركات العـالمية الكبرى ، وفى جلسة فتح المظـاريف كان عطـاؤنا عشرة مـلايين جنيه ويمثل أقـل العطاءات . . فكسبنا العملية .

وكان علينا بعد ذلك أن نقوم باتخاذ الاجراءات نحـو التعـاقد على تنفيذ المشروع . . وقمنا باعداد خطاب الضمان اللازم لذلك ، وانتظرنا أن

تطلب منا حكومة الأردن السفر ، الى عمان لتوقيع العقد النهائى .

مؤامرة من وصفى التل

وقد وصلتنى فجأة برقية من وصفى التل رئيس وزراء الأردن فى ذلك الوقت فى الساعة الحادية عشرة صباحا ، يطلب منى فيها التواجد فى عمان فى الساعة الثانية عشرة ظهر اليوم التالى ، بمبنى رياسة مجلس الوزراء هناك ، لتوقيع العقد النهائى .

وكان من المفروض أن يتيح لنا رئيس وزراء الأردن فرصة أكبر نستطيع خلالها أن نتخذ كل ما هو لازم من إجراءات السفر . . ولكنه أراد ذلك حتى يفوت على « المقاولون العرب » فرصة تنفيذ المشروع .

وكان لا يريدنا . . ولكنه بدلا من أن يقولها صراحة تصرف على ذلك النحو :

وكان يأمل فى أننا لن نستطيع الذهاب فى الوقت المحدد ، بسبب ضيق الوقت ، ويصبح بعد ذلك من حقه هو أن يسند العملية لأى شركة يرى أن يسند إليها عملية التنفيذ .

وحدث أن فوتنا نحن عليه أهدافه .

وكان من حسن حظنا أن كل شىء يتعلق بتلك العملية قد أعد مقدما .

كنا قد تعودنا بحكم تجاربنا منذ زمن ، على النظام والترتيب والدقة فى كل شىء . .

كان وصفى التل يريد مفاجأتنا . . إلا إننا كنا على استعداد ، وسافرنا فى نفس اليوم . . وفى المساء كنت فى عمان .

وكان على ألا انتظر حتى يحين موعد التعاقد ، ولكننى قمت فى الصباح بزيارة لمقر مجلس الوزراء لأتبين ما إذا كانت إجراءات التعاقد تحتاج منا لشىء غير ما حسبنا حسابه .

وكان أن علمتنى الأيام والتجارب أن أحتاط لكل شىء . . أحتاط حتى لا يأخذنى أحد على غرة .

وحدث ما توقعته ، ووجدت أن هناك مفاجأة أخرى فى انتظارنا ، واكتشفت ساعتها أن وصفى التل كان قد دبر مؤامرته على مرحلتين .

فهو أراد أن يفاجئنا بموعد توقيع العقد ، ووضع احتمال أن نكون مستعدين .

وكان لابد له أن يبحث عن فخ بديل .

ووجد الحل فى أن يطلب منا مبلغ خمسة وستين ألف دينار أردنى تمغات « توقيع » كما كانوا يسمونها .

كان يطلب دفعها عدا ونقدا قبل التوقيع .

وكان يعرف أنه لا حيلة لنا فى تدبير ذلك المبلغ ، وتوقع أن يكون التصرف الوحيد منا هو التنازل عن العملية .

وبذلك يستطيع تحقيق أهدافه .

وحاولت بشتى الطرق مع المسئولين هناك لكى أكتب لهم شيكا بالمبلغ ، ولكنهم رفضوا ، واقترحت عليهم تقديم تعهد يفيد باستعدادى لدفع المبلغ فى وقت لاحق يحددونه بمعرفتهم ، ويضعون فيه الشروط التى تناسبهم . . فرفضوا ايضا .

فكان لابد أن يتم الدفع قبل توقيع العقد . . هكذا قالوا لى .

واذكر أنه لم يكن معنا فى ذلك الوقت من ذلك المبلغ حتى خمسة وستون دينارا وكانت قوانين الدولة فى مصر تمنع فى ذلك الوقت خروج أية عملة صعبة من البلاد ، تحت أى ظرف ، ولأى سبب . .

فماذا أفعل ؟

اصعب المواقف

كان أن ذهبت إلى مقر البنك العربى هناك لمقابلة أصحابه . . عبد الحميد وعبد المجيد شومان . . وكانا من اصدقائى ، وليس لى فى عمان فى ذلك الوقت غيرهما . . وهما المسئولان عن إدارة كل شىء فى البنك ، ولا يستطيع أحد أن يتصرف فى المسائل الكبيرة بدونهما .

ولم اجدهما . . ووقفت أقلب أمور الدنيا . . وكلما فعلت ذلك لا أجد

دائما على شفتى . . إلا قول الله سبحانه وتعــالى فى عزيز كتابه : ـ « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » .

والهمنى ربى . . فى تلك اللحــظة ، ضرورة أن أبحــث عن بنك آخــر ففعلت . . ورحت أسأل : وكان « بنك عمان بالقــاهرة » هــو البنك الذى دلونى عليه . . وكان لابد أن أذهب إليه . . مــع إننى لم أعرف فيه أحــداً وليس أمامى إلا أن افعل ذلك .

وكان أن ذهبت إلى مقر البنك وطلبت مقــابلة رئيس مجلس إدارته ، وعندما دخلت إلى مكتبه وجدت شابا يجلس فيه ، تبين لى لأول وهلة أنه لا يمكن أن يكون هو رئيس مجلس الادارة فسألته . .

وعرفــت منه أنه ابن رئيس مجلس الادارة وأن والده فى ســفر إلى الخارج ، وأنه يقوم بتسيير أمور البنك نيابة عنه . إلى حين عودته . .

رحب بى وحيانى . .

وسألنى عما أريده . .

وكان لابد أن أجد مدخلا للحديث مع ذلك الشــاب حتى أحصــل منه على ما أريده . . فكيف كان ذلك ؟

قلت له : لا داعى ما دام والدك غير موجود . .

فقال لى : إننى أنوب عنه فى كل شىء .

وسألته : هل لك نفس صلاحياته

وأجابنى : تماما

وسألته سؤالا استنكاريا :

هل تسمع عن « المقاولون العرب » فى القاهرة ؟

وأجابنى بدهشة واستغراب متسائلا : ومن منا الذى لا يسمع عنها وهى الشركة التى تقوم بتنفيذ مشروع السد العالى . . أضخم مشروع فى العالم .

وكان كل هدفى من كل ذلك الحوار هو أن أســتثير فى الشــاب حــب إثباته لذاته ، وتحمسه ، وتهيئته لأن يكون على استعداد لاتخــاذ قــرار

كبير بالنسبة له ، كان لابد أن اتوقع أن يكون أكبر من إدراكه ، وإمكانياته . . بحكم سنه وتجربته .

وانكر أن خطاب الضمان بالعملية ، كان من البنك العربى .

وكان لابد أن افكر فى مدخل يبرر لى الذهاب إلى ذلك البنك ، مع أن المفروض أن اذهب إلى البنك الذى أصدر لى خطاب الضمان ، وذلك حتى أضع الشاب فى الموقف المناسب لاتخاذ القرار الذى كنت أريده منه .

ووجدت المدخل فى أن اقول للشاب : إن العملية التى نحن مقدمون عليها عملية كبيرة ، ولا يكفى بنك واحد لتمويلها . . وكان لابد لنا من بنك آخر .

وكان أن أصدر البنك العربى خطاب الضمان ، ولكننى أبحث عن البنك الذى سأشركه معه فى عملية التمويل .

ووافقنى الشاب ، واتفق معى فى ذلك الرأى ، وكانت موافقته خطوة هامة جدا ، رفعت الحرج الموجود بسبب أن خطاب الضمان من بنك آخر .

كان ذلك السؤال يدور بخاطرى ، فى الوقت الذى كان يدور فيه ، بينى وبينه ذلك الحوار . .

وكان أن سألته :

هل استطيع أن أطلع على ميزانية بنككم ؟ .

فأجاب وهو يسلمها لى : بكل ترحيب . .

وعندما تصفحت الميزانية وجدت أن راسمال البنك نصف مليون دينار فقط .

وكان لابد أن ادفع الشاب الى قمة الموقف الذى أردت أن استثير حبه لاثبات ذاته ، بأن أضعه فيه .

فقلت له : إن بنككم صغير وراسماله محدود . .

قلت له ذلك فى الوقت الذى أعرف فيه أنه ليس مهما لأى بنك كم

يكون رأسماله . . ولكن المهم الى أى حد وصل حجم تعاملاته . . ولكننى أردت أن أضع الشاب فى موقف الدفاع عن بنكه ـ وكان أن نجحت خطتى .

راح الشاب يدافع عن بنك والده ، ويشرح لى ما لم أكن فى حاجة لأن أعرفه . .

ونجحت فى أن أضعه فى موقف الدفاع عن بنكه ، وأصبح على استعداد لأن يفعل كل ما من شأنه أن ينزع من رأسى الاعتقاد ، بأن بنكهم صغير ، وأصبح على استعداد لأن يثبت لى بالدليل العملى ، قدرة البنك أو صحة ما يقول . .

وكان ذلك هو المطلوب ، وأصبح الآن الطريق مفتوحا وممهدا ، لأن أتحدث مع الشاب فى صلب الموضوع .

وكان أن قلت :

إن عمليتى كبيرة ، ولا تحتاج منكم لأقل من أربعة ملايين دينار . .

وأبدى استعداد بنكه وقدرته على التمويل فى تلك الحدود .

وهنا قلت له : إذا كان الأمر كذلك فيسعدنى أن أتعامل معكم . .

وأجابنى ، وكل السعادة تملأ قلبه بالصفقة الكبيرة التى حققها لوالده :

ونحن سعداء لأن نتعامل مع « المقاولون العرب » ، نحن تحت أمرك فى كل ما تطلبه . .

قلت له وأنا أشكره ، والسعادة تملأ قلبى أكثر منه ، بنجاحى فى إحباط مؤامرة وصفى التل . . لا أريد الآن أكثر من مائة ألف دينار .

وكان أن قام على الفور باتخاذ الاجراءات اللازمة نحو الصرف ، وحصلت على المبلغ وشكرته وانصرفت . . وحمدت الله الذى وفقنى الى هذا ، ولولاه ما كان لى أن أستطيع . . وكان أن تخلصت من الوقوع فى الفخ الذى نصبه لى وصفى التل . . ذهبنا فى الموعد المحدد ، وسددت الرسوم المطلوبة ، وقمنا بتوقيع العقد وتبقى فى جيبى خمسة وثلاثون ألف دينار دفعة واحدة بعد أن كنت لا أجد دينارا واحدا .

وهذا من فضل الله . .

وبدأنا بعد ذلك العمل . . واستطعنا أن ننجـز أكثر مـن ٢٥٪ مـن المشروع ولكن توقفنا عن العمـل ، بعـد أحـداث ١٩٦٧ الأليمـة ، التى تعرضت لها أمتنا . ولم يكتمل المشروع حتى الآن .

وكان أن طلبت الحكومة الاردنية فيما بعد من شركتنا ، أن نقيم لهـا قواعد للصواريخ وحـظائر للطـائرات ، ونجحنا فى أن نقيم لهـم جميع الانشاءات العسكرية التى طلبوها منا . .

واجد من المناسب هنا أن أقـول لأولادى مـن الشـباب إن رجـل الاعمال يحتاج الى أعصاب من حديد ومرونة متناهية فى نفس الوقـت ، كمـا يحتاج الى خبرة ، وسرعة ، وخفـة حـركة . . فـالتصرف السريع السليم يجب أن يكون أحد مواصفات رجل الأعمال الناجح . .

* * *

وذهبت إلى ابو ظبى

وكانت لى فى ابو ظبى قصة أخرى . .

كان أن وصلتنى برقية من الشيخ زايد يدعونى لزيارة أبو ظبى وكان ذلك عام ١٩٦٨ .

وكنت أسمع أنه رجل طيب ، ولكن لم تكن لى سابقة معرفة به . .

وكان أن استجبت لدعوته ، وسافرت الى بلده ، ونزلت فى ضيافته . . فأحسن الرجل استقبالى وأكرم ضيافتى .

وراح يحدثنى عن إعجابه بالانجازات الضخمة التى حققتها الشركة فى كل مكان من السعودية والكويت ، وطلب الى أن نقوم بتنفيذ عدد مـن المشروعات فى أبو ظبى ، ترتفع جودة تنفيذها إلى نفس جـودة التنفيذ فى المشروعات التى كان قد حدثنى عنها .

وتقدم مشروع انشاء « مدينة زايد » فى منطقـة العين ، كل مـا طلبه الرجل من مشروعات ، أراد أن يقيمها فى بلده . . ووعدت الرجل بأن أقوم بتنفيذ كل ما يطلبه .

وكان أن قمت باجراء الدراسات اللازمة ، واتفقت مع وزير الأشغال هناك على كل التفاصيل ، واتخذنا كل ما هو مطلوب نحو إجراء التعاقد . . ووقعنا العقد ، الشيخ زايد عن بلاده ، وعثمان أحمد عثمان عن « المقاولون العرب » . . حتى نبدأ فى اجراءات تنفيذ المشروع ، الذى كانت تصل تكاليفه الى سبعين مليون دولار .

وكان لابد أن نقوم باعداد التصميمات اللازمة ، والرسومات الهندسية المطلوبة ، قبل أن نبدأ فى التنفيذ . . وانتهينا من إعداد ترتيبات كل شىء لكى نبدأ العمل فى المشروع خلال النصف الثانى من عام ١٩٧٠ .

أثناء استعدادنا لنقل معداتنا وقوة العمل اللازمة الى أبو ظبى . . انكر أن نظام الحكم السابق فى مصر ، كان قد القى خطابا بمناسبة ٢٣ يوليو ١٩٧٠ . . هاجم فيه انجلترا . وكانت ابو ظبى فى نلك الحين تحت الحماية البريطانية .

وفجأة بعد نلك الخطاب ، وصلتنى برقية من الشيخ زايد ، يطلب منى فيها السفر الى ابو ظبى .

وسافرت . . وبعد أن استقبلنى الرجل ، بود بالغ وحفاوة كبيرة ، طلب منى عدم الاستمرار نحو استكمال المشروع ، وابدى استعداده ، لأن يدفع لنا كل المبالغ التى انفقناها على المشروع ، وأن يدفع أيضا كل التعويضات التى نطلبها منه .

وكان أن اندهشت مما يقول :

لذلك سألته : عن السبب . .

فأجابنى الرجل بصراحة . . إن الانجليز لا يريدون أى وجود للمصريين فى أبو ظبى . وعاد الرجل ليؤكد لى حرصه على أن يظل ما بيننا من صداقة ، دون أن يؤثر نلك الموضوع على العلاقة التى نشأت بيننا . .

وكان أن شكرته على مشاعره الطيبة نحوى ، ولم أقبل منه أية مبالغ إلا المبالغ التى تكلفتها فعلا فيما قمت باتخاذه من إجراءات نحو تنفيذ

المشروع ، الذى كان قد طلبه منى .

وعدت إلى القاهرة دون أن أقـوم بتنفيذ المشروع .. ولكن الشـيخ زايد عاد بعد فترة ، يطلب منى مـرة أخـرى أن أقـوم بتنفيذ مشروعات هناك .

وكان أن اعتذرت ..

ولكن الشىء الوحيد الذى لم أستطع الاعتذار عنه ، هو طلب الشـيخ زايد منى بعد ذلك أن تقوم الشركة بانشاء قواعد للصـواريخ وحـظائر للطائرات فى أبو ظبى . وقلت للرجل أن الشركة لا تستطيع أن تتخلف عن اقامة أية انشاءات تحتاجها أية دولة عربية تريد بها الدفاع عن نفسها ، وعن أمتها فى موقعها ..

كان لابد أن اقبل ، لكى يتأكد دور مصر الرائد لمنطقتها ولأمتها ..

ولك أن تتصور كيف كانت تدار أقدار أمتنا ؟

كان قرار الانجليز سببا فى حرمان أبو ظبى من انشاءات ضـخمة ، كانت ستساهم فى تحديثها .. وكان الهجوم من حكام مصر سـببا فى أن تضطر أبو ظبى إلى ذلك القرار ..

فى ليبيا

وانتقل نشاط الشركة إلى ليبيا أيضا ..

مع الملك السنوسى

وتعاملنا فى ليبيا مع عهدين ، وكانت لنا مع كل عهد منهما قصة ..

دارت أحداث القصة الأولى مع جلالة الملك السنوسى ، عندما دعانى الرجل لزيارته ، واسـتجبت لدعوته .. وطلب منى خـلال تلك الزيارة أن أقوم بتنفيذ بعض الأعمال فى ليبيا ..ووافقت على ما طلبه الرجل منى .

حدث ذلك فى فترة مـا بعـد صـدور قـرارات التأميم وكانت شركة المقاولون العرب ، قد تحولت الى شركة قطاع عام ، لذلك طلب منى الرجل أن أقوم بتنفيذ ما طلبه من أعمال ليس بصفتى رئيسا لشركة المقـاولون العرب ، ولكن بصفتى عثمان أحمد عثمان ..

وحاولت أن أعتذر للرجل ، على اعتبار أن الظروف فى مصر لا تسمح لى بتحقيق رغبته . . ولكنه أصر اصرارا شديدا .

وكان أن قال :

إذا جئت بصفتك عثمان احمد عثمان فمرحبا بك . . أمـــا إذا جـــئت بصفتك إحدى شركات القطاع العام فنحن نعتذر لك . .

وطلب منى الرجل فى حالة موافقتى على اقتراحه ، أن أقوم بتأسيس شركة جديدة هناك تتولى تنفيذ ما سيتم إقامته من مشروعات .

وكان الملك السنوسى شديد الغيرة على ليبيا . . وكان قـــد بدأ خـــطة طموحة من أجل تحديثها ، وتغيير معالمها إلى الأفضل .

وعدت الى القـــاهرة . . والتقيت بالرئيس محمـــد أنور الســــادات وشرحت له تفاصيل مادار بينى وبين الملك السنوسى من حـــديث ، وكان ذلك فى فترة قبل أن يتولى رياسة الجمهورية فى مصر .

واذكر أننى قلت للرئيس الســـادات : إن ذهـــابنا الى هناك معناه كسب موقع عربى لا يصح أن نتركه لأية دولة أخرى لأننا إن لم نذهـــب فان غيرنا سيجد له مكانا هناك .

واقتنع الرئيس السادات بوجهة نظرى ، وطلب منى أن أكتب مذكرة تتضمن تفاصيل الموضوع ، لكى يقوم بعرض الموقف على نظـــام الحـــكم السابق .

وقمت باعداد المذكرة وسلمتها للرئيس وقـــام بدوره بعـــرضها على نظام الحكم السابق ، وحصل لنا منه على موافقة عليها .

وبينما كان يقوم نظام الحكم السابق بالتوقيع على المذكرة بالموافقة علق قائلا : ــ وهو حيروح مننا فين . .

كان يقصد أننى مهما فعلت فلن أستطيع الافلات ممـــا كا يدبره لى ، وكان ينتظرنى به فور أن أفرغ من العمل فى السد العالى . .

وسلمنى الرئيس السادات المذكرة ، تحمل الموافقة ، ولكنه لم يقل لى ماقاله نظام الحكم السابق فى ذلك الوقت .

ولكننى عرفت فيما بعد . . ولم أسأل الرئيس السادات حتى الآن : لماذا لم يقل لى تلك الجملة ؟

وذهبت الى ليبيا ، وقمت هناك بتأسيس شركة مقاولات تولت تنفيذ كل ما أقمناه من مشروعات فى عهد الملك السنوسى . .

أما بعد ثورة الفاتح من سبتمبر . . فضلت السلطات الليبية أن تتعامل مع شركة المقاولون العرب ـ الشركة الأم ـ ولذلك قمنا بتصفية الشركة التى كنا قد انشأناها فى عهد الملك السنوسى . . وباشرنا عملنا بعد ذلك فى إطار شركة المقاولون العرب ، وانجزنا هناك فى ليبيا العديد من المشروعات العملاقة من طبرق الى طرابلس . . وهى من أعز ما نفتخر به من إنشاءات اقمناها فى مختلف الدول العربية . . سواء كانت تلك المنشآت عسكرية من قواعد صواريخ وحظائر طائرات وخلافه . . أو منشات صناعية . . أو منشآت مدنية تتقدمها جامعة طرابلس التى تعتبر تحفة إنشائية ستظل على مدى التاريخ تروى عطاء السواعد السمراء . .

قمنا بتنفيذ كل تلك المشروعات لصالح الشعب الليبى الحبيب لأن الشعب العربى فى نظرى واحد ، لا يتجزأ مهما تعددت الدول العربية .

* * *

كانت لى مع لبنان قصة

وامتد نشاط شركة المقاولون العرب الى لبنان ايضا .

وكانت لى هناك أكثر من قصة . . كانت اخرها القصة التى دفنت مع أميل البستانى فى قاع البحر الأبيض المتوسط ، منذ أن سقطت به طائرته وحتى الآن . .

كانت أول مرة فى حياتى التقى فيها مع اميل البستانى فى الكويت ، وسبق أن رويت ما حدث بينى وبينه بعد أن كسبت عطاء مبنى البلدية ومجلس الأمة هناك . .

وكان أميل البستانى صاحب شركة مقاولات كبيرة كان اسمها « الكات » أى القط الذى كان يتخذ من رسمه شعارا لشركته . .

وكان يعمل فى السياسة الى جانب المقاولات ، وشغل منصب وزير التعمير فى بلده ، وكان عضوا بمجلس النواب .

وتعرضت لبنان الى زلزال عنيف تسـبب فى انهيار مـئات البيوت ، وحضر أميل البستانى الى القاهرة ، لمقـابلة نظـام الحـكم السـابق ، بخصوص ذلك الموضوع .

وطلب من نظام الحكم السابق أن تقـوم شركة المقـاولون العـرب ، باعادة تعمير المنطقة التى دمرتها الزلازل .

وكانت الشركة ما تزال قطاعا خاصا فى ذلك الوقت . .

واتصل نظام الحكم السابق بالبغـدادى عضـو مجلس قيادة الثورة الذى كانت تقع فى اختصاصه الأمور الخاصة بالبناء والتشييد .

وطلب البغدادى مقابلتى . . واتصـل بى عزيز يس . . مـدير مـكتبه ليبلغنى بالخبر .

وذهبت لمقابلة البغدادى الذى أبلغنى أن أميل البستانى قابل نظـام الحكم السابق وطلب موافقته على أن تذهب الشركة الى لبنان ، لتقـوم بتعمير ما خربته الزلازل .

وقال لى البغدادى : إن نظام الحكم السابق قـد أمـر بتوفير جميع التسهيلات اللازمة التى تمكننى من أن أنجح فى تنفيذ المهمة .

وقمت باعداد جميع الترتيبات اللازمـة . . وسـافرت الى لبنان لاعادة بناء عشرين ألف منزل .

وعينت الموقع وعدت الى القاهرة لاعداد الرسومات اللازمة وبعد أن أصبح كل شيء جاهزا للتنفيذ . . سافرت مرة أخرى الى لبنان . . . ولكن كان معى فى تلك المرة ألفا عامل مصرى نجحوا فى أن ينجـزوا المهمـة فى اقل من ستة أشهر .

وكان أن انبهر أميل البسـتانى بمـا رآه . . مـن دقـة فى التنفيذ . . والتزام فى المواعيد . . وتنظيم وترتيب دقيق للعمل . . وكان انبهاره سببا فى أن تتوطد العلاقة بينى وبينه .

ووجدته أثناء ذلك يفـاتحنى فى مـوضوع على درجـة كبيرة مـن الاهمية .

قـــال لى : إن إسرائيل تمتلك شركات مقـــاولات كبيرة ، وأن تلك الشركات منتشرة فى معظم دول قارة افريقيا ، وقال إن ذلك الأمر يشغله كثيرا . . ولكنه كان لا يســتطيع أن يتصـــدى لهــا لأن إمـــكانياته لا تساعده . . وخاصة الامــكانيات العــاملة ، مــن العمــال ، والفنيين ، والمهندسين . .

واعترف الرجل بأن مهارة رجال شركة المقاولون العرب ، شجعته فى أن يعرض أمر ذلك الموضوع على .

واقترح أن نقوم معا بتأســيس شركة مشــتركة تتصــدى للشركات الاسرائيلية . . واســتحسنت الفــكرة ووافقته عليهــا ، ولكننى علقــت الموافقة على شرط . .

ولما سألنى عن ذلك الشرط :

قلت له : أن تشرح الموضوع بكامل جوانبه لنظام الحــكم الســابق ، ويجب أن توضح له : أن الفكرة ذات بعد سياسى قــومى ، وليســت ذات طابع محدود ، ينحصر فى أعمال المقاولات فقط .

وكان صديقا لنظام الحكم السابق فى مصر . .

وأبدى استعداده للسفر الى القاهرة ، وطرح الموضوع عليه ، بعد أن اتفقنا على تفــاصيل كل شىء . . اتفقنا على أن يكون رأســمال الشركة خمسة ملايين جنيه . . وأن يكون مقرها القــاهرة . . على أن يكون لهــا عدد من المكاتب فى بعض الدول الافريقية .

وغادرت لبنان الى القاهرة ، لأكون فى انتظاره عند حضوره .

وأقلع بطائرته من لبنان فى الوقــت الذى كان قــد حــدده قــاصدا القاهرة ، ولكن قصدت طائرته به إلى أعماق البحر الأبيض المتوســط ، ودفن المشروع معه ، والى الأبد .

ومات وهو ما يزال فكرة لم تر النور بعد . .

وفى قطر

وقامت شركة المقاولون العرب بتنفيذ العديد من المشروعات فى قطر .

وكان حب الشيخ خليفة لمصر أكبر دافع لى ، لكى أذهب إلى هناك .

وقامت الشركة بتنفيذ أعمال كبيرة وعديدة ، ساعدت الشيخ خليفة فى أن يحقق لبلاده ما كان يحلم به لها . وكان للرجل معى موقف عظيم لا يمكن ان انساه ما حييت .

تركت منصبى كوزير للاسكان والتعمير ، بعد أن انتهيت من تأدية المهمة التى كلفنى بها الرئيس السادات بنجاح كبير ، بفضل جهود الرجال الذين تعاونوا معى وعلى رأسهم القوة الضاربة للمقاولات فى مصر ، والتى تتمثل فى شركة المقاولون العرب .

وتصور الرجل أننى تركت الوزارة مغضوبا على . . وفهم أننى اعيش فى ضائقة او ازمة .

فما كان من الرجل إلا أن أرسل لى يطلب منى الذهاب الى قطر .

وحمل لى الرسالة إسماعيل فهمى ، وكان يشغل منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية فى ذلك الوقت . . أبلغنى بأن الرجل يضع كل إمكانياته فى بلده تحت أمرى .

واعتذرت للرجل عن الذهاب الى قطر كمقاول ، وأبلغته باننى تركت ذلك الامر ، منذ أن أصدر الرئيس قراراً بتعيينى وزيرا لكى تتولاه شركة المقاولون العرب وحدها ، وأن الشركة مستعدة لأن تنفذ له من الأعمال ما يريده .

وليس أقل من أن افعل معه مثل ذلك الأمر ، أمام موقفه الانسانى الكبير الكريم الذى هزنى من أعماقى ، وحرك كل ما بداخلى من مشاعر إنسانية فياضة .

ولا استطيع إلا أن اقول إننى مدين لهذا الرجل بالكثير

يكفى أن اكون مدينا له بنبل أخلاقه .

* * *

وكان الملك الحسن ملك المغرب قد طلب منى أن أقوم بتنفيذ بعض الأعمال فى بلاده واعتذرت له بسبب انشغال الشركة فى العديد من

المشروعات التى كانت تقيمها فى مصر .

كما أن الشركة لم تذهب الى السودان الا أخيرا وهـــى تقــوم الآن بتنفيذ مشروع طريق تصل تكاليفه الى سبعين مليون دولار .

وارجو أن يكون هذا المشروع بداية لمشروعات كبيرة وكثيرة ، تذهب شركة المقاولون العرب لتقيمها فى السودان لصـــالح شــعبى وادى النيل العظيم .

تلك هى رحلتى الطويلة فى مختلف أرجاء العالم العــربى . . الرحلة التى ذهبت فيها الى هؤلاء الأشقاء لكى نتكاتف من أجــل تنمية أمتنا فى مختلف بلدانها ، كل بالقــدر الذى يســتطيعه . . وعشـــت معهـــم وبين مواطنيهم لأقف على حقيقة مشاعر انتماءاتهم القوية لأمتهم .

أستطيع كخلاصة لتلك التجربة الواسعه مع العرب . . وفى بلادهم أن أسجل رأيى فيما يجب أن تكون عليه العلاقات المصرية العربية .

إن ذلك من واجبى نحو أمتى ومــن حقهـــا على أن أقــول خــلاصة التجربة التى مارستها بنفسى ووقفت عليها بحكم خبرتى . .

هكذا أرى

العلاقات المصرية العربية

توطدت علاقاتى بمن التقيت بهم من الملوك والرؤساء بالدول العربية مشرقها ومغربها ، على أساس من صدق النية فيما يربط بيننا من مصالح متبادلة ، أو عواطف مشتركة ، ولا أنسى من هؤلاء جلالة الملك عبد العزيز ال سعود ، وجلالة الملك سعود ، وجلالة الملك فيصل ، وجلالة الملك خالد فى السعودية . . وجلالة الملك الحسن ملك المغرب . . وجلالة الملك السنوسى فى ليبيا وسمو الأمير عبد الله سالم الصباح ، والأمير جابر الأحمد ، والشيخ زايد أمير أبو ظبى ، والشيخ خليفة أمير قطر ، والشيخ عيسى أمير البحرين . . وجميع أمراء السعودية وأخص بالذكر منهم الأمير فهد بن عبد العزيز ولى العهد ، والأمير مشعل ، والأمير متعب والأمير عبد الله والأمير سلمان والأمير ماجد وكل أمراء الكويت وعلى رأسهم الشيخ سعد العبد الله ولى العهد ورئيس الوزراء . . وأمراء إمارات الخليج .

ومن الرؤساء الرئيس عبد السلام عارف والرئيس عبد الرحمن عارف فى العراق ، وكل من التقيت به من قيادات فى لبنان والأردن وليبيا ، وأحمد بن بيللا فى الجزائر والرئيس اسماعيل الأزهرى والرئيس جعفر نميرى رئيس السودان .

على أن علاقات الصداقة التى وثقتها فى كل من الدول العربية ، من خلال أعمالنا وإنشاءاتنا وإنجازاتنا ، التى حازت قبول ورضاء الجميع ، لم تكن مقصورة على الزعماء أو الرؤساء والملوك والأمراء فحسب ، بل كانت علاقاتنا المباشرة وغير المباشرة ، من خلال تنفيذ أعمالنا ، تتواصل بين كل الطوائف والطبقات ، بما تفرضه طبيعة قيامنا بتنفيذ الانجازات التى تطلب منا .

بل إن هذه العلاقات التى تتسم بمفهومها الشعبى الأصيل بين أفراد الشعوب أينما يكون عملنا هنا أو هناك كانت السمة الغالبة فى

تعاملاتنا التى تضرب بجذورها فى أعماق الأرض الطيبة ، فى كل مكان من الأماكن وفى كل موقع من المواقع ، التى امتزج فيها العرق المصرى بالعرق العربى من خلال الجهد البشرى اليدوى او الآلى أو الفكرى والذهنى ، لكل من اشتركوا من أبنائنا فيما انجزناه من أعمال ، على مدى يربو على الثلاثين عاما ، منذ أن انطلقنا إلى الآفاق العربية .

وكان أن ترجمت ما يجب أن تكون عليه العلاقات المصرية العربية فى أعمالى التى قمت بتنفيذها فى مختلف البلاد العربية ، التى ذهبت اليها بصفتى عثمان أحمد عثمان أو بصفتى « المقاولون العرب » .

وأرى أن تجربتى مع الأخوة العرب ، يمكن ان تصلح نموذجا حيا لما يجب أن نتجه إليه جميعا من تجسيد لفكرة الوحدة العربية وتكامل أمتنا من مشرقها الى مغربها . .

وتمثل تجربتى الواسعة فى مختلف الدول العربية علاقة تستحق الوقوف عندها ، لكى يبدأ منها وضع حجر أساسى سليم لتنفيذ عمل صحيح لعلاقات عربية قوية .

وجسدت فكرة تكامل الامة العربية فى مجال نشاطى فيما قامت بتنفيذه شركة « المقاولون العرب » فى كل من العراق والأردن وليبيا ولبنان وغيرها من دول الخليج .

وهناك بعض الدول العربية التى وجدت فى تعاملى معها تجسيدا اقوى للفكرة التى أتحدث عنها عندما قمت بانشاء شركات ، بالاشتراك مع الأخوة العرب ، قامت بتنفيذ كل ما نفذته من أعمال هناك ، هى خير شاهد على ما يجب أن تكون عليه علاقات مصر والعرب فى كل المجالات .

وكان ان اسست شركة فى السعودية باسم « المقاولون السعوديون عثمان احمد عثمان وشركاه » واسست شركة فى الكويت باسم « الهندسية الكويتية عثمان أحمد عثمان وشركاه » .

واسست شركة فى ليبيا باسم « الليبية للمقاولات والتعمير عثمان احمد عثمان وشركاه » .

واسست شركة فى ابو ظبى باسم « عثمان أحمد عثمان وشركاه » .

وكانت الطريقة التى كونت بها تلك الشركات تعتمد على أن تساهم

الدولة العربية التى ستقام فيهـا الشركة مـن خـلال أصـحاب رؤوس الأموال فيها بالتمويل ، وأساهم معهم بخبرتى فى الادارة وقـدرتى على مباشرة تنفيذ الأعمال .

وكنا نتفق على أن يحصل الشريك العربى على ثلث الأرباح ويحصل الشريك المصرى على الثلثين .

إن الخبرة الفنية والقدرات التى يستطيع أن يجمعهـا الانسـان لا تعدو كونها راسمالا .

وعندما أقول إن أعظـم ثروة مصرهـم الرجـال ، فـاننى لا أردد شعارات ولكننى أقرر حقيقة واقعية جربتها ومارستها أكثر من مرة .

كنت أذهب إلى البلاد العربية حاملا خبرتى فقـط ، وكنت أحصـل على ثلثى الأرباح ، وكانت تسـاهم رؤوس الأمـوال فى تلك الدول ، فى الشركات التى كنت أقوم بتأسيسها وتحصل على الثلث مقابل ما تقدمه من راسمال .

وهل هناك دليل يؤكد صـحة مـا أردت إثباته اكثر مـن ذلك لأهمية الثروة البشرية وامكانياتها الفنية ، وقيمة تعانقها مع رأس المال لتتكامل معه ، ويعطى ذلك التكامل آثارا واسعة الآفاق تعود على الجميع بالخير ، وتوثق الروابط بين مصر وشقيقاتها .

اعتقد أن كلمة حق . . لرجل . . طاف بين أرجاء الأرض العربية مـن محيطها الى خليجها . . وامتزج عرقه بذرات ترابها . . أو الغبار المتطاير فى هوائها ، واقفا حينا أو متعلقا آخر « بسقالة » أو رافعة ليراقب مـن فوقها سير العمل ، بل ويشارك فيه بجهده الذهنى والجسـمانى ، فى كل ما يكلف به من أعمال إنشائية وعمرانية ومشروعات عامة ، تجسـدت فى إقامتها قوى العزم والتصميم والارادة العربية . . أقول . . بل واعتقد انه لا يجدر به أن يكتم فى صدره كلمة الحـق . . التى تبلورت حـولها رؤيته للسياسة العربية . . خلال هذه السنوات التى تقلبت فيها هذه السـياسة مع تقلبات العصر الذى نعيشه . . زمانا ومكانا . .

واكاد اجزم أنى مطالب بأداء واجبى فى هـذا الصـدد ، لكى أصرح بما أستتر فى ضميرى واختزن فى سريرتى . . حتى لاأظن أن كتمان كلمـة

الحق أو حجبها عن الناس لا يقل خطأ عمـا وصـفه الرسـول الكريم فى حديثه الشريف « الساكت عن الحق شيطان أخرس » .

وكلمتى هذه والتى شـاء الله أن تنطلق بعـد أن طـال احتباسـها تتلخص فى بسـاطة شـديدة . . فى أن مصر لا تسـتغنى عن شـقيقاتها العربيات . . وأن الشقيقات العربيات لا يستغنين ولا يستطعن الاستغناء عن شقيقتهن الكبرى . . مصر . .

ولقـد ذكرت . . مصر . . وشـقيقاتها لأقـول عن أمتنا العـربية ان بعضها لا يستغنى عن بعض ولو حالت دون ذلك ـ بعض الوقت ـ كيانات ساء فهمها . . هنا أو هناك . . قديما أو حـديثا . فـان الامـة العـربية الكريمة كرمها الله فى قرآنه كما كرمهـا بمـا تنزل عليهـا وفى أرضـها المباركة ، من الكتب السماوية المقدسة بدياناتها الثلاث .

فالمسئوليات بين الدول العربية مشـتركة ، واعتمـاد كل منهـا على الأخرى حقيقة لا سبيل الى نكرانها . . مصر بخبراتها وكفـاءة أبنائهـا وبمسئوليتها التاريخية فى المنطقة تبعث بأبنائها ليعملوا فى كل مجـالات التطور الحضارى والعمرانى والعملى لخير الأمـة العـربية ، ويعلمـوا أبناءها بما تعلموه هم قبلهم من علم وخبرة وفن وكفاية الخ . .

وقد مارست هذه التجربة بنفسى ، حين كنت أفعـل ذلك ، فـأضع كل خبرتى وامكانياتى الفنية التى لم يستوعبوها بعـد ، فى كل بلد عربى . . لكى تحقق لهم التنمية والتطور المطلوب فى هذه المجالات وهـم يقـومون بدورهم بالتمويل اللازم بما تحققه لهم الثروات البترولية ، وبمـا تزودوا به من طموحات التطور والتطلع الى مستقبل أفضـل . . وبذلك يتحقـق التكامل فى كل الميادين العملية والعلمية والفنية والثقـافية والسـياسية والاقتصادية والاجتمـاعية حسـبما يتطلبه التكامـل المنشـود ، ونوع التعاون المطلوب فى هذا البلد او ذاك من البلاد العربية .

رايى فى العلاقات المصرية العربية

وكان أن قلت هذا الراى منذ أواخر الخمسينات وأوائل السـتينات وسيظل رأيى ان مصر لا يمـكن أن تسـتغنى عن الدول العـربية ، وأن الدول العـربية لا يمـكن أن تسـتغنى عن مصر ، ولابد أن يكون هناك اعتماد متبادل .

فعلى مصر بكل ما لها من تاريخ ، وما توافر لأبنائها من خبرة ، أن تبعث بأبنائها الى كل دولة عربية ، تريد ما لديهم من إمكانيات بشرية . . أيا كان نوع تلك الامكانيات .

وكان أن قلت إن هناك فائدة متبادلة .

تستفيد الدول العربية من المصريين فى إحداث تنميتها ، وتستثمر الثروة البشرية المصرية جهودها هناك .

ولم تكن تجربتى فى البلاد العربية الا تجسيدا لهذه الفكرة . . ذهبت اليهم بعملى وخبرتى وإمكانياتى الفنية ، التى لا تتوافر لديهم ، وكان أن قدموا هم ما يقدرون عليه وهو المال .

وكان أن حدث التكامل المطلوب فى المشروع ، فتعانقت الخبرة المصرية مع المال العربى ، فحدث التطور والتحديث ، الذى شهدته المنطقة .

وتساءلت منذ الخمسينات ، ووضعت تساؤلى بين يدى نظام الحكم السابق فى مصر .

لماذا لا يكون ذلك التكامل فى كل المجالات ، كل بحسب طبيعته ، وطبيعة التعاون المطلوب منه حسب تعدد المجالات ؟

قلت ذلك الرأى فى الوقت الذى كانت بارقة أمل البترول ، قد بدت هناك ، وراحت تتكاثر الملايين بين أيدى الأخوة العرب .

وتساءلت أيضا :

لم لا تستغل تلك الملايين بالتعاون مع مصر ، بدلا من تكسسها فى بنوك أوروبا ؟

ولماذا لا تأتى لتستثمر فى مصر لصالح أصحابها ولصالح مصر معهم كل بنسبة ما يستطيع من الامكانيات اللازمة لكل مشروع ؟

كان يجب أن يتيح لها الفرصة مع شريك مصرى ، لأن تقام بها المشروعات فى مختلف المجالات ، التى نريدها جميعا كعرب ، سواء أكانت تلك المشروعات فى مصر أم فى البلد مصدر التمويل .

ويوجد القانون الذى يستخدم لتنظيم تلك العلاقة المتبادلة بين الطرفين . .

كان يمكن أن يعود عائد ما يقـام مـن مشروعات ، على جميع أبناء شعوب الأمة العربية فى كل مكان .

وكان أن تساءلت :

لماذا لا تسعى الدول العربية الى أن تجعـل مـن بلدانهـا أسـواقاً لمنتجات هى صاحبتها ، بدلا من كونها سوقا لمنتجات غيرها ؟

كل ذلك يفتح الفرص أمام القوى العاملة لتجد فرص عمل مناسـبة ، وذات عائد عادل .. سواء هنا أو هناك .

وتساءلت :

لماذا لا نعمل على إصدار قانون الضرائب فى مصر يمكن الدولة مـن الحصول على حقها العادل من عائد ما يقام فيها من مشروعات ؟

وكان أن أدار نظام الحكم فى ذلك الوقـت ظهـره لكل تلك الافـكار ، فأصبح حال مصر ، وحال علاقاتها مع أشقائها كما رأيناه جميعا ..

راح النظام المصرى يبدد أموال مصر فى التآمر على الدول العـربية ، بدلا من أن يشجع أموالهم للاستثمار فى مصر ، وكان أن فضـلـت البلاد العربية الابتعاد عن مصر بدلا من أن تقترب منها ..

وكانت الخسارة كبيرة للطرفين .

هرب العرب بأموالهم إلى حيث الان ، تستفيد بها شعوب أخرى غير شعوبهم .

ونظر النظام الحاكم فى مصر الى مستقبل كرسيه ، بدلا من أن يرى بعين نافذة مستقبل أبناء مصر ، وضيع على مصر فرصة بناء نفسـها ، واستصلاح أرضها وإقامة المشروعات المشتركة لخيرها .

وحدث أن تغيرت الصورة بعد ذلك ..

واختلف الوضع ، عندما تولى الرئيس محمد أنور السادات ، فألغى كل الحواجز والسدود التى فرضها النظام الذى سبقه على علاقات مصر بشقيقاتها ، ومهد لعـلاقات عربية تقـوم على أسـاس التكامـل المفيد فيما بين مصر والعرب ، دون أن يتدخل احد فى شئون الآخر ..

وكان أن أعلن سياسة الانفتاح الاقتصـادى وراح يجمـع الشـمل

العربى ..

واستبشرنا جميعا بالخير ..

ولكن سرعان ما انقلب العرب ..

لماذا ؟

لا أعرف ..

انتصرت مصر فى أكتوبر لنفسها، ولأمتها ، وأسعد انتصارها كل العرب ..

وكان على مصر أن تنتصر ايضا فى معركة السلام ..

إنها معركة جديدة مع إسرائيل .. راحت مصر تجنى بها ثمار ما زرعه أولادها ، وهم يقتحمون أصعب مانع مائى واجه جيشا فى التاريخ ..

كان لابد وأن نواجه إسرائيل فى ميدان السياسة كما واجهناها فى ميدان الحرب ..

كانت إسرائيل قد ملات العالم كله تدعى أنها الحمل الضعيف الذى يريد السلام فى غابة عربية مليئة بالوحوش الذين يريدون الحرب ، فكسبت الراى العام العالمى كله الى جانبها ..

وكان لابد أن نواجه إسرائيل فى ذلك الميدان بنفس أساليبها .. حتى نكشف أمرها ونثبت بطلان دعواها ..

وكانت نتيجة التشنج العربى سببا فى أن تزداد دعاوى إسرائيل تأكدا ، وكان على مصر أن تحاصر تلك الدعاوى ، وتقول للعالم كله العكس .. وأن تثبت للعالم ان إسرائيل هى التى تريد الحرب .. أما نحن العرب فنريد السلام .

لم تفرط مصر فى حق ولم تفرط فى أرض .. ولكنها وضعت إسرائيل أمام مسئوليات العدل .

وكان لابد أن نواجهها سياسيا فى كل ميدان ، فكانت مبادرة السلام

التاريخية ، التى هزت العالم كله من اقصاه إلى اقصاه ووجدت صدى لها فى كل قلب وعقل حتى فى إسرائيل نفسها . . انقسموا على أنفسهم . . عندما اذهلهم صدقها . .

ووجدت اسرائيل نفسها لأول مرة فى موقف حرج . . ليس هناك من استطاع أن يضعها فيه قبل الرئيس السادات . . بل إن كل ما كنا نتشدق به جميعا من شعارات جوفاء كان أحد الأسباب التى كانت تساعد إسرائيل على تحقيق أهدافها .

وكانت النتيجة أن خضعت إسرائيل فى ميدان السياسة كما خضعت فى ميدان الحرب .

وكانت وما تزال طلبات مصر واضحة لا تقبل الشك . .

استعادة جميع الأراضى التى احتلت عقب عدوان ١٩٦٧ .

إقامة الدولة الفلسطينية . .

وهنا اتساءل :

هل للعرب مع إسرائيل قضية اخرى غير تلك القضية ؟ وإذا كانت تلك هى القضية فما الجريمة التى ارتكبتها مصر ؟

حاربت مصر . . وكلفتها الحروب أربعين مليار جنيه كاملة ، ومائة الف شهيد من خيرة ابنائها . .

لم تتردد مصر لحظة فى خوض غمار الحلأب عندما كانت هى الطريق الوحيد . .

ولم تتردد فى المواجهة السياسية . . كحل أخير ما دامت المواجهة السياسية قد نجحت فى أن تحقق ما يعفى من إراقة الدماء . .فلماذا نرفض ؟ .

نجحت مصر فى ميدان السياسة كما نجحت فى ميدان الحرب ، وسيتم الجلاء الكامل إن شاء الله عن جميع سيناء بعد شهور . .

ولو كانت سوريا قد دخلت فى عملية السلام لكان للجولان نفس المصير . .

كما أن عملية الحكم الذاتى ، تمهيداً لاعلان الفلسطنيين استقلالهم ، تسير فـى طريق مرسوم .

فماذا على مصر إذن اكثر مما فعلت ؟

حاربت من أجل كل العرب . . فرفعت رءوسهم .

وراحت تواجه إسرائيل فى السياسة . . لتحصل لهم على حقوقهم . .

ولذلك فاننى اعتب على إخـواننا العـرب لمواقفهـم مـن مصر . . كما سبق ولمت النظام الذى كان يحكم مصر على موقفه من العرب . .

فصحح الرئيس السادات ذلك الطريق . فلماذا يعرض عنه الأخـوة العرب ؟

وهل هذا هو الموقف الذى تنتظره مصر منكم بسبب سـياستها التى تحترم بلادكم ؟

إن مصر فى عهد السادات لم تتدخل فى شئون أية بلدة عربية . .

فلماذا تتدخلون أنتم فى شئون مصر ؟

إن واجب مصر تجاه القضية لم ، ولن تتخلى عنه ، وارى أن موقفها سليم وانها تسير فى الطريق الصحيح . . وما نراه على الساحة العـربية لابد أن يتغير . . وسيعود العرب الى صدر مصر الحنون عليهم دائما . .

ترفعت مصر عن أن تطلب من العرب ما هو حق لها فى البترول الذى ارتفعت اسعاره بدماء أبنائها . . وتتحمل فى نفس الوقت تجـاههم فى كل مكان مسئولياتها . .

ويجب على العرب أن يراجعوا مـواقفهم ، وسـيجدون فى قلب مصر متسعا لهم . .

كان وسيظل هذا هو رايى فى العـلاقات المصرية ـ العـربية ، التى يجب أن نقيمها فوق جسور متينة ، مـن الحـب . . والود . . والمصـلحة المشتركة . . التى يتبلور عن طريقها كل ما يجمـع الأمـة العـربية مـن أواصر تجعل منها أسرة واحدة كبيرة ، يجب ألا يسودها إلا كل التفاهم والحب .

المرحلة الثانية

الصراع والتحدى
من أجل البقاء

- ملحمة السد العالى
- المقاولون العرب حلم حياتى
- التأميم أكبر غلطة
- رحم الله نظام الحكم السابق
- الاخوان المسلمون ومندرة خالى

ملحمة السد العالى

وقفت طويلا أمام تجربتى فى السد العالى ، أتأمل أحداثها واسترجع مشاهدها . . وتساءلت كثيراً :

كيف استطعت أن أجتاز تلك المرحلة سالما ؟ ! . .

لقد واجهت هناك أكثر من خصم ، وخضت أكثر من معركة ، على أكثر من جبهة ، وفى وقت واحد . .

وكأن الجميع تحالف ضدى . .

وقفت وحدى أتحدى معتمداً على . . « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » . . واستعنت بالله . . وكان فضل ربى على عظيما .

فى البداية عرضت الأمر على مجلس ادارة الشركة الذى رفض الاقتراح باجماع أعضائه إلا أنا . . وحاولت بعد ذلك معهم ، ونجحت فى إقناعهم . .

وكانت معركة كسب العطاء أول المعارك الضارية التى وقف فيها جميع مقاولى مصر ضدى ، ووقفت فى مواجهتهم شركتى وحدها . . وكسبت العطاء منهم .

وتحدانى نظام الحكم السابق فى مصر ولم يتمكن بفضل الله منى .

وبذل الروس قصارى جهدهم من أجل دفنى بين الأحجار هناك حتى يخلو الجو لهم ، فأنقذنى الله وأنقذت مصر هناك منهم .

وكانت قدرتى على تنظيم العمل وترتيبه هناك ، معركة مثيرة أيضا ، كان فشلى فيها يعنى أن أعود الى حيث أتيت . .

وكان رجالى يقولون فى البداية : لن تستطيع . . !

وقفت كل العوامل هناك ضدى ، حتى الطبيعة عندما ضـحكت جبال الجرانيت سخرية منى وأنا أنظر اليها ، وكأنها أرادت أن تقول لى هـى الأخرى . . من أنت ؟

وكانت لا تعرف . . ماذا ينتظرها . . ؟

وخطوت باسم الله . . متوكلا على الله تحت راية «إن الله يدافـع عن الذين آمنوا » . . لكى أخوض معركة « خير » من أجـل الدفـاع عن ذلك الكيان الكبير الذى حلمت به طفلا . . وسعيت اليه شـابا ، وأصـبح بين يدى عملاقا ، مفتول العضلات . .

وهذا من فضل ربى .

فما هى الأحداث المثيرة لتلك القصة الكبيرة ؟ !

كانت تجاربى السابقة على تجربة السد العالى تدور حـول تحـويل الحلم الى حقيقة . . وكانت تجربتى فى السد العـالى صراعا مـن أجـل الدفاع لأن تبقى تلك الحقيقة ، وتكبر . . لتحكى قصة الانسان .

كان أمرا طبيعيا أن تمتلىء جيوبنا بالمال فى البلاد العـربية ، وكان ما حصلنا عليه ليس « منة » من أحد ، ولكن جنيا لثمار ما قدمنا . . وثمنا لما أعطينا ، وكان المال الذى جمعناه هناك بالنسبة لى مجرد وسـيلة . . لتحقيق غاية كبرى أعطيتها كل حياتى .

وكان العمل يسير فى السعودية على قدم وساق ، وكان تفكيرى وأنا هناك يذهب الى ضرورة أن نعود الى أرض مصر لنبدأ منها المشوار . .

ولكن . . من أين ؟ وكيف ؟

وقفت عند ذلك السؤال . . إلى أن طالعتنى الصحف ذات يوم باعلان يقول : إن وزارة الرى المصرية تطلب مـن المقـاولين المصريين ، تكوين اتحادات كبيرة فيما بينهم لكى يتقدموا من خلالها فى عطاء تنفيذ السـد العالى ، ووجدت فى ذلك الاعلان فرصة مناقشة الموضـوع مـع زمـلائى القائمين على أمر الشركة معى . .

وامرهم شورى بينهم

وأنكر أننا عقدنا اجتماعا لذلك الغرض ، وكان الاجتماع فى إحدى ليالى شتاء عام ١٩٦٠ . . وأغلق الجميع الباب فى وجه الفكرة بالضبة والمفتاح .

وعدت أكثر من مرة لمناقشة الموضوع معهم ، فرادى ومجتمعين وشرحت لهم أن عملية السد العالى عملية كبيرة جدا ، ومتعددة الأبعاد السياسية ، والاقتصادية ، وأن مصر دخلت فى تحديات كبيرة بخصوصها ، وخاضت حرب ١٩٥٦ بسببها ، وأن مصر تعلق آمالا كبيرة على المشروع الذى شد كل أنظار الدنيا إليه .

وكان أن عددت لهم أيضا الفوائد التى تعود على شركتنا ، عندما يرتبط اسمها باسمه وتقوم بتنفيذ حجم العمل الكبير فيه ، والذى وجدت فيه فرصة تسمح لشركتنا بأن يتسع حجم نشاطها ودائرة أعمالها ، وخبرتها ، بما يؤكد قدرتها على تنفيذ المشروعات الكبيرة . . وقلت لهم : إن كل الأضواء المسلطة على المشروع سوف ترتبط بنا . . وسيتحدث الجميع عن عملنا .

وقالوا لى : إنهم لا يرفضون المشروع فى حد ذاته ، ولكنهم يرفضون التعاون مع النظام الذى يحكم مصر ، على اعتبار أنه نظام لا أمان له ، ولا أمن معه . .

واعتبرت أن موافقتهم على رأيى من حيث المبدأ انتصار كبير ، ويبقى فقط أن أطمئنهم مما يخيفهم ، لذلك سألتهم :

كم من الوقت يستغرق إنشاء المشروع ؟ !

أجابوا : عشر سنوات .

وعلقت على إجابتهم بأن رويت لهم قصة طريفة ، من القصص التى اشتهر بها جحا .

كانت طريفة ، ولكنها مقصودة . . !

وكان أن قلت لهم :

كان يوجد فى غابر الزمان سلطان ، قرر أن يزوج ابنته لأى انسان ، يستطيع أن يعلم الحمار الكلام . .

واعتقد الجميع أن السلطان أراد تعجيزهم ، حتى لا يتقدم أحد للزواج من ابنته ،وأحجموا عن الذهاب إلى السلطان لطلب يد ابنته . . إلا جحا الذى ذهب إليه وعرض عليه قدرته على أن يعلم الحمار الكلام . . واشترط على السلطان أن يعطيه خمسين ألف دينار وأن يمهله عشر سنوات ، فوافق السلطان . .

واخذ جحا المال والحمار الذى زعم أن يعلمه الكلام . .

واندهش الناس مما فعل وسألوه : كيف تستطيع ذلك ياجحا ؟

فقال لهم إن المهلة التى طلبتها لتعليم الحمار كافية لأن يموت خلالها أحدنا أنا أو الحمار أو السلطان . .

وقبل أن أعلق بكلمة واحدة انفجر الجميع بالضحك . . وامسكت أنا بطرف الخيط .

وقلت : إن دوام الحال من المحال ، فمن يستطيع أن يضمن أو يتنبأ بما يمكن أن يحدث خلال عشر سنوات .

وحسمت تلك الحكاية المناقشة ، وافق الجميع بشرط أن أتحمل أنا كل ما يمكن أن يحدث من تبعات ووافقت .

وكان أن أثبتت الأيام صحة وجهة نظرهم ، عندما تعرضنا لكل ماقاسيناه من آلام . . وأثبتت أيضا الأيام صحة ما توقعته . . فان دوام الحال من المحال .

وأريد أن أقول لأولادى الشباب بهذه المناسبة ، لا تحسبوا كثيرا . . واعتمدوا على الله أكثر وابدأوا فلا احد يعرف ما تخفيه الأيام . .

وبدأنا بعد ذلك الاستعداد لكى نتقدم فى العطاء ، ولكن كان الاعلان يطلب من المقاولين تكوين اتحادات فيما بينهم ، وكنت أرى ضرورة أن نتقدم نحن منفردين دون مشاركة من احد .

وافقنى شركائى . . ولكنهم تساءلوا :

هل نستطيع وحدنا أن نتصدى لمثل ذلك العمل الضخم ؟

وكيف نأمن ما يمكن أن نتعـرض له مـن مخـاطر فى حـــالة عدم استطاعتنا إنجازه ؟ . سواء كانت مخـــاطر سـياسية ، أو اقتصـــادية ، او مالية ، بالاضافة إلى سمعة شركتنا الصاعدة فى مجال المقاولات ؟

ولم أجد ما أقوله لهم إلا أن أطلب منهم أن يقدموا مشيئة الله أولا .

وتخلصت من الشرط

وكان لابد من البحث عن حل للتخلص من ذلك الشرط .

وكان أن اتفقت مع عدد مـن الشركات البولندية على أن تشـاركنى مشاركة صورية لكى يكون العطاء سليماً من حيث الشكل .

وأردت من مشاركة البولنديين بالذات ، خداع الروس حتى أستطيع تحييدهم من الوقـوف ضـدى ، لأن بولندا مـن الدول التى تدور فى فلك الكتلة الشيوعية . .

وهنا تبرز قيمة خبرة أى رجل وممارسته فى اختيار المدخل الصحيح السليم الذى يساعده على أن يعرف كيف يستطيع أن يحقـق أهـدافه ، ويختار وسائله من أجل الوصول اليها .

وكان بعـد ذلك أن بعثت برسـالة الى وزير الرى ، أعرب فيهـا عن رغبة شركتى فى أن تتقدم فى عطاء السد العالى ، متضامنة مع مجمـوعة من الشركات البولندية التى ستدخل شريكا معى فى العملية . .

وتم قبول العطاء ، من حيث الشكل .

وتخطيت أول عقبة . .

وبدأت بعد ذلك اكبر معركة .

ضد الأباطرة

كان المتنافسون على كسب العطاء طرفين ، جميع مقـاولى مصر فى طرف وشركة عثمان أحمد عثمان فى طرف أخر .

كون جميع مقاولى مصر اتحادا واحدا فيمـا بينهـم ، بدلا مـن أن

يكونوا مجموعة من الاتحادات كما طلب الاعلان ، وتقدموا للعطاء متضامنين ، وليسوا متنافسين .

وكان هدفهم من ذلك أن يفرضوا على الدولة السعر الذى يريدونه ، على اعتبار أنه ليس هناك من سينافسهم .

ولكنهم عرفوا بعد ذلك أن شركتنا ستتقدم فى العطاء ، لذلك أرسلوا لى يقترحون على أن أدخل شريكا معهم ، حتى لا نتنافس ، ولكى يستطيع كل منا أن يحقق عائدا معقولا بدلا من أن يتسبب فى ضياع فرصة الآخر .

واتصلوا بى فى البداية عن طريق محمد ابن العبد باشا ، ودار بينى وبينه حوار طويل . . هددنى فيه مرة ورغبنى مرة أخرى . . ونصحنى بأن أقبل التعاون معهم حتى لا تتحول العملية الى مقبرة لطموحى كما قال لى .

وراح يغرينى قائلا : إننا جميعا اتفقنا على أن ندخل متضامنين ، وسنتقدم بعطاء « مستريح » ، يستطيع أن يستفيد منه كل منا بما فيه الكفاية ، ولا تركب يا عثمان راسك . .

وصممت على حد تعبيره . . على أن أركب راسى .

وتركنى وانصرف ، بعد أن ترك لى الباب مفتوحا لأعيد النظر فى تفكيرى .

واتصل بى بعدها عبود باشا ، وطلب منى أن « أسمع الكلام » ، وراح يحذرنى من المغامرة المجنونة التى قد تنهى حياتى العملية . . ولكن دون جدوى .

وفشلت جميع محاولاتهم . . وتقدم كل منا بعطائه منفردا . . جميع مقاولى مصر فى جانب . . وشركة عثمان احمد عثمان فى جانب .

المفاجأة المذهلة

وكان أن دعانا بعد ذلك المهندس موسى عرفه « رحمه الله » فى ١٢ يناير سنة ١٩٦١ إلى جلسة فتح المظاريف وكان يشغل وقتها منصب

وزير الرى والسد العالى .

وفى تلك الجلسة . . كانت المفاجأة التى زلزلت كل كيان أباطرة المقاولات فى مصر فى ذلك الوقت ، وأفقدتهم جميعا كل وعيهم ، حتى إن نظام الحكم السابق أصبح فيما بعد . . فى حيرة من أمره .

فماذا كانت المفاجأة ؟

قام المهندس موسى عرفه « رحمه الله » بفتح مظروفى فوجد عطائى خمسة عشر مليون جنيه . .

وعندما فتح مظروفهم وجد أن عطاءهم سبعة وعشرين مليون جنيه . .

وكان الفارق شاسعا .

وكان ذلك يعنى . . إما أن عثمان أحمد عثمان رجل لا يعرف ماذا يفعل ، وإما أن اتحاد جميع مقاولى مصر أراد أن يسرق الدولة فى مبلغ اثنى عشر مليون جنيه دفعة واحدة . .

وكان الموقف مثيرا للدهشة والانزعاج . . لأن معناه أن أحدنا مشكوك فى أمره ؟

حاول مقاولو مصر تغطية موقفهم بضحكات هستيرية ، ظاهرها السخرية منى ، وباطنها شر البلية التى أصابتهم .

أرادوا أن يحتموا فى ضحكاتهم ، من المفاجأة التى أذهلتهم .

وراحوا يضعوننى بقهقهتهم فى صورة المغامر المجهول ، والمغمور الذى لا يعرف أن يحسب لذلك الموقف الكبير حساباته .

وكانت ترن فى آذانى ضحكاتهم . . ولكنها لم تحجب عنى رؤية الانتصار الرائع الذى حققته شركتى ضدهم . .

كنت أعرف ماذا أفعل ؟

وكانت الأرض صلبة تحت قدمى ، ولست مغامرا جئت لألق ما جمعت من مال ، وما بنيته من كيان ، فى عرض نهر النيل ليجرفه التيار فى طريقه ، بدلا من أن أنجح فى تحويل مجراه ، ومجرى تاريخ مصر كلها

معه فى نلك الوقت . .

كنت قد بنيت حساباتى على أسس سليمة ، ولم أضع رقما واحدا فى عطائى قبل أن أكون قد تأكدت من سلامة كل مـــا اتخـــذته بشـــأنه مـــن اجراءات تثبت صحته .

وكان أن قمت بدراسة ميدانية واسعة على الطبيعة ، قبل أن أتقـــدم بالعطاء ، وأعددت ثلاث دراسات اقتصادية مقارنة . . واجـــريت مســـحا شاملا للموقف ، والموقع من جميع الجوانب .

وكان بسبب نلك أن تحطمت ضحكاتهم الســـاخرة . . على صـــخرة يقينى قبل أن تصلنى ، ولكن المهندس مـــوسى عرفـــه « رحمـــه الله » كان حائرا بسبب التفاوت الكبير بين موقفى وموقفهم . . ولم يكن يعرف ماذا يفعل .

كان حائرا . . أى العطاءين يصدق ؟

لم يستطيع الرجل أن يحسم الموقف ، وفضل أن نسمح له بفســـحة من الوقت لكى يعرض الموضوع على النظام الحاكم .

الاحتياط واجب

وكان لابد أن أحتاط لنفسى قبل أن يرفع الجلسة ، لأن الأباطـــرة لن يسلموا بسهولة وسيبذلون محـــاولات مســـتميتة ، وكان لابد أن أقـــطع عليهم خط الرجعـــة . . ولذلك رأيت أن أقـــدم دفـــاعى قبل أن تصـــيبنى اتهاماتهم . .

رحت أشرح الموقف للمهندس موسى عرفه « رحمـــه الله » مـــن جميع جوانبه . وكان أن قلت له :

إن الفارق بين العطاءين . . مع أنه كبير جدا ، إلا إنه منطقى جدا .

وكان قولى مثار دهشة الرجل الذى سألنى : كيف ؟

قلت له : إن جميع مقاولى مصر اتفقوا على تحـــديد نســـبة ربح لكل منهم ، كما لو كان قد تقدم للعملية منفردا . . إنهم أحد عشر مقاولا ، ولا يقبل أى منهم أن يحقق مكسبا يقل عن المليون جنيه . . لذلك فإن المكسب

الذى يمكن أن يحصلوا عليه مجتمعين ليس أقل مـن أحـد عشر مليون جنيه . . لذلك إذا طرحت هذا المبلغ من العطاء الذى تقدموا به ، فستجد أن الرقم الحقيقى لعطائهم يجب ألا يتجـاوز سـتة عشر مليون جينه . . واذا قارنت عطائى بهذا الرقم فانك ستجد أن الفارق معقول . .

قال الرجل : وكيف استطيع اثبات ذلك الكلام ؟

قلت : بالحقيقة . . والأرقام ياسيادة الوزير .

ولم أنتظر تعليقه . .

والقيت قنبلة أخرست جميع الألسنة ، وحسمت كل مناقشـة ، فـأنا رجل لا أجيد الحوار بالكلمات ، ولكننى أجيد الحوار بالأرقـام ، لأنهـا أقوى حجج المنطق على الاطلاق . .

وكانت المفاجأة .

انا متنازل عن خطاب بالعـطاء يتسـبب تنازلى عنه فى أن ينخفض عطائى بمقدار نصف مليون جنيه . .

وسألت :

هل تحتاج إلى دليل آخر يطمـئنك على سـلامة مـوقفى ياسـيادة الوزير ؟

وسيطر الوجوم الكامل على كل من كانوا بداخل القاعة . . ولم يجـد أحد ما يقوله إلا موسى عرفه الذى نطق بكلمة : ترفع الجلسة .

كان أمـرا طبيعيا أن أرد اعتبارى فى نفس الجلسـة . . وأن أرد ضحكاتهم الشاردة بسهام هادفة .

لم يكف أباطرة المقاولات فى مصر ما حدث فى الجلسة ، ولم يقنعهم ، فراحوا يطلقون قنابل الدخـان حـولى فى كل مـكان ، وأرادوا تشـكيك الآخرين فى ، وتشكيكى فى نفسى . .

ولكننى كنت متأكدا من كل تصرفاتى . . كنت أقف على أرض أصلب من جسم السد الذى أقمته فيما بعد . .

كنت قد حسبت حسابى لكل ما توجس منه المرحوم المهندس مـوسى

عرفة .

كنت أعرف كم يحتل هذا المشروع من مساحة على ارض أحلام النظام السياسى فى مصر .

كشف نظام الحكم السابق عنها عندما تمنى ذات مرة أن يطول به العمر ليعلن الانتهاء من إنشاء السد العالى .

وكان لابد ان ادرس بتأن شديد ، وأن أعيد النظر فى كل شىء ، قبل أن أخطو باسم الله على ذلك العمل الكبير . . حتى لا يجرف التيار شركتنا فى طريقه ، والا يحولها إلى ذرات تذوب فى مياه النهر ، ينتهى بها الأمر الى البحر المتوسط الذى تتسع أعماقه لكل شىء يختفى فيه وإلى الأبد .

كان أن ذهبت إلى موقع العمل بنفسى ، لأرى على الطبيعة كل شىء ، واستفدت من تجربة الروس هناك . . لأنهم كانوا قد بدأوا العمل فى المشروع منذ أكثر من عام . . فرأيت ودرست ماذا يفعلون ؟ وكيف يعملون ؟ ورحت أرصد كل حركاتهم ، وتحركاتهم ، وأجمع معلومات صادقة عن كل شىء ، حتى أضع عطائى على أساس من الحساب السليم .

وكان موسى عرفه قد عرض الأمر على نظام الحكم السابق بعد الجلسة العاصفة التى لم يعرف فيها ماذا يفعل ، وأراد نظام الحكم السابق أن يتأكد عن طريق مستشاره الهندسى فى ذلك الوقت الذى استدعانى بتكليف منه ، وكان يعمل بمكتبه فى ذلك الوقت ، وشغل منصب وزير للكهرباء فيما بعد .

وسألنى :

هل أنت متأكد من صحة وسلامة عطائك ؟ وكانت طريقة السؤال تعبر عن أن الرجل لا يصدق . . وكأنه أراد أن يسألنى بطريقة غير مباشرة : هل أنت متأكد من صحة قواك العقلية ؟ .

فوضعته فى حيرة أكبر .

كان أن قلت له سبق أن تقدمت بخطاب ضمان من بين ما تقدمت به

لكم من خطابات فى العطاء ، وأن قيمــة تلك الخـطاب مــائة ألف جنيه ، بالاضافة إلى خطاب الضمان الأساسى الذى تبلغ قيمته مليونا ونصـف مليون جنيه ، فمن حقكم أن تسحبوا هذه المبالغ منى إن لم اسـتطع أن انجزه وعلى أن أتحمل نتيجة ما فعلت .

وعاد المستشار الهندسى لنظام الحكم السـابق ليبلغ نظـام الحـكم السابق بما دار بينى وبينه من حديث . .

ودخلت معركة أخرى

ويبدو أن نظام الحكم السـابق اقتنع بسـلامة مـوقفى ، لأنهـم لم يناقشوا معى تلك الموضوع مرة أخرى وأسـند لنا العـطاء فى ٨ فبراير سنة ١٩٦١ . . واعتبرت أن المعركة انتهت عند تلك الحد ، وسنتفرغ بعد تلك للعمل فى المشروع . . ولكن كان له رأى آخر .

كان يريد أن تشـترك معـى فى تنفيذ العملية شركة « قـــطاع عام » واستدعانى المستشار الهندسى لنظام الحكم السابق مرة أخرى ، ليبلغنى بتلك الرغبة .

ولم أكن أعرف وقتها ماذا تعنى كلمة « قطاع عام » ؟

فسألت المستشار الهندسى لنظام الحكم السابق عن المقصود بكلمــة « قطاع عام » وشرح لى الرجل ، وفهمـت منه أنه يقصـد بهـا الشركات المملوكة للدولة ملكية كاملة ، أو الشركات التى تمتلك الدولة ٣٠٪ مـــن رأسمالها على الأقل ، فى تلك الوقت .

وكان أن سألت الرجل :

واى شركة تلك التى تريدون مشاركتها لى ؟

قال : شركة مصر للأسمنت المسلح .

وكان يمتلك تلك الشركة رجل أعمــال سـويسرى ، وقـامت الدولة بتمصيرها سنة ١٩٥٦ . . واعتذرت عن الاستجابة لتلك الطلب ، وقلت له إن تلك الشركة كانت متضامنة مع باقى المقاولين فى عطائهم ، فـكيف لى أن أتعاون معها وهى التى سمحت لنفسها بأن تدخل مـع الآخـرين فى

اتحادهم ، وهى تعرف ماذا كانوا يقصدون من وراء عطائهم ؟

وكان أن أصر الرجل على موقفه .

فقلت له إننى لا استطيع ان أعمل فى ظل نلك الجو ، فأطلب إعفائى من العملية بالكامل . . ونبهت إلى انه ليس فى مقدور تلك الشركة ، أو المقاولين الذين تضامنت معهم إنجاز نلك العمل الضخم .

وانتهت المقابلة . . ليستدعينى فى اليوم التالى وليحدثنى بطريقة تكشف عن انياب الغدر التى ارادوا بها تهديدى لكى أقبل .

ولم أدخل معه فى تلك المرة فى مناقشة ، لأننى لست من هواة الكلام . وامسكت ورقة وقلما وكتبت :

انا عثمان احمد عثمان « رئيس مجلس إدارة الشركة الهندسية للصناعات والمقاولات العمومية » امتلك ٧٥٪ من أسهمها .

اقر بأننى متنازل للحكومة عن ٣٠٪ من أسهم الشركة . وكان المستشار الهندسى لنظام الحكم السابق فى حالة من الذهول ، وهو يرانى أكتب تلك الكلمات .

وكان أن سألنى : ماذا تكتب ؟

فأوضحت له أننى أفضل ، أن تصبح شركتى إحدى شركات القطاع العام عن أن يشاركنى أحد فى تنفيذ عملية السد العالى .

وطلب منى أن أترك له تلك الورقة ، ووعدنى بأنه سوف يتصرف .

وعاد مرة أخرى يطلب منى أن أرفع النسبة إلى ٥٠٪ بدلا من ٣٠٪ كما طلب منه .

وكان أن فعلت ما طلبه .

وتركت مكتبه ، وانصرفت لأنتظر الرد .

استدعانى ليبلغنى بأن نظام الحكم السابق ، لا يريد نسبة من شركتنا ، ولكنه يريد أن أقبل شركة مصر للأسمنت المسلح معى .

ورفضت ان أقبل المطلوب منى ، ووعدته بأننى سأعيد التفكير مرة أخرى .

وعدت إلى السعودية

ولم أعد التفكير . . ولكنني عدت إلى السعودية مـرة أخـرى ، حيث كانت توجد أعمال شركتي .

وفوجئت وأنا هناك بسـيل مـن البرقيات ، والمكالمات التليفـونية ، يستدعيني للحضور إلى القاهرة . .

ولم أهتم إلا عندما اتصل بي شقيقي المهندس حسين عثمان ، ليؤكد على ضرورة أن أعود إلى القاهرة . . وحددت معـه مـوعدا لوصـولي ، وعدت كما طلب مني . .

وعند وصولي ، وجدت جمعا كبيرا في استقبالي بالمطار ، مع أن ذلك المشهد لم اتعود عليه أبدا . . لأن المسـتقبل الوحيد والمودع الوحيد لي في كل سفرياتي هو سائق سيارتي . .

اندهشت ، وفزعت ، مما رأيت . . فهمت أنه لا بد أن يكون في الأمـر شيء . .

وعرفت أنني استدعيت ، في تلك المرة ليس للتفاهم معـي ، ولكن لأن أقبل ما أراده نظام الحكم السابق ، رغما عن إرادتي .

وطلبوا مني أن أتوجه رأسا من المطار إلى مكتب موسى عرفـه الذي وجدته هناك في انتظاري ، وأن أقبل كل ما يقوله لي بلا أدنى مناقشة . .

هكذا قال لي شقيقي ، وشركائي :

وعندما وصلت إلى مكتب موسى عرفه ، وجدت كل شيء معدا ولا يبقى إلا توقيعي .

وطال الأخذ والرد بيني وبين موسى عرفه ، وطلبت منه في النهاية . .

منحي مهلة لمدة يومين ، لكي أعيد التفكير مرة أخرى ثم نلتقي . .

وكان أن وافق الرجل ، لكن بعـد مـا وصـلت إلى مـكتبي بالشركة فوجئت بمدير مكتبه يطلب مقابلتي . .

وكان موسى عرفه قد اتصـل بنظـام الحـكم السـابق ، وشرح له ما حدث ، ولكن نظام الحكم السابق اصر على أن ينتهي كل شيء في نفس

الوقت . . لذلك جاءنى مدير مكتب موسى عرفه ومعه الأوراق المطلوب التوقيع عليها . وكان ذلك يوم ١١ مارس سنة ١٩٦١ . .

وكان أن وقعت ، وقبلت شركة مصر للأسمنت المسلح شريكاً لى بنسبة ٥٠٪ .

وكانت تلك المرة أول مرة أجبر فيها فى حياتى على قبول امر لا اقبله .

قبلت تفاديا للعاصفة فقط .

هكذا استقبل نظام الحكم شركة عثمان احمد عثمان ، التى جاءت لتنفذ المشروع الذى جعل منه حلم حياته . . استقبلها فى مشهد جعل عثمان احمد عثمان يضمه منذ اللحظة الأولى إلى العوامل الأخرى التى كانت تعمل ضده فى السد العالى .

كان ينبغى أن يقف معى ، يشد من ساعدى . . ولكن هكذا هداه تفكيره . . ليس معى ولكن مع مصر كلها ، فى كل ما أقدم عليه من اعمال ، تحولت الى أنقاض تستحوذ على الكثير من وقتنا الآن ، لكى نجترفها بعيدا عن الطريق ، حتى نستطيع أن نقيم البناء الجديد مع السادات على اساس سليم .

مات مجلس الادارة

المهم . . بدأت العمل ومعى شركة مصر للأسمنت المسلح ، وكان أن اتفقنا على تكوين مجلس إدارة مشترك ، يتكون من ثمانية مهندسين ، وفضلت أن يتولى رئاسة مجلس إدارة العملية رئيس مجلس إدارة مصر للأسمنت المسفح الذى كان أستاذى ، عندما كنت طالبا فى كلية لهندسة تكريما منى له .

ومات مجلس الادارة الجديد قبل أن يولد . .

كان أن اتفقنا على أن يتم توقيع الشيكات الخاصة بعملية السد العالى من رئيسى مجلس إدارة الشركتين .

كان أمر التوقيع على الشيكات بالنسبة لى أمرا مألوفا . . تعودت عليه ، وأقوم بمزاولته بشكل عادى جداً ، لذلك كنت أقوم فورا بالتوقيع

على كل شيك يعرض علي .

وكان أن رفض رئيس شركة مصر للأسمنت المسلح التوقيع على أية شيكات ، وكان يحتجزها فى مكتبه ، إلى أن تراكمت عنده شيكات ، يبلغ مجموع المبالغ التى تتضمنها ربع مليون جنيه . .

وكان الموقف لا يحتمل الانتظار ، لأن أعمال المقاولات تحتاج إلى مرونة كبيرة . .

وكان رئيس شركة مصر للأسمنت المسلح ، موظفا حكوميا كان لابد له أن يرجع الى اللوائح والقوانين فى كل صغيرة وكبيرة .

ولكن العمل لا ينتظر ، واصبحت المسألة فى حاجة إلى حسم . .

وكان الموقف قد وصل إلى حد كاد يهدد العمل بالتوقف ، فذهبت اليه لأعرف منه سبب تراكم الشيكات عنده ، دون أن يقوم بتوقيعها .

وجدت الرجل مترددا ، خائفا ، مرتجفا ، وصارحنى بأنه لأول مرة يجد نفسه أمام شيكات تتداول أرقاما بعشرات ، ومئات الآلاف . ولم يسبق له أن يتعامل مع مثل ذلك الموقف من قبل . .

وسألته : وما العمل الآن ؟

واجابنى بضرورة أن أبحث عن حل . .

وكان أن سألته : هل تثق فى ؟

فقال : ثقة كاملة .

وسألته : هل تقبل ان اتحمل انا جميع المسئوليات والتبعات وحدى دونما أية مسئولية عليك ، فانفرجت أسارير الرجل ، وكاد يطير من الفرحة وهو يقول بلهفة : أنا موافق .

واستدعينا بعدها مجلس الادارة لعقد اجتماع خاص لمناقشة ذلك الأمر ، ولاعلان ما اتفقت عليه مع رئيس مجلس إدارة شركة مصر للأسمنت المسلح . ووافق مجلس الادارة ، وبدأنا العمل بلا قيود ، أو عوائق تحد من قوة الدفع اللازمة لانجاز العمل .

وبدأت المعركة الحقيقية من أجل بناء أضخم سد .

وكان أن بدأت أنا وستة مهندسين من شركتي ، وقمنا بنصب خيمة ، وأحضرنا « زير » لكي نشرب منه .

وتخلصت من شركة مصر للأسمنت المسلح

توالى بعد ذلك ، توافد القوى الضاربة « للمقاولون العرب » . . مهندسين وفنيين ، وملاحظين ، وعمال ، وسائقين ، وتوسعنا فى عدد الخيام المطلوبة . . وأحضرنا عدداً كبيرا من « الزيار » ، لكى يشرب من مائها الرجال . .

وكان أن أمضينا سنة كاملة من العمل الشاق المضنى .

وتسببت ضخامة إنتاجنا فى أن ينزعج الروس .

وكان أن بدأت قصة صراع جديدة ، ومعركة طويلة مريرة معهم . . وضعت أنفهم بعدها فى التراب . .

وكانت أول معركة لى معهم . . حاولوا الالتفاف فيها من حولى دون أن يواجهونى مباشرة . . أرادوا التخلص منى فكانت نتيجة مؤامرتهم أننى تخلصت من شركة مصر للأسمنت المسلح . .

راحوا يدسون لى عند نظام الحكم السابق الذى كلف المشير عبد الحكيم عامر . . بأن يجمع التحريات الحقيقية عن سير العمل فى موقع السد العالى .

وكان أن أرسل العديد من رجال المخابرات لاستيضاح الموقف سراً دون علم منى .

وأنكر أن تقاريرهم كانت أمينة جداً ولم تعبر إلا عن الحقيقة وحدها .

واستدعانى المشير

واستدعانى المشير عبد الحكيم عامر بعد ذلك .

ليسألنى عن انتظام العمل ، والمتاعب التى تعترض التنفيذ .

ووجدت هنا الفرصة لكى أتخلص من شركة مصر للأسمنت المسلح ،

التى فرضت على .

وكان أن قلت له : ليست لى متاعب إلا شركة مصر للأسمنت إنها فرضت على شريكا ، دون أن يكون لها أدنى دور فى العمل ، وليس لها أدنى وجود إلا على الورق فقط .

وسألنى عما إذا كان يوجد أى من العاملين فى تلك الشركة معى فى موقع العمل :

وكان أن قلت له : ابعث بمن تشاء ليتأكد من ذلك ، ويعود لينقل لك صورة الموقف هناك . . ليس لهم معى اى وجود مؤقت أو مستديم ، اللهم إلا رئيس مجلس إدارتها يحضر فى المناسبات ليكون فى استقبال كبار المدعوين .

وانتهت مقابلتى مع المشير عبد الحكيم عامر الذى طلب بعد ذلك من المهندس على السيد أن يذهب ليتحقق من الموقف . . وكان يشغل منصب مدير الأشغال العسكرية فى ذلك الوقت ، وتولى منصب وزير الاسكان فيما بعد . .

ذهب المهندس على السيد دون علمى ، واستخدم جميع وسائله ، واساليبه للتأكد من صحة ما قلته للمشير .

وكان أن ثبت له أن جميع العاملين من ابناء شركة عثمان أحمد عثمان ، إلا مهندسا واحداً ، هو المهندس عبد المنعم عطية ، وتولى فيما بعد منصب رئيس مجلس إدارة الشركة السعودية المصرية .

وسأله المهندس على السيد عما إذا كان يوجد وحده أم يوجد معه بعض من زملائه . فأجابه بأنه وحده . .

حاول المهندس على السيد أن يعرف منه سبب تواجده ، قال المهندس إننى لست موجوداً هنا بصفتى ممثلا لشركة مصر للأسمنت المسلح ، ولكن راقنى نظام العمل المنتظم المنتج الذى تمارسه شركة عثمان أحمد عثمان ، ففضلت ان أبقى معها بصفتى الشخصية .

وكان أن عاد المهندس على السيد إلى المشير عبد الحكيم عامر ، بما جمعه من معلومات ، كانت هى بالضبط تلك التى سبق أن

أبلغتها له .

وتأكد المشير من سلامة موقفى ، وأصدر تعليماته بأن ترفع شركة مصر للأسمنت المسلح يدها تماما من العمل فى المشروع ، وأن تلغى كل علاقة لها بالعمل رسميا وفعليا .

وحسمت معركة شركة مصر للأسمنت المسلح وتخلصت من مسمار « جحا » الذى أراد أن يضعه النظام الحاكم السابق فى قلب موقع العمل . . وبدأت شركتى تواصل تنفيذ العمل وحدها لتصنع أروع ملحمة فى تاريخها . .

المعركة العلنية
مع الروس

وكأنه قدر لى أن أنتهى من معركة ، لأجد فى انتظارى معركة أخرى .

وعندما فشل الروس فى الدس لى ، راحوا يواجهوننى بشكل مباشر .

وكانت معركتى فى تلك المرة أكثر ضراوة . فماذا حدث ؟

كان الروس قد أوهموا القيادة السياسية لمصر فى ذلك الوقت ، أنهم قادرون على إنجاز مشروع السد العالى ، وكانوا قد بدأوا العمل فى الموقع قبل أن تذهب اليه شركتى بعام كامل . .

كان أن وصل حجم إنتاجهم فى كل الفترة إلى ١٠٠ متر مكعب من الحفر السطحى ، دون أن يغوصوا فى الأعماق التى وصلنا نحن إليها على بعد مائة وأربعين متراً تحت سطح الأرض ، وفى قلب الجبل .

وكان أن اتضح لى مع أول رؤية للمشهد العام لتواجدهم هناك ، أنه لا يهمهم الانتهاء من العمل فى السد العالى ، بل يتمنون لو أن العمل فيه امتد إلى ما شاء الله ، فكلما طال الوقت كانت فرصتهم أكبر فى تكوين الخلايا الشيوعية . . وبث أفكارهم المسمومة فى عقول الشباب .

أرادوا ذلك لكى ينجحوا فى تحقيق أقصى إفساد سياسى ممكن .

وكان أن وضعت أحد أهدافى ، أن أضرب لهم ذلك الهدف اللئيم لكى

احمى بلدى ودينى من كل آثاره المدمرة . . فماذا فعلت ؟

كان أن ركزت كل همى على ضرورة تحقيق أكبر قدر من الانجـاز ، لاثبات انفسنا وقدرة أبناء وطننا ، وتفويت الفرصة على الروس لتحقيق اهدافهم ف بلدنا .

كان أن استهدفنى الروس ، ولم اجد وسيلة للدفـاع عن نفسى إلا أن أعمل . . وأن أعمل . . حتى لا أمكنهم من تحقيق أغراضـهم منى ومـن بلدى .

وكان أن استوعب حجم العمل فى السد العـالى أكثر مـن ٣٥ الف رجل كانوا يعملون بشكل متواصل أربعا وعشرين ساعة كل يوم ، وكنت قد قمت بتقسيم العمل على ثلاث ورديات ، وكانت مـدة الوردية ثمـانى ساعات ، ويعمل فيها حوالى تسعة آلاف عامل .

برزت فى ذلك الوقـت أهمية القـدرة على التنظيم الجيد ، وترتيب العمل ، ولولا أننى تمكنت من أن أحكم زمام الموقف ، لكان قد فلت الأمر من بين يدى .

وكانت تلك معركة أخرى ، كان على أن اخوضها جنبا الى جنب مع معركتى ضد الروس . .

واجهت المشاكل بأفق واسع ، وترتيب دقيق وتنظيم وصلت قمته إلى أن موعد تغيير الوردية أصبح يستغرق دقيقتين فقط ف كل مرة ، بعد أن كان يستغرق ساعتين كاملتين ف بداية العمل .

كنت شديد الحـرص على أن أفتح عينى تمـاما ، لا لأن أرى فقـط عظمة الانجاز ، ولكن لأن أرى مواطن الضعف لازالتهـا ، حتى يندفـع العمل نحو القمة التى كان يجب أن يصل إليها رغم كل التحديات .

وكان ان بدأت اواجه مشكلة السكن ، ووجدت حلهـا ف « سـبايت » البوص الصعيدى من مخلفات عيدان الذرة الرفيعة التى تنتشر زراعتها هناك ، فكان لابد أن أستفيد من إمكانيات البيئة وتلك ميزة أخـرى لابد أن يتفتق إليها ذهن أى رجل من رجال الأعمال .

وواجهـت مشـكلة مياه الشرب ، بأن قمـت بشراء مـائة « زير

قناوى » . .

كنت أبحــث دائمــا عن حلول سريعــة للمشــاكل لتؤدى الأغراض المطلوبة ، ثم أعود بعد ذلك لأبحــث عن الحلول الأفضــل ، وفى جــو أكثر هدوءاً .

وكان أن رحت أوفر تدريجا ، جميع وسائل الراحة والخدمات لجميع العاملين ، بما فيها وسائل الترفيه ، أقمت مطعما كبيرا يجد فيه كل عامل ثلاث وجبات مجانا كل يوم ، وكان يعمل كل الوقت بلا توقف ، وأنشــأت مساكن للمتزوجين لكى أحقق لهم الاستقرار الاجتماعى المطلوب ، حتى أحصل منهم على أكبر إنتاج ممكن ، وأقمت مساكن للعزاب أيضا .

وأنشأت النوادى الاجتمــاعية الميدانية ، فى كل مــوقع مــن مــواقع العمل ، وأذكر أننى أقمت دار سينما لكى يجد كل عامل ما يرفــه به عن نفسه .

أقمت باختصار مجتمعا جديداً فى قلب موقع العمل .

وكان أن وصل اهتمامى بتوفير جميع المتطلبات لجميع العــاملين ، الى أن قمت بتوفير « ترمس » لكل سائق ســيارة لكى يمــلأه بالشــاى ليشرب منه كلما أراد ، بدلا من أن يضيع وقته وهــو يبحــث لنفســه عن كوب الشاى « يعدل به دماغه » .

وقمت بتوفير وسائل المواصــلات اللازمــة ، والمناســبة التى كانت تتولى عملية نقل العاملين ، من موقع العمل وإليه ، بشكل ثابت ومستقر .

وكان كل هم العاملين ينصب على العمل . . وكان كل همى ينصب فى البحث عن كيفية توفير ما أستطيعه من وسائل الراحة لهم .

أعطيتهم . . فأعطونى . . وكان عطاؤنا متبادلا . . فوجد كل منا نفسه فى الآخر ، فارتفع على أكتافنا جميعا أداؤنا ، فــوجد له مــكانا فى عنان السماء .

كانت تجربة مثيرة ، خرجت منها بنتيجة كبيرة . . هــى أن العــامل المصرى عملاق يجب أن نلف يديه بالحرير .

وكان أن قــامت قيامــة الروس ، لأننى عرفــت كيف أواجههــم . .

واجهتهم بالعمل ، وليس بالكلام ، وكان أن الحقت بهم هزيمة ســاحقة ، أفقدتهم صوابهم ، وهزت اتزانهم ، وأصبحت أنا وهم ، ولغــة الأرقــام لا نحتاج إلى حكم .

وكان لابد أن يبحثوا لأنفســهم عن حــل ، ولم يجـدوا الحــل إلا فى ابعادى عن موقع العمل ، فراحوا يعملون ، من أجل تحقيق ذلك الهدف .

فماذا حدث ؟

كانت المعدات التى تم توفيرها لى ، معدات روسية ، وكان مــن بين تلك المعـدات لورى قــالوا إن حمــولته خمســة وعشرين طنا . . واثبتت التجربة انه لا يستطيع أن يتحمل أكثر من خمسة عشر طنا .

وكان أن أصيب عشرة لوريات من لورياتى بالعطل ، وفقدت قــدرتها على العمل .

واذكر أننى كنت مرتبطا فى ذلك الوقــت ببرنامــج معين للأداء ، كان لابد أن يسير العمل على أساس منه ، وحتى أستطيع تنفيذ تلك البرامج كان لابد أن يصــل ناتج الحفــر الى خمســة عشر الف متر مــكعب فى اليوم . . كان الارتباط بتلك البرامــج بينى وبين نفسى . . وكنت أجـــد المسافة بعيدة جدا بينى وبين القدرة على تحقيقها بسبب ما كان يحــدث من الروس .

ووجدت نفسى غير قادر على أن يتجاوز الانتاج عدة آلاف من الأمتار المكعبة فقط ، وكانت المعدات الروسية ، والبرنامج الذى وضــعه الروس للعمل . . هما السبب . .

كانت مشكلة كبيرة ، وكان لابد أن أبحث لها عن حل .

وكان أن برزت هناك المفارقات الغريبة ، والعجيبة المثيرة . .

كانوا هم ومعداتهم سببا فى المشكلة التى وجــدت نفسى أمــامها . . ولكنهم راحوا يصورون لنظام الحكم السابق أننى متكاسل ، وغير قادر على تنفيذ البرامج الموضوعة .

مؤامرة خبيثة

كانت مؤامرة خبيثة ، ذات أهداف بعيدة . .

فكان أن قاموا بوضع برنامج غير طموح ، وأعطونى من المعدات ما لا يمكننى من أن انجح فى إنجازه .

وكانت النتيجة أننى وجدت نفسى أمام مشكلة كبيرة ، وكانت تلك هى وسيلتهم فى تغطية عجزهم عن الانتاج فى مواجهة ما كان يحققه رجالى .

وأيضا لكى يسير العمل ببطء شديد ، لكى يكسبوا الوقت لتحقيق اهدافهم .

وكان لابد لهم أن يدافعوا عن أنفسهم ، من أجل بقائهم ، وبقاء اهدافهم التى حرصت على ألا امكنهم من تحقيقها بزيادة الانتاج ، وكشف قدراتهم على الأداء .

فكانت تلك المؤامرة التى استهدفوا منها وبها إزاحتى وإبعادى حتى يخلو لهم الجو ، لا لينجزوا السد العالى ، ولكن لينشئوا مزيداً من الخلايا الشيوعية التى كانوا يستهدفونها .

وكانت مؤامرتهم على مرحلتين :

كان الروس قد وضعوا برنامجا للعمل لا يسمح بأن يعطى الانسان المصرى كل ما عنده من طاقات .

وأعطونا معدات متخلفة غير قادرة حتى على تنفيذ ذلك البرنامج الذى كبل قدراتنا على الأداء .

وكانت المواجهة الأولى لنا مع البرنامج الذى أثبت عدم جدواه تماما مثله مثل المعدات وكان لابد أن نتخلص منه .

أصبحت إمكانياتنا على العمل فى ظل ذلك البرنامج مشلولة تماما ، وغير قادرة على إطلاق عقال ملكات رجالنا

كان لابد أن أدير حوارا مع الروس حول ذلك الموضوع ، وبدلا من أن يديروا معى حوارا اداروا لى ظهورهم ، ولم اجد أمامى إلا أن اصفعهم على أعناقهم . .

وفشل البرنامج
الروسى فى العمل

كيف حدث ذلك ؟

كان أن قام خبير روسى كبير ، انكر أن رأسه كانت فى حجم جسـمه تماما ، بزيارة موقع العمل فى السـد ، وحضر مـن بلاده خصـيصاً لذلك الغرض ، لكى يطمئن على ما إذا كان رجاله ينفذون المخطط الموضوع فى موسكو ضد مصر ، أم ينفذون السد العالى .

وعقد اجتماع فى موقع العمـل لمناقشـة مـوقف التنفيذ ، حضر ذلك الاجتماع حسـن زكى الذى تولى وزير الرى بعـد ذلك ، وحضرته معـه الهيئة العليا للسد العالى .

وكان أن تحـدثت فى ذلك الاجتمـاع بكل الصراحـة ، والوضـوح ، وأوضحت أنه لا يمكن أن نتمكن من تحقيق إنتاج بالقـدر الكافى فى ظـل البرنامج الموضوع .

وكان أن سألنى فى تحد واضح : وهل لديك البديل ؟

وكان أن طلبت فرصة لمدة شهر واحد ، أخـرج فيهـا عن البرنامـج الموضوع ، وأعمل مؤقتا طبقا لبرنامـج أقـوم بوضـعه خصـيصا لذلك الغرض .

وقلت إذا لم أنجـح فى تحقيق مـزيد مـن الانتاج ، فليس أمـامنا إلا البرنامج الموضوع .

وكان أن دار حوار طويل وعنيف ومثير وحـاد ، دافـع الروس عن برنامجهم باستماتة . . ودافعوا معه عن أنفسهم .

ولا أعرف كيف تفتق ذهـن الخبير الروسى . . وتصـور أننى فيما أقترحه أحفر قبرى بيدى .

وكان أن وافق على ما اقترحته وحمدت الله أنه فـاته أن يعـرف . . أننى رجل أجيد الحوار بالعمل أكثر من الكلمات . . فالعمل هـو أقـوى حجج المنطق كله فى الاقناع .

وكان أن قمت بوضع برنامج جديد ، أخذ فى اعتباره كل العوامل غير المرئية ، التى أعرفها عند العامل المصرى . . ليس بفضل فـراستى ولكن بحكم خبرتى ، وممارستى .

وبدأنا فى تنفيذ ذلك البرنامج الجديد الذى أخذ الانتاج فى التزايد معه من ألفى متر مكعب فى اليوم ، كان يتم إنتاجها فى ظل البرنامج الروسى ، إلى ستة آلاف متر مكعب فى اليوم طبقا للبرنامج المصرى . . ومع ذلك فلم نصل بعد : إلى تحقيق الرقم المطلوب . .

كان أن أعطت المعدات الروسية هنا أقصى ما لديها من طاقة ، الأمر الذى جعلنا نبحث عن معدات أخرى ، تمكن الانسان المصرى لأن يعطى هو بدوره أقصى ما عنده من طاقة ، فـكان أن اسـتوردنا المعـدات التى تسببت فى أن يقفز الانتاج إلى ٢٥ ألف متر مكعب فى اليوم .

كيف ؟ . . تلك معركة أخرى .

راح الروس يصورون الموقف على أننى أتعمـد عدم تنفيذ البرامـج الموضوعة كيدا منى للنظام الذى أمـم الشركة ، ومحـاولة الانتقـام منه بعدم إنجاز السد العالى فى وقته المحدد .

وكان ذلك السد حلم حياة النظام .

وكان أن أنزعج النظام ، وطلبت عقد اجتماع كبير على مستوى عال لمناقشة ذلك الموضوع .

وحمدت الله . . لأن قراره كان كذلك ، ولم يستجب لدعواهم ، خاصة بعد الحجج اللئيمة التى قدموها له .

وكان أن نجحت فى ذلك الاجتمـاع فى أن أكشـف حقيقـة مـوقف الروس ، لأن حديثى كان من فوق أرض الواقع نفسـه وبالأرقـام التى لا تعرف إلا الحقيقة .

قمت بشرح كامل للكيفية التى كان يتم بها العمل ، وأثبتت بما لا يدع مجالا للشك مسئولية المعدات الروسية ، فى أن يصبح الموقف على ما كان عليه ، ونجحت فى أن أبرىء ساحة العامل المصرى مما كان مـوجها إليه من اتهامات . .

كان العمل فى السد العالى يتلخص فى أن يقوم حفار باحداث ثقب فى الصخور ثم يتم ادخال الديناميت الى ذلك الثقب ، وتبدأ بعد ذلك عملية التفجير ، ثم يحدث النسف .

ويأتى بعد ذلك دور الكراكة التى تحمل ناتج ذلك التفجير ، لتضعه فوق اللورى الذى يقوم بنقله الى المكان المراد وضعه فيه . .

وكان معروفا بالحساب أن الثقب الواحد ينتج عنه اربعة عشر مترا طوليا حفر ، فى عمق الصخر فى الوردية الواحدة . وكان الحادث فعلا الا تستطيع المعدات الروسية إلا حفر متر ونصف متر فى الورديات الثلاث .

وكان أن تساءلت :

كيف يمكن أن نستطيع فى ظل تلك الظروف إنجاز العمل المطلوب ؟

انفضح الروس ، وباءت مؤامرتهم بالفشل . . ولكن المعركة لم تنته بعد ، وما حدث ليس الا جولة من الجولات . وكان أن كسبتها منهم .

وأصبح واضحا أن المعدات الروسية غير قادرة على انجاز البرنامج المطلوب ، وكان لابد أن أبحث عن معدات بديلة ، وتوصلت الى أن السويد هى أكثر دول العالم خبرة بالمعدات التى نستخدمها . . وتعرف السويد بأنها من الدول المنتجة للجرانيت وأن جرانيتها من أصلب أنواع الجرانيت .

وسافرت الى السويد ، وعاد معى فريق من الخبراء ، أعد تقريرا أثبت فيه أن المعدات الروسية متخلفة ، وغير قادرة على مواكبة أحدث ما فى العصر من معدات ، بل قالوا : إن العالم لم يعد يستخدم تلك المعدات فى ذلك الوقت ، وأنه كان قد تجاوز استعمالها بكثير .

وأبدوا دهشتهم الشديدة من أن تقبل مصر مثل ذلك الأمر .

واستمر الروس رغم ذلك كله فى عنادهم ، وركبوا رؤوسهم وأرادوا أن يثبتوا عدم صحة ما انتهى إليه خبراء السويد من أن العيب فى معداتهم ، وليس فى أداء العمل الذى يستعمل المعدات .

وكان أن راحوا يستخدمون تلك المعدات بأنفسهم ، ليثبتوا كفاءتها

التى لم نستطع نحن التوصل اليها .

وكانت فضيحة أكبر . .

أتوا بجهابذة مهندسيهم لكى يستخدموا معداتهم ، ولم ينجحوا فى استخدامها بنفس المهارة التى استخدمها بها المصريون .

وكان المصريون يحفرون بالمعدات مترين كاملين ، وكان يحفر بها جهابذة الروس ٢٠ سنتيمتراً فقط .

واثبت العامل المصرى انه خلف لأعظم سلف ، حيث شيد أجداده أول حضارة فى التاريخ على ضفاف ذلك النهر الذى نجح أحفاده فى أن يقيموا فى عرضه ذلك السد .

وفشل الروس ، كما فشلت معداتهم ، وكان لابد من معدات جديدة .

وتوجهنا الى الروس نطلب منهم معدات أكثر حداثة ، وكانت إجابتهم مثارا للدهشة .

قالوا : ليس من الممكن أن تصل المعدات الجديدة قبل عامين كاملين من تاريخ طلبها .

وكان من المعقول ألا اقبل مثل ذلك الرأى الذى لا يضع إلا مزيداً من العراقيل أمام تنفيذ المشروع . وكان لابد من حل . .

كنت أعرف انهم لن يوافقوا على شراء معدات من دول الكتلة الغربية ، وكان لابد لى من تلك المعدات . . فماذا افعل ؟

قلت لهم : انه توجد لى معدات فى بعض الدول العربية التى كنت أعمل فيها قبل مشروع السد العالى . وإننى سأقوم باحضار تلك المعدات لمساعدتى فى التنفيذ .

وكلفت بعض مهندسى الشركة بالسفر إلى السويد لشراء معدات الحفر فى الصخر وإلى بريطانيا لشراء سيارات النقل رولز رايز حمولة خمسة وثلاثين طناً وإلى امريكا لشراء بلدوزرات .

وأحضرنا المعدات ، وبدأت العمل فى المشروع ، وكان أن ارتفع الانتاج من ستة آلاف متر مكعب فى اليوم إلى ثمانية آلاف . . إلى اثنى

عشر ألفا . . إلى عشرين ألفا . . إلى خمسة وعشرين ألف متر مكعب فى اليوم بعد أن كان الانتاج لا يتجاوز ألفى متر مكعب فى اليوم .

ويمكن لك أن تتصور . . بعد كم من الزمن كان يمكن أن يتم الانتهاء من إنشاء المشروع . . لو أن العمل كان قد استمر طبقا لما أراده الروس . .

كان السد العالى ملحمة طويلة عريضة عميقة ، بطول وعرض ، وعمق جبال الجرانيت التى هدمها المصريون ، ليصنعوا بين صخورها المجرى الجديد لنهر النيل ، ويسدوا بناتج حفرها المجرى القديم ، وأقاموا السد العالى الذى قدر الخبراء أن حجم العمل فيه أربعة عشر ضعف حجم العمل الذى استوعبه الهرم الأكبر . . وأقاموا أكبر سد فى العالم كله ، صمم على أن يكون فى مأمن من أن تناله يد القنابل بالنسف .

أخطر معارك السد العالى

كانت الأهداف الحقيقية للروس من كل ما دخلوا فيه معى من معارك ، تتلخص فى تأخير تنفيذ السد العالى ، بأى طريقة لكى يضمنوا الاستمرار فى مصر ، كما قلت أطول مدة ممكنة .

واستماتوا من أجل تحقيق ذلك الهدف ، واستخدموا شتى الوسائل .

وكان أن ذهبوا إلى نظام الحكم السابق يطلبون منه تأجيل موعد تنفيذ المرحلة الأولى من السد العالى لمدة عامين آخرين ، وكانوا قد نجحوا فى إيهام موسى عرفة بذلك .

وأذكر انه لم تكن هناك أية مناسبة تستدعى أن يطرح مثل ذلك الموضوع للمناقشة ، لذلك كان المطلب بالنسبة لى غريبا ، ومثيرا للدهشة أكثر . . فماذا حدث ؟ .

كان أن استدعانى موسى عرفة ، لكى أقوم بالتوقيع على تقرير ، كان قد قام باعداده بالاشتراك مع الروس ، يطلب فيه تأجيل موعد الانتهاء من السد العالى لمدة عامين . ورفضت التوقيع . .

وكان أن وقع على نفس التقرير جميع وكلاء وزارة السد العالى ، وكبار المسئولين الحكوميين عليه .

وكان هدف موسى عرفة الذى قاله لى : إن التقرير يحمينا إذا ما لم يتم الانتهاء من المشروع فى الوقت المحدد ، وحتى لا نقع ـ على حد تعبيره ـ فى ورطة ، أو تحت طائلة المسئولية .

وكم كان مندهشاً لأننى رفضت التوقيع . .

وأنكر أنه قال لى : لا أفهم لماذا ترفض التوقيع ، مع أن التقرير لصالحك ؟ . . ولحمايتك مما قد تتعرض له اذا لم ينته العمل فى الوقت المحدد . .

وكان أن قلت له : إننى سأنتهى من العمل قبل الموعد المحدد باذن الله ، فلماذا أوافق على طلب التأجيل لمدة عامين ؟

وحاول إقناعى بأن رايى لا أساس له من الاقناع العلمى .

وكان قد بنى رأيه على اعتبار أن الروس اصحاب علم غزير وخبرة واسعة وطويلة ، وانهم اقدر فى الحكم على مثل تلك الأمور .

هكذا قال لى :

وكان ردى عليه اننى لا أزعم أننى وصلت إلى ما وصل إليه الروس . . ولكننى وصلت إلى أننى سأنتهى من العمل فى السد العالى قبل الموعد المحدد كما قلت لك . . باذن الله . .

ويئس من محاولات إقناعى .

وحاول الالتفاف حولى من زاوية أخرى . . تصور أنه يستطيع أن يلوى ذراعى .

وقال لى : إنهم يستطيعون الاتصال بالحكومة فى أى وقت يريدون ويستطيعون أن يقولوا لهم ما يشاءون وأن نظام الحكم لابد أن يستجيب إلى ما سيطلبونه منه .

وقال : أما أنا وأنت يا عثمان فلا نستطيع ما يستطيعونه ، ولا حيلة لنا الا أن نقبل ، ولا وسيلة لنا لكى نفلت من يد نظام الحكم إلا بذلك .

وتساءل :

هل تشك يا عثمان فى أن نظام الحكم ، سيقوم بنصب المشانق لنا فى كل مكان ، اذا لم ننجز العمل المطلوب فى الوقت المحدد .

قلت له : يا سيادة الوزير . . « ربك أكبر من كل كبير » . . ولن أقوم بالتوقيع على ذلك التقرير ، حتى ولو كانت المشنقة منصوبة بالفعل ، ويوجد خلفى من سيدفعنى إلى حبلها . .

وكان يريد أن أقوم بالتوقيع على التقرير بأى طريقة . . وحتى الآن لا أعرف لماذا كان يريد ذلك ؟

كان موقف الروس واضحا بالنسبة لى تماما ، أما موقف موسى عرفة فى ذلك الوقت فلا أجد تبريراً له الا أن الروس خدعوه ، أو انه كان خائفاً من أن ينكل به نظام الحكم السابق .

وكان أن هددنى فى عبارة لطيفة عندما قال :

الا تعرف أننا نستطيع أن نحدد إقامتك فى أسوان .

وسألته : ماذا تقصد ؟ فبدا عليه التراجع المهذب قائلا :

أن تظل معنا هنا فى أسوان حتى « تسمع كلامنا » .

وكان ان قلت له مستنكرا : وما هى الفائدة التى ستعود عليك أو على الدولة ، من وراء أن أبقى هنا فى اسوان ؟

قال وهو أكثر تراجعا :

لكى « نشغلك »

وكان أن علمتنى الايام الكثير حتى ملأت جعبتى بالتجارب . . ووجدت من المناسب جداً أن أضعه فى حجمه المناسب . . وكان أن قلت له : ليست تلك هى الطريقة التى « يشتغل » بها عثمان أحمد عثمان ، وليس هناك من يستطيع أن « يشغل » عثمان احمد عثمان بتلك الطريقة .

قد يوجد من يستطيع أشياء كثيرة لعثمان ، ولكن لا أعتقد أنه يوجد ذلك الذى يستطيع أن « يشغل » عثمان ، غير عثمان أحمد عثمان نفسه .

واستأذنت بعد ما قلت له كل مــا أردت أن أقــوله فى ذلك الموقــف ، وهممت أن أنصرف .

وقال لى : انتظر لكى نتفاهم بشكل أكثر تفصيلا .

قلت له : وما الذى يحتاج إلى تفصــيل فيمــا تقــول . . لقــد قلت كل التفاصيل .

والتفت إليه وأنا أتساءل فى غضــب شــديد ، نادرا مــا أجــد نفسى مضطرا إليه ، ألم يعلق نظام الحكم كل آماله على السد العالي ؟

أليس معركة تحد كبيرة لمصر ؟ . . ألم تسخر الدولة كل إمــكانياتها من أجل المشروع ؟ هل نسيت لهفة الشعب والحكومة على أن تراه وقــد رأى النور ، اليوم قبل الغد ؟

قلت له : لمصلحة من ، ومــن أجــل أى شىء يتم تأجيل تنفيذ المرحلة الأولى عامين كاملين ؟

وقلت له بعد تلك الأسئلة : تقــول الدولة إن مشروع الســد العــالى سيزيد الدخل القومى مائة وستة ملايين جنيه فى السنة ، أى أن الدخــل القومى سيزداد بما يعادل مائتين وإثنى عشر مليون جنيه فى ســنتين . . فما هو المبرر لأن نضحى بكل ذلك المبلغ مادام يمكن الانتهاء من الســد العالى فى موعده .

وحاول : أن يعتذر عما بدر منه ، ولكن الموقف كان قد تأزم الى حــد كان لابد أن أذهب بعده لكى أحاول مقابلة نظام الحكم السابق لأروى له ما حدث . .

وكان أن ذهبت الى منشــية البكرى ، والتقيت مــع محمــد أحمــد السكرتير الخاص لنظــام الحــكم الســابق الذى تولى منصــبا وزاريا فيما بعد ، ونقلت له صورة صادقة وامينة لكل مــا دار بينى وبين مــوسى عرفة . .

وقلت له أريد أن أعرف منكم . . عما اذا كان المقصــود مــن الســد العالى « الطنطنة » أم تحقيق إنجاز جماهيرى حقيقى لصالح الشعب .

وكان نظام الحكم السابق ، مشغولا فى نلك الوقت كما عرفت من محمد أحمد ، بضيفه الرئيس اليوغسلافى تيتو ، وأشار على محمد أحمد أن أذهب إلى المشير عبد الحكيم عامر .

وذهبت إلى مكتب المشير عبد الحكيم عامر ، وطلب منى أن أتوجه أولا لمقابلة صلاح نصر مدير المخابرات العامة ، لكى أضع أمامه صورة كاملة عن الموقف . .

واتجهت إلى صلاح نصر فى مكتبه ، وطلبت مقابلته ، وكانت أول مرة أطلب فيها مقابلة صلاح نصر .

واسجل بصدق أننى لمست فيه لأول وهلة الصدق والرجولة .

ورويت له القصة من أولها الى آخرها ، وكان أن اتسع صدر الرجل ، وسمع كل كلمة باهتمام شديد عندما رددت على مسامعه ما قلته لمحمد أحمد .

وكان تعليق الرجل :

إن لم نكن نريد الانتهاء من السد العالى ، فماذا نريد ؟

وطلب منى أن أتركه لبعض الوقت ، حتى يتمكن من أن يبحث عن حل لذلك الموضوع .

المشير يعرض على وزارة السد العالى

وكان أن استدعانى المشير عبد الحكيم عامر ، بعد أسبوع بالضبط من مقابلتى لصلاح نصر . .

وكانت المرة الثانية التى أقابل فيها الرجل .

ورويت له قصتى مع السد العالى ، والروس من الألف إلى الياء ، وأكدت له عدم وجود أى مبرر لتأجيل موعد الانتهاء من السد العالى عامين . .

وطلبت منه نصف مليون جنيه عملة أجنبية لكى اشترى بها بعض المعدات اللازمة للعمل فى المشروع ، لضمان التنفيذ فى الموعد المحدد دون

تأجيل .

وقلت له : ألا تريد الدولة أن توفـر مـائتين واثنى عشر مليون جنيه مقابل دفع نصف مليون جنيه ؟

وضحك المشير . . وداعبنى قائلا :

وإذا لم تنته فى الموعد المحدد . . ما العمل فيك ؟

قلت : لن تجدوا أنفسكم أمام ذلك السؤال فى يوم من الأيام .

ونظر الى الرجل نظرة ذات معنى . .

وكأنه أراد أن يقول لى شيئا .

ولكن قبل أن يقول بادرت قائلا :

إذا كان هناك سد عال آخر مطلوب الانتهاء منه فى نفس الموعد ، فأنا ملتزم ومستعد . .

كانت كلماتى كمن يضع بلسما على جرح عميق فى قلب الرجل . .

وجدت أسارير المشير تنفرج ، وبدت عليه سعادة غير عادية .

وكان أن ثبت للرجل اننى رجل جاد ، ليس لى فى الألاعيب نصيب .

وكانت سعادة المشير ، سببا فى أن يعـرض على أن أتولى منصـب وزير السد العالى .

وعرفت من المشير أن ذلك العرض ، لم يكن وليد المقابلة السريعـة ، ولكن كان أن بعث إلى موقع العمل بعد مقـابلتى لصـلاح نصر برجـال المخابرات من مختلف الأجهزة وكتبوا تقاريرهـم ، وكانت مطابقة للحقيقة تماما ، وشهدت للجهد الجبار الذى يبذله الرجال هناك .

وكان أن احترمت صلاح نصر من ذلك الوقت ، وعرفت أنه رجـل له مواقف . .

وأذكر أننى قلت للمشير ردا على عرضه وقتهـا إن الوزارة ليسـت هدفى ، ولا أسعى اليها ، وكلفـونى على قـدر مـا تسـتطيعون بتنفيذ مشروعات ، وستجدوننى على مستوى ما يطلب منى دائمـا . . إننى أريد أن أجد فقط الفرصة التى أعطى فيها مصر بقدر ما أستطيع .

وقلت له : أنا أنفعكم كمقاول ، ولا أنفـــع مصر إلا كذلك ، ياســـيادة المشير . .

وكان أن استحسن المشير موقفى ، وأثنى عليه ، خاصة عندمـــا قلت له : أنا لا أريد الوزارة ، ولكنى أريد « المقاولون العرب » تنمــو ، وتكبر ، وتشتد عضلاتها ، وسواعدها ، أمام عينى يوما بعد يوم . . ذلك هـــو حلم حياتى الذى أعيش به ومن أجله ، وأسعد ، كلمـــا رأيته يتجســـد إلى أن أصبح والحمد لله على هذا المستوى .

وكم كان معجبا بصراحتى ، وصلابة مـــوقفى على مـــا أنا مقتنع به رغم كل ما كان يمكن أن يحدث لى . .

وقبل أن أغادر مكتبه ، كان قد أصدر تعليماته إلى الدكتور عبد المنعم القيسونى وزير الاقتصاد فى ذلك الوقت لكى يقوم بصرف نصـــف مليون جنيه عملة صعبة لشراء ما يلزم من معدات .

وقد وافق المشير على وجهة نظـــرى . . وواصـــلنا الليل بالنهـــار فى عملنا . . واشترينا المعدات التى تلزمنا .

وانتهينا من العمـــل فى المرحلة الاولى قبل الموعد الذى كان محـــدداً لها . ولم ننتظر عامين كما أراد الروس . .

كان مقرراً أن تنتهى فى ١٥ مايو سنة ١٩٦٤ .

وانتهينا منها فى أول مارس سنة ١٩٦٤ .

وكان أن أقيم بتلك المناسبة احتفال كبير حضره خـــروشوف ، وكان يشغل منصب رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت .

مع خروشوف

وأذكر أنه عندما جاء دورى فى السلام عليه ، كان على وشك أن يشد على يدى ، ولكن عندما قالوا له إننى عثمان أحمد عثمان ، لم يستطع أن يخفى ما فى قلبه من كراهية لى وكان أن شد يده من يدى بطـــريقة لفتت نظرى ونظر جميع الموجودين ، وكانت تلك المرة أول وآخر مرة أراه فيها فى حياتى . . ورغم الغم الذى أصابه وترجمه فى طـــريقة ســـلامه على . .

إلا إننى كنت سعيدا بتلك المقابلة التى أكدت لى بالدليل القاطع أننى فوت على الروس فرصتهم للنيل من بلدى .

* * *

كان السد العالى من العمليات الضخمة ، استغرق العمل فيه عشر سنوات كاملة . .

كان أكبر عملية فى مصر وفى العالم كله فى ذلك الوقت .

وكان أن ركزت فيه كل ما كان عندى من إمكانيات مادية ومعنوية .

كان أمل الانتهاء منه يمثل بالنسبة لى أعظم انجاز لشركتى .

كان السد العالى يعنى بالنسبة لى أحد أمرين :

إما أن انتهى منه فيفتح أمام شركتى كل الآفاق ، وإما أن أفشل فتدفن شركتى وطموحى بين أحجار الجرانيت هناك إلى ما شاء الله .

ليس أمامى إلا الاختيار الأول . . لذلك صرفت كل اهتمامى عن أية مشروعات سواء فى مصر أو خارجها واتجهت إليه . .

وكان اهتمامى الكبير بالسد العالى واحداً من أسباب تصفية معظم اعمالى فى السعودية ، والكويت ، لاستفيد بجهود كل واحد من المهندسين ، والعمال ، والملاحظين ليبنى لبنة فى ذلك الصرح الكبير . . الذى كان يرتفع بنيان المقاولون العرب إلى جوار بنيانه يوما بعد يوم ، حتى أن ارتبطت قدرتها على الانجاز بأدائها فيه .

وكان الفضل كله إلى الفريق المتأجى المتآلف الذى تضمه « المقاولون العرب » التى حملتها فكرة فى راسى طفلا ، وعلى اكتافى شابا . . وحققت أملى فيها .

وهذا من فضل ربى . .

مدرسة السد العالى

وكان السد العالى مدرسة كبيرة بالنسبة للمقاولون العرب ، درسنا فيها ، وتعلمنا منها الكثير .

تعلمنا كيفية تنظيم وتشغيل الأعداد الضخمة ، بل والأكثر من ذلك

كيف نخلق روح الأسرة بينهم .

وتعايشنا مع أهالى المنطقة ، وساعدونى ، واحتضنونى لدرجة أنهم قدموا لى مساكنهم الخاصة للعاملين فى المشروع ، قبل أن أقوم ببناء مساكن لهم . .

وقد اكرمنى الله بأن أرتفع الى مستوى كرمهم ، وإنسانيتهم ، كما كنت افعل مع اهل كل منطقة كنت اذهب إليها قبل وبعد ذلك المشروع .

ولقد تركت خلفى هناك العديد من المرافق العامة التى تعود بالخير على المنطقة وأهلها .

فقد شملتنى رعايتهم ، وحرصهم على وعلى رجالى وعلى معداتى ، وعلى أن أنجح فيما أنا بصدد تنفيذه من أعمال . . ولا أملك : إلا أن اقدم لأهل محافظة أسوان ألف تحية . . تحية عرفان منى لهم وتقدير لما طوقوا عنقى من حب كبير وتعلمت أن عائد ما يقدمه المقاول من خدمات لأهالى المنطقة التى يباشر فيها أعمالا ، لابد أن يعادل أضعاف ما قدموه .

وقد سعيت إلى إيجاد فرص عمل لأبناء المنطقة بين العاملين فى المشروع ، ووصل الأمر إلى أننى استخدمت عدداً من الحمير فى نقل الأتربة .

ولم يكن قصدى استخدام الحمير فى موقع استخدمت فيه أحدث ما فى العالم من معدات ، ولكن كان قصدى أن يستفيد صاحبها . . وكان حرصه على شديداً . .

واستفدت من السد العالى فكرة إنشاء معهد تدريب « المقاولون العرب » لتدريب العاملين فى مختلف المهن ، لأن احتياجات العمل من العمالة المدربة كانت كبيرة ، وفى نفس الوقت غير متواجدة .

وكان لابد من حل . .

ووجدت الحل فى تلك الفكرة التى نفذتها على الفور ، ونجح المعهد فى تأدية الهدف الذى أنشأته من أجله ، وأصبح الآن جزءا لا يتجزأ من

الشركة ، يمدها بكل ما تحتاجه من العمالة الماهرة المدربة فى كل التخصصات التى نحتاج إليها .

وقد جنينا من السد العالى فوائد كثيرة ، اهمها أن تعلمنا الصبر ، والجلد وقوة العزيمة ، والقدرة على التحمل ، والتصدى .

ووجدت عندما ذهبت إلى هناك كما نكرت كل شىء ضدى .

كل شىء كان يحاربنا ، حتى الطبيعة نفسها ، كشرت عن أنيابها ، وبدت فى بادىء الأمر كما لو كانت أصلب من إرادتنا .

وجاءتنى لحظة فى بداية العمل فى السد العالى ، وقفت فيها وحدى فى مفترق الطرق . . كان كل ما حولى ، ومن حولى يقول : لا . . حتى أبنائى المهندسين والزملاء الذين ذهبوا معى إلى هناك قالوا : لا .

وكان معى الله وحده يشد من أزرى ، عندما كنت أقول لهم إننا سنحقق المستحيل فى الوقت الذى كان كل شىء يقول : من المستحيل . .

حتى أنا لم أكن مقتنعا فى داخلى بما كنت أقوله ، لاقناع أولادى ، وإخوتى للاستمرار فى العمل معى ، بما فيهم حسين أخى ، الذى كنت أشجعه فى الوقت الذى كان يجب أن يشجع هو فيه الآخرين .

غابت من الأفق كل بارقة لأمل ، ولكن لم يكن بوسعى أن أتراجع .

كان التراجع وقتها معناه انتحار « المقاولون العرب » وهى فى ريعان الشباب .

والهمنى الله وحده لأن أصمد ، وانجح فى تحويل الموقف كله فى اتجاه

إرادة الله ، التى جعلتنى أصمم على الاستمرار .

انتقلت فورا الى مقر العمل ، واقمت فيه إقامة كاملة فى حجرتين أنشأتهما لذلك الغرض ، إحداهما للنوم والثانية غرفة عمليات أدير منها العمل . . وتركت المقر الذى كان قد أعد لى فى فندق « نيوكاتاراكت » .

ويكفى أن أقول نلك لكى يعرف اى إنسان الاجابة على السؤال : ماذا استفدنا من تجربة السد العالى ؟ وماذا يعنى اننا طوعنا كل العوامل التى كانت ضدنا ، بما فيها ترددنا ؟ غير أن التجربة كانت كبيرة

وخبراتنا فيها كانت أكبر .

كان السد العالى مدرسة لتربية الكوادر الفنية القادرة على البناء والتعمير ، وليست الكوادر التى ربتها منظمات الشباب لتجيد صنعة الكلام وطول اللسان . . واصبحت كوادر « المقاولون العرب » فصائل جيش التعمير التى تنطلق لتدك حصون التخلف وترفع أعلام التقدم فى كل مكان من مصرنا العزيزة .

واعطى السد العالى لمصر الكثير ، ويكفى أن نقول إنه لولا المياه التى يوفرها السد العالى ، ما كان يمكن أن نفكر مجرد التفكير فى مشروعات غزو الصحراء التى نعلق عليها أمل مصر كلها الآن .

* * *

وكان يجب أن نسير فى طريقين فى وقت واحد . . طريق إنشاء السد العالى . . وطريق استصلاح الأراضى . . ليتم الانتهاء منهما فى وقت واحد . . ولكن لم يحدث .

وكان أن بدأ الرئيس السادات فى تصحيح ذلك الخطأ الوحيد فى مشروع السد العالى ، لكى تستفيد مصر بكل إمكانيات ذلك العمل الهندسى العظيم .

* * *

المقاولون العرب حلم حياتى

كنت قد حلمت فى طفولتى بأن أصبح صاحب شركة مقاولات كبيرة ، وكأن إعجابى بنجاح خالى مصدرا لأحلامى . .

كان خالى مقاولا كبيرا بالاسماعيلية ، وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك استطاع أن يكون ثروة طائلة ، وأن يمتد نشـــاطه إلى مجـــالات واسعة . .

وتساءلت فى ذلك الوقت بينى وبين نفسى :

كيف كان سيصبح حال مقاولات خالى ، لو كان قد حصل على قسط وافر من التعليم ؟ . .

ووجـــدت إجـــابة ذلك التســـاؤل عندمــــا رأيت الشركات الأجنبية العملاقة ، التى كانت تعمل فى منطقة قناة السويس بمعـــداتها الضـــخمة وأوناشها الكبيرة .

تمنيت فى تلك اللحظة أن أكون مقاولا كخالى ، ولكن بنفس إمكانيات تلك الشركات . . .

وادركت فى ذلك الوقت قيمة أن يكون المقاول متعلما . . فانه يستطيع أن يجمـــع بين العلم والخبرة ، وكلاهمــــا لازم لخلق مقـــاول بالمفهــــوم الصحيح ، أو بالأحرى بالمفهوم الذى أردته . .

وقد عرفت الفارق بين خالى ، وبين تلك الشركات . . كان من نصيب

خالى الخبرة فقط ، فكان نلك حجمه . . وجمعت تلك الشركات بين العلم والخبرة ، فكانت تلك هى إمكانياتها .

وفهمت فى تلك اللحظة أن الطريق إلى تحقيق نلك الهدف لا بد أن يكون هو طريق التعليم ، ولكن لم يمتد إدراكى فى نلك الوقت لتحديد أى أنواع التعليم . .

واعطيت كل اهتمام لدراستى ، ومدرستى ، ومذاكرتى لكى أتعلم حتى أصبح قادرا على تكوين شركة . .

ونمت مداركى ، واتضح لى أن دراسة الهندسة هى مفتاح الطريق . .

وتحول الحلم إلى رغبة ، وتحولت الرغبة إلى أمل ، وتحول الأمل إلى هدف شدنى إليه بكل قوة ، وسيطر على تفكيرى بكل عنف ، حتى أصبحت أسيرا له ، مسيرا فى الاتجاه المؤدى إلى تحقيقه . .

كيف ؟

لا أعرف . . ولكننى أحكى فقط ما حدث . .

وكاد القلق أن يمزقنى عندما تعارضت رغبتى مع رغبة أمى . .

كانت أمى تريدنى أن ادخل كلية الطب لأصبح طبيبا . . وكنت قد رتبت نفسى على أن أدخل كلية الهندسة ، لأصبح مقاولا . .

وانتصرت إرادتى بأن نلت رضاء أمى . . وكان أن اتجهت إلى كلية الهندسة دون أى تردد إلى دراسة الهندسة المدنية ، التى فهمت أنها أقرب المجالات إلى ما كنت قد نذرت له نفسى . .

وكنت فى نلك الوقت قد تنبهت إلى أن العمل فى المقاولات يحتاج إلى إمكانيات مادية ليست فى مقدورى ، ولكنى اعتبرت نلك الأمر سابقا لأوانه ، ولم أشغل به بالى . .

وتفرغت تماما للمرحلة التى كان لابد ان أعطيها لنفسى ، وتعلمت منذ نلك الوقت كيف أرتب أفكارى . .

ويحضرنى وأنا أكتب هذه السطور شاهد حى ، يشهد على صدق

ما اقول ، حتى لا يتصور أحد أننى تحولت فجأة من مقاول إلى قصاص ، غالبه الخيال ، فأطلق العنان لقلمه . .

كان المستشار أنور أبو سحلى وزير العدل طالبا فى المدرسة السعيدية الثانوية ، وكان زميلا لشقيقى حسين عثمان الذى كنت أسبقه بسنتين ، وكنت فى ذلك الوقت طالبا بكلية الهندسة . .

وكان وما يزال بينى وبين ربى صفاء روحى لا حدود له . . وكثيرا ما اخلو اناجيه . . وأبوح له وحده سبحانه وتعالى بكل ما فى نفسى . . وانكر أننى لم اشك من بشر لبشر فى حياتى . . ولم تتجه شكوتى إلا إليه جل شأنه . .

وقد تمنيت فى تلك الأيام ، ويبدو أن باب السماء كان مفتوحا . .

فماذا كانت الأمنية ؟

كان أنور أبو سحلى صديقا لنا ، وكان صعيديا من قنا ، يأتى من بلده ليقضى معنا شهرا من شهور الصيف كل سنة فى الاسماعيلية . .

حصل على شهادة البكالوريا ، واتجه إلى دراسة القانون ، وحصل حسين أيضا على شهادة البكالوريا واتجه إلى دراسة الهندسة . .

وزارنا أنور أبو سحلى فى صيف تلك السنة .

وذهبنا إلى شاطىء بحيرة التمساح ، لكى نقضى يوما سعيدا نحتفل فيه بضيفنا .

وكان معنا مجموعة من اقاربنا واصدقائنا وبلدياتنا .

وانهالت الأسئلة على أنور أبو سحلى وكانت كلها تقول :

لماذا دخلت كلية الحقوق ؟ ولماذا لم تدخل كلية الهندسة ؟

وقد توليت الاجابة فى تلك اللحظة نيابة عن أنور . . ولا أعرف كيف حدث ذلك . .

قلت إننى دخلت كلية الهندسة لكى أنشىء شركة مقاولات كبيرة ، وان تلك الشركة تحتاج إلى مستشار قانونى كبير ، ودخل أنور أبو سحلى كلية الحقوق ليكون هو المستشار القانونى للشركة .

حدثت تلك القصة فى صيف عام ١٩٣٨ . .

ومرت الأيام ، وتخرج انور أبو سحلى ، وعمل فى سلك القضـــاء إلى أن أصبح قاضى محكمة شبين الكوم ، وتخـرجت مــن كلية الهندســـة ، وسرت فى الطريق الذى كنت قد اخترته لنفسى، ونجحت فى تكوين الشركة الهندسية للصناعات والمقاولات العمومية . .

وأصبحت الشركة فى حاجة إلى مستشار قــانونى ، وتنكرت فى تلك اللحظة أنور أبو سحلى ، فهو صديقنا منذ طفولتنا ، وتنكرت معه القصة الطريفة التى حدثت بيننا . .

وسافرت إلى شبين الكوم ، وقابلت أنور . .

وكان أن قلت له :

هل تنكر الوعد الذى قطعناه على انفسنا معــا على شــاطىء بحيرة التمساح ؟

وكانت مفاجأة له لم يتوقعها . . فلم يكن ما حدث بالنسبة له أكثر من حكاية انتهت فى وقتها . . ولكن كان لتلك الحكاية فى نفسى أبعاد أخرى . .

وسرح قليلا ، ثم انفجر ضاحكا . .

ياه . . أنت لسه فاكر . .

فقلت له : أنا عند وعدى . .

وافق انور أبو سحلى من حيث المبدأ ، ولكنه علق موافقته على شرط أن اقوم باقناع والده . .

وذهبت لمقابلة والده المرحوم عبد الفتاح ابو سحلى ، وفاتحته فى نلك الموضوع ونجحت فى الحصول على موافقته بعد جهد كبير . .

وكان ان ترك أنور وظيفته فى القضــاء ، والتحــــق بالشركة ليتولى المسئولية الكاملة لجميع شئونها القانونية والادارية .

وأعطى الشركة من إيمانه ، وأمـــانته ، ووفــائه ، وإخــلاصه لعمله وعلمه الكثير ، وترك فيها بصمات واضحة ما تزال حتى الآن باقية تشهد بكفاءته ، وتمكنه . .

ويبدو أن العمل فى سلك النيابة ، والقضاء كان له سحر خـــاص لدى الصــعايدة فى ذلك الوقــت ، لذلك أصر والد أنور على أن يعــود ولده إلى سلك القضاء مــرة أخــرى بعــد أن أمضى عامين ونصــف عام فى عمله معنا . .

ودارت الأيام وعاد أنور أبو سحلى إلى شركة المقاولون سنة ١٩٦٩ مرة أخرى ، وكان قد ترك سلك القضاء مجبرا فى تلك المرة ، وكان أحــد ضحايا مذبحة القضاء التى أقيمت لرجال العدالة فى مصر فى ذلك الوقت ، ومارس أنور أبو سحلى عمله كمســتشار قــانونى للشركة مــن مــكتب المحاماة الذى كان يزاول منه نشاطه . .

وأراد الله أن يحقق ما تمنيت . . فأصبحت صاحب شركة مقــاولات كبيرة . . وأصبح المستشار أنور أبو سحلى المستشار القانونى لها . .

(إلى المقاولات)

المهم . . تخرجت فى كلية الهندسة بتقــدير يؤهلنى لأن أعمــل معيدا بها ، تمهيدا لأن أصبح أســتاذا . . ولكن كنت قــد اخترت طــريقى مــن قبل . .

وكان أن وجدت نفسى ، أعود مرة أخرى إلى الخــاطر الذى ورد على بالى من قبل . . من أين لى بالامكانيات ؟ . .

كنت قد أجلته إلى حينه ، وأصبحت الآن وجها لوجه معه ، وكان لابد أن أبحث عن حل . .

وكنت قد أدركت فى ذلك الوقت مدى أهمية الممارسة العملية ، لكل من يريد أن يسير فى ذلك الطريق ، وكانت تجربتى مع ماكينة الطحين ســببا فى أن تؤكد لى أهمية الخبرة . .

واهتديت إلى أن أتجه للعمل مع خــالى فى مجــال مقــاولاته ، لكى أستطيع أن أحقق حدا أدنى من المال وقــدرا معقــولا مــن الخبرة لكى أتمكن من أن أبدأ فى تحويل ما حلمت به إلى حقيقة ألمسها بين يدى . .

وتذكرت ما دار بينى وبين شقيقى المرحوم الدكتور إبراهيم عثمــان من حوار اتفق معى بعده على أن أتجه إلى حيث كان يشطح تفكيرى . .

والتحقت بأعمال خالى ، وشرحت فى موضع آخر من تلك الصفحات كيف بدأت معه ، وكيف مارست العمل فى موقعه ، وكيف أننى قررت بعد عام ونصف فقط من العمل معه ، أن أذهب لكى أعمل مقاولا لحسابى الخاص ، وكان قد وافق خالى بعد مناقشة طويلة . .

وتركت العمل معه كما قلت بعد أن وضعت المبلغ الذى حصلت عليه منه فى جيبى ، والخبرة التى جمعتها فى راسى . . .

واصبحت قادرا على أن أبدأ باسم الله ، الخطوة الأولى على أرض الواقع نحو الهدف الكبير . .

(أشياء صغيرة ولكنها كبيرة)

ورحت أسترجع شريط ذكريات حياتى منذ طفولتى وحتى تلك اللحظة ، ووجدت الكثير الذى وقفت عنده ، ورأيت ضرورة أن أبدأ به . .

وكانت تربية أمى لنا ، وما تعلمته من قيم سمعتها منها أحيانا ، ورأيتها تتصرف على ضوئها أحيانا أخرى ، واسترجعت ما كانت قد علمته لى الأيام ، بكل ما مر بحياتى من تجارب صغيرة أعطتنى الكثير ، وذكرت فى مواضع أخرى كل ذلك بالتفصيل . .

وقد اكتشفت عنصرا آخر لابد أن أضيفه إلى الخبرة والعلم والمال ، وكان ذلك العنصر هو القيم الحميدة والعلاقات الانسانية الطيبة ، وهى أشياء تبدو فى ظاهرها صغيرة لا تجد لها صدى عند الكثيرين ، وبدت لى كبيرة تعنى الكثير .

وكان أن شكلت تلك الأشياء الصغيرة حياتى ، وشكلت منذ البداية الشركة معى . . وكلانا ليس إلا نتيجة طبيعية لتلك الأشياء .

وكانت تلك الأشياء الأساس الأول لكل ما ارتادته الشركة من مجالات واسعة . .

وتتلخص تلك الأشياء فى الايمان العميق بالله . وبمصر ، وثقتى فى شخصيتى ، وفى أننى ابن حضارة سبعة آلاف عام . . .

وتجد تلك الأشياء امتدادا لها فى ضرورة بذل الجهد ، والعرق ،

واتقان العمل ، واحترام الموعد ، والحرص على الوقت .

وقد ابتعدت عن « الأونطة » « والفهلوة » لأنني عرفت أنها كالكذب ليس لها أرجل . . وسرعان ما ينكشف أمر صاحبها ، ويصبح موضع احتقار الناس ، واتهامهم ، بدلا من أن ينال ثقتهم .

ورأيت أن البعد عن الاستغلال فى كافة صوره واشكاله واجب مقدس ، فلا أظلم العامل فيما يستحقه من عائد ، ولا أظلم من أتعامل معه فيما أحمله له من نفقات . . ووجدت فى الصدق والأمانة ما يرتاح إليه ضميرى ، وبعدت عن الانحراف . .

وكان أن اقتنعت بأنه . . فى النهاية لا يصح إلا الصحيح . .

واصبح واضحا أمام عينى منذ البداية أن السير فى غير ذلك الطريق ، قد يؤدى بصاحبه إلى النجاح مرة ومرتين وثلاثة ، ولكن نهايته معروفة . . لا تقسم إلا ظهر صاحبها ، ولا تترك له إلا الحسرة والندم . .

ولكن بعد فوات الأوان . .

وكان لابد أن أبتعد . . فحفظنى الله . .

وتعلمت أن يكون العطاء عندى أسبق من الأخذ . . وأن حب الخير للناس أكبر درع يحمينى من الحقد ، وأن بناء العلاقات الطيبة مع الناس أكبر ثروة يمكن أن يحققها إنسان فى حياته ، فهى الطريق الوحيد إلى كل ما يريده بعد ذلك من ثروات .

« وتجسدت الفكرة »

وبدأت تكوين أول كيان مادى ملموس ، كانت كل تلك العناصر مجتمعة هى أساسه . . فكانت أكبر شركة مقاولات فى الشرق الأوسط كله . .

وكان مكتب « عثمان أحمد عثمان مهندس ومقاول » أول تجسيد للفكرة ، واتخذ له مقرا فى إحدى حجرات الدكتور سليمان عيد بالحى الأفرنجى بالاسماعيلية ، وكان حجم الأعمال التى يقوم بتنفيذها لا يتعدى عمليات الاصلاح والترميم لشقة ، أو بيت ، أو إعداد رسم هندسى لدكان . .

وكانت أول عملية إنشاء وتشييد يقوم بها المكتب هى إنشاء جــراج لدكتور يونانى كان يقيم فى الاسماعيلية ، وبلغت تكاليفــه مــائة وســتة جنيهات كما رويت فى مكان آخر ، وكان أكبر مــكسب حصــلت عليه منه ستة جنيهات ، أضــفتها فــوراً وبلا أى تردد فى شراء بعض أنواع « عدة الشغل » اللازمة للعمل ، لكى أخلق نواة « عدة شغل » . . كان لابد منهــا لأى مقاول .

وكان أن انتقل مقر المكتب بعد ذلك إلى حجرتين ، قمت باعدادهما فى منزل العائلة الذى نشأت فيه . . خصيصا لذلك الغرض . .

وكنت قد حكيت فى مكان آخر كل ذلك بالتفصــيل ، ولكننى أردت أن أعود إليه هنا فقط لمجرد ربط الموضوع الذى نحن بصدده ، وهــو كيف تكونت شركة المقاولون العرب . .

وكان عثمان أحمد عثمان أول مهندس انضم إلى تلك الشركة ، وكان يقوم فى ذلك الوقت بكل الأدوار وحــده كمــا ســبق أن قلت ، إلى أن بدأ العدد يتزايد ، والنشاط تتسع دائرته . .

واحتجت مع اتساع حجم النشــاط مــع بداية عام ١٩٤٤ إلى مــن يساعدنى ، ولم أجد أولى من شقيقى المرحوم محمد عثمان ، الذى انضم إلى ليقف إلى جوارى ، وكان رحمه الله يجد سعادته فى نجاحى . .

وراحت تتطور أعمالنا ، ويتزايد نشاطنا ، واتخذ المكتب له مقراً آخر بالقاهرة فى العمارة رقم ١٧٢ بشارع الخديو إسماعيل . ثم انتقل مقرنا بالقاهرة بعد ذلك إلى إحدى شــقق عمــارة اللواء فى منطقــة « وســـط البلد » . .

واصبت فى تلك الفترة بثانى أكبر صدمة فى حياتى كلهــا ، وكان ذلك فى ديسمبر عام ١٩٤٩ .

اختطف الموت شــقيقى الدكتور إبراهيم عثمــان وهــو فى ريعــان الشباب . .

وكان ــ رحمه الله ــ ذا فضل كبير على الشركة . . أعطاها الكثير من فكره وجهده ، ووقف إلى جوارى بكل ما كان لديه من إمكانيات . .

كان رحمه الله مفكرا كبيرا ، وواسع الرؤية والأفق ، وكثيرا مـا كانت أفكاره تلهمني ، وتمثل آراؤه المصباح الذى ينير طـريقى ، وكنت أقـوم بالتنسيق والتخطيط معه ، لمستقبل كبير كان يشاركنى صنعه . .

وكانت علاقاته واسعة ، واتصالاته مؤثرة ، وكان لها الفضـل الأول فى العديد من المشروعات التى قمت بتنفيذها . .

وكانت وفاته صدمة كبيرة .

وكانت الصدمة سببا فى أن أستدعى شقيقى المرحوم محمد عثمـان لكى نضع الخطوط العريضة لمستقبلنا .

وراودتنى فكرة أن أقوم بتسجيل المكتب باسـمى وباسـم محمـد ، وكان أن اتخذت إجراءات تنفيذ الفكرة فورا .

ورفض محمـد باصرار شـديد ، ولكنى قلت له إن الأعمـار بيد الله يا شقيقى ، فمن منا كان يتوقع أن نفتقد إبراهيم فى ذلك الوقـت . . ولابد أن أرضي ضميرى حتى لا يظلم احد الآخر . .

حاول إثنائى عن رغبتى بشتى الطرق وهو يقول لى :

منذ متى يا عثمان كان لأى منا مع الآخر حساب !

وكان أن قلت له : إننى أحسب يا شـقيقى حسـاب الأيام . . دعنى يا محمد أنفذ ما أردته . . حتى أستريح . .

وقبل محمد فى النهاية ، حتى يرضينى . .

وكان فى الاسماعيلية فى ذلك الوقت رجل طيب اسمه الحـاج محمـد أبو جبة ، كنت أرتاح إليه كثيراً ، ناقشته فى موضوع ما اتفقت عليه مـع شقيقى محمد . . وحاول الرجل إثنائى عن الفكرة على اعتبار أن الشركة ليست إلا من ثمار جهدى وكدى ، وهى من نصيب أولادى .

وكان أن قلت له : إن محمداً هو الذى ربانى ، وتحمل مسئوليتى مع أمى ، ووقف إلى جوارى ، وضحى من اجلى ، وما أنا فيه ؛ ليس إلا ثمرة لما زرعه هو . .

ووافقنى الرجـل على فـكرتى ، وقمنا بعـد ذلك بحصر مـوجودات

الشركة . . وكان ذلك فى بداية عام ١٩٥٠ . . وبلغ حجم موجودات المكتب خمسة وثلاثين ألف جنيه . .

وقمنا بتسجيل الشركة الأولى « عثمان أحمد عثمان وشركاه . . مهندسون ومقاولون » برأسمال خمسة وثلاثين ألف جنيه ، نصيبى منها ٧٥٪ ونصيب محمد ٢٥٪ . .

وواصلت طريق تنمية الشركة تحت ذلك الاسم ، إلى أن سافرنا إلى المملكة العربية السعودية . .

وانتقلت الشركة بعد ذلك إلى مرحلة جديدة ، ليس فى حجم أعمالها فقط ، ولكن من حيث شكلها القانونى . .

«وتغير شكل اسمها»

كان معنا فى السعودية ابن شقيقتى المهندس صلاح على حسب الله ، والمهندس أحمد سليمان أول مهندس عمل معى فى الشركة ، والمهندس بهجت حسنين ، وشقيقى المهندس حسين عثمان ، وشريكى ـ شقيقى محمد عثمان . .

وكان أن وقف معى كل من هؤلاء الرجال ، ولم أجد الكلمات التى أعبر بها عما كان لهم من أياد على الشركة ، وما أعطاه كل منهم للعمل من جهد دفعنى لأن أعتبر أن ما يتقاضاه اى منهم من مرتب ، لا يقابل ما يستحقه من عائد مقابل ما يبذله من جهد . .

وكان أن وجدت ضرورة أن أعيد النظر فى توزيع أسهم الشركة . .

وفاتحت فى أول الأمر شقيقى محمد ، بحكم انه شريكى الوحيد فى الشركة فى ذلك الوقت ، وعرضت عليه ما كان قد انتهى رأيى إليه . .

واتفقنا على أن يصبح نصيبه ١٩٪ فقط بعد أن كان ٢٥٪ ، وان نخصص ٦٪ من الأسهم لشقيقنا حسين ، و ٧٪ للمهندس صلاح حسب الله ابن شقيقتنا ، ٨٪ للمهندس أحمد سليمان رفيق كفاحنا ، ٩٪ للمهندس بهجت حسنين صديقنا ، ويصبح نصيبى ٥١٪ بعد ٧٥٪ .

وكنت قد قررت بينى وبين نفسى أن أخصص ٢٪ من نصيبى لأولاد

شقيقى المرحوم إبراهيم عثمان وفاء لما كان له من دور معى . .

وعرضت ما كان قد اتفقنا عليه انا وشقيقى محمد على الجميع ، وبدأنا بعد ذلك إجراءات تسجيل الشركة الجديدة تحت اسم « الشركة الهندسية للصناعات والمقاولات العمومية عثمان أحمد عثمان وشركاه »

«قصة اكبر مقر»

واتخذت الشركة الجديدة من العمارة ٣٤ شارع عدلى بالقاهرة مقراً لها منذ عام ١٩٥٦ وحتى الآن ، ولذلك المقر قصة مثيرة جداً . .

كانت أمنية تمنيتها وأنا لا أملك أدنى أسباب تحقيقها . .

وكان أن وجدتها . .

قصة لا تقل إثارة فى توارد أحداثها عن قصتى مع المستشار أنور ابو سحلى . .

وامتلكت المقاولون العرب بعدها فى القاهرة وحدها ١٧ عمارة أخرى . .

فما هى قصة تلك العمارة ؟

كانت أعمالى شبه متوقفة فى الفترة التى حدث فيها حريق القاهرة ، وكان يعمل معى مجموعة من المهندسين والملاحظين والعمال ، ربطتنى بهم علاقة الأسرة الواحدة قبل علاقة العمل .

وقد عز على أن أتركهم أو يتركونى ، فقررت الاحتفاظ بهم معى ، رغم أن جميع مصادر دخلى كانت متوقفة فى تلك الفترة ، وكنت أنفق من رأس المال . . وكان مجموع أجورهم يصل إلى حوالى ألف وثلاثمائة جنيه فى الشهر . .

وكان ذلك الموضوع يشغل بالى كثيراً .

وكنت ذات يوم فى منطقة « وسط البلد » أوقفت سيارتى عند ميدان الأوبرا ، وسرت على قدمى فى شارع عدلى متجها إلى شارع سليمان باشا ، وكان يوجد عند تقاطع الشارعين ناد إنجليزى اسمه « التيرف كلاب » .

وكانت الحرائق قد امتدت إلى العديد من منشآت «وسط البلد» فى ذلك الوقت بسبب حريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ . .

وكان ذلك النادى من بين الأماكن التى التهمتها ألسنة النيران . .

وقفت فى الاتجاه المقابل له ، ونظرت إليه ، وكأن باب السماء كان مفتوحاً .

وقلت لنفسى : لو كان عندى فوق تلك الأرض المقام عليها ذلك النادى عمارة كبيرة تدر على دخلا كبيرا ، كنت دفعت منه أجور العاملين معى ، وما وجدت نفسى فى تلك الحيرة التى لا أعرف لها نهاية . .

كانت أمنية طلبتها من الله سبحانه وتعالى من أجل أن تظل بيوت العاملين معى مفتوحة ، تمنيتها لهم ، وليس لى . .

ثم انصرفت بعد ذلك إلى حيث كنت ذاهباً .

وسافرت بعدها إلى المملكة العربية السعودية ، وأعطانى الله هناك خيراً كثيراً ، وعدت بعد عام لأجد النادى كما هو ، حطاماً لا تزال آثار الحرائق موجودة فيه ، وسألت عن صاحبه ، وعرفت أنه يهودى اسمه «كهونكا» .

وفاتحت والد زوجتى فى ذلك الموضوع ، واتضح أنه كان يعرف ذلك اليهودى ، وسألنى عما أريده منه ، وأفصحت له عن رغبتى فى أن أشترى الأرض التى كان عليها النادى . .

واتصل الأستاذ إسماعيل وهبى المحامى ـ رحمه الله ـ بذلك اليهودى ليعرف منه مدى استعداده لكى يبيع تلك الأرض .

ووافق «كهونكا» على أن يبيعنى تلك الأرض مقابل مائة جنيه للمتر الواحد ورفض أى فصال فى البيع والشراء .

وسألنى الأستاذ إسماعيل وهبى فى ذلك الوقت عن مدى استعدادى لأن أقبل تلك الشروط . . فوافقت على الفور . .

وقد اتفق «حماى» مع «كهونكا» على أن يقوم بتجهيز الأوراق المطلوبة خلال يومين ، نذهب بعدهما إلى الشهر العقارى لانهاء

الاجراءات .

وانكر ان « كهونكا » رفض ان اقوم بتحرير شيك له بالمبلغ وأصر على أن يحصل عليه « عداً ونقداً » .

وذهبت إلى البنك ، وقمت بصرف مائة ألف جنيه ثمن الأرض البالغ مساحتها ألف متر مربع ، وسلمتها له . . وذهب بعدها معنا إلى الشهر العقارى ، وأنهينا إجراءات التسجيل . .

وانكر أن الأستاذ إسماعيل وهبى ـ رحمه الله ـ اتصل بى تليفونيا فى اليوم التالى يطلب مقابلتى ، فذهبت إليه ، ووجدت عنده رجلا لا أعرفه كان يريد أن يشترى تلك الأرض منى مقابل أن يدفع لى عشرين ألف جنيه زيادة على المبلغ الذى دفعته . .

وسألت الرجل عن السبب الذى يريد شراءها من أجله . . واتضح لى أنه يريد أن يقيم فوقها « دار سينما أوديون »

وقلت له : إننى سأقيم فوقها عمارة ضخمة لكى تصبح مقراً لشركتى . .

وبذل معى الرجل العديد من المحاولات . . ولكن دون جدوى . .

إنها أمنية . .

وقمت على الفور باعداد الرسومات اللازمة لها وشرعت فى التنفيذ .

فواجهتنى مشكلة التمويل ، اتضح لى أن تكاليف المبانى لا تقل عن ٣٠٠ الف جنيه ، وكان كل ما امتلكه فى ذلك الوقت بعد أن قمت بدفع ثمن الأرض ثمانين ألف جنيه فقط . .

فذهبت إلى البنك العثمانى ، وتفاهمت مع مديره حول الموضوع ، وطلبت منه أن يقرضنى باقى التكاليف على أن أقوم بسدادها له خلال عامين على الأكثر . .

وأخذ منى عقد بيع الأرض ، وطلب أن أعود إليه فى اليوم التالى . . ويبدو أنه عرض الأمر على رياسة المركز الرئيسى للبنك فى انجلترا . .

وعدت صباح اليوم التالى لأجد الموافقة . . وحصلت على المبلغ

المطلوب ، وبدأت تنفيذ المبانى ، وانتهيت من سداد ما للبنك من مستحقات فى نفس الوقت الذى انتهت فيه عمليات البناء . .

وانتقلنا إلى مقرنا الجديد فى شهر نوفمبر ١٩٥٦ . .

ومنذ ذلك التاريخ لم أغير مكتبى فيه حتى الآن . .

وكانت تلك هى قصة أول أكبر مقر للشركة التى أصبح لها بعده عشرات المقار فى كل مكان . .

* * *

ولا أريد أن أقول إننى كنت دائما مستثنيا لصالح الشركة . . ولا اتذكر اننى سعيت فى يوم من الأيام الى تكوين ثروة بعيداً عنها . . بل كان كل ما يتجمع لدى من مال اضعه فيها . . لم افكر فى يوم من الأيام ان أشترى لحسابى عزبة ، ولم أفكر فى أن أسجل باسمى أيا من ممتلكاتى التى امتلكتها ، ولكن كنت لا اتردد فى أن أسجلها باسمها . . لأننى كنت وما أزال أرى نفسى فيها وليس فى اى شىء غيرها . .

وكان لتسمية الشركة باسم « الشركة العامة للصناعات والمقاولات العمومية » . أيضا قصة ؟

كان اهتمامى شديداً جداً بالصناعات وكان ضمن تخطيطى الذى اختزنته فى مؤخرة رأسى أن تصبح شركتى قادرة على إقامة المصانع فى الوقت الذى نقيم فيه الانشاءات عندما تتاح لها الفرصة التى تستطيع فيها ذلك . .

وكان أن أقمنا فعلا خلال فترة الخمسينات عدداً من المصانع . . منها مصنع اقلام الرصاص ، ومصنع القنالتكس ، ومصنع الخيوط الطبية .

« اللون . . والرمز »

وكان لابد وأن يكون لسيارات الشركة لون يميزها ، وكذلك رمز يرمز لها . .

واخذت اللون الأصفر لكى يميز سيارات الشركة ، ومعداتها عن

غيرها ، وسبب اختيارى لذلك اللون يعود إلى الطبيعة الصحراوية لمحافظة الاسماعيلية ، ووجدت أن ذلك اللون ليس منتشراً ، فأردت أن أنفرد به ، وكان لابد أن يكون لجميع معداتى لون واحد حتى أستطيع أن أميزها به عن اية معدات اخرى . .

وقد اخترت اللون بسهولة ، ولم اقف عند اختياره كثيراً .

واذكر اننى وقفتُ طويلا امام اختيار الرمز « البدج » الذى اردت أن يرمز به للشركة . .

وكان أن اخترت بسهولة خلفية الرمز ، واهتديت إلى أن يمثلها مصنع حتى يظل ذلك المصنع يذكرنى كلما رايته فى « البدج » بذلك العهد الذى كنت قد قطعته على نفسى ، كما يذكرنى بذلك اسم الشركة ايضاً . .

وكان لاختيار « أبو الهول » كمقدمة لذلك « البدج » أكثر من سبب عندى ، فهو يمثل أكثر من معنى ، ويجسد اكثر من هدف . .

وجدت فى « أبو الهول » رمزاً لمصر كلها ، وصورته فى اى مكان من العالم لا تدل إلا على كل ما هو مصرى ، وكان لابد أن أحدد انتماء الشركة من أول لحظة لكل من يريد أن يعرف هويتها . .

ويرمز « أبو الهول » فى دنيا الانشاءات إلى دقة التنفيذ ، وصلابة البناء ، وقوة العزيمة ، والقدرة الخارقة على الانجاز فهو يرمز الى الصمود ، والتحدى، والاستمرار . .

ويبدو أن هناك دافعا كان فى نفسى مؤداه أن تحقق شركتى فى دنيا الانشاءات ما يظل باقيا على مر السنين . . لتخلف ما يضاف إلى ما خلفه قدماء المصريين . .

وربما أردت أن أقول إن أبناء مصر خير خلف لخير سلف ، شيد أول وأعظم حضارة فى التاريخ . .

وأردت من الرمز أن يكون مصدر قوة يذكرنى بأننى ابن شعب عمره سبعة آلاف سنة . .

وظل اللون « والبدج » لم يتغيرا ، ولكن تغير اسم الشركة ليصبح

« شركة المقاولون العرب » عثمان أحمد عثمان وشركاه » ولذلك لاسم قصة .

* * *

كيف اصبح اسمها المقاولون العرب

كان ان كسبت عطاء السد العالى تحت اسم « الشركة العامة للصناعات والمقاولات العمومية » وكان نظام الحكم فى ذلك الوقت قد فرض علينا شركة مصر للأسمنت المسلح شريكا لنا . .

وكان أن بدأنا العمل ، وكان يلزمنا أن نطبع الأوراق الخاصة بالعملية ، والتى تحمل اسم كل من الشركتين . .

وارسلنا تحت ذلك الاسم خطابا إلى وزارة الرى نطلب منها فيه بعض التسهيلات ، حتى نبدأ فى إعداد الرسومات الخاصة بالعملية ، فى ضوء ما كان معداً من رسومات . .

وكانت تلك الرسومات توجد مع الروس ، وكان لابد من الحصول عليها منهم . . وسأل الروس عمن سيتولى التنفيذ ، وأجابتهم وزارة الرى بأن شركتنا وشركة مصر للأسمنت المسلح . . سيقومان بالتنفيذ .

وقامت قيامة الروس ، واستنكروا أن يقوم بالتنفيذ شركتان فقط ، واعتبروا أن ذلك الامر خروج على تعليماتهم التى كانت ترى أن يقوم بالتنفيذ مجموعة شركات وليس شركتين . .

وفهمت فى تلك اللحظة سبب الاصرار غير العادى الذى وجدته عند نظام الحكم السابق ، وهو يلح على أن تشاركنى شركة مصر للأسمنت المسلح للعمل فى تنفيذ مشروع السد العالى . .

وكان أن فوجئت بالمهندس مدير مكتب موسى عرفة ـ رحمه الله ـ فى ذلك الوقت يحضر إلى مكتبى وقال لى :

إن الروس معترضون على أن تقوم بالتنفيذ شركتان فقط ، ومصممون على ضرورة أن يقوم بالعمل مجموعة شركات . .

وتصورت فى تلك اللحظة أن النظام الحاكم لم يكفه ما حدث ، وأنه

أراد أن يفرض على معركة جديدة . .

وتوارد إلى ذاكرتي شريط ذكريات كل ما صاحب فكرة أن تشاركني مصر للأسمنت من أحداث . .

وفهمت لحظتها أن هناك أبعاداً أخرى وراء ما قاله لي مدير مكتب موسى عرفه وكان لابد أن أتحرك دفاعا عن نفسي ، وعن الشركة .

وانتابتني موجة غضب شديدة ، استطعت إخفاءها عن مدير مكتب موسى عرفة ولكن دار كل ذلك في ذهني وهو يجلس أمامي وكان ينتظر الرد .

وطلبت منه أن يتركني في ذلك الوقت ، على أن نتفاهم في صباح اليوم التالي ، لكي أجد فسحة من الوقت أتدبر فيها الأمر . .

وتصورت أنني مقدم على الصعب والمجهول مرة أخرى واستعنت كعادتي دائما بالله سبحانه وتعالى . .

انصرف مدير مكتب موسى عرفه وجلست في مكتبي وحدي ، أقلب أموري ، وتساءلت :

كيف أتصرف مع ذلك الموقف الجديد ؟

وكان أن ألهمني الله سبحانه وتعالى الحل قبل أن أستغرق في التفكير . . كيف ؟

اشتدت حيرتي ، ومن فرط غيظي قلت لنفسي : كان من المفروض أن يقوم جميع مقاولي الدول العربية بتنفيذ المشروع حتى يهدأ بال الروس .

وقفزت في تلك اللحظة إلى ذهني جملة :

« المقاولون العرب »

وتغير الموقف في داخلي فجأة ، وانفرجت أساريري ، وهتفت في أعماق نفسي :

وجدتها . . وجدتها . .

وكان مثلي مثل الغريق الذي يتعلق « بالقشة »

وقلت لنفسي إذا كان الاسم هو المشكلة ، فاني وجدت لها الحل . .

أما إذا كان المقصود بالاسم « مسمار جحـا » فعلى أن أواجـه قـدرى وسلمت لله أمرى . .

تصورت فى تلك اللحظة أنى وجدت الاسم الذى يعجـب الروس ، ولم يخطر على بالى أن ذلك الاسم سـيصبح لصـيقا بشركتى حتى الآن . . وإلى ما شاء الله . .

وكان أن استدعيت أحد خطاطى الشركة فى تلك اللحظة ، وطلبت منه أن يكتب بجميع أنواع الخطوط « المقـاولون العـرب لانشـاء السـد العالى » . .

وعرض على ما كتبه بالخـط الرقعـة ، والخـط الكوفى ، والخـط الفارسى ، واستقر الرأى على اختيار الاسم الذى كتب بالخط الكوفى . . وهو الخط الذى يكتب به الاسم حتى الآن فى جميع مـطبوعات الشركة ، وعلى كل معداتها . .

وذهبت فى اليوم التالى إلى المهندس مدير مكتب مـوسى عرفـه ، ولم انتظره حتى يأتى هو إلى مكتبى وقلت له ساخراً :

اتفق جميع المقاولون العرب وليس المصريون وحدهم على الاشتراك جميعاً فى تنفيذ مشروع السد العالى . . وذلك من حسن الحظ . .

وسألنى مدير مكتب موسى عرفه عما اقصده ، فـأجبته بأن سـلمته خطابا إلى وزارة الرى يحمل فى ترويسته « المقـاولون العـرب لانشـاء السد العالى » . . وطلبت منه أن اسـحب الخـطاب الذى كان سـبق أن ارسلته . .

وقام موسى عرفة بعرض الخـطاب على الروس ، وحـاز إعجـابهم الشديد . . وقالوا إن ذلك ما يريدونه بالضبط . .

وحمدت الله أن المشكلة لم تتطـور إلى أكثر مـن ذلك الحـد ، وبدأنا مباشرة نشاطنا .

وكان أن نجحت فى إزاحة شركة مصر للأسمنت المسـلح عن مـوقع تواجدها الاسمى معى فى موقع العمل ، ووجـدت أنه لم يعـد هناك مبرر لأن يكون الاسم « المقاولون العرب لانشاء السـد العـالى » لأن الجملة

الأخيرة كانت ترتبط بالعمل المشترك بيننا وبين مصر للأسمنت المسلح ، وفضلت أن يصبح ذلك الاسم هو الاسم النهائى لشركتى « المقاولون العرب » وأضفت إليه « عثمان أحمد عثمان وشركاه »

وحدث أن لحقت بالاسم بعض التعديلات بعد ذلك ولكنه عاد ليستقر على ما هو عليه الآن .. كيف ؟

كانت النار قد أكلت قلب النظام الحاكم عندما وجد لافتات المقاولون تحمل اسمى فى كل مكان ، ووجد أن الاسم يكبر يوما بعد يوم ليس على الورق ولكن فى ساحة الانشاء والتشييد .. وكان الاسم يكبر فى مجال لا علاقة له بما يمكن أن يثير الغيرة عنده ، ولن يفكر صاحبه أن يكون له دور غير ذلك الدور .

وكان نظام الحكم فى زيارة لتفقد مواقع العمل فى السد العالى ، ويبدو أن لافتات الشركة لفتت نظره ..

وكان أن عز عليه أن تحمل اسمى أو أن يجد اسما آخر يلمع او يكبر إلا اسمه .

ومع ان المجال مختلف ، وأوجه المقارنة غير موجودة ، إلا اننى لا أعرف ماذا خطر على باله ..

وكان أن بهره حجم الانجاز ، إلا أن فرحته بما رآه لم تستطع أن تخفى حقده .

ووجدت من يلفت نظرى بعد أن انتهت زيارته إلى ضرورة أن يكتب اسمى على اللافتات « بحجم صغير » ..

وحدث أن فعلت ما طلب منى ، ولكن يبدو أن المسألة بالنسبة له لم تنته عند ذلك الحد ، فوجدتهم يطلبون منى بعد ذلك الا يرتبط اسمى بالشركة أى يصبح اسمها المقاولون العرب بدون عثمان أحمد عثمان وشركاه .

لقد أعماه حقده عن كل الجهود التى كنت أبذلها ، ولم يمتد بصره لان يرى أن مثل ذلك التصرف يمكن ان يؤثر تأثيرا سلبيا فى معنوياتى مما تنعكس آثاره على المشروع الذى جعل منه حلم حياته ..

وظل اسم الشركة كذلك فترة من الزمن ، وكان أن طلبت مقابلة على صبرى ، وكان يشغل منصب رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ، وأوضحت له أن الاسم ليس مسألة شخصية ، ولكنه مرتبط بالشركة ، وانه معروف فى المنطقة العربية ، وأوضحت له ما يمكن أن تفقده الشركة بسبب عدم ارتباطه بها .

ووعدنى بدراسة الموضوع ، وفهمت أنه لا يستطيع أن يتصرف قبل الرجوع إلى قيادته السياسية . .

واستدعانى بعد عدة ايام ، وابلغنى بأنها وافقت على أن يعود الاسم ليكتب مرة أخرى مرتبطا باسم الشركة . . ولكن على أن يكتب الاسم بحجم صغير غير ملفت للنظر . هكذا قال لى على صبرى . .

المهم . . عاد الاسم الى الشركة مرة أخرى ، وظل مرتبطا بها حتى الآن . . ولكن لك أن تفهم ماذا يعكس ذلك المطلب من أشياء كانت فى نفس الرجل .

وكانت تلك الواقعة سببا فى أن أعيد أسماء جميع أصحاب شركات المقاولات إليها . . عندما توليت وزارة الاسكان والتعمير . . وكان ذلك اقل تقدير لهم . . لما أسسوه من شركات انتفعت بها بلدهم . .

«كيف تطورت ؟»

كان أن تناولت على الصفحات السابقة تطور « المقاولون العرب » منذ أن كانت فكرة فى رأس عثمان أحمد عثمان إلى أن أصبحت تحتل كل ذلك المكان . .

كيف حدث ذلك التطور ؟ ولماذا نجحت الشركة فى أن تحقق كل تلك التوسعات ؟

واجد من المناسب أن اقف هنا امام مجموعة من العناصر الأساسية ، تحكى تجربتى من خلالها قصتى مع « المقاولون العرب » . .

وهى :

تحديد الهدف . .

وضع الاطار الأخلاقى . .

تطوير إمكانيات الشركة . .

بناء الشخصية القيادية . .

العلاقات الانسانية السليمة . .

كان هدفى تكوين شركة مقاولات ، لها نفس إمكانيات الشركات الأجنبية العملاقة ، التى كنت آراها فى منطقة القناة .

وأصبح الهدف واضحاً منذ طفولتى ، وكان أن نجحت بفضل الله ، وأدركت الهدف .

وكانت أول وسائلى لادراك ذلك الهدف ، تذهب إلى ضرورة وضع إطار أخلاقى لا أحيد عنه حتى لو كلفنى حياتى ، وكان أن جعلت من كل قيم الدين الاسلامى الحنيف أساساً لذلك الاطار . . فحمى الشركة من الانحراف .

وكان أن وجدت فى إتقان العمل ، والالتزام بالمواعيد حكمة . . إن عمل الانسان هو أول من يدافع عنه .

أنقذ ذلك المبدأ الشركة من الكثير الذى كان ينتظرها ، ومن كل الذين يتربصون بها .

وكان لابد من توفير العناصر التى تمكن لتلك المبادىء من تأكيد نفسها ، ووجدت ذلك فى ثلاثة أمور تنحصر فى :

تطوير إمكانيات الشركة وتأكيد الشخصية القيادية فيها ، وبناء العلاقات الانسانية السليمة .

فكيف تحقق ذلك ؟ . . اهتديت إلى أن تطوير الشركة ينحصر فى :

ـ الاختيار الدقيق للعاملين .

ـ تزويد الشركة بكل ما هو حديث فى دنيا المعدات والآلات وكان أن اتخذت من المعارض الدولية وسيلتى إلى ذلك .

ـ وإرسال البعثات من المتخصصين إلى كل مكان من الدول المتقدمة للحصول على أحدث ما فى العصر من علم وتكنولوجيا .

ـ إنشاء معهد تدريب المقاولون العـرب ، وتنميته ليؤدى رسـالته فى تخريج فنيين عمالقة فى كل المجالات . .

وأذكر كيف كنت أختار الرجـال الذين كانوا يعملون معـى ، واستطعت بهم ومعهم أن ننجز ذلك الكيان العملاق .

(اختيار القيادة)

أذكر أنني كلما التقيت بأى إنسان كان يثبت فى ذاكرتى ولا أنساه . . وأحدد منذ الوهلة الأولى المكان الذى يمكن أن يعطى فيه أكثر من غيره ، وأبحث عنه لأستفيد مـن إمـكانياته فى الشركة ، عندمـا يحين الوقـت المناسب لذلك . . فمثلا :

كان أن وقع اختيارى على المرحوم أمين الشريف ليشغل موقع مدير مشروع السد العالى وتساءل البعض مندهشا :

كيف أختار ضابطاً مديراً لمشروع هندسى؟

ولذلك الموضوع قصة . .

عرفت المرحـوم أمين الشريف فى شـبابى سـنة ١٩٤٥ عن طـريق صديقى أبو العينين ، وكنت فى ذلك الوقت مقاولا صغيرا فى الاسماعيلية ، وكنت أعيش وحيداً فى منزلنا بالاسماعيلية ، وطلب منى صديقى أن يقيم معى هو وأمين الشريف ، ومجموعة من زملائهم الضباط الذين يعملون معهم فى وحدتهم العسكرية . .

وعاش الضباط معى فى المنزل ، وكان اختلاطى بهم محدوداً ، بحكم ظروف عملى التى كانت تستلزم خروجى من المنزل مبكراً ، وعودتى إليه متأخراً .

وكنت أجلس معهـم بين الحين والحين ، وكان أن وجـدت فى أمين الشريف نوعية خاصة ، وجدته مؤمنا مخلصا ، مصلحا ، محبا لزملائه ، يعمل على حل الخلافات ، ولا يصعدها شديد الغيرة على وطنه ، ويدافـع عن أصدقائه فى غيابهم دون أن يكون فى حاجة لأن يعرفوا عنه ذلك . .

وانتقل أمين الشريف إلى مكان آخر فى العمل ، ولم تستمر إقـامته معى ، وكنت ألتقى به بعد ذلك على فترات متباعدة .

وتولى الرجل رياسة جهاز التعبئة العـامة ، والاحصـاء بعـد قيام الثورة . .

ودخلت فى عملية السد العالى سنة ١٩٦٠ ووجدت أنهـا تحتاج إلى تنظيم دقيق ، وضبط وربط ، والضـباط هـم أقـدر النوعيات على ذلك العمل .

وتذكرت فى تلك اللحظة أمين الشريف ، ووجدت من يعترض على ذلك الاختيار ، لأنه ليس مهندساً .

وكانت وجهة نظرهم واضحة وسليمة . . ولكن كانت عندى أسـباب أخرى . .

فأنا المسئول الأول عن المشروع ، ومتواجد فيه بشـكل دائم ، وليس هناك ما يستدعى الخوف مـن تحفـظهم ولكن . . كان اختيارى للرجـل يعتمد على أنه ضابط وأن رجال الثورة ضباط مثله ، لذلك فهو يستطيع أن يفهم نفسيتهم ، ويتعـامل معهـم أكثر مـن غيره ، وبذلك يوفـر على الكثير من الوقت والجهد .

وكان أن نجح الاختيار ، وأصبح حلقة وصل هامة جـداً ، وأعطـى الاختيار نتائج لمَ أكن أتوقعها . .

وكان أن التقيت فى السعودية أيضا مع المرحـوم أمين عمـر سـنة ١٩٥٤ وكان يعمل مستشاراً لوزير الدفاع السـعودى فى الخمسـينات ، وكانت شركتى تتولى تنفيذ مشروع الكلية الحربية هناك فى ذلك الوقـت ، وكان كثير التردد على موقع العمل ، اختلطت به ، وتعاملت معه . . وجدته رجلا نظيفاً ، منظماً ، منضبطاً .

واقتنعت به كواحد مـن الرجـال الذين يمـكن ان تسـتفيد الشركة بامكانياتهم فى يوم من الأيام . .

وعاد من السـعودية ، وكان يعمـل كبيراً لمعلمـى الكلية الحـربية المصرية ، ودخلت فى تنفيذ عملية السد العالى . .

وذهبت إليه فى مكتبه سنة ١٩٦١ وطلبت منه التعاون معى ، ونجحت فى إقناعه ، وانضـم إلى فـريق العمـل بالشركة ، وكان أن نجـح فى أن

يختصر الوقت الضائع فى التغيير ، من وردية إلى وردية فى العمل من ساعتين كاملتين ، إلى دقيقتين فقط ، ونجح فى أن يدير شئون خمسة وثلاثين ألف عامل ، كانوا يعملون ٢٤ ساعة فى اليوم .

كان لابد أن أختار الرجال الذين يتحملون المسئوليات حتى أتفرغ لما هو أهم . . هكذا فهمت القيادة . .

وكان لقدرته الكبيرة على تنظيم العمل ، وتشغيل الأعداد الكبيرة الفضل فى أن تستطيع الشركة أن تستوعب كل ما أقدمنا عليه بعد ذلك من أعمال .

« التحديث فى الأفكار والمعدات أيضاً »

وكان على أيضا أن أعمل على تزويد الشركة بكل ما هو حديث من العدد ، والآلات ، والمعدات ، وأذهب إلى كل مكان من الدنيا لكى أحصل عليه ، وأضيفه إلى ما لدى الشركة من معدات . .

وكان أن وجدت فى المعارض الدولية التى تقام فى مختلف دول العالم وسيلتى إلى تحقيق ذلك الهدف . . حيث يجد فيها الانسان العالم كله بين يديه ، ويستطيع أن يشترى كل ما يريده ويحتاج إليه ، وأن يقف على كل ما هو حديث .

حرصت بذلك الأسلوب على أن تتمتع الشركة بكل ما يضمن لها التفوق عن غيرها ورفضت أن أبخل عليها ، فارتفع بنيانها . .

ورحت أيضاً أمد أولادى فى الشركة بكل ما هو حديث ومتطور فى مجال الخبرة والممارسة .

وكان أن أنشأت معهد تدريب المقاولون العرب ، ولانشاء ذلك المعهد قصة . .

حرصت على أن تكون نوعية العاملين فى المقاولون العرب متميزة ، وقادرة على ما لا يستطيعه غيرها ، ووجدت الطريق إلى خلق تلك النوعية عندما اتسع نشاط الشركة ، فى إنشاء معهد تدريب خاص بالشركة ،

يقوم بتدريب العاملين فى جميع التخصصات فى كافة المجالات التى تمتد إليها يد نشاط الشركة .

وتتحمل الشركة ما قيمته مليونى جنيه سنويا ، بسبب ما يحتاجه ذلك المعهد من نفقات ، ولكن فى المقابل فانه يضيف إلى العمالة الماهرة ألفى فنى كل عام ، تحتاج منهم الشركة إلى ألف وتترك الألف الأخرى ، يبحث كل واحد منهم لنفسه عن فرص عمل حيث يريد بعد ان أصبح أهلا لذلك . . لكى ينفع نفسه وينفع بلده .

وكم كان لذلك المعهد من فضل على الشركة .

مدها بكل ما تحتاجه من العمالة الفنية المدربة بالأعداد التى تريدها ، وفى الأوقات التى تناسبها . .

تضم الشركة بين صفوفها من خريجى ذلك المعهد لحامين ، وكهربائيين ، وسباكين ومبيضين ، ونجارين ، ومن مختلف المهن ، يتمتعون بأرفع مستوى من الخبرة فى العالم كله ، ولا أقول ذلك من قبيل المفاخرة . . ولكن هناك خبراء دوليون اختبروا قدرة هؤلاء الشبان أكثر من مرة ، وكانت النتيجة أن العامل المصرى أكفأ عامل فى العالم على الاطلاق .

وكان المعهد سببا فى أن تكبر الشركة وأن يزداد حجمها ونشاطها وأن تمتد يدها إلى ما تنفذه من أعمال تبدو للآخرين وكأنها ضرب من الخيال . .

وكان أن سرت فى طريق آخر فى نفس الوقت استهدفت منه أن يحصل العاملون فى الشركة على أحدث ما فى العالم من أفكار فى مجال العلم والتكنولوجيا .

فرحت ابعث بمختلف المتخصصين فى كافة المجالات إلى مختلف الدول المتقدمة ، لكى يقفوا على أحدث ما وصل إليه العالم من تطور ، ويقومون بتطويعه لخدمة ما تقوم الشركة بتنفيذه من أعمال ، ولم تقف اهتماماتى عند حد دقة الاختيار ، فى المعدات ورفع مستوى خبرة الرجال . . ولكن . .

« القيادة »

رحت أعمـل على تنمية الشـخصية القيادية للشركة فى اتجـاهين ، حرصت على أن أضرب لهـم مثلا فى القيادة السـليمة بكل مـا تشـمله الكلمات من معان ، وجدت لها مكانا على صفحات أخرى .

قيادة تقود الرجال من « وسـطهم » ولكنهـا قـادرة على أن تحـدد بوضوح لهم ملامح طريقهم .

وحرصت فى نفس الوقت على أن أنمى فى أبناء الشركة القـدرة على القيادة وتحمل مسئولياتها .

وكان أن غلمتها لهم من خلال ممارساتى معهم وليس فقط من خلال إتاحة الفرص الكبيرة لهم . .

وتنبهت إلى خطورة أن أترك نفسى للملفات تستغرقنى ، أو لدوامـة العمل اليومى ، لأن تستوعبنى ، فتحجب عنى كل ما خلفها . . فـلا أرى أبعد مما أنا فيه . .

لذلك حرصت على أن ألقيها وراء ظهرى . .

تعودت على ترتيب العمل وتنظيمه ، وعلى أن أعلمـه لهـم وأتحـت الفرصة لأن يأخـذ كل مسـئول فى كل مـوقع صـلاحيات مباشرة اختصاصه . .

فعلت ذلك لكى أستطيع أن أنظر إلى الشركة مـن خـارجها . . لكى أرى حجمهاومواطن القوة فيها لتأكيدها . . ومواطن الضعف لتفاديها . .

وتعودت أن أنظـر إلى الشركة مـن خـارجها حتى أرى بوضـوح صورتها . . ولكى أستطيع أن أخطط لمسـتقبلها . . وأرسـم سـياسات توسعها . .

وحرصت أيضا على أن أعطى جميع العاملين معـى فـرص إثبات ذاتهم على كل مستويات مسئولياتهم ، وحـرصت دائمـا على أن ألتزم برأى الأغلبية ، وتعودت ألا أفرض رأيا عليهم مهما كان ذلك الرأى على جانب كبير من الصواب ، وكثيرا مـا كانت هناك مـواقف كنت أراهـا

بما لى من بعد نظر ، وكانوا يعترضون على ما أطرحه مـن اقتراحـات ، وكثيرا ما كنت أخضع لآرائهم ، رغم اختلافى معهـا ، وكانت تثبت الأيام صحة ما كنت أذهب اليه من آراء ولكننى كنت حريصا على ان اتركهـم للتجربة لكى يتعلموا .

وكان ان تأكد لهـم بمـرور الأيام ضرورة أن يثقـوا فى رأيى ، وان يهتدوا بنصائحى دونما فرض منى عليهم ، ولكن بكامل إرادتهم بسـبب ما تعلموه من مواقف كان يثبت فيها صحه ما أقول ، فتأكدت قيادتى لهم من خلال مواقف كثيرة . . فالتفوا من حولى . .

وثبت لى أن مـن تقـودهم لابد أن يقتنعـوا برأيك ، ويقتنعـوا بك ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك الاقتناع إلا إذا ثبت لهـم تفـوقك ، وكفـاءتك ، وخبرتك ، وقدراتك العقلية ، وسلامة نتائج ممارستك ، وكان أن طبقـت ذلك فى المقاولون العرب ، وكانت النتائج كما توقعت باهـرة . . والحمـد لله . .

وأتناول هنا بعض المواقف التى اقدمها كنماذج حية ، لما مارسته من تجارب جعلتهم يسلمون برأى ويسيرون خلفى إلى حيث أريد . . تعلموا هم منها كيف تكون القيادة .

أرادت الشركة أن تنشىء ورشا لها فى منطقة شبرا ، واقترحت وقتها أن نقوم بشراء خمسـة عشر فـدانا ، وكان نصـيب اقتراحـى الرفض الكامل وحاولت إقناعهم ولكنهم وجدوا من المناسـب أن يقـوموا بشراء أربعة أفدنة فقط وكان أن سـلمت ، بمـا انتهـى إليه رأى الأغلبية ، فى الوقت الذى كان من الممكن أن أرفض الرأى . .

ولكن حرصت على أن أضحى بما كنت أراه سليما ، حتى أترك لهـم فرصة تنمية مواهبهم وقدراتهم ليتعلموا من التجـارب ، كيف يتحملون المسئولية ، وحرصت على ألا أقفل على أفكارهم داخل صدورهم . .

وكان أن وجدوا أنفسهم بعد ذلك مضطرين لشراء خمسـين فـدانا دفعة واحدة لمواجهة التوسعات الجديدة ، فى ورش الشركة ، وكان ثمـن الفدان الواحد خمسين الف جنيه ، وكان ذلك الموقف سببا فى أن يندموا ،

لأنهم لم يوافقونى على شراء خمسة عشر فدانا وقت أن كان ثمن الفدان الف جنيه فقط . .

ندموا . . فتعلموا من التجربة . . كيف يجب أن يكون بعد النظـر . . وذلك ما كنت أريد أن ازرعه فيهم . .

واقترحت على مجلس الادارة منذ عدة سـنوات أن نقـوم بانشـاء مستشفى للعاملين فى الشركة ولأسرهم ، وكان نصيب اقتراحى الرفض رغم كل الحجج التى قدمتها فى الاجتماع . .

ولكن عادوا فيما بعد يفـكرون فى تنفيذ ذلك الاقتراح بعـد أن وصـلت تكاليف المستشفى التى أقاموها عشرة مـلايين جنيه ، بعـد أن كانت لا تتعدى ربع مليون جنيه عندما تقدمت باقتراحى . .

كنت حريصا على أن أترك لهم فرصة الخـطأ مـرة ومـرات ، حتى يستطيعوا مواجهة الحياة بمجموعة من التجارب التى تهيىء لهم القدرة على اختيار الطريق الصحيح .

وحدث أن اقترحت عليهم مرة أن نقـوم بانشـاء قسـم للتحـركات بالشركة ، وكان منطلقى فى ذلك أن عملنا فى المقاولات يعتمد فى جزء منه ، على نقل مواد البناء بين مختلف الأماكن والمواقع .

ونوفر بذلك ما ندفعه ، من إيجار لسيارات الغير مـن ناحية ، وحتى نجد سياراتنا تحت أمرنا ، وقت أن نحتاجها من ناحية أخرى .

وكان أن وقفوا جميعا يرفضون الفكرة ، وكنت أرى أن إنشـاء مثل ذلك القسم ، من المسائل الحيوية بالنسبة للشركة وتمسكت برأيى فى تلك المرة ، وذكرتهم بالمواقف السابقة التى اختلفوا فيها ، وسلمت لآرائهـم واثبتت الأيام اننى كنت على حق فيما رفضوه .

وقفت فى تلك المرة ، ضد رأيهم لأن هناك من المواقف ما هو خـطير ، ولا يصح أن أجعـل منه حقـلا للتعليم وكان لابد أن أصـدمهم . . حتى يسترجعوا خبرة تجاربهم . . لأن من لا يسترجع خبرة تجاربه . . كمـن يحرث فى الماء . .

وكان ان سلموا برأيى فى تلك المرة . . واقتنعوا .

وتم إنشاء ذلك القسم وتوسعنا فيه ، وأصبحنا نستخدمه كمصدر دخل للشركة ، بسبب تشغيل سياراتنا ومعداتنا بالايجار للغير ، وأصبح يدر ذلك القسم أرباحا طائلة للشركة وكان أن اعترفوا بعد ذلك أن ذلك القسم قد أنقذ الشركة من كارثة محققة ، ولولاه لكانت على وشك الافلاس .

أذكر مواقف عديدة أكدت حسن قيادتى لرجالى فولدت الثقة التى أعطوها لى بلا حدود .

وعملت أيضا من جانبى على أن أعطى الثقة لكل قائد فى موقعه ، فلا أتدخل فى تصريف شئونه إلا بالقدر الذى يستلزم ذلك التدخل ، فكان أن زادت خبرتهم ، وقدرتهم وزادت ثقتهم فى أنفسهم ، وانعكس كل ذلك على الشركة ، فأصبحت أهلا لكل ما أسند إليها من أعمال . . .

وأعطتنى خبرتى القدرة على أن أستطيع الحكم لأول وهلة على موقف أية عملية قبل أن نتقدم لعطائنا ، وكثيرا ما كنت عندما ندرس التقدم لعطاء معين ، أن أختار بندا معينا من بنود العطاء وأركز على ذلك البند ، وأحدد له سعرا معينا ، وأصر على عدم تغييره ، وتثبت الأيام بعد أن نكسب العملية وننتهى من تنفيذها أن المكسب الذى حققناه منها كان بسبب ذلك السعر الذى حددته ، من غير ما يكون لدى القدرة وقتها على تفسير لماذا حددت ذلك البند بالذات ، وحددت له ذلك السعر دون غيره .

وكان أن علمتهم التجارب فى ذلك المجال كيف يدققون النظر فى كل بند فى أى عطاء يتقدمون له حتى يقدروا موقفهم على أسس أكثر موضوعية .

وأذكر أننى اقترحت ذات مرة على مجلس الادارة أن يقوم بتعيين مائتى مهندس ، على أن يتم تعيينهم على مدى عامين ، وكان ذلك الاقتراح فى وقت لم تكن فيه الشركة فى حاجة إلى مهندس واحد ، وكان أن تجاهلوا اقتراحى ، وكان لديهم فى ذلك الوقت ما يبرر موقفهم فسلمت برأيهم . . ولكن بعد سنتين وجدوا أنهم فى حاجة إلى ذلك العدد بسبب ما كان قد حدث فى الشركة من توسعات . .

واستطعت بتلك الروح أن أمكن للقيادة فى نفوسهم مكانها اللائق

بها . . سواء فيما يتعلق باقتناعهم بقيادتى لهم . . أو فيما يتعلق باتاحة الفرص لهم لكى يتعلموا حتى يستطيعوا أن يكونوا أكثر قدرة على تحمل المسئولية ولكى يتمكنوا من أن يتصدوا للمواقف ، التى قد تعترض طريقهم . .

ونجحت فى تحقيق ذلك الهدف والحمد لله . .

« العلاقات ودورها »

كان أن حرصت على أن تسير تلك العلاقات فى اتجاهين .

أولهما : أن أنجح فى بناء أسرة واحدة ، وثانيهما أن أنجح فى أن أقيم حول تلك الأسرة سورا من حب الناس يحيطها ، ويحميها ، ويفتح الأبواب لها ، ويأخذ بيدها . .

ووجدت طريقى إلى ذلك فى تكوين فريق متآلف ومتناسق ينعكس عليه جو ترابط الأسرة الأولى التى نشأت فيها ، ووضعت نفسى بالكامل فى خدمة كل مامن شأنه أن يطلق كل طاقاتهم نحو فيض من العطاء المتواصل . .

حرصت على أن أعيش معهم مشاكلهم وأشعر بآلامهم وأسأل عن أخبارهم وعلمتهم أن يكونوا « جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » . .

وكان أن وضعت نصب عينى مجموعة من الأشياء الصغيرة الكثيرة التى لا يستطيع أن يراها الاخرون ولا تلفت اهتمامهم إذا وقعت عليها أنظارهم . . وكان لتلك الأشياء آثار إيجابية رائعة لا حدود لها . .

كان من بين تلك الأشياء حرصى على أن أمضى أيام الأعياد والمناسبات بين العاملين فى كل المواقع وأصافحهم عاملا عاملا وعندما تسبب كبر حجم الشركة ، وتعدد مسئولياتى فى أن يحرمنى من متعة مصافحتهم .

حرصت على أن ألتقى بهم جماعات جماعات كل فى موقعه .

وكانت الثمار التى جنتها الشركة من ذلك أكبر بكثير من النتائج الظاهرية التى تبدو للبعض أنها محدودة ، ولكن كم كان يحفر مثل ذلك

التصرف فى أعماق الانسان ، وكم كان يعطيه من قـوة دافعـة لا حـدود لها . .

واقف هنا أمام عدد من الأمثلة التى اتخذت منهـا طـريقا لاقـامة علاقات إنسانية سليمة ، تبدو صغيرة فى مـظهرها ولكنهـا كانت أحـد الأسباب الرئيسية للتطور الكبير الذى حققته الشركة . . . .

كان أن اتبعت الشركة نظاما جديدا للتأمين يحصل العامل بمقتضاه على أجر ألفى يوم عند وفاته فى مـوقع العمـل وعلى أجـر ألف يوم إذا كانت وفاته طبيعية .

وكانت وفاة المرحوم أمين الشريف سببا فى ذلك .

كان أمين يقيم مـع أسرته فى أسـوان وامتد بنا السـهر فى مـوقع العمل ، إلى ما بعد الثانية من صباح اليوم التالى ، وذهـب إلى بيته على أن يعود فى السابعة صباحاً ليتناول معى طعام الأفـطار كمـا تعـودنا ، ولكنه لم يحضر فى نفس الموعد ، وتأخر ساعة كاملة ، سألت عن السـبب فعرفت أنه عانى من بعض الآلام بعد أن ذهـب إلى بيته ، وطلبت منه أن يستريح ولكنه أصر على مواصلة العمل ، على اعتبار أن صحته أصبحت أحسن .

وكان أن استدعيت الطبيب من المستشفى التى أنشأتها خصـيصا لعلاج العاملين داخل موقع العمل . .

وكشف عليه الطبيب ، وطمأننا عن صحته وذهـب لكى يحضر حقنة لكى يحقنه . . واستعجل أمين وفضل عدم الانتظار حتى يعود الطبيب .

وكان أن غادر معى الاستراحة ، فى سيارة فولكس واجن ، كان يقوم هو بقيادتها ، وكنت أجلس إلى جواره ، وكنا فى ذلك اليوم على موعد مع الروس ، وسرنا فى طـريق قمنا بتعبيده خصـيصا لتحـركاتنا بين الصخور ، وكانت الطريق لا تسـمح إلا بمـرور سـيارة واحـدة ، وكان السير فى ذلك الطريق يحتاج إلى مهارة فائقة ، ووصلت إلى مـكان تركنا فيه السيارة ، وسرنا على أقدامنا مسافة ، وجدنا بعدها أنفسـنا ، على شاطىء نهر النيل ، وكنا قد مهـدنا فى ذلك المكان ميناء نهـريا صـغيرا

للنشات يستلزم النزول إليه « سلالم » اقمناها خصيصا لذلك الغــرض ، وكان عددها مائة واربع درجات سلم .

وكان موعدنا مع الروس عند ذلك الميناء ، وبعد المقــابلة عدنا مــرة اخرى نصعد الى مائة واربع درجات سلم وكان أمين معى . .

وعدنا إلى سيارتنا وركبناها ، لنعود إلى مواقع العمل ، التى تعودنا أن نتفقدها ، وقابلنا فى الطريق عامــلا ، لفتت نظــره الســيارة وكان أن نادى « يا باشمهندس عثمان ، يا باشمهندس عثمان » فطلبت مــن أمين ان نقف بالسيارة لكى نعرف ماذا يريد ذلك العامل . .

وكان أن توقف بالسيارة ، وكان يتمتع « رحمه الله » بعــادة ممتازة هى أنه كان « يشد » فرامل اليد كلما توقفنا فى مكان . .

ونزلت من السيارة لكى أعرف ماذا يريد العامل ، وعندما عدت لكى نواصل السير ، فوجئت بأمين ، يضع رأسه فوق عجلة القيادة .

تصورت فى بادىء الأمر أنه فى وضع استرخاء نفسى ، وطلبت منه أن يواصل السير فلم يستجب ، وتصورت أن النوم غالبه ، فحاولت إيقاظه ، ولكن وجدته قد أسلم روحه لخالقه . . وفارق الحياة . .

وقمنا بعــــد ذلك ، باعداد ترتيبات جنازته ، وودعناه إلى مثواه الأخير .

وبقــى فى ذهنى ضرورة أن يكون فى الشركة نظــام تأمين ، يحصــل أولاد العامل بمقتضاه على عائد يساعدهم على مــواجهة أعباء الحياة ، بعد عائلهم ليطمئن كل عامل على مستقبل أولاده ، فلا يدخر مــن جهــده شيئا . .

وكان أن اســتحدثت نظــاما للتأمين يضــــاف إلى جميع أنواع التأمينات المعمول بها ، ويشمل الجميع مــن الســاعى إلى المدير ، وكان ذلك النظام ، عن طريق بوليصة تأمين جماعية لجميع العاملين بالشركة ، ويحصل مقتضاها أولاد كل عامل ينتقل إلى رحمة الله أثناء العمل ، على أجر ألفى يوم دفعة واحدة بالاضافة إلى كل ما له من مستحقات أخــرى وفرتها له قوانين التأمين ، والمعاشات المعمول بها فى الدولة . .

وكان أمين أول من استفاد من تلك البوليصة ، التى ما يزال يستفيد منها جميع العاملين فى الشركة . .

أضرب هنا أمثلة . . ولست بصدد سرد كل ما فعلت فى ذلك الاتجاه ، ولكننى أردت أن أقول فقط كيف عرفت الطريق إلى تحقيق تلك العلاقات الانسانية التى وجدت لها أكثر من مكان ، على امتداد تلك الصفحات من أولها إلى آخرها . .

كان أهم سجلات المقاولون العرب التى حرصت على إنشائها سجل « دليل الوفاء » ، وأنشأت ذلك الدليل خصيصا ، ليسجل وفاء الشركة لكل من كان وفيا لها من بين أبنائها ، ولكى لا تنقطع صلته بها بمجرد وفاته ، ولكن يبقى مقيدا فى سجل وفائها مادامت باقية ويسجل ذلك السجل ، اسم وبيانات وصورة ، من ينتقل إلى رحمة الله فى صفحة كاملة مهما كان مركزه فى الشركة ساعيا أو مديرا . .

وتربط الشركة كل من أحيل إلى المعاش من أبنائها رابطة قوية تظل دائمة لا تنقطع ، وما تزال علاقاتى مع قدامى العاملين دائمة ومستمرة ، أزورهم ويزورونني ، ونلتقى على الحب الذى حرصنا على أن يكون رائد عملنا دائما . .

وكان أن فعلت ما يتصوره البعض من قبيل الرفاهية . . ولكنى كنت أعرف قيمة ما كنت أفعل . .

يوجد فى الشركة جمعية تعاونية استهلاكية ليست مهمتها البيع لمن يقصدها من ابناء الشركة ، ولكن مهمتها أن ترسل مندوبا إلى منزل كل مهندس وعامل وملاحظ ،يسأل عن احتياجات بيته ويقوم باحضارها إليه ، وجميع الاحتياجات ومن كافة أنواع السلع ليس الغذائية فحسب بل وحتى الكراريس وأقلام الرصاص . .

أردت ذلك حتى لا يجد أى من العاملين نفسه مشغولا ، أثناء العمل بتوفير ما يلزم بيته من احتياجات ، فبدلا من أن ينصرف فكره ، وجهده إلى إنجاز العمل المكلف به ، ينصرف إلى التفكير فيما يشغله من مطالب بيته .

أشياء صغيرة فى ظاهرها . . ولكنها كبيرة فى نتائجها . . حرصت على أن أجمعها وانفذها لأننى أعرف قيمة عائدها . .

تضم الشركة إلى صفوفها باستمرار أبناء وأخوة العاملين فيها . . إنها روح الأسرةالتى أردتها وحرصت عليها ، وليس هناك ما يثبت لهم أن الشركة شركتهم ، إلا إذا فتحت أبوابها لهم ، ولأولادهم من بعدهم ، فيزداد حرصهم عليها ، ويجدون رغبتهم فى تنميتها أقوى من رغبتى شخصيا . .

وليس ذلك إلا ترجمة لروح الأسرة الواحدة ، التى حرصت على أن يشعر بانتمائه الشديد إليها كل من يعمل فيها . .

أشياء كثيرة تبدو صغيرة ، ولكن كلا منها كان سببا فى أن يضيف لبنة جديدة للبناء الصاعد .

وأذكر مما كنت أفعل أننى كنت أحتفظ فى جيبى بنوتة ، كنت أسجل فيها اسم كل من كنت ألتقى به فى كل مكان ، وعنوانه ورقم تليفونه ، بل تاريخ ميلاده إن تمكنت من معرفته .

وكان أن تعودت فى المناسبات المختلفة ، أن أرسل إلى كل من سجلت اسمه فى تلك النوتة «كارت معايدة» .

وثبت أن تكاليف الكارت معدومة . . ولكن فوائدها أضعاف تلك التكاليف . .

وكم كان ذلك الكارت سببا فى أن يحل مشاكل كبيرة للشركة ، فعندما كان يذهب أبنائى إلى مكانٍ ما يكون لهم فيه مصلحة ما ، ويتقدمون للمسئول على أنهم من «المقاولون العرب» فكان يتذكر على الفور ذلك الكارت ، وكان يقدم لهم كل ما يريدونه دون أى تردد .

(وعلى الجانب الآخر)

وعلى الجانب الآخر للعلاقات الانسانية بذلت كل ما فى وسعى لكى أقيم علاقات من الود والمحبة ، مع كل الناس ، وحرصت على أن احتفظ بعلاقة الرجال قبل أن أحتفظ بالمال . . كما علمتنى أمى . .

وكان أول ما كنت اسعى إليه فى كل مكان تذهب إليه أعمالنا . . كنت أسعى إلى أهل المنطقة التى نباشر تنفيذ العمل فيها . . أستعين بخبراتهم ، وإمكانياتهم وافتح الطريق إلى فرص عمل لأبنائهم ، ومعداتهم ، لأننى اقتنعت بضرورة أن يعود المشروع بالخير على أهل المنطقة ، وأن يضيف تواجدنا جديدا إلى أحيائهم .

اردت بذلك أن اقترب منهم واقربهم لى ، لكى انجح فى ان اكسب ودهم .

وكانت النتائج أكبر بكثير مما كنت اقدم إليهم ، كان حرصهم شديدا على معداتى وكانوا يحافظون على وعلى أموالى .

حرصت على أن يكون بينى وبينهم تبادل المنافع . . فكانوا أحرص منى على نفسى . .

وكنت ايضا احرص على ضرورة أن اترك أثرا ما . . أى أثر أستطيعه لكى يستفيد منه أهالى المنطقة ، التى كنت اذهب إليها كأن أقوم ببناء مسجد أو استكمال بناء مدرسة أو اشق طريقا .

وكنت أقوم بكل ذلك دون ما اطلب منهم المقابل . . وكان العائد اكبر . . **هو الحب وذلك اسمى ما سعيت إليه فى حياتى . .**

وقد حرصت على العلاقات الطيبة ، مع كل من نقوم بتنفيذ أعمال لحسابهم ، وكل من يتعامل معنا فى أية عملية نقوم بتنفيذها . .

واستطعت بذلك أن اقيم سورا من الحب ، حول الشركة ، كثيرا ما حماها من كل من كان يريد بها شرا . .

وحرصت دائما على أن افعل كل ما من شأنه أن يضيف للبناء الكبير كل جديد . وادركت دور الاعلام لخدمة كل تلك الأهداف وفرقت بينه وبين الاعلان . . واعطيت الاعلام المكانة المناسبة والاهتمام المطلوب ، وحرصنا على أن يكون أمره فى يدى شخصيا نظرا لأهميته . .

وكنا نقوم فى البداية بنشر مساحات واسعة . . وعرفت أن القارىء لا يهتم كثيرا بالاعلان . . وكان لابد أن أبحث عن حل بديل .

واهتديت إلى أن المؤسسات الصحفية يهمها تنمية مواردها ، عن طريق الاعلان ، ويهمنى أن يكون ما ينشر عن شركتى فى صورة أخبار .

واتفقت مع المؤسسات الصحفية على أن أعطيها قيمة ما سينشر من مساحات إعلانية على أن تنشر الأخبار الهامة الصادقة التى لا يتجاوز مساحة الخبر منها عدة أسطر ، ولكن تأثيره يفوق ما يتم نشره فى صفحة كاملة . . وكان من بين ما فعلته فى ذلك المجال ، أننى حرصت على الا اتحدث عن نفسى ، أو بصفتى رئيسا للشركة ولكن تركت المكان للعاملين أنفسهم يتحدثون هم عن إنجازاتهم ، لكى ترتفع معنوياتهم ، لأن كل ما يهمنى واسعى إليه ، هو رضاؤهم وإسعادهم .

والتزمت الموضوعية الكاملة ، فى كل ما ينشر ، وكان سببا فى تدعيم الثقة فى الشركة . .

ادركت قيمة الاعلام لأننى اقتنعت بأن الأعمال العظيمة ، لا يسمع عنها أحد أو لا تتحدث عن نفسها إلا إذا وجدت فى وسائل الاعلام إلى ذلك طريقها . . ولا أكون مبالغا إذا قلت إن نصيب الاعلام فى نجاح الشركة لا يقل عن ٣٠٪ .

(وهكذا تقدمت على الطريق)

وهكذا . . تقدمت المقاولون العرب على الطريق . . بخطى ثابتة واثقة ، ومتاكدة . . وتطور حجم العمليات التى تسند إليها ، من الاصلاح والترميم عندما كانت على بداية سلم مجدها وصعدت درجات السلم حتى قمتها ، وأصبحت الآن عملاقة تتحدى فى كل كان . . واتسعت دائرة نشاطها وامتدت يد عمرانها إلى الامة العربية كلها . . وراحت تبنى مصر على أروع ما يكون البناء .

كبرت حتى اصبح لها عشرات الأفرع والادارات واصبح حجم الادارة الواحدة بها يطاول حجم أكبر الشركات وتعددت تلك الادارات وتنوع تخصصها وأصبحت قادرة ، على التنفيذ ، فى كل المجالات وفى مختلف المحافظات . .

أراد الله وحده لها ذلك . . وعندى على ما اقول الدليل . .

كان أن تعرضت لأن تموت وهى فـكرة . . عندمـا صـدمتنى الدنيا بموت أمي . . وتعرضت لنفس المصير بعدما تجسدت ، وأصبحت فى عمر الصبا ، عندما اختطف الموت شقيقى إبراهيم وهو فى ريعان الشباب . .

وكان أن وجدت نفسى ثلاث مرات فى حياتى أمام موت محقق رده الله وحده عنى .

وتأكد إيمانى بأن كل ما تم كان طبقا لمشيئة . . رتبتهـا قـوة الهية خارجة عن إرادة البشر . . وكان كل موقف من تلك المواقـف كفيلا ، بأن يضع حدا ونهاية لكل شيء . .

كان **الموقف الاول** عندما كنت اقوم بتنفيذ سور مصـنع السـماد فى السويس ، وتعرضت هناك لحادثة الثعبان الذى فتحت درج المكتب لأجده فيه ، وكان يمكن أن يكون الموقف مختلفا ويتطور إلى غير ما انتهيإليه . .

وكان **الموقف الثانى** ، عندما كنت أركب السيارة . . إلى جوار أمين الشريف فى السد العالى ، واستوقفنا العامل خصيصا حتى لا تأتى المنية مع أمين عمر أثناء سيرنا بالسيارة ، فوق مرتفعات شاهقة وحتى ينقـذ حياتى . .

وكان **الموقف الثالث** ، عندما اتفقت مع أميل البستانى ، على تكوين شركة ، وقرر الرجل الحضور إلى القاهرة لمفاتحة نظام الحكم السـابق فى الموضوع . . كان من الممـكن بدلا مـن أن نتفـق على أن أسـبقه إلى القاهرة ، أن نتفق على أن نعـود إليهـا معاً . . ولكن إرادة الله الا يكون ذلك الاقتراح واردا .

عرفت من تلك المواقف كلما نظرت إليها . . أن ما تشهده « المقاولون العرب » من تطور ، ومـا تحققـه مـن أمجـاد ليس إلا تنفيذا لارادة مرسومة . . وليست ملكات عثمان احمد عثمـان هـى التى فعلت ذلك . . وما أنا إلا اداة لتنفيذ تلك الارادة الالهية . .

والحمد لله . .

امد الله سبحانه وتعالى فى عمرى ، ليرتفـع صرحهـا واتمنى وأدعو

ربى . . أن يكون منتهى تلك الارادة الالهية . . أن تحقق « المقاولون العرب » بسواعدها الفتية ، حلم مصر كلها فى أن تتحول الصحراء إلى جنات غناء وأن ينتشر العمران واللون الأخضر على وجه الرمال الشاحب الأصفر . . لقد عودتنى ان مقدم الخير دائما على « يديها الخضراء » . . كما وعدتنى أمى . .

* * *

انقذها الله أيضا من أكبر صدمة فى حياتها عندما نجحت فى أن تجتاز أزمة التأميم وتخرج من المعركة محتفظة بكامل قوتها . وكان حرصى الشديد عليها . . أن احتضنتها ، وتلقيت كل الضربات نيابة عنها ، وحميتها مما كان مرسوما لها . وأجد من المناسب أن أفرد فصلا مستقلا لتجربتى مع التأميم حتى أحمى كل ذلك الكيان . . ولا اقصد الكيان المادى مع انه عملاق . . ولكن الانسان الذى تربى فى جو الاسرة على قيم وأخلاق معينة كان على أن احميه من أى دخيل او أى إنسان يريد أن ينال منه . . إنهم هم الثروة الحقيقية التى جمعتها لمصر كلها . . وكان لا يمكن ان افرط فيهم . . لذلك صممت على أن أتلقى الضربات نيابة عنهم حتى ولو كانت حياتى فداء لهم . . .

وتعرضت من أجلهم إلى الكثير . . الكثير الذى تحملته بصبر أيوب دون أن يدرى أى منهم بما كان يحدث ودون أن يدروا بالوحوش التى كانت تريد أن تنقض عليهم ، وأبعدتها عنهم . . فماذا حدث ؟

* * *

التأميم
أكبر غلطة !!

خطر التاميم

كان التأميم غلطة كبرى وقعت مصر كلها ضحية لها ، ودفع الشعب وحده ثمنها .

غرر نظام الحكم بالناس ، وضحك عليهم وحجب الحقيقة عنهم . . . راح يغدق عليهم بالشعارات والكلام ، ثم اكتشفوا بعد فوات الأوان أنهم كانوا يطاردون خيط دخان . .

وقطع الطريق على كل من كان يريد أن يدلى بدلوه من أجـل بلده . . فتراجع وسحب يده من جيبه ، وأعاد أمواله إلى ما تحت بلاطته . .

وسيطر شبح التأميم والحراسات والمصادرة واستولى النظـام على كل ما وصلت اليه يده ، وكان كل همــه أن يحتفــظ بكرسـيه . . ووجـد وسيلته الى ذلك فى ربط كل الناس بحبل واحد إلى الكرسى . . يتحـكم فى اقدارهم أو أرزاقهم ولقمة عيشهم . . وليصبح فى يده كل مصيرهم . .

وكان أن اقتطع من عمر مصر عشرين عاما ، دمر فيها كل جهد كان يمكن أن يعطيه ابناؤها لها ، وترك مــن خلفــه تركة ثقيلة ، إحتاج رفــع انقاضها إلى عشر سنوات لكى تعــود مصر الى الطـريق السـليم الذى تاهت عنه كل تلك السنين . .

فماذا فعل ذلك النظام بمصر ؟

أستغفر الله . . إتخذ من نفسه إلها آخر على الأرض . . فــراح يوزع الأرزاق . .

قام بتأميم كل المصانع، والشركات، واستولى على أموال الناس بغير وجه حق.

ليته اكتفى بالتأميم.. أو ترك إدارة تلك المشروعات لأصحابها. فليس هناك من هو أحرص منهم عليها.

كانوا سيعملون على الحفاظ عليها، وعلى تطويرها وزيادة إنتاجها.. لأنهم يجدون أنفسهم فيها، ويحققون أحلامهم مع اتساع نشاطها رغم فقدانهم لملكيتها..

إنها جزء عزيز منهم لا يفرطون فيه بسهولة.

وكان أن أصر على إبعادهم، وإسناد إدارتها الى غيرهم..

فتولاها إما مجموعة من اللصوص حرصوا على سرقتها.. بدلا من أن يحرصوا على تنميتها وإما مجموعة من الجهلاء الذين أساءوا إدارتها.. وكلاهما لا يهمه أمرها سواء تدهورت أو أغلقت أبوابها.. فان أيا منهم سيجد له مكانا آخر فى شركة أخرى يغلقها بالضبة ويلقى بالمفتاح فى عرض النيل..

وكانت النتيجة خراب فى خراب..

وأعماه حقده عن أن يرى إلا مستقبل نفسه، ورأى مصر من خلال احلامه الشخصية.. ولم ينظر اليها من خلال رؤية قومية..

وتولت الدولة مسئولية كل شىء، وأجبرت الناس على أن يديروا ظهورهم لبلدهم..

وكانت المصيبة مصيبتين..

خربوا ما كان قائما من مشروعات أمموها، ولم يطوروها..

وأحجم رأس المال الخاص عن أن يشارك فى تنمية بلده.

وتعلم الناس خطأ أن يلقوا بكل حمولتهم على الدولة، فناء كاهلها، وتضخمت مسئولياتها.. لأنها وضعت نفسها فيما ليس لها فيه..

فكانت كل تلك المعاناة التى تصرخ الآن منها، وتواصل البحث عن إيجاد حلول لها.

وحدث مالم اتوقعه

وكان ان شملتنى قـرارات التأميم واجبرتنى على أن اسـلم لهـا ، ولكننى دافعت بكل حياتى عن شركتى حتى لا أمكنه منها .

وكانت معركة شرسة خرجت منها الشركة سالمة ، وإن كان النظـام قد جردنى من كل شيء إلا حرصى عليها .

واعتبرت ذلك قمة الانتصار . .

« إن الله يدافع عن الذين آمنوا » . .

لقد تصورت أن الدولة يمكن ان تؤمم اى شيء إلا المقـاولات ، لأنهـا تعتمد بالدرجة الأولى على عقل وخبرة وممارسة القائم عليها ، ولا تعتمد على ما يستخدم فيها من معدات محـدودة الثمـن مهمـا كانت قيمته . . فالمهم فى المقاولات حجم الأعمال التى تنفذ وليس حجـم المعـدات التى تقوم بالتنفيذ . .

ونجد القيمة فى مثل ذلك المجال ليس فى المعدات ولكن فى العقـل الذى يستطيع أن ينفذ الأعمال . .

وهل العقل أو الخبرة أو الممارسة يخضع اى منها للتأميم ؟

واستبعدت لذلك السبب أن يشمل التأميم مجال المقاولات . .

فالأمر يختلف فيها عن مصنع قائم ومنتظـم الأداء بشـكل يسـهل قيادته لغير صاحبه . . لأن الأدوار موزعة فيما بين العاملين بداخله مـن بداية العملية الانتاجية وحتى نهايتها .

ويختلف الأمر حتى فى مجال المقاولات من مقاول الى آخـر . . لأننى أعتبر أن المقاول عبارة عن شخص خرجت أحشاؤه إلى خارج جسـمه ، واصبحت عرضة لجميع الكلاب الضالة فى الطريق ، وكلما أسرع فى إعادة أحشائه الى مكانها ، كانت خسارته أقل ، ويتحدد الموقف هنا على ضوء عقل وخبرة وممارسة كل مقاول ، ولا يمكن أن يكون جميع المقاولين على مستوى واحد من الأداء . .

لذلك فان العبرة فى مجال المقاولات ليس فى المعـدات ، ولكن فى مـن

يستخدم تلك المعدات ، فهناك من يستطيع تشغيلها بأقصى طاقتها ، وهناك من يبدد معظم امكانياتها .

وأضرب لذلك مثلا . .

هناك مقاول لا يستطيع أن يحصل على أكثر من ٥٠٪ من جهد العامل ، ومقاول آخر يستطيع أن يحصل من نفس العامل على ٩٠٪ من جهده . . يحدث ذلك عندما يتركه الأول يأتي الى موقع العمل بوسيلته الخاصة ، فيحضر الى العمل مجهداً ومتأخراً ، ولا يجد عندما يحضر مواد البناء ومستلزماته فى موقع العمل ، فيضطر الى الانتظار حتى يتم إحضارها . . وعندما يقوم الثانى بارسال سيارة له لكى تحضره الى موقع العمل ، فبدلا من أن يحضر الساعة الثامنة متأخراً . . يحضر الساعة السابعة ، فيستفيد منه بساعة عمل كاملة ، ثم عندما يحضر العامل يجد أن المقاول قد أعد له جميع مستلزمات العمل ليبدأ فوراً فلا يتأخر فى انتظار توفيرها . .

ويترجم الفارق فى الحالتين فى النهاية الى « فلوس » . . ذلك هو الفرق بين مقاول وآخر .

فأى « معتوه » يمكن أن يقدم على تأميم المقاولات ، ويسند الى الدولة إدارتها فى الوقت الذى يختلف أمر الأداء فيها من مقاول إلى آخر . . حتى فى حالة استخدام نفس المعدات . .

سمعت بالخبر فى الكويت

وفوجئت بما لم أكن أتوقعه . .

كان أن قمت بزيارة لعدد من الدول العربية ، وفى يوم ٢٢ يوليو ١٩٦١ استمعت وأنا فى الكويت الى خطاب نظام الحكم السابق الذى القاه بمناسبة الاحتفال بعيد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ .

وأعلن فى تلك الليلة وفى ذلك الخطاب عن قوانين التأميم . .

واستبعدت أن أكون واحداً ممن ستشملهم تلك القوانين لما سبق واوضحته ، وأكد لى ذلك الاستبعاد أننى اقوم فى تلك اللحظة بتنفيذ

اضخم مشروع فى العالم ، كان سببا فى تأميم قناة السويس ، وتطور الموقف بسببها الى حرب سنة ١٩٥٦ ، بالاضافة الى التحديات الدولية التى كانت تعيشها مصر فى ذلك الوقت ، وإحجام الغرب عن تمويل المشروع . . وكان أن اعتبره النظام معركة حياة أو موت بالنسبة لمستقبله السياسى من ناحية ، وموقف مصر الدولى من ناحية أخرى . .

وتصورت أن النظام السابق لكل تلك الأسباب الخاصة به لن يقدم على تأميم شركتى حتى لا يحدث ارتباكا فى صفوفها ، أو حتى لا يعرضها إلى هزة قد تفقدها توازنها ، فيفقد حماسى وحماسها . .

وكما قلنا إن المقاول عقل وليس معدات . . فكيف يؤمم ذلك العقل ، بل وحتى إذا أممه فمن ذا الذى يستطيع أن ينفذ له حلم حياته فى السد العالى فى ذلك الوقت ؟ .

سبب آخر . . كان أن أعلن نظام الحكم السابق انه سيقوم بتأميم ايقط عيين والراسماليين المستغلين ، وكل من هو محتكر أو ذنب للاستعمار . . ولم أجد نفسى واحداً من كل هؤلاء وكل ما كان لدى من ثروة استطعت تكوينها من خارج مصر ، وجئت ابنى بها أعظم سد . . قالوا إنه لخير مصر . .

وأصدر نظام الحكم السابق ، رغم كل ذلك قرار تأميم شركتى . .

وكانت المفاجأة . .

ولا أقول الصدمة . .

كانت فى حياتى صدمتان فقط ، صدمة وفاة أمى ، وصدمة وفاة شقيقى ابراهيم . . ولكن التأميم كان بالنسبة لى مفاجأة فقط ، لأننى كنت قد عرفت الطريق ، وإذا ما كان نظام الحكم السابق قد أمم ثروتى . . إلا انه لا هو ولا غيره قادر على أن يؤمم عقلى وخبرتى وممارستى . . وهم أكبر راسمال كونته فى حياتى كلها . . ولا يملك أمر التصرف فيه إلا عثمان أحمد عثمان وحده . . أما المعدات فأمرها مقدور عليه ، ويمكن الحصول عليها مرة أخرى مهماً كانت قيمة ثمنها .

ووقفت فقط أمام أمر واحد ، يمثل الوجه الآخر لثروتى . . إنهم

أبنائى العاملون فى الشركة . . وكان لا يمكن أن أفرط فيهم مهمـــا كانت الظروف . .

وكان ذلك السبب وحده كفيلا بأن أتخذ قرار دخول معركة الحفـاظ على الشركة حتى لا تتمزق أو تهتز رغم ما أصابها ، ولحق بهـا بسـبب قرار تأميمها ، وكان لابد أن أحافظ على تماسكها ووحدتها وكيانها . .

ووصلتنى الأخبار من القاهرة ، واتصل بى شركائى يطلبون منى أن أعود ورفضت أن أقـطع رحلتى ، وصـممت على أن اسـتكمل برنامـج زياراتى الذى كان قد أعد من قبل .

كان مقـررا أن أزور قـطر بعـد إنهـاء زيارة الكويت ، وكنت على موعدين فى كل من الدمام والظهـران فى المملكة العـربية السـعودية ، ثم اغادرها الى البحرين . . ومنها الى القاهرة .

وقد تعودت فى حياتى كلها ، كلما قابلتنى مشكلة صـعبة ومعقـدة ، الا اقف أمـامها كثيرا ولكننى القـى بكل حمـولى أو همـومى الى الله سبحانه وتعالى ، وأترك له وحده التصريف . .

وكم تكون راحتى النفسية كلما فعلت ذلك . .

وسلمت أمرى لله سبحانه وتعالى كما تعودت . . ولم أجد مـا اقـوله لنفسى إلا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يعطى ، وهو الذى يأخذ ، وهو على كل شىء قدير . .

وسألت نفسى : ماذا كانت تمتلك يداك يا عثمان قبل أن يعطيك ربك ؟

واستقبلت الخبر كما تعودت أن اسـتقبل كل « مـكروه » فى حياتى ، مادامت هى إرادة الله سبحانه وتعالى . .

وقد عملت بقوله الكريم فى كتابه الحكيم « وعسى أن تكرهـوا شـيئا وهو خير لكم . . وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » .

شىء آخر . . حول الصدمة الى مفاجأة . .

حلمـت بأن اكون شركة ، ولم أسـع الى الثروة ، لذلك لم أهتز وانا ارى نظام الحكم السابق يستولى أمام عينى على أربعـة مـلايين جنيه

ونصف ، كنت قد جمعتها . . وكنت قد عرفت طـريقى الى تكوين الملايين إذا كنت أريدها . . والمسألة لا تحتاج إلا إلى فسحة من الوقت . . ولكنى لم أستهدف المال فى حياتى ، ولن أسـتهدفه وإن كان هـو الذى يسـعى دائما الى . . والحمد لله يرزق من يشاء بغير حساب . . .

وبقيت الشركة وكان لابد أن أدافـع عنهـا . . وذلك مـا فعلته بالضبط . .

استكملت برنامج رحلتى ، وبينمـا كنت أنتقـل مـن دولة الى دولة ، كانت الأفكار تنتقل فى رأسى الفكرة تلو الفكرة . .

وتبلورت كل الأفكار فى سؤال واحد هو :

ماذا بعد التأميم . .

وحاولت أن أبحث له عن إجابة . .

كانت تعتمل فى نفسى أشياء وأشياء ، لم يلاحظها أحد على ملامحى ، وإن كانت واضحة تماما فى عقلى . .

واهتديت الى أن ألقى كل ما كان يراودنى جانبا . . ركزت كل همـى فى ضرورة أن أتماسك وأن أجمع جميع أسلحتى واستعد للمعـركة التى فرضت على دون أن أكون راغبا فيها .

وكانت كل المعارك التى خضتها فى حياتى مفروضة على . . لم أبدأ فى مرة واحدة ، ولكنى كنت أتحرك لكى أدافع وأقـاوم ، لم أعتد فـكان الله سبحانه وتعالى ينصرنى لأنى عملت بقـوله الكريم « إن الله يدافـع عن الذين آمنوا » .

وانتصرت فى تلك المعركة . . بفضله أيضا . .

وقد حرصت على أن أتماسك لأنى رئيس الشركة ورمزها والنواة ، التى تجمع حولها كل ذلك البناء الضخم الكبير . . وكان لابد أن أحمـى ذلك الجهاز الكبير من أن يتعرض للانهيار ، فيضيع الأمل الذى كرسـت له وفيه كل حياتى ، وكانت تلك أكبر خسارة يمكن أن أصاب بها بعد فقد أمى وشقيقى .

وكان أول عوامل حسـم المعـركة لصـالحى إيمـانى المطلق بالله ،

وتسليمى الكامل لإرادته .. لكن كان لنظام الحكم السابق رأى آخـر فى ذلك الموضوع يتضح مما قاله فى نفس الليلة التى أعلن فيها التأميم ..

قال بالحرف الواحد :

محمد رسول الله قال فى حديث .. « إن الناس شركاء فى ثلاث .. الماء والكلأ والنار » ..

وعاد يقول مرة أخرى :

محمد قال إيه ... ؟

وراح يفسر الحـــديث النبوى الشريف الذى قـــاله : أكرم الخلق ، وأشرفهم جميعا سيدنا محمد ..

تأثرت كثيراً عندما نطق لسان نظام الحكم الســابق الاســم الكريم مجرداً من صفاته الحميدة،كم كان تأثرى بالغا ؟ !

ولم يقف نظام الحكم السابق عند ذلك الحد .. ولكنه قال :

همه رجال الدين بيقولوا إيه .. ؟ .. بديك رومى تقدر تأخذ مـن أى واحد منهم الفتوى اللى أنت عاوزها ..

هكذا أصبحت نظرة نظام الحكم السابق ، للدين ولعلماء الدين .. !

كان تأثرى مما سمعته منه فى تلك الليلة أكبر بكثير مـن تأثرى مـن التأميم ذاته ..

إن علمـــاء الدين لابد أن يكون لهـم احترامهـم ، وأى شـــخصية مهما كانت لابد أن تقف عند حدودها معهـم ، ويجـب ان نعـطيهم مـن التكريم ما يستحقونه ..

وأحسســت فى نفس اللحـظة أن مثل تلك الأوضــاع لا يمـــكن أن تستمر .. ولا يمكن أن يسمح الله سبحانه وتعــالى لأن يجـوس فى مصر من لا يتقيه ..

جل شأنه .. يمهل ولا يهمل ..

إن مصر المســلمة لا يمــكن أن تكون بحـــال مـــرتعا لهؤلاء الذين استوردوا الأفكار التى لفظت نبتها تربة مصر الطيبة ، والتى لم تســمح

لأن تنبت فيهـا على امتداد تاريخهـا إلا أفـكار التوحيد ، ورســالات السماء . .

وكان قرارى

وقبل أن تطأ قدماى أرض مصر كنت قد حسمت الموقـف بينى وبين نفسى واهتديت إلى قرار . .

حتى إننى أنكر أن الملوك والأمراء العرب الذين التقيت بهم ، خــلال تلك الرحلة بعـد إعلان الخبر ، أرادوا مـواساتى ، أو التخفيف عنى . . إنهم تصوروا أن الصدمة كبيرة . . ولكن وجدونى فى منتهى التمـاسك . . « أضحك » ، وأتحدث بانطلاق . . وأداعبهم كما تعودت . . « أضـحك وأنا المجروح » . .

وكم كانت الدهشة شديدة عندهم . .

وكان أن وصلت الى القاهرة هادىء البال مستريح الضمير ، بعد أن قـررت أن أتصرف بالشـكل الذى لا يعـــرض الشركة إلى أى اهتزاز او خلخلة . . فليس هناك ما أحرص عليه مثلها . . رصـدت كل مـا كنت امتلكه من أموال من اجلها . . وراح ضحية من اشـقائى اثنين بســببها وكان لابد وأن أحافظ عليها مهما كان نوع ملكيتها ، سواء كانت قـطاع عام ، أو ملك عثمان أحمد عثمان . .

يستوى الأمر عندى لأن الهدف أصبح ضرورة أن تبقـى وتواصــل مسيرتها نحو الهدف الذى كنت قد رسمته لها . .

وعندما وصلت وجدت فى انتظـارى أكثر مــن أربعين رجــلا ، كانت حالتهم النفسية فى منتهى السوء .

لقد تصوروا أننى منهار ، أو أن أيا من الأمراض التى يصـاب بهـا من يتعرض لمثل ذلك الموقف قد تمكن منى . .

وكانت مفاجأة لهم جميعا . .

نزلت من الطائرة . . ضاحكا . . مبتسما . .

وكان لابد أن افعل ذلك . . لأننى أردت أن ارفــع معنوياتهـم ، وأن

انتشلهم من اليأس الذى كاد أن يستولى عليهم . . كان لابد وأن أشد من عزيمتهم ، واقوى من شكيمتهم . . لكى يستطيعوا أن يقفوا الى جوارى فى المعركة التى كان لابد وأن أخوض غمارها دفاعا عن الشركة . .

إن الاستسلام لليأس هو أول ملامح الهزيمة . .

وهل كان لى أن أتركهم يستسلمون للهزيمة قبل أن تبدأ المعركة ؟ !

فأخذت زمام المبادرة قبل أن يتحدث أى منهم . .

إن المبادرة باتخاذ زمام المبادرة فى مثل تلك المواقف الصعبة . . مهم جداً . . ويلعب أخطر الأدوار فى تحديد نوعية نتائجها .

وقلت لهم : لم يحدث أى شيء . . ولم يتغير فى الموقف أى شيء . .

إنها إرادة الله «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» .

وليس امامنا إلا أن نقبل ما أراده الله لنا . .

وكما فرحنا عندما أعطانا . . لابد وأن نصبر عندما أراد أن يمتحـــن إيماننا . .

وذكرتهم بالموقف الذى اتخذته عندما أراد نظام الحكم الســـابق أن يفرض علينا شركة مصر للأسمنت المسلح شريكا فى عملية السد العالى .

وقلت لهم :

لقد تطوعت مـــن قبل أن أتنازل عن ٥٠٪ مـــن ملكية الشركة للدولة مقابل ان نقوم بتنفيذ عملية السد العالى وحدنا ، ورفض نظـــام الحـــكم السابق . . ترى لو كان قد قبل . . هل كنا سنندم على ما فعلناه بأيدينا ؟ !

حاولت أن أعطيهم شحنة معنوية قـــوية وواقعية ، ، حتى لا ينفـــرط العقد الذى حرصت على تكوينه بأخلاقيات معينة ، وحتى تستمر الشركة بقوة فريقها المتجاب وليس بما لديها من معدات . .

كان الموقف بالنسبة لى تماماً كالموقف فى السد العالى . .

رأيت هناك كل شيء يقول لى مـــن المســـتحيل أن ننجـــح ، وكان ذلك القول يجد له اســـتجابة فى نفسى . . ولكن كنت أقـــول لأولادى فى الشركة لابد أن ننجح مع أنه ليس هناك أى دليل على ذلك إلا الكلمات التى كنت

اقولها لهم . . فقوى إيمانهم ، وارتفعت روحهم وواجهوا المستحيل وانتصروا عليه . . لأن الله يدافع عن الذين آمنوا . .

وجدت نفسى فى تلك اللحظة أواجه نفس الموقف . . وكان لابد أن ابعث فيهم الأمل لكى يتحول الموقف الذى كان ضدنا إلى صالحنا . .

كنت غير مقتنع بأننا سننجح . . ولكننى كنت مقتنعاً بضرورة أن أدافع . .

الهدف الأول

وذهبت فور وصولى الى الشركة . .

فوجدت فيها نوعاً من الارتباك والقلق . .

ووجدت العاملين جماعات جماعات ، جميعهم يفكر فى المستقبل الذى ينتظرهم وينتظر شركتهم معهم . . وبدأ العمل يهتز ، وتسربت إليه الخلخلة . .

وكانت المعركة . .

كان لابد وأن أعيد التوازن اولا وقبل كل شىء إلى كل هؤلاء ، وأعيدهم مرة اخرى إلى الانتظام فى العمل . .

وبينما انا مشدود الى ذلك الأمر الكبير . . فوجئت بأحد كبار المديرين فى الشركة ينصحنى بألا اتعب نفسى .

قال لى : إن كل شىء قد انتهى ، وأن الشركة لم تعد ملكك . . فلماذا أنت حريص عليها بعد كل ما حدث لها ؟ !

وكان حديثه معى من منطق حبه لى ، ولأنه لا يعرف ماذا بداخلى . .

قلت له : ليست تلك هى قضيتى ، إن قضيتى أن احتفظ للشركة بتماسكها وتوازنها ، ولا يهمنى أن التفت الى من ذا الذى يمتلك الشركة ، ولكن تهمنى الشركة . . يهمنى أن تبقى وأن يحرص عليها كل من فيها . . تبقى كما أردناها . . لا كما يريدون هم لها . .

أريد أن يشعر كل من يعمل فيها أنها شركته ، ولابد وأن أزرع فى نفسه عدم التفريط فيها ، وأن يحرصوا عليها ، وألا يسمحوا لأى أحد

مهما كان أن يهدم ما بنيناه . .

إننى اجد نفسى فى أن أراها كبيرة عملاقة ، ولا أجد نفسى فى أن تكون ملكيتها لى .

إذا كانت المسألة عثمان ــ فعثمان أمره مقدور عليه . . فليس أسهل على عثمان احمد عثمان من أن يحصل على تنكرة طائرة ويعود الى حيث كان منذ عدة ايام ، أو كان أولى به أن يبقى هناك ، ولا يعود . . وهناك الأبواب كثيرة وواسعة ، ويستطيع أن ينجح فى تكوين عشرات الملايين الأخرى فى سهولة ويسر . .

وكانت المشكلة هى كيفية الحفاظ على الشركة التى قد يكون أمرها فى يد أحد غيرى فيبدد ما جمعته ، ويهدم ما كنت قد بنيته . .

وكان أن فضلت البقاء فى مصر وفيها ، وتحملت الكثير وضحيت بما هو أكثر . .

وكم كانت الضربات قاسية ، ولكن تحملت من أجلها كل شيء . . دون أن أدع أيا من أبنائى فيها يشعر بأننى شيء مما كنت اعانيه وحدى . .

والحمد لله . .

كان من السهل جداً أن أذهب الى حيث أتيت إذا كان المال هدف ، ولكن عز على ان اترك اولادى من بعدى يتشتت امرهم ، إنهم ارتبطوا بى ، وارتبطت بهم ، فهم الجهاز الكبير الذى حرصت على أن أبنيه على قواعد وأسس متينة كتلك القواعد التى كانوا ينفذون فوقها أضخم الأعمال . .

بل قبل أن أذهب . . جاء العرض الى مصر مع رسول خاص . .

وكان جلالة الملك خالد بن عبد العزيز جزاه الله كل خير هو صاحب المبادرة . . أراد أن يكون صاحب فضل كما تعودت فيه دائما . . وكان جلالته وقتها اميراً . .

تاهت من عثمان الكلمات

كان أن قمت بتصفية معظم أعمالى فى المملكة العربية السعودية ، ولم يتبق لى إلا بعض الأعمال الثانوية .

كنت قد قررت تركيز كل نشاطى فى تلك المشروع الكبير . وكان جلالة الملك خالد ، أميراً فى تلك الوقت . .

وعندما سمع بما حدث معى . . لم ينتظر . .

ولكن الرجل بادر من تلقاء نفسه ، وقام باستدعاء المشرف على تنفيذ إحدى العمليات التى كنت أقوم بتنفيذها فى جدة . . وكان سودانى الجنسية ، اسمه عباس . .

وسأل عباس :

أين عثمان الآن :

فأجابه عباس : بأن عثمان فى مصر .

وكان أن طلب سموه منه ان يستقل أول طائرة متجهة الى القاهرة . .

وقام سموه بدفع ثمن تذكرة عباس ذهابا وإيابا . .

وطلب منه أن يقابلنى ، ويبلغنى بأن الامير خالد قد أرسله خصيصاً إلى القاهرة لكى يستفسر عن حالى :

وقال له : إن الأمير خالد فى انتظار رد من عثمان : وهو يسأل عما يستطيع أن يقدمه لعثمان فى مثل تلك الموقف .

وطلب من عباس أن يبلغنى : أن سمو الأمير خالد على استعداد لأن يقدم لى كل ما يستطيعه من تسهيلات . .

وقال لعباس أن يقول لى :

إذا كان عثمان يريد الأموال : فهى موجودة وبالقدر الذى يحتاجه . .

واذا كان عثمان يفضل المعيشة فى السعودية : فان أى مكان فى المملكة تحت أمره .

وإذا كان عثمان يريد الجنسية السعودية فان سمو الأمير على استعداد لأن يمنحها له فوراً

وإذا كان عثمان يريد أن يعيش فى أى مكان من العالم . . فان الأمير خالد على استعداد لان يتحمل كل النفقات . .

وحضر عباس إلى القاهرة وقابلنى ، وأبلغنى برسالة سـمو الأمير خالد

وكم كان تأثيرها عميقاً فى نفسى . .

وكم أنا احمل له العرفان من كل قلبى . .

وكم أنا مدين له بذلك الفضل إلى آخر دقيقة فى حياتى . .

وعندما فرغ عباس من الرسالة الشفوية التى حملها لى مـن الأمير خالد . . طلبت منه أن يعود فوراً إلى المملكة السعودية . .

وقلت له : قل لسمو الأمير : تاهت من عثمان الكلمات التى يستطيع أن يعبر بها عن موقفك النبيل . .

عاد عباس إلى سمو الأمير بالرسالة ـ وفضـل عثمـان البقـاء فى مصر . .

ونجحت بعون الله فى أن أجمع شمل الشركة مرة أخرى ، ولكنى كنت فى حاجة بعد ذلك لأن أجمع شمل نفسى . .

احضان الاسماعيلية . . واحضان امى

وسافرت إلى الاسماعيلية ، حيث تعودت أن أغسل نفسى هناك مـن كل ما كان يلحق بى من هموم . .

وهزنى من أعمـاقى ذلك الموقـف النبيل الكريم الذى فـوجئت به ، وأظل طوال حياتى مديناً له ، بكل حياتى .

التف حولى شعب الاسماعيلية ، يخفف عنى ، ويضـمد جـراحى ، وأسلمت نفسى لهم لأستريح معهم وبينهم ، فهم أهلى وعشيرتى وأسرتى الكبيرة التى خرجت منها ، وكبرت فيها . . وساعدتنى واحتضنتنى . .

عادت تحتضننى الاسماعيلية مـرة أخـرى ، وكم كانت أحضـانها دافئة ، وحانية فى ذلك الموقف .

وتذكرت فى تلك اللحظة وحدها ، كما لم أتذكر من قبل ، حضن أمى ، وحنان أمى عندما كانت تضمنى إلى صدرها . .

كنت أحتاج الى أمـى فى تلك اللحـظة لأسـتريح بين يديهـا . . ولم

أجدها . ، ولكننى وجدت فى الاسماعيلية كلها عوضاً لها .

وجاءنى كل واحد من أهل الاسماعيلية يقدم لى يد العون سراً بينى وبينه . . دون أن يعلم أحد عن ذلك حتى أخـاه . . فمنهـم مـن قـدم لى خمسة آلاف جنيه . . ومنهم من قدم لى الف جنيه . . وكان من بينهم من قدم لى خمسة جنيهات . . عندما قدمها لى صاحبها فـاضت مشـاعرى ودمعت عينى ، ورأيتها كما لو كانت خمسة ملايين جنيه . . إنه قدم معها من الحب والرغبة فى أن يقف إلى جوارى ما لا يقدر بمال . .

أنسـتنى الجنيهـات الخمسـة بالذات الكثير الذى كان فى داخـل نفسى ! ! .

وقد شكرتهم جميعا ، ولم اقبل من اى منهم ما قـدمه لى ، واكتفيت بذلك القلب الحنون ، قلب الاسـماعيلية الذى كان البلسـم الشـافى لكل ما كان فى قلبى من جروح . .

وامضـيت يومين فى كابينتى التى كنت قـد أعددتهـا على بحيرة التمسـاح هناك . . وحيدا ليس معـى إلا الله سـبحانه وتعـالى وقلب الاسماعيلية الكبير . . وعدت بعد ذلك إلى القـاهرة لأواصـل المسـيرة هادىء البال ، مستريح الضمير ، أصلب مما كنت قبل أن اسـمع قـرار التأميم . .

وكان لابد أن تجد تلك الصلابة ترجمة لها فى صورة قرارات قـوية ، لم اتردد فى أن اتخذها لأستطيع إدارة المعركة حتى نهايتها . .

كان فى الاسماعيلية كل الوفاء والحـب والعـرفان . . أعطتنى بلدى واعطيتها وتعانق عطاؤنا ليصبح شجرة من الحب لم أجد راحة إلا تحت ظلها . . ولكن . .

عدت من الاسماعيلية لأجد أحد مديرى الشركة الذى تربى فيها منذ ان كان صبيا وأعطته الكثير دون ان تحاسبه ، وفتحت له الطريق وهـى تشجعه . . وجدته قد نسى ذلك كله ، وتنكر لأحضان أمه . .

الابن العاق

كان اول عمل يقوم به بعد التاميم ان قام بازالة اسم (عثمان أحمد عثمان) من فوق « بدج » السيارة الخاصة التى خصصـها له (عثمـان

احمد عثمان) والتى مكنه من أن يركبها .

لم يكتف بما فعل . . ولكن عندما استدعيته لأتأكد منه ، فـأكد لى أنه فعل . .

وحاولت إفهـامه بأن السـيارة هـى سـيارة الشركة . . وكانت إجابته . . كان زمان . .

انفرد وحده بذلك التصرف الذى كان موضع احتقار جميع العاملين فى الشركة . .

وكان لابد وأن أتصرف معه بالشـكل الذى يوقفـه عند حـده ، حتى يصبح مثلا لغيره ، وحتى أحفظ لأبنائى رباطة جأشهم ، وأؤكد لهـم إن موقفنا كما هو ، ولم يحدث لنا أى شىء ، ولم يحدث أى تغيير فى أسـلوب عملنا ، حتى تمر تلك الفترة الصعبة بسلام دون أن يحدث مـا لا تحمـد عقباه . .

وما حرصت على أن أبعد جميع العاملين فى الشركة عنه . .

وطلبت أن تذهب السـيارة ، التى كانت مخصصـة لذلك المدير ، إلى ورش الشركة فى شبرا ، ويكتب الاسـم (عثمـان أحمـد عثمـان) على أبوابها من جديد ، وأمرت بأن تسحب منه . . فهو بعد مـا حـدث منه . . لا يستحقها ، وأمـرت بأن يركب الأتوبيسـات المخصصـة لصـغار العاملين . .

ولكنه اعترض ، وقامت قيامته . . فما يزال رغم كل ذلك يتمـادى فى غيه دون أن يفيق الى نفسه ، أو يتنكر ما قدمته له ، وما فعلته له . .

تصور أن كل شىء قد انتهى ، وأن الشركة قد آلت للدولة . . ونسى كل ما لها عليه من أفضال ، فبدلا من أن يقف إلى جـوارها يحميهـا ممـن يقصد هدمها من خارجها ، كان هو أول من حمـل المعـول ليهـدم المعبد الذى تربى فيه . .

وجاء ليقابلنى بعد أن كان قد تخطى كل حـدوده لكى يناقش معـى ما حدث . .

وكان لابد أن أضعه فى حجمه ليفيق ، بعد أن تركته لنفسه ولم يتعظ

فقررت نقله إلى السد العالى . .

حاول أن يعترض على اعتبار أن القرار عقـــاب له . . ولكننى قلت له إن العمل هناك فى حاجة إليك . .

وكنت أعتبر كل العــــاملين فى الشركة ابنائى . . لذلك كم كان يعتصرنى الألم النفسى بسبب موقفه الذى اعتبرته خروجا منه على والده وتنكرا لأسرته . . !

وذهب إلى السد العالى ولكنه لم يستقم فى العمل ، وراح يفعل ما من شأنه هز الشركة ، والعاملين ، وإحـــداث الخلخلة التى اخـــوض كل تلك المعركة لأجنب الشركة آثارها . .

وكنت حاسما معه ، حتى يصبح عبرة لغيره ، وحتى أبعده عن العمل لأجنبه ما كان يمكن أن يحدث فيه بسببه . .

رفته من العمل . . وكان ذلك القرار أول وآخر قرار رفت اتخــذته فى حياتى . . ووجدت نفسى مضـــطرا لأن اتخـــذه ليس بســـبب تصرفـــــاته فحســـب ، ولكن للحفـــاظ على مـــــوقف أكبر منه ، وحتى أكبر منى أنا أيضا . . وهو الحفاظ على تماسك الشركة . . وتم تنفيذ القرار . .

واتضح لى بعد ذلك ان مجموعة مـــراكز القـــوى « ضـــحكت عليه» ، وغررت به ، واستخدمته ، فاعتمد عليهم ، وتصرف مستندا إلى قوتهم .

وعندما وجد نفسه فى محنته لجأ إليهم ، فلم يستطيعوا أن يفعلوا له شيئا ، وخابت اتصالاته فى أن تحقق له العودة إلى العمل .

كانت مصالحهم تفرض عليهم عدم الاصـــطدام بى ، فـــداسوا عليه ، ووجد نفسه تحت أقدامهم دون أن ينظر إليه أحـــد منهـــم . . ونســـوه فى سبيل أنفسهم . . وكانت تلك هى عادتهم مع كل من تعاون معهم . .

وتركته فترة من الزمن لكى يراجع نفســـه ، ويقـــارن مـــوقفه فى تلك اللحظة بالموقف الذى كان عليه . . لعله يتعلم .

لذلك عندما حدثنى زملاؤه فى أمر عودته إلى العمـــل مـــرة أخـــرى ، وشرحوا لى الظروف الصعبة التى أصبح يعيش فيهـــا ، أشـــفقت عليه ، ووافقت على أن يعود الى العمل مرة أخرى ، على أن يبدأ السلم من أول

درجاته . .

ثم تمت ترقيته على يدى مـرة أخـرى ، وسـار فى دولاب العمـل ، ولا يزال حتى الآن أحد العاملين فى الشركة ، وفتحت له الطريق ليأخذ كل الفرص من جديد . . وهو الآن مدير كبير مرة أخرى . . ولن أنكر اسـمه حفاظاً عليه ، وحتى لا يظل ذلك الموقف عقدة عند أبنائه من بعده . .

تعودت أن أقيم سداً ركامياً ضخماً بينى وبين الحقـد . . وحـرصت على الا احتفظ فى نفسى بأية رواسب من أى أحد ، مهمـا اسـاء إلى ، فى الوقت الذى حرصت فيه على الا انسى أبنى فضل لانسان قدمه لى . .

ولست واحدا ممن يجدون اللذة فى تصـفية الحسـابات والترصـد بالآخرين . . أردت فقط فى ذلك الوقت إبعاده لأن الموقف لم يكن يحتمـل وجوده ، ولكن قبلت بعد ذلك عودته لأن الأزمة كانت قد انتهت وكنت قـد تخطيتها . .

كان ابنا شاردا ، وعاد مرة أخـرى إلى بيت أبيه وكان لابد لى وأن افتح الباب له مادام قد عرف غلطته . .

عز على أن اقطع عيشه فهو أحـد الذين تضـمهم كشـوف أسـماء العاملين فى « المقاولون العرب » وأعتبر تلك الكشوف سـجلاتِ مـواليد الشركة . . وكل من تضمه فهو ابنى . . فكيف اتركه ، وكيف يهـون على أمره مهما حدث منه ؟ .

عثمان . . ثلاث سنوات بلا مرتب

المهم . . عاد ذلك الانسان إلى العمل ولم يضار أى من العـاملين فى الشركة إلا عثمان أحمد عثمان وحده . .

كان لكل من كان يعمـل فى الشركة مـرتب ثابت يتقـاضاه كل أول شهر . . إلا أنا . . فلم أحدد لنفسى مرتبا مثلهم ، واكتفيت بأن اقتطع من صافى ارباحى ما يكفى حـاجتى ، واترك باقـى الأرباح فى الشركة التى كنت مدينا باستمرار لصالحها لتتحول إلى جزء من رأسمالها .

وكانت التعليمات التى جاءت مع التأميم تقضى بأن يظل كل شىء على ما هو عليه فى الشركة ، ووجدت نفسى لا أحصل على مرتب كمـا يحصـل

بقية العاملين . . كان الجميع يتقاضون مرتباتهم إلا أنا . . !

والمدهش أننى ظللت ثلاث سنوات كاملة أعمل رئيسا لمجلس إدارة شركة « المقاولون العرب » بلا مرتب ، وتوليت الانفاق على نفسى وأسرتى من القليل الذى تبقى لى بعد أن أخذوا كل شيء . .

وأخيرا . . تداركوا الموقف بعد ثلاث سنوات وعرفوا أننى لا أحصل على مرتب ، وحددوا لى مرتبا مقداره أربعة آلاف جنيه فى السنة . .

استولوا على الشركة كلها . . وعز عليهم أن أحصل على مرتب منها مثلى مثل أقل العاملين فيها . .

وصمدت للمعركة ولم أتخل عن مسئوليتى ، لأننى كنت أعرف هدفى . .

وقد أعطيت العمل فى السد العالى ، دفعة أقوى من كل الدفعات السابقة ، ووجدت فى حسن أدائى فيه سلاحا يحمينى ، ويحمى الشركة والعاملين فيها ، من أى طعنات .

وكان العمل الرائع فى السد العالى ، فعلا السياج الواقى الذى حمى الشركة من أن تتعرض للمخاطر ، التى تعرضت لها كل الشركات التى أمموها وأفسدوها . .

فى مقابلة المشير عامر

وهكذا يجب أن يعرف الانسان المداخل الصحيحة لعلاج المواقف ، وأين الخندق الصحيح الذى يقف فيه ، وما هى انسب الأسلحة التى يستخدمها فى معركته . .

وفى مقابلة مع المشير عبد الحكيم عامر بعد التأميم كان قد سألنى عما إذا كنت متأثرا مما حدث أم لا . . ولم استطع أن اخفى عنه أوجاعى . .

وسألته : ترى تحت أى بند من بنود التأميم وجدتم المبرر لتأميم شركتى ؟

وقال لى الرجل : يا عثمان انت رجل لا غبار عليك ، ولا يستطيع أحد إلا أن يقول فى حقك كل خير ، وما تبذله من مجهود فى السد العالى

لا يستطيع أن ينكره احد ، ولكن لابد مـن تنفيذ القـانون ، وليس فى ذلك القانون أى استثناء . .

وقلت له : ما علينا إنمـا كل مـا أريده الآن هـو وحـدة الشركة ، وتماسكها . . ولا يهمنى الآن أمر ملكيتها ولكن يهمنى الحفـاظ عليهـا حتى لا تتهددها أية مخاطر . . وأريد أن يظل كيانها يسـير فى الطـريق الذى أردته لها حتى تستطيع أن تنهض بدورها . .

فسألنى : ماذا تريد ؟ .

واجبت : أريد الا يتدخل أحـد مـن خـارج الشركة فى شـئونها ، والا يفرض على العاملين فيها واحد رغماً عن إرادتهـم . . ومقـابل ذلك فأنا محـاسب على كل النتائج التى يمـكن أن تترتب على أداء الشركة لمهامها .

وكان أن وافقنى الرجل على ذلك المطلب . .

واعتبرت موافقته انتصاراً كبيراً . .

كنت قد حققت لأبنائى بها وحـدتهم وتوازنهـم بعـد الخلخلة التى حدثت بينهم ، وبتلك الموافقة حميتهم من أن يتدخل أحد فى شئونهم أو أن يفرض أحد عليهم ليس من طبيعتهم .

وبذلك أكون قد حققت الهدف ، وتكون الشركة قد خرجت من المعركة سالمة كما أردت .

وحسمت معركة حماية الشركة

وبعد ذلك أكدت نفس المطلب من نظام الحكم السابق .

كان فى زيارة لمواقع العمل فى السد العالى ، وكان مبهوراً بالانجـاز العظيم الذى كان يتحقق كل يوم على أيادى المقاولون العرب هناك .

فسألنى : هل لك أية مطالب ؟

وكان أن طلبت منه مطلبين اثنين :

طلبت منه التصريح لى بالسفر فى أى وقت لأستطيع تصفية أعمـالى فى البلاد العربية ، وطلبت منه ألا يتدخـل أحـد مـن خـارج الشركة فى

شئونها .

واستجاب للمطلبين لأنه اعتبرهما أمرا تافها . . ولكن كانا بالنسبة لى من المسائل الهامة جداً . .

واى مسالة عندى أهم من أن احتفظ لشركتى بوحدتها . . إنها المعركة التى كنت أكتوى طوال ذلك الوقت بنارها .

* * *

والتقيت بعد التأميم بالعديدين ومنهم الذين انطبقت عليهم قوانين التأميم ، وقد طلب منى جميعهم مغادرة مصر ، بحجة انه لم يتبق لى فيها اى شىء بعد كل ما حدث لى ، ولكنى لم استجب وفضلت أن أظل بجوار الشركة أحميها من الوحوش الضارية التى أرادت أن تفترسها . .

وفى أثناء ذلك تلقيت عرضا مغرياً من الولايات المتحدة فى ذلك الوقت واعتذرت عنه . .

خمسة الاف مليون دولار من امريكا واعتذرت

وصلتنى برقية بعد التأميم بشهرين من « ديلنج هـام » رابع مليونير فى العالم فى ذلك الوقت ، وصاحب شركة مقاولات أمـريكية كبيرة ، يطلب فيها منى أن أنتظره فى القاهرة لأمر هام . . وعرض على فور وصوله أن اتخذ من بيروت مقرا لمزاولة أعمال كبيرة عن طريق شركة جديدة . .

وكان لى مع الرجل قصة . .

فقد دخلت فى سنة ١٩٥٨ شريكا مع ثلاث شركات امريكية فى عطاء توسيع وتعميق قناة السويس فى ذلك الوقت . .

جاءت تلك الشركات الامـريكية الى مصر تسـأل عن شركة مصرية يمكن لها أن تتعاون معها واستقر رأيهم بعد تحـرياتهم الى أن شركتى هى أفضل الشركات المصرية التى يقبلون التعاون معها . .

وكان عرضهم للتعاون معى . . أن اقوم بتنفيذ ما يسند لى من أعمال

منهم كمقاول من الباطن ، أعمل تحت اسمهم ، وليس كشريك رسمى معهم . .

وأنكر أن العطاء فى تلك العملية كان كبيرا ، ويصل الى حوالى ثمانية ملايين من الجنيهات وكانت إمكانياتنا فى ذلك الوقت لا تسمح لنا بأن نتقدم لذلك العطاء منفردين . .

ورفضت مع ذلك أن أعمل مقاولا من الباطن ، حفاظا على الخط الذى كنت قد حددت معالمه للشركة ، مع إن مقاول الباطن يتمتع بعدد من المميزات ، منها عدم تحمله للضرائب .

واقترحت عليهم أن أدخل معهم شريكا رسميا فى العطاء إذا ارادوا ذلك . .

ورفضوا ذلك الاقتراح على اعتبار أن ذلك العمل تقوم به كراكات كبيرة يصل حجم إنتاج الواحدة منها الى ٣٠ ألف متر مكعب حفر تحت الماء ، وأن شركتى لا تمتلك مثل تلك الكراكات فى ذلك الوقت . .

وحاولت إقناعهم بمشاركتى لهم على اعتبار ان هناك أعمالا أخرى لا تحتاج الى الكراكات ، مثل الحفر على الناشف ، والمبانى ، بالاضافة الى الادارة نفسها . . كما ان الكراكات نفسها تحتاج إلى الأطقم التى تقوم بتشغيلها . . ولكنهم أصروا على موقفهم ولم يستجيبوا ، وتمسكت بموقفى ، وتركتهم وشأنهم . . وكان أن راجعوا حساباتهم مرة أخرى ، وعادوا بعد فترة ، ووافقوا على ما طلبته منهم . .

وتقدمنا للعطاء متضامنين ، وكان عطاؤنا أنسب العطاءات وأرخصها ، وكسبنا العملية . .

وفكروا فى جلب المعدات اللازمة للعمل من الولايات المتحدة الامريكية ، وان تقوم شركتى بتشغيلها ، فاعترضت على فكرة احضار المعدات من أمريكا ، وفضلت ان نقوم باحضارها من ألمانيا الغربية . .

واجريت دراسة اقتصادية على ذلك الرأى ، ووجدت أن المعدات الامريكية مكلفة جدا ، وخاصة بالنسبة لمصاريف الشحن والنقل ، وتبين لى أنه من الممكن الاستعاضة عنها بمعدات من غرب أوربا ، نستطيع أن

نوفر بها نصف الثمن والتكاليف ، بالاضافة الى اختصار الوقت . .

واقتنع الأمريكان بالفكرة ، ولكن أوضحوا أنهم ليست لهم علاقــات مع الشركات المنتجة لتلك المعدات فى دول غرب أوربا ، وكان أن أعفيتهم من القيام بتلك المهمة على ان أقوم أنا بتنفيذهـــا نيابة عنهـم ، ورحبوا بالفكرة . .

وأوضحت أن العملة الصعبة التى يحتاجها اســتيراد تلك المعــدات غير متوافرة لى ، واذا كانت متوافــرة فغير مســموح لى بتحــويلها الى الخارج لأى سبب من الأسباب كما تقضى قوانين بلدى .

وتحملوا هم تلك المسئولية ، وقــاموا بتحــويل المبلغ على بنك ألمانى كنت قد حددته لهم . .

وسافرت الى ألمانيا لأجدهم وضعوا فى البنك الذى حددته ١٥٠ ألف جنيه استرلينى لحسابى . .

وقمت بشراء المعدات اللازمة ، وبعد عشرين يوما كانت فى طـريقها الى توسيع القناة .

الرجال كالنمل

وكان من بين العمليات التى كنا ســنقوم بتنفيذهـــا عملية حفــر على الناشف ، قرر شركائى أن تتم بواسطة الكراكات بعد أن تفرغ من عملية التعميق فى بطن القناة . .

وقمت بدراسة التكاليف ، واتضح لى أنها مكلفة جدا ، بالاضافة الى عنصرَ الوقت الضائع ، حيث يتم انتظار التنفيذ حتى تفرغ الكراكات من مهمتها . .

واقترحت عليهم استبدال استخدام الكراكات بوسيلة أخرى ، توفر نصف التكاليف التى كانوا قد اعتمدوها لذلك العمل . .

وسألونى عن تلك الوسيلة : وقلت لهم اليد العاملة .

واندهشوا من الاقتراح . . وسألونى ومن أين لنا بالعمال اللازمين ، واجبتهم بأن تلك هى مسئوليتى . .

ووافقوا على الفكرة . .

وسافرت الى مختلف محـافظات القـطر التى كانت تتوافـر فيهـا الأعداد اللازمة من « عمال التراحيل » وتعاقدت مع أعداد كبيرة منهم .

ووجد الأمريكان فجأة ٥ آلاف عامـل فى مـوقع العمـل كالنمـل فى عددهم ، وكالأسود فى أدائهم . .

وأصابهم الذهول ، والاندهاش ، والاعجـاب ، فـراحوا يسـجلون المشهد بالصور الفوتوغرافية ،والأفلام السينمائية . .

وكم كانت سـعادتى بسـواعد مصر السـمراء التى تسـتطيع ما لا تستطيعه أية سواعد أخرى فى أى مكان من العالم . .

وكانت سعادتى أكثر فى أننى أوجدت فرص عمل لعدد من أبناء مصر يجدون من عائدها ما يسد حاجاتهم ، بدلا مـن أن تقـوم الكراكات بذلك العمل . .

وقد حققت هدفين بوسيلة واحدة . .

وانتهت العملية ، وحققنا منها أرباحا بلغـت ٢ مليون جنيه بفضـل التعديلات التى أدخلتها على برنامـج العمـل ، وخـطة التنفيذ ، وكانت حسابات شركائى تتوقع ألا يزيد المكسب عن مليون جنيه فقط . .

ألم أقـل إن المقـاولات خبرة وممـارسة وعقـل قبل أن تكون عددا وآلات . . !

كان الأمريكان قد عرفوا كفاءة الشركة وقدرتها على التنظيم الجيد ، والعمل الجـاد ، فـطلبوا منى أن أشـاركهم فى تنفيذ بعض الأعمـال فى المملكة العربية السـعودية ، وكان ذلك سـببا فى أن تتوطـد علاقتى مـع « ديلنج هام » . .

ووصلتنى ، كما قلت برقية من « ديلنج هام » بعد التأميم بشهرين . .

قال الرجل فى برقيته إنه ذاهب الى بانكوك ، وسيمر وهو فى طـريقه بالقاهرة ، وسيتخلف فيها يومين بهدف مقابلتى فى أمر هام . .

ووصل فى الوقت المحدد ، واستضفته فى بلدى « واستقبلته بعد ذلك فى مكتبى « بالمقاولون العرب » . .

ودار بيننا حديث طويل استغرق أكثر من ساعتين . .

بدأ الحديث « بيلنج هام » متسائلا . .

هل تم تأميمك . .

واجبته نعم . .

قال : أفهم من ذلك أنك أصبحت حكومة . .

قلت له : الشركة هى التى اصبحت كذلك أما أنا فغير قابل للتأميم !

ضحك الرجل وهو يقول : « اقصد أن جميع جهود الشركة وأرباحها أصبحت تذهب الى جيب الحكومة . .

فقلت له : بالضبط

وعاد ليسألنى : وكيف ترضى بذلك ؟ . .

قلت للرجل : لم يأخذ أحد رأيى . .

ووجدته يقول لى : لا يزال الأمر بين يديك ، ولم يحدث أى شىء . . ؟ .

واندهشت متسائلا : كيف ؟

اجابنى بأنه قادم من الولايات المتحدة الامريكية ، ومعه مـن شركته تفويض فى موضوع هام ، هو أن الحكومة الأمريكية قامت بتخصيص ٥ آلاف مليون دولار لمسـاعدة دول الشرق الأوسـط ، على أن تسـتوعب جميعها فى إقامة الانشاءات ، والكبارى ، وشق الطرق ، وإنشاء الموانى ، والسدود ، وما الى ذلك من الاعمال . .

وكان يقصد الأعمال التى أستطيع تنفيذها عن طريق شركتى . .

وقال الرجل إنهم فكروا فى إنشاء شركة سيتخذون من بيروت مقـرا لها على اعتبار أن لبنان اقتصاد حر ، وأن الولايات المتحدة هى المسئولة عنها . .

وقلت للرجل ، وما شأنى أنا بذلك الموضوع ؟

وأجابنى بأننى سأكون شريكا كاملا ، أرادوا أن يتعـاونوا معـى ، لذلك جاءوا يعرضون الأمر على . .

وسألته : وكيف تتصور أن يتم ذلك التعاون ؟

قال : نقوم بتأسيس شركة تتولى تنفيذ الأعمال براسمال مقداره خمسة ملايين دولار ، تدخل شريكا فيها بنسبة ٤٩٪ .

قلت له : ومن أين لى بتدبير مليونين ونصف مليون دولار تقريبا ، هى حصتى فى الشركة . .

اجابنى : بانه ليس مطلوبا منى أن ادبر سنتا واحدا . .

سألته : وكيف يمكن أن يحدث ذلك ؟

قال : نحن الذين سنتولى دفع كل رأس المال ، ولن نطلب منك ان تسدد نصيبك إلا من فائض أرباحك .

حاورت الرجل حتى أعرف ما عنده ، ولكن كان لى موقف مسبق كنت قد انتهيت اليه ولم تصبح هذه المسألة موضع نقاش بالنسبة لى سواء مع نفسى ، أو مع الآخرين . .

وكان أن قلت له : إننى أقوم الآن بتنفيذ مشروع السد العالى ، وهو مشروع قومى يمثل تحديا كبيرا بالنسبة لبلدى كلها ، بغض النظر عما حدث لى بصفتى الشخصية . .

وقمت من أجل تنفيذ ذلك المشروع بشبه تصفية لمعظم أعمالى المنتشرة فى البلاد العربية ، لأننى أرى فى ذلك المشروع كرامة مصر ، ومستقبلها . . ولذلك السبب فليس عندى أدنى استعداد لأن أضع خبرتى إلا فى ذلك المشروع الضخم . .

قلت ذلك لديلنج هام فى الوقت الذى كان يحدث لى كل ما تعرضت له سواء فى السد العالى نفسه ، أو بسبب التأميم . .

وقد حاول أن يقنعنى الرجل ، بأن شركتى أصبحت شركة حكومية ، وانها تقوم بتنفيذ المشروع للحكومة أما أنا فيجب أن أبحث عن نفسى . .

ولم يكن يعرف أن مستقبلى كان يعنى فى ذلك الوقت الحرص على الشركة والدفاع عنها . . ومعه عذره . .

فأوضحت له : أن نفسى لا أجدها الا فى تلك الشركة مهما كان نوع ملكيتها ، أنها تحمل اسمى « وحبات عرقى ، وقصة حياتى . . بنيتها رجلا رجلا . . ومعدة معدة » ولا يمكن أن أتركها لأى أحد لكى يعبث

بها . .

وأصر الرجل على فكرته رغم كل ما قدمته له من أسباب . .

ووجدت أمام إصراره أن أعده بأن أقوم بانشاء الشركة التى يريدها معه بعد أن أفرغ من بناء السد العالى . .

وكان هدفى أن أجد مخرجا ، حتى لا أتورط معه فيما لا أريده . .

ولكنه عاد يسألنى : ومتى ستنتهى من ذلك المشروع ؟

قلت له : بعد عشر سنوات . .

سمع الرجل الكلمة : وكأن صاعقة نزلت فوق رأسه ، واندهش كثيرا . .

وعلق بكلمة انجليزية واحدة قصد بها . . أن يقول لى . . « أى نوع من البشر أنت . . . ؟ »

ولم أفعل أكثر من أننى نظرت اليه . . وكان فى نظرتى الكثير الذى فهمه الرجل وأنهى المناقشة بسببه .

وكان الأمل لا يزال يراوده لذلك قال لى : أنه سيسافر ، وسيترك لى ذلك العرض لأعيد النظر فيه بينى وبين نفسى ، وأعيد حساباتى من جديد . . وسينتظر برقية منى . .

وسافر ديلنج هام ولم أرسل له البرقية التى ينتظرها حتى الآن . .

فضلت أن أعيش فى مصر معدما عن أن أعيش فى أى بلد آخر وأنا من أصحاب المليارات . . أننى عندما تركتها ليس لأدير ظهرى لها ، ولكن لأستطيع تكوين شركة كبيرة تعود اليها لتساهم فى صنع مستقبلها . .

حسين عثمان فى ليبيا

ولكن كان لابد أن أحتاط لنفسى لذلك عملت بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم . . »

وكانت الأوضاع فى مصر فى ذلك الوقت مزعزعة وغير مستقرة ، وكان لا أمان مع من كانوا يحكمون البلاد فى ذلك الوقت ، ووضعت احتمال أن يحدث لنا منهم ما لا تحمد عقباه ، ولذلك فكرت فى ضرورة

تأمين نفسى وبدأت أعيد تفكيرى فى استعادة بعض أعمالى الخارجية عملا بالقول المأثور « الاحتياط واجب » . .

ولذلك اتفقت مع شقيقى المهندس حسين عثمان على أن يذهب الى ليبيا ، وأن يقيم هناك ، ويباشر ما كان لنا من أعمال . .

وكان هدفى فى ذلك أن يستطيع حسين الانفاق علينا وعلى أسرنا اذا ما تعرضنا لشيء مما لا نتوقعه . .

وسافر حسين فعلا بعد التأميم بشهرين الى ليبيا . . ولم يعد من هناك : الا بعد أن تولى الرئيس محمد أنور السادات ، وأعطى الأمن والأمان والاطمئنان لكل الناس . .

والحمد لله نجحت فى أن احتفظ للشركة بطابعها الخاص الذى بنيتها على أساسه . .

فتصاعد نجمها ، ونمت وكبرت ، وزادت الثقة فيها . .

وكم أنا سعيد بها . .

المقاولون العرب
قطاع عام ١٠٠٪

وكان أن حفظتها وحميتها مما كان ينتظرها ، الأمر الذى يدفع الكثيرين من الناس بل ومن المسئولين لأن يتصور ، انها قطاع خاص لم يصبها التأميم ، وهناك من يتصور أنها مملوكة ملكية مشتركة بينى وبين الدولة ، لدرجة أن وزراء كثيراً ما يسألوننى عما اذا كانت مملوكة لى ، أو مملوكة للدولة . .

ويوضح ذلك الاحساس عند الناس ان القطاع العام عندما يجد القيادة الامينة التى تخاف عليه يستطيع أن ينجح وينافس . . ولكن كان ذلك بشرط . .

يا ليت نفس الأسلوب الذى حاربت من أجل ضرورة ان يتبع فى شركتى كان تم اتباعه ، فى كل الشركات التى خضعت للتأميم ، وتركوا إدارتها لأصحابها . .لنجحت وكبرت وكان موقفها يختلف عما وصل اليه الآن حالها . . وحال مصر بسبب ما أصابها .

واجد أنه ليس امامنا من وسيلة الآن لتصحيح غلطة القطاع العام ، الا أن نهزه بعنف ، وأن يتم تشغيله بنفس طريقة تشغيل القطاع الخاص . .

واقترح أن يتولى أبناء كل مشروع ادارته دون ان نفرض دخيلا من الخارج . . فهم الذين شبوا فيه ، وكبروا على يديه ، وهم اعلم بكل ما يتعلق به عن غيرهم . .

ويجب أن يقف فورا أسلوب تبادل القيادات بين مختلف المشروعات ، لأن ابن المشروع اعلم من غيره بعمله وبمشروعه والعاملين معه . .

وارى أن اتباع ذلك الأمر مع القطاع العام مكمل لكل ما تتخذه الدولة من خطوات فى سبيل إعطاء كل الفرص للقطاع الخاص ليشارك فى تنمية مصر بانتاجه ، ويفتح الطريق أمام مزيد من فرص العمالة أمام الشباب . .

ويكمل أيضا انفتاح مصر على العالم لتنهل من كل حديث فيه ، بعد أن طال حرمانها من متابعة العصر ، وأغلقت علاقتها على أولئك الذين يوزعون الفقر وحدهم . .

إن ذلك وحده هو الطريق وعلى الله قصد السبيل . .

رحم الله
نظام الحكم السابق

بسم الله الرحمن الرحيم
«إن الله يدافع عن الذين آمنوا ..»

(صدق الله العظيم)

جملة سمعت أمى ترددهـــا فى طفـــولتى ، وعلقـــت فى ذهنى ، وكثيرا ما سألتها عما تقصده من ترديدها .. ولكن كانت قدراتى على الفهم أقل من أن تستوعب شرح أمى ..

كبرت وأصبحت صبيا ، ووجدت أســتاذى المرحــوم حســن البنا ، ذا باع طويلة فى أمور الدين خصه ربه بقـــدرة عجيبة على تفســير آيات كتاب الله العزيز الحكيم ..

وكان يردد نفس الجملة ، ولكن فى ظروف غير تلك التى كانت تقولها فيها أمى ..

كانت أمـــى تعبر عن مـــواقف ، وكان المرحــوم حســن البنا داعية اسلاميا كبيراً ، راح يتناولها بالشرح والتحليل ..

وكان أن نمت مداركى فى ذلك الوقت ، وأصبحت قادرا على أن أفهم ما يقول ، وربطت بين المواقف التى كانت تردد فيهـــا أمـــى تلك الجملة ، وبين ما تعلمته من أستاذى .. عما تعبر عنه من معنى ..

وفهمت فى ذلك الوقت أن الجملة ليست قولا مـــأثورا ، ولا هـــى مثل شعبى معروف ، كما انها ليست حكمة تفتقت عنها بنات أفكار البشر ..

فهمت انها آية قرآنية كريمة انزلها الله سبحانه وتعالى على سيدنا محمد صلوات الله عليه ، كواحدة من آيات القرآن الكريم التى تنظم علاقة الانسان ، بربه ، وخلق ربه فى دنياه وآخرته . .

وتعودت منذ طفولتى أن أقف بتلقائية شديدة خاشعا ، كلما سمعت او قرأت تلاوة عزيزة لبعض آيات ربى ، ولكننى لا أعرف لماذا وقفت عند هذه الآية دون غيرها .

اتساءل واسأل عن كل معانيها . .

واذكر أن أستاذى حسن البنا تنبه الى ذلك الأمر ، فراح يزرع فى عقلى وقلبى كيف يكون الطريق الى الايمان ، من خلال ما تتضمنه هذه الآية من معان . . وجد فيها مدخلا يساعده لأن يعلمنى كيف تكون علاقتى بربى (وساعده على ذلك استعدادى) ووجدت فى كل ما كان يقول لى ما يرضى رغبة ملحة عندى . .

ورحت بعد ذلك أطبق ما اسمعه من شرح وتفسير على ما اشاهده من مواقف . . وكان أن فهمت . .

فهمت ضرورة أن أكون مؤمنا حتى يدافع الله عنى . . وفهمت ما هو المقصود بالايمان ، وما هو المقصود بدفاع الله عن المؤمنين . .

فهمت الايمان بمعنى الا افعل ما يغضب الله ، وأن أفعل كل ما يرضيه . . ورحت ابحث عنه ، ووجدت فى أمى وأستاذى فرصة كبيرة فى أن يجد كل منهما من خلال سؤالى طريقا لغرس كل القيم فى عقلى . .

وتعلمت منهما اجابة لسؤالى :

ما المقصود بدفاع الله ؟

وكان أن شرحا لى وفهمت أن الله ينقذ الذين آمنوا من كل المخاطر ، ولا يريد بهم اولهم الا كل الخير ، ويرشدهم دائما الى أن يفعلوا كل ما يرضيه ، ويثبت ايمانهم ولا يمكن أعداءهم منهم ، ويفتح امامهم طريق الخير ، وطريق الرزق ، ويجعل الخير يجرى على أيديهم لهم ، ولغيرهم ، وأن الله ينجيهم من كل أذى يحاول اى شرير أو شيطان أن يلحقه بهم ، وأن الله سبحانه وتعالى يهديهم دائما الى الطريق السليم ، ويجعلهم مع

أهل الخير ، ويحببهم فى الناس ، ويجعلهم نافعين للناس ولأنفسهم وما الى ذلك من المعانى النبيلة التى تعلمتها فى ذلك الوقت . .

وكان أن اخترت منذ بداية حياتى ، أن أعمل بكل ما فى هذه الآية الكريمة من قيم . .ووجدت فيها مفتاحا كريما ، للايمان يجعلنى أدخل الى رحابه من أوسع الأبواب .

وجربت . . فى حياتى . .

آمنت بالله . . فدافع عنى . .

وأذكر أننى كلما دخلت فى تجربة ، خرجت منها وأنا أكثر اقتناعا بالمبدأ ، حتى تأصل عندى وأصبح هو الطريق الى كل ما استطعت تحقيقه . . وكم من مواقف صعبة تخطيتها وانا اقف وحدى فى وجهها ليس معى الا إيمانى يشد من أزرى . .

وكان فضل الله على عظيما . .

والحمد لله . . ملأت الآية الكريمة حياتى ، وملكت كل كيانى حتى إننى رحت أعبر عن ذلك بأن كتبتها فوق مكتبى ، وعلى كل الأوراق الشخصية الخاصة بى ، وملأت بها جدران حجرات بيتى ، حتى إننى علقت لوحة تحملها فوق سرير نومى .

وبعد كل تجربة من التجارب التى دخلتها سواء كان يراد فيها خير لى أو شر بى ، كنت اقف وأنظر إلى الخلف لأتساءل :

كيف استطعت أن أعبر تلك المرحلة ؟

ولم أجد فى خاطرى إجابة غير : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا »

وكان الموقف الذى أراد أن يتخلص منى فيه نظام الحكم السابق فى مصر ، من أكبر المواقف التى أكدت عندى ذلك المعنى ، عندما أراد أن ينهى على تماما بعد أن انجزت له أعز أحلامه . .

(الكل يتحدى)

وبدأت مشاهد ذلك الحدث معى مع بداية عملى فى السد العالى . .

كان كل شىء هناك يتحدى . .

كانت الصخور تنظر إلى مكشرة عن أنيابها ، وهى تضحك شماتة فى أننى لن أستطيع . .

حتى انا كنت اشك فى قـدرتى على النجـاح ولكن آمنت بضرورة أن أسعى . . ولم يشجعنى سوى الأمل الذى كنت اسعى إليه دون أن أراه ، والذى نجحت فى أن أنقله الى قلوب العاملين معـى دون أن يكون له على أرض الواقع من نصيب . .

وكان فى ذلك الجو الموحش كل ما حولى ومن حولى يحذرنى . .

وكل تلك الأمور يمكن ان نجد لها تفسيرا . .

ولكن كون النظام الذى يمثل له ذلك الانجاز أعز أمانيه وقـف هـو أيضا ضدى . . فهذا ما لا استطيع ان افهمه حتى الآن . .

وكان ان علقت على ذلك النظام كل الآمال . .

ولكن تحطمت كلها قبل أن أحطم أول صخرة هناك عندمـا كان أول تعبير له عن انبهاره بروعة الانجاز خنجراً مسموماً دفنه فى قلبى مكافأة لى على ما بذلته من جهد . . .

وكان يمكن أن تكون تلك الطعنة سببا فى الا يرى السد العـالى نور الحياة،ولكن أدركت أننى أقـوم بتنفيذ ذلك المشروع لمصر وليس لأحـد ، وأضفت نظام الحكم إلى عناصر التحدى التى كنت أحاربها هناك . .

وضاع أملى فيه . .

فماذا حدث ؟

كان أن بدأ كل شيء فى موقع العمل يتغير إلى الأحسن ، وكان التغير واضحا وملموسا مـن يوم إلى يوم . . وتحـول الموقـع إلى خلية نحـل تواصل العمل ليل نهار . .

وانهالت التقارير على النظام الحاكم ، تنقـل اليه ، الاعجـاز الذى تصنعه سواعد مصر السمراء هناك . .

وبناء على ذلك قرر زيارة موقع العمل ، بعد حوالى ستة أشهر مـن بدء العمل فيه . .

وكان مقرراً أن يقوم بزيارة ثلاثة مواقع ، واقترحت وقتها على المهندس موسى عرفة رحمه الله وزير السد العالى فى ذلك الوقت ، أن يقوم النظام الحاكم بزيارة الى نادى العاملين ، الذى كنت قد أنشأته لهم فى موقع العمل ، وأن القى كلمة فى تلك المناسبة . .

وعرض الوزير الاقتراح ، وبعد أخذ ورد واعتراض ، جاءتنى أخيرا الموافقة على شرط أن تعرض الكلمة عليهم قبل القائها ، وألا أغير حرفا فيها بعد اعتمادها . .

ووافقت على اعتبار ان الكلمة لن تتضمن ما يستدعى عدم عرضها عليهم ، كما انه ليس هناك من الأمور ما يستوجب الخروج عن نصها عند القائها . .

ووضع برنامج الزيارة متضمنا الكلمة ..

وعندما وصل النظام الحاكم الى اسوان فى ليلة الزيارة طلب الاطلاع على البرنامج ولم يجد فيه ما يحنقه الا الكلمة التى سيلقيها عثمان أحمد عثمان للترحيب به وادخال السعادة الى قلبه بنقل صورة حية له عن إعجاز الرجال . .

وكان أن طلب ان يقوم بالقاء الكلمة أحد العاملين على ألا يكون اسمه عثمان احمد عثمان . .

ونقلوا لى ذلك الرأى عن طريق اللواء أمين عمر « رحمه الله » لأن أحداً منهم لم يستطع أن ينقل لى وجهة نظره بعد أن شاهدوا كل ما كان يجرى هناك . . وانتقلت بعد ذلك الى عالم آخر من الأفكار .

كانت طعنة قاسية لا مبرر لها . .

كانت ضربة قاضية . . ولا اعرف لماذا هداه تفكيره اليها . . ؟

وكم تألمت من قسوة الموقف . . تألمت لبلدى قبل أن أتألم لنفسى وكأن إحدى دوامات مياه السد لفتنى دون أن أدرى . .

وادركت ساعتها كيف تدار مصر ؟ والى أين تتجه ؟

رجل فى قمة حماسته لينجز ذلك التحدى الكبير لبلده ، لكى يمكنها من أن تثبت بين بلدان العالم ذاتها .

فضل النظام أن يجعل منه احد الصخور التى ذهب لكى يجردها من أنيابها التى وقفت تتحدى بها كل من حاول الاقتراب منها .

وعرفت ساعتها أن ما حدث معي يحدث مع كل من يريد أن يبنى لمصر طوبة فى بنائها الذى كان يتطلع اليه الشعب كله فى ذلك الوقت .

المهم . . قبلت الاقتراح ولم يكن أمامى إلا ان اقبل ، ووقع الأختيار على أحد أبنائى المهندسين ليلقى الكلمة نيابة عنا جميعا . . وكان الألم يعتصره لأنه ليس من القيم التى تعلمها ان يتقدم الابن على ابيه . . ولكنها كانت ارادة النظام الحاكم . . وحمدت الله أن ترك واحداً من بيننا يتحدث باسمنا . . لأنه أعلم من غيرنا بمشاعرنا ، وكان لابد من شيء من شأنه أن يرفع معنويات الرجال . . ليشعروا أن هناك تقديرا لجهودهم . .

(المضحك . . المبكى)

ووضعت الترتيبات اللازمة لاستقبال النظام الحاكم فى كل موقع من المواقع التى كان مقرراً أن يقوم بزيارتها . .

وكان جميع المستقبلين من بين الحاشية والمنافقين ، وليس لأى منهم أدنى علاقة بموقع العمل ، ولا يعرف أى شيء عما يجرى فيه . .

ولم يكتف هؤلاء بأن يتقدموا « الزفة » ولكنهم تحولوا الى فنيين متخصصين فى كل دقائق العمل ، التى راحوا يتولون شرحها للنظام الحاكم وهم لا يعرفون عنها أدنى شيء . . ووقف الرجال الذين كانوا ينحتون الصخر بعقولهم وأظافرهم يتفرجون ويستمعون لشرح من لا يعلم ، كما كان يستمع هو بالضبط . .

وقد اعترضت على ذلك الأمر ، ولكنهم قالوا لى إن البرنامج وضع كذلك ، ولا ينبغى أن يكون غير ذلك . .

وسلمت بما حاولوا اقناعى به على اعتبار انهم أعلم منى ومن رجالى بما يتم فى الموقع كما قالوا لى . .

وفعلوا نفس الأمر معى شخصيا .

فكان من المفروض أن أرافقه لأشرح له ما يحدث فى الموقع والذى

لا يعرفه أحد غيرى ، ولكنهم اكتفوا بأن أختار لنفسى أحد المواقع الثلاثة لأقف فيها دون أن يكون لى أدنى علاقة بالموضوع . .

وكان واجبا على ان اشــكرهم لمجــرد أن ســـــمحوا لى بأن أختار الوقوف فى أحد المواقع دون أن يفرضوا ذلك أيضا .

وقبل أن يصل النظام الحاكم الى الموقــع اصــطف المســتقبلون فى طابور طويل ، وكنت أقف بينهم أضع فوق عينى نظارة شــمس بســبب حرارة الجو وكثرة تعرضى للأتربة . . فوجدت من يطلب منى بصيغة آمرة أن أخلع النظارة من فوق عينى . .

وسألته بسلامة نية :

لماذا ؟

فأجابنى بعنجهية : لا داعى لها .

قلت له : بدون سبب . .

قال مستنكرا : لا يصح أن تصافح « نظام الحكم » وأنت تضع فــوق عينيك نظارة . .

وتظاهرت بأننى تداركت الموقف ، وشــكرته لأنه لفــت نظــرى الى ذلك . .

وقلت له : غابت عن بالى الفكرة دى ، ولكن عن غير قصد . .

وخلعت النظارة من فوق عينى . .

وكتمت فى نفسى كل ما انتابنى . .

(انحنى لأول مرة !!)

وعندما وصل النظام الحاكم إلى الموقع الذى كنت أقف فيه نظر إلى النظرة التى كان يتميز بهــا ، وكانت نظــرته تحمــل الف معنى ومعنى ، عبرت عن كل شىء فى نفسه منى بلا سبب ، الا الاعجــاب الذى أخفــاه ، واستطعت أن أتبينه فى كل ملامحه . .

وانتهت زيارته للمواقع ، واتجــه الركب الى نادى العــاملين طبقــا لما كان مرتبا وألقى ابنى المهندس الكلمة نيابة عنا جميعا . .

وبعد انتهاء الزيارة عاد ليسلم عليّ مرة أخــرى ، وكان ان تضــاءل حقده فى تلك اللحظة أمام اعجابه . . فسلم على بحرارة شــديدة تعبر عن انبهاره بما رآه . . ورايته ينحنى لأول ولآخر مرة فى حياته . .

إن ما رآه أجبره على أن يخرج عن طبيعته وكان لابد أن ينحنى هو وغيره ليس امام عثمان ولكن امام أداء سواعد أبناء مصر العملاقة .

وانتهت زيارته ، ولكن بدأت آلامى النفســية بســبب تصرفــاته . . وكتمت بداخلى كل مشاعرى التى تعودت الا أبوح بها إلا لله وحده . .

وكان فى نفسى الكثير . .

وكلما وجدت نفسى فى مثل ذلك الموقف كنت انفرد بنفسى بعيدا عن كل الناس . .

وعدت الى القاهرة ، وسافرت منها الى الاسماعيلية . .

هناك أجـد راحتى النفســية ، وأخلع عندهــــا كل همــــومى التى احملها . . وارجع بعد أن أكون قد ألقيتها من فوق قلبى حتى يستطيع أن يتحمل بعد ذلك هموما أخرى . .

وأمضيت فى الاسماعيلية بعض الوقت ، وهناك اندمل جرحى تمــاما عندما انتهيت بينى وبين نفسى ، الى أن اقوم بانجاز ذلك العمل من أجل بلدى ، وشركتى وليس من أجل أحد أو إرضـــاء لأحــد غير نفسى ، لذلك لا ينبغى أن يترك خنجره فى قلبى ، الا كل ما يشجعنى ، على أن أستكمل شوط التحدى حتى مداه . .

(اليخت يا عثمان)

وكان أن عبر بعد زيارته لمواقع العمل عندما كان فى رحلة نيلية على اليخت « الذهبية » ومعه الوزراء عن أشياء لم يطبقها معى . .

قال : أنا لم أكن اتصور أن عثمان أحمد عثمان بهذا الشكل . . كنت أتخيل أنه رجل كبير يضع على رأسه طــربوشا . . وتتدلى على صـــدره كتينة من الذهب . . ولكن وجدته رجلا عاديا . . وجـــدته مثلنا . . لا أعرف لماذا كان يتصورنى بذلك الشكل ؟ !

ومع أن ذلك كان رأيه الذى أعلنه فى لحظة انبهــاره الا أنه أصر على

ان يواصل التمسك بموقفه منى . . ولا أعرف حتى الآن السبب . .

واذكر اننى كنت أتعامل مع النظام القائم فى ذلك الوقت من خلال وسطاء كانوا يحيطونه بهالة لا اعرف إن كانت من صنعه أم من صنعهم ، ولم يكن من السهولة لأحد أن يراه الا الحاشية التى اعمته عن ان يرى أبعد مما يراه الديكتاتور . .

ويكفى أن اقول إننى كنت فى ذلك العهد مكلفا بتنفيذ المشروع ، الذى قامت الدنيا بسببه ولم تقعد ، فى الداخل والخارج ، ولم يفكر مرة واحدة فى أن يعرف عن المشروع شيئا ، من القائم عليه ، وكان يكتفى بما ينقل اليه من خلال التقارير . .

كان الوضع عكس ما نراه الآن حيث يستقبل الرئيس السادات أى مواطن يريد مقابلته ، مهما صغر منصبه اذا أراد أن يكلفه بتنفيذ اى مهمة . .

وكان من مواقفه معى أن طلب منى فى ذلك الوقت من خلال المستشار المهندس له ، تدارك أمر لفت نظره ، وشغل به نفسه . . ولم يخطر ذلك الامر أبدا على بالى .

عدت الى القاهرة ذات مرة من أسوان ، وعرفت أن المهندس المستشار الهندسى لنظام الحكم السابق اتصل بى تليفونيا مرتين فى منزلى ، ويريد مقابلتى ، فاتصلت به تليفونيا لأعرف منه السبب فوجدته يقول لى : اليفط « يا عثمان » .

فبادرت قائلا وأنا فى قمة اندهاش :

ماذا بها ؟

فأجابنى : مطلوب تغييرها « بيفط » أخرى . .

لم يخطر على بالى أبدا ماكان يقصده مما كان يقول ، وتصورت لأول وهلة أنهم يطلبون لافتات أخرى اضافية جديدة تحمل أيا من الشعارات التى كانوا يرددونها ، ووجدوا من المناسب ان توضع فى مثل ذلك الموقع ، أو أن تضاف تلك الشعارات الى « اللافتات » الموجودة لذلك فهم يطلبون تغييرها الى حجم اكبر يستوعب ما يريدونه من شعارات .

ولكن عرفت منه عندما سألته أن المطلوب كان شيئا مختلفا عما تصورته . .

فسألت الرجل : لماذا تغيير « اليفط » ؟

قال : اسمك مكتوب عليها بحجم كبير وبارز ، ويجب أن يكتب بحجم اقل وغير ظاهر . .

قلت له وأنا أكثر تعبيرا عن اندهاشى :

وهل أنا الذى يكتب هذه « اليفط »

قال : معلهش . . هذا هو المطلوب .

قلت له وأنا أضع سماعة التليفون :

حاضر . . حاضر . .

وأقول لنفسى :

إلى هذا الحد وصل الحقد . . واستطردت أقول لنفسى :

وكأن كل المشاكل الكبيرة فى مشروع السد العالى قد انتهت ، ولم يتبق إلا تلك المشكلة التى تشغل ذهن نظام الحكم شخصيا ، وتقدمت كل المشاكل التى كانت تشغل الدولة كلها .

وقلت لنفسى أيضا :

وكأن اسم عثمان أحمد عثمان يكبر ويصغر على « اليفط » وإذا كتب بحجم صغير صغر معه حجم عثمان . . وإذا كتب بحجم كبير كبر معه حجم عثمان ! !

وقلت لنفسى متهكما :

طلب منى ذلك حتى لا يغرى عثمان أحمد عثمان حجم اسمه الكبير على « اليفط » ليفكر فى أن يصبح زعيما بدلا من كونه مقاولا ـ فينافسه على كرسى الحكم .

وقمت بعد ذلك بتنفيذ المطلوب فورا على اعتبار أنه أحد المطالب الجماهيرية الملحة التى يجب تحقيقها ارضاء للشعب . .

ولم يكتف بذلك ولكنه أراد أن يقطع خط الرجعة بالكامل أمام عثمان

ليؤمن نفسه منه . .فطلب بعد ذلك عدم كتابة الاسم نهائيا .

وكان تفكير كل منا فى واد . .

كان تفكيره هو بدافع لم يخطر لى على بال . .

وكان تفكيرى أنا بأن ارتباط الاسم بالشركة يساعدها ويجعلها تستفيد من كل ما له من علاقات ، وأن الاسم أصبح معروفا فى المنطقة وهو مكسب للشركة ليس إلا . .

وذهبت بسبب ذلك لمقابلة على صبرى ، وكان يشغل وقتها منصبا كبيرا وتحدثت معه فى ذلك الأمر ولكنه لم يستطع أن يتخذ قراراً الا بعد الرجوع الى النظام السياسى ، والذى سمح بعد ذلك بأن يعود الاسم ليرتبط بالشركة مرة اخرى ولكن بشرط ان يظل يكتب « بحجم صغير »

حجم لا يغرى عثمان لأن يفكر فى أن يتحول الى زعيم . .

وكأن عثمان سيترك المقاولات لكى يعمل بالسياسة . .

(كلمنى مرة واحدة !)

وكانت المرة التى كلمنى فيها نظام الحكم فى مصر فى ذلك الوقت عندما بهوه الانجاز . . فسألنى

هل لك طلبات ؟

فقلت له : أشياء صغيرة . .

كان معه على صبرى الذى طلب منه أن يقابلنى بعد ذلك بخصوصها ، وكانت تلك الطلبات تتلخص فى الا يدخل الشركة أحد من خارجها حتى ينتظم اداؤها وتستمر فى تنفيذ مهمتها من غير أن يحدث فيها أى ارتباك . . والتصريح لى بالسفر الى الخارج . .

وكان هدفى فى المطلب الاول هو حماية الشركة وكان لذلك الموضوع قصة طويلة احتلت فصلا كاملا من هذه المذكرات .

وكان هدفى من المطلب الثانى هو متابعة أعمالى المحدودة فى الدول العربية بين الحين والحين . .

وقابلت على صبرى ، وحصلت بعدها على تأشيرة سفر الى الخارج

مفتوحة فى اى وقت ، وكانت تلك التأشيرة سببا فى أن أصبح موضع شك الأخوة العرب . .

فهموا منهـا أننى محسـوب على النظـام الحـاكم فى مصر فى ذلك الوقت ، دون أن أدرى أنهم فهموا ذلك ، الا عندما طلبت ذات مرة مقـابلة جلالة الملك فيصل « رحمه الله » عندما كنت فى المملكة العربية السـعودية كما تعودت على مقابلته دائما كلما ذهبت الى هناك . .

وكان رحمه الله صديقا عزيزا . .

وطلبت موعد المقابلة ، وتم تحديد الموعد بالفعل ، وعندمـا ذهبت الى الموعد المحدد اعتذر لى مدير مكتبه عن المقابلة بطريقة مهذبة ، عندما قال لى إن صاحب الجلالة مشغول .

وكانت تلك المرة أول مرة فى حياتى أفاجأ فيهـا بتلك الاجـابة مـن مكتب جلالة الملك فيصل ، فقررت ألا أطلب مقابلته طـوال فترة الحـكم السابق ، ولم أقابله مرة اخرى إلا فى عهد الرئيس السادات .

فهمت أن الرجـل يحتاط لنفسـه ، كمـا احتطـت أنا لنفسى ، وكان لا يصح أن أحرجه أو يحـرجنى ، وتركت الأمـر للزمـن لكى يوضـح الحقيقة . .

والحمد لله مات الرجل وهو يعرف كل شىء . .

حدث نفس الموقف أيضا فى ليبيا فى عهد الملك السنوسى . .

وكان عبد الحميد البكوش ، الذى ينزل ضيفا دائمـا على مصر الآن رئيسـا للوزراء وطلب منى فجاة أن أقوم بتصفية كل اعمالى فى ليبيا ومع انه كانت له عملية هناك على وشك الانتهاء ، الا انه أصر على أن أتركها دون أن استكملها .

وعندما سألت عن السبب قالوا لى :

إنهم يشـكون فى أن يقـوم النظـام الحـكم فى مصر بتجنيد بعض العاملين معى . . لذلك فهم يحرصون على تأمين أنفسهم .

وقبلت عذرهم عندما عرفت أن نظام الحـكم المصرى تآمـر وقتهـا ضدهم عندما وضع الديناميت فى سـت آبار بترول لنسـفها ، وفضـحت

اذاعة صوت العرب فى مصر المؤامرة ، عندما كانت أول مـن أذاع الخبر قبل أن تعرف السلطات الليبية بالموضوع ، عندما قـالت أنه تم انفجـار ست آبار بترول فى ليبيا .

وعندما ذهب المسئولون الى مـوقع التفجير ، وجـدوا ان الديناميت كان قد وضع فى ست آبار بالفعل ، انفجرت منها خمس ، ولم تنفجر البئر السادسة .

وكان يكفى الربط بين الخبر الذى انيع ، وما وجدوه على الواقـع ، لان يتأكد لديهم أن الحكومة المصرية هى التى فعلت ذلك .

(ارادوا تجنيدى عميلا)

وحدثت بينى وبين سـامى شرف واقعـة ، أضـفتها الى هـاتين الواقعتين لأجد سببا كافيا يدفعنى لأن أعجل بتصفية أعمـالى فى البلاد العربية ، قبل ان يشوه أحد سمعة شركتى أو سمعتى التى اعتبرها أكبر راسمال حققته فى حياتى .

فماذا حدث من سامى شرف ؟

قمت باعداد دراسة ، حول أن الدول العربية وافريقيا فى طريقها الى نهضة عمرانية كبيرة تحتاج الى خبرات أجنبية متخصصة .

وكانت مصر موجودة فى بعض تلك الدول وخاصة العربية ، عن طريق مقاولين وشركات مقاولات ، ولكن تضـاءل ذلك الوجـود بعـد التأميم ، واصبح الجـو مهيئا لأى خبرة أخـرى تريد أن تذهـب الى تلك الدول ، ولكى تحتل مكان مصر فيها . .

وذكرت فى تلك الدراسة أن مصر أولى من غيرها بتلك المواقع ليصبح أبناؤها خير سفراء لها فيها ، وليدروا دخلا بالعملة الصـعبة لبلدهـم ، وبذلك يعفون الدولة من التفكير فى توفير العديد من فرص العمل لهم .

واقترحت لذلك السبب ، تكوين جهاز للمقاولات متحـرر مـن كافـة القيود ، لكى يتولى القيام بذلك الدور فى تلك البلاد ، تعبيرا عن دور مصر الرائد الكبير ، على أن يكون ذلك الجهاز عبارة عن شركة مساهمة حتى لا تتحمل الدولة عبء راسـمالها . . وتخضـع فى نفس الوقـت لاشراف

الدولة التى تقوم بمحاسبتها فى نهاية كل عام . .

وتقدمت بتلك الدراسة الى الجهات المختصة وتركت الأمر لها لتتخذ بخصوصها من الاجراءات ما تراه .

وبعد فترة فوجئت بسامى شرف يستدعينى ليس لمناقشتى فى الدراسة التى تقدمت بها ، ولكن لأن النظام الذى كان يحكم مصر هداه تفكيره الى أنه يستطيع أن يجند عثمان أحمد عثمان عميلا له . .

وكان سامى شرف فى ذلك الوقت مديرا فى مكتب النظام الحاكم . .

وذهبت لمقابلته وكانت تلك المرة أول مرة أراه فيها . .

واستمرت المقابلة ساعة ونصف ساعة كاملة ، ظل خلالها يدور حول نفسه ، وراح يتحدث معى عن أعمالى ، وانتشارى فى الدول العربية ، وعلاقاتى المتشعبة مع الأخوة العرب ، من أعلى المستويات إلى ادناها . .

وانتهى بعد كل ما قاله من مقدمات الى ضرورة أن أخدم بلدى وكأننى ما ازال فى حاجة الى من يلفت نظرى الى ذلك الأمر . .

قلت : طبعا :

قال : نريدك أن تخدم بلدك اكثر . .

ولم أفهم ماذا يقصد . . لذلك سألته :

كيف ؟

قال : إنك كثير الذهاب الى تلك الدول ، ونريد منك كلما ذهبت الى هناك أن تعود لتنقل لنا صورة عما يدور فيها . .

سامى شرف يطلب من عثمان أحمد عثمان أن ينقل له صورة عما يدور فى البلاد العربية . . ويطلب منه أن يعمل جاسوسا . . ويطلب منه أن يتنكر لكل القيم التى يحملها بداخله . . ويطلب منه أن يخون « العشرة » والعيش والملح ، والصداقة . . يطلب منه ما ليس من طباعه ، وما هو ليس من شأنه . .

لذلك قلت له : ماذا تقصد ؟

قال : ليس هناك ما يستدعى ان تتعب انت وتأتى بنفسك،ويكفى ان

تكتب تقريرا ولا يشترط أن يكون ذلك التقرير بخط يدك أو موقعا بامضائك . .

ولم يكن هناك أى مجال للمناقشة . . وكان ان قلت له :

ربنا يسهل . .

وتركته وانصرفت . .

ولا يزال حتى الآن ينتظر منى تقريرا . .

هكذا كانت عقلية النظام الذى يحكم مصر فى ذلك الوقت . .

استدعانى ليطلب منى الا أتقدم بمشروعات مكتفيا بأن أتقدم بتقرير . .

ذلك هو العمل الوطنى المجيد الذى لا يثبت ولاء أى مواطن لبلده الا اذا فعله . .

وهكذا كانت دولة التقارير . .

التقرير هو الشيء الوحيد الذى يثبت الوطنية . . والعمالة هى مقياس الولاء والوفاء . .

ولكن الحمد لله لم أقدم حتى الآن ، إلا المشاريع فى كل مكان .

وقد مارسوا نفس ذلك الدور أيضا مع بعض رجالى . .

فكان أحد العاملين معى يعمل ملاحظا فى السعودية وحضر إلى القاهرة فى أجازته السنوية . .

وكان هناك اسلوب متبع ومتفق عليه ، يتم اتباعه كلما اراد أى من العاملين أن يعود الى موقع عمله ، فى الدولة العربية التى كان يعمل فيها ، فور انتهاء اجازته . . وكان يتمثل ذلك الاسلوب فى أن ترسل الشركة خطابا الى مباحث أمن الدولة ، للحصول على موافقتها ، وبعد تلك الموافقة تقوم الشركة بالحصول على تصريح سفر الى الخارج ، من مصلحة الجوازات والجنسية للعامل المراد سفره . .

فى تلك المرة أرسلنا الخطاب الى مباحث أمن الدولة،ولم يصلنا الرد كالمعتاد . .

ولكن الذى حدث هو أن مباحث امن الدولة ، قــامت باســتدعاء ذلك العــامل مــن وراء ظهــر الشركة ، وطلبت منه أن يعمــــل هناك عميلا لحسابها ، على أن يرسل اليها تقريرا كل شهر عن طريق احد عمــلائهم فى السفارة المصرية هناك .

ورفض أن يقــوم بذلك الدور ، فحــاولوا اغراءه بالمال فــأصر على رفضه أيضا . . واضطرهم موقفه الى أن يهددوه ، بعــدم الموافقــة على سفره ، إن لم يقبل بتنفيذ ما يطلبونه منه .

واقترح عليهم أن يتركوه بعض الوقت لعــرض الأمــر على عثمــان احمد عثمان ، فهددوه بأنهم لن يمنحوا له الموافقة على الســفر اذا عرف عثمان احمد عثمان أو غير عثمان ، واعطوه فــرصة لكى يعيد النظــر فى رأيه ، على اعتبار أن المطلوب منه عمل وطنى ، وخدمة منه لبلده .

وجاء لى الرجل لكى يروى مــا حــدث ، وابلغنى بعــدم اســتعداده للسفر ، فى مثل ذلك الجو ، ونصحته بألا يرفض مــا يطلبونه منه حــرصا منى عليه ، وخشية أن يلفقوا له تهمة ، ولن يجد ساعتها من يحميه . .

وطلبت منه أن يعود ويعرب لهم عن استعداده لقبول مــا يريدون أن يكلفوه به ، حتى يحصل على الموافقــة على الســفر ، ونصــحته فى نفس الوقت ، بأن يصفى جميع امــوره هناك ويعــود على ألا يذهــب مــــرة أخرى . .

وحذرته من أن يكتب لهم . . أو يسأل عنهم مرة أخرى . .

ونفذ الملاحظ ما طلبته منه بالحرف الواحد وعاد من سفره وانضــم الى فريق المقاولون العرب فى السد العالى .

(وقال الملك للرئيس !)

وكانت تلك الأمور سببا ، فى أن اقرر تصفية كل أعمالى فور الانتهاء من العمل الجارى تنفيذه ، فى كل بلد من البلدان العــربية ، التى كانت لنا فيها مشروعات ، حتى لا يستخدم عثمان أحمد عثمان ، او اسمه او أحد رجاله ، سواء عن قصــد ، أو عن غير قصــد فى الاســاءة الى أناس أكل معهم « عيش وملح » .

خفت من أن ينساق أحد غيرى أو أن يضغط عليه أحد ، فيضطر لأن ينفذ ما رفضته بيني وبين نفسي . .وما كنت لأستطيع ان ابوح به فى تلك الوقت لأحد غيرى . .

وكان ان رفض جلالة الملك فيصل ، موضوع أن أقوم بتصفية أعمالى فى السعودية ، ولكننى لم اتراجع فى قرارى ، وخسرت بسبب تلك القرار مليون جنيه فى السعودية وحدها ، عندما بعت معدات حديثة ثمنها مليون جنيه بمبلغ ٥٠ الف جنيه فقط . خوفا من أن أحضرها الى مصر فيطبقون على قانون من اين لك هذا ؟ فى الوقت الذى يعرفون فيه قبل غيرهم من أين أتيت به ؟

وروى جلالة الملك خالد تلك الواقعة للرئيس السادات عندما كان فى زيارة لمصر ، ودعاه الرئيس السادات لمشاهدة مناورة بحرية معه ، من فوق ظهر اليخت « الحرية » .

وكنت فى تلك الفترة وزيرا للاسكان والتعمير واصطحبتهما فى مشاهدة المناورة . .

وبعد المناورة كان الرئيس السادات قد اقام مأدبة غداء لجلالة الملك خالد ، وكنت أحد المدعوين . واثناء تناول طعام الغداء وفى حضور الرئيس السادات سألنى الملك خالد :

ماذا فعلت يا عثمان بأرضك ومعداتك التي كانت موجودة فى المنطقة المواجهة للكلية الحربية فى الرياض . .

وقلت لجلالته :

تعرفون يا طويل العمر ماذا فعلت . .

قال جلالته :

نعم أعرف . .

وراح جلالته يروى للرئيس السادات ، أننى بعت فى المملكة العربية السعودية ، معدات ثمنها يصل إلى أكثر من ١٢ مليون ريال مقابل نصف مليون ريال فقط . .

وانكر ان جلالته قال للرئيس :

وأنا أعرف الذى اشتراها منه ، وعرفت أيضا قصة بيعها وكيف أن الذى اشتراها بذلك الثمن البخس ، كان يعرف الظروف التى يمر بها عثمان . . واستغلها بدلا من أن يقدرها . .

وقال : كان عثمان يريد فى ذلك الوقت تصفية أعماله بأى شكل ، وبأسرع ما يمكن بسبب ما كان يتعرض له ، من قبل نظام الحكم السابق من مضايقات .

(ممنوع من السفر شهرا)

ولم ينس نظام الحكم السابق فى مصر أننى لم أرسل له تقريرا كما طلب منى ، فكان أن أصدر قرارا يمنعنى من السفر ، فى الوقت الذى كان العمل يسير فيه فى السد العالى ، على قدم وساق .

ولذلك القرار قصة . .

أذكر أننى كنت مسافرا الى المانيا لانجاز بعض الأمور المتعلقة بأعمال الشركة ونزلت ترانزيت فى روما ، والتقيت بالمصادفة مع المرحوم حسن عشماوى ، زميل دراسة لى فى المدرسة السعيدية الثانوية ، وكان « رحمه الله » من اقطاب الاخوان المسلمين وكان يتردد على الاسماعيلية على اعتبار انها كانت المنطقة التى انطلقت منها فكرة جمعية الاخوان المسلمين ، على يد المرحوم الاستاذ حسن البنا .

وكان الأستاذ حسن عشماوى قد فلت من بين أيدى النظام ، وسافر من مصر الى الكويت ، عندما أرادوا القاء القبض عليه ومحاكمته ، بتهمة الانضمام ، الى جماعة الاخوان المسلمين ، الذين كانوا بصدد تصفيتهم فى ذلك الوقت . .

وقد التقيت به فى الترانزيت ، وجلست معه بعض الوقت ، قبل أن تقلع الطائرة التى كان يستقلها الى باريس .

وكان رحمه الله رجلا شيق الحديث ، لا تمله أبدا .

وسافر بعدها كل منا الى حيث يتجه . .

وعندما عدت الى القاهرة ، بعد انتهاء رحلتى ، وجدت نفسى قد وضعت فى قائمة الممنوعين من السفر ، ووجدت خبرا ينتظرنى بضرورة

الذهاب الى صلاح نصر مدير المخابرات العامة ، لمقابلته فى أمر هام . .

ذهبت الى مقابلة الرجل فى مكتبه ، ودار بيننا حديث طويل ، سـألنى أثناءه : على طريقة رجال المخابرات بعض الأسئلة ، التى فهمت منها أنه يعرف طبيعة العلاقة ، التى تربطنى بالأستاذ العشماوى ، وظروف مقابلتى له . .

وكان أن رويت له كل ما حدث بالضبط . .

وسألنى عن علاقتى الحالية به . . وأوضحت له أنها علاقة عمل فقط . . وشرحت له أن هناك نظاما معمولا به فى الكويت ، ويقضى بأن اى مقاول يقوم بتنفيذ أية أعمال فى الكويت ، لابد وأن يتعامل مع جهاز الفتوى والتشريع هناك ، الذى يرأسه حسن العشماوى . . وأوضحت له أن طبيعة ما أقوم بتنفيذه من أعمال هناك ، وطبيعة الموقع الذى يمثله الرجل تفرض على أن أتعامل معه .

وطلب منى صلاح نصر أن أثبت له بالدليل ، اى دليل ، يؤكد صحة ما قلت له :

واذكر ان الرجل قال لحظتها :

لا تتصور أننى ضدك يا عثمان ، ولكننى أريد مساعدتك ، ولذلك طلبت منك أن تقدم الدليل الذى يساعدنى من أجل أن ادافع عن وجهة نظرك .

ووعدته بأننى سأحضر له صباح اليوم التالى ، ما لدى من مستندات تثبت ما قلته . .

وكنت احتفظ فى ذلك الوقت فى منزلى بمجموعة من اعداد مجلة اسمها « الكويت » ، كانت تصدر كل شهر هناك ، وهى مجلة رسمية تشبه جريدة الوقائع المصرية عندنا ، ويكتب فيها كل ما هو رسمى من تعاملات الدولة مع الآخرين . .

وكان من بين ما تتضمنه تلك المجلة ، محاضر اجتماعات لجهاز الفتوى والتشريع . .

وعندما اخذت اتصفح تلك الاعداد أكرمنى الله ، ووجدت فى احداها

محضر اجتماع للفتوى والتشريع برياسة حسـن العشـماوى ، ويتناول امرا يتعلق بما كنت أقوم بتنفيذه من أعمال هناك . .

وفى الموعد المحدد أخذت المجلة معى ، وذهبت الى صلاح نصر ، الذى امسكها من يدى ، وراح يتصـفحها ، وعندمـا وقـع نظـره على محضر الاجتماع وقراه ، نظـر الى نظـرة ذات معنى وقـال لى جملة مـا أزال اتذكرها :

انقذتك هذه المجلة من خراب بيتك يا عثمان . .

وفهمت من نظرات الرجل ، أن المسألة كانت لا تقف عند حد منعـى من السفر ، ولكن كانت هناك اجراءات اخرى ستتخذ ضدى . .

وأذكر ان صلاح نصر ، ذهب ومعه المجلة ، الى النظام الحاكم ، لكى يشرح له ما دار بينى وبينه ، ويقدم له الدليل الذى طلبه منى ، ودافع عنى صلاح نصر ، وازاح عنى التهمة ، التى كانت سـتلحق بى ، وبعـدها تم رفع اسمى ، من كشوف الممنوعين من السفر ، بعد شهر كامل من فرض الحظر . .

إلى هذا الحد كان النظام الحاكم فى مصر يتعقب عثمان أحمد عثمان ويتتبعه فى كل مكان ، ويرسل العيون خلفه ، ترصد تحركاته ومقـابلاته ، لتكتب التقارير عن كل ما يتعلق به . .

ولا أعرف ماذا كان سيفعل لهم عثمان ، وماذا كان بيده أو يستطيعه ضدهم ؟

ان عثمان رجل مقاول يضع كل وقته وجهده فى عمله ، ورجل يعـرف تماما موضع خطاه . . ومع ذلك لا أعرف ماذا كان يخيفهم منه . .

(منعوا المريضة من العلاج)

وحدثت بعد السماح لى بالسفر مـرة اخـرى ، قصـة انسـانية ، اسعدتنى كثيرا ، ولم يسعدنى فى كل ما عاد على من فـوائد فى التصريح لى بالسفر أكثر من تلك القصة . .

كان أول من استفاد ، برفع الحظر عن عثمان احمـد عثمـان ، طفلة بريئة مريضة ، كانوا يمنعونها من السفر الى الخارج للعلاج . .

حضر لمقابلتى فى مكتبى بالشركة الدكتور على صبرى احد اساتذة كلية الهندسة ، وكانت حالته النفسية سيئة جدا وفى حالة من الضيق الشديد . . فسألته ماذا بك يا دكتور ؟

قال : ابنتى

قلت : ماذا بها ؟

قال : أصيبت بمرض ليس له علاج فى مصر ، وان علاجه على درجة كبيرة من التقدم فى لندن ، وأمضيت أربعة أشهر وأنا الف وأدور فى دواوين الحكومة ، من أجل الحصول على تأشيرة السفر ، ولم احصل عليها .

وتألم الرجل وهو يقول : أريد فقط الحصول على تأشيرة سفر لعلاج ابنتى ، ليس أكثر وعلى نفقتى الخاصة . . ولا أستطيع . .

قال الرجل كلماته والدموع تسيل من عينيه ، وكأنها نار تأكل قلبى ، حزنا على بلدى ، التى لا يستطيع أحد مواطنيها أن يحصل فيها على مجرد امضاء على ورقة ، لكى يسافر الى الخارج ، ليس لأى سبب إلا لأنه يريد أن يعالج ابنته . .

وهكذا تحولت مصر كلها الى سجن كبير . أصبحت حدودها تمثل جدرانا لذلك المعتقل الذى سموه دولة . .

وقلت له : اهدأ يا دكتور . .

قلت له : اهدأ وأنا فى داخلى بركان . .

فقال لى : وماذا ستفعل ؟

وأثناء سماعى لقصته وقصة ابنته ، تركته يفضفض عن نفسه ، ورحت افكر فى الطريقة التى اتمكن بها من أن أحصل ، لذلك الأستاذ على موافقة السفر ، لكى يتمكن من علاج ابنته . .

وكان أن اهتديت الى حل . .

فقلت له : أنت أستاذ فى الهندسة فى علم الأساسات . . ونحن لنا اعمال ضخمة فى ليبيا ، وأن بعض أساسات الانشاءات التى نقيمها

تحتاج الى جس التربة ، وان جس التربة يحتاج الى استاذ متخصص فى الأساسات ، ولذلك فان الاختيار وقع عليك لكى تقوم بتنفيذ تلك المهمة وسأحصل لك يا دكتور على التأشيرة تحت هذا الستار . . وعندما يسمح لك بالسفر . . فانت فى حاجة الى من يقوم على خدمتك هناك ، لذلك فانت مضطر لأن تصطحب معك ابنتك مرافقة لك ، وبذلك تستطيع أن تحصل لها على التأشيرة اللازمة . . ثم تقوم بالسفر الى ليبيا ومنها الى انجلترا لكى تقوم بعرض الابحاث التى قمت بها على بيوت الخبرة المتخصصة هناك ، لاختبار سلامتها ، وفى نفس الوقت ستصحب معك ابنتك الى هناك لكى تعرضها على الأطباء المتخصصين لعلاجها ، ثم تعود بعد ذلك الى القاهرة وقتما تريد . .

وأذكر أن الرجل كان يستمع الى ، وهو شبه مذهول ومأخوذ . . وكأنه كان يبحث عن كنز ووجده ، فجأة بين يديه . وكاد أن يطير من الفرح . .

وقام فور الانتهاء من مقابلتى باتخاذ الاجراءات اللازمة نحو السفر ، وحصلت له على التأشيرة المطلوبة ، ونفذ كل شىء اقترحته عليه ، وسافر الى انجلترا ، وعالج ابنته وشفاها الله . . واطمأن قلبه عليها . . وهذا من فضل الله .

* * *

«مستشفى آل عثمان . . لا »

كم أحكى ، وكم أقول . !

اذكر هنا نماذج فقط لكى يستنتج أولادى الشباب من ورائها الاجابه على سؤال كيف كانت تحكم مصر ، حتى لا يشوش أحد على تفكيرهم ويصور لهم الأمور على غير حقيقتها . .

كان الله قد فتح علينا فى أواخر الخمسينات وأعطانا من فضله رزقا كثيرا . . وفكرت فى ضرورة أن نقدم شيئا نافعا لاهل الاسماعيلية ، التى نشأت فيها . . وتشاورت مع اشقائى على أن نقيم فوق ارض منزلنا ، الذى نشأنا فيه فى الاسماعيلية مستشفى ، ينتفع بها اهل الحى واهل المدينه ، والمنطقة عملا بقوله تعالى : «وأما بنعمة ربك فحدث» .

وحصلت على موافقة اشقائى ، وقمت بشراء مائة وخمسين متراً مربعا أخرى مجاورة للمنزل وأصبحت المساحة اربعمائة متر مربع وكلفت احد مقاولى الاسماعيلية ، بأن يتولى مسئولية القيام بانشاءاته التى كلفتنى خمسة وثلاثين ألف جنيه ، بالاضافة الى مبلغ خمسة عشر ألف جنيه أخرى ، قيمة شراء أجهزة ، كان منها حجرة عمليات حديثة كاملة استوردتها خصيصا من الخارج .

وكان هدفى أن يكون العلاج فيها بسعر رمزى . .

وبينما كان المستشفى على وشك الافتتاح ، فوجئت بالاتحاد الاشتراكى ، يعقد اجتماعا ويقرر فيه الاستيلاء على المستشفى ، بحجة اننى بنيته من دم الشعب . .

وكأن دم شعب مصر كان فى السعودية . .

أوكأن المشروع مشروع استثمارى ، وليس مشروعا انسانيا . .

وحتى لوكنت قد بنيتها من دم الشعب فهى من أجل الشعب المصرى ، وليست من أجل شعب آخر . . بل اننى ببنائها أعيد دم الشعب اليه مرة أخرى . .

والأهم من ذلك كله ، اننى قمت بانشائه لكى أدفع له من جيبى ، لا لكى أجمع ثروة منها . .

ولا أعرف حتى الآن مادخل دم الشعب بمثل ذلك الموضوع . .

عجزوا عن أن يقدموا خدمة للناس فاستولوا على ماقدمه الآخرون ، بحجة حرصهم على مصالح الشعب . .

واستولوا على المستشفى ، ولم أتحرك لأفعل اى شىء ، وتركتهم يفعلون ما يشاءون .

ولكن عندما وجدتهم بعد ذلك ، يتركونه بلا رعاية ، وتهشم زجاج نوافذه ، عز على أن يظل كذلك ، او أن يتعرض المرضى لمخاطر البرد ، لذلك فلم اتردد بأن أقوم بتركيب الزجاج اللازم له ، عندما طلب منى أحد أطبائه ذلك . .

كان اسم المستشفى « مستشفى آل عثمان » . .

وغيروا الاسم الى « مستشفى الطلبة » وكأن الاسم كان سيكون سببا فى ألا يقدم المستشفى الخدمة المطلوبة للناس .

والغريب فى الأمر أنهم فعلوا كل ذلك فى الوقت الذى ظلت فيه من الناحية الرسمية ، ملكية المستشفى ثابتة لم تتغير . . وتصورت أن قصة المستشفى قد انتهت عند ذلك الحد .

ولكن شعب الاسماعيلية الطيب الوفى فاجأنى ذات يوم بدعوتى الى حضور احتفال كبير أقامه فى المستشفى . . وأعاد إليه اسم « آل عثمان » مرة أخرى من تلقاء نفسه ، دون أن يطلب أحد منه أن يفعل ذلك . . جزاه الله كل خير عن وفائه .

« مدرسة الدكتور ابراهيم عثمان »

وأيضا . . كان المرحوم الدكتور ابراهيم عثمان صاحب فضل كبير على . . وقد انتقل إلى جوار ربه وهو فى ريعان الشباب ، قبل أن استطيع أن أرد له بعضا مما قدمه لى ، كما أن الاسماعيلية بلدنا التى نشأنا فيها ، وارتبطنا بها . . وكان لابد أن اقدم خدمة لأبنائها . .

لذلك فكرت فى أن أقيم مشروعا تحتاجه الاسماعيلية ، ويحمل اسم ابراهيم عثمان ووجدت أن الاسماعيلية فى حاجه الى مدرسة صناعية ، تعلم أبناءها مختلف المهن ، التى تساعدهم لأن يكونوا قادرين على أن يؤهلوا للسعى وراء رزقهم .

وقررت أن أبنى تلك المدرسة وأقوم بتجهيزها من أموالى الخاصة ، لتخدم أهل الاسماعيلية وليصبح اسمها « مدرسة ابراهيم عثمان الصناعية » . .

قابلوا المشروع بالتحدى ، ووضعوا العراقيل فى طريقه ووصل الأمر بهم الى درجة انهم كانوا على استعداد ، لأن يضحوا بالمدرسة ، وألا يتم انشاؤها فى سبيل الا تحمل اسم الدكتور « ابراهيم عثمان » . . الى ذلك الحد . . بلغ حجم الحقد . .

هكذا تصرف أولئك الذين يحرصون على مصلحة الشعب ، واستولوا على المستشفى لكى يعيدوا الى الشعب دماءه التى امتصها عثمان أحمد

عثمان منه وهو فى السعودية .

ونجحت فى ان انشىء المدرسة لخير أبناء الاسماعيلية ، وان تحمل اسم ابن مخلص من ابنائها ، وهى قائمة حتى الآن ، وستظل فى الاسماعيلية ، إلى ما شاء ، تخرج الأجيال بعد الأجيال ، من الشباب الذى ينفع نفسه ، وينفع بلده .

* * *

« اخر قصة »

وكانت آخر قصة لى مع نظام الحكم السابق عندما اراد أن يتخلص منى ، فراح يدبر ويجهز لذبحى . . إلا أن الله اراد لفصول تلك القصة ألا تكتمل لأن إرادته كانت تريد أن أبقى ، لكى استكمل المشوار الذى أراده لى منذ بداية حياتى . .

فقد قرروا القضاء على تماما مع الانتهاء من المرحلة النهائية للسد العالى ، فى يناير ١٩٧١ . . أضحية فوق صخوره جزاء على ما قدمت ، ولكن كانت ارادة الله اسبق وأنقذنى وانقذ مصر الى الأبد قبلها بثلاثة شهور . . كيف ؟

كانت بداية معرفتى بخيوط تلك القصة عندما جاءنى أحد موظفى مصلحه الضرائب العقارية ، فى فبراير ١٩٧٠ يحيطنى علما أن هناك معلومات مطلوبة عنى ، وان تلك المعلومات لا يطلب جمعها ـ كما علمتهم التجربة ـ إلا عن شخص ستفرض عليه الحراسة .

وكنت حسن النية الى أبعد الحدود ، واستبعدت أن يصل بهم الأمر رغم كل ما كانوا يفعلونه الى ذلك الحد . .

فماذا تبقى لى بعدما أخذوا كل ما كان معى . .

وذهب صديقى بعد أن ارضى ضميره نحوى ، ليزورنى صديق آخر بعد عدة أيام ، وكان يعمل فى نفس المجال ، ليحمل لى نفس وجهة النظر التى حملها لى زميله ، واستبعدت ان يحدث مثل ذلك الامر على اعتبار اننى اقوم بتنفيذ السد العالى ، والعديد من المشروعات الوطنيه الاخرى . .

ومرت الايام الى ان وصلتنى دعوة ، من الشيخ زايد حاكم أبو ظبى ، لحضور احتفال عيد جلوسه فى اول اغسطس ١٩٧٠ . . وهو صديق عزيز تعودت أن البى دعوته كل عام ، فركبت الطائرة من القاهرة إلى ابو ظبى للمشاركة فى تلك المناسبة ووجدت حسن عباس زكى وكان يشغل منصب وزير الاقتصاد فى ذلك الوقت يجلس بالمصادفة ، على المقعد المجاور لى على نفس الطائرة . . وكان مسافرا لنفس الغرض . . ورتبت المصادفة أن يقيم معى فى نفس الحجرة فى الفندق الذى نزلت فيه .

ولم تكن تربطنى به أدنى علاقات الصداقة . . اللهم الا المعرفة السطحية جدا . .

وكان من الطبيعى أن نتحدث فى أى شىء خلال المدة التى امضيناها معاً .

سألنى الرجل

إلى أين انت ذاهب ؟

واجبته : الى ابو ظبى . .

فقال : وأنا أيضا . .

سألنى بعد ذلك عن أعمالى فى الخارج وكيف تسير أمورها ؟

فقلت له : جمدتها كلها الى حين الانتهاء ، من العمل فى السد العالى .

ولم يكتف باجابتى ، ولكنه عاد يؤكد مرة اخرى . . أليست لك أية أعمال خارج مصر ؟

قلت : إطلاقا

ولم يلفت انتباهى محاولته التأكد ، من أننى قد صفيت جميع أعمالى التى كنت أقوم بتنفيذها خارج مصر . .

وتطرق الحديث بنا الى المشروعات التى أقوم بتنفيذها فى مصر ، وما نبذله من جهد فى السد العالى ، ورحت اشرح للرجل كيف أننى اعتبرت ذلك المشروع كل شىء بالنسبة لى ، وضحيت من أجله بالكثير ،

وفرغت نفسى له تماما . . الى آخر الكلام .

وكان أن خلقت الدردشه جوا من الالفة ، بينى وبين الرجل ، وعرف الرجل الكثير منى والذى قلته له بشكل عادى ، وبسلامة نيه ، ولكنه تأثر به واحس بما فى نفسى . .

فعاد يسألنى مرة اخرى عن طبيعة علاقاتى بالعرب . .

فقلت له : طيبة

وهنا سألنى الرجل سؤالا ملفتا وغريبا :

هل انت محتاط لنفسك ؟

وكان السؤال بالنسبة لى مثيرا نبهنى الى انه يقصد ان يقول لى شيئا لا اعرفه فسألته :

احتاط لنفسى من اى شىء ؟

واستطردت اقول : ليس عندى ما احتاط له . .

وعدت أسأله بتلقائية شديدة . .

هل هناك شىء بالنسبة لى ؟

وتذكرت فى تلك اللحظة ما كنت قد سمعته من قبل من صديقى موظفى الضرائب ولم أصدقهما . . ورحت أربط الخيوط مع بعضها لكى اكون صورة واضحة .

ولم يجب الرجل باكثر من أنه قال :

المهم . . كن حريصا على نفسك . .

ولم يفصح عن أى شىء . .

ويبدو أنه راجع الموقف بينه وبين نفسه ، وأن مادار من حديث بينى وبينه ، عرف منه اننى رجل مخلص سليم النية . .

لذلك عاد يطلب منى أن اقابله فى مصر فور عودتى من أبو ظبى .

وأديت واجب المجاملة فى أبو ظبى ، وعدت الى القاهرة واتصلت به تليفونيا ، وحدد لى الرجل موعدا التقيت فيه معه فى مكتبه . . ودار بيننا حديث انتهى بأن طلب منى أن اكتب خطابا بشكل معين . .

وأنكر أنه اشترك معى فى كتابة ذلك الخطاب ، وكتبناه وغيرنا وعدلنا وبدلنا فيه أكثر من عشر مرات ، الى أن استقر الرأى على صيغة حازت قبوله . . وطلب منى ان اقوم بكتابة ذلك الخطاب بالشكل الذى انتهينا اليه ، وأن أرسله له . .

وفعلت ما طلبه منى . .

وكان محور ذلك الخطاب يدور حول تعديد ما قدمته لمصر من اعمال ، وما أقدمه ، ويفيد بأننى قمت بتصفية جميع اعمالى التى كنت اقوم بتنفيذها فى الدول العربية ، من اجل ان اكرس كل جهدى فى السد العالى . .

باختصار شديد كان مطلوبا منى أن اشرح فى ذلك الخطاب موقفى ، لعل وعسى ، أن يشفع لى ذلك الامر عند النظام الحاكم ، فى مصر فى ذلك الوقت ، حتى يتراجع عن أمر كان قد عقد العزم عليه . .

كانت محاولة . . مجرد محاولة . .

وأرسلت الخطاب وانتظرت قدرى وجزائى الذى استحقه على ما قدمته يداى . .

« اول خبر »

وكعادتى سلمت أمرى لله وحده الى أن جاء يوم ٢٨ سبتمبر من نفس العام اى بعد مقابلة حسن عباس زكى بأقل من شهرين . .

كنت بمنزلى فى الهرم وفى الساعه السادسة إلا عشر دقائق بالضبط ، نزلت الى حديقة المنزل كعادتى ، فى ذلك الوقت من كل يوم ، حيث كنت اتناول الشاى ، واستعد للذهاب الى مكتبى ، فى الساعة السادسة تماما . .

وبينما كنت فى انتظار الشاى ، اذا بجرس التليفون يدق ، فرفعت السماعة لأجد على الطرف الآخر من يقول لى : أنت المهندس عثمان .

قلت : نعم

قال : البقية فى حياتك فى نظام الحكم .

كانت مفاجأة . . وأى مفاجأة . .

حاولت ان احصل منه على المزيد من المعلومات ، أو حتى على الأقل أعرف اسمه ، ولكنه لم يعطنى الفرصة لذلك ، فوضع السماعة فورا بعد ان قال لى الكلمه . .

كان صوت المتحدث مألوفا بالنسبة لى . . ولكن وقع المفاجأة لم يمكننى من أن أطلب من ذاكرتى ان تسعفنى . .

وتزاحمت عشرات الاسئلة فى رأسى ، واصبحت فى حيرة شديدة من امرى . .

ووجدت نفسى أعيش لحظات صراع ضارية مع نفسى ، لأن الخبر الذى سمعته ، لا يستطيع ان ينطق لسانى ، أو لسان أحد غيرى فى مصر كلها به قبل أن يتأكد .

وجلست مع نفسى أتساءل . . وكنت قد نسيت الشاى الذى وضعوه أمامى . . ونسيت أن أذهب الى المقاولون العرب ، وشدنى ذلك الخبر لأن اتتبعه ولأعرف كل شىء عنه . .

هل الخبر صحيح ؟ وكيف حدث ذلك ؟ !

واذا كان صحيحا . . لماذا قطع الرجل المكالمة دون ان يكمل الحديث معى ؟

هل هذا التليفون من قبيل المداعبة ؟ . . وهل الذى آراد أن يداعبنى لم يجد إلا هذا الموضوع ؟ . . ترى أن أحداً آراد أن يجس نبضى فى أمر ما أكنه فى داخلى ؟ . . هل هذا التليفون « مقلب » أراد صاحبه ان يوقعنى فيه ، على اعتبار أن اتلقف التليفون ، وأسارع بابلاغه لآخرين ، ومعروف ان التليفونات مراقبة ، فينكشف لهم ما فى صدرى ؟ . .

إن صاحب الصوت معروف لى ؟ . . ترى هل اعود واطلب مكالمته مرة اخرى ؟ واذا طلبته فماذا أقول له ؟ . .

وهل يجرؤ أحد على أن يتحدث فى مثل هذا الموضوع ؟ ! . .

وقد استقر رأيى ، على ان اجس النبض ، من خلال عدد من المكالمات التليفونية ، التى اجريتها مع اصدقاء قريبين بحكم مواقعهم ، لابد أن

يعلموا شيئا عن مثل نلك الخبر . .

وكان أول إتصال أجريته مع المدير المدنى ، لمكتب وزير الداخلية فى نلك الوقت ولم أجد عند الرجل أدنى دليل ، على ان هناك شيئا قد حدث ، لا من كلماته ، ولا من لهجته ، أو انفعالاته خلال المكالمة ، وكان طبيعيا جدا فى حديثه معى ، وكأن شيئا لم يحدث ورايت وقتها أن أتصل بصديق ، يعمل فى مجال الصحافة ، على اعتبار أن الصحف هى أول من تصل اليها الأخبار ، واتصلت بعبد الله عبد البارى فى الاهرام ، وكانت الساعة وقتها حوالى السابعة إلا الربع « ودرنشت » معه ، وسألته عددا من الأسئلة البعيدة عن الموضوع لأن الخبر مرعب ومخيف . . فمن كان يجرؤ على أن ينطق الكلمة عليه وقتها ، وهو الذى تصور انه مخلد لن يموت . . !

ولم أجد عند عبد الله عبد البارى أدنى فكرة ، ولم اقل له شيئا ، ووضعت سماعة التليفون . كان الوقت يمر ثقيلا ، ولم أستطع أن أقل شيئا عن الخبر ، حتى لأولادى فى البيت . .

فماذا أقول ؟ !

وعشت تلك اللحظات وحدى . .

ومددت يدى لأدير محطات الاذاعة والتليفزيون ، فوجدت كل شيء عاديا جدا وكأن شيئا لم يحدث . .

فاتصلت وقتها باستاذى وصديقى الدكتور احمد محرم ، وهو رجل واسع الاتصالات فلم أجد عنده . . « لا حس ، ولا خبر » . .

احضرت جهاز التليفزيون وكان بجوارى جهاز الراديو . . أقلب فى كل محطات اذاعات الدنيا . . لم أجد أدنى دليل على صحة الخبر . .

وعندما جاءت الساعة التاسعة فتحت التليفزيون لأستمع الى نشرة الأخبار ، فوجدت النشرة عادية جدا تملؤها صورة نظام الحكم السابق وهو يودع الملوك والرؤساء العرب الذين حضروا مؤتمر القمة العربى بالقاهرة ، الى أن قام بوداع أمير الكويت . . وكان آخر من ودعه .

ولم تشر النشرة ، لا من قريب ولا من بعيد . . الى أنه ودع الحياة .

لا شماتة فى الموت فانه طريق كلنا عليه سائرون . . ولكننى بصدد تسجيل وقائع . . وفجأة . . بعد النشرة مباشرة تغيرت برامج التليفزيون وبدأت تلاوة القرآن الكريم . . وبحثت فى محطات الاذاعة فوجدتها هى بدورها راحت تفعل نفس ما فعل التليفزيون ، ووجدت فى تلك اللحظة فقط اول طرف خيط يؤكد صحة الخبر الذى سمعته . .

سمعت الخبر الساعة السادسة إلا عشر دقائق . . وتأكد لى صحته الساعة التاسعة والربع . .

وهنا عدت لأتصل بعبد الله عبد البارى مرة أخرى ، لعله يستطيع فى تلك المرة ، أن يقول شيئا . .

فسألته : ماذا عندك من أخبار . . فوجدته مرتبكا جداً وهو يقول لى :

فيه خبر كبير جدا . . ومهم جدا . . وخطير جدا . .

كان لا يعرف ماذا يقول .

ولم يستطع أن ينطق بكلمة « . . . . . . مات »

فقلت له : ياعبد الله الاذاعة والتليفزيون ، بدأتا تلاوة القرآن الكريم .

قال : عرفنا اللى حصل ، ولكن ماقدرش أقولك فى التليفون . .

وكان أن وضعت سماعة التليفون ، وانتظرت الى ان سمعت الخبر فى الاذاعة . .

وكان سماعى الخبر . . آخر مشهد من مشاهد قصتى معه . .

رحمه الله . . وسامحه عما فعله معى .

يجب أن نتذكر محاسن موتانا . . ولكننا الآن بصدد كتابة صفحات للتاريخ . . يجد الانسان نفسه مضطرا امامها ، لان يسجل الاحداث ، بحياد شديد مجردا من كل هوى . .

وكل ما أستطيعه أننى تجنبت ذكر اسمه واتخذت من جملة « النظام الحاكم » رمزا . . وهذا ما استطيعه فقط تجاهه كانسان ، أما صفحات التاريخ فمن الخيانة الا تسجل بأمانة . الامر الذى ليس هناك منه أدنى مفر . .

بداية المؤامرة

وكان أن عرفت فيما بعد أنه ودع الدنيا وانتقل الى الحياة الأخــرة «رحمه الله» فى الساعة الرابعــة والنصـف . . واعتبارا مــن الســاعة الخامسة من نفس اليوم . . اى بعد وفاته بنصــف ســاعة ، بدأ تحــرك مراكز القوى ، الى أن أجهز عليهم الرئيس السادات فى ١٥ مــايو مــن العام التالى . .

وكان أن عقد أول إجتماع مصــغر بينهــم ، فى الســاعة الخــامسة تماما ، وضم ذلك الاجتمــاع كلا مــن على صــبرى ، وســـامى شرف ، والسفير الروسى فى القاهرة . .

ولم يخطر اى أحد بالخبر . .

وظل اجتمــاعهم السرى ســاعة كاملة ، حيث انتهــى فى الســـاعة السادسة والنصف ، ولم يخطر الرئيس محمــد أنور الســادات مــع أنه الرئيس الشرعى للبلاد اعتبارا من الساعةِ الرابعة والنصف إلا بعــد أن انتهى الاجتماع . . أى بعد الساعة الســادسة والنصــف وحتى عندمــا أخطروه قالوا له : إنه يشعر ببعض الآلام ليس إلا . .

ولك أن تتصور كيف كانت تحكم مصر ؟

الســفير الروسى أول مــن يعلم بالخبر ، ونائب رئيس الجمهــورية الوحيد ، والرئيس الفعلى للبلاد ، منذ لحظة الوفاة لا يعلم الا بعد الساعة السادسة والنصف ، أى بعد الحدث بساعتين كاملتين . .

وعند وصول الرئيس السادات ، وجد كل شىء قد انتهى ، فأمر بنقــل الجثمان إلى ثلاجــة القبة ، ودعا الى اجتمــاع عاجــل لمجلس الوزراء ، انتهى فيه الى البيان الذى أعلنه على الأمة فى الساعة الحادية عشرة . .

وأسدل الستار على قصة فرض الحراسة على عثمان احمد عثمــان قبل أن تكتمل فصولها هكذا أراد الله .

إنس . . إنس

وكان أن تم تأليف وزارة جديدة ، لم يدخلهــا حســن عباس زكى . .

وذهبت لزيارته فى منزله . .

وقال لى فى تلك الزيارة . .

انقذك الله ياعثمان ، لقد كان كل شىء معدا ، وكانت « السكينة » التى ستستخدم فى نبحك قد تم سنها . . والخطاب الذى طلبته منك وأرسلته الى ، قبل أن ينفذ الله فيه إرادته ، لم يكن إلا محاولة يائسة ، أردت من ورائها تخفيف ما كان ينتظرك . .

كان كل شىء معداً ، على اعتبار أنه فى يناير ١٩٧١ ، بمجرد الانتهاء من مراسم الاحتفال بالسد العالى كان سيحدث لك ما رحمك الله منه . .

وعدت لأسأله : وما هو الموقف الآن ؟

قال الرجل لى : إنس . . إنس . . خلاص ياعثمان . . لقد انتهى كل شىء بقرار إلهى أقوى وأكبر من كل القرارات . .

تلك هى حكايتى مع النظام السابق ، لأقول من خلالها ، لكل من يريد أن يعرف كيف كانت علاقتى به . .

إذا كان هناك من يأكل على كل الموائد ، فاننى والحمد لله قدمت الأكل على كل الموائد .

وحياتى عطاء متواصل ليس فيها أخذ إلا لقمة العيش ، ليس منا منى على أحد ، ولكن الموقف أجبرنى على أن أقول ما لا أريده . .

والحمد لله . .

اعظم لحظة

وحان أول يناير موعد افتتاح السد العالى . .

وكنت أقف هناك فوق جسم السد ، استرجع كل الذكريات ، منذ أن ناقشت مجلس ادارة الشركة لمحاولة اقناعه بأن ندخل فى عطاء السد العالى ، ورويت لهم « حكاية جحا والسلطان » الى أن واجهنا هناك كل ما واجهناه . . الى أن أسدل الله وحده الستار ، على آخر فصل من فصول قصة نبح عثمان أحمد عثمان . .

كانت لحظة تاريخية بالنسبة لى لا أجد الكلمات التى أعبر بها

عنها . .

ولكن بينما كنت أقف فوق جسم السد . . لا أعرف لماذا تذكرت حكاية سمعتها فى المانياولا أعرف لماذا تذكرت هذه الحكاية بالذات . . مـــع أنه كان هناك الكثير الذى يجب أن أتذكره .

كنت أسافر الى مختلف الدول ، لاستيراد ما يلزمنى مـــن معـــدات ، واعجبنى معاملة الألمان فمعاملاتهم سهلة ، ومعداتهم جيدة ، ومواعيدهم دقيقة . .

وذات مرة كنت فى ميونخ فرأيت شارعاً واسعاً ، يصل اتساع نهــره الى اكثر من مائتى متر تقريبا فاعجبت به . .

وعندما نقلت تلك الاعجاب الى الالمان ، قالوا لى إن هذا الشارع له قصة .

كان هتلر هو الذى أنشأه ، عندما توسع فى فتوحاته ، وطالت خطوط امداده ، ومواصلاته فبدأ الشــعب الالمانى يضـــج منه فـــأراد أن يرفـــع معنوياته . .

فجاء هتلر فى تلك المنطقة ، وقرر أن يقيم هذا الشـــارع ، عن طـــريق ضم شارعين متوازين كان يفصل بينهما مبان وعمــارات . . لذلك قـــرر هتلر أن يهدم تلك المباني ويسويها بالأرض ، ليتصل كل من الشـــارعين بالآخر ، ويصبحا شارعا واحدا طويلاً وعريضـــا . . بالشـــكل الذى تراه الآن . .

وكان من بين المنشآت التى قرر هتلر إزالتهـــا كنيســـتان ، عز على رجال الدين أن يهدمهما فكونوا وفداً منهم وذهـــب الى هتلر ، يطلب إليه عدم هدمهما فـــأمسك هتلر بالوفـــد ، وحبس جميع أعضـــائه ، وهـــدم الكنيستين . .

وأعلن أنه سيقيم فى هذه المنطقة الطـويلة العــريضة التى مهــدها ، معرضا للغنائم التى كســبها ، لكى يراهـــا الشــعب الألمانى فترتفـــع معنوياته .

وجهز هتلر المعرض ووضع فيه كل الغنائم ، وفى ليلة اليوم الذى كان

مقررا فيه افتتاح ذلك المعرض ، جاءت أكثر من ألف طائرة من طـائرات الحلفاء ، ودكت الشـارع والغنائم قبل ان يفتتح المعـرض . . وانتهـى هتلر . .

وستظل الى الابد الآية الكريمة « ان الله يدافع عن الذين آمنوا »

ولم يفتتح النظام السـابق ــ كمـا أراد الله ــ السـد العـالى وانما افتتحه الرئيس محمد أنور السادات .

واذكر أننى كنت فى مقدمة المستقبلين له هناك ، وكان معـه الرئيس السوفيتى بدجورنى ، ووجدت نفسى دون أن أدرى أو افكر ، افعل مـا لم يخطر على بالى قبل أن افعله . .

بكل ما فى اللا شعور من مشـاعر . . وبكل مـا فى الانسـان مـن تلقائية . . احتضنت الرئيس السادات وقبلته ، وهتفت من أعماقى ، لأول مرة بهـذه الطـريقة فى حياتى . . الله أكبر الله أكبر . . اللهـم صـل على النبى . . اللهم صل على النبى . .

ولم يفعل الرئيس السادات وقتها ، أكثر من أنه ضحك . .

أدرك أن عقلى الباطن ، تقدم فى تلك اللحظة عقلى الظـاهر . . ولكنه تساءل لماذا ؟

وكان أن استقبلنى بعد فترة وسألنى عما فعلته عندما استقبلته بتلك الطريقة فى الافتتاح ؟ !

قلت له : أعذرنى ياسـيادة الرئيس . . أنا لم أدر عمـا حـدث منى شيئا ، اكثر من أنه حدث ، ولا أعرف حتى الآن ، كيف أو لماذا حدث منى ذلك ؟

ولكن ربما أستطيع الآن يا سيادة الرئيس ، أن أحاول تفسيره . . . .

ربما من شدة ما عانيت رغم كل ما أعطيت . .

ربما أردت أن أقول لك أين أنت ؟ وأين كنت ؟ . . ولماذا جئت متأخرا على مصر بعد كل ما أصابها لتحميها مما حدث لها ؟

ربما يا سيادة الرئيس . . أردت أن أشكر الله سبحانه وتعالى ، لأنه

انقذنى مما كان ينتظرنى ، لأننى كنت الوليمة التى ستذبح فى ذلك اليوم احتفالا بانتهاء العمل فى السد العالى . .

سيادة الرئيس : أرجو أن تقدر مشاعرى . . أين كنت ؟ وكيف أصبحت ؟ . . الحمد لله ووجدت نفسى أقول بلا شعور أيضا .

سيادة الرئيس :

« إن الله يدافع عن الذين آمنوا »

وبعد أن انتهيت من تلاوة الآية الكريمه قال الرئيس : صدق الله العظيم .

مذكرة خالى والإخوان المسلمين

كانت فى الاسماعيلية بداية أول دعوة للاخوان المسـلمين ، على يدى المرحوم الشيخ حسن البنا ، وكان فيها أيضـا أول ارتباط لى مـع تلك الدعوة الكريمة على يدى أمى ، قبل أن تعرف طريقها ، مع حسـن البنا ، الى النور بسنوات .

وقد وجدت فى الآية الكريمـة : « إن الله يدافـع عن الذين آمنوا . . » مدخلا واسعا لأن أتعمق فى أمور دينى ، وأن أقترب مـن ربى وتطـورت علاقتى مع الآية الكريمة ، وحسن البنا ، وأمى ، إلى أن كبرت ، ونموت ، فتفتحت عيناى على كل ما فى الايمان بالله من قيم وتعاليم ، واتخذت منها دستورا لحياتى ، لا أحيد عنه مهما كلفنى ذلك من ثمن . .

وكانت لى مع الايمان والاخوان قصة بدأت عندما بدأت أسأل أمـى ماذا تقصد عندما تقول :

« إن الله يدافع عن الذين آمنوا . . » كما قلت فى الفصـل السـابق ، وتطورت تلك القصة ، لأتخذ من هذا الفصل موضوعا لتسجيل جانب من أحداثها ، وبعض صور من مشاهدها .

مع أمى

كانت أمى « رحمها الله » تستيقظ مـع بداية خيوط فجـر كل يوم ، تتوضأ ، وتؤدى صلاة الفجر ، وفرض الصبح ، ثم تجلس بعـد ذلك لتتلو من الذاكرة بعض آيات من القرآن الكريم .

وتفتحت عيناى على ذلك المشهد ، عندما بدأت أعى الدنيا من حولى ، وكنت أستيقظ أنا واخوتى معهـــا ، وكانت الحيوية والحياة تدب فى بيتنا قبل شروق الشمس .

وكان أن علمتنى ـ كما علمت اخوتى كيف أتوضا ـ وكيف أصـــلى الصلوات فى أوقاتها ، عندما وصلت الى السن الملائمة لذلك . .

وأذكر فى ذلك الوقت أننى سألتها عما تقصد من ترديد الآية الكريمة التى ذكرت شرحها فى فصل سابق .

وكان والدى « رحمه الله » يمتلك مكتبة دينية صغيرة ، احتفظت بهـــا أمى ، الى أن كبرت أنا وإخوتى ، فرحنا نقرأ كل مـــا احتوته مـــن كتب ، لنلتهم كل ما فى بطونها من قيم ، لكى نتعلم أمور ديننا .

وأذكر ان أمى « رحمها الله » كانت تجلس إلى جـــوارى وتطلب منى أن أقرأ بصوت مرتفع ، لكى تستفيد هى الأخـــرى المزيد مـــن التفقـــه فى أمور الدين . .

واحتفظنا بتلك المكتبة كأعظم تراث ، وميراث تركه لنا والدنا « رحمه الله » ، واصطحبناه معنا من الاسماعيلية ، الى منزل شـــقيقتى الكبرى ، عندما جئنا اليها ، لكى نواصل مراحل تعليمنا بالقاهرة .

وكان زوجها فضيلة الشـــيخ على حســـب الله ، أســـتاذا بجـــــامعة الأزهر ، فأهدينا له تلك المكتبة لما كان يربطنا به من حب ومودة .

وكان جو أسرته التى التحقنا بها ، هو نفس جو الأسرة التى نشأت فيها ، فلم يبخل الرجل عن أن يحدثنا من علمه بالكثير .

لذلك كانت وما تزال علاقتى بربى خطا مستقيما فى كل شىء . .

وقد تعودت على الاستيقاظ المبكر منذ ذلك الوقت ، وظلت تلك العادة الحميدة ، تلازمنى حتى الآن ، فأخرج من البيت لمباشرة أعمالى كل يوم قبل شروق الشمس ، وبعد صلاة الفجر والصبح وتلاوة مـــا يتيسر مـــن كتاب الله الحكيم . .

وكان لهذه العـــادة فضـــل كبير على فى عملى ، فثبت لى عمليا أنهـــا تضيف ٢٠٪ الى عائد انتاجى ، دون بذل أدنى مجهـــود منى ، أكثر مـــن

أننى كنت أذهب الى موقع العمل قبل أى عامل ، وكان ذلك سـببا فى أن يضطر جميع العاملين دون مـا أطلب منهـم الحضـور فى مـواعيدهم ، ليجدوا أننى قد رتبت كل مـا يلزم لبدء العمـل ، مـن مسـتلزمات حتى لا يحدث أى تعطيل أو تأخير .

وكانت تلك هى أول فوائد الايمان .

وراحت أمى فى المرحلة المبكرة من عمرنا تغرس فينا بالقول والفعل ، كل القيم الدينية والأخلاقيات الاسلامية ، كان ذلك من خلال تصرفـاتها معنا ، أو ملاحظاتنا لأفعالها ، وطرق معاملاتها للناس .

وكان لها « رحمها الله » الفضل الأول فى أن تثبت الفضيلة فى قلوبنا ، وأن تنمو فى عقولنا ، وأن نرضع لبنا طيبا منذ طفولتنا . . فكان أن نشأنا مع الايمان العميق بالله والتوكل عليه سبحانه وتعالى ، والعمل بتعـاليم الدين الاسلامى الحنيف ، حتى أصبح التدين أمرا تلقائيا طبيعيا ، فرض علينا أن نحمد الله كلما أعطانا ، وأن نسلم له أمرنا كلما امتحننا .

وكان ذلك هو سر الصلابة والصبر والقدرة على التحمل التى تحليت بها ، ووقفت أواجـه متوكلا على ربى ، أعتى العـواصف دون أن أحنى رأسى إلا لله وحده . .

وكلما قابلتنى مشكلة استعصى حلها ، تعودت ألا ألف وأدور حـولها ولكن كنت وما أزال ، ألقى كل حملى وهمومى ومشاكلى على الله ، الذى أفوضه فى كل أمرى ، وبعد ذلك أشعر براحة نفسية لا حـدود لهـا ، لأن حملا ثقيلا ألقيته من فوق ظهرى ، ووضعته عند من يتحمل أحمال الناس جميعا .

علمتنى أمى « رحمها الله » أن أرعى الله فى كل تصرف ، وأن أخـافه سبحانه وتعالى فى كل عمل .

ورأت أمى أن تؤكد عندى تلك النشـأة الدينية ، بأن اصـطحبتنى فى يدهـا ذات يوم الى أحـد كتاتيب الاسـماعيلية ، لكى أتعلم على يدى « سيدنا » ، كيف أحفظ القرآن الكريم . . حتى يحفظنى . .

كانت أمى « رحمها الله » من أسرة متدينة ، وكان شـقيقها الشـيخ

محمود حسين رجلا طيبا ، يثق فيه كل اهل الاســماعيلية ، ويأتون اليه هو وصديقه الشيخ داود ، وكان كل منهما حاصلا على الشهادة العالمية لكى يســتشيرونهما فى كل أمــورهم الدينية والدنيوية . وانكر أن أهــل الاسماعيلية كانوا يطلقون عليهما لقب « الدود طيب » .

وامد الله سبحانه وتعالى فى عمر خالى الشيخ محمود وصــديقه الى أن تخرجت فى كلية الهندسة ، وعملت فى المقاولات ، كنت أذهب اليه دائما هو وصديقه ، لكى أستشيرهما فى كل أمورى ، وكنت اخرج كل عام زكاة كل أموالى ، واسلمها لهما لكى يقوما بتوزيعها بمعرفتهما على كل مــن يحتاج اليها ، وكلما وجدت نفسى أمام عمل اشــك فى أنه يتعــارض مــع تعاليم الاسلام ، كنت أستأنس برأيهما قبل ان اقدم عليه ، وكنت افعــل كل ما يقولانه لى . .

مع حسن البنا

واتصلت نشأتى الدينية فى البيت ، مع نشأتى الدينية فى المدرســة . . وكان ذلك على يدى الرجل ، الذى حمل لواء الدعوة الاسلامية ، ومكن لها فى عصرنا الحديث .

ولم أكن أتصور وقتهــا أن أســتاذى ، الذى تولى تربيتى الدينية فى المدرسة ، سيصبح صاحب مدرسة كبيرة ، وضع أسســها ، ومــا تزال ، وستظل علامة رائدة يتجمع حولها ، كل من أراد أن يعتصــم بحبل الله فى كل أموره . .

وكان حظى أن أتتلمذ ، على يدى المرحوم الشيخ حســن البنا ، الذى أكد عندى الخط الدينى الذى نشأت عليه فى منزلنا ، حتى أصــبح هــذا الخط محورا لكل حياتى .

كان المرحوم حسن البنا ، مدرسا للغة العــربية والدين ، فى مــدرسة الاسماعيلية الابتدائية ، وكان شابا فى العشرينات من عمــره . . وجــدت عنده « رحمه الله » سعة صدر ، وعطف . . كان يحبنا فــأحببناه ، وتعلقنا به . .

كان لا يكتفى بما كان يعلمه لتلاميذه داخل قاعة الدرس ، ولكن كان

يطلب منا أن نحضر كل يوم الى المدرسة ، قبل موعد الدراسة بساعة كاملة ، وعندما نحضر كان ينظمنا فى شكل طابور ، ويسير بنا الى المسجد القريب من المدرسة ، فيعلمنا الوضوء السليم ، ثم نصلى فرض الصبح ، ويعود بنا بعد ذلك الى المدرسة مرة أخرى .

وأذكر أننى كنت أنام وأنا أحلم بذلك اللقاء اليومى الذى أحببته ، وكنت انتظره بفارغ الصبر ، ولم يقتصر الأمر عند ذلك الحد ، ولكن كان يكرر « رحمه لله » نفس الأمر مع موعد كل « فسحة » كان يطلب منا أن نعود مرة أخرى الى المدرسة بعد أن نتناول غداءنا فى منازلنا ، وكنا نجده « رحمه الله » فى انتظارنا فيصطحبنا الى المسجد لكى نؤدى فرض صلاة الظهر ، ونعود بعد ذلك لاستكمال حصص اليوم الدراسى .

وكان أن علمتنا أمى « رحمها الله » الصوم ، وشجعتنا عليه ، وكان شقيقى المهندس حسين عثمان يتعلم الصوم لأول مرة ، وكان ذلك فى أول أيام شهر رمضان المبارك ، وجلس فى الفصل ، وأكثر من البصق فى منديله ، فلاحظ عليه ذلك الأستاذ حسن البنا فسأله : ماذا بك ياحسين ؟

فقال : إننى صائم ، ولا أريد أن ابتلع ريقى حتى لا أفطر . .

فضحك الاستاذ المرحوم حسن البنا كثيرا ، وربت على كتفه ، واستبدل حصة الدرس الذى كان يشرحه لتلاميذه بحصة فى العبادات . . راح يشرح فيها لتلاميذه عبادة الصوم .

وقد ارتبطنا نفسيا بالأستاذ حسن البنا « رحمه الله » ، وكان بمثابة الأب الروحى لنا ، نستمد من علمه ومعرفته على قدر ما نستطيع .

وانطبعت فى أذهاننا أخلاقياته ، وشدنا اليه حسن معاملته ، وقدرته على أن يستحوذ على حب الناس له ، وارتباطه بهم وربطهم به . .

كان رحمه الله فلتة من فلتات الزمن ، أعطاه الله سبحانه وتعالى من حسن الصفات ، والتفقه فى أمور الدين ، والتمكن من دراسته وفهمه ، واستيعابه وقدرته على أن يعلمه لكل من كان يستمع إليه ويستمتع روحيا به . .

كان يتمتع بقدره فائقة على مخاطبة كل العقول ، مهما اختلفت

ثقافتها . . كان مشوقا ، لا تمله فى مجلسه ، ولا فى حديثه . . كان رحمه الله مدرسة كبيرة ، وعالما جليلا وحجة فى الدين .

كان أن أبحر فى علم ربه ، فكان له ما ليس لغيره من أبناء جيله . . فكان له أن يستحق رضاء الله فأرضى عنه كل الناس .

فى مندرة خالى

وكان خالى المرحوم الشيخ محمود حسين كما قلت من علماء الدين فى الاسماعيلية ، وكان أن قدم الشيخ حسن البنا « رحمه الله » إلى شقيقه الشيخ محمد حسين رحمه الله والذى دار بينه وبين الشيخ حسن البنا حوار فى أمور الدين والدنيا ، اقتنع بعده خالى بأن الشاب أكرمه ربه فأحسن تربيته على هداه وسنة رسوله ، وخرج حسن البنا بعد تلك الزيارة من منزل خالى ، ليدخل إلى قلبه ، فأحبه وأعجب به ، وبطلاقة لسانه ، وسهولة عباراته ، وقدرته على الاقناع بالعلم والمنطق . .

وقد تأكدت أواصر الصداقة بينهما ، وكان خالى يدعوه كل يوم بعد صلاة العشاء الى « مندرته » ليتفقها معا فى أمور الدين ، ويتفكرا فى شئون خلق الله .

ولكن الجلسة لم تقتصر عليهما بعد ذلك ، إذ اتسعت لتشمل أصدقاءهما وأصدقاء أصدقائهما ، وبدأت بعد ذلك دائرة المنتدى الدينى الكريم فى الاتساع ليجد كل من يقصد المجلس مكانا له فيها .

وأذكر أن أستاذى حسن البنا كان يتصدر ذلك المنتدى ، الذى كان هو فقيهه . . وكان كل من فى « المندرة » طلاب تفقه فى دين الله .

كانوا من المؤمنين البسطاء الذين توافر لديهم الايمان ، وجاءوا ليستزيدوا علما ، ومعرفة ، من ذلك الاستاذ المفوه بالحق وكلمات الله ، وكان حديثه جذابا لا يمل ، يحلو لكل من يستمع اليه ، لأن يتمنى أن يمتد الوقت حتى لا ينهى حسن البنا حديثا كان قد بدأه . .

وكانت « مندرة » خالى تمتلىء عن آخرها ، بكل من كان يقصدها ، من أحباء الله . . أحباء حسن البنا . .

وكنا نحن فى ذلك الوقت أطفالا ، لا يسمح لنا بشرف الانتماء الى

تلك الجلسة فكنا نقف عند باب « المندرة » نسمع ما يقول بآذاننا ، فتتفتح له عقولنا ، وترقص بالفرحة قلوبنا . . فهو أستاذنا الجليل الذى نحبه ويحبنا .

وكم كنا فخورين وسعداء لأنه يتمتع بكل تلك المكانة ، وكل ذلك الاحترام من كل أهل الاسماعيلية . . !

وكيف لا نفخر ونحن الذين كنا نرضع من أفكاره علما طيبا سليما نقيا صحيا ، يستفيد منه العقل ، ويرتاح اليه القلب . . !

وعاش معى فخرى به وحتى الآن . . وكيف لا وأنا الذى تتلمذت على يدى ذلك العلامة العملاق ، الذى أصبحت دعوته حجر الزاوية فى حياتى . .

وكان فضل الله على عظيما . .

خرجت الدعوة
لأول مرة

وتطورت دعوة أستاذى المرحوم حسن البنا ، وكثر مريدوه ، ومرتادو مجلسه ، الى أن فكر ذات يوم فى أن تخرج الدعوة من « المندره » ، لتصبح الاسماعيلية كلها منتدى دينيا كريما لها . .

وقد اقترح على مجلسه ، أن يخرج الى الشارع فى مناسبة أحد الأعياد ، ليكبروا جميعا تكبيرة العيد ، ثم أصبح ذلك تقليدا مستمرا فى الاسماعيلية مع حسن البنا بعد ذلك . .

وخرج موكب الدعوة الاسلامية مع حسن البنا من مندرة خالى لأول مرة ليرتاد حى العرب بالاسماعيلية ، يطوفون به ، يكبرون تكبيرة العيد ، وكان الكل يردد فى صوت واحد « الله أكبر » . . تجلجل فى سماء الاسماعيلية ، كأعذب موسيقى سمعتها فى حياتى . .

وكانت تطوف مسيرة الأستاذ حسن البنا بشوارع حى العرب فى البداية ، وكانت لا تستطيع الاقتراب من الحى الافرنجى . .

ولكن أراد حسن البنا أن يتجاوز حى العرب الى الحى الافرنجى ،

فاقترح أن تعبر المسيرة شارع الثلاثيني ، لتجوب شارعا أو شارعين فى الحى الافرنجى . .

وراحت تمتد مسيرته رويدا رويدا ، من شارع الى شارع يوما بعد يوم . .

وقد أزعج ذلك الأمر الانجليز ، وكانت الاسماعيلية فى ذلك الوقت محكومة بهم ، وبهيئة قناة السويس معهم . . فكانوا هم القوة التى لا يستطيع أن يتحداها أحد . . ولم يعبروا عن عدم ارتياحهم ، بتعرضهم لمسيرة حسن البنا ، ولكنهم أرادوا التخلص من وجود حسن البنا فى الاسماعيلية . .

فقد تسببوا فى نقله من الاسماعيلية . . حيث كان مدرسا ابتدائيا فى ذلك الوقت ، ولا يمثل نقله بالنسبة للانجليز أدنى مشكلة . .

وفوجئت الاسماعيلية بالخبر ، وأعلنت رفضها للموقف ، واعتبرت نقل الاستاذ حسن البنا نوعا من التحدى لشعبها ، ولذلك فقد سافر معظم كبار رجالها الى القاهرة مع نائبها فى البرلمان المرحوم سيد حسين المحامى ، وعرضوا الأمر على السلطات المختصة فى وزارة المعارف العمومية فى ذلك الوقت . . ورفضوا العودة الا ومعهم حسن البنا ، وتمت الاستجابة لمطلبهم ، ولكنها كانت معلقة على شرط الا تتخطى مسيرة حسن البنا ، حى العرب ، وألا تمتد الى الحى الافرنجى . .

الى ذلك الحد وصل تدخل الانجليز فى شئون مصر ، فى ذلك الوقت ، حتى استصدروا قرارا بنقل مدرس ابتدائى . .

ولك أن تفهم كيف كانت تدار باقى الأمور . . !

وعاد حسن البنا الى الاسماعيلية مرة أخرى ، لكى يواصل رسالته ، وبدأ من عند ذلك النشاط الدينى الكبير التفكير فى انشاء أول جمعية للاخوان المسلمين ، فى الاسماعيلية ، ولتكون نواة لتجمع الاخوان المسلمين فى مصر كلها ، على يدى ذلك الرجل الطيب الصالح لدينه ، ولوطنه . . وبدأت تنتشر بعد ذلك فى كل مكان الى أن أصبح لها التنظيم

الذى لو استمرت فى السير على الطــريق الذى بدأت به ، لكان لهــا الآن شأن مختلف .

وتزوج حسن البنا من الاسماعيلية بعد أن ارتبط بها وارتبطت به ، والتفت حوله . . وكانت زوجته كريمة الحاج حسين الصولى ، مــن عائلة طيبة ، وظل فى الاسماعيلية حتى نهاية تعليمى الثانوى ، ونقل منها بعــد أن ترك فيها ما قال عنه الرسول الكريم :

« تركت فيكم ما إن تمســكتم به لن تضــلوا أبداً : كتاب الله وســنة رسوله » . .

وكنت عضوا منتظما فى جمعية الاخوان المسلمين بالاسماعيلية . . لم أتركها إلا بعد تخرجى فى الجامعة . . وشغلنى عملى ، وبدأ يستوعب كل وقتى ، انطلاقا من قول الله سبحانه وتعالى :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

ولكن صلتى بالجمعية ظلت فى صــورة ارتباط روحــى مــن ناحية ، والانتظام فى دفع الاشتراكات مــن ناحية أخــرى . . انفصــلت عنهــا كتنظيم ، ولكن كمبادىء ، وكقيم ارتبطت بهــا وسرت على نهجهــا مــن يومها وحتى الآن . .

* * *

هذا رايى . .

وقد بدأت بعض جماعات من الاخــوان المســلمين نشــاطا سريا لم أعرف به ، أو عنه أى شىء لأن عملى كما قلت ، شــدنى عن نشــاطاتها ، وإن كنت روحيا ونفسيا شديد الارتباط بها . .

وكان المرحوم يوسف طلعت ، وهو من أبناء الاســماعيلية ، رئيســا للجهاز السرى ، الذى أنشأه المرحوم الشــيخ حســن البنا ، ولم أعرف بذلك الجهاز ، الا بعد أن قتل بعض أعضــائه ، المرحــوم الخــازندار . . وكان قاضيا أصدر حكما ضد بعضهم .

وكانت تلك الواقعة سببا فى أن أتناقش مع كل من قابلنى من جماعة الاخوان المســلمين حــول تلك الموضــوع ، على اعتبار أننا أبناء دعوة

واحدة ، وكان لى ولا يزال رأى أجد من المناسب أن أسجله على هذه الصفحات . .

ارى أن العقيدة الدينية أمر يجب أن نعمقه بكل الوسائل . . الا وسيلة القتل واستخدام العنف ، ويجب أن تسير مسيرة الاخوان المسلمين على طريق الدعوة الصحيحة السليمة بالحكمة والموعظة الحسنة . . فنحن دعاة ولسنا قضاة . .

كان حسن البنا « رحمه الله » داعية ممتازاً ، استطاع بعزيمة من حديد ، أن يبدأ تكوين أول جمعية للاخوان المسلمين فى الاسماعيلية من الصفر وراح ينميها وينشر فروعها ، ويجند انصارها فى كل مكان ، حتى نجحت دعوته ، ووصلت الى كل ما نراه من أعماق ، واتساع ، وأريد أن نسير فى الدعوة على نفس طريقه الذى بدأه فى الاسماعيلية ، عندما ملك على أهلها كل كيانهم ، وحول المدينة كلها الى مجتمع دينى . . بالحب والاقناع دون أن يلجأ الى العنف . .

واعتقدت وسيظل معى الاعتقاد بأن السلاح . . هو أداة العاجز . . أما الدين الاسلامى فهو دين السماحة والمرونة والانسانية ، والاقناع بالحجة وما أنزل الله من آيات وما ترك فينا الرسول الكريم من حديث . . خاصة أن أرضنا صالحة لأن تنبت فيها الدعوة الاسلامية فى أروع الصور ، فينتشر فيها الدين الاسلامى ، ويشتد ساعد الدعوة يوما بعد يوم ، وينضم إلى المسيرة أنصار جدد . . وبذلك نرسى فى نفوس المسلمين القواعد الحقيقية والسليمة . .

إن دعوتنا الاسلامية ضربت مرتين ، مرة عام ١٩٥٤ ، ومرة أخرى عام ١٩٦٥ . . ونريد أن نتعلم من ذلك الدرس وبدلا من ان نفكر فى تكوين الخلايا ، ونلجأ الى العنف يجب أن نفكر فى نشر الدعوة فى كل مكان . . ونحن نلجأ الى نشرها بالحب . .

ليس من حقنا أن نحكم على ايمان البشر . . فتلك علاقة بين الانسان وربه ، والا فنصبح مدعين بعلم الغيب ، بدلا من كوننا دعاة الى دعوة من يعلم الغيوب الا هو الله سبحانه وتعالى .

انه يهدى من يشاء من عباده ، وليس علينا الا أن نواصل بث الدعوة ، فى كل مكان ونحن نرفع راية لا إله الا الله . . محمد رسول الله . .

وكان المرحوم حسن البنا نفسه شهيد لجوء بعض أعضاء جماعة الاخوان المسلمين الى العنف عندما قتلوا النقراشى باشا . . ولقد خسرت الدعوة باستشهاده عملاقا كبيرا كان بوسعه أن يفتح أمامها آفاقا واسعة . .

إننى أرى أن كل من يلجأ الى العنف وهو بصدد الدعوة الاسلامية ، فانه يعمل ضدها وليس لصالحها .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم بدأ دعوته سرا ، وعندما تهدده الخطر ، هاجر بها من مكة الى المدينة ، واحتمى صلوات الله عليه بغار حراء حتى لا يعرف الكفار أمره . .

كان بوسْع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يواجه فى بداية الدعوة الكفار ، وأن يموت شهيدا ، وهو يعرف أن مآله الجنة وأنه شهيد الدعوة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان حريصا على الدعوة وعلى أن يعمق جذورها ، وأن يكسب الكثير من الأنصار لها ، ولم يعلن عنها صلى الله عليه وسلم . . الا عندما اشتد ساعدها . .

لذلك ينبغى أن نقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن نحرص على الدعوة الاسلامية ، فى عالم كثرت فيه المغريات . . وأول وسائلنا للحرص على دعوتنا الاسلامية هو أن نستكمل أسمى رسالة خص بها الله سبحانه وتعالى الانبياء .

شهادة لله . .

وأشهد هنا أننى اذا ما كنت استنكر لجوء بعض أعضاء جماعة الاخوان المسلمين إلى العنف ، وانصح أبنائى الشباب الى ضرورة عدم اللجوء اليه ، فاننى أسجل أن الغالبية العظمى من جماعة الاخوان المسلمين ، دعاة ممتازون شديدو الحرص على الدعوة ، وعلى أن يمكنوا لها وأن يكسبوا لها أنصارا جدداً كل يوم تحت شعار « نحن دعاة ولسنا قضاة » .

وأسجل هنا أن الاخوان المسلمين ظلموا كثيرا عندما نكل بهم بغير سبب عام ١٩٥٤ . . وكذلك عام ١٩٦٥ . .

وعندى أكثر من دليل على سلامة معدن الدعاة ، ونزاهة الدعوة فى مجموعها .

إن الاخوان المسلمين ، كما رأيت بعينى ، وسمعت بأذنى ، وجربت بنفسى ، يربون الانسان على دين . . ومن لا إيمان له لا أمان له ، وهو عديم الفائدة لنفسه ، ووطنه واخوته فى الدين ، فلا خوف من المؤمن . . إنه مصدر للأمان والاطمئنان ، يصدق فى كل شىء ويؤتمن على أغلى شىء .

وكان ارتباطى الروحى بالاخوان المسلمين ، وبحكم نشأتى الدينية ، سببا فى أن أترك لهم باب شركتى مفتوحا على مصراعيه ، لكل من يريد منهم أن يعمل معى . . وكل من عمل منهم معى كان وفيا وأمينا . . كل همه تنمية علاقته بربه وبالاسرة التى ينتمى اليها . . شديد الاخلاص لعمله . .

وكان للاخوان المسلمين دور كبير فى تطور الشركة وبنائها ، واتساع دائرة نشاطها فى مجال البناء والتعمير ، وكنت وما أزال أعتمد عليهم فى كل شىء ، وحيثما يوجد أى منهم فى أى مكان فى العمل ، يؤدى واجبه على الوجه الأكمل ، فهم يخافون الله ، ومن يخف الله لا تخف منه ، وحفظت عهدى معهم ، وحفظوا مالى ، واعطونى بكل اخلاص . .

قامت الشركة على أكتافهم ، وبذلوا معى من الجهد والعرق الكثير الذى أجد نفسى عاجزا عن أن أرد جميله لهم فى يوم من الايام ، وان ما يريحنى نفسيا . . انهم منى وأنا منهم ، وجميعنا أخوة فى الدين وفى الله . .

وكان اقتناعى بأن الايمان يربط الانسان بربه ، ويجعل صلته بالآخرين حميدة ، وجانبه مأمونا . . ولذلك فلا أمتحن فى كل من يريد أن يعمل معى كفاءته . . ولكننى كنت أمتحن فيه ايمانه ، لأن المؤمن يدفعك لأن تطمئن اليه ، أما والعياذ بالله ــ من ليس عنده ايمان ، فهو يحتاج لمن

يحرسه ، ومن يحرسه يحتاج الى من يحرسه . . وهكذا . . ولكن المؤمـــن يخاف من هو أكبر وأقوى . . ويخاف الله سبحانه وتعالى . . لذلك فـــان مثل ذلك الرجل عندما تستأمنه على شيء ، لابد وأن يزداد ، ولا يمـــكن أن ينتقص في يوم من الأيام .

والحمد لله . . لا أفخر الآن بما اســتطاع أن يبنيه أبناء « المقـــاولون العرب » من أمجاد في دنيا الانشاءات . . ولكنني أفخر ببناء الانســـان ، داخل المقاولون العرب على عقيدة وايمان . .

بنيت المقاولون العرب بالمؤمنين . . وبالمؤمنين بنت المقاولون العرب ، وعمرت في مصر وفي العالم العربي . . وبهم تبني مصر لهم ، ولأولادهـــم من بعدهم .

وكانت لي معهـم طـريقة عندمـــا كان يأتي اى منهـــم للتعيين في الشركة . . كنت أتفق معه عليها أولا ، قبل أن نبدأ أى خطوة . .

كنت أتفق معه على أننا لا ندخل لنا بالسياسة وأننا نركز كل همنا في أن نبحث عن رزقنا لنربي أولادنا . . في اطار أن تربطنا جميعـــا علاقـــة طيبة تتخذ من الايمان أساسا لها . . وأن يكون لكل منا علاقته الخاصة بربه دون ما دخل له بعلاقة الآخرين . . أما ما هو غير ذلك فـــلا دخـــل لنا به . .

وكنا نتعـــاهد على ذلك المبدأ ، ثم نقـــرأ الفـــاتحة ، وبعـــد ذلك نبدأ العمل . .

واسجل لهم بكل فخر وامتنان واعتراف أنه لم ينقض اى منهم عهده معـــى ، في يوم مـــن الأيام ، وثبت ذلك بالدليل العملي أثناء محـــــاكمات الأخوان المسلمين عام ١٩٦٥ .

كان أن القوا القبض على ١٤٥ من العاملين في الشركة بحجة أنهـــم أعضاء في تنظيم الاخـــوان المســـلمين ، ولم تثبت التحقيقـــات إدانة أى منهم ، أو تورطه فيما يخالف العهد الذى تعاهد عليه معي . .

إنهم شرفاء . . ولأن الشرفاء قليلون ، فاننا نريد منهم المزيد ، ولكن ليس على طريقة التنظيمات السرية ، بل على طريقة حســـن البنا عندمـــا

بدأ الدعوة فى الاسماعيلية وكان أن أثر فى أسلوب دعوته الأولى ، وترسبت فى ذهنى ، واقتنعت من وقتها أنه لا أسلوب للدعوة الاسلامية السليمة الا ذلك الأسلوب ، الذى أرجو أن نصحح جميعا مسيرتنا على اساس منه . .

وأذكر أن نظام الحكم السابق ، انزعج بشكل غير عادى عندما وجد أن « المقاولون العرب » تضم كل ذلك العدد ، من بين الاخوان المسلمين . . مع أن العدد الذى تم القاء القبض عليه لا يمثل الحقيقة . . وهو أقل بكثير من الأعداد التى تضمها الشركة من بين جماعة الاخوان المسلمين . .

وكان أن وضعنى النظام السابق ، لذلك السبب فى القائمة السوداء لدرجة أنه علق بالحرف الواحد قائلا :

«هل هذه شركة مقاولات ، ام وكر للاخوان المسلمين ؟ ! . .

* * *

قصتى مع عبد العظيم

وكانت لى مع الاخوان المسلمين عشرات القصص ، التى ثبت لى من خلالها انهم ليسوا أوفياء بالعهد فقط ، ولكنهم يتمتعون بكل الصفات الحميدة ، وعلى رأسها الصدق ، والحرص على ألا يضار من يتعاملون معهم بسببهم . . فهم يعفون كل من يتعامل معهم من أن يتحمل مسئوليتهم او تبعاتهم . .

وكان من بين القصص البارزة لى مع الاخوان المسلمين . . والتى تعبر عن أكثر من معنى ، قصتى مع المهندس عبد العظيم احمد لقمة . .

فقد قمت بتنفيذ بناء المدرسة الثانوية للبنين بالاسماعيلية فى بداية الخمسينات لحساب الجمعية التعاونية بالاسماعيلية ، التى أقدمت على إنشائها ، من اجل مصلحة أبناء الاسماعيلية ، وكان العقد المبرم بينى وبين الجمعية وقتها بمبلغ خمسين ألف جنيه ، ولكن العملية تكلفت ستة وستين الف جنيه . . وطالبت الجمعية وقتها بالفرق ، لأن امكانياتى كانت لا تتحمله ، فتبين لى أن الجمعية لا تمتلك المبلغ ، وكان لابد من حل . .

وكان أن اتفقت مع الجمعية على أن تتقدم بمذكرة الى وزارة المعارف العمومية تطلب فيها المبلغ بعد معاينة المدرسة على الواقع . . المعاينه التى تقتنع منها بأن تدفع المبلغ المطلوب . .

وقد أرسلت الوزارة للمعاينة مهندسين ، كان احدهما مهندساً شاباً اسمه عبد العظيم احمد لقمة . .

حضر فى اليوم الأول زميله الذى طلب أن نشترى له بعض الحاجيات من الاسماعيلية . . ولأننا اعتبرناه ضيفنا . . كان لا يصح ان نحصل منه على ثمنها . .

وحضر فى اليوم التالى عبد العظيم لقمة ، ويبدو أنه عرف بما طلبه زميله الذى أراد أن يستغل ظروفنا ، لذلك سألنى :

هل تريد الحصول على حقك ؟

قلت له باستغراب : طبعا . . إن هذا المبلغ مضى عليه أكثر من سنة ، ولم أحصل عليه وليس ملكا لى . . ولكننى حصلت عليه من أحد البنوك . .

قال : إذا كنت تريد حقك ، فان حقك سيصلك على « داير المليم الواحد »

قلت : لا أريد يا باشمهندس أكثر من ذلك .

قال : ولكن لى عليك شرط . .

وتصورت لحظتها ، أن ما حصل عليه صديقه ، كان من قبيل المجاملة . . أما هو فانه سيذهب الى ما هو أبعد مما طلبه زميله . . فهمت إنه اراد ان « يقاولنى » .

فقلت له وأنا اتحسب منه :

« خير » إن شاء الله « ياباشمهندس »

وكان أن فاجأنى بعكس ما كنت أتوقعه منه عندما قال :

إذا أردت أن تكرر معى ما فعلته مع زميلى فلن أمكنك من « تعريفة واحدة » مما لك من مستحقات .

فقلت له :

ومن ذا الذى يريد أن يكلف نفسه ما لا يطلب منه ، ان زميلك طلب أن نشترى له بعض السلع من بلدنا ، وكان لا يصـح . . ونحـن ريفيون أن نحصل منه على ثمنهـا ، واعتبرناهـا كتقـاليدنا . . نوعاً مـن كرم الضيافة . .

قال : وأنا لا أحتاج من بلدكم أى شىء ، واذا احتجـت فسـأشتريه بنفسى .

قلت له : هذا أمر يخصك يا باشمهندش . .

وانكر أن كرم الضيافة ، وطبيعتى التى خلت مـن العقـد ، والطيبة الريفية التى سـيطرت على جعلتنى اعرض عليه أن يتناول معنا طعـام الغداء . . خاصة وأن مـوعده كان قـد حـان ، فى تلك اللحـظة . . ولكن عبد العظيم لقمة ، أصر على الا يأكل لقمة .

فقلت ضاحكا ومداعبا له

« إللى وفر شىء . . زى اللى جابه » .

وقد دخل قلبى عبد العظيم لقمة فى تلك اللحظة مـن أوسـع ابوابه ، واحتل مكانا كبيرا فيه لا يزال يحتفظ به حتى الآن . .

كم كان اعجابى به ، وبايمانه ، ونظافته . .

وكم تمنيت أن يكون كل مصرى صورة من هذا الشاب . .

وقد وفى بما وعد ، ومـكننى مـن الحصـول على جميع مسـتحقاتى بالكامل . .

واحتفـظت بصـداقته منذ تلك اللحـظة . . واردت أن ارد له الجميل فيما بعد بالطريقة التى يقرها الدين والقيم . . وهى الوفاء . .

وعرضت عليه عندما اتسعت دائرة اعمالى وذهبت الى السـعودية ، أن ينضم الى فريق المهندسين الذين كانوا يتعاونون معى . . كمـا اننى اردت أن اكتسبه لصالح الشركة ، لما يتمتع به من ايمان وأخلاق وضمير فاعتذر عن تلبية رغبتى أكثر من مـرة ، على اعتبار أنه لا يسـتطيع أن

يترك والديه وأخوته ويسافر الى مكان بعيد . . وحـاولت معـه . . ولكن بلا جدوى . .

وقد فهمت من تصرفاته أنه أحد أعضاء جماعة الاخوان المسـلمين ، ولكننى لم افاتحه فى ذلك الامر الى أن جـاء عام ١٩٥٤ . . وحـدث أول صدام بين الثورة والاخوان المسلمين ، والقى القبض على العـديد مـن الجماعة ، ولكن عبد العظيم لقمة لم يقبض عليه ، وكان ذلك سـببا فى أن أطرد الفكرة التى ترسبت فى ذهنى عنه على أنه احـد أعضـاء جمـاعة الاخوان المسلمين ، الى أن جاء عام ١٩٥٥ . .

لابد من السفر فورا

فوجئت بعبد العظيم لقمة يحضر الى مكتبى ، بعمارة اللواء بشـارع شريف بالقاهرة ، فى ذلك الوقـت فى السـاعة الثانية عشرة ظهـر أحـد الأيام ، قبيل حلول عيد الاضحى المبارك بيومين اثنين فقط ، دون سابق موعد . . فرحبت به ، وفهمت انه جاء لزيارتى فى ظروف عادية كالعـادة ، حيث كان قد تعود على أن يزورنى بين الحين والحين ، بسبب مـا نشـأ بيننا من صداقة ، بعد موقفه الكريم معى . . ولأن ما كان بداخلنا من قيم متقارب ، فكان ان التقينا على الخير بسرعة . .

وكان ان كررت العرض عليه مرة اخرى .

وفوجئت فى تلك المرة أنه قال لى : أنا موافق . .

ولم أصدق . . لذلك أردت أن أتاكد فقلت له :

هل أنت جاد فيما تقول يا عبد العظيم . . ؟

قال : نعم جاد . .

فقلت له اذن بعد عيد الاضحى إن شاء الله نتقابل لكى اقوم بانهـاء الاجراءات الخاصة بسفرك . .

فقال لى : اريد السفر قبل العيد واذا تأخر الموعد عن ذلك فلن اسافر معك . .

وقد وضعنى فى حيره من امرى . . إنه يشـترط قبل العيد ، ولم يتبق

على العيد سوى يومين فقــط ، ويصر على انه إن لم يســافر قبل العيد ، فلن يسافر معي بعد ذلك ، وانا فى حاجة إليه واعتبرت مــوافقته مــكسبا كبيرا . .

لذلك قلت له :

لم يتبق على العيد سوى يومين ياعبد العظيم ، وانت بطريقتك هــذه كمن يريد ان يعجزنى ، حدثنى بصراحة ، كيف لى ان انهــى اجــراءات سفرك خلال هذا الوقت .

فقال لى : ان ابى وامى يؤديان فريضة الحج هذا العــام ، واريد ان الحق بهما هناك ، وبعدها أتركهما يعودان . . واتخلف انا عنهمــا هناك لمباشرة العمل معك . .

كانت حجته غير مقنعة لذلك قلت له :

انتظر حتى عودتهما ، وتسافر بعد ذلك .

قال : قلت لك ان لم اسافر قبل العيد فلن اسافر معك . .

فقلت له : كيف يمــكن ان تســافر الان ، ان الوقـــت قـــد أزف ، والاجراءات تحتاج الى مزيد من الوقــت لانهــائها . . وتحتاج تأشــيرة الخروج وحدها لاستخراجها من وزارة الداخلية المصرية ، ليس أقل من يومين .

وفى تلك اللحظة فاجأنى عبد العظيم بان اخرج جــواز ســفره مــن جيبه ، جاهزا ومستعداً للسفر ، وكان قد حصل بطريقته الخــاصة على تأشيرة الداخلية .

وقال لى : لم يتبق الا تأشيرة السعودية ، وتذكرة الطائرة . .

فقلت له : ان موسم الحج شديد الازدحام ، والحصول على مقاعد فى الطائرات أمر غاية فى الصعوبة . .

قال : حاول . .

قلت له : على بركة الله ، وربنا يسهل يا عبد العظيم . .

واستدعيت على الفور رياض اسعد وسلمته جواز سفر عبد العظيم ،

وطلبت منه ان يذهب الى القنصلية السعودية بالقاهرة ، لمقابلة القنصل السعودى ، وكان صديقا لى ، ويطلب منه تأشيرة دخول السعودية على الجواز . . والا يعود الا اذا حصل على التأشيرة . .

واتجه رياض الى القنصلية السعودية ، للحصول على التأشيرة . . وفى نفس الوقت اتصلت بالخطوط الجوية السعودية ، وكنت اعرف ان جميع طائراتها محجوزة بالكامل لعدة ايام مقبلة ، ولا يمكن ان يوجد فيها اى مكان ، كان لابد وان احصل لعبد العظيم على تذكرة بأى طريقة . .

وكان لابد وأن أبحث عن خطة أحصل بها على التذكرة واهتديت الى الفكرة . .

وقد سألت مدير الخطوط الجوية السعودية فى القاهرة ، سؤالا أعرف انه ليست له إجابة :

قلت : هل جاءتك برقية من الامير مشعل وزير الدفاع

أجاب بدوره متسائلا : لماذا ؟

قلت : انه ارسل لى برقية ، يطلب منى فيها الذهاب الى السعودية قبل العيد . .

قال : لم تصلنى برقيات بهذا الخصوص . .

قلت له : الحمد لله . . اننى لا اريد ان اسافر قبل العيد . .

قال : لا . . لا . . متودنيش فى داهية ياعثمان « سأحجز لك تذكرة » ، قبل وقفة عيد الأضحى المبارك بيوم ، على آخر طائرة . .

وحمدت الله على أن الخطة نجحت ، واستطعت أن أحصل على تذكرة لعبد العظيم . .

إن اختيار المدخل المناسب مهم جدا فى المواقف ، فقلت للرجل : أن سمو الأمير لا يحتاجنى وحدى ولكن يحتاج مهندسا آخر معى .

وسألنى عن اسمه

فقلت له : عبد العظيم أحمد لقمة . .

فقال الرجل : سأحجز له تذكرة معك

فشكرته . . .

وانتظرت رياض الذى جاء ومعه تأشيرة دخول السعودية ، وأصبح عبد العظيم لقمة جاهزاً للسفر قبل العيد كما طلب . .

وابلغته بالموعد المحدد للسفر ، وطلبت منه أن يتواجد فى المطار ، وعندما يسمع من ينادى على اسم « عثمان احمد عثمان » ، يتقدم هو ويبلغهم بأنه سيسافر نيابة عنى . . وسافر عبد العظيم لقمة .

ولكن بعد سفره بعدة ساعات انقلبت الدنيا بحثا عنه ، راحت سلطات الدولة تبحث عنه فى كل مكان ، فلم يجدوه . .

وعندما عرفوا أنه سافر للعمل معى جاءوا يستجوبوننى . . وتعرضت لتحقيق طويل ، وأخذ ورد لا نهاية له . . ولم ينقذنى مما كان يمكن أن يحدث لى منهم إلا عبد العظيم لقمة نفسه . . كيف ؟

جاءوا يسألوننى : هل أنت الذى مكنت عبد العظيم لقمة من السفر .

وكان أن أجبتهم بالايجاب

فسألونى : ولماذا مكنته من السفر ؟

أجبت : لكى ينضم الى فريق العاملين معى

قالوا : ألم تعرف أنه من الاخوان المسلمين ؟

قلت : ابدا . . ومن أين لى أن أعرف ؟

قالوا : أنت تعرف ومكنته من الهروب

قلت : أنا استعنت به كمهندس فقط ، ولا أعرف عنه غير ذلك.

قالوا : ومن الذى حصل له على تأشيرة الخروج ؟

قلت : منحتها له وزارة الداخلية المصرية . . بمعرفته شخصيا ولم يطلبها منى . .

وكان أن عانيت بعض الوقت بسبب ذلك الموضوع . . ولكن الذى حمانى مما كان يمكن أن اتعرض له ، هو المهندس عبد العظيم نفسه ، وذلك يوضح كما قلت ما يتمتع به الاخوان المسلمين من رجولة وأمانة . .

كان يستطيع عبد العظيم أن يطلب منى أن أحصل له على تأشيرة الخروج من وزارة الداخلية المصرية ، كما كانت العادة المتبعه ، مع كل من كان يسافر للعمل معنا حيث تتولى الشركة ذلك الأمر . .

ولكن الرجل لم يشأ أن يضعنى فى مأزق وفضل أن يتحمل هو مسئولية نفسه . . وكان حصوله على تلك التاشيرة بعيدا عنى سببا فى ان ادفع التهمة بان وزارة الداخلية هى التى منحته تأشيرة الخروج . . ويعنى ذلك ان موقفه سليم . . لذلك لم اتردد فى أن احصل له على تأشيرة دخول السعودية . .

وانتهى التحقيق عند ذلك الحد ، وكان ذلك الدليل كافيا لأن يضع حدا لكل شىء أرادوه معى . .

وكان أن سافر عبد العظيم ، وأدى فريضة الحج مع والديه ، كما أراد الله سبحانه وتعالى ، ويسر له أموره ، وعاد والداه وتخلف هو هناك ، وعمل مهندسا معى الى ان تولى بكفاءته رياسة اعمال منطقة الرياض كلها . .

ان ربك يجعل لكل شىء سببا . . وكنت سببا سخرنى الله سبحانه وتعالى لأنقذ عبد العظيم لقمة مما كان ينتظره .

وعندما دخلت فى عملية السد العالى لم يتمكن عبد العظيم من العودة معى لأنه كان قد صدر ضده حكم غيابى بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وفتح الله عليه هناك . . ونجح ولم يعد الى مصر الا فى ظل حكم السادات ، وهو يشارك الان فى جميع مشاريع التنمية التى تقام فى جميع أنحاء الدولة وساهم فى بنك قناة السويس وحده بمبلغ ثلاثمائة الف دولار .

مع المهندس حلمى عبد المجيد

وكانت أيضا لى قصة مع المهندس حلمى عبد المجيد ـ نائب رئيس مجلس ادارة المقاولون العرب الان ـ تحمل معانى اخرى فى ايخوان لسلمين بالاضافة الى المسانب افتى تضمنتها قصتى مع عبد العظيم لقمة . .

تحمل هذه القصة معانى الاخاء التى حملها الاسلام . . كما انها ذات بعد وطنى يؤكد وحدة الشعب المصرى ، التى انتصرت عبر التاريخ كله ، وتعبر عن وحدة لهلال والصليب بالتجربة العملية وليس بالحجج النظرية . .

فماذا حدث ؟

اتصل بى ذات يوم الدكتور ميشيل باخوم شريك الدكتور احمد محرم فى مكتبه الاستشارى . . وكان الدكتور ميشيل استاذى فى كلية الهندسة . . وتعودت على ان أكون ضعيفا أمام اساتذتى .

وقال لى الرجل فى مكالمته التليفونيه :

لم أطلب منك يا عثمان فى حياتى خدمة واحدة ، وما رجوتك فى أى شىء . .

واندهشت من طريقة كلامه . .

فقلت له : وهل انا تاخرت فى شىء يادكتور . . ام حدث منى شىء من غير ما اقصد ؟

قال : ابدا . . اريد منك خدمة ولن اطلب منك غيرها .

قلت : خير . . ان شاء الله . . تحت امرك يادكتور فى كل ما تطلبه . .

قال : يوجد معى الان فى المكتب المهندس حلمى عبد المجيد وكان معتقلا ضمن المعتقلين من جماعة الاخوان المسمين ، وافرج عنه . . وأريد منك ان تجد له عملا معك . . لانه كان يعمل فى معمل ابحاث مواد البناء بكلية الهندسة ، ورفت لذلك السبب . .

وكان أن قلت له :

اعتبره من الان أحد مهندسى الشركة يا دكتور . .

ولم أكن أعرف المهندس حلمى عبد المجيد ولم أسمع عنه من قبل . .

وذهبت فى نفس اللحظة الى مكتب الدكتور ميشيل باخوم ووجدت معه المهندس حلمى عبد المجيد ، فتعرفت عليه لأول مرة . .

ومن على الله سبحانه وتعالى بخاصية ـ أحمده عليها دائما ـ هى

اننى سريع الحكم على الرجال . . وأول انطباع لى عن اى رجل ألتقى به فى حياتى تثبت لى الأيام صحته . .

وكان انطباعى عن المهندس حلمى عبد المجيد انه شاب تقى ورع ، يعرف ربه كثيرا تأنس اليه من أول وهلة ، وترتاح إلى طباعه ، فالايمان يشع منه والاخلاص والطموح ، والكفاءة تكاد « تنط » من بين عينيه . .

لذلك لم يكن قرارى أن أصدر تعيينه فى شركتى . . ولكن كان قرارى ان حلمى عبد المجيد لابد وان يكون أحد الأعمدة الأساسية للشركة . . واعتمد عليه فى كثير من الأمور التى لا يستطيع أن يتصدى لها رجل غيره .

وكان أن اصطحبته معى فى نفس اللحظة ، واستأذنت من الدكتور ميشيل باخوم بعد ان شكرته على هديته التى اهداها لى ، وذهبت انا وحلمى ، الى مكتب مباحث أمن الدولة بالجيزة ، وكان يراسها اللواء حسن طلعت ، الذى تولى منصب مدير مباحث أمن الدولة فى يوم من الايام وهو رجل صالح وطيب ، عرفته منذ ان كان زميلا لى فى المدرسة السعيدية الثانوية . .

ذهبت مع حلمى الى مباحث امن الدولة لانه كان هناك اجراءات لابد ان تتخذ من قبل اجهزة الامن ، مع كل من كان ينتمى الى جماعة الاخوان المسلمين . . ويتم تعيينه فى شركتى .

وكان أن استطعت أن أحصل لهم على موافقة الدولة للعمل معى ، بعد ما اقنعت الأجهزة بأنهم عندما يتركون هؤلاء الرجال يبحثون لأنفسهم عن فرص عمل ، فان عملهم يستوعب وقتهم ، أما إذا ظلوا بلا عمل فأنهم قد يتورطون فى بعض الأمور التى لا داعى لها ، والتى يجدون أنفسهم مضطرين لها بحكم ظروفهم .

وأنهيت الاجراءات الخاصة بالمهندس حلمى عبد المجيد ، وانضم الى فريق العاملين فى الشركة وصعد سلالمها بعرقه وكفاحه وذراعه ، إلى أن وصل الى قمتها ، وأصبح الآن نائبا لرئيس مجلس إدارتها .

إنه رجل طيب ، صادق ، أمين ، ورع ، جاد . . لا أجد فيه إلا أنه . .

مثال مضيء لكل عناصر الاخوان المسلمين . .

وأثبتت الأيام صدق كل ما توسمته فيه فاتخذت منه أخـــا . . عمـــلا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث شريف :

« رب أخ لك لم تلده أمك »

وكان المهندس حلمى عبد المجيد هو هذا الأخ .

الوحدة الوطنية مرة اخرى

ولم تنته قصة حلمـــى عبد المجيد عند ذلك الحـــد ، ولكن يبدو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعل من تجربته معى تأكيدا للوحـــدة الوطنية ، بين المسلمين والمسيحين عملا بقوله تعالى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . . »

فماذا حدث ؟

اتصل بى فى أحد أيام ١٩٦٥ شعراوى جمعـــة وزير الداخلية فى ذلك الوقت ، عندما قام النظام الحاكم بالقاء القبض على جمـــاعة الاخـــوان المسلمين . .

وطلب منى وزير الداخلية أن أذهب لمقـــابلته ظهـــر اليوم التالى ، فى مكتب صلاح نصر مدير المخابرات العامة .

وعندما ذهبت دارت بينى وبينه مناقشة بدأها بأن سألنى :

هل عندك فى الشركة مهندس اسمه حلمى عبد المجيد ؟

قلت له : نعم .

قال : أين هو الان ؟

قلت له : يعمل مديرا للشركة فى ليبيا .

وسألنى عن المهندس عبد العظيم لقمة .

وأجبته بأنه كان يعمل معـــى ، ولكن عندمـــا صـــفيت أعمـــــالى فى السعودية لم يعد معى وفضل البقاء هناك ، وهو يعمل الآن لحسابه . .

فقال : هل يمكن أن تستدعيه ؟

وكان أن قلت له : لا أستطيع لأن علاقة العمل التى كانت بينى وبينه قد انتهت . .

قلت له ذلك فى الوقت الذى أعرف فيه أنه بمجرد إشارة منى لعبد العظيم يحضر فوراً . . فهو اخ عزيز تربطنى به كل أخوة فى الله وحتى الآن . . ولكننى كنت أعرف لماذا هو مطلوب . . لذلك اردت الا أمكن شعراوى جمعة منه .

وعاد يسألنى مرة أخرى عن المهندس حلمى عبد المجيد :

وهل تستطيع أن تستدعى حلمى عبد المجيد ؟

فقلت له : لماذا تريد استدعاءهما

قال : إن كليهما عضو فى تنظيم الاخوان المسلمين .

قلت له : لا أعرف عن ذلك شيئا ، وكل ما أعرفه عنهما ، أنهما مهندسان فقط . . ومن أنظف المهندسين .

قلت له ذلك ، وأنا أعرف أنهما من الأخوان المسلمين فعلا ولكنهم ليسا عضوين فى التنظيم ، وكنت لا أستطيع أن أقول له غير ذلك لأنهما منى ، ولى ، وفوق ذلك كله أخوة فى الله . .

واستطرد شعراوى جمعة فى أسئلته :

وهل يمكن ان تستدعى حلمى عبد المجيد ؟

قلت له : بالطبع لا . .

فقال لى : لو أرسلت أنت لأى منهما برقية . . وخاصة حلمى عبد المجيد لابد ان يحضر .

قلت له : كيف يحضر اى منهما وهو يعرف ما يمكن أن يحدث له لو حضر . . خاصة انك كما تقول إنهما من الاخوان المسلمين . .

إنهما لن يصدقانى مهما قلت لهما . . ومهما أرسلت من برقيات لأى منهما . .

رفضت إرسال البرقية ، لأن معنى ذلك أننى أطلب منهما أن يحضرا ، لأضعهما بيدى تحت حبل المشنقة ، أو على اقل تقدير وراء

أسوار إحدى زنزانات أحد المعتقلات . .

وكان أن تمسكت برايي ، على أن أيا منهما لن يحضر ، اذا أرسلت البرقية . . وكل ما سيفعله عبد العظيم لقمة الا يعير برقيتى ادنى اهتمام . . أما حلمى عبد المجيد فانه سيترك العمل معى . . ويذهب الى مكان عمل آخر يحقق له الأمن الذى يحميه .

وأصر شعراوى جمعة بعد نقاش طويل ومرير على أن أرسل برقية الى المهندس حلمى عبد المجيد استدعيه فيها بالحضور الى القاهرة ، ولم يكن بيدى الا أن انفذ فى ذلك الوقت رغبته ، بعد أن فشلت كل محاولاتى وحيلتى معه . .

وبكل المرارة والألم الذى كان يعتصرنى كتبت البرقية .

ولكننى فكرت فى صياغة البرقية ، لكى اكتبها بطريقة معينة ، قد يستطيع أن يفهم منها حلمى عبد المجيد ان رقبته مطلوبة ، فيعرض عن الحضور.. وكان ذلك أقصى ما أستطيع أن أفعله فى مثل ذلك الظرف . .

وكان أن كتبت فى البرقية :

احضر انت وحسين عثمان . . لدينا أعمال بالقاهرة .

وافهمت شعراوى جمعه لحظتها اننى ذكرت اسم حسين معه ، لكى يطمئن اكثر ويحضر . . مع أن المقصود من ذكر اسم حسين . . كان تحذيرا لحلمى بالا يحضر . . لأننى كنت متفقا مع حسين شقيقى على الايعود الى القاهرة تحت أى ظرف من الظروف وأن يظل هناك ليرعى اعمالنا كما قلت فى مكان آخر . . خشية أن يحدث لنا شىء لا نتوقعه ، فيتولى هو أمر الانفاق علينا وعلى اسرنا . .

وكان ان كتبت البرقية ، وتركتها لشعراوى جمعة لكى يقوم هو بارسالها ، واستأذنت وانصرفت من مكتب صلاح نصر . . ولكن سيطر على تماما موقف حلمى عبد المجيد . .

تصورت أن حلمى لن يفهم البرقية . . إننى ارغمت على كتابتها وقد

يغامر ويحضر . .

وكان لابد أن افعل أى شىء من شأنه أن يمنع حلمى من الحضور . .

وكان أن عدت الى مكتبى فى « المقاولون العرب » . . وأنا فى حيرة من أمرى . . عائم فى محيط لا أعرف له شاطىء . . أعانى من حـــالة ضـــيق شديدة . .

ماذا افعل من أجل حلمى ؟ إننى أجبرت على كتابة البرقية ولم يكن الأمر بيدى .

وبينما كنت فى حالة الضيق والحيرة ، تلك ، انتابتنى حـــالة انقباض شديدة ، لم أطق معها الجلوس فى مكتبى . . كدت أن أختنق .

ووجدت ستيرى

وخرجت الى الشرفة المطلة من حجرة مــكتبى على شـــارع عدلى . . واول ما تقع عيناى ، وقعت على خواجة يونانى اسمه « ســـتيرى » كان يسير فى شارع عدلى تحت مبنى العمارة فى نفس اللحــظة التى خــرجت فيها الى الشرفة . .

وكأننى وجدت فى تلك اللحظة كنزا ، أو كأننى غريق القـــى له طـــوق النجاة فى وقت لم يتوقعه .

وكانت « لستيرى » معى قصة . .

كان يعمل ميكانيكيا فى هيئة قناة الســـويس ، وخـــرج الى المعـــاش ولكن كانت حـــالته الصـــحية جيدة . كان ممتلئا بالنشـــــاط والحيوية والشباب ، رغم شيخوخته ، وكنت أحتاج لنفس تخصصه للعمل معى فى الشركة . .

وقابلنى ذات مرة فى الاسماعيلية واتفقت معه على أن يعمل معـــى فى ليبيا على كراكة جديدة ، واتفقت معه على أن يأتى من الاســـماعيلية الى القاهرة ، لكى انهى له الاجراءات الخاصة بالسفر .

حدث ذلك قبل ارسال البرقية لحلمى بشهرين ، وكان ستيرى يقـــوم

خلال تلك الفترة بانهاء الاجراءات ، وكانت مسألة السفر الى ليبيا فى ذلك الوقت غاية فى التعقيد والحصول على تأشيرة الخروج من مصر صعبة جدا واصعب منها الحصول على تأشيرة الدخول الى ليبيا . .

كان فى تلك الفترة هناك نظام حكم الملك السنوسى ، وكان على غير وفاق مع نظام الحكم فى مصر ، لذلك فكان التعامل معنا يشوبه الحذر الشديد . .

المهم . . عندما رأيت « ستيرى » التقطت انفاسى وكأننى وجدت خاتم سليمان . .

وناديت عليه . . ستيرى . . ستيرى . .

واستدعيته للصعود الى مكتبى .

وأول ما سألته . . سألته عن اوراقه . .

قلت له : ماذا فعلت فى اوراق سفرك ؟

قال : انتهيت من كل شيء . . حتى تذكرة الطائرة جاهزة . . وسأكون مستعدا للسفر بعد يومين .

كنت أطير من الفرحة وهو يقول لى ذلك . .

قلت له : أريد منك أن تسافر اليوم على أول طائرة ستقلع من القاهرة الى بنى غازى فى الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر اليوم ، وكانت الساعة وقتها الثالثة بالضبط . .

فقال : لا استطيع . . لأننى لم أرتب امورى ، ولم أحزم حقائبى . .

فقلت له : سافر الان . . واذا كان يلزمك اى شيء يمكنك ان تعود مرة اخرى من ليبيا لكى تاخذه وتسافر بعد ذلك فى الوقت الذى يناسبك .

فسألنى : ولماذا تريدنى أسافر الآن ؟

قلت له : اريد أن تسافر الآن . . وفور نزولك من الطائرة فى بنى غازى ، تستقل سيارة تاكسى من المطار وتذهب رأسا الى منزل المهندس حلمى عبد المجيد ، وسأعطيك العنوان ، وتقول له : ان عثمان ارسل لك برقية ، يستدعيك فيها بالحضور الى القاهرة . . وارسلنى خصيصا لكى

أبلغك بالا تحضر ، ومهما ارسل لك عثمان من برقيات فلا تحضر . .

وكان « ستيرى » ذكيا ولماحا . . وقبل أن أكمل كلامى له ، وجدته يقول لى : فاهم . . فاهم . . « يا خبيبى خلاص . . خلاص » . . وانطلق من مكتبى لكى ينفذ ما قلته له . .

وسافر الى ليبيا ، وأبلغ الرسالة التى حملتها له . .

وكان أن فهم حسين عثمان الموقف ، وارسل برقية يقول لى فيها إنه سيحضر بعد يومين ومعه المهندس حلمى عبد المجيد . .

وكان حسين ذكيا فى برقيته . . إنه أراد التمويه أيضا . . لقد علمتنا الأيام الكثير . .

وحضر حسين ، ومعه مهندس آخر ، غير المهندس حلمى عبد المجيد . .

وعندما سئل عن سبب عدم حضوره قال :

أصيب بمرض مفاجىء « لا قدر الله » ولم يتمكن من الحضور . .

وانقذ الله رقبة حلمى عبد المجيد ، من بين ايديهم .

كيف رتب الله سبحانه وتعالى ذلك الأمر ؟ لا ادرى . .

كيف حدث ذلك ؟ لا أدرى ايضا . .

ولكن كل ما أدريه أن كل كلمة مما رويت حدثت ؟

والأمر الذى يجب أن يعرفه الشباب ، ويعرف كيف كانت تدار أمور بلده . . هو أن مهندسا مثل حلمى عبد المجيد ، ليس له أى دور سياسى . . ولكنه رجل مسلم كان متهما سنة ١٩٥٤ فيظل فى نظرهم متهما طوال عمره . .

ومع انه كان خارج البلاد . . إلا انهم يطلبون رقبته . .

كان التحكم فى رقاب الناس ليس له مثيل ، وتعقب نظام الحكم السابق فى مصر للناس ليس له مبرر الا التحكم . .

قصة اخرى

وكان المهندس محمد شرف الدين من بين الاخوان المسلمين الذين عملوا معى ، وكان من اكفأ المهندسين . .

وعندما أنشأت مصنع اقلام الرصاص ، الذى اممره فيما بعد ، تولى رياسة مجلس ادارته وظل على راسه أيضا بعد التأميم . . لأننى اقترحت عليه الا يترك مكانه .

وفوجئت بزوجته واولاده يطلبون مقابلتى . .

وعندما قابلتهم عرفت منهم ، بأنه تم إلقاء القبض عليه وكان ذلك فى عام ١٩٦٥ ولم أعرف بذلك . .

ولكن كنت اعرف انه القى القبض عليه عام ١٩٥٤ ، وتم تعيينه مهندسا فى الشركة بعد أن تم الافراج عنه ، مثلما قمت بتعيين المهندس حلمى عبد المجيد تماما . .

وبذلت مجهودا غير عادى من اجل معرفة المكان الذى اعتقلوه فيه ، وبذلت مجهودا مضاعفا ، من اجل ان اقدم الدلائل التى تثبت براءته . .

اننى تعاهدت معه كما تعاهدت مع كل زملائه .

ومكننى الله سبحانه وتعالى من أن أحصل له على إفراج ، وخرج الرجل من المعتقل وهو يعانى من انهيار نفسى كامل . . وأصيب بسبب ما شاهده ، وما حدث معه بقدر من الرعب والخوف لا يمكن وصفه . .

واصر على الا يبقى فى مصر ، مهما كانت الظروف . .

ولم أجد أمامى إلا أن استجيب الى رغبته ، وقمت بالاستئذان له ، لكى يسافر بنفس الطريقة التى كنت احصل بها على موافقة السفر ، لكل من كان يعمل معى . .

وسافر المهندس محمد شرف الدين إلى أبو ظبى ، حيث كانت لى بعض الأعمال هناك ، وتماسك من جديد وتخلص مما أصابه ، وعادت

[illegible] بعقدة نفسية من مصر . . وقرر الا يعود اليها مرة

أخرى

ولم يعد الرجل الى مصر ، إلا بعد ان تولى الرئيس محمد أنور السادات . . لم يعد إليها بشكل كامل . . ولكن للزيارة فقط ، وحتى الآن يخاف من أن يعيش فيها ، رغم كل ما نتمتع به من أمن وأمان . ولكن ما حدث له منهم جعل العقدة تتمكن منه . .

إن تلك القصة تروى مأساة آلاف المصريين الشرفاء الذين حرمهم نظام الحكم السابق من بلدهم . . وحرم بلدهم من جهودهم .

وكانت النتيجة خراب مصر نفسيا . واقتصاديا وسياسيا . . وفى كل شىء ! ! .

دين فى عنقى

خلقت علاقتى بجماعة الاخوان المسلمين رباطا بينى وبينهم لا ينفصم أبدا . . وسيظل هذا الرباط ان شاء الله . .

وكان ان ترجمت جماعة الاخوان المسلمين ذلك فى موقف هزنى من كل وجدانى وسأظل مدينا لهم به ، مدى حياتى ، ضمن ما انا مدين به لهم من فضل . .

كان المرحوم يوسف طلعت ، رئيسا للجهاز السرى للاخوان المسلمين ، وله شقيق فتحت له باب الانضمام الى فريق شركتى ، لكى يساعد اولاد اخيه لما كان يربطنى به من رباط نفسى ودينى . .

وكان يعمل سباكا . . فى مدرسة الشركة ، وظل تلميذا فيها حتى كبر واكرمه الله وأصبح مقاولا . .

وسعدت به كثيرا كسعادتى الدائمة بكل انسان ناجح . .

وكان ان رشح نفسه ضدى فى الانتخابات الاخيرة لمجلس الشعب ، فى دائرة الاسماعيلية . .

ولم أشأ أن اتحدث معه فى ذلك الامر . .

وذهب اليه بعض الاصدقاء دون علمى ، يطلبون منه اعادة

التفكير . . ولكنه لم يستجب لهم . .

وكنت اعرف انه لن يستجيب وكنت متاثرا منه ، لأسباب أخـلاقية ، لأنه تنكر لأولاد شقيقه المرحوم يوسف طلعت وأدار لهم ظهـره مـع ان المرحوم يوسف طلعت هو سبب ما يجرى بين يدى شقيقه من نعمة .

ومـن ليس له خير فى أولاد شـقيقه ، لا يمـكن أن يكون له خير فى عثمان او غير عثمان . .

وتركت الأمر لابناء الاسماعيلية يحسمونه باصواتهم الانتخابية . . فهم يعرفون أين يضعون أصواتهم . .

ولكن الاخوان المسلمين لم يتركوا الامر ، ، وكان ان عقدوا اجتماعا ناقشوا فيه امر ترشيح شقيق المرحوم يوسـف طلعت،تحـت اسـم « الاخوان المسلمين » ضدى . . واصدروا عقب اجتماعهم قرارا . . جـاء فيه انهـم يتخلون عنه بسـبب تصرفـه اذا اصر على الاسـتمرار فى الانتخابات ولن يساندوه ، واعلنوا انه لا يمثلهم . .

وركب رأسه . . ونفذ الأخـوان المسـلمون قـرارهم الكريم ، الذى سأظل مدى حياتى مدينا به لهم ليس لأن فرصة المرشـح ضـدى كانت اكبر من فرصتى لأنه لم يحصل على أكثر من ثمـانين صـوتا مـن بين خمسة وأربعين ألف صوت ولكن لأن نلك الموقـف اكد لى الخيط المتين ، والصلة القوية التى تربط بينى وبين الاخوان المسلمين .

كله . . بسبب الاخوان المسلمين

وكان ضعفى الشديد امام تحقيق اية رغبة ، لأى عضو من جمـاعة الاخوان المسلمين ، سـببا فى ان يسـتغل احـد المهندسـين عندى نلك الضعف . . « وضحك على » مستندا الى علاقتى بهم . .

لم يكن هناك من الأخوان المسلمين من يجرؤ على الاعلان عن نفسه فى عام ١٩٥٤ بسبب الحملة الضارية التى كانت موجهة ضدهم .

وكان مـكتبى فى نلك الوقـت فى عمـارة اللواء بشـارع شريف بالقاهرة . .

ودخل الى مكتبى الساعى ذات ليلة ، وكانت معه ورقة مكتوبا فيهـا

اسم مواطن مصرى ، ومهنته مهندس وانه من الاخوان المسلمين ، ويطلب العمل معى . .

وسألت عن ذلك المهندس فور انتهائى من قراءة الورقة ، وتركت كل ما كان بين يدى من أعمال ، واستدعيته على الفور لمقابلتى . .

ونبهته الى الخطأ الذى وقع فيه ، وحذرته من أن يكتب ذلك الكلام مرة اخرى أو ان يعلن عن نفسه حتى لا يتعقبه نظام الحكم ويترصده .

وقلت له : كيف تكتب يابنى هذا الكلام بخط يدك . . اذا كنت تثق فى عثمان فهل تثق فى الساعى الذى سلمته الورقة . .

ونبهته الى أنه اذا كان لا يخاف على نفسه ، فيجب ان يخاف على الدعوة التى يحملها ولذلك فلا يصح ان يجهر بذلك الامر فى ذلك الوقت مهما كانت الأسباب .

فقال لى : اننى اعرف انك تتعاطف مع الاخوان المسلمين .

فقلت له : نعم انا معك . . ولكن الورقة قد تصل الى يد غير يدى . . الا تتصور ما يمكن أن يحدث لك يا بنى ؟

وطلبت منه بعد أن حذرته أن يقوم على الفور بانهاء اجراءات سفره ، ليلتحق بالعمل معى فى الرياض . .

وانهى إجراءاته وسافر . .

وكنت فى الرياض بعد ذلك ، بحوالى ثلاث سنوات ، وكنت اجلس مع مجموعة من العاملين معى ، واذا باحدهم يقول لى :

هل تتذكر المهندس الذى كتب لك ورقة فيها انه من الاخوان المسلمين ، وحذرته من ان يقول ذلك ؟

قلت : نعم انكره . . ورويت لهم ما حدث بينى وبينه . .

وبعد ان فرغت من القصة .

ضحكوا جميعا . . وقالوا لى . . لا هو من الاخوان . . ولا يعرف الاخوان . .

وكان يجلس معنا ، فالتفت اليه وسألته مستنكرا :

هل هذا صحيح ؟

قال : نعم .

واندهشت وقلت له : ولماذا فعلت معى ذلك ؟

قال : لكى تسمح لى بالعمل معك ، ولكى تتيح لى فرصة السفر للخارج . . لقد كنت أعرف أن ذلك هو المدخل الصحيح الى موافقتك .

وعندما سألت عن علاقته بربه . . وعرفت انها سليمة .

قالوا لى : ان ذلك الموقف كان سببا فى ان يفعل كل ما يرضى ربه .

فقلت له : اذن شفع لك الاخوان المسلمون . .

* * *

كانت دوافعى الدينية منذ طفولتى وراء كل تصرفاتى ، وسببا فى اختيار كل اصدقائى والعاملين معى . .

كلما وجدت انسانا قريبا من ربه ، اقتربت منه . . وحرصت على أن اقيم علاقة طيبة معه . .

وتوطدت علاقتى بالرئيس السادات بعد أن عرفت أنه يعرف ربه فى الخفاء أكثر مما فى العلن . .

ومع أن علاقتى بالرئيس السادات متعددة وتحتل حيزا كبيرا من جميع الصفحات القادمة الا أننى سأتناول الجانب الشخصى فى علاقتى به فى فصل مستقل ...

المرحلة الثالثة

الانطلاق..

- كيف عرفت الرئيس السادات
- من أسرار مبادرة السلام
- جيش المقاولون العرب على جبهة القتال
- سد الصواريخ فى سماء مصر ضد اسرائيل والروس معاً
- المقاولون العرب فى معديات العبور
- وزير فى ٣ حكومات
- القفز من فوق أسوار الروتين
- هل مصر للبيع؟
- اكبر شرف فى حياتى
- الانسان المصرى ثروتى الحقيقية
- القوى العاملة مقبرة الشباب
- كيف نبنى مصر؟
- المعركة الخضراء
- ماذا حدث فى الصالحية؟
- هل انا سياسى؟

كيف عرفت الرئيس السادات ؟

كثيرا ما أجد من يسألنى عن علاقتى بالرئيس السادات . .

كيف بدأت ؟

وكيف تطورت ؟

ولماذا توطدت ؟

ولا اجد ما اقوله ، إلا ان هناك مجموعة أشياء صغيرة بسيطة ، فى شخصية الرئيس السادات ، مكنت له فى قلبى ، قد لا يراها أحد غيرى ، ولكن لأن حياتى كلها نتيجة لأشياء صغيرة ، ادركتها مبكرا قبل أن يدركها غيرى . . استطعت أن أمسك بالأشياء البسيطة فى شخصية الرئيس السادات ، واخذت اتأمل أبعادها . . فكانت صورة واضحة اصبح لها مدلول عندى ، ليس هو المدلول الذى يمكن أن يراه أحد غيرى . .

سمعت كما سمع غيرى صوته ، وهو يعلن أول بيان لثورة ١٩٥٢ ، لم يعلن فيه عن اسمه .

وعندما أعلنت اسماء وأعضاء مجلس قيادة الثورة ، لم أجد فى الأسماء ما أعرفه ، إلا اسم محمد أنور السادات . . الذى كنت قد سمعت عنه ، وتعاطفت معه ، منذ الأربعينات

وطنى . . أحب مصر ، وكافح من أجلها . .

قدم للمحاكمة ، بتهمة اغتيال امين عثمان . .

وكان أمين عثمان قد أعلن فى انجلترا ، لرئيس وزرائها ، أن مـا بين مصر وإنجلترا علاقة زواج كاثوليكى . . أى زواج لا ينفصم . . بمعنى أن الانجليز يستمرون فى احتلالهـم لمصر ، وأن مصر تظـل تخضـع تحـت نيرهم . . وقتل بعد هذا التصريح بشهرين . .

وقبض على الضابط محمد أنور السادات متهمـا بقتله . . وتعلقـت بذلك الضابط فى ذلك الوقت مترقبا أخباره إلى أن نال البراءة . .

وعاش الرئيس السادات خلال مراحل كفاحه الأول ، فترة من الزمن فى الاسماعيلية ، لم أره خلالها . . وإن كان قد روى لى الكثير عنها فيما بعد . .

وكثيرا ما يتوق الآن إلى زيارة تلك الأماكن .

وكثيرا ما يصطحبنى معه إليها ، كلما دفعه حنينه لأن يتأمـل بداية تاريخه .

وأذكر ذات مرة فى شهر رمضان بعد موعد الافطار ، أننا ركبنا معـا سيارة صغيرة ، كنت أقوم بقيادتها ، وكان يجلس إلى جـوارى ، وسرنا فى اتجاه السويس ، وكانت توجد عند فايد مقهى أشـار لى بيده عليهـا وهو يقول لى :

كثيرا ما جلست يا عثمان على هذه المقهى . .

وطلب منى أن نتوقف بالسـيارة ، لكى يمضى بهـا بعض الوقـت ، ليسترجع بعضا من ذكريات كفاحه الأول . .

وكان يجلس على المقهى ، عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحـدة ، ولم يتنبه أحد ، إلى أن الجالس على المقهى إلى جوارهم هو الرئيس محمـد أنور السادات . .

وحضر فى تلك اللحظة إلى المقهى بالصدفة أحد الشيوخ من زبائنهـا القدامى ، فتعـرف على الرئيس مـن الوهلة الأولى ، وبادر بمصـافحته وعرفه بنفسه . . وراح يعيد على مسامعه شريط ذكريات كانت له معه . .

كان كل منهما سائقا ، على سـيارة نقـل ، كانت تقـوم بنقـل الخضراوات من القاهرة إلى فايد . . وذكر الرجل الرئيس وقتهـا برقـم

السيارة التى كان يقودها . . عندما قال له : أنت يا حاج محمد كنت تقود السيارة نقل الاسماعيلية رقم ٦٠٩ .

وكم كان الرئيس سعيدا بلقاء ذلك الرجل . . ولكن حديث الذكريات لم يستمر كثيرا ، حيث تنبه الحاضرون فى تلك اللحظة ، إلى أن الذى يجلس بينهم هو الرئيس السادات ، فتزاحموا عليه ، وأقبل معظم أهل فايد للاحتفاء به . . ولم يجد الرئيس فى تلك اللحظة بدا من أن يغادر المقهى ، مضطرا من شدة إقبال المواطنين عليه ، بعد أن كان قد عاش ربع ساعة مع أغلى الذكريات . .

التقينا فى بورسعيد

لم أر الرئيس فى الاسماعيلية فى ذلك الوقت ، ولكننى رأيته فى بورسعيد بعد ذلك عقب العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، عندما شرعت الدولة تعيد تعمير مدينة بورسعيد ، وحضرت من السعودية خصيصا لكى تشارك شركتى فى ذلك العمل الوطنى الكبير ، تأكيدا للدور الذى كانت قد بدأته بتعمير كفر أحمد عبده ، الذى دمره الانجليز . .

والتقيت هناك بالرئيس محمد أنور السادات وكانت أول مرة فى حياتى أراه فيها ، وأتعرف عليه عن قرب . . وعرفت أنه كان يسكن إلى جوارى فى شارع الهرم . .

قمت بزيارته فى منزله . . وكان لتلك الزيارة قصة . .

تصورت أننى ذاهب لزيارة عضو مجلس قيادة الثورة . .

وكان أعضاء مجلس قيادة الثورة فى ذلك الوقت ، ذوى شأن كبير ، ونفوذ ، وسلطان ليس له حدود . .

وتصورت أن الرئيس السادات ، واحد من تلك النماذج ، لذلك فقد « تنشيت » كما يقولون . . ولبست « اللى على الحبل » . . ورسمت نفسى بما تيسر من وسائل الأناقة ، لأكون على مستوى مقابلة عضو مجلس قيادة الثورة . .

وفجأة . . تغيرت الصورة التى كنت قد صورتها لنفسى . . عندما فتح لى باب منزله بنفسه وهو يرتدى « الجلباب » .

وجدت نفسى أمام رجل بسيط . . عادى جدا . . استقبلنى كما يستقبل أى مواطن من أبناء شعبنا الطيب الأصيل ضيفا فى بيته . .

وعندما دخلت إلى حجرة الاستقبال ، وجدت نفسى فى بيت كأى بيت من البيوت العادية التى أزورها من بين بيوت أقاربى وأصدقائى .

وجلس معى وهو يرحب بى اكثر من مرة ، ثم قام وقدم لى التحية بنفسه ، وراح يسامرنى ، ويسأل عن أولادى وصحتى وأحوالى .

كم كنت مأخوذا بما رأيت . .

رجل ريفى . . بكل ما للكلمة من معنى . . بكل ما يمثله من طباع ومعاملة ، وتصرف يأتيه بمنتهى البساطة ، وبلا أدنى تكلف فى أى شىء . .

لم يفقد أصالة القرية ، أو أيا من تقاليدها التى حملها معه إلى المدينة ليفرضها عليها ، دون أن تغريه المدينة بكل مظاهرها على التخلى عنها . .

وجدت نفسى فى منزل رجل فلاح خلع رداء الجاه ، والسلطان ، فى مقر قيادة مجلس الثورة قبل أن يعود . .

وأزال الرئيس منذ اللحظة الأولى الحاجز الوهمى ، الذى كنت قد وضعته بينى ، وبين نفسى عندما تعمدت التكلف فى الزيارة مع إن التكلف ليس من طبعى ، والبساطة هى عادتى . .

واحس اكثر من غيرى به وبنبضاته عندما يتحدث عن أخلاق القرية ، لأننى رأيته فى بيته يطبقها ، نصا . وروحا . . ويعمل بها فى كل تصرف من تصرفاته . . ويعيش حياة الغالبية العظمى من المواطنين ، لا فارق بينه وبينهم ، إلا انه نذر نفسه للكفاح من أجلهم ، فوجد نفسه فى ذلك المكان ليكون اكثر عطاء لهم . .

وجدت أن ارتباطه بالريف ، وتجسيده لهذا الارتباط ، وصل إلى حد أن أثاث منزله يضم « طبلية » . . لا تزال موجودة عنده حتى الآن ، ليست للزينة . . أو للديكور . . أو للذكرى . . ولكن لا يحلو له أن يتناول طعام غذائه فى منزله ، وسط أولاده إلا على الطبلية . . وخاصة فى شهر

رمضان . .

يجلس كعادة الفلاحين ، ويلتف حوله باقـى أفـراد أسرته ، يأكلون جميعا من طبق واحد ، ليغرس فى أولاده روح الأصالة التى استمدها من قريته .

ولم يكن ذلك المشهد ، مشهدا عاديا لرجل مثلى . . ولا يمكن أن يمـر دون أن أقف عنده طويلا . . فوراء هـذه العـادة قيم كبيرة ، وكثيرة ، لم تكن . . « الطبلية » . . إلا رمزا لها . . وبعد أن رأيت كل ذلك تحللت من كل الكلفة التى كنت قد قيدت بها نفسى فى أول زيارة له وأصبحت معـه على طبيعتى فى كل شىء . .

هكذا رأيت أنور السـادات عضـو مجلس قيادة الثورة فى عنفـوان فتوتها . . مع أنه يستطيع ان يأكل بملعقة من ذهب ، وفى أطباق مرصعة ، ويستطيع ان يحول منزله الذى كان يسكن فيه إلى قصر من قصور الف ليلة وليلة . .

ولكن كان بيته بسيطا مثله . .

بل كان منزله قديما لا يصلح لأن يكون مسكنا مناسبا لرجـل مثله ، ولكنه اختاره وعاش فيه . . وكان يستطيع أن يقلبه رأسـا على عقـب ، ويعيد بناءه ، وتزيينه بالديكورات ، كمـا كان يفعـل غيره . . ولكنه لم يفعل . .

وليت جميع أبناء مصر تتاح لهـم تلك الفـرصة ، لكى يعـرفوا عن قرب ، كيف يعيش أنور السادات . . ولكى يتجولوا داخل ما يذهـب إليه من استراحات وجد فيها تجسيدا لطبيعـة الريف ، وصـفاء لبسـاطته ، ليعيش فى جو يمكنه أن يفكر فى أمر مصر . . وليتخذ لها أعظم القـرارات بعيدا عن ضوضاء المدينة وتعقيدها .

« بالكونة السادات »

وأذكر أنه كلفنى ذات يوم بادخـال بعض التعـديلات على منزله . . وتصـورت فى بداية الأمـر أنه يريد تغيير معـالم البيت إلى قصر فخـم ضخم . .

وقد فوجئت عندما اصطحبنى لأقوم بالمعاينة على الطبيعة .. عندما وجدت تلك التعديلات لا تتعدى « تقفيل بالكونة » بالزجاج ، بدلا من تركها مفتوحة مما يتسبب فى تعرضه لبرد الشتاء هو وأولاده .

واندهشت من الطلب .. ولكن لم أعبر عن ذلك الاندهاش ، وكتمته فى نفسى ليتحول بعد ذلك إلى إعجاب ، بتواضعه وبساطته ..

وكان أن قمت بتنفيذ ما طلبه منى ، وحسبت التكاليف فوجدتها ستين جنيهاً .. وقبل أن أغادر المنزل سألنى :

كم كانت التكاليف يا عثمان ؟

فقلت له : كلها أشياء بسيطة يا فندم ..

فأصر على أن يدفع التكاليف بالكامل ..

تصرفت أنا على اعتبار أنه « ابن بلد » .. والمسألة لا تساوى .. ولكنه أدرك ما فاتنى ، إنه تصرف على اعتبار أنه كان قد أقام حدا فاصلا بين كونه ، فلاحا ريفيا ، وبين أنه واحد من قادة الحكم ، ولا يريد أن تختلط الأمور مع بعضها .. ولكنه أدرك أننى أتصرف معه على طبيعتى .. لذلك داعبنى ضاحكا ليخفف مما يمكن أن يتركه الموقف من أثر فى نفسى وهو يقول لى « مش مهم تكسب فى العملية دى .. زى بعضه .. بس لابد أن تأخذ ما دفعته » .

قبلت التكاليف ولكننى أكبرت فيه ذلك التصرف ، الذى شدنى إليه أكثر ..

فكم تساوى الستون جنيها أو الستمائة جنيه ، أو الستة آلاف ، أو الستون ألفا لو أراد ؟ وهل هناك من يمتنع ؟

وكان أن عرفت أنه رجل قيم ومبادىء ، وكان لذلك التصرف البسيط ــ الذى يمكن أن يمر على أى رجل غيرى ، أنه أمر عادى ــ أكبر الأثر فى نفسى .. كانت له عندى معان كثيرة وأعطانى مؤشرا لتركيبته الشخصية ..

هل كان لا يعرف ؟

رفض أنور السادات ستين جنيها ، فى الوقت الذى قبل فيه غيره من

الأسماء التى ملأت شعاراتها سماء مصر مئات الالآف التى ملأت بهـــا من دم الشعب جيوبها . . تلك الأسماء التى حدثونا كثيرا عن عفة يدهــا التى وجدوا فيها عوضا عن عفة لسانها . .

بُنيت لهم الفيلات ، والعمارات ، واتحــدى أن ينكر أحـــدهم ، أن أيا من شركات المقــاولات فى مصر لم تبن له أو لابنه أو لابنته . . وبُنيت فيلا لاحدى كريمات أحدهم . . ولتلك الفيلا قصة . .

أراد ذلك الرجل أن يبنى فيلا لابنته ، فسأل عن قيمة تكاليفها . .

قيل له : إنها تتكلف ستة آلاف جنيه فقــط بينمــا تصــل تكاليفهــا الحقيقية إلى مائة ألف جنيه . .

وعندمــا « استــحلى » الأســعار الرخيصـــة طلب بناء فيلا لكريمته الثانية ، التى أصبح زوجها فيما بعد من أكبر مليونيرات مصر ، وجمــع ثروة لا تقل عن أربعمائة مليون جنيه . .

قيل له : إن الأسعار قد ارتفعت وإن تكاليف الفيلا تصل إلى ثمانية الاف جنيه هذه المرة ، ولكن الحقيقة المرة ، أنهــا كانت ســتتكلف مــائة وعشرين ألف جنيه .

وغيره . . وغيره . . ممن بُنيت لهم الفيلات بتلك الطريقة . .

هذا هو الرجل عفيف اليد . .

هل كانت تخفى عليه التكلفة الحقيقية لكل من الفيليتين » وهو الذى كان يعلم ما كان يدور بين الرجل وزوجته فى حجرة نومه .

وإذا ما كانوا من أرباب العفة والصون ، فلماذا لم يردوا تلك المبالغ لأصحابها . .

وكم تكون دهشتى . . عندما أجد أذنابهم الآن يتحدثون عن شرفهم ، ونزاهتهم وعفتهم . .

ألم يكن فى إمكان الرئيس السادات أن يطلب كمــا طلبوا ؟ . . أو أن يقبل ما قبلوا . . ؟

ولكنه لم يفعل ، ولأنه كذلك ، اكتشفت طهــارته الثورية التى طبقهــا على الواقع ، وليست الطهــارة التى كنا نســتمع إليهــا فى الخــطب

فسعيت إلى صداقته .

واخترت صداقته هو دون غيره . . مع إن إمكانياتى كانت تساعدنى على صداقتهم ، واستعدادهم كان يمكن أن يسهل لى تلك المهمة . . ولكن الحمد لله لم أتخذ منهم صديقا إلا أنور السادات . .

وقويت الصلة بينى وبينه ، منذ ذلك الوقت ، خاصة بعد أن عرفت أنه رجل مؤمن شديد الارتباط بربه . .

وكان أن تكررت الزيارات العائلية بيننا ، وبدأت تتوطد صداقة حقيقية ، لا هدف منها إلا الأخوة فى الله والوطن . . وشهد على عقد قران إسماعيل ابن شقيقى الدكتور إبراهيم عثمان ، وأختيه على اعتبار أننا اتخذنا منه أخا لنا ، وأصبح بالنسبة لنا كبير عائلتنا الصغيرة . . آل عثمان ، كما هو كبير عائلتنا الكبيرة . . مصر كلها . .

إنسانيته وتدينه

واكتشفت مع مرور الوقت الكثير من صفاته التى يتحلى بها ، ولا يتحدث عنها ، والتى تجد ترجمة لها فى كل أفعاله . .

وعرفت أنه صديق أصدقائه . . صادق أمين وفى . . يسأل باستمرار عن أصدقائه القدامى ، وعن أحوالهم وأولادهم ، ويتابع أخبارهم ، ويمد يد المساعدة إليهم . . لا ينسى من قدم له يد المساعدة فى يوم من الأيام ، ولكنه ينسى كل من أساء إليه . .

ولا يقول عنه إلا : سامحه الله . .

ويثبت تلك الصفة عنده ، مثال صغير من عشرات الأمثلة التى تكشف بجلاء عن ذلك الجانب الانسانى عند الرئيس :

كان عبد المنعم عبد الرؤوف عضوا معه فى تنظيم الضباط الأحرار ، عندما بدأ تشكيله ، وعندما دخل السادات السجن استدعاه ، وطلب منه الذهاب إلى السودان ، لمقابلة من تولى رياسة التنظيم من بعده ، ونسبه بعد ذلك إلى نفسه ، لكى يسلمه التنظيم . .

وفعل عبد المنعم ما طلبه منه السادات ، ولم يكن جزاؤه ممن تسلم

منه التنظيم الا أن سعى إلى القبض عليه مع الاخوان المسلمين سنة ١٩٥٤ ، وتمكن أن يفلت عبد المنعم منه إلى خارج البلاد ، ولم يتركه الرئيس السادات فى غيبته ، ولكنه تولى نيابة عنه أمر عائلته ورعاية شئون أسرته ، وزوج له بناته بنفسه نيابة عنه ، وعندما تولى شئون مصر أعاد عبد المنعم عبد الرؤوف إلى أرض الوطن معززا مكرما . .

هناك صفة أخرى لمستها فيه ، ووجدته شديد التعصب لها . . هى أننى لم اره ، ولم أسمعه مرة واحدة يتحدث عن أحد فى غيبته . . إلا بكل خير . . ولا يقبل من أحد أن ينم على أحد فى مجلسه . . ولا يعطى أذنه إلا لكل حديث واضح ومستقيم ، وبرىء يستهدف مصلحة مصر ، والخير للناس . .

واستطرد فى ذكر الأسباب التى مكنت للرئيس السادات فى قلبى ، لأذكر منها بعض الأمثلة . .

ذهبت إلى زيارته فى شهر رمضان ، وكانت الزيارة فى عصر أحد الأيام . . فوجدته يجلس فى خشوع على سجادة من الخوص ، ويمسك بيده مصحفا شريفا ، ويتلو بصوت جميل مرتفع بعضا من الآيات الكريمة . .

ولم يتوقف عما كان يفعل بسبب مقدمى ، ولكنه واصل ترتيل القرآن الكريم ، إلى ان فرغ من تلاوة ما كان قد عقد العزم على تلاوته من كلمات ربه . .

وهنا التفت إلى وهو يرحب بى ، وهم واقفا لمصافحتى وهو يقول لى :

تعودت منذ زمن طويل يا عثمان . . أن أختم القرآن الكريم ثلاث مرات فى شهر رمضان ، وتعودت أيضا كلما بدات تلاوة ما تيسر لى من كلمات الله ، الا اتوقف عن التلاوة مهما كانت الأسباب ، الا اذا فرغت مما أكون قد نويت أن أتلوه من آيات . .

وكان تمسكه بدينه ، وعمق إيمانه ، سببا قويا فى أن أرتبط به اكثر . . فكل مؤمن لابد أن تأمن له . . لا يعرف الخيانة ولا الغدر ـ سمح

طيب القلب . .

وكان تدينه ينعكس فى كل تصرفاته وأعماله ، وعلمه أن يكون أمينا لا يخون .

اكبرته عندما اخفى السر

وكانت لى معه فى ذلك الشأن قصة ، جعلتنى أبوح له بعدها بكل ما فى نفسى من أسرار ، وأنا متأكد من أنها كما لو كانت فى صدرى ، وليست فى يد أحد غيرى . .

كانت الصداقة بينى وبينه فى ذلك الوقت كما هى الآن على أروع ما يكون ، وجعلنا الاختلاط العائلى أخوة أشقاء ، وكان ما بيننا يسمح له بأن يتحدث معى فى أى شىء . .

وكان يعرف أن نظام الحكم السابق سيقوم بتأميم شركتى ، وكنت فى زيارة له قبل أن يصدر قرار التأميم بعدة أيام . . ولم ينبهنى ، أو يلفت نظرى حتى ولو من بعيد . . ليس لأنه لا يريد أن يفاتحنى فى ذلك الأمر ، ولكنه كان أمينا على السر . . ولم يذعه لأقرب أصدقائه ، مع أنه سيتأثر به مباشرة ، ولكنه أعتبر ذلك السر ملكا لصاحبه ، وصاحبه هو الذى يتحدث عنه وحده ، وليس من أخلاقياته أن يفشى ما هو ملك الآخرين من أسرار . .

تصرف كان يمكن أن يفهم بطريقة أخرى . . فلو كان مع أحد غيرى لا يقدر تلك الفضيلة لكان قد فهم منه ما يغضبه ولكننى اتخذت من ذلك طريقا لأن تصبح علاقتى به افضل ، ولأن اثق فيه اكثر . .

وأذكر عندما ذهبت إليه بعد التأميم لأسأل عن إجابة للسؤال الذى يحيرنى :

لماذا أممونى ؟ . .

فأنا لست واحدا من النوعيات التى ينطبق عليها مثل ذلك القرار . . فلا أنا إقطاعى ولا رأسمالى ، ولا مستغل ، ولا محتكر ، ولا ذنب للاستعمار . . وما لدى من أموال كونت بها الشركة ، حصلت عليها

بعرقي وكفاحي من خارج مصر ، وأتيت بها لتستثمر لصالح شعب مصر . .

وكان أن قال لي :

انت يا عثمان رجل وطني . . وشريف ، وأطلب منك أن تستمر في عطائك لبلدك . . فأنت تعطي مصر ، ولا تعطي أحداً . . وعموماً يا عثمان ، فهذه أشياء سوف تنتهي ، وعليك بالصبر ، ولا تترك مصر ، لأنها في حاجة إلى جهودنا جميعاً مهما كان ما يتعرض له أي من أبنائها المخلصين . .

وأنكر أيضا من مواقفه الأخلاقية كرجل أمين على السر .

أن العلاقات بين مصر وليبيا في عهد الملك السنوسي كانت ليست على ما يرام . . وكان ذلك بعد التأميم . .

وأعلنت ليبيا في تلك الفترة عن عطاء لعملية كبيرة ، قيمتها سبعة ملايين جنيه ، وكسبت شركتنا العطاء . .

واستدعاني الملك السنوسي ، وسافرت إلى ليبيا ليقول لي :

إذا كنت تريد أن تنفذ هذه العملية ، نفذها باسمك انت يا عثمان . . ولكن إذا أردت أن تنفذها بصفتك شركة المقاولون العرب ، فانني أستأذنك في انني لن أتعامل مع الشركة بوضعها الحالي بعد أن أصبحت قطاعا عاما . .

وحاولت بشتى الطرق أن أقنع جلالة الملك السنوسي . . ولكن دون جدوى . .

وعدت إلى القاهرة ، وعرضت الأمر على الرئيس السادات وأوضحت له أنه يجب الا نترك تلك العملية ، على اعتبار أنها مدخل لتوثيق علاقات مصر مع ليبيا ، بدلا من أن نترك أخوتنا يتعاملون مع غيرنا . .

وطلب الرئيس السادات مني أن أكتب مذكرة ، تفيد ذلك المعنى ، وتولى مشكورا عرضها نيابة عني على نظام الحكم في مصر في ذلك الوقت ، ونجح في إقناعه بالفكرة ، وحصل على موافقة تسمح لي بتكوين

شركة مقاولات بالمشاركة مع ليبيا باسم « عثمان أحمد عثمان وشركاه » على غرار ما كنت قد أسسته من شركات فى باقى الدول العربية التى ذهبت إليها من قبل . .

وكان أن علق نظام الحكم وهو يوقع على المذكرة بالموافقة بتعليق قال فيه :

« ما يعمل شركة فى ليبيا » ولا « فى غير ليبيا » هو حيروح مننا فين . .

وسلمنى الرئيس السادات المنكرة بالموافقة ، ولكنه لم يقل لى تعليق نظام الحكم عليها . . وعرفت فيما بعد . . ولم يقل لى الرئيس السادات حتى الآن . . ولم افاتحه فى نلك الموضوع رغم كل ما بيننا من ثقة . .

سماحة الرجل

وليس هنا مجال الحديث عن الرئيس السادات . . لأن الحديث عنه وعن إنجازاته وزعامته ووطنيته وتاريخه وعطائه المتواصل لبلده لا تسعه مجلدات . . فهو أول مصرى يكتب لبلده تاريخا جديدا . . ويرسم لها معالم جديدة ، بين الأمم ، منذ عهد الفراعنة . .

ويقتصر حديثى هنا عن بعض المواقف التى شدتنى إليه ، وربطتنى به . . وقصتى منذ هذا الفصل وحتى نهاية هذه المذكرات ما هى إلا قصة مع الرئيس السادات تقع فى أكثر من فصل ، اتخذت من هذه الصفحات مقدمة لها . .

وتحضرنى الآن قصة تعبر عن مدى ما يتمتع به الرئيس السادات من سماحة ، وسعة صدر ، وصفاء نفس وابتعاد عن الحقد . .

لا يخفى على أحد ما حدث من مراكز القوى . . وكان احد اتباعهم ، وهو متزوج من الاسماعيلية ممنوعا من الكتابة بحكم اتجاهاته الفكرية ، وجاء يطلب إلى العمل فى . . « المقاولون العرب » .

واستأذنت الرئيس السادات فى نلك ، ووافق على اعتبار أنه لا يقف فى وجه أرزاق الناس ، وظل فى الشركة ثلاث سنوات يتقاضى مرتبه دون أن يقدم أى عمل . . وطلب منى خلالها أن يسافر إلى انجلترا لعلاج ابنته المريضة ، ووافقت . . ولكنه عاد مرة ثانية بعد أربعة أشهر يبلغنى

انه لابد أن يسافر بها مرة أخرى ، لاستكمال العلاج ، ووافقــت له على ذلك .

ولم يعد فى تلك المرة . . ووصلنى منه خطاب بعد ستة أشهر ، يقــول فيه إنه التقى بأحد الأخوة العرب فى لندن ، واتفق معــه على أن يكتب فى إحدى صحف أبو ظبى ، وبعثت له بخطاب يفيد تمنياتى له بالتوفيق . .

ولم أره ، ولم تصلنى منه خطابات منذ ذلك الوقت ، إلى أن ســـافرت مــع الرئيس الســـادات عام ١٩٧٦ فى رحلة إلى الســـعودية ، والكويت ، والامارات حيث قابلنى هناك . .

وعرض على رغبته فى العودة الى مصر ، وأبدى تخوفه من أن رجال المباحث قد يلقون القبض عليه ، إذا عاد ، وطمأنته بأن مصر كلها أمان ، وليس فيها ما كان يحدث أيام أولئك الذين كانوا يستخدمونه .

ولكن أصر على أن أتيح له مقابلة الرئيس السادات حتى يطمئن قبل أن يعود . .

وكان أن مكنته من مقابلة الرئيس فى الكويت :

وقال له الرئيس عندما رآه :

لماذا لم تعد إلى بلدك ؟

أجاب بشكل لا شعورى : « أصلى أنا . . . » !

ضحك الرئيس وهو يقــول له : أبدا . . أبدا . . باب مصر مفتوح لكل أبنائها ، وفى أى وقت .

ووعد أن يعود إلى بلده مرة أخرى بعــد عشرة أيام ، ولكنه لم يعــد حتى الآن . .

ولم تنته تلك القصة عند ذلك الحــد ، بل التقيت بصـــاحبها فى لندن ، عندما كنت فى زيارة جلالة الملك خالد ، عندما أجريت له عملية جــراحية هناك . .

وقابلت صـــاحب القصـــة حيث وجـــدته فى انتظـــارى فى الفندق ، ولا أعرف كيف عرف أننى فى لندن ؟

فقال لى : إن أحد الزعماء العرب المناهضين لمصر عرض عليه الذهـــاب إلى بلده ، ولكنه رفض واستحسنت تصرفه .

وقال : إنه يريد العودة إلى مصر . .

وقلت له : ومصر ترحب بك . .

ولم يعد كما وعد . .

ولكنه بعد ذلك ، وبعـد كل الأيادى التى أبدت بلده اسـتعدادها لأن تقدمها له ، وجدته يعمل فى مجلة عميلة ، تصدر فى لندن ، ضد مصر ، اتخذ منها منبرا لمهاجمة بلده . .

هكذا تصرف الرئيس السادات ، مع ابن ، شبـارد ، مـن أبناء مصر أراد أن يعود به إلى حوزة بلاده . .

وهكذا تصرف الشارد . .

ولك أن تقارن بين النظام السابق الذى كان يجبر الشرفـاء على أن يرحلوا من بلدهم ليبنوا بلاد غيرهم رغما عنهـم . . ومـا يفعله الرئيس السادات من أجلهم حتى مع المدان منهم . . لكى تعرف أننى اسـتطعت أن ألمس أعماقه ، فوجدت فيها كل ما يتوسمه صديق فى صديقه . .

زوبعة فى فنجان

« زوبعة فى فنجان . . يا أبو عفان » . .

عبارة . . قالها لى الرئيس السادات كنهاية لقصـة بدأت أحـداثها معى مع بداية التحـرك المكثف لمراكز القـوى ، اعتبارا مـن اول مـايو ١٩٧١ ، الى أن مكن الله للحق ، ولمصر مع بداية النصف الثانى من نفس الشهر . .

ولا أتعرض لذلك الموضوع إلا لأثبت مـن خـلاله مـا يتمتع به مـن كياسة ، وإخلاص ، وسلامة نوايا صدق عليه فيها قوله تعالى : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » . .

كانت شركة المقاولون العرب قد فرغت مـن إنشـاء مصـنع الكوك بحلوان ، وهو من المصانع الكبيرة التى قامت الشركة بتنفيذها . .

ووافـق الرئيس الســادات ، على أن يشرفنا ، فى افتتاح إنشــاءات المصنع ، فى أول مايو ســنة ١٩٧١ عند زيارته لمنطقــة حلوان لحضــور احتفالات عيد العمال . .

وتوافد كبار المسئولين إلى المصنع قبيل وصول الرئيس الســادات ، وكان يقف إلى جوارى صلاح الشاهد ، الذى كان يشــغل منصــب كبير أمناء رياسة الجمهورية فى ذلك الوقت ،

وسمعته ورأيته وهويستنكر مقدم على صبرى قائلا :

« وهو دا إيه إللى جايبه » . .

ولم أعلق على ما قــاله على اعتبار انه لم يحــدثنى فى شىء . . ولكنه كان يحدث نفسه . .

وعلقت الجملة فى ذهنى . . وعرفت بعــد ذلك أنهــا كانت تعبيراً عن بداية أحداث كبيرة قادمة » . .

اتضحت الأبعــاد الأولى لتلك الأحــداث ، فى الخــطاب الذى ألقــاه الرئيس فى السرادق الذى أقيم فى المنطقة احتفالا بعيد العمال . .

وكان ذلك الخطاب أول خطوة من خطوات ثورة مايو .

وفى السرادق . . رأيت مشــهدا مقصــودا ، وكان واضـــحا أنه تم الترتيب له من قبل . . وتمثل ذلك المشــهد فى أن عناصر مــراكز القــوى قاموا بتوزيع صور نظام الحكم الســابق ، على بعض أذنابهــم ، ورتبوا جلوسهم فى السرادق بشكل معين . .

وكان الترتيب لذلك العمل واضحا ، عندما كانت تلك المجموعة تقــف فى وقت واحد رافعة الصور ، وكذلك عندما كانت تهتف مرددة الشعارات التى كانوا قد حفظوها من قبل . .

وكان أن تكرر ذلك المشهد اكثر من مرة خلال إلقاء الرئيس لخطابه ، بدون مناسبة تستدعى منهم ذلك . . الا الاشارة التى تصدر لهم ممن كان منوطا له قيادة ذلك العمل . .

ولم يكن قصدهم فى ذلك الوقت إظهــار إخــلاصهم لنظــام الحــكم السابق ، ولكن كان هدفهم الحقيقى ، محاولة ايهام الرئيس السادات أن

العمال معهم .

وكانت تلك الواقعة مع ما سمعته من صلاح الشاهد بداية طرف خيط ، أدركت معه أن هناك شيئا ما فى الأفق ولكن لم أستطع تحديده ، ولم أعرف ما هيته ؟

وكان أن أعلن الرئيس فى نهاية خطابه عن سيادة القانون ، وتصفية الحراسات بعبارات جعلتنى أقرأ الوجوم الكامل على وجوه جميع عناصر مراكز القوى ، التى كانت تتصدر ذلك الاجتماع .

وعرفت فيما بعد أنهم كانوا قد تعودوا على الحصول على نسخة ، بطرقهم المعروفة من كل خطاب كان يلقيه الرئيس السادات ، وكان الرئيس السادات يعرف ذلك . . ولذلك فضل ألا يضع ما اتخذه من قرارات فى الخطاب إلا فى النسخة التى كان سيتحدث منها وكتبها بخط اليد ، ليفوت عليهم فرصة معرفتها وليفاجئهم بها . . لذلك راحوا يتبادلون النظرات فيما بينهم بطريقة فهمت منها أن هناك شيئا لا أعرفه . . وإن كنت قد لمست خيبة الأمل تبدو على ملامح كل منهم . .

وتأكد لى ذلك الفهم ، عندما تصفحت فى اليوم التالى صحيفة الأهرام ، ووجدت فى صدر صفحتها الأولى خبراً صغيراً تحت عنوان « إعفاء على صبرى من جميع مناصبه » .

وكان على صبرى فى ذلك الوقت أقوى عناصر مراكز القوى . . ولم تكن إقالته بالأمر السهل .

ولم أفاتح الرئيس السادات فى ذلك الأمر ، فى تلك اللحظة . .

وسافرت إلى ليبيا بعد ذلك ، ومنها إلى الكويت ، والتقيت كعادتى بالمصريين المقيمين هناك ، وترك معظمهم مصر ، إما هاربا بجلده من ظلم وقع عليه ، أو لأنه لم يطق الظلم الذى كان يقع كل يوم على مواطنين أبرياء لا ذنب لهم . . إلا انهم لا يصلحون بحكم تكوينهم لأن يكونوا ذيولا لمثل هؤلاء الأقزام . .

وكان اللقاء فى تلك المرة فى منزل المهندس عبد العظيم لقمه ، وكان موضوع حديث اللقاء هو التفاؤل الشديد بالرئيس السادات ، وأن مصر

ستشهد معه خيرا . .

ولكنهم أجمعوا على أنهم يخشون عليه ، من مراكز القوى ، خـاصة ان الدولة كلها فى ذلك الوقت كانت تحت سيطرتهم . .

كانوا يتكلمون بحسابات العقل ، على اعتبار أن الدولة كلهـا فى ذلك الوقت كانت فى ايدى مراكز القوى الذين كانوا يسيطرون على كل المراكز القيادية فيها . .

وكنت أتكلم بحسابات الحس على اعتبار قناعتى بقوله تعالى :

« إن الله يدافع عن الذين آمنوا . . »

لأننى كنت أعرف مدى عمـق إيمـانه ، وعلاقته القـوية بربه ، الذى يخافه فى كل صغيرة وكبيرة . .

لذلك كنت أقول لهم إن مراكز القوى لن تتمكن منه . .

وبعـد عودتى بيومين كنت أجلس فى مـكتبى بالمقـاولون العـرب ، وجاءنى خبر يقول إن وزراء مراكز القوى تقدموا باسـتقالاتهم جميعـا إلى الرئيس السادات ، وأن تلك الاستقالات تمت إذاعتهـا . . وجـاءنا بعدها خبر آخر يقول :

إن الرئيس السادات قرر على الفـور قبول اسـتقالاتهم وان هناك وزارة جديدة سيتم تشكيلها .

ووصلت فى تلك اللحـظة إلى مـرحلة اليقين بأن المعـركة بلغـت ذروتها . .

وكان لابد أن يهب الشعب كله ليقف إلى جـوار الرئيس السـادات ليسانده فى مواجهة تلك القلة الضـالة والمضـللة لانقـاذ مصر منهـم ، ومما يمكن أن ينتظرها بسببهم . .

وخرجت الجماهير فى كل مكان بتلقائية شـديدة تشـجب التآمـر ، وتدين مراكز القوى وتعلن تأييدها للرئيس السادات ، ولقراراته . .

وتحركت فى تلك اللحظة بتلقائية كاملة ، كتلقائية جمـاهير الشـعب تماما ، ودون أن احسب اية حسابات ، وجـدت نفسى أعقـد اجتمـاعيا فوريا مع جميع المسئولين فى الشركة ، وقررنا أن يذهب بعض مهندسينا

فورا إلى فرع الشركة فى شبرا ، حيث كان يوجد هناك تجمع لسـيـاراتنا اللورى يزيد على المائة سيارة ، وتجمع هناك أكبر عدد من أبناء الشركة وطلبت منهم أن يتوجهوا إلى منزل الرئيس السادات فى الجيزة . .

وتجمع رجال « المقاولون العرب » مع باقى الشعب هناك ليتصـدوا معه لأية محاولة أو اية قوة تتصدى لهم . .

كما طلبت منهم الا يسـتجيبوا لأية محـاولات لابعـادهم عن منزل الرئيس ، لاننى وضعت احتمال أن تتحرك أذناب مراكز القوى تحت أية دعوى من الدعاوى وتحاول تشتيتهم . .

وهتف رجالنا للحرية والديمقراطية مـع أنور السـادات ، وكان لنا شرف أننا كنا أول من خرج من جماهير الشعب ، التى ملأت القاهرة من كل مكان لتعلن تأييدها لثورة ١٥ مايو . .

وكان كل شىء قد استقر بعـد ذلك بيومين ، وذهبت لمقـابلة الرئيس السادات ، وطمأننى قائلا :

إن الوزارة تم تأليفها . . والحمد لله ـ لقد اراحونى منهم وسهلوا لى المهمة إلى اقصى حد ممكن .

لقد تطوعوا ، ووضعوا أنفسهم جميعا فى « زكيبة واحدة » وربطـوها بأنفسهم وسلموها لى عندما استقالوا . . وقـال الرئيس : ربمـا لو لم يستقيلوا أو تصرفوا بشكل آخر لكانت المهمة بالنسبة لى أصـعب ولكن هذه هى إرادة الله . .

« و . . ان الله يدافع عن الذين آمنوا » . .

والحمد لله . . « زوبعه فى فنجان . . يا أبو عفان »

وتذكرت فى تلك اللحظة كيف أنقذنى الله وحـده مـن تنكيل النظـام السابق . عندما كنت مجردا من كل الأسلحة إلا إيمانى بالله . . ووجـدت أن نفس الموقف يتكرر مع الرئيس السادات ، عندما وقف جميع أعضاء مراكز القوى ضده ومعهم كل السلطات ، ووقف فى مـواجهتهم وحـده ، وليس معه إلا إيمانه بالله . . وكان أن تأكد لى فى تلك اللحـظة الصـفاء الروحى الذى يتمتع به الرجل . . فسلمت بعدها لصداقته نفسى . .

من أسرار مبادرة السلام

وعرفت عن الرئيس السادات أنه رجل بعيد النظر ، عميق التفكير ، يدرس ، ويحلل ويراجع ويقلب الأمور على جميع أوجهها . . ثم يتركها ويعود . . اليها مرة أخرى لتفتيشها ، ويمحص فيها ألف مرة قبل أن يقدم على أى قرار من القرارات التاريخية التى اتخذها . . لا يعرف العفوية . . وليس للتسرع عنده مكان . .

وكثيرا ما كانت قرارات الرئيس السادات ، تمثل عند اتخاذها صدمة كبيرة لكل من يتلقاها ، ويحتاج أمر استيعابها إلى وقت وفكر ، وجهد ، حتى يستطيع أى إنسان أن يرى أول بعد من عشرات الأبعاد التى يصيبها القرار . .

وكان من بين تلك القرارات التاريخية الكبيرة للرئيس محمد أنور السادات قرار مبادرة السلام . .

وكانت لذلك القرار العملاق قصة أروى منها هنا الجانب الذى أعرفه ، لأدلل به على الحقيقة التى ذكرتها . .

وهو جانب يكشف عن الكثير الذى لن أتعرض له ، لكن سأترك للقارىء أن يمسك به من بين السطور . . فما هو ذلك الجانب ؟ . .

اختلفت الدول العربية فيما بينها على الطريقة التى ستحضر بها مؤتمر جنيف الذى كان مزمعا عقده لحل قضية الشرق الأوسط . . فمنها من كان يرى أن تذهب جميع دول المواجهة العربية إلى المؤتمر فى وفد واحد ، ومنها من كان يرى أن يذهبوا وفودا يمثل كل وفد دولته .

وقد ثار فى ذلك الموقف خلاف كبير بين الدول العربية ، ولم تتفق على

رأى . .

وفى ذلك الوقت أعرب الرئيس الأمريكى السابق كارتر للرئيس السادات عن أمله فى أن يترك له السادات أمر التفاهم مع بقية العرب ، لكى يتوصل معهم بطريقته الخاصة إلى الطريقة التى يحقق بها اتفاق الجميع ، على حضور المؤتمر متفقين .

واستجاب الرئيس السادات لرغبته . . وتركه يجرب بنفسه مع أنه كان يعرف النتيجة مقدما . .

وراح كارتر يبذل قصارى جهده معهم ، واستخدم مختلف وسائل الاقناع المعروفة . . ولكنه لم يستطع .

وذات ليلة كنت أجلس مع الرئيس فى استراحة القناطر ، وحوالى الساعة الحادية عشرة مساء ، أبلغوا الرئيس أن مبعوثا وصل إلى القاهرة . ويحمل رسالة من الرئيس كارتر ، ويطلب تحديد مقابلة مع الرئيس السادات لكى يسلمه الرسالة .

وقرر الرئيس السادات أن يكون موعد المقابلة فى نفس اللحظة . . لذلك استدعى المبعوث لمقابلة الرئيس وسلم المبعوث إلى الرئيس رسالة مكتوبة بخط يد الرئيس كارتر وتحمل توقيعه . .

وانصرف المبعوث وفتح الرئيس الرسالة أمامى وقرأها . .

وكان مضمون الرسالة أن الرئيس الأمريكى يشرح للرئيس السادات ، كيف أنه لم ينجح فى إقناع العرب على أن يتفقوا على كلمة واحدة . .

وقال للرئيس بالحرف الواحد :

« أتوسل إليك يا سيادة الرئيس أن تبحث عن طريقة . . »

واغرق الرئيس فى التفكير بعد أن انتهى من قراءة الرسالة . .

وتعود الرئيس على أن يصمت تماما عن الكلام كلما كان بصدد التفكير فى أمر خطير ، وتعود على أن يختلى إلى نفسه يناقشها كثيرا وطويلا دون أن يشرك معه أحد ، قبل أن ينتهى إلى رأى فيما هو بصدد التفكير فيه ، وكان يحسم الرئيس بسرعة ما شاهدته من مواقف كان

يصمت فيها عن الكلام دون أن يستغرقه التفكير فيهـا كثيراً ، وسرعان ما ينتهى إلى رأى يعرضه ويناقشه مع كل مستشاريه والمسئولين معــه قبل أن يعلنه . .

ولكن صمت الرئيس السادات فى تلك المرة طال . . واستمر شــهرين كاملين عشت خلالها على أعصابى . . فلا أنا قــادر على أن أفــاتحه . . ولا هو قال لى : حتى أستريح .

وأذكر كلما التقيت معه خلال تلك الفترة ، أنه كان قليلا مـا يتحـدث معى فى أى شىء . . دون أن يتطرق إلى ذلك الأمر الذى يســتولى عليه . . مع أنه تعود على أن « يدردش » معى فى كل مــا يعـن له مـن أفـــكار ، كلما كنت أمارس معه رياضــة المشى خــلال مشــوار الطــريق . . ولكن الرئيس التزم خلال تلك الفترة الصمت الكامل . .

وأذكر أنه لم يكلمنى حتى ولو مرة واحدة فى أى يوم من تلك الأيام .

وكل ما كنت أسمعه منه . . تمتمة يرددها . . كما لو كان يحدث بهــا نفسه ولا أحد غيره يستطيع أن يفهم ما يصدر منه . .

وتعودت كلما وجدته مستغرقا فى التفكير ، ألا أتحدث معه فى أى شىء مهما كان . .

وكل مــا كنت أفعله هــو أن أتمنى له التوفيق ، وأن يهـديه ربه إلى القرار السليم . . وأعرف أن طريقه دائما سليم لأنه رجل سليم . .

وكان بعد مرور الشهرين على موعد لالقاء خطابه فى مجلس الشعب والذى قال فيه :

« إننى مستعد لأن أذهب إلى أى مكان من أجل القضية . . حتى إلى الكنيست الاسرائيلى نفسه . . »

واختتم خطابه ، وغادر قاعة مجلس الشعب . . وبعــدها خــرج عن صمته . . ولم أستطع أن أتبين العلاقة بين ذلك الخــطاب وبين خــروجه عن الصمت . . وانتظرت لأن يتحدث فيما كان يشغله . . ولكنه تحــدث فى كل شىء الا الأمر الذى كان يفكر فيه وهــدأت نفس لأنه هــدأ ولم يعــد يهمنى بعد ذلك شىء . فتلك شئونه يسيرها كيفما شاء . .

وكان أن تصور العديدون أن الكلمة خرجت عفوا من بين شـفتيه . . أو كأنه أراد أن يقول بها إنه على استعداد لأن يفعل المستحيل ، من أجل إيجاد حل للقضية . . وأنا شخصيا لم أقف كثيرا عند تلك الجملة .

واستبعد الجميع بما فيهم أقرب المستشارين إليه ، أن يقصد الرئيس ما قاله أو أنه على استعداد لأن يذهب فعلا إلى الكنيست الاسرائيلى . .

حتى إن قادة إسرائيل أنفسهم تصوروا أن الرئيس السادات قد وقع فى خطأ ، يمكن لهم أن يستغلوه وأن يلعبوا على أوتار تلك الجملة فى كل مكان من العالم ، على اعتبار أنها مادة جديدة تدعم موقفهم ، الذى كانوا قد ملأوا به العالم ضجيجا حول أن العرب غير راغبين فى السلام .

تصوروا أن الرئيس لا يمكن أن يذهب . . وأنهم يستطيعون أن يضعوه بسبب غلطة لسانه فى مأزق .

بلعوا الطعم

وكان أن بلع حكام إسرائيل « الطعم » . . الذى لم يكن يخطر على بال أحد أنه كان موضوع أطول رحلة صمت فى حياة أنور السادات . .

تصوروا انهم يمكن ان ينصبوا للرئيس السادات فخا . . على اعتبار ان الجملة . . فلتت منه . . ولم يتنبهوا الى ان الجمله نفسها كانت هى ذلك الفخ المقصود . .

وتشجع مناحم بيجن ، ذلك السياسى الداهية ، ووجه الدعوة للرئيس السادات لزيارة إسرائيل دون أن يعرف أنه قادم على أكبر صدمة فى حياته . . وسيجد نفسه أمام أمر لا يستطيع إلا أن يدور فى فلكه دون ما إرادة منه . . بل فهم بيجن أنه وجد بين يديه صيدا ثمينا أتى إليه من تلقاء نفسه دون أن يطلب منه ، وفهم أن الفرصة واتته لكى يضع الرئيس السادات فى زاوية . . تؤكد بالدليل العملى صدق دعاوى إسرائيل عندما يرفض السادات قبول الدعوة . . أو عندما لا يجد منه الشجاعة لأن يفعل ما يقول :

ولكن فاته أن يعرف أنه يعنى كل ما كان يقول .

وكانت المفاجأة . .

وكان رجال الاعلام أول من وقـع فى الحيرة ، فهـم المطـالبون بأن يقولوا ما إذا كان يقصد السادات ما قاله . . أم إنها زلة لسان .

وكان أول ماخطر على بال القائمين على الاعلام فى مصر أن الجملة خرجت عفوا من الرئيس . . لذلك اتصلوا بمكتبه لكى يستأذنوا فى حذفها من الخـطاب . . لكى يتداركوا الموقـف فيمـا ينشرونه أو يذيعـونه ، أو يكتبونه من تعليقات تصحيحا منهم لزلة اللســان . . ولم يعـرفوا أن هذه الجملة كانت بداية لحدث كبير . . استغرق شـهرين مـن التفـكير ولم تخرج من لسانه جزافا . . ولكن من أين لهم أن يدركوا تلك الأبعاد فى ذلك الجو الذى لم يكن فيه دلالة واحدة تنبىء بأن السادات كان يقصد . .

وراحت وسائل الاعلام العالمية تتساءل . . ويحتشد مندوبوهـا عند المسئولين عن سياسة الاعلام . . لعلهم يجدون مزيدا مـن المعلومـات ، يوضح لهم أبعادا أخرى للموقف الذى يمـكن أن ينشـأ ترتيبا على تلك العبارة . .

وكان الأستاذ عبد المنعم الصـاوى الذى كان يشـغل منصـب وزير الاعلام فى ذلك الوقـت أول مـن طلب رجـال الاعلام منه توضـيحا للموقف . . ولم يجد الرجل عنده ما يقوله . . ووقع فى حيرة من أمـره . . ولم يجد أمامه إلا أن يتصـل بالرئيس لكى يعـرف منه أى شىء . . لكى يقوله . .

وكان رد الرئيس مقتضـبا للغـاية . . وأوقـع الجميع فى حيرة أكبر عندما قال :

« اترك يا عبد المنعـم كل شىء على مـا هـو عليه . . دون إضـافة أو حذف » .

أى إنه قال الكلمة ، وطلب أن يترك الموقف بعـدها ، كمـا هـو دون زيادة أو نقصـان . . ولمختلف أجهـزة الاعلام أن تتصرف كل منهـا بالطريقة التى تراها . . وليفهـم كل مـن يريد أن يفهـم مـن الجملة . . مايمكن أن يذهب إليه تفكيره . .

ولم يكن أحد يعرف أنه بينما ينتظر الجميع تفسييرا منه لما يقــول . انه كان يترقب هو عن كثب . . ما إذا كان بيجن قد وقع فى المصيدة أم لا .

كان يقصد تحقيق هدفين فى وقت واحــد . . إمــا أن يســقط القناع بالكامل عن وجه دعاوى إسرائيل بالدليل العملى الواضح المحــدد وليس بالكلام . . وإما أن تقبل . . ولا يمكنها بعد ذلك أن تتراجع ، لأن الأمر لم يعد بعد ذلك فى يدهـا .

لو كان قد قال لكانت الخطة فشلت . . وذلك ما وضعه فى اعتباره من اللحظة الأولى . . ولذلك كان مستعدا لكل الاحتمالات .

وجاءه أول خبر عن نجاح خطته . . وأنه أصاب الهــدف فى مقتل . . وكان ذلك مع مقدم السفير الأمــريكى فى القــاهرة ، والذى جــاء يطلب مقابلته . . وكان الخبر عبارة عن دعوة سلمها السفير للرئيس .

وكانت بداية المفاجأة . . دعوة من بيجين للسادات . . ليزور إسرائيل ويتحدث أمام الكنيست .

وكنت أجلس معــه فى ذلك الوقــت . . وأذكر أنه كان يســتعد لزيارة دمشق . .

ولم يعلق الرئيس بكلمة واحدة . . ولكننى تعودت أن أقرأ على وجهه اشياء كثيرة دون أن يقولها لى :

لمست فيه أنه فى قمة نشــوة الانتصــار . . ولكن حتى الآن لا أعرف لماذا ؟ . . كما كانت الاجابة على السؤال لا تزال غير معروفة لأحد .

هل كان يقصد ما يقول ؟ . .

وظل سره مع نفسه لم يبح به لأحد بعده . .

وكان أن حضر بعد انصراف الســفير الســيد حســنى مبارك نائب الرئيس ليتحدث معه فى شــأن زيارة دمشــق . . ومــن بين مــــا تناوله الحديث ، أن إسماعيل فهمــى نائب رئيس الوزراء ووزير الخــارجية فى ذلك الوقت مصاب بوعكة صحية ، ويعتذر عن الســفر إلى دمشــق مــع الرئيس . . وعاد النائب قبل السفر مباشرة ليقول للرئيس إنه استقال

وسافر السادات إلى دمشق ، فى الوقت المحدد للزيارة ، ولم يقل لأحد

عما أبلغه به نائبه

واجرى الرئيس مباحثاته مع الرئيس السورى حافظ الأسد ، حول القضايا ، والمسائل المطروحة ، على الساحة الدولية فيمـا يتعلق بأزمـة الشرق الأوسط .

وفور إستكمال الرئيس لمباحثاته . . أقلعت به الطائرة مـن دمشـق إلى القاهرة . .

ولم يعرف أحـد بعـد مـا إذا كان لتوقيت الزيارة لدمشـق ، وعزم الرئيس على أن يذهب إلى إسرائيل بعد ذلك ، علاقة بذلك الحدث الكبير أم لا ؟

المهم أثناء العودة استدعى الرئيس على متن الطائره رؤساء تحرير الصحف الذين كانوا يرافقونه فى الزيارة ، وأعلن عليهـم أن إسـماعيل فهمى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية قدم استقالته من منصـبه ، وأن استقالته تم قبولها فى نفس اللحظة . .

ولم يكن أحد يعلم وقتها ما يجرى ، أو ما يدور فى ذهن الرئيس مـن امور ، لا تحتمل إلا كل ما هو جـاد ومـرتفع إلى مسـتوى المسـئولية الكبيرة ، التى لا يتحملها إلا الرجال ، بكل مالهم من بعد نظـر وصـلابة على التصدى للمواقف الصعبة .

ويبدو أن الرئيس جس نبض وزير خارجيته ليعـرف مـدى قـدرته لاستيعاب الموقف الكبير . . فوجد أنه لا يستطيع أن يرى بعيدا كما يجب أن تتطلب المرحلة التى كانت تقبل عليها مصر والعالم كله معها . .

وتتضح هنا ملامح ما يتمتع به الزعيم من فراسة . . فهو يقف طويلا أمام قرارات كبيرة . . ويحسم سريعا أمورا صغيرة . .

وأنكر أن إسماعيل فهمي اتصل تليفونيا بالرئيس فور وصوله مـن دمشق . . ولكن الرئيس كان قد اعتبر الأمر منتهيا . . وليس هناك أدنى مجال للمناقشة . . فكان قد اثبت باستقالته ، انه ليس جديرا بأن يشارك فى معركة جديدة كبيرة ، تحتاج إلى نوعية خـاصة مـن الرجـال . . كان السادات يعرفهم . . لذلك رفض أن يستقبل مكالمته . .

وعندما وصل الرئيس السادات إلى الاسماعيلية ، وجد السفير الأمريكى فى انتظاره . . ينتظر رده على الدعوة الموجهة إليه لزيارة إسرائيل . . وكان بيجن ينتظر الاجابة التى كان يتوقعها ليبدأ حملة جديدة ضارية يثبت بها صحة وجهة نظره . . إلا إنه حدث ما لم يكن يتوقعه . . فقد كان الرئيس السادات فى تلك اللحظة يمسك بصيده فى يده . . لم يدرك بيجن أن الدعوة كانت هى موضوع المعركة السياسية الكبيرة التى وجد بيجن نفسه مضطراً لأن يستجيب إليها رغم إرادته .

وكان السفير الأمريكى أول من فوجىء بنبأ قبول الدعوة . . بل وبتحديد موعد الزيارة فى يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩٧٧ .

حاول السفير الأمريكى لفت نظر الرئيس إلى أن هذا اليوم أجازة فى إسرائيل ، على أمل أن يحدد الرئيس موعدا آخر للزيارة . . إلا ان الرئيس لم يفته أن يدرك ما حاول أن ينبهه إليه السفير الأمريكى . . كان قد وضع جميع معالم كل خطواته . . لذلك قال للسفير الأمريكى على الفور دون إعطائه أى فرصة للتفكير :

إننا سنقلع من الاسماعيلية إلى تل أبيب فى الساعة السابعة مساء . . بعد أن تكون عطلتهم الدينيه قد انتهت ، وبدأوا يمارسون حياتهم العادية وحمل السفير الأمريكى معه رسالة الرئيس وانصرف . . لينقل إلى بيجن أسوأ خبر فى حياته . . ولم يكن أحد يعرف حتى الآن أن الموقف كذلك إلا الرئيس وحده .

غلطة العمر

وجلسنا جميعا مع الرئيس . . نحن الذين كنا برفقته فى تلك الساعة . . حسنى مبارك نائب الرئيس . . وممدوح سالم رئيس الوزراء وقتها . . ومحمد حامد محمود أمين حزب مصر فى ذلك الوقت . . وحسن كامل رئيس ديوان رياسة الجمهورية عندئذ . . والمهندس سيد مرعى .

وكان الرئيس قد انتهى من مقابلته للسفير الأمريكى ، ولم نكن نعرف شيئا عما دار بينه وبين السفير حتى تلك اللحظة . . عندما فاجأنا وهو يقول :

« إننى سأسافر إلى إسرائيل مساء يوم السبت القادم » وكانت صدمة قوية لجميع الحاضرين . . كان الرئيس قد خرج عن صمته ، بعد ما انتهى من إلقاء خطابه فى مجلس الشعب . . ولكن لم يفصح عن الأمر الذى كان قد استغرقه كل الوقت الذى أشرت إليه . . إلا فى تلك اللحظة بعد ما كانت خطته قد نجحت وحققت أهدافها بالكامل . .

حاولنا جميعا إقناعه بارجاء السفر ، لأن أحدا منا ما كان يتصور أن يقدم الرئيس على مثل ذلك الأمر الخطير والكبير . . وأن أحدا منا لم يكن يعرف أن ذلك القرار كان قد استغرق من الرئيس فى التفكير كل ذلك الوقت . . وأن المشاهد التى رأيناها . . لم تكن إلا تعبيرا عن بدء الخطوات التنفيذية نحو ما كان قد انتهى إليه . . ولأن الأمر كان كبيرا فكعادته فضل أن يتحمل المسئولية وحده .

وأدركت لحظتها فقط أنه قرار لا رجعة فيه . . لأننى تنبهت إلى أن ذلك الأمر هو الذى كان يشغله طوال الفترة التى عاش فيها مرحلة صمته الكامل مع نفسه . . دون أن يشرك معه فيما كان يفكر فيه أحدا غيره . .

وتبرز هنا الدقة . . عندما نتبين من سرد الحديث ، كيف أن الرئيس أخذ جميع عناصر القرار فى اعتباره . . حتى طريقة إعلانه التى جعلت إسرائيل تسارع تتلقف الكلمة منه على أنها صيد . . وطريقة تنفيذه التى لا تقل فى مفاجأتها قوة أو جرأة عن قرار أكتوبر حيت فاجأ الاسرائيلين دون سابق موعد . . وكان تقديم إسرائيل الدعوة للرئيس انتصارا جديدا له . . لا يقل فى أهميته أو آثاره عن انتصار حرب أكتوبر . . فكانت المبادرة المفاجأة الثانية التى أصاب بها حكومة إسرائيل فى عقر دارها . . وأوضحت المواقف هذا المعنى بعد ذلك . . بما لا يدع مجالا لأى مجتهدا أو خبير . .

وأذكر أن تعليق الرئيس ، على اقتراحنا إرجاء السفر كان فى جملة صغيرة ولكنها ذات معان كبيرة ، وآفاق واسعة . . كانت الجملة تلخيصا كاملا للموقف الكبير الذى لم يدرك أى منا أبعاده فى تلك اللحظة . . قال :

« إن بيجن ارتكب غلطة العمر عندما وجه لى الدعوة لزيارة

إسرائيل » . .

كان السادات وقتها قد حقق أهدافه كاملة ، وأصبح على وشك أن يطلق الموقف إلى منتهاه . . سواء الذى بلغه منه . . أو ما يواصل مسيرته الآن نحو بلوغه بتحقيق الحكم الذاتى للفلسطينين تمهيدا لاقامة دولتهم فوق أرضهم فى غزة والضفة . .

ومع أننى لم أكن وقتها مقتنعا مثل غيرى بما هو مقدم عليه . . إلا إننى كنت أعرف مدى بعد نظره ، وقدرته على أن يرى بعيدا . . أبعد مما يستطيع أن يرى غيره . .

وكان أن قلت له بتلقائية شديدة :

سأذهب معك يا سيادة الرئيس ، . .

ومع إننى لا أستطيع أن أقدم له شيئا فيما هو مقدم عليه ، إلا اننى لا أستطيع أن أتخلى عنه . . لذلك أردت أن أربط مصيرى بمصيره . . فهو صديق عمرى . . وتصورت لحظتها أنه مقبل على المجهول . . وكان لابد أن أكون معه . .

وانكر أن هناك من اعترض على ذهابى معه ، من بعض معاونيه الذين لم يضعوا اسمى كعضو فى الوفد المرافق للرئيس . . ولم أعرف ذلك إلا قبل بدء الزيارة بساعات ، وقلت لهم إن لم تتخذوا الترتيبات اللازمة ، فاننى سأركب الطائرة مهما كان رأيكم ، ولن أتركه يذهب دون أن أكون معه . .

وأذكر أن الدكتور مصطفى خليل رئيس الوزراء السابق ، كان وقتها نقيبا للمهندسين ، اتصل بالرئيس وقال له :

لم أطلب من سيادتك فى حياتى شيئا . . ولكن اريد أن أذهب معك إلى اسرائيل . . فاستجاب الرئيس إلى طلبه ، وانضم إلى الوفد المرافق . .

وأقلعت الطائرة ، وخلال المسافة ما بين الاسماعيلية وتل أبيب ، كان الوجوم يسيطر على كل من كان على متن الطائرة . . إلا الرئيس السادات . . كان هادئا جدا . . وطبيعيا جدا . . يشعل « البايب » وهو فى قمة الراحة النفسية ، وكأن شيئا لا يحدث . . بينما تقف الدنيا كلها تتابع

ما كان يحدث فى مشهد عظيم . . وصفته وكالات الأنباء العالمية ، انه فاق لحظة هبوط الانسان على سطح القمر . . ولم تشهد له البشرية كلها من قبل مثيلا . . كان هادئا لأنه كان يعرف انه انتصر . .

وعندما هبطت الطائرة ، ونزل الرئيس ، ووجد كل زعماء إسرائيل فى استقباله . . اذكر انه تحدث مع كل واحد منهم عندما صافحه . .

وداعب شارون الجنرال الاسرائيلى الذى فتح الثغرة قائلا له :

وإذا عدت مرة أخرى إلى مصر . . « سـأحبسك » هناك . ولن اتركك لتعود مرة أخرى . .

ابنه الوحيد

واذكر اننى التقيت فى حفل العشاء الذى أقيم فى المساء مع عيزر وايزمان وزير الدفاع الاسرائيلى وقتها . . ولم أكن أعرفه من قبل . . وبعد ما عرفنى بنفسه ، أردت أن اقدم له نفسى وجدته يقول لى :

أنت المهندس عثمان أحمد عثمان . . إننى اعرفك تماما ، وتعمدت الا أسأله : كيف عرف ؟ . . وإن كنت قد اندهشت . . وسألنى عن رأيى فى الخطاب الذى ألقاه مناحم بيجين رئيس الوزراء الاسرائيلى تعقيبا على خطاب الرئيس السادات . .قلت له :

ماذا قال بيجين ؟

إن بيجين لم يقل شيئا .

وهل ما قاله بيجين يتفق مع هذا الموقف التاريخى ؟

وهل يصل إلى مستوى ما قاله الرئيس السادات معبرا عن رغبة مصر فى السلام العادل والدائم ؟ !

وقلت له : إنكم لا تريدون السلام . . ولو كنتم تريدون السلام . لقال بيجين كلاما مختلفا . .

وهنا أضطر الرجل لأن يروى لى مأساته الانسانية . . التى تعيش معه فى بيته فى كل لحظة من لحظات حياته . . قال لى :

إن ابنى الوحيد ، أصيب برصاصة فى جبينه أثناء عمليات حرب

أكتوبر ، تركت فيه عاهة عقلية . . لا يمكن شفاؤها . .

قال الرجل والحسرة تكاد تقتله :

ليته مات . . بدلا من العذاب الذى يعـانى منه الآن . . ويعـذبنى به معه . . وصمت قليلا ، والألم يعتصره ، ثم أطرق قائلا :

إن كل بيت فى إسرائيل لديه قصة مشابهة لهذه القصة . . ثم تقول لى بعد ذلك . . إننا لا نريد السـلام . . وانتهـت المقـابلة . . ولكن المواقـف الاسرائيلية رغم تشددها بعد ذلك . . كانت فى النهاية تعبر عن آخر جملة قالها لى وايزمان . . وبيجـن رغم كل مـا كان يعتصره مـن مـرارة شـخصية . . إلا إنه كان لا يملك إلا أن يسـلم بمـا كان يعبر عنه وايزمان . . إنها الحقيقـه التى تركتهـا نتائج حـرب أكتوبر فى قلب كل إسرائيلى .

وانتهت المقابلة ، ولكن عيزر وايزمان أصبح بعـد ذلك لا يزور مصر إلا إذا طلب مقابلتى ، وهذا الرجـل بالذات مـن أكثر زعمـاء إسرائيل مرونة وبعد نظر وتفهما لموقف مصر من عملية السلام . .

ولكن لم تهدأ نفسى ولم أسترح إلا بعد أن رأيت من الطـائرة وهـى تطوف أجواء القاهرة ، اسـتعدادا للهبوط ، جمـاهير الشـعب المصرى التى خرجت على بكره أبيها فى مشهد جليل لا يقل عن خمسـة مـلايين مواطن تسـتقبل القـائد والزعيم معلنة تأييدهـا بكل خـطواته . . وهنا أدركت كيف أن الزعيم استطاع أن يستلهم روح شعبه فراح يعبر عنهـا فكان له منه كل ذلك التأييد .

وعاد الرئيس بعد المبادرة إلى القاهرة ، وبدأت عملية السلام تشـق طريقها وتؤتى ثمارها بقوة دفعها التى سـتظل قـوية دائمـا . . لا يملك أمامها أى زعيم إسرائيلى أو أمريكى ، إلا أن يواصل السير فى الطريق ، وصولا إلى إرساء قواعد السلام الدائم والعادل فى المنطقة ، لأول مرة فى تاريخ الصراع العربى الاسرائيلى . .

ونجحت المبادرة واستحوزت على ضمير العالم كله ، بما فيه ضـمير المواطن الاسرائيلى نفسه . .

ولم يجد بيجين أمامه من خيار سوى أن يقبل السير فى الطريق الذى

رسمه الرئيس السادات . . وتغير الموقف فى العالم كله رأسا على عقب . . انكشف أمر زعماء إسرائيل ، واتضحت حقيقتهم ، وفقدوا حجتهم التى كانوا يملأون بها العالم كله ضجيجا ، ولم يجدوا أمامهم إلا أن يسلموا بالسير فى طريق السلام ، رغم كل ما يبذلونه من محاولات للفكاك منه . . ولكنهم لن يستطيعوا . .

ولست هنا بصدد الحديث عن مبادرة السلام ، فهى موضوع يخرج عن إمكانياتى . . ولكننى سجلت تلك المشهد من مشاهدها ليستنتج منه كل إنسان ما يستطيع أن يفهمه إذا أراد أن يعرف عن شخصية الرئيس السادات بعدا جديدا . .

* * *

انفرد الرئيس السادات بصفات للزعامة ، والقيادة خصه بها الله سبحانه وتعالى عن غيره . . فما نراه نحن فى وقته أنه مرفوض . . يراه هو ببعد نظره أنه المطلوب . . وكدليل على ذلك :

عندما فاز مناحم بيجين برياسة الوزراء فى إسرائيل ، وكان ذلك فى الساعة الحادية عشرة مساء ، ولم يشأ معاونو الرئيس أن يزعجوه بالخبر ، على اعتبار أن بيجين رجل متشدد ، ويمكن أن يعقد أمور السير فى عملية السلام . . وفضلوا أن يبلغوه فى الصباح . .

وعندما عرف الرئيس الخبر قال :

إن هذا الخبر سعيد . . وليس مزعجا لأن بيجين هو الرجل القوى فى إسرائيل ، ولذلك فهو الرجل الذى نستطيع أن نبدأ معه أولى خطوات السير على طريق السلام . . وكان ما توقعه الرئيس . .

إنه خلق ليكون زعيما . .

* * *

وكان أن شدتنى كل تلك الأبعاد المتعددة فى شخصية الرئيس السادات إليه ، إلى أن ربطتنى به روابط الثقة المتبادلة . .

ولكن أستطيع أن أقول هنا إن السبب الرئيسى الذى جعل الرئيس السادات يقربنى منه . . يكشف فيه أيضا بعدا آخر من أبعاد شخصيته التى جذبتنى إليه . .

كان الرئيس السادات مكلفا بهمة إنشاء قواعد الصواريخ ، ف مواجهة غارات طيران إسرائيل ، وكانت شركة المقاولون العرب هى التى تقوم بتنفيذ تلك القواعد . .

وكان كثيرا ما يستدعينى ، ويتحدث معى فى ذلك الأمر . .

وكان أن لمس فى ، المبدأ الذى تمسكت به ، طوال حياتى ، وهو الصدق فى القول وإتقان العمل ، والالتزام بالمواعيد . . وكانت هذه الصفات سببا فى تحقيق مزيد من الثقة . . وكانت الثقة سببا فى أن تتطور علاقتى الشخصية بالرئيس . .

وجدنى جادا فى عملى ، مخلصا لمهنتى ، ملتزما بتنفيذ كل ماأكلف به من أعمال . .

ويبدو أن هذه الصفات تجد قبولا شديدا لها عند الزعماء . .

واختلط الجانب الانسانى ، بالجانب العملى ، وتوافقا وتعانقا ليخلقا هذه العلاقة المتينة التى أتمنى لها من الله سبحانه وتعالى أن يحفظها حتى تظل خالصة لوجه الله والوطن دون هوى أو غرض . .

* * *

ولى مع الرئيس قصة أخرى ، كان الروس أحد أطرافها ، عندما كنت أقوم بتنفيذ قواعد الصواريخ . . ستجد فى الفصل القادم مكانا لها . .

جيش "المقاولون العرب"
على جبهة القتال

- سد الصواريخ فى سماء مصر ضد إسرائيل والروس معا لتامين شعب وجيش مصر .
- حظائر الطائرات لتامين سلاحنا الجوى ليتمكن من آداء دوره كاملا فى المعركة .
- المقاولون العرب فى معديات العبور لفتح الثغرات فى الساتر الترابى لفتح الطريق أمام قواتنا المسلحة الى سيناء .

سد الصواريخ في سماء مصر

ضد إسرائيل والروس معا

كان أن قررت القيادة السياسية فى مصر ، أن تبدأ حربا ضد القوات الاسرائيلية عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧ . . أسموا تلك الحــرب . . حــرب الاستنزاف . .

وتطورت تلك الحــرب ، إلى الحــد الذى جعــل إسرائيل تســتخدم طيرانها بشكل مكثف ، ليس لضرب الأهداف العسكرية وحدها . . ولكن لضرب المنشآت المدنية . . والمدنيين . . أيضا

حدث ذلك فى كل مــكان فى مصر ، كان يمــكن أن تصــل إليه الذراع الطويلة لاسرائيل . . وبدا الأمر كما لو كان كل مكان فيها ، أصبح هــدفا سهل المنال للسلاح الجوى الاسرائيلى . .

وكانت وسائل دفــاعنا فى ذلك الوقــت غير قــادرة . . لا مــــن حيث الكيف . . ولا مــن حيث الكم . . على أن تتصــدى لغـــارات الطيران الاسرائيلى ، الذى يعتبر اختراقه لمجالنا الجوى ليس أكثر من فســحة ، أو مناورة تدريبية يعود بعدها إلى مواقعه فى أمان . .

كان ذلك الأمر سببا فى أن يسافر نظام الحكم المصرى فى ذلك الوقت إلى موسكو ، لكى يحصل على الصــواريخ المضــادة للطــائرات . . على اعتبار أنها أحدث وسائل الدفاع الجوى ضد طيران العدو . .

وكان أن وافقت روسيا على مد مصر بتلك الصواريخ . . ولكن بشرط أن تنتهى مصر أولا من بناء القواعد اللازمة لتلك الصواريخ ، وحددت مهلة لمصر مدتها شهران ، إن لم تستطع خلالها أن تنتهى من إقامة تلك القواعد ، فان الموافقة تعتبر مسحوبة .

وكان يريد الروس من ذلك تعجيز مصر . . وفهموا أنها لن تستطيع ، وبذلك تصبح الموافقة نظرية دون أن يتم شيء . . ولا حجة لمصر فى ذلك . .

وساعد روسيا على أن تفهم ذلك أنهم قدروا أن سلاح الطيران الاسرائيلى لا يمكن أن يسمح للمصريين بإقامة تلك المنشآت مهما كان الثمن . . لأن معركة عدم تمكين مصر من إقامتها . . هى معركة حياة أو موت بالنسبة لاسرائيل . . على اعتبار أنها تمكنت من تدمير الجيش المصرى فى يونيو ١٩٦٧ ، ولا يمكن أن يتصور أحد أن تسمح إسرائيل له بأن يعيد بناء نفسه ، إلى الحد الذى يهدد وجود قواتها على الضفة الشرقية لقناة السويس ، أو يمنعها من أن تنال كل مايمكن أن تضيفه لتطوير قدراتها القتالية ، إستعدادا لمواجهة حاسمة أخرى . .

وكانت تلك معركة تحد جديدة بين إرادة مصر التى تريد إعادة بناء جيشها لتحرير أرضها . . وإرادة الروس التى كانت تريد أن تظل مصر راكعة تحت أقدام موسكو ، ما دامت غير قادرة على أن تواجه إسرائيل فى ميدان القتال . .

إن مصر كانت تواجه معركتين فى نفس الوقت . .

معركة مواجهة الروس ، للحصول على الأسلحة اللازمة لها ، والتى تمنحها روسيا « بالقطارة » حتى نظل فى قبضة يدها . . ومعركة مواجهة إسرائيل من أجل تحرير أرضها ، وإستعادة حقوق أمتها . .

* * *

خبرة «المقاولون العرب»

وكانت المقاولون العرب قد اكتسبت خبرات واسعة أثناء تنفيذها عملية السد العالى ، وأصبحت قدرتها على الانجاز السريع والمتين والدقيق ذات شأن كبير . . واستطاعت بذلك أن تنفرد بالقدرة على تنفيذ

ما لا تستطيعه شركة غيرها فى المنطقة كلها . .

وكان أن أسندت الدولة ، إليها مهمة بناء قواعد الصواريخ . . لقطع الذراع الطويلة للطيران الاسرائيلى ، وحظائر الطائرات حتى لا تكون طائراتنا فى متناول يد الطيران الاسرائيلى كما حدث ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ عندما تم تدمير سلاح طيراننا وهو راكض على الأرض ، دون أن يلعب فى المعركة أى دور . .

والحمد لله . . نجحت المقاولون العرب فى تنفيذ تلك المهمة الوطنية الكبيرة ، فى أوقات قياسية ، وقوة فنية خارقة ، وصلت إلى أعلى مستويات الدقة فى التنفيذ ، الأمر الذى مكنها من أن تتخصص فى هذا النوع من الانشاءات ، ليس فى مصر وحدها ، ولكن فى المنطقة العربية كلها ، بشكل لم يصل إليه مستوى أداء أية شركة عالمية تخصصت فى مجال تلك الانشاءات . .

انجزنا تلك الأعمال العسكرية ، فى مختلف البلدان العربية ، ونحن بعيدون عن المخاطر ، وفى جو يملؤه الأمان . .

أما فى مصر . . فتصدينا لذلك العمل ، تحت أقسى الظروف صعوبة . . فى جو من التحدى الرهيب الذى يجعلنى أقول : إن بناء دشم الطائرات ، وقواعد الصواريخ كان ملحمة نضال رائعة للمقاولون العرب . . وليس تعبيرا عن ملكات الفن الانشائى وحده .

وكان لنا شهداء شرفاء . . سقط منهم فى يوم واحد على الضفة الغربية للقناة ٥٠٠ شهيد . .

وأيضا . . نظام الحكم السابق فى مصر ، والذى وقف ضدى من بين عوامل التحدى فى السد العالى . . وقف ضدى فى هذه المرة وألقى القبض على بتهمة أننى عميل لاسرائيل . . فى الوقت الذى كان تفكيرى مشدوداً إلى حيث جبهة القتال ، لكى ننتهى من مهمة إعداد قواعد الصواريخ . . لكى نغلق فى وجه الطيران الاسرائيلى سماء مصر من ناحية ، ولكى نفوت على الروس فرصة عدم تمكيننا من بناء جيشنا ، بالشكل الذى يمكننا من تحرير أرضنا حتى لا نظل راكعين تحت أقدامهم . . ندور فى فلك إرادتهم . .

السادات كلفنى بالمهمة

فكيف بدأت قصة الدور الكبير الذى لعبته المقاولون العرب فى المجال العسكرى . . عندما أقامت سد الصواريخ فى سماء مصر لحمايتها بعد أن اقامت السد العالى فى عرض النيل لصنع الرخاء على أرضها ؟ .

كان الرئيس محمد أنور السادات نائبا لرئيس الجمهورية فى ذلك الوقت ، ولم اكن أعرف أنه مكلف بالاشراف على عملية إعادة بناء القوات المسلحة . . ولكننى فهمت ذلك . . من طبيعة المهام التى كان يكلفنى بها فى تلك الأيام . .

واستدعانى الرئيس السادات ، عقب عودة نظام الحكم السابق من زيارته السرية إلى موسكو ، والتى ذهب يطلب فيها الصواريخ . .

وفى الصباح الباكر ، ذات يوم ، أرسل يستدعينى وذهبت إلى مقابلته على الفور فوجدته ينتظرنى فى حديقة منزله . .

وطلب منى الجلوس إلى جواره . . وقال لى :

استدعيتك يا عثمان لمهمة قومية كبيرة . . واطلب منك أن ترتفع إلى مستواها ، لأن المسألة لا تحتمل إلا كل ما هو جاد ، وصادق ، وأمين . .

وراح يشرح لى الموقف من جميع نواحيه وهو يقول :

إن سماء مصر مفتوحة أمام الطيران الاسرائيلى ، الذى أصبح بمقدوره أن يصل إلى أى مكان فى مصر . . ولابد من أن يوضع لهذه المسألة حد . . ولا وسيلة لنا إلا أن نقيم قواعد للصواريخ ، تستطيع أن تتصدى لطيران إسرائيل . .

وقال الرئيس : ولا نريد هذه القواعد فى موقع أو موقعين ، ولكن على امتداد الجبهة كلها ، وفى كل مكان يمكن أن يجد الطيران الاسرائيل منه ثغرة لاختراق مجالنا الجوى . .

وأيضا . . فى العمق بالشكل الذى يحمى مواطنينا ، ومشروعاتنا . .

واستطرد الرئيس يقول لى :

إننا اعتمدنا لاقامة هذه المنشآت أربعين مليون جنيه . . ومطلوب

منك يا عثمان . . أن تنتهى من هذه المهمـــة تمـــاما فى مـــدة لا تتجـــــاوز الشهرين . .

وكان الرئيس بعيد النظر عندمـــا نبهنى إلى ان أحتاط لنفسى ، وأن أضع فى اعتبارى أن تلك المهمة صعبة جدا . .

فهى كما قال لى :

ليست مجموعة من الانشاءات . . ولكنها معركة تحـــد مـــريرة مـــع إسرائيل ، لأنها لن تسمح لنا بأن نقيم هـــذه القـــواعد إلا رغم أنفهـــا . . وسيستميت طيرانها من أجل عدم تمكيننا من تنفيذ هذه المهمة . .

وقال الرئيس ، وهو ينبهنى :

لابد أن تفهم كل ذلك يا عثمان قبل أن تبدأ . . ولهـــذا الســـبب أطلب الا يتسرب اليأس إلى نفسك ، خـــلال تنفيذك لهـــذا العمـــل . . وعليك أن تصمد إلى أن تنتهى من تنفيذ ما هو موكول إليك من مهام . .

وكان أن قلت للرئيس :

إن العبء ثقيل . . يا افندم . . خاصة أن العمل مـــطلوب إنجـــازه فى وقت قياسى جدا ، ولذلك فاننى أقترح أن تتعـــاون معـــى بعض الشركات الأخرى لاقامة المنشآت التى لا تحتاج لامكانيات مثل إمكانيات المقاولون العرب ، خاصة فى العمق ، حتى نســـتطيع أن ننجـــز المهمـــة فى المواعيد المحددة . .

واستجاب الرئيس لاقتراحى :

واشتركت معنا بعض الشركات فى إقـــامة بعض المنشآت المتفـــرقة فى العمق . . أما المجهود الرئيسى على جبهة القتال بطولها وعرضـــها . . وفى كل المواقع الهامة ، فقد كان من مسئولية المقاولون العرب . .

واستأذنت الرئيس بعد أن اتفق معى على أن أبدأ التنفيذ فور انتهاء المقابلة . .

وذهبت إلى مكتبى فى الشركة وعقدت اجتماعا مع جميع قياداتهـــا ، تدارسنا فيه الموقف من جميع جوانبه . .

وبدأنا بعد ذلك فى إعداد الرسومات الهندسية اللازمـة ، لاقـامة تلك القواعد ، والتى يتم التنفيذ على أساس منها تماما كما فعلنا مـن قبل ، عندما كلفنا بمهمة إنشـاء حـظائر الطـائرات وبدأنا على الفـور فى التنفيذ . .

فماذا حدث . .

* * *

التحدى الكبير

كانت حرب الاستنزاف على أشدها . . والمدافع الاسرائيلية تقصف مواقعنا بلا هوادة . .وكان الطيران الاسرائيلى يسبح فى سماء مصر دون أن يجد من يقول له : قف من أنت ؟

وكان لابد أن تنشىء سـواعد أبنائى ، قـواعد الصـواريخ ، التى تستطيع أن توقفه عند حده . . ودار صراع رهيب ، ومرير بيننا وبينه . .

كثف من غاراته الوحشية على كل إنشاء جديد ، لكى ينسف ويدمـر كل ما تصل إليه يده . . وكان لابد أن ننشىء تلك القواعد لقطع ذراعه . .

وكان لابد أن يواجه رجـالنا فى المقـاولون العـرب ذلك التحـدى السافر . . ولذلك صمموا على خوض المعركة مهما كان الثمن . .

واصل أبناء المقاولون العرب الليل بالنهار ، فى ملحمة صراع هـائلة ليس من أجل إقامة المنشآت الجـديدة ، ولكن لاعادة بناء كل مـا يقـوم الطيران الاسرائيلى بتدميره . .

كان الطيران الاسرائيلى يواصل هجماته من أجل تدمير كل مـا تم بناؤه . . وكان رجالنا يواصلون إصرارهم مـن أجـل إعادة بناء مـا تم هدمه . . وبناء قواعد أخرى جديدة . .

وكان أن وصل تحدى الطيران الاسرائيلى لهـم . . أن قـام بهـدم إحدى القواعد بعد بنائها أكثر من خمس مرات . . ومـع ذلك نجحـوا فى إقامتها رغم أنفه ، ونصبت فيها الصواريخ التى قطعت ذراعه . .

وكثيرا مـا دمـر الطيران الاسرائيلى قـواعد كاملة ، بعـد أن يتم

انشاؤها تماما . . وكنا نقوم باعادة بنائها . .

كان الصراع يدور أحيانا كثيرة فى القاعدة الواحدة . . كلما قمنا ببناء جزء منها قام بتدميره . . وكلما أعدنا بناءه قام بنسفه مرة أخرى . . ويظل الصراع على ذلك الحال ساعات وأياما كاملة . .

وفى كل مرة كان يسقط من ابنائى الشهيد تلو الشهيد ، ولكن كان يرتفع بناء القواعد حجرا فوق حجر . . وانتصروا لارادة أمتهم . . بعون الله سبحانه وتعالى . .

كانت ملحمة نضال وبناء رائعة . . أروع من ملحمة السد العالى نفسه . .

وانتصرت إرادتنا فى النهايه على إرادة الطيران الاسرائيلى ، رغم أطنان القنابل التى كان يلقيها بلا حساب . .

وانشأنا قواعد الصواريخ فى كل مكان من أرض مصر يمكن أن يكون هدفا لاسرائيل ، أو ثغرة تنفذ منها طائراتها ، إلى العمق لتنال من منشآتنا ومواطنينا . .

وكان أن برزت عظمة ذلك الانجاز الهائل ، فى قطع الطريق أمام الطيران الاسرائيلى ، حتى لا ينال من قواتنا فى إعادة بنائها لنفسها ، وإلى الحد الذى مكنها من أن تواصل استعدادها لمعركة المصير . . وبرزت تلك العظمه أيضا . . خلال حرب اكتوبر ، عندما نجحت قواعد الصواريخ ، أن تمنع إسرائيل من أن تنقل القتال بعيدا عن مسرح العمليات ، وفى أن تجعل طائراتنا ، فى مأمن من أن تتعرض لكل ما كانت تتعرض له من قبل . . وأن تضرب ضربتها فى أول دقائق للمعركة بنجاح كبير . . عندما عزفت أروع الألحان فى سماء مصر لأول مرة فى التاريخ ، وضربت ضربتها التى غيرت مسار العمليات ، وعادت إلى قواعدها العملاقة التى انشأها الانسان المصرى فى المقاولين العرب ، بالعرق ، والدم فى وقت واحد . .

ورغم كل تعرضنا له ، كان مطلوبا أن يتم الانتهاء من إنشاء تلك القواعد فى البلاد كلها . . وبطول الجبهة وعرضها فى أقل من شهرين . . .

ونفذ أبناء مصر فى المقاولون العرب المهمة رغم كل التحديات ، فى اقل من الزمن الذى كان مخصصا لها . .

وكان لهم من مصرهم ، ومن الرئيس السادات ومنى كل عرفان وتقدير . .

المفاجاة المضحكة . . المحزنة

وخلال قيامنا بانجاز تلك المهام العملاقة . . حدثت مفاجأة . .

مفاجأة مضحكة . . محزنة . .

كنا ندرس كيف نستطيع تحقيق ذلك العمل الضخم ، وسط موجات تحدى الطيران الاسرائيلى الذى يتعرض له رجالنا المدنيون لأول مرة . .

فى ذلك الجو أمر النظام الحاكم فى مصر فى ذلك الوقت ، بالقاء القبض على عثمان أحمد عثمان بتهمة الخيانة ، والتآمر مع إسرائيل ضد مصر . . .

حدث ذلك منه ، فى الوقت الذى كان عثمان أحمد عثمان غارقا حتى أذنيه ، يدرس كيف يواجه الموقف ، وينهى المهمة ، بعد الارتباك الشديد الذى أصاب جميع العاملين باستشهاد خمسمائة رجل خلال دقائق فى ثلاثة مواقع . .

فبدلا من أن يتركه نظام الحكم يبحث كيف يتدارك ذلك الأمر ، ويعيد تنظيم العمل من جديد . . طلب من أمين هويدى أن يطلب من عثمان أحمد عثمان أن يترك ذلك الأمر . . ويأخذه مقبوضا عليه من قلب شركة المقاولون العرب التى كانت فى تلك اللحظة فى قلب معركة إنشاء قواعد الصواريخ . .

نعم كان . . إنشاء قواعد الصواريخ معركة . . انتصر فيها الانسان المصرى فى المقاولون العرب ، وكان انتصاره بداية طريق ما حققه الانسان المصرى فى القوات المسلحة ، من انتصارات رائعة هزت العالم كله ، من اقصاه إلى أقصاه . .

فما هى تفاصيل تلك القصة المثيرة التى حدثت ، أثناء إنجاز ذلك العمل الكبير ؟

جاءنى خبر ذات يوم من جبهة القتال يقول « إن الطائرات الاسرائيلية اغارت على ثلاثة مواقع من مواقع إنشاء الصواريخ التى يقوم رجالنا بإنشائها ، وإن عدد شهدائنا وصل إلى خمسمائة شهيد . .

وفى نفس اللحظة تحول مكتبى إلى غرفة عمليات . .

وكان أن عقدت اجتماعا طارئا لمجلس الادارة ، وكبار المسئولين فى الشركة ، لكى نبحث أمر مواجهة ذلك الأمر الخطير ، الذى تعرضت له الشركة ، لأول مرة فى تاريخها .

كان قلبى يقطر دما على أولادى ، الذين تعبت كثيرا فى تربيتهم ، ووجدت نفسى فى لحظة واحدة أفقد خمسمائة رجل منهم . .

وكان الموقف أيضا غير طبيعى لأن ذلك العمل ، وبذلك الحجم وفى مثل تلك الظروف ذو أهداف قومية كبيرة لا يتحمل معها لأن يتعرض لأية هزة ، أو ارتباك مهما كانت الأمور . .

وينبقى أن نتدارك الأثر النفسى ، الذى كان يمكن أن ينعكس على باقى العاملين ، مما يمكن أن يفت فى عضدهم فيتقاعسوا عن إنجاز ذلك العمل العملاق . .

وكان لابد لنا أن نقوم بجمع جثث الشهداء ، ونقلها ونقل الجرحى إلى المستشفيات ، وترتيب جميع الأمور الانسانية والاجتماعية المتعلقة بما حدث . . بما فيها مواساة أسر الشهداء . . ووضع ترتيبات صرف التعويضات السريعة لأولادهم وذويهم . .

وفى ذلك الجو العاصف كان أمامى سؤال كبير يبحث عن إجابة هو :

كيف يسير دولاب العمل فى تلك المواقع بأقل أثر معنوى ممكن ؟

وقررت فورا نقل جميع العاملين فى تلك العمليات ، وكان عددهم ألفا وخمسمائة رجل إلى مواقع أخرى بعيدة عن التعرض لمثل ذلك الموقف . . وإرسال رجال آخرين بدلا منهم لكى يواصلوا التنفيذ . . فورا . .

كان لابد وأن نبحث عن حلول لأكثر من مشكلة فى وقت واحد ، وكان لابد أن أعقد إجتماعا مع الرجال الجدد ، لكى أشرح لهم الموقف ، وأزودهم بدفعة معنوية قوية ، وايضا . . إيجاد نوع من التنسيق مع

القوات المسلحة ، لكى يشرحوا لرجالنا كيف يحمون أنفسهم بوسائل الدفاع السلبى ، ضد غارات الطيران الاسرائيلى . .

وعلموا رجالنا تلك الوسائل وأصبح حجم الخسائر بعد ذلك فى أضيق الحدود بينما نحن مشغولون بترتيب كل تلك الأمور ، كان النظام الحاكم مشغولا بالقاء القبض على عثمان أحمد عثمان . .

كيف ؟

القبض على عثمان

كنت أدير اجتماع مجلس الادارة لتدارك ذلك الأمر الخطير ، وأثناء ذلك دخلت سكرتيرتى إلى غرفة الاجتماع ، تخبرنى بأنه يوجد فى قاعة الاستقبال رجلان من رياسة الجمهورية يريدان مقابلتى . .

وطلبت منها أن تطلب منهم الانتظار إلى ما بعد انتهاء الاجتماع وطلبت منها أن تقول لهم :

إن الاجتماع مهم ، ولا يستطيع أن يتركه ، لأنه يقوم ببحث أمر وطنى هام ، لا يتعلق بالشركة وحدها ، ولكن تمتد آثاره إلى مصر كلها . .

ولكن سكرتيرتى أصرت على خلاف العادة ، وألحت فى ضرورة أن اترك الاجتماع ، وأن أخرج لمقابلتهما . .

وأردت أن أكون حازما معها ، حتى لا تكرر ذلك الالحاح مرة أخرى ، خاصة أنه يحدث منها ذلك لأول مرة . .

فوجدتها متجهمة . . ومنزعجة وتصر . . ايضا بشكل لا إرادى على أن اترك الاجتماع .

وكان أن استأذنت من مجلس الادارة ، وخرجت لأعرف سر اهتمامها الشديد ، بضرورة أن أخرج ، لمقابلة هؤلاء الضيوف ، الذين جاءوا على غير موعد . .

وعندما خرجت ، وجدت فى انتظارى « فحلين » طول « الفحل » منهما متران وعرضه متر . . رحبت بهما . .

وسألتهما عن مطالبهما الملحة ، التى هى أهم من الامر الذى ارادوا منى ان أترك بحثه ، واجاباني بأن أمين هـويدى ، رئيس المخابرات العامة يريد مقابلتى . . وهو فى انتظارى برياسة الجمهورية . .

قلت لهما : ولماذا لم يتصل بى تليفونيا . .

قالا : إنه مستعجل جدا ، ويريد مقابلتك على وجه السرعة . .

وحاولت أن أتصل به تليفونيا على اعتبار أن التليفون أسرع من الذهاب ، مادام الأمر له تلك الصفة من الاستعجال . .

وكان أن حاولا منعى من الاتصال بطريقة بدا منهـا عدم اللياقـة فى التعامل . . الأمر الذى جعلنى أتراجع فى أن اطلب مكتب أمين هـويدى ، حفاظا على كرامتى . .

وحاولت أن أستأذن منهمـا لكى أنهـى الاجتمـاع ، وأخبر مجلس الادارة بذلك الأمر . . فمنعانى من دخول المكتب مرة أخرى وهما يقولان لى :

ليس هناك ما يدعو . .

لذلك أدركت أن هناك فى الامر شيئا ، وقـررت أن أتعـامل معهمـا بالطريقة التى يريدانها ، حتى لا تتعرض كرامتى لما لا أرضاه . . خاصة أمام العاملين معى . .

وخرجت معهما فعلا . . ووجدت على باب صالة الاجتماعات رجلين مثلهما . . وانتشر رجال النظام السابق داخـل المبنى وحـوله بطـريقه ملفتة . .

واقترحت أن أركب سيارتى ولكنهم رفضوا ، وطلبوا منى أن أركب إحدى سياراتهم التى أعدوها خصيصا لذلك الغرض . .

وركبت سيارة يقودها أحدهم ويجلس إلى جواره آخر على المقعـد الامامى ، وجلست على المقعد الخلفى . . أحدهم على يسـارى والآخـر على يمينى !

وتحركت بنا السيارة . . وكانت أمـامها سـيارة مـن سـياراتهم ،

وخلفها سيارة أخرى . . ذلك ما استطعت أن أتبينه . . وما خفى كان أعظم . .

وعرفت بعد ذلك أنهم قاموا بتشميع قاعة مكتبى . . وغرفة الاجتماعات الملحقة به وانطلقت بنا السيارة إلى حيث لا أعرف . . ولم تتجه إلى رياسة الجمهورية كما قالا لى ولكنها اتخذت طريقها إلى مبنى المخابرات العامة . .

وعندما حاولت أن ألفت نظرهم إلى ذلك ، لم يجبنى أحد منهم . . ولكن فضلوا أن يغيروا اتجاه مسار السيارة ، حتى لا أعرف إلى أين هم بى ذاهبون . . أيضا كما لا أعرف لماذا أنا معهم فى تلك اللحظة . .

وعندما وصلنا إلى مبنى المخابرات من بابها الخلفى ، فوجئت هناك ، بكل ما هو مخيف ومرعب . .

قادونى إلى حجرة قالوا لى : إن أمين هويدى ينتظرنى فيها . . وعندما دخلت الحجرة لم أجد فيها إلا كنبة وكرسيين . . ثم أغلق الباب من خلفى ، وتركوننى فى الحجرة وحدى . .

وكانت الساعة فى ذلك الوقت الحادية عشرة صباحا . .

وسرعان ماقتحم الحجرة جندى ، طويل عريض مفتول العضلات ، يمسك بيده مسدسا ، أغلق الباب من خلفه ، وجلس فى الحجرة معى . . ولكنه كان يجلس أمام الباب مباشرة

وسألته : السيد أمين هويدى « هنا » .

أجاب : لا أعرف .

وسألته : ألا تعرف لماذا جاءوا بى إلى هنا ؟

أجاب : لا أعرف .

وفعلا لا يعرف . . فمن هو حتى يعرف . . إنه ليس أكثر من جندى أمروه بحراستى ، والتحفظ على داخل الحجرة . . وليس عليه إلا أن ينفذ الأمر دون أن يعرف هو أيضا لماذا يفعل ذلك ؟ . .

ولا تعنيه الاجابة على سؤالى الذى يسيطر على ذهنى . .

ولا يشغلنى إلا أمر البحث عن إجابة له . .

ومكثت فى تلك الحجرة من الساعة الحادية عشرة صباحا ، إلى الساعة السادسة مساء . . دون أن أجد من يسألنى من أنت ؟ . . وإن كان المسئولون فى الشركة وأهلى يبحثون عمن يقول لهم أين أنا ؟

وكانت تلك هى المرة الوحيدة فى حياتى التى تمنيت أن أجد من يسألنى . . من أنت ؟ . .

لماذا هزمنا فى ١٩٦٧

وفى الساعة السادسة تماما جاء من يستدعينى لمقابلة أمين هويدى . .

ودخلت إلى حجرة . . لم أجد فيها أمين هويدى ، ولكن وجدت ثلاثة يجلسون وراء مكتب كبير ، ومعهما اثنان آخران . . وكرسى لا يجلس عليه أحد . .

وسألتهم السؤال الذى أبحث عن إجابته :

لماذا جئت إلى هنا ؟ .

استدعيتمونى لمقابلة أمين هويدى فى رياسة الجمهورية . .

فوجدت نفسى فى مبنى المخابرات . . فما شأنى بالمخابرات . .

وكانت إجابتهم أكثر مفاجأة عندما قالوا :

أنت الآن أمام النيابة العسكرية . .

وكان أن قلت لهم : المهم . . أريد أن أعرف ماذا تريدون منى ؟

قالوا : « معلهش » اتفضل « استريح » على الكرسى . . واشرب كوب ماء . . لكى تهدأ . .

قلت : أنا « هادى » . . . والحمد لله . .

قالوا : طيب . . « خد دخن سيجارة » . .

قلت : متشكر . .

حدث ذلك من غير أن يتحدث أى منهم معى فى أى شىء . .

وأخرجوا لى ورقة كبيرة ، فى شكل اللوحة ، معد عليها رسم هندسى ، وسألنى أحدهم :

ما هذا الرسم ؟

قلت : حظيرة من حظائر الطائرات التى تقوم شركة المقاولين العرب بتصميمها وتنفيذها . .

قالوا : هل أنت متأكد من كلامك . .

قلت : نعم

قلت هل تعرف مهندس اسمه محمد متولى منذور

قلت : نعم أعرفه . . فهو مهندس فى الشركة . . كان والده يعمل معى كهربائيا وعلمه فى كلية الهندسة ، وسافر والده الى السعودية ، ليعمل فى أعمالى هناك لمساعدته على التعليم . . وعندما تخرج انضم الى فريق المقاولون العرب .

قال : إن هذا المهندس أخذ هذا الرسم ، وسلمه للمخابرات الاسرائيلية .

وفى تلك اللحظة فقط فهمت لماذا أتوا بى الى ذلك المكان . .

وارتحت نفسيا بعد أن عرفت أننى جئت بسبب تهمة . . تلحق بغيرى . .

وقلت : أنا معكم فى أن هذا المهندس سلم الرسم للمخابرات الاسرائيلية . . ولكن ما هى الجريمة التى ارتكبها عثمان أحمد عثمان ؟ . . وهل يسأل إنسان عما فعله إنسان آخر ؟ . . ثم هل عندى جهاز مخابرات مثل جهازكم أتعقب به كل إنسان لأعرف تصرفاته فى كل مكان . . أنا مسئول فقط عن أداء العاملين معى فى موقع العمل . . ولكن كل ما هو خارج عن ذلك فهو يخرج عن مسئوليتى . ليقع فى مسئولية غيرى أيا كان نوع هذه المسئولية . .

قال : أردنا أن نسألك عنه ؟ .

قلت : هل هذه هى الطريقة التى يسأل بها عثمان أحمد عثمان . .

إذا أردتم سؤالى فبامكانكم الاتصال تليفونيا بى . . وسأحضر فى المكان والزمان الذى تحددونه . . ولم يكن هناك أى داع لما حدث وتساءلت . .

ثم إلى اين سأذهب منكم ؟ . . واين المكان الذى لا يقع تحت أعينكم ، ويمكن أن يخفينى عنكم ؟ . .

أليست هناك طريقة أخرى ؟ وألم تجدوا طريقة لمعاملتى غير الطريقة التى عاملتمونى بها ، منذ استدعائى وحتى الآن ؟ وهل الأمر الذى استدعيت من أجله أخطر من الأمر الذى كنت اعقد مجلس الادارة ، الذى تركته من أجله ؟

قال : إن من ذهب الى استدعائك اخطأ الوسيلة . .

قلت : كثيرا ما اتصل بى أمين هويدى تليفونيا . . وكان بامكانه أن يتصل بى . . ليستفسر منى عما تريدونه . . أم أنكم تفهمون أننى طلبت من هذا المهندس تسليم الرسم للمخابرات الاسرائيلية ؟

قال : أنت مسئول عنه . .

قلت : ولكننى لست رقيبا عليه . . وهو الذى يعلل لماذا فعل ذلك ؟ وكيف فعله ؟ . .

وكانت تلك الواقعة سببا فى أن أجد إجابة لسؤال كثيرا ما حيرنى ، وكنت حتى تلك اللحظة ما ازال أبحث له عن إجابة :

لماذا هزمنا سنة ١٩٦٧ ؟

وفهمت من الطريقة التى استدعيت بها . . كيف يهون أمر الرجال . . فيهون عليهم كل شىء حتى بلدهم . . بعد أن هان أمرهم على المسئولين فيها . . والقائمين على أمرها فأداروا ظهورهم لها . . فوقعت الكارثة . .

وكان حتى تلك اللحظة . . لا أحد يعرف أين أنا ؟

سواء من الشركة أو من بيتى . .

وعندما طال تأخيرى ، انزعجت زوجتى ، فاتصلت بالرئيس السادات ، وكان وقتها نائبا للرئيس ، وابلغته بأمر ما حدث معى فى

الصباح ، عندما استدعونى بتلك الطـريقة مـن الشركة . . وأننى لم أعد حتى لحظة الاتصال . .

وتدخل الرئيس السادات ، واتصل بهم ، وبسيدهم الذى طلب منهـم تنفيذ تلك المسرحية مع عثمان أحمد عثمان ، والتى لا أفهم لها سببا حتى الآن . .

وأنقذنى الرئيس السادات من كارثة محققة ، حيث كان من السـهل جدا أن تكون تلك الواقعة التى لا ذنب لى فيهـا سـببا يحتمـون وراءه ويضعوننى فى مكان ما وراء الشمس ، دون أن يدرى عنى أحد أى شىء ، كما حدث للكثيرين الأبرياء غيرى . .

وعرفت فيما بعد أن الرئيس السادات قال لهم : إذا كنتم لا تعـرفون ما يقدمه هذا الرجل لبلده فى كل مجالات الانشـاء والتشـييد . . فلكم أن تعرفوا أننا يمكن أن نشك فى أنه يتآمر مـع السـعودية أو الكويت ، إذا حدث منه ذلك . . ولكن كونه يتآمر مع إسرائيل مهما كانت الأسـباب . . فذلك هو الأمر المرفوض ، الذى لا يمكن أن نتصـوره مـع رجـل له مثل ظروف عثمان أحمد عثمان . .

وكانت الاتصالات التى أجـراها الرئيس السـادات ، سـببا فى أن يفرجوا عنى فى الساعة الحادية عشرة مسـاء . . أى بعـد اثنتى عشرة ساعة كاملة . .

ولكنهم طلبوا منى ألا أقول لأى أحد شيئا عما حـدث معـى . . وأن أحضر مرة أخرى فى الساعة العـاشرة مـن صـباح اليوم التالى ، لكى يستكملوا التحقيق معى . .

وكان أن عدت إليهم مرة أخـرى فى الموعد الذى حـددوه لى ، لأجـد عندهم المهندس المتهم فسألته :

هل فعلت ما قالوا عنه ؟

قال : نعم

قلت له : ولماذا فعلت ؟

قال : غلطة

قلت له : كيف حدثت ؟

قـــال : التقيت ببعض الألمان الذين عرضـــوا على عملية كبيرة ، وسألونى عن سابق خبرتى الهندسية . . واجبتهم بأننى أعمــل فى تنفيذ دشم الطائرات وقواعد الصواريخ . . فطلبوا منى أحد رســوماتها ، لكى يتعرفوا على كفاءتى ، من خــلالها . . فــأعطيتهم الرســم ولا أعرف أنه سيصل الى يد المخابرات الاسرائيلية . .

وعندما سألته عما إذا كان يريد أن يعمل فى ألمانيا . . فلماذا لم يقــل لى ؟

اجابنى بأنه خشى اعتراضى وعدم موافقتى ، خاصة أن المرتب الذى اغروه به كان يعادل ثمانمائة جنيه مصرى . . ولم يكن يعرف أنهــم مــن المخابرات الاسرائيلية .

دار ذلك الحوار بينى وبين المهندس ، أمام رجال المخــابرات ، الذين لم يكتفوا بتلك المواجهة بينى وبينه . . ولكنهم سألوه عن رأيه فى عثمـــان أحمد عثمان :

فقال لهم : من انظف من تعاملت معهم فى حياتى وليست له أية صلة أو أننى علم بتصرفاتى . .

وهنا سألتهم أنا فى تلك المرة :

هل : انتهت مهمتى ؟

فحاولوا الاعتذار لى على طــريقتهم المعــروفة . . وراحــوا يبررون ما حدث عن عمد . . على أنه سوء تصرف ليس أكثر . .

وطوال ذلك الوقت منذ إلقاء القبض على ، وحتى لحــظة اعتذارهــم عما بدا لى منهم ، لم أر أمين هويدى ، الذى أمر بكل ما حدث ، بتعليمات من سيده النظام الحاكم ، لأنه لا يجرؤ على أن يفعل ذلك معى أنا بالذات إلا بعد الرجوع إليه . .

وأثناء خروجى من الغرفة التى كنت أستجوب فيهــا ، وجــدت أمين

هويدى يقف أمام بابهـا ، ليسـألنى عمـا إذا كنت مـا أزال متأثرا بما حدث . .

ولم أتردد فى أن أقول له بمنتهى الأسى :

الآن فقط عرفت لماذا هزمت مصر فى ١٩٦٧ . .

واشكرك لانك كنت سببا فى أن أجد إجابة لهذا السؤال الذى حيرنى كثيرا . . وانصرفت . .

* * *

ولكن يشاء القدر . . أن اكتشف أن لذلك السـؤال نصـفا آخـر مـن الاجابة ، تدور وقائعه مع الروس . . عندما اكتشفت أن مـا كان فى مصر استعمار روسى وليس خبراء روس . .

وكان ذلك الاستعمار صاحب مصلحة فى أن تهزم مصر فى ١٩٦٧ . . وأن تظل فى نكبتها ، حتى تظل فى حاجة اليه ، ليواصل تخريب كل ما هو طيب من خلال عملائه . .

وكان أن اصطدمت مع الروس مرتين . . مـرة فى السـد العـالى . . ومرة خلال ما كنا نقوم بتنفيذه من منشآت عسكرية وفى كل مرة كانت لى معهم اكثر من قصة . .

فماذا عن المرة الأخيرة ؟

الشيخ «تى . . يو» الروسى

فى أوائل عام ١٩٧٠ كان الرئيس السـادات نائبا لرئيس الجمهورية ، واستدعانى فى صـباح يوم فى السـاعة السـابعة تمـاما ، وتوجهت على الفور ، لأنه لم تكن تلك هى عادته عندما كان يستدعينى . .

وعندما وصلت وجدته ينتظـرنى فى حـديقة المنزل ليقـول لى : إننى استدعيتك الآن لأمر هام يتعلق بقواتنا المسلحة . .

وقبل أن أسأل الرئيس عن ذلك الامر وجدته يقول لى :

عندنا ٢٦ طـائرة «تى . . يو» وأن هـذه الطـائرات تمثل هـدفا استراتيجيا لاسرائيل ، لذلك فهى تريد تحطيمها بأى ثمـن . . ونريد أن

ننشىء لها حظائر بأسرع ما يمكن . . وأمتن ما يمكن . .

وسألت الرئيس عن مكانها بقصد معرفة مقاساتها ، لكى نقيم لها الحظائر المناسبة

وأجاب الرئيس : بأنها فى السودان حيث تم نقلها الى هناك ، لأن طائرات اسرائيل تستطيع ان تنالها فى أى مكان من عمق مصر . .

إلى ذلك الحد كانت سماء مصر مفتوحة ، قبل أن نقيم فيها قواعد سد الصواريخ فى مواجهة طيران إسرائيل . .

وكان فى ذلك الوقت الفريق أول محمد فوزى وزيرا للحربية ، والفريق محمد أحمد صادق رئيسا للأركان . .

واتصل الرئيس السادات تليفونيا بوزير الحربية ، ولم يجده فى مكتبه . . ثم اتصل بعد ذلك برئيس الأركان ، وتحدث معه فى ذلك الأمر ، وطلب منى أن اذهب اليه فى مكتبه .

وذهبت وكان معى كل من الدكتور أحمد محرم ، والدكتور ميشيل باخوم أصحاب مكتب استشارى للاستشارات الهندسية ، قام مكتبهما باعداد العديد من تصميمات مختلف المشروعات التى قامت المقاولون العرب بتنفيذها . .

وبعد ما استقبلنا الفريق صادق فى مكتبه ، بمنشية البكرى . .

سألته عما إذا كانت توجد للطائرة رسومات ، نستطيع أن نحصل منها على مقاساتها فأجاب بالنفى

وهنا قلت له : لابد أن نعاين الطائرة على الواقع أو أن نعرف مقاساتها ، قبل أن نعد تصميمات الحظائر المطلوبة . . والطائرة فى السودان . . ورسوماتها غير موجودة . . ولا بد من حل . .

قال : « بسيطة » وليست هناك مشكلة .

قلت : كيف ؟

قال : توجد نفس الطائرة فى مطار غرب القاهرة العسكرى ، ضمن الطائرات الروسية الموجودة عندنا . . وسأسهل لكم مهمة الذهاب الى

هناك ، لكى تحصلوا على المقاسات التى تحتاجونها ، لاعداد التصـميم اللازم الذى سيتم التنفيذ على أساسه . .

واتفقنا على أن نذهب صباح اليوم التالى الى مطار غرب القاهرة ، ومعنا ثلاثة مـن كبار الضـباط ، الذين حضروا معنا مقـابلة رئيس الأركان . .

واتفقنا على أن نلتقى جميعا أمام بوابة المطار فى الساعة العـاشرة من صباح اليوم التالى .

وعندما ذهبنا ، وجدنا سلكا شائكا فتحت فيه بوابة ، فى مـكان بعيد جدا عن موقع المطار . .

ووجـدنا أمـام تلك البوابة الضـباط المصريين الكبار الثلاثة . . وبادرتهم قائلا :

هيا بنا لكى ننجز المهمة . .

وكانت المفاجأة . .

ممنوع على المصريين مهمـا كانوا دخـول مـطار غرب القـاهرة العسكرى الذى يتمركز فيه الروس ، ويتخذون منه قاعدة عسكرية لهـم داخل مصر . .

هكذا قال لى الضباط الكبار . .

وهذا ما قالته لهم : السلطات الروسية داخل المطار . .

وتغيرت . . ولفتنى دوامة من الفكر ليس لهـا آخـر . . وبينمـا كان عقلى فى واد ، ولسانى فى واد آخر قلت :

ولكن أمر دخولنا الى المطار صادر من وزير الحربية ، والقائد العام للقوات المسلحة قال الضباط والحسرة تمزقهم :

حاولنا حل المشكلة قبل وصـولكم حتى لا نصـدمكم بتلك الحقيقـة المرة . . ولكن الروس أصروا على منعنا من الدخـول . . بل والأكثر مـن ذلك رفضوا حتى مجرد التفاهم معنا . .

فى تلك اللحظة شعرت بدوار . . لم أصدق . . ولم أتصور . . ومع دوار

راسى ، دار شريط الافـــكار . . وعادت الى ذاكرتى ، نكريات الجيش الانجليزى الذى كانت له فى الاسماعيلية معسكرات كان يمنع علينا نحن أبناء مصر دخولها . .

وكان ما رأيته من واقع مر على نفسى ، لم يصدقه عقلى . . إلا أن تلك هى الحقيقة مهما كانت إرادتى . .

وحاولت حبس مشاعرى . . وحاولت أن أخـرج مــن الجـو النفسى الكئيب ، الذى ملك على كل وجدانى ، والأفكار التى ملأت رأسى . . ولكن الشىء الوحيد الذى لم أستطع حبسه . . دمعة سالت على خـدى دون أن أدرى . . حاولت مــداراتها متظــاهرا بأن نرة رمــال دخلت فى عينى . . وأخرجت منديلا لأزيلها من فوق وجهى . . ولكننى لم أستطع إزالة كومة الحزن التى ملأت قلبى ، الى أن أزالها الرئيس السادات ، عندما أصدر قرار طرد الخبراء الروس من مصر قبيل حرب أكتوبر . .

ورغم المحاولات التى بذلها الضباط المصريون ، للمرة الثانية إلا ان الرد كان خالصا . . ممنوع . .

واضطررنا الى العودة مرة أخرى ، بعد أن منعنا الغرباء من دخــول أحد بيوتنا التى كان لا ينبغى أن يتصرفوا فيهــا ، إلا باذننا . . منتهــى المهانة الوطنية . . أن نســتأذن الغــرباء فى دخــول بيوتنا . . وياليتهــم سمحوا . .

وعدنا الى مكتب الدكتور أحمد محرم بميدان التحرير ، وبصــحبتنا الضباط الثلاثة الذين قاموا باجراء عدد من الاتصالات المكثفة ، برئيس الأركان ووزير الحربية . . كانت نتيجتها ، أن قيل لنا عودوا مرة أخرى ، الى المطار وسوف يسمح لكم فى هذه المرة بالدخول . .

وفهمت مما دار من اتصالات أن وزير الحــربية اتصــل بالروس . . ولا أستبعد أن يكون الأمر قد وصل الى مــوسكو ، قبل أن نحصــل على الاذن بدخول المطار . .

وكانت فى انتظارنا مفاجأة أخرى . .

عندما عدنا وسمحوا لنا بدخول المطــار ، وجــدنا تعليمــات واضــحة

وصريحة تم إبلاغها لأحد مرافقينا من كِبار الضباط المصريين . .

قال الروس : مسموح لنا فقط برؤية الطـائرة ـ وغير مسـموح لنا بالاقتراب منها . . أو لمسها . !

وكأنها ضريح الشـيخ « تى ـ يو » المبروك . . ذهبنا لكى نلتمس منه البركة . . ونقرأ له الفاتحة . . وفاء لنذر لله وثوابه لذلك الشيخ . .

منتهى الحسرة . . والألم . .

وكان أن حاولت من جانبى أن أقنع الروس ، فى المطار بأننا نريد أن نعرف مقاسات الطائرة ، من حيث ارتفاعاتها وطـولها وعرضـها ، لكى نجهز لهـا الحـظيرة التى تناسـبها ، حتى نقيهـا شر غارات الطيران الاسرائيلى . . ولكن دون جدوى . .

وكان علينا أن نتصرف . . ونتخيل مـن مجـرد المشـاهدة . . مـع الاستعانة بعلم الفلك . !

كان معنى ذلك أننا لن نسـتطيع تجهيز الحـظائر اللازمـة لوقـاية طائراتنا ، وحمايتها وإعادتها من السـودان . لتكون تحـت يد قـواتنا ، تستخدمها متى تريد طبقا لمقتضيات المواجهة مع اسرائيل . .

وكان لابد أن نبحث عن حل . .

وأنقذ الموقف أحد كبار الضباط المصريين الذين كانوا معنا عندمـا قال :

إنهم جهلاء . . لا يفهمون شـيئا . . دون أن يدروا أنهـم مغفلون . . تعالوا بنا لكى تروا الطـائرة . . ليكون هيكلهـا على الأقـل مـاثلا فى أذهانكم ، أثناء إعداد الرسومات الهندسية اللازمة للحظائر .

وقال :

أما المقاسات فسوف أحضرهـا لكم . . إن رسـم هـذه الطـائرة ، ومقاساتها بمنتهى الدقـة مـوجودة فى مجـلات عسـكرية علمية متخصصة . . وإن هذه المجلات موجودة عندى فى بيتى . . إن ما يعتبرونه سرا كبيرا ، منشـور ليس فى تقـارير سرية فقـط ، ولكن فى مجـلات

عسكرية . . ولو كانوا مثقفين لقرأوا على الأقل ما هو مكتوب عنهم . .

وكان أن قلت له : ولماذا لم تقل لنا من البداية ،؟ . . كنت أرحتنا . . ليس مما لاقيناه بسبب رفضهم ، ولكن بسبب المعاناة النفسية التى لحقت بنا . .

فقال : أردنا أن تروا كل شىء على الطبيعة . . ولكن . . ولم يكمل الضابط الجملة ولكن كان ما فى نفسه واضحا لا يحتاج الى تفسير . . !

وفعلا بعد أن زرنا الشيخ « تى ـ يو » عدنا وعاد الضابط المهندس الى بيته ، واحضر المجلة ، ووجدنا فيها رسما تفصيليا للطائرة ، ومقاساتها الدقيقة . .

وبناء على المعلومات التى وجدناها بالمجلة قمنا باعداد الرسومات المطلوبة ، وتنفيذ الحظائر . .

وكانت تلك الواقعة سببا فى أن يدور فى عقلى سؤال محير كبير :

إذا كان الروس قد أتوا إلى بلادنا لكى يساعدونا . . فكيف يحدث منهم ، ما لا مبرر له ، الا إنهم يقفون فى وجه استكمالنا لاستعداداتنا العسكرية ، ويعطلون ما من شأنه رفع الكفاءة القتالية لقواتنا . . عندما تكون طائراتها فى متناول يدها لتؤدى دورها ، بدلا من وجودها بعيدا عن أرض المعركة ؟

* * *

الوزير ممنوع

منعت فى المرة السابقة من دخول قاعدة عسكرية مصرية سيطر عليها الروس وكان فى صحبتى بعض كبار الضباط . .

ولكن فى تلك المرة منعت من دخول قاعدة عسكرية مصرية ، وكان معى وزير الحربية نفسه . . ومنعوه هو أيضا من الدخول . .

اتصل بى ذات يوم فى مكتبى بالمقاولون العرب ، الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية فى ذلك الوقت ، يطلب منى التواجد صباح اليوم التالى فى تمام الساعة التاسعة صباحا ، بمطار شرق القاهرة العسكرى . .

وذهبت فى الموعد المحدد ، لأجد وزير الحربية ، ومعه قائد سلاح المهندسين المصريين ، وعدد من كبار ضباط القوات المسلحة . . وكان معهم كبير الخبراء الروس فى مصر . . وكان حجم رأسه ، يمثل ثلاثة أرباع حجم جسمه تقريبا . . كان صورة طبق الأصل من الخبير الذى التقيت به فى السد العالى . .

واقلعت بنا طائرة أنتينوف مزعجة . . وصلت الى مطار أسوان بعد ساعتين من إقلاعها . .

وكانت المفاجأة . .

سمحوا للطائرة بالهبوط . . ولكن سلطات المطار الروسية ، رفضت السماح بأن ينزل من الطائرة أى من ركابها ، بما فيهم وزير الحربية المصرى . .

وبذل العديد من المحاولات . . إلا ان التعليمات كانت واضحة وصريحة . . ممنوع نزول المصريين فى مطار أسوان وعلى رأسهم وزير الحربية . .

ولم يكن أمام الطائرة إلا أن تقلع من المطار تنفيذا للتوجيهات الروسية ، دون أن يسمحوا لوزير الحربية بالنزول فيه . . واتجهت الطائرة الى مطار « دراو » حيث هو المطار المسموح لنا بالنزول فيه . . كما قالوا لنا . .

ولم يعلق وزير الحربية بشىء . . كان مغلوبا هو بدوره ـ مثلنا . على أمره . .

ترى هل هناك تفسير لرفض الروس نزول وزير الحربية فى أحد المطارات المصرية ، إلا ان التواجد الروسى فى مصر ، أخذ صورة الاستعمار الذى يتخذ لنفسه قواعد عسكرية . . وليس كما كانوا يقولون لنا إنهم : خبراء أو مستشارون .

هناك قصص كثيرة . . ولكن أردت فقط أن أروى القصص الصارخة ، لكى يعرف أبنائى الشباب قيمة قرار أنور السادات بطرد الخبراء الروس . .

فمثلا . . عندما كنا نقوم ببناء قاعدة صواريخ من القواعد التى كانت تخصص لهم ـ فور الانتهاء من العمل واستلامهم القاعدة ـ كانوا يمنعون أبناءنا فى المقاولين العرب من دخول القاعدة التى بنوها بأيديهم ، لكى يأخذوا منها ما تبقى لهم فيها من معدات . . وحتى المعدات كان يستولى الروس عليها ولا يعيدونها لنا ، رغم تدخل ضباط القوات المسلحة فى كثير من الأحيان . .

قصة أخرى :

ذات مرة اتصل بى الفريق أول محمد أحمد صادق ، عندما كان وزيرا للحربية ، يطلب منى السفر معه الى مرسى مطروح ، لانجاز مهمة إنشاءات حربية كلفت بها الشركة هناك .

ووقفنا فى أحد المواقع هناك نتبادل الحديث حول . . ما هو مطلوب وكيفية تنفيذه . . وإذ بطائرة هليوكوبتر تهبط على مقربة منا . . وعندما سألنا عن هويتها ، عرفنا أنها روسية . .

وتساءل وزير الحربية . . عن السبب الذى جاءت من أجله؟

خاصة أن المتواجد فى الموقع وزير الحربية شخصيا . . لذلك أمر أحد مساعديه بأن يتوجه الى حيث هبطت الطائرة لكى يعرف ماذا جاء بها وما هى طبيعة مهمتها ؟

وقبل أن يصل الضابط اليها . . أدارت محركاتها ، وطارت الى حيث لا نعرف . .

ترى ماذا يمكن أن نفهم من تلك الواقعة . . ؟

لم أرد من تناول تلك الوقائع الثلاث التى ما يزال أغلب شهودها أحياء يرزقون ، إلا أن يفهم الشعب ، وخاصة الشباب ، المعنى الكبير الذى يستتر خلف قرار الرئيس السادات بطرد الخبراء الروس الذين لم يكونوا خبراء يقدمون المشورة ، ولكنهم كانوا مستعمرين يفرضون الرأى . .

ولم يكن فى مصر سبعة عشر الف خبير كما قالوا . . ولكن كان فى

مصر سبعة عشر ألف مستعمر روسى تسلطوا على القوات المسلحة المصرية ، بعد أن كان الروس قد تسلطوا من قبل على الشعب ، بأفكارهم عن طريق عملائهم . .

انتهى الاستعمار الروسى

ولأننى رأيت بعينى ، وسمعت بأذنى ، وفهمت بعقلى فان طرد الخبراء الروس من مصر حقق ثلاثة أهداف قومية كبيرة ، ولم يكن مجرد قرار طرد خبراء . .

يتمثل أول تلك الأهداف . . فى إزاحة استعمار بكل ما لهذه الكلمة من معنى . . استعمار له قواعد ، وقوات ، ومعدات على أرض مصر . .

وثانى تلك الأهداف . . أن فضل الانتصار فى حرب اكتوبر أصبح خالصا لقواتنا المسلحة ولأبناء مصر ، دون أن ينسب لأحد معهم . . ولو ظل الروس فى مصر لكان قد نسب الفضل الأول فى الانتصار لهم . .

ويتقدم تلك الأهداف الثلاثة أننا لو كنا قد حاربنا ، والروس معنا ، بالشكل الذى رأيته ، كان لا يمكن أن ننتصر ، مهما كانت الأسباب ، لأن إرادتهم كانت تعمل ضد الاتجاه الذى كنا نتحرك فيه . . والا فبماذا يمكن أن نفسر عدم سماحهم لنا بدخول مطار غرب القاهرة ، والحصول على المعلومات اللازمة ، لاعداد رسومات حظائر الطائرات ؟

وهنا تبدو بوضوح ، لكل من لا يعرف كل تلك الأبعاد . . قوة زعامة السادات . . وبعد نظره . . والاعتبارات التى وضعها فى ذهنه ، وهو يتخذ ذلك القرار التاريخى الذى خفف من صدمته على الشعب . . فسماه قرار طرد الخبراء . . ولم يقل طرد الاستعمار الروسى من مصر

* * *

المقاولون العرب ..

فى معديات العبور

وبدأ بعد طرد الخبراء الروس من مصر فصل جديد من قصة المقاولون العرب مع القوات المسلحة ..

ويعتبر ذلك الفصل من أروع فصول تلك الملحمة الوطنية الرائعة للمقاولين العرب ..

ذات يوم اتصل بى قائد سلاح المهندسين ، فى القوات المسلحة المصرية ، وطلب منى أن تقوم ورش الشركة فى شبرا بتصنيع معدية حمولتها دبابة ، أو دبابتين ، على الأكثر بحيث يتم تزويد العوامة بطلمبة تضخ الماء بقوة دفع شديدة جدا ..

وعندما سألته عن سبب أن تحمل المعديات دبابات ، وأن تزود بطلمبة فى وقت واحد ..

أوضحوا لى عن أن الطلمبة ستقوم بفتح الثغرات فى الساتر الترابى ، الذى أقامه الاسرائيليون ، على الضفة الشرقية للقناة ، بطول وعرض وارتفاع وعمق ، أجمع خبراء العالم ، على أن إزالته ، أو فتح ثغرة فيه ، لا يمكن أن تتم إلا بقنبلة ذرية .. ومع أن ذلك هو الحل الوحيد .. إلا إنه غير ممكن ..

واهتدى العقل المصرى ، إلى ما فات عقول جميع خبراء العالم بما فيهم الروس ، وعثر على طريقة بسيطة .. جدا ، يمكن استخدامها كبديل للتفجير النووى غير الممكن ..

وتتلخص تلك الطريقة فى معديات تحمل طلمبات ، وتعبر القناة الى الضفة الشرقية .. وتقوم الطلمبات بسحب الماء من القناة ، وتدفعه بقوة دفع كبيرة جدا فى اتجاه الساتر الترابى ، لكى تحدث فيه ثغرة ، تفرد فى مواجهتها الكبارى ، التى ستتدفق مصفحاتنا ومجنزراتنا وآلياتنا عبرها ، الى الضفة الشرقية لقناة السويس ، عندما تبدأ معركة تحرير الأرض ..

وفى الوقت الذى تقوم فيه الطلمبات بمهمة فتح الثغرات فى الساتر الترابى ، تقوم قواتنا من المشاة بعبور القناة ، مستخدمة قوارب المطاط ، وتعتلى الساتر الترابى ، وتتعامل مع قوات العدو المتمركزة فى خط بارليف ، للاستيلاء عليه . .

وتحتاج قواتنا من المشاة الى دعم سريع لها من قوات المدرعات ، لكى تستعد لمواجهة ما قد يدفعه العدو من قوات احتياطية من المدرعات فى العمق ، لمساندة قواته فى النقط الحصينة . . ولكى يتحقق ذلك الدعم السريع ، فان قواتنا المسلحة ، رأت أن تحمل المعدية بالاضافة الى الطلمبة ، دبابة أو دبابتين لبدء اقتحام خط بارليف بالمدرعات ، فور فتح الثغرة فى الساتر الترابى ، ليبدأ الدعم السريع لمشاتنا

وبدأت على الفور ، بعدما استمعت الى ذلك الشرح ، فى تنفيذ ما طلبته منى القوات المسلحة فى ورش المقاولون العرب فى شبرا . .

واصطحبت معى قائد سلاح المهندسين الى ورشنا الضخمة فى شبرا . . ورأى الرجل على الطبيعة كل شىء . . وقلت له . .

إن كل ما نستطيعه من إمكانيات ، وكل ما لدينا من مهندسين وفنيين ، فى تلك الورش وفى غيرها ، من الكفاءات اللازمة لمثل هذا العمل ، ستكون تحت تصرف القوات المسلحة فى كل ما تريدونه . . ولكم أن تأتوا من الآن ، بتصميماتكم التى تريدون تنفيذها ، ومهندسيكم الذين سيقومون بالاشراف على التنفيذ ، طبقا للمواصفات التى تحددونها .

وكان أن بدأ العمل ، وتم تصنيع المعدية ، بالمواصفاتالمطلوبة . .

وكان سلاح المهندسين ، قد اتخذ من ترعة بجوار القناطر الخيرية ، بالقرب من ورشنا فى شبرا ، مكانا لاجراء التجارب اللازمة ، على تلك المعدية . .

ولتنفيذ المهمة . . قاموا بانشاء ساتر ترابى هائل ، فوق إحدى ضفتيها ، بنفس المواصفات الموجودة فى الساتر الترابى الذى أقامه الاسرائيليون ، على الضفة الشرقية لقناة السويس .

واستمر سلاح المهندسين فى إجراء التجارب ، وإجـراء التعـديلات اللازمة على تلك المعدية فى ضوء ما تسـفر عنه التجـارب مـن نتائج . . واستمرت تلك التجارب لمدة سنة تقريبا ، والى ما قبل المعـركة بحـوالى ٢٥ يوما . .

وخلال نلك العام نجحوا فى تصنيع عشر وحدات فقط ، بالمواصفات التى يريدونها وبالكفاءة التى يطلبونها . .

ولم نكن نعرف ، أن هناك معركة ، على وشك أن تبدأ . .

وذات يوم كنت أجلس فى مكتبى بالمقاولون العـرب ، وزارنى اللواء مهندس جمال محمد على ، قائد سلاح المهندسين وقال لى :

المعدية ممتازة جدا . . ونريد أن نصـنع سـبع وحـدات أخـرى ، بالاضافة الى المعديات التى تم تصنيعها . .

وقلت له : إن أى عدد تريده قواتنا المسلحة مـن هـذه المعـديات . . ورشنا جاهزة لتصنيعه . .

وكنت اتصور أن المسألة ستحتاج الى وقت مثلمـا حـدث بالنسـبة للعشر معديات . .

ولكنه فأجانى بأنهم يريدونها ، خلال خمسة وعشرين يوما فقط . .

واستغربت ما طلبه منى . . واندهشت وأنا أقول له :

إن العشر معديات استغرق تصنيعها حوالى سنة ، فكيف نسـتطيع تصنيع سبع فى ثلاثة أسابيع . .

وحاول إقناعى وهو يقول :

إن المعديات العشرة استغرق تصـنيعها كل هـذا الوقـت ، بسـبب التجارب التى اجريت عليها ، الى أن وصلنا الى المعدية ذات المواصفات المطلوبة ، والكفـاءة اللازمـة . . لذلك فـان إنتاج الأعداد اللازمـة لن يستغرق وقتا طويلا ، لأن تصنيعها سـيتم طبقـا لآخـر مـواصفات تم التوصل إليها . .

وقلت له : ولكن الخمسة والعشرين يوما غير كافية . .

ولكن الرجل أصر إصرارا لا حدود له . . وبشكل غير عادى لم أتعوده فيه من قبل . . وكأنه كاد أن يرجونى . .

واستغربت كثيرا من شدة الحاجة . . وحاولت أن أفهم منه السبب . . ولكن الرجل كان لا يستطيع أن يفصح عن السر . .

فهو يعرف أن الوقت قد حان ، وهناك ضرورة ملحة لتحديد ذلك الموعد . . ولكنه لا يستطيع أن يفصح . .

أو ربما أن تعليمات مشددة صدرت له بضرورة الانتهاء من ذلك العمل فى ذلك التوقيت ولا يملك إلا أن ينفذ ، طبقا لما هو معروف فى التقاليد العسكرية . .

وراح يحدثنى عن الوطنية . . والمعركة . . والبلد . . والظروف . .

ومع ذلك فاننى لم أفهم سر ذلك الاستعجال ، خاصة أنه ليست هناك أية مؤشرات تدل على اننا سنحارب فى ذلك الوقت . . ولكن أمام إصراره الشديد ، لم أجد أمامى إلا أن أوافقه ، واصطحبته معى الى ورشنا بشبرا مرة أخرى ، لندرس على الطبيعة إمكانية تحقيق رغبته التى يصر عليها . .

وعقدت اجتماعا لجميع المسئولين فى ورشنا ، وطلبت منهم أن يتركوا أى عمل فى أيديهم مهما كان ، وان يتفرغوا تماما لتصنيع ذلك العدد المطلوب من المعديات فى الوقت الذى حدده اللواء جمال محمد على . . مهما كلفهم ذلك من جهد ، أو مواصلة الليل بالنهار . .

وللحقيقة فان رجال المقاولون العرب . . إذا وعدوا أوفوا . . وعلمتهم التجربة ، التى خاضوها فى كل ما قامت به الشركة من مهام ، الا يعرفوا شيئا اسمه المستحيل . . وعلمتهم الأيام القاسية التى عشناها ، أن التصميم والعزم ، لا يعرف العوائق والمصاعب ، مهما كانت ، لذلك قاموا بتنفيذ المهمة ، فى ذلك التوقيت القياسى بكل معدلات الأداء . .

وكانت القوات المسلحة قد استوردت الطلمبات ، التى تم تركيبها على المعديات ، عن طريق إحدى الوزارات من ألمانيا الغربية ، على اعتبار أنها طلمبات إطفاء حريق . .

وكان حجم الطلمبة صغيرا جدا . . ولكن قوة اندفاع الماء وصلت بالتجارب الى حد اختراق الحوائط ، ولذلك سميت فيما بعد . . « مدافع الماء »

وبعد أن انتهى رجالنا من تحقيق المهمة الموكولة إليهم ، قمنا بتسليم المعديات للقوات المسلحة .

وذهبت بعدها بأيام قليلة ، الى استراحتى بالحرانية بالجيزة . . وكان يعمل معى ساع اسمه محمود طلبه ، كان مجندا بالقوات المسلحة ، وخرج على قوة الاحتياط قال لى عندما رآنى :

إننى مطلوب فى الجيش .

فقلت له : اذهب يا محمود . . إنه استدعاء عادى كأى استدعاء للاحتياط . . وستعود بعد فترة الاستدعاء مباشرة . .

تصورت أنه استدعاء عادى ، لأنه لم تكن هناك أية دلائل من قريب ، ولا من بعيد . .

وذهب محمود طلبه الى وحدته . . وعاد بعد يومين ليقول لى : انهم أنهوا استدعاءه .

وأكد ما حدث مع محمود طلبه صدق ما تصورته . . ، ولم أكن أعرف أن ما حدث مع محمود طلبه ، حدث مع عشرات الآلاف غيره ، كجزء من خطة الخداع التى وضعتها القوات المسلحة ، للتمويه على إسرائيل ، حتى نتمكن من تحقيق المفاجأة الكاملة عليها فى المعركة . .

وذهبت الى مكتبى فى المقاولون العرب صباح اليوم التالى ، وحوالى الساعة الثانية بعد ظهر السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ . . دخل إلى المكتب أحد المهندسين من أبناء الشركة ليقول لى إن الحرب قد بدأت . .

واندهشت : لأن كل شىء كان على ما يرام . . ولم يشعر أى أحد بأية إشارة ، أو تلميح بأن عملا من هذا القبيل سوف يتم فى ذلك الوقت . .

وخشيت أن تكون اسرائيل قد داهمتنا مرة أخرى . .

ولكن طمأنتنى البيانات العسكرية ، التى توالت بعد ذلك ، تحمل أخبار انتصارات قواتنا المسلحة ، التى أذهلت العالم كله . .

وعدت الى الحرانية لأقول لمحمـود طلبه « وشـك حلو على الجيش يا محمود » . . ذهبت وعدت . . والجيش عبر . .

وعبرت معـه مصر ، والأمـة العـربية كلهـــا محيط اليأس الى بر الرجاء . .

وكانت آخر مرة التقيت فيها مع الرئيس الســادات قبل المعـركة فى الخامس عشر من سبتمبر ١٩٧٣ . . كان كل حديثه وقتها عن المعركة . . والتقيت به بعد ذلك فى ٢٨ اكتوبر . . اى بعدها بحوالى أربعين يومـا . . كان حديثه مختلفا . .

كان حديثه عن التعمير . . عن فصل جديد مـن حياة مصر كلهـا . . شرفنى الرئيس بأن أكون الفاتحة فيه . .

ولكن خلال الفترة ما بين الخـامس عشر مـن سـبتمبر والثامـن والعشرين من اكتوبر ، كنت قد التقيت بالمشير أحمد اسماعيل ـ رحمـه الله ـ ليكلفنى بدور كان مقدرا للمقاولين العرب أن تقـوم به ، فى منطقـة « الدفرسوار » التى حدثت فيها الثغـرة ، ولكن ذلك الدور لم يتم . . وكان الفريق سعد الشاذلى هو السبب . .

وكان الشاذلى هو السبب

كانت العمليات الحربية قد بدأت ، فقط ظهر الســادس مـن اكتوبر سنة ١٩٧٣ ، وعبرت قواتنا الى الضفة الشرقية للقناة بكامل معـداتها ، واقامت رؤوس جسور لها ، وتمركزت فى مواقعها بعد أن اقتحمـت قناة السويس ، وسيطرت على خط بارليف ومـكنت قبضـتها مـن الضـفة الشرقية للقناة ، بطولها من بور سـعيد وبور فـؤاد شـمالا ، حتى خليج السويس جنوبا . .

وبينما كانت قواتنا المسلحة تواصل انتصاراتها الرائعة ، اتصل بى المشير أحمد اسماعيل ـ رحمه الله ـ فى العاشر مـن اكتوبر . . أى بعـد بداية المعارك بأربعة أيام ، يطلب منى ضرورة التواجـد فى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة ، مساء نفس اليوم

وكان أن تلقت المكالمة سكرتاريتى الخاصة بالشركة . .

وعندما علمت بذلك الاستدعاء ، قمت على الفور باستدعاء جميع مديرى الشركة ، خاصة المتخصصين منهم فى إنشاء قواعد الصواريخ ، وحظائر الطائرات وممراتها . . لأننى فهمت أن المطلوب منى لابد أن يكون تنفيذ عمل من ذلك القبيل . .

وتركت مديرى الشركة مجتمعين فى مقرها ، ينتظروننى حتى أعود من تلك المقابلة . .

وعندما التقيت بالمشير فى مكتبه بوزارة الحربية طلب منى الرجل ـ رحمه الله ـ تنفيذ عمليتين كبيرتين ومهمتين ، وطلب التنفيذ على وجه السرعة . .

وطلب منى أن اقوم بمقابلة الفريق سعد الشاذلى رئيس الأركان فى ذلك الوقت . . وكان ينتظرنى فى مكتبه ، لكى يناقشنى فى تفاصيل تنفيذ المهمة . .

وعندما ذهبت الى مكتب سعد الشاذلى ، وجدت معه المهندس مشهور أحمد مشهور ـ رئيس هيئة قناة السويس . .

وكانت أول مرة فى حياتى أرى فيها الفريق الشاذلى . .

أحسست فيه بالاضطراب . . والاهتزاز . . وفقد الأعصاب . . على العكس تماما من المشير ـ رحمه الله ـ حيث كان يتمتع بالهدوء والثبات ، والاتزان ، وقوة الارادة والأعصاب . . كله ثقة فى نفسه وفى عمله . .

ودب القلق فى نفسى ، عندما رأيت الشاذلى على تلك الصورة ، لأن خبرتى الطويلة فى الحياة علمتنى أن أحكم على الرجال ، منذ اللحظة الأولى ، التى اراهم فيها أو أتعامل معهم من عندها . .

صحيح كنا فى ذلك الوقت فى قمة انتصاراتنا . . ولكن ملامحه لم تكن تعبر عن تلك الانتصارات الرائعة . .

وكان حكمى عليه سليما . . عندما عرفت فيما بعد أن تصرفاته كانت سببا ، فى أن تتمكن اسرائيل من العملية التليفزيونية ، التى قامت بها . . ولو كان قد عالج الموقف ، بأعصاب وحكمه ، وقت أن تم تكليفه بتلك

المهمة، ما كان حدث ما حدث . . ولكنها إرادة الله . .

المهم . . عندما استقبلنى وجلست معه، فاتحنى فى موضوع إنشاء . . سدين فى عرض قناة السويس، وعلى وجه السرعة . .

أحدهما فى منطقة الدفرسوار . . والثانى فى منطقة الفردان . .

وقال لى : إن قواتنا نجحت فى إقامة كوبريين فى هاتين المنطقتين، يصل كل منهما راس الجسر المقابل له على الضفة الشرقية بالضفة الغربية . . وأن هذين الكوبريين يتعرضان لهجوم مكثف من قبل طيران العدو، الذى يقوم بغارات وحشية . . ومتعددة عليهما بشكل يعيق تدفق قواتنا الى الشرق من القناة . .

وقال : لذلك قررنا أن نقيم بدلا من الكوبريين، سدين فى عرض القناة، لكى يتم تدفق القوات، بشكل سريع وسليم، طبقا لما هو مخطط له، دون أن يؤثر تدخل العدو ضد قواتنا، على تحقيق أهدافنا العسكرية فى هاتين المنطقتين . .

وبعد أن فرغ من شرح طبيعة العملية المطلوبة سألته :

فى كم من الوقت تريدون الانتهاء من السدين ؟

قال بأسرع ما يمكن . .

وعاد يكرر على نفس السؤال . . ولكنه علق قائلا :

إننى أعرف أنه طبقا للمقاييس العادية، فان مثل ذلك العمل لا يحتاج لأقل من ثلاثة شهور لانجازه . .

وطمأنته ساعتها، بأن المقاولون العرب تستطيع أن تنتهى من تلك المهمة خلال ثلاثة أيام فقط . . فانبهر وانفرجت أساريره، وكأنه يتوقع أن اعتذر له بعدم مقدرتنا على القيام بتنفيذ تلك المهمة، خاصة فى مثل تلك الظروف العسكرية الصعبة . .

وقال : إذن نبدأ فورا . .

فقلت له : إننا نحتاج الى فسحة من الوقت، لمدة ثلاثة أيام أخرى، قبل أن نبدأ العمل، لكى نتمكن خلالها من تجميع المعدات التى ستقوم

بهذا العمل ، من مختلف المواقع التى تتواجد فيها . . خـاصة أن معـظم هذه المعدات فى ليبيا ، وسيتم إحضارها على وجه السرعة . .

واتفقنا على ذلك . . وعدت الى مقر المقاولون العرب ، حيث وجـدت المديرين فى انتظارى ، كما طلبت منهم . . وكان معـى المهندس مشـهور أحمد مشهور . .

ووجدت فى مكتبى وزيرين كانا قد حضرا خصـيصا لذلك الغـرض ، منهما وزير استصلاح الأراضى . .

وعقدنا اجتماعا عاجلا . . درسـنا فيه جميع الامـكانيات ، وكيفية تجميع المعدات . . واتفقنا على أن نتخذ من منطقـة التل الكبير ، مـكانا لتجميع المعدات ، انتظارا لاشارة البدء .

وقام بعض مهندسينا باحضار معـداتنا التى كانت فى ليبيا ، والتى تصلح للمشاركة فى مثل ذلك العمل . .

وكانت جميع المعدات يوم ١٣ أكتوبر ، فى التل الكبير جـاهزة ، لأن تبدأ تنفيذ أية مهمة تكلف بها . .

وتم تكوين غرفة عمليات لذلك الغرض ، كان يرأسها المهندس محمد محمـود ، ومعـه المهندس بهجـت حسـنين نائبا رئيس مجلس إدارة الشركة ، ومعهمـا المهندس يحيى أبو الغيط عضـو مجلس الادارة وقتها . . ونائب رئيس مجلس الادارة الآن . .

وعندما أصبح كل شىء جـاهزا لتنفيذ المهمـة ، اتصـلت تليفـونيا بالمشير أحمد إسماعيل لأحيطه علما بذلك . .

وطلب منى أن يذهب مهندسان من مهندسى الشركة الى التل الكبير ، صباح يوم الرابع عشر من أكتوبر ، وسينضم إليهمـا هناك مهندسـان عسكريان ، ليقوموا جميعا بدراسة الوضع على الطبيعة . .

وتم تنفيذ ما طلبه المشير . .

وذهب المهندسون ، وقاموا بمعـاينة كل شىء على الطبيعـة . . وعاد مهندسا المقاولون العرب فى المساء ، ليجدانى فى انتظارهما ، وأفـادانى بأن كل شىء جاهز . . وانهم على استعداد للتنفيذ فورا . .

وكانت لهما ملاحظة غريبة لفتت نظرهما ونقلاها لى ، وهى أنهما لم يجدا جنديا مصريا واحدا فى المنطقة ، التى قاموا بالدراسة الميدانية فيها ، لتنفيذ المهمة المطلوبة . . ولأننى لست من المتخصصين فى مثل تلك الأمور لا أستطيع الخوض فى التعليق على تلك الملاحظة . .

وكان أن اتصلت بالمشير أحمد اسماعيل ، وأبلغته باستعدادنا للتنفيذ فورا . .

وأراد أن يتأكد من أننا قمنا بمعاينة الموقع . . وطمأنته على ذلك . .

وطلب منى أن أترك الأمر على ما هو عليه ، على أن أتصل به مرة أخرى بعد يومين . .

واتصلت به . . ليقول لى : بعد يومين أيضا . .

وكان التسرب الاسرائيلى قد بدأ فى ذلك الوقت ، ولم ننفذ سد الدفرسوار ، الذى أقامه الاسرائيليون بعد تسربهم فى نفس المكان . . ولكن قمنا بتنفيذ سد الفردان . .

وليس هناك سبب لما حدث ، إلا الفريق سعد الدين الشاذلى . .

كان ذلك هو دور المقاولون العرب فى خدمة القوات المسلحة المصرية ، وخدمة معركة المصير ، التى خاضتها مصر ، وانتصرت فيها بفضل الله سبحانه وتعالى ، وحكمة الرئيس السادات .

واتصل الخط الوطنى للمقاولين العرب ، وأراد له الله سبحانه وتعالى أن يمتد ، ليباشر مهامه فى دور جديد . .

لم أتصل بعد ذلك بالمشير أحمد اسماعيل . . إلا إن مكتب الرئيس السادات اتصل بى فى الساعة السادسة من مساء يوم ٢٨ أكتوبر يستدعينى ، لمقابلة عاجلة مع الرئيس فى الساعة الثامنة ، من مساء نفس اليوم . .

وكان الاستدعاء هذه المرة لمهمة مختلفة تماما عن كل المهام التى سبق وكلفنى بها الرئيس السادات . . خلال فترة الاعداد للمعركة . .

فلماذا استدعانى الرئيس ؟

ذلك هو موضوع الفصل القادم .

وزير في ٣ حكومات

في ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣ . .

كانت قلوب كل المصريين ، وعقولهم ، مشدودة الى ما يجري في منطقة القنال من معارك ، لم ينطفيء لهيبها ، خاصة بعد الثغرة ، التي لم تتضح أبعادها في ذلك الوقت ، للمواطن العادي الذي لم يعرف وقتها ، أن اسرائيل أرادت بها ، حفظ ماء وجهها ، بعد أن مسح المصريون الأرض بالجندي الذي لا يقهر ، على رمال سيناء . .

قبل أن تتضح تلك الابعاد ، كان قلبي منقبضا ، وأعصابي مشدودة ، الى ما يمكن ان يترتب على ما يجري في منطقة للقناة في ذلك اليوم من تطورات . .

وبينما أنا على ذلك الحال ، إذ بجرس تليفون منزلي يدق في الساعة السادسة مساء ، وعندما تلقيت المكالمة وجدت من يستدعيني لمقابلة الرئيس السادات في نفس الليلة الساعة الثامنة والنصف مساء بقصر الطاهرة ، أي بعد ساعتين ونصف . .

ورحت أتساءل بيني وبين نفسي عن السبب الذي يمكن أن يستدعيني الرئيس من أجله في هذا الوقت بالذات . . وتصورت أن الموقف العسكري قد يستدعي اقامة عدد من قواعد الصواريخ أو المطارات أو دشم الطائرات .

وتمنيت فى داخلى لو أنه كلف الرئيس أحـــدا غيره لكى يطلب منى تنفيذ تلك المهمـة . . حتى لا أراه . . لأننى لا أحـب أن أراه فى لحـظات عصيبة . . وتصورت أن ما كان يتردد من أنباء عن الثغرة له صدى نفسى سيىء عند الرئيس . .

ولكن مادام قد استدعانى كان لابد أن أستجيب . .

وقبل أن اذهب الى المقابلة ، اصـدرت تعليمـاتى باسـتدعاء جميع المديرين من منازلهم ، وطلبت منهم عدم مغادرة الشركة تحت أى ظرف ، وأن يضعوا جميع أفرع وإدارات وأقسام الشركة فى حالة طوارىء كاملة الى أن أعود . .

وصـلت الى قصر الطـاهرة فى الثامنة الا الربع ، والتقيت بحسـن كامل ، رئيس ديوان رئاسة الجمهورية ، فى ذلك الوقت ، فسألته عن سبب استدعاء الرئيس لى ، فوجدته لا يعـرف . . ثم قـابلت بعـد ذلك فـوزى عبد الحافظ ، مدير مكتب الرئيس ، ووجهت له نفس السؤال ، فلم أجـد عنده اى جواب . .

وفهمت انهمـا يتكتمـان الخبر ، ولا يريد اى منهمـا أن يقـول لى شيئا . . لذلك فضلت ألا اتحدث ، مع أى منهما فى ذلك الموضوع ، الى أن حان موعد المقابلة . .

دخلت الى مكتب الرئيس فى الثامنة والنصف تماما فـوجدته يرتدى الزى العسكرى وهذا أمر طبيعى . .

والمفاجأة كانت غير طبيعية . . كنت اتصور اننى سأجد ه مشـدودا بسبب ما كان يحدث . . ولكننى وجدته فى قمة السعادة والراحة النفسية ، وهدوء البال والضمير الذى لم أجـده عليه منذ سـنوات . . واسـتقبلنى ضاحكا مهللا كعادته كلما رآنى « ازيك يا ابو عفان » . . كان شـتان بين مشاعرى ، ومشاعره . .

كان ما يدور فى رأسى ، شيئا مختلفـا تمـاما ، عمـا يدور فى فـكره وخابت كل توقعاتى فبينما كنت أتوقع أن سبب استدعائى هـو انشـاء المزيد من الانشـاءات التى تدعم قـواتنا المسـلحة . . وجـدت الرئيس

يفاتحنى فى آمر تعمير منطقة القناة . .

وكانت مفاجأة أخرى . .

وبهت مما سمعت . . كان كلامه غريبا جدا بالنسبة لى .

كان لسانى يقول له كما تريد يا سيادة الرئيس انا مستعد للتنفيذ . . وكانت تدور فى عقلى تساؤلات . . اى منطقة قناة تلك التى يريد تعميرها الرئيس . . واستبعدت بينى وبين نفسى أنه يقصد منطقة قناة السويس . . تلك المنطقة الملتهبة المشتعلة بالنيران ، والتى تفوح منها رائحة البارود والدخان ، ويملأها التحفز ، وتهزها انفجارات القنابل ، وهدير الدبابات ، وقصف المدافع ، وأزيز الطائرات . .

شتان بين ما كان يقوله لى عن تلك المنطقة وما كان يجرى فيها من احداث . . كان يدور فيها حوار حار جداً باللهب والنار . . وكان هو يتحدث معى فى حوار هادىء جداً عن تعمير منطقة القناة . .

وحسمت ما كان يدور فى عقلى عندما تذكرت بسبب خبرتى الطويله به ، انه يرى بعيداً جداً . .

لذلك فقد كان ولا يزال هو الانسان الوحيد الذى عندما يرى أمرا لا أراه ، لا أملك الا أن اسلم برأيه . . لذلك سرعان ما طردت كل ما كان يدور فى عقلى . . وعشت معه فيما كان يقول . .

واستمرت المقابلة ساعة ونصف ساعة كاملة تحدث الرئيس فيها عن تصوراته لاعادة الحياة الى منطقة القناة . . وكأن كل ما كان يدور عليها من أحداث هى فى منأى منه . . كان فى منتهى قوة الاعصاب وصلابة الارادة ، والثبات لدرجة انه راح يتحدث معى فى أدق التفاصيل . .

راح يحدثنى عن الأنفاق التى هى الآن ملء العين والبصر . . وكيف يريد أن يحقق اتصالا دائما وكاملا بين سيناء والوادى . . وكيف يريد أن ينقل مياه النيل . . الى الشرق من قناة السويس ، ليعمر تلك الرقعة العزيزة من مصر ، ولتعمر بالسكان .

وراح يتحدث معى فى كيفية إعادة بناء منازل أهالى القناة . . وكيف

انه يرى ضرورة بنائها من الأحجار بسبب رخص تكاليفها ، ولأن الطوب قد يكون سببا فى تجريف الأرض الزراعية التى نريد زيادة مساحتها . .

وطوال نلك الحوار لم يتطرق ذهنى الى أكثر مـن انه يكلفنى بهـذه المهام كشركة مقاولات ، خصها بذلك الشرف العظيم . . ووعدت الرئيس بأننا نتمنى من الله أن نرتفع الى مستوى ثقته فينا ، ونحقـق آمـاله فى اعادة تعمير منطقة القناة ، وان نتمثل بروح أداء مقاتلينا الذين انتزعوا احترام العـالم كله ، لأمتنا وليس لمصر وحـدها ، لأول مـرة فى التاريخ الحديث . .

وقال لى الرئيس هيا يا عثمان . .

تصورت أن المقابلة قد انتهت . .

فقلت أتركك بخير يا سيادة الرئيس . .

وضحك وهو يقول : بعد أن تحلف اليمين . .

قلت : أى يمين يا سيادة الرئيس ؟

قال : أصدرت قرارا بتعيينك وزيرا للتعمير .

وكانت مفاجأة أخرى بالنسبة لى مفاجأة سـعيدة لا اتمناهـا لذلك قلت :

اننى استطيع أن أقوم بهذا الدور على أحسن ما يكون وأنا خـارج الوزارة يا سيادة الرئيس .

قال : ان تعمير القناة يحتاج الى وزير يا عثمان .

وحاولت أن أعتذر عن المنصب بطريقة أخرى . . فقلت :

ليس لى بالعمل الحكومى سـابق خبرة ، وكل خبرتى أننى مقـاول فقط .

ولكن الرئيس قطع على خط الرجعة عندما قال :

سوف أساعدك

وفى تلك اللحظة لم اجد بدأ من أن أقول :

أنا لا أستطيع أن أرد لك طلبا يا سيادة الرئيس . . وكل ما أملكه من امكانيات هى رهن ارادتك . . التى هى رهن لارادة مصر .

وذهبت مع الرئيس السادات الى حيث كان مقررا حلف اليمين . .

وعندما سأل على مصور الرياسة ، لكى يلتقــط الصــور ، تبين أنه ذهب الى منزله . . وفى تلك اللحظة عرفت أن كلا من حسن كامل وفــوزى عبد الحافظ لا يعرفان شيئا بالفعل عن سبب المقــابلة كمــا قــالا لى . . لأنهما لو كانا يعرفان ما كان المصــور انصرف فى الوقــت الذى لا يزال ينتظره عمل يستدعى بقاءه .

طلب الرئيس من مكتبه استدعاء المصور فــوراً وانتظــرت معــه فى مكتبه ، حتى حضر . . وحلفت اليمين دون أن أعرف ماذا سأفعل .

كان القرار مفاجأة كاملة بالنســبة لى . . وكان على أن أعيد ترتيب افكارى من جديد بعد أن قبلت مع الرئيس السادات وفى عهده مــا ســبق ورفضته مرتين فى عهد نظام الحكم السابق .

مرة عندما فاتحنى المشير ، فى أمر ان أتولى وزارة السد العــالى . . واعتذرت . . ومرة عندما أراد نظام الحــكم الســابق أن يجــرى تغييرا وزاريا فى أعقاب هــزيمة ١٩٦٧ . . وكانت النية تتجــه الى تعينى وزيراً للاسكان . . وعندما علمت أنهم يبحثون عنى ، تركت مصر كلها وسافرت فى نفس اليوم إلى أبو ظبى ، ومكثت هناك الى أن تم الانتهاء مــن تأليف الوزارة وإعلانها .

وقمت بتنفيذ المهمة التى كلفنى بها الرئيس السادات وخــلال ســنة واحدة أنجزنا من الأعمال ما لم أصدقه أنا شــخصيا . . لقــد عاد مليون مواطن الى ديارهم . . والحمد لله . .

اعداء الخط المستقيم

وخلال عملى فى الوزارة كنت كعادتى لا أعرف الا الخــط المســتقيم الواضح ، دون لف ولا دوران . . ولكن أساليب الســياسة الملتوية ، التى تسير بطريقة زحف الثعبان ، لا أعرفها ولا افهمها ولا أتعامل معهــا . . لذلك عانيت ولم أسترح طوال فترة عملى فى الوزارة منذ أن توليتهــا الى

ان تركتها . . .

أنا رجل لا يلزمنى ، ولا يستهوينى هذا المنصب . . ولكن لى هدفا آخر . . أعرفه وأسير إليه ، وليس عندى أعز منه . . ومن خلال عملى الذى يستهوينى ، خدمت واخدم بلدى ، فى أصعب ظروفها ، وظروف معها . .

وحاولت إفهام من كان على ان اتعاون معهم ، بأن يشجعونى ولا يحاولوا عرقلة مسيرتى بألاعيبهم التى كانوا يحيكونها ضدى . . مرة فى مجلس الشعب . ومرة فى مجلس الوزراء وما إلى ذلك . . حاولت أن يفهم من كنت اتعامل معهم أن عملى منسوبا لرئيس مجلس الوزراء . . وليس منسوبا لى شخصيا لأن الناس والتاريخ ، سيقولون ان هذا العمل تم فى عهد وزارة فلان ، ولن يقولوا أن الذى انجزه الوزير فلان . . وقلت لهم . . حتى ولو قالوا إن الذى انجزه فلان ، فلابد أن يقولوا إن الانجاز تم فى عهد وزارة فلان . .

يئست من محاولات العلاج ، ووجدت فرصتى فى تعديل وزارى ، أعربت فيه عن عدم رغبتى فى أن أستمر فى ذلك المنصب . . وحتى عندما حاول رئيس الوزراء فى ذلك الوقت إثنائى عن هذه الرغبة صارحته بأننى بعد كل ما حدث لى لا يمكن أن أستمر وقلت له :

كانت المهمة التى كلفنى بها الرئيس هى تعمير منطقة القناة . وتوليت الوزارة من أجل تنفيذها . .

والحمد لله قد أنجزت كل ما أراده الرئيس ، ولم يعد هناك مبرر لاستمرارى فى العمل الوزارى ، الذى لا أستريح له ولا أجد نفسى فيه . . فلا أنا سياسى على الطريقة إياها ولا أستطيع أن أكون صاحب رأيين . . وليس لى الا وجه واحد . .

ولم يكن يعرف الرئيس بقرارى ، لأننى فضلت إخفاءه عنه . . لأنه لو طلب منى الاستمرار لا استطيع رد طلبه ، فى الوقت الذى لا أستريح فيه مع من سأعمل معه . .

وفعلا بعد أن اعتذرت لرئيس الوزراء عن قبول الاستمرار فى العمل

الوزارى ، ذهبت الى الرئيس السادات وقلت لسيادته :

بصراحة يا سيادة الرئيس أنا رجل لى طباع خاصة ، وتربيت على تقاليد خاصة . . فلست مستعدا . . وليس عندى الوقت ، لأن أتفرغ لمثل المسائل التى تشغل الكثيرين . . مع إننى خالى الذهن منها تماما . .

ولا أريد الخوض فى مشاكل أنا فى حل منها . . فهذا يتآمر على من هنا . . وذاك يسانده من هناك . . وهؤلاء يستخدمهم زيد وأولئك يعملون لصالح عبيد . . كانوا جميعا يفعلون كل ما كانوا يفعلونه معى لأسباب فى أنفسهم ، سواء فى مجلس الشعب أو الوزارة . . وفاتهم جميعا أن يدركوا أننى رجل صاحب رسالة فى الحياة ولن يفهموا رغم كل محاولاتى لافهامهم إلا بعقليتهم . . التى ترى فى الكرسى أقصى آمالهم فى الحياة .

واقتنع الرئيس بوجهة نظرى . . بما يعرف عنى من أننى مثله تماما . . ولكن هناك فارق بينى وبينه ، فهو يعرف كيف يتعامل مع هؤلاء الملتوين لأنه زعيم . . ولأننى لست كذلك فضقت بكل ما رأيت . .

وان بين تكليف الرئيس لى بتولى وزارة التعمير . . وبين تركى الوزارة أكثر من قصة لابد أن تجد كل قصة منها لها مكانا على هذه الصفحات . .

* * *

كيف بدأت ؟

بعد أن حلفت اليمين الدستورية أمام الرئيس ، غادرت رياسة الجمهورية الى مقر مجلس الوزراء لمقابلة الدكتور محمد عبد القادر حاتم نائب أول رئيس الوزراء ، حيث كان الرئيس السادات يتولى الوزارة بنفسه فى تلك المرحلة . . فاستقبلنى بترحاب شديد مهنئا ، ومتمنيا لى التوفيق فى منصبى الجديد وقال لى :

إنه كان يعرف منذ فترة طويلة ان الرئيس السادات سيصدر قرار تعيينى وزيرا للتعمير ، وكنت قد قلت أن أحدا فى الرياسة من كبار المسئولين لم يكن يعرف . .

وبعد أن أبدى لى إستعداده للتعـــاون معـــى ومســـاعدته لى فى أداء مهمتى تركته وانصرفت لأجد زملائى فى المقاولون العرب فى انتظارى . . كانوا قد عرفوا الخبر من الاذاعة فراحوا يهنئوننى بثقة الرئيس . .

وبينمـــا كانت يدى تصـــــافح أيادى المهنئين كان عقلى يقلب فى كل الأمور ويطوف بكل المجالات . . إن المهمـــة ليســت ســـهلة . . والمســـألة لا تقف عند حد تعيين وزير ، فهذا أمر سهل وإن كان أصـــعب منه فى أى وزارة أخرى لها كامل اجهزتها . . ان المطلوب هـــذه المرة إنشـــاء وزارة جديدة . .

وحتى الوزارة الجديدة أمرها سهل . . لو كانت فى غير تلك الظروف غير العادية .

إن المهمة ليست وزارية . . ولكنهـــا وطنية لأن قـــرار تعمير منطقـــة القناة ، ليس قرارا تنفيذيا ، ولكنه قـــرار ســـياسى له ابعـــاد وأبعـــاد . . وتتعدى أهدافه مجرد تعيين وزير للتعمير . .

وكان على أن أرتفع الى مستوى القرار ، وأدرك مراميه وأهـــدافه ، وأحقق كل ما هو مطلوب أن يؤتيه من ثمار . .

لذلك اعتبرت القرار تكليفا وطنيا وليس تكليفـــا وزاريا . . فى وقـــت وقـــف فيه التاريخ كله ليس تاريخ مصر ولا تاريخ المنطقـــة العـــــربية أو منطقة الشرق الأوسط . . ولكن وقـــف تاريخ العـــالم ، عند منعـــطف جديد ، وفتح صفحة جديدة ، فى باب جديد ، يراجع فيهـــا كل حســـاباته ، ويؤرخ تحت عنوان جديد لم يشهده من قبل هـــو عنوان « عالم مـــا بعـــد أكتوبر » حيث تغيرت الخـــريطة الســـياسية والمقـــاييس والنظـــريات العسكرية . . وبدأت آثار المعركة العظيمة من معـــارك التاريخ . . تظهـــر آثارها على كل شيء . . وفى كل مكان . .

وكان على أولا . . الا اســـتوعب قـــــرار تعيينى وزيرا . . ولكن أن استوعب لحظة التاريخ التى كنا نعيشها . . وعلينا أن نبدأ من عندهـــا . . وعندما استوعبت الموقف كله رحت أنفذ مسئوليتى التى كلفت بها .

ووقفت طويلا أمام سؤال . . كيف أستطيع تنفيذ تلك المسئولية ؟

أنا مقاول لم يسبق لى العمل الحكومى من قبل ووجدت نفسى أقف وجها لوجه أمام مسئولية وزارة لم اسع يوما فى حياتى لممارستها . . ولكن لا يصح لعثمان أحمد عثمان فى تلك المرحلة الوطنية الحساسة أن يتوارى . . أو يعتذر عن أداء ذلك الدور الذى يعتبر تشريفا لأى مصرى . . لا يعدو كونه تاجا يضعه فوق رأسه .

ولم اجد نفسى أمام مسئولية ممارسة عمل لم أمارسه من قبل ، ولكن وجدت نفسى أمام مسئولية إنشاء وزارة جديدة . . حيث لم تكن هناك وزارة قائمة اسمها وزارة التعمير وكان مطلوبا خلق هذه الوزارة وابرازها الى الوجود ، من الألف إلى الياء برجل لا يعرف عن العمل التنفيذى شيئا . . وليس المطلوب منه خلق هذا الجهاز الذى يعتبر فى حد ذاته مهمة . . ولكن لكى يقوم هذا الجهاز بتنفيذ مهمة غير عادية كان لابد أن أرتب كل الأوراق ، وأن أهيىء كل الظروف واخلق المناخ الملائم لى كوزير يمارس العمل الوزارى لأول مرة ، لوزارة التعمير التى ترى النور معى لأول مرة أيضا . .

وعلى قدر ما كانت عملية إنشاء وزارة جديدة صعبة على قدر ما لاقت فى نفسى هوى وارتياحا . . لأننى سأنشىء وزارة بالمواصفات التى تستطيع بها ، أن تحقق ما هو مطلوب منها

يختلف ذلك الأمر عما لو كانت الوزارة قائمة بأجهزتها ، حيث كان على أن اتعامل مع ما هو قائم بكل ما فيه من رواسب . . ومهما فعلت فلن احصل منه ، الا على اقصى طاقة يستطيعها . . لا أقصى طاقة يجب أن يعطيها .

إن إنشاء جهاز جديد أسهل من مهمة تطويع جهاز تقليدى قائم ، لأن يعمل باسلوب وعقلية لم يتعودها من قبل .

ولكى أبدأ كان لابد من توافر مكان للوزارة التى صدر قرارها وقرار وزيرها . . ولم تعرف بعد اين مقرها ؟ . . لذلك قررت أن أبدأ مهامى من مكتبى بشركة المقاولون العرب .

وكان أول ما ينبغى التفكير فيه . . وضع تصور لما أنا بصدده من

مهام . . كيف أبدأ ومتى ؟ وبأى شيء ؟ ومع من ؟ وأى الاساليب أنسب للاخذ بها . . وأى الآراء يجب ترجيحها . . خاصة أن العمل الوزارى فى جانب منه عمل سياسى . . وحتى تلك اللحظة لم أمارس السياسة بذلك المفهوم فى حياتى . .

وحسمت ذلك الموقف واعتمدت على الله وقررت أن أعمل بنفس الاسلوب الذى أمارس به فى إدارتى للمقاولون العرب والذى يتمثل فى الوضوح . . الصراحة . . الصدق . . الايمان . . المبادىء السليمة . . الاخلاص . . الأمانة . . التفانى فى العمل . . عدم اللف والدوران . . الاقتناع بأن الخط المستقيم هو أقصر الطرق . وما إلى ذلك من عناصر بنيت على أساس منها المقاولون العرب

قررت أن أمارس على أساس من هذه الأسس بغض النظر عما اذا كان هذا الأداء يتفق مع السياسة ، أو لا يتفق ما دام هذا الطريق الذى أخترته موصل الى النجاح فى تنفيذ المهمة المكلف بها .

كان على أن أسير على مجموعة من الخطوط المتوازية فى وقت واحد .

وكان أول هذه الخطوط الأمر الذى تنبهت اليه اثناء مقابلتى للسيد الرئيس عندما كلفنى بهذه المهمة عندما قلت لسيادته . . أن أنظار العالم كله مشدودة الى منطقة قناة السويس تتابع ما يجرى بها . . وحتى أنجح فأننى أحتاج الى صلاحيات واسعة تمكننى من تنفيذ المهمة ، متخطيا كل حواجز الروتين العتيق ، الذى تحفل به دواوين الحكومة فى كل مكان ، ولى مع السد العالى تجربة. . حيث كان له قانون خاص به . . وهيئة كانت لها كل الصلاحيات . . ووزير كانت له صلاحيات رئيس الجمهورية فى موقع عمله .

وتبرز هنا قيمة التجربة ، استفدت من تجربة السد العالى . . فكان تعمير القناة على أروع ما يكون . .

ووافقنى الرئيس ، وطلب منى أن أعد قانونا خاصا للتعمير ، أتقدم به الى مجلس الشعب ، ليقره على وجه السرعة لكى يحقق هذا القانون ،

قوة الدفع التى تدفع بعملية التعمير الى نهاية الخط المرسوم لها .

وقمت بتنفيذ توجيهات الرئيس . . وكان للقانون الذى أصدره مجلس الشعب فى هذا الشأن أثر كبير فى تحقيق المرونة الكافية لتسيير دفة العمل فى الوزارة . .

ولم يأت هذا القانون من فراغ ولا من بنات أفكار الذين راحوا يقدحون زناد فكرهم دون أن ينزلوا الى أرض الواقع ليحتكوا به ، ولكنه كان ثمرة تجربة طويلة ، علمتنى الكثير وطبقت نتائجها عن اقتناع كبير . . ولم يكن هذا القانون هو الثمرة الوحيدة التى جنتها وزارة التعمير من تلك التجربة المثمرة والمثيرة . . ولكن . .

من بين ما علمته لى تلك التجربة أن أسير على هدى الحكمة القرآنية الكريمة التى تقول . . وأمرهم شورى بينهم . . لذلك كان على « أن أستشير كل أصحاب الخبرة والرأى والعلم فى كافة المجالات التى يمكن أن يمتد اليها عمل الوزارة . . خاصة اننى فطنت منذ زمن بعيد الى أن مصر بخير لم تنضب ، ولن تنضب أبدا ، عن العطاء وعن أن تلد الكفاءات العملاقة فى مختلف المجالات . . وكنت قد تعلمت الا أقلل من قيمة المفكرين والمخططين والعلماء وأصحاب الرأى . . لذلك كان لابد وأن أسعى اليهم لألتقى بهم حيثما كانوا . .

نعم فكرت فى أن أطلب المشورة من أصحابها ، لكى تساعدنى واستعين بها . . وأن أصحابها جزء لا يتجزا من ثروة مصر . . ولابد أن تتاح لهم الفرصة ، لأن يشاركوا فى بناء معالم نهضتها . . لذلك لم أتردد لحظة واحدة ولم استدعهم لمقابلتى ولكن ذهبت الى منازل هؤلاء العلماء أينما كانت ، وجلست معهم فرادى وجماعات لأعرض الأمر عليهم ، واستمع الى آرائهم ، وأناقش معهم كل ما ورد على ذهنى من افكار . .

ومن بين هؤلاء الأعلام أو المعالم البارزة على طريق الفكر فى مصر صديقى القديم الذى ارتبط به منذ أربعين عاما . . الدكتور أحمد محرم المهندس الاستشارى ، والذى كان قد تولى منصب وزير الاسكان فى فترة من الفترات فى صدر الثورة وهو الذى قام بتصميم كوبرى ٦ أكتوبر ولهذا التصميم قصة . .

قصة كوبرى ٦ اكتوبر

ذات يوم من عام ١٩٦٧ بعد الهزيمة كنت على موعد مع الدكتور احمد محرم ، فاتفقت معه على ان أمر على منزله بالدقى لكى نذهب معاً الى حيث كان موعدنا . . وكانت زحمة المرور وقتها على أشدها ، لدرجة أن قطع المسافة من الدقى الى ميدان التحرير استغرق ساعة كاملة .

وبينما كانت سيارتنا فى طابور الانتظار ، لم نجد مادة للحديث خلال ذلك الوقت الضائع ، إلا عن إختناق المرور ، الذى يؤدى إلى فقدان السيولة فيما بين وسط القاهرة والمناطق المؤدية اليها . . وتساءلنا وقتها لماذا لا نفكر نحن فى هذه المهمة . . فهو المهندس الاستشارى الذى يعد التصميمات . . وأنا رئيس شركة مقاولات تستطيع أن تنفذ أى حل يمكن أن نتفق عليه ؟ . . وفعلا اتفقنا على أن نقيم كوبرى جديد يساعد فى تخفيف ضغط المرور ، وتحقيق السيولة فى الحركة .

وفعلا قمنا بعد ذلك مباشرة ، باعداد تخطيط وتصميم ابتدائى لكوبرى اكتوبر . .

وتم تصميم الكوبرى ، الذى لم نحدد له اسما فى ذلك الوقت ، على أن يعبر النهر الصغير فى منطقة الجزيرة فى نفس مكان الجسم الحالى لكوبرى أكتوبر . . ثم يمر خلال منطقة الجزيرة ، ويعبر النهر الكبير فى نفس المنطقة التى يعبرها الكوبرى الآن .

ولكن التصميم الذى أعددناه وقتها لم يكن تصميما لكوبرى علوى ولكنه تصميم عادى لكوبرى كتلك الكبارى المنتشرة على النيل فى مختلف مناطق الاتصال فيما بين القاهرة والجيزة . . أما فكرة أن يكون الكوبرى علويا وبهذا الشكل العملاق فقد جاءت فيما بعد كتطوير للفكرة المبدئية التى اعددنا تصورها . . وفعلا تم تعديل التصميم . . والذى قام باعداد التصميم الجديد هو نفسه الدكتور احمد محرم .

وقمنا بعرض المشروع الذى اعددناه على محافظ القاهرة فى ذلك الوقت وأبدى تفهما كاملا للفكرة . . ولكن بقدر ما كان متفهما . . كان مترددا .. لأنه لا يملك القرار . . لذلك طلب منا مهلة ، لمدة عشرة أيام يوافينا بعدها برده . . وقام بعرض الموضوع على نظام الحكم السابق كما قال لنا بعد ذلك . . ورفضت الفكرة ، ليس لأى سبب الا . . الخوف

من أن تقوم اسرائيل بتدميره . . وشـاء القـدر ان هـذا الكوبرى الذى رفض نظام الحكم السابق انشاءه بسبب الخـوف مـن اسرائيل أن يتم إنشاؤه فى عهد انور السادات ، واصبح يحمل الاسم الذى ارتبط باليوم الذى قضت فيه مصر على اسطورة الجيش الذى لا يقهر .

ليس ذلك فحسب ولكن بينما رفض نظام الحكم السابق إنشاء هـذا الكوبرى فى قلب القاهرة خشية أن تدمره اسرائيل . . استدعانى الرئيس انور السادات لأقوم بمهمـة تعمير منطقـة القناة حيث توجـد جبهـة العمليات نفسها مع اسرائيل . .

ويمثل الفارق بين الموقفين أكثر مـن معنى . . ليس مـن مهمتى أن اقدم لكل منها تفسيراً . . وان كان من واجبى أن أسجل ما حدث كشاهد عيان .

اهل الخبرة

المهم . أن نعود الى وزارة التعمير حيث كنت بصدد تبادل الرأى مع علماء مصر وخبرائهـا فـذهبت الى الدكتور حسـن مـرعى والمهندس ابراهيم نجيب والوزير سليمان عبد الحى وغيرهم من أعلام العلم الذين شهدت اجتماعاتهم صالة الاجتمـاعات الصـغيرة التى كانت تضـمها وزارة التعمير التى خصصوها لى فيما بعـد . . وكانت عبارة عن الدور الأول من مبنى وزارة التعمير الحالية بجوار وزارة الاسكان .

وكان هذا الدور يضم الى جانب صالة الاجتماعات حجرتين فقط . . حجرة الوزير وحجرة للسكرتارية . . وهذه هى كل وزارة التعمير المنوط بها تنفيذ كل ما هو موكل اليها من مهـام ضـخمة وكبيرة . . مـن حيث حجمها ومن حيث آثارها . .

قمت بدعوة المختصـين والمتخصصـين والخبراء مـن أصـحاب الكفاءات ، وكل من له دور من كبير إلى صغير . . وعقدت معهـم العـديد من الندوات ، التى استمعت فيها الى كل رأى ، وحـرصت على إعطـاء الفرصة ، لكل من أراد أن يدلى بدلوه ، فيما دار من مناقشات .

كنت أعرف أن هذه الآراء هى خلاصة ما فى مصر من أفكار ، لذلك لم

أتركها تذهب مع الأثير ، ولم أستهن بأى منها لأننى إذا استهنت فاننى أستهين بمصر نفسها . . فان مصر لا تعدو كونها مجموع هؤلاء وغيرهم من ابنائها المخلصين فى كل مكان . . لذلك فقد قمت بتسجيل كل ما دار فى هذه الندوات حرفيا ، وقمت بتفريغه وتبويبه وتصنيفه ودراسته دراسة وافية استخلصت منها كل ما هو مفيد وعكفت على تنفيذه .

ولم تكن هذه الندوات مفتوحة بلا جدول أعمال « ولكن بحكم خبرتى الطويلة » كنت قد حددت العديد من القضايا الكبيرة ، التى وضعتها فى شكل اسئلة امام تلك الندوات لأبحث لها عن اجابات عند كل ذى خبرة او ذى رأى .

وعلى الفور فقد بدأت فى تنفيذ ما توصلنا اليه فى شكل خطة عمل متكاملة بعد أن اهتديت بكل ما جمعته من افكار . . واول ما قمت به اعداد وتخطيط متكامل لمنطقة القناة . . « بورسعيد . . الاسماعيلية . . السويس » .

* * *

معركة على ثلاث جبهات

وبدأت العمل أو قل الحرب على ثلاث جبهات فى وقت واحد . .

وكأنه كتب على بدلا من أن أجد المساعدة على إنجاز ما أكلف به من مشروعات وطنية ممن يتصدون للمسئولية لم أجد الا محاولات الفرملة ، حيناً والشد الى الوراء حينا آخر وكأن ما اقوم بتنفيذه ليس لمصر التى ولتهم قمة المناصب فيها .

وكان على أن اصبر وان اقاوم . .

ولذلك الموضوع قصة . .

كانت المعركة الأولى ذات طبيعة اعلامية ، استهدفت فيها كشف اسرائيل أمام العالم الذى كنا نسعى الى كسب تأييده ، من خلال ما نقوم به من إنجازات فى منطقة القناة ، هى خير دليل لكل من يريد الدليل على أننا طلاب سلام . . والا فلماذا نقوم بتعمير هذه المنطقة ، فى الوقت الذى لا تزال فيه القوات الاسرائيلية ، فى سيناء على بعد عدة أميال منا .

كانت صحف وإذاعات العالم ، ووسائل إعلامه ، تتلقف كل مـــا كان يصل اليها من أنباء تنيعهـــا فى كل مــكان تصــل اليه . . مـــطبوعاتها أو موجات أثيرها .

وكانت وسائل الاعلام فى مصر على مختلف أنواعها قد التزمـت . . الصمت المقصود مع سبق الاصرار والترصد . . واعتبر المســئولون عن سياسة الاعلام فى تلك الوقت ، أن مـــا يجــرى فى منطقـــة القنال مـــن إنجازات رائعة هو نوع من قبيل الأسرار ، التى تتكتمها فى الوقــت الذى كنا نسعى فيه لتحقيق هدف سياسى ، من خــلال الاعلام عنهـــا . . وكان ذلك لأسباب خبيثة غلبت على أصــحابها فــطغت عندهـــم المصـــلحة الشخصية على المصلحة القومية . . ولأننى طيب القلب حــاولت تفســير ذلك بحسن نية . . إلا أن الواقع كشف عن الحقيقة عارية . .

كان يزور مواقع العمــل رجـــال الاعلام المصريون مــن صـــحفيين وإذاعيين ورجال التليفزيون وما الى ذلك .

كانوا يحصـــلون على الأخبار . . ويعـــدون التحقيقـــات الصـــحفية والبرامج الاذاعية والتليفزيونية ولم أحجب عنهم شــيئا . . ايمـــانا منى بضرورة أن أمكنهم من تأدية رســـالتهم ، تجـــاه جمـــاهير شــعبهم . . ليضعوا أمام أعينها ما يفرضه عليهم ضـــميرهم الوطنى ، بحــكم أنهـــم رجال فكر ، ومسئولون عن تشكيل الرأى العـــام ، بمـــا يقـــدمونه مـــن معلومات . . وبدلا من أن أرى وأسمع وأقرأ ما نقلوه مــن انطباعات . . كنت أسمع سؤالا واحداً من الاعلاميين جميعا . . كما لو كانوا قد اتفقوا عليه مع أننى كنت أسمعه مــن كل منهـــم على انفـــراد . . وكأنه أراد أن ينبهنى إلى أمر فاتنى ادراكه . .

كان السؤال . . هل بينك وبين أحد أى شىء ؟

وكانت اجـــابتى الطبيعية التى تعبر عن كل مـــا فى نفسى : ليس بينى وبين أحد إلا كل خير .

ولكنهم كانوا يلفتون نظرى وهم يقولون : إننا نعد مـــا نحصـــل عليه من مادة إعلامية . . وبعد أن تصبح جاهزة للنشر نفاجأ بعـــدم نشرهـــا

أو إذاعتها . . لماذا يحدث ذلك إذن ؟

ولم أجد ما أقوله لهم غير : ربما لأنه . . جد ما هو أهم . .

ولم أهتم وانصرفت الى خدمة مصر . . ولكن عز على أننى لم أطلب هالة اعْلامية لعثمان الذى كان اسمه المتواضع قد أصبح يملأ كل مكان . . ولم يكن لدى عجز فى الأداء كنت أريد تغطيته « بزفة » اعلامية . . فالعمل الذى كنت أقوم به يتحدث عن نفسه وعن مصر . . وعظمة عطاء أبنائها ، ليس فى ساحة القتال فحسب ولكن فى ساحة البناء أيضا . .

كنت أرجو من هؤلاء الذين كانوا يتصورون أنهم يستطيعون عرقلتى . . أن يرتفعوا الى مستوى مسئولياتهم فى المجالات التى أطلقت فيها أيديهم . .

ولأننى لست فى حاجة لأن أقول لأبناء مصر ، عما يتم . . فهو لهم وبهم . . اتجه اهتمامى ، لأن أقول عن مصر ، للعالم الذى كان يرتقب فى ذلك الوقت اتجاه خطها ووقع خطاها .

لذلك . . كان اهتمامى شديداً بالمراسلين الأجانب ، الذين رحت أنقل للعالم من خلال وسائلهم التى تغطى المعمورة كلها ، صورة صادقة وأمينة لنوايا مصر فى السلام . . ليس من خلال كلام يقال ولكن من خلال إنجاز أعمال . .

كان الاندهاش يسيطر على جيع مراسلى صحف واذاعات العالم وهم يتساءلون :

كيف أن الموقف العسكرى لا يزال متفجرا . . بينما نقوم نحن بعملية التعمير لتكون عرضة لكل المخاطر ؟

وكانت إجاباتى لهم : أننا نعمر . . لأننا طلاب سلام . . ولسنا مجرمى حرب . . حاربنا من أجل حقوقنا . . وليس لكى نغتصب حقوق أحد . . وكنت أقول لهم : نحن لا نعمر الا إذا كنا قادرين على حماية ما نعمره ، والدفاع عنه ؟ اى اننا نعمر لأننا طلاب سلام أقوياء . .

وكانت تلك الاجابات موضع مقارنة من جميع المراسلين . . بين موقف مصر التى تطلب السلام . . وموقف اسرائيل التى تريد اغتصاب

حقوق الغير . .

كنت اقول للعالم كله من خلال رسائلهم : إن مصر بينما هى قــادرة على الحرب الا انها لا تريدهـا . . إلا إذا اضــطرت اليهــا . . وليس هناك دليل اكثر مما ترونه بأعينكم ممــا يجــرى فى منطقــة القناة . . وكم كان للحوار من تأثير إيجابى على موقف كل من كان يتحدث معــى منهــم . . أو يذهب ليرى ما نحن بصدده من إنجازات مــن تأثير ، جعلت وســائل الاعلام الدولية تتجــاوب معــى ، وكان أن وجهــت دعوة للمســاهمة فى تخطيط منطقة القناة والساحل الشمالى ومداخل القاهرة تخطيطاً علمياً سليماً تشترك فيه المكاتب الهندســية الكبيرة وبيوت الخبرة فى كل الدول الصديقة . .

وجدت تلك الدعوة طريقها الى العالم كله من خلال وســائل اعلامــه التى سعت الينا . .

وكان لهذه الدعوة صداها عند اثنين وخمسين مكتبا هندسيا ، مــن أكبر بيوت الخبرة العالمية جاءت جميعا تتنافس من أجــل المســاهمة فى وضع ذلك التخطيط الجديد . .

وكنت قد كونت لجنة استشارية على مستوى عال جدا ، كذلك قمــت بانشاء الجهاز التنفيذى للتعمير . . وبدأنا على الفور عملية التخطيط . . وتحولت الوزارة الى خلية نحل .

ولم يقف الأمر عند المكاتب الهندسية الكبيرة التى تقــدمت . . ولكن منظمة العون الأمريكية aid جــاءت تعلن عن رغبتهــا ، فى تمــويل عملية التخطيط التى تزاحمت المكاتب الهندسية العالمية على القيام بها .

ورحبت بذلك العرض الذى يعفى مصر مــن تحمــل نفقــات هـــذا التخطيط .

وكانت المنظمة طلبت منى بعض البيانات والمعلومات التى تمكنها من أن تتحقق من صدق ما نقول . . ومــا تنقله وســائل إعلام العــالم فى ذلك الوقت .

وكان اعداد تلك المعلومات لا يحتاج الى أقل مــن ســبعة أشــهر . .

ولما لم يكن عندى من الوقت ما اضيعه . . لا مع هذه المنظمة ، ولا غيرها . . لذلك لم اقف طويلا لأفكر فى الاجابة على سؤالها .

هل أعطى كل جهدى لانجاز ما نحن بصدده أم اقف لكى أوفر لهم ما يطلبون ؟

وانتهيت الى انهم لو كانوا جادين فانهم سيتابعون ما نفعل وسيأتون بعد ذلك من تلقاء أنفسهم . أما نحن فلابد أن نسير فى الطريق الذى حددناه لأنفسنا دون أن تشغلنا عملية التمويل تلك . . على اعتبار انها سابقة لأوانها لذلك لم أستجب لطلبهم الذى طلبوه . . ولم ينفذوا عرضهم .

ولكنهم عادوا مرة أخرى بعد أن بهرهم الواقع الذى تابعوه .

قمنا باعداد عطاءات سليمة ومضبوطة لتخطيط منطقة القناة كل محافظة فى عطاء منفرد بالاضافة الى مداخل القاهرة والساحل الشمالى .

واعلنا أن من يريد التقدم فى كل هذه العطاءات أو فى اى منها من مختلف المكاتب الهندسية التى أعربت عن رغبتها فى المشاركة فى هذا التخطيط فليتقدم .

حدث ذلك بعد أن تأكدت من أن الاثنين والخمسين مكتبا التى تقدمت لنا هى مكاتب هندسية حقيقية . . وليست وهمية . . وانها سليمة السمعة . . عالية الكفاءة . . وذلك عن طريق سؤالنا للسفارة التى يتبع أى من هذه المكاتب دولتها . .

عودة الروح

ويهمنى بهذه المناسبة أن أسجل أن المكاتب الهندسية المصرية فى ذلك الوقت كانت قد انتهت ، وليس لها الا بقايا اطلال بعد أن كان النظام السابق ، قد أجهز عليها وقتلها وحول وجودها الى وجود شكلى . . لا فعل له . .

كان أكثر هذه المكاتب حيوية لا يزيد عدد المهندسين العاملين فيها عن ثمانية مهندسين على أحسن تقدير لا يعمل معظمهم بشكل منتظم . .

ولكن يعطى وقتا اضافيا بعد الظهر ليس أكثر . .

وكان لابد أن تستعيد هذه المكاتب المصرية شخصيتها ، ووجـودها وتمارس نشاطها وتكبر وتعود اليها الحياة مرة أخرى ، لكى تصبح فى المستقبل قادرة على تخطيط وتصميم كل مـا تحتاجـه نهضـة مصر الحديثة ، حتى لا تجد بلدنا نفسها ، تحت رحمة ، خبرة العـالم . . وكان لابد أن تبنى هى لنفسها خبرتها بيدها . .

تنبهت الى ذلك الوضع منذ اللحظة الأولى ، ووجدت المناسبة فرصة عظيمة لتحقيق ذلك الهدف .

لذلك عملت على تحقيق هدفين فى وقت واحـد . . ضرورة أن تنتعش هذه المكاتب وتبدأ فى ممارسة دورها من ناحية . . ومن ناحية ثانية كنت قد فطنت منذ زمن بعيد الى انه لا يمكن أن يبنى مصر ، الا أبناء مصر . . لذلك كان لابد أن نتيح الفرصة أمامهم بقدر ما أستطيع . .

وكان أن وجدت الفرصة فى تلك العطاءات ، التى طـرحتها ، عندمـا اشترطت على المكاتب التى تتقدم فى أى من العطاءات التى نطرحها ، أن يختار كل مكتب منها يكسب العطاء معه ، مكتبا هندسيا مصريا ، ليقـوم بتنفيذ العمل معه . .

وحدث ما أردته . . وأعاد ذلك القرار الى المكاتب المصرية حيويتها ، وانطلقت من يومها لتمارس الدور الذى تمارسه الآن ، فى صناعة نهضة مصر الحديثة . .

وعندما وصـلنا الى مـرحلة فتح المظـاريف ، فى العـطاءات التى طرحناها ، أردت أن ندخل عنصراً جديداً ، يؤكد ثقـة العـالم فى جـدية ما نحن بصـدده ، وكان لذلك العنصر أثر ايجـابى رائع . . وتلخص ذلك العنصر فى أننى قبل فتح المظاريف فى كل عطاء كنت أقوم باخطار سفارة أكثر من دولة كبيرة أطلب منها ترشيح أسـتاذ كبير معـروف فى مجـال التخطيط العمرانى ، فى جامعات بلدها . . وكنت أستضيف ذلك الأسـتاذ استضافة كاملة مع تحمل ثمن تذكرة الطائرة ، وتقدير أتعاب انتقـاله . . ولم تكن لى عنده أية مطالب سوى حضور جلسة فتح المظاريف فقـط . .

وكنت اطلب أيضا من الجامعات المصرية بأن ترشح لى أحد أساتذتها لنفس الغرض بالاضافة الى المكتب الاستشارى الذى كونته فى الوزارة من أربعة خبراء . .

وكان يشكل كل هؤلاء لجنة التحكيم التى كانت تقوم باختيار انسب عرض من بين العروض التى تتقدم بها بيوت الخبرة المتقدمة لشراء العطاء .

وكان يتم استبدال ممثلى الدول الاجنبية الذين دعوتهم ، بممثلين آخرين من دول أخرى ، حتى يشارك أكبر عدد ممكن من دول العالم وخبرائها ، ليرى الجميع صدق وجدية ما نفعل ولكى نعطى الثقة للعالم فيما نقوم به من أعمال . .

(عودة اخرى)

واثناء عمل ذلك كله كانت منظمة العون الامريكية aid تتابع ما نفعل ، وعندما تأكدت من سلامة وجدية ما كنا نقوم به ، جاءت مرة أخرى . . ولكن دون أن تناقش فى شىء او ان تكون لها أية مطالب هذه المرة ، كما كانت فى المرة الأولى . . ودفعت ما قيمته أربعة عشر مليون دولار ، هى مجموع تكاليف ، كل تلك العطاءات التى تقدمنا بها لتخطيط بور سعيد والاسماعلية والسويس ومداخل القاهرة والساحل الشمالى . .

وبعدها تدفقت الخبرة الأجنبية فى كافة المجالات ، وقد أحسنا مقابلة ومعاملة كل هؤلاء ، بنظام بسيط للعلاقات العامة ، لم يكلفنا الكثير إذا قارنا ما حصلنا عليه بما تكلفناه ونحن بصدد استقبال هؤلاء الخبراء ، ورحمنا الدولة من أن تتحمل نفقات اعداد التخطيط ، الذى نسير على هديه من وقتها وحتى الآن . .

(المعركة الثانية)

أما الجبهة الثانية للمعركة التى واجهتنا على ثلاث جبهات فتتلخص فى سؤال لا أزال أسأله لنفسى ولم أجد له اجابة مقنعة حتى الآن ؟

ماذا كان يريد السياسون « أياهم » ـ الذين عاصرتهم أثناء عملى

الوزارى ـ منى ان افعله غير ما فعلت ؟

تبين لى أن مـــا كنت أقـــوم به يبدو أنه لم يرق فى نظــــرهم ، وبدا كما لو كان مختلفا عما كانوا يريدونه .

حاولت معهم لكى يفهموا أن ما كنت أقـــوم بتنفيذه ليس محســـوبا لى ، ولكن التاريخ سيقول أنه تم فى عهد وزارة فلان . . أى من الوزارات التى تعاقبت أثناء تقلدى منصب وزارة التعمير وبعدها وزارة الاســـكان والتعمير الى أن تركت لهم « الجمل بما حمل » . . ولن يقـــول التاريخ إنه تم فى عهد عثمان أحمد عثمان . . بل حتى لو قال التاريخ إن الذى نفـــذه عثمان فانه مضطر لأن يقول فى عهد وزارة فلان ولكننى لم أجد . . لا من مستمع ولا من مجيب . .

لم ارتكب جريمة فى حق مصر او فى حق اى منهم . . ولم أطمع فى يوم من الأيام ولن أطمع فى كرسى كان يجلس عليه أحدهـم . . إلا أن الخناجر التى دفنوها فى ظهرى بلا مبرر واضـــح أســـتطيع أن افهمـــه ، لا يمـــكن حصرها . وإن كنت كثيرا ما تساءلت :

هل حب الذات وصـــل بهـــم الى حـــد إنكار مصر ، الى الحـــد الذى أعماهم عن رؤية مصلحتها الا فى الاطار الذى يسمح لهم بالبقاء أطـــول وقت ممكن على حساب مصر . . التى أعطاها أى منهم كل لسانه وبعض قلبه . . مصر التى أعطيتها كل قلبى . . وما أعطيته وأعطيه لها ، مـــع أنه لا يعطيها حقها . . أصبح هو وحده لسان حالى وحال حبى لها .

وفضلت رغم كل ما حدث أن أظل كما أنا لا أرى السـياسة . . إلا . . وضوحا وصراحة وصدقا واســـتقامة . . أمـــا الذين لا يرون الســـياسة إلا بمنظار ما قبل الثورة . . فلا أجد مـــا أقـــوله لهـــم إلا : ســـامحكم الله عنى . . أما مصر فأرجوكم ان ترفعوا عنها أيديكم .

(فى مجلس الشعب)

مع أن ما تعرضت له لم يقف عند حد ما حـــكيت ، عندمـــا كانت تمنع مـــن النشر أخبارى التى هـــى أخبار مصر كلهـــا ، فى تلك المنطقـــة وتلك اللحظة من التاريخ .

ولكن تخطى حقد من تولى منهم بعـــد ذلك هـــذه النقـــطة . . وتجلى

واضحا فى مجلس الشعب ، عندما استأجروا مأجورا يهاجمنى ويهـاجم وزارة التعمير ، فى وزارتين متتاليتين . . علما بأن شقيق ذلك المأجور قد تم ضبطه ، وهو يسرق سيارة محملة بالحديد والاسمنت من مواد البناء الخاصة بشركة المقاولون العرب . . ويكون بذلك قـد جمـع بين سـلاطة اللسان ، ودناءة النفس . . ولذلك فليس غريبا عليه . . أن يطـول لسـانه على عثمان أحمد عثمان أو غيره . طالما تلك هى أخلاقياته .

ولكن الغريب هو تصرف من استأجروه . . فيا ليت مستأجريه كانوا من القوى المعادية للنظام سواء فى الداخل ، والخارج . . ولكنهم للأسـف يتولون مركز الصدارة فيه ومع ذلك راحـوا ينالون مـن النظـام ومـن منجزاته بدلا من أن يدافعوا عنه وعنها .

ويبدو أن الأمر قد اختلط عليهم . . فلم يسـتطيعوا أن يفـرقوا بين حقدهم ، على عثمان أحمد عثمان ، وبين ما تم على يديه مـن انجـازات هى محسوبة لمصر . . ومنسوبه اليهم . . فراحوا يتصرفـون كالدبة التى قتلت صاحبها دون أن تقصد . . وإن كانوا هم يقصدون . .

ولم يخطر على بالى أن أمثال هؤلاء الذين يفترض فيهـم الحـرص على النظام والدفاع عنه يمكن أن يدبروا مثل تلك الدسائس ضد عثمـان أحمد عثمان ليس بصفته الشـخصية ولكن بصـفته وزيرا مسـئولا فى وزارتين متتالتين . . ولأهمية العمل الذى كان يقوم به . . كان من المتوقع أن تتحرك قلوب الناس كلها حرصاً عليه . . وليس حقـداً ضـده وكثيراً ما تساءلت :

هل الحقد يدفع الانسان الى ذلك . والى أن يعمى بصره من أن يرى مصلحة بلده ؟

كانوا يدبرون تلك الأمور ضدى فى الخفـاء للنيل منى . . بينمـا كنت استبعد أن يلعـب أى منهـم ذلك الدور . . سـواء أكان فى الوزارة أو فى مجلس الوزراء أو فى مجلس الشعب . . لذلك كنت أذهب اليهـم ، أعرض عليهم ، ما أراه يدور ضدى على اعتبار أنهم معى فـكان يحـدث منهـم ما هو أكثر غرابة . .

كانوا يتمادون فى تعميتى . . عندما كانوا يستنكرون فى مواجهتى ما يحدث لى ويبدون استعدادهم للدفاع عنى .

كنت أصدقهم . . لم أكن أعرف أنهم هم الذين يطلقون الكلاب خلفى ويتظاهرون بأنهم يهمون لابعادها عنى . . .

ولكن شاء الله سبحانه وتعالى أن أضبط أحدهم بالصدفة متلبسا وهو يدبر المؤامرات ضدى . .

ذهبت إليه لأسأل عنه فى مكتبه . . فقالوا لى . . إنه غير موجود . . وقبل أن أنصرف شاء القدر أن التقى صدفة بأحد الأصدقاء الذى استوقفنى لبضع دقائق أمام باب مكتب ذلك المسئول . .

وكانت المفاجأة . . لقد خرج ذلك المسئول من حجرة مكتبه وبصحبته ذلك المأجور ، الذى أطلقوه على بالعمد وراحوا يتظاهرون بأنهم يدافعون عنى ، خشية اللوم .

ولم أفاتح ذلك المسئول فى شىء ولكننى وجدته من تلقاء نفسه يقول لى متلعثما . . استدعيته للمناورة عليه . . مع أنه كان يرسم الخطة معه . .

وذلك المسئول بالذات ، كنت استبعد أن يلعب هذا الدور لأكثر من سبب . .

ولكن الأغراض الشخصية تحركت فأعمته وأعمتهم ، عن أن يروا فى الصورة الا أنفسهم . . ونسوا أنهم سيكونون أول ضحايا اللعب بالنار ، إذا ما أصاب هذا النظام لا قدر الله . . أدنى سوء .

فعلوا ذلك لأنهم توهموا ، ما لم يكن ، ولن يكون ، يوما ما فى حساباتى ، وحسبوا حساباتهم على أساسه حتى ولو كان النظام نفسه هو الذى يدفع الثمن ، فراحوا يفكرون فى إزاحتى عن الطريق التى كانوا يستهدفونها ، مع اننى لم ولن افكر فيه ، ولا أسعى إليه . . فعلوا ذلك رغم محاولاتى لاقناعهم وإفهامهم . . اننى لست واحدا فى الحلبة التى يتصارعون حولها . .

ولم أعبأ أبدا بكل ما حدث منهم . . أو ممن كانوا يستخدمونهم . .

لأنهم ليسوا إلا أصفارا على اليسار . . تمنيت لها أن تكون أرقــاما على اليمين !

تعلمت . . تعلمت

وعموما تعلمت الكثير فى الفترة التى توليت فيها وزارة التعمير وأول ما تعلمته . . هو إصرارى على التمسك بالســير ، على القيم ، والمبادىء والأسس التى سرت على دربها طوال حياتى ، واقتنعت بها ومعها ، بأن الالتواء لا ينفع ، وفى النهاية لا يصح إلا الصحيح .

ولن أمارس السياسة بالطريقة القديمة التى يمارسون بهــا ، والتى يفهمون على أساسها السياسة . . على أنهــا لف ودوران ولعــب خلف الستار ودسائس ومناورات ، تحــكمها فى النهــاية أهــداف شــخصية بحتة . . أمــا مصر عندهــم فقــد احتلت المقعــد الأخير ، على مسرح أفكارهم ، الذى امتلات كواليسه بالأفاعى . .

وتعلمت أيضا عدم جدوى تعاونى مع أمثال هؤلاء لأن كلا منا ينتمى الى مدرسة مختلفة فى التفكير . . فهــم يســعون الى تشــييد أمجـــاد شخصية . . فى الوقت الذى أسعى فيه أنا إلى تشييد ما ينفــع الناس . . وإن كان أسمى قد ارتبط به . . إلا أنه لم يكن ذلك هو هدفى منه . .

المواجهة واجبة

ووصل بى الوضوح . . ودفعتنى الصراحة لأن أذهب الى أخر رئيس وزراء تعاونت معه وواجهته فى مكتبه . . وكان أن قلت له :

يا سيادة رئيس الوزراء إن هذه الوزارة هى وزارتك وليست وزارة عثمان أحمد عثمان وأى إنجاز يتم فى أى مجــال خــاصة المجــال الذى أتولاه منسوب إليك وليس لى ، فحتى لو قال التاريخ إن عثمــان أحمــد عثمان ، هو الذى أنجز ذلك ، فانه ســيقول إن ذلك الانجــاز تم فى عهــد وزارة فلان . .

لذلك فاننى أسألك :

لماذا تعترض طريقى ولا تساعدنى ، وتقف ضدى مع أنه يجب عليك ، أن تدفع كل وزير فى فريق وزارتك لأن يعمل إذا تراخى . . فى الوقت الذى

يجـب عليك نلك أجـد نفسى اسـتنجد بك والح عليك . . لأن تتيح لى الفرصة . . ولكننى لا أجد إلا العكس . . وهذا ما لم أفهمه .

فتعلثم وتردد وارتبك وهو يقول :

ابدا . . ومن الذى يعترض طريقك ؟ .

قلت له : وزير تخطيطك . . أحد رجالك المحسوب عليك . . والمنسوب اليك . . فهو ليس أحد وزرائك . . ولكنه رجلك .

فسألنى : ماذا حدث منه ؟

وكان أن رويت له ما حدث من وزير التخـطيط عندمـا ذهبت اليه ، لأقول له إن هناك أمرين لا يختلف عليهما اثنان ، وليس هناك ما هو أهم منهمـا همـا : الأكل والاسـكان . . والمأوى لا يقـل أهمية عن الأكل . . فوجدته يقول لى : ماذا تريد بالاسكان وللاسكان . . انشـلله الناس تنام على التلتوار ! !

فهل هذا منطق يتحدث به وزير يا سيادة رئيس الوزراء ؟

لذلك قلت لرئيس الوزراء الذى كنت أحدثه إننى لن أشترك معـك فى الوزارة مرة أخرى مادمت رئيسـا للوزارة بل لن اشـترك فى وزارة أى أحد غيرك . . مادام هذا مفهوم السياسة عندكم . . وإننى جربت العمـل مع ثلاثة فوجدتكم صور كربون من بعضكم ومن يأتى لن يكون إلا صورة منكم . . ولا أعرف لماذا تطوع المخلصون لأن يتركوا المناصب لكم .

وحاول إثنائى : إلا أننى صـممت لأننى كنت قـد قـررت ونفـذت ما انتهيت اليه . .

شهادة للتاريخ

ومـع ان كل هؤلاء يعملون بالقـرب مـن الرئيس السـادات إلا أن عقولهم لم تستطع أن تطـوع نفسـها لكى تتعلم منه سـياسة الخـط المستقيم ، التى بح صوته وهو يتحدث عنها . ولن يهدأ له بال إلا إذا زرع بذرتها لتنبت شجرتها فى أجيال جديدة ، أكثر قـدرة على أن تسـتوعب روح الصراحة والصدق والوضوح والأمانة . . شتان بين هـذا العمـلاق الذى لا يخـاف إلا ربه ويثق فى قـدراته . . وبين هؤلاء الأقـزام الذين يخافون من كل رجل ناجح ، حتى ولو كانوا هـم الذين سـيجنون ثمـار نجاحه .

القفز من فوق أسوار الروتين

خلال تلك الفترة كنت أخوض معركتي الرئيسية على جبهة ثالثة لانجاز المهمة الوطنية التي كلفني بها الزعيم محمد انور السادات .

وبعد فترة من تولي وزارة التعمير ، انضمت لي وزارة الاسكان ، وأصبحت وزيرا للاسكان والتعمير . .

وأول عمل قمت به جمعت جميع رؤساء مجالس إدارات شركات الاسكان ، وجلست معهم وكان حديثنا كله يتجه الى المستقبل ، ولم ننظر الى الوراء ، الا بالقدر الذي يفيدنا فيما نحن بصدده . .

واتفقت معهم على أن تعمير مصر أصبح من مسئوليتهم ، ولا مفر من أن يتحملوا قدرهم بشجاعة . .

وقلت لهم : تعالوا نضع أيدينا فى أيدى بعضنا ونتناول بصراحة المعوقات ألتى تشل حركة انطلاقنا .

وأصدرت فى نفس الجلسة ، قرارا بتفويض كل رئيس مجلس ادارة فى شركته ، جميع اختصاصات وسلطات وصلاحيات وزير الاسكان والتعمير . .

وطلبت منهم أن نثبت خطأ الفكرة التى تشكك فى قدرات شركات الاسكان بعد أن أصبحت شركات قطاع عام . . ولا طريق لنا إلا العمل الذى نستطيع أن نثبت فيه أنفسنا ونثبت أن الخطأ لم يكن فى الماضى خطأنا ولكنه خطأ القيود التى كانت تكبل حركة كل منا .

وطلبت من كل رئيس مجلس ادارة أن يعيد ترتيب وتنظيم أوضاع شركته ، بالشكل الذى يراه . . ولا مسئولية لاى رئيس مجلس إدارة بعد

أن تركت له كل الأمر فى شركته . . الا حجم ما يعطيه من انتاج .

والأمر الذى اندهشت له كثيرا ، عندما توليت مسئولية الوزارة وجدت أن التصريح لسفر أى من العاملين الى الخارج من اختصاص الوزير لقد وجدت أكثر من خمسة آلاف طلب سفر الى الخارج لم يبت فيها . . ولا أعرف كيف تصبح هذه المسألة من اختصاص وزير ، ثم اذا ما أضيفت اليها المسائل الأخرى المثيلة لها . . فأين الوقت الذى يجده بعد ذلك ، لكى يباشر المهام الاساسية لعمله كوزير ؟ ! لذلك قررت تفويض هذه الصلاحية لرؤساء مجالس إدارات الشركات .

وعندما وثقت فيهم وأعطيتهم الصلاحيات اثبتوا سلامة معدن الانسان المصرى الأصيل ، القادر على العطاء . . فأثبتوا أنهم جميعا اهلا للمسئولية والثقة وضربوا المثل فى الكيفية التى يجب أن يداربها العمل فى القطاع العام ، عندما يجد من يتولى مسئوليته الصلاحيات الكافية ، ولا نسأله إلا عن شىء واحد . . هل حقق الهدف المطلوب منه تحقيقه أم لا ؟

والحمد لله . . نجح العمل فى وزارة الاسكان بهذا الاسلوب فى تلك الفترة نجاحا لم تشهده وزارة الاسكان فى أى فترة أخرى ، ووثائق الوزارة موجودة ، تثبت كل شىء لمن يريد أن يتحرى تلك الحقيقة .

وبعد نجاح تلك التجربة لا أعرف . . لماذا لا نطبقها فى كل الشركات حتى نستطيع أن ننفخ فى صورة القطاع العام . .

رجل مسنود

وكعادتى طوال حياتى لم ارفت موظفا ، لم أوقع الجزاء على أحد الا مرتين . . مرة فى المقاولون العرب ورويت على صفحات أخرى قصة صاحبها الذى أعدته مرة أخرى وكان ذلك فى بداية التأميم . . وكانت المرة الثانية أثناء توليتى وزارة الاسكان والتعمير . .

كان لوزارة الاسكان وكيل أول أراد أن « يفرد عضلاته » . . لقد كان متصلا بذوى النفوذ والسلطان ، وذات مساء عقدت اجتماعا كبيرا فى الوزارة ولم يحضر ذلك الموظف الاجتماع . . ولم اكن اعرف ما إذا كان

حضر الاجتمــاع أم لا ، إلا عندمــا جــاء لى فى الصـــباح يعتذر عن عدم حضوره الاجتماع وكان يمــكن أن تقــف المســألة عند ذلك الاعتذار . . واعتذاره مقبول ، ولكنه استثارنى عندما قال لى إنه كان مجتمعــا مــع مجموعة من « عليه » القــوم ولذلك الســبب لم يحضر الاجتمــاع . . ولم أتكلم معه فى شيء . . ولكن بعد خروجه من حجرة مكتبى بساعة واحــدة أصدرت قرار ندبه ، وبذل ذلك الموظف محاولات مســتميتة الى حــد أن رئيس الوزراء فى ذلك الوقت تكلم معى بخصوصه ، وتوســط له عندى ، وألح فى وساطته ، ولكننى رفضــت أن أعود فى قــرارى أو أن يعــود ذلك الموظف الى وزارة الاســكان مــادمت أتولى أمــرها ، وكان السر الذى يكمن وراء اصرارى . . أن ذلك لا يأتى الا ممن يتصور أنه مــركز قــوة وضعه « الجماعة إياهم » كعقبة أمامى . . لذلك قررت ألا يكون له مــكان عندى ونفذت ما قــررته . . وكان ذلك القــرار هــو القــرار الوحيد الذى اتخذته فى حياتى ضد انسان . . ورفضت الرجوع فيه . . وكان مبرر عدم رجوعى واضحا . . فهو يقبض مرتبه . . ولذلك فلا حرب له فى رزق أولاده ورزقه . . ولكن ما حدث أننى أبعدته حتى أستطيع العمل فى جو سليم .

كلمة وفاء

إن جهاز التشييد خلال السنوات الثلاث التى توليت فيها مسئوليته انجز أعمالا ضخمة ، لم ينجزها منذ أن أصبح قطاعا عاما والى الآن . . لذلك فاننى أجد من الوفــاء هنا أن أوجــه التحية والتقــدير ، لكل هؤلاء الرجال الذين عملوا معى من أجل مصر ، بكل الاخــلاص ، واثبتوا أن فى مصر رجالا على قدر ما تعطيهم من صلاحيات . . على قدر ما تفسح لهم الطريق . . وعلى قدر ما تعطيهم ثقة . . على قدر كل ذلك تستطيع أن تأخذ منهم إنتاجا .

الرقابة الادارية

لم تعجب الرقابة الادارية طريقة أداء الرجــال . . فــراحت تســطر التقارير التى تراكمت فى مكتبى والتى تطعن فيها فى الشرفــاء عندى . . ولم أجد أمامى من رد لاعتبار هؤلاء الشرفــاء إلا أن اصــدر قــرارات بترقيتهم ، رغم اعتراض الرقابة الادارية عليهم . . ولم أفعــل أكثر مــن

أننى كنت أعطى هؤلاء الرجال حقهم .

وسأروى هنا واقعة واحدة من عشرات الوقـائع الكائنة التى كانت الرقـابة الادارية تلفقهـا للشرفـاء . . ليس عندى فى وزارة الاسـكان وحدها . . ولكن فى كل مكان . . ولذلك كان قرار الغائها فضلا عظيما .

علمتنى تجربتى أن مـن ليس عنده رقـابة داخلية مـن نفسـه على نفسه ، بوازع من ضميره ، لا يجدى معه اى اسلوب من أساليب الرقابة الخارجية التى تمارس معه مهما كانت قوتها .

لذلك اعتمدت على رقابة الانسان الذى يخاف ربه . . ووجدت أفضل وسيلة للرقـابة فى اختيار عناصر مـؤمنه ذات قيم وأخـلاقيات ، ومبادىء ، كبداية ، ثم توليت تأكيد هذه القيم وتعميقها فى كل مـن عمـل معى وفوق هذه القـواعد الخـرسانية المتينة والسـليمة ارتفـع صرح المقاولون العرب .

وكم كنت أعجب عندما أرى جهازا كبيرا ضـخما اسـمه « جهـاز الرقـابة الادارية » يكبد الدولة ثم قلبهـا ويشـكك الناس فى الناس وفى ذممها ويشوه صور الناس ، ويكتب عنهم ما يرضى الجهاز إذا لم يرضوه أو يرضوا موظفيه حتى لو كان ما يقوله لا يرضى الله . . وتحول الجهـاز إلى سيف على رقاب الناس للتخويف بدلا من أن يكون وسيلة للتقويم . . وكان الشرفاء أول ضحاياه .

وارتبط وجود ذلك الجهاز بمـراكز القـوى عندمـا أظلمـوا مصر وظلموها ، فظهر اللصوص ، وكان لابد أن يراقب بعضهم البعض .

صورة عكس مـا نراه الآن عندمـا أشرقـت الشـمس . . وفى النور لا نرى الا كل شىء سـليم . . حتى اللصـوص أنفسـهم . . لا يبدون الا مواطنين عابيين ، ولا يمارسون هواياتهم .

لذلك كنت ضد جهاز يحمل ذلك الاسم او يلعب ذلك الدور ، وطـالبت بالغائه منذ أن كنت وزيرا للاسكان والتعمير ومحاضر جلسـات مجلس الوزراء فى تلك الفترة تثبت ذلك ولم يكن هذا الرأى منى تجنيا على أحد ، لقد تعودت بفضل تجربتى الا اقول رأيا الا اذا كان له عندى تجربة عملية

جربتها بنفسى . . فما هى التجربة التى جعلتنى اقتنع بهذا الرأى ؟

سرى جدا

عندما كنت وزيرا للاسكان والتعمير وصلنى خطاب من جهاز الرقابة الادارية ، يقول فيه إن المدير المكلف بتنفيذ عملية كوبرى ٦ أكتوبر ، شوهد على قارعه ، الطريق ، يحتسى الخمر فى وضح النهار .

كان يحمل الخطاب درجة سرى جدا . . والمدير المنوط به هذا العمل هو من ابناء المقاولون العرب الشرفاء الذين ربيتهم وأعتز بأخلاقياتهم ، وقيمهم وكفاءتهم وعلاقة ذلك المدير بربه على أحسن ما يكون . .

وهكذا كان يطعن الشرفاء والامناء والممتازون فى شرفهم وكفاءتهم وفى أخلاقياتهم أيضا ، ليس فى المقاولون العرب وحدها ولكن فى مصر كلها .

وسألت نفسى : ترى لو لم يكن هذا المهندس الممتاز من أبنائى فماذا كنت سأقول عليه وأفعل معه ؟ . . ولو لم اكن أنا وزيرا للاسكان والتعمير ترى ماذا كان سيفعل الوزير الذى يجلس مكانى ؟

وبدلا من أن يكون قرارى مساءلة هذا المهندس،كان هو المطالبة بالغاء ذلك الجهاز الذى ظل يعمل بالاساليب التى علمتها له مراكز القوى ولم يغير منها ، والاغرب من ذلك انه لم يكن قد عرف بعد . . وهو جهاز رقابة . . أن الشمس قد أشرقت وأن الدنيا قد تغيرت . .

ورغم كل تلك القناعة عندى ، استدعيت المهندس على جودت واكتفيت بأن أعطيته الخطاب السرى المكتوب ضده .

وقلت له ما رأيك يا باشمهندس ؟

وكانت إجابته كما توقعت .

قال : إذا كنت تصدق هذا الكلام أو تطرق لك مجرد الشك ، فأنا أضع نفسى تحت تصرفك . . وافعل بى ومعى ما شئت . . ولن أدافع عن نفسى أمامك ، ولكن إذا كنت قد صدقت ما فى هذا الخطاب . . لا أستطيع أن أقول لك إلا اننى كذلك . .

وحاولت أن أعرف السر وراء كتابة ذلك التقرير ضد المهندس على جودت . . فعرفت أنه رفض تلبية مطلب لأحد موظفي ذلك الجهاز . . لذلك كان لابد وأن يلقى جزاءه بتقرير يجهز على كل مستقبله . . بهذه البساطة كانت تتحدد مصائر الناس . .

ولو كان على جودت من العناصر السيئة واستجاب لأصبح فى نظرهم وتقاريرهم سيد الشرفاء . .

هكذا كان يعمل ذلك الجهاز المنحل قبل أن يحل فلم يجد الا هذا المهندس الذى ليس عنده ما يشغله . . فانصرف إلى احتساء الخمر على قارعة الطريق فى « عز النهار . . » . وهو فى قلب موقع العمل بين عشرات المهندسين . . ومئات الملاحظين وآلاف العمال الذين كان يقودهم لانجاز هذا المشروع العظيم .

الادارة السليمة اقوى

وكان أن اثرت ذلك الموضوع فى أحد اجتماعات مجلس الوزراء وقلت . . إن الادارة السليمة هى أقوى أجهزة الرقابة .

ويجب أن نسأل كل رئيس قطاع وشركة على نتيجة أو حصيلة عملة ، فى نهاية كل عام ، فاذا حقق الهدف الموضوع له كان بها ونعمت . . وان لم يحقق فيعاد النظر فى أمره ويبعد فورا ويتولى من هو اقدر ـ هذا هو الاسلوب السليم لترشيد الأداء ، وليس جهاز الرقابة الادارية أو غيرها .

وكان هذا هو رايى إلى أن أصدر الرئيس قرار الغاء الرقابة الادارية . . ولم يكن فى نظرى قرار الغاء جهاز ، ولكن قرار تصفية جيب من الجيوب التى خلفتها مراكز القوى من ورائها وكان لابد أن ننظف البلد منها .

تخطى الروتين

كيف أدير وزارة التعمير ؟

سؤال وقفت حائرا أمامه ولم أجد له إجابة الا عندما انتهيت إلى ضرورة أن أقفز من فوق أسوار الروتين لكى أتخطاه دون أن يضيع

وقتى وجهدى فى الالتفاف من حوله أو محـــاولة هـــدمه ، بعـــد أن فشـــل الكثيرون من قبلى فى التعامل معه . . وتركته خلفى وانطلقت .

ولذلك الانطلاق قصة . .

رفضت أن أدير الوزارة من مكتب فى القاهرة يقع خلف العديد مـــن الصالونات الفاخرة ولم أدرها بواسطة موظفين يجلسون خلف مـــكاتب عتيدة يسبحون بحمد الروتين . . ولكننى اتخذت من مواقع العمل مقـــراً للادارة . . وكانت الدولة قد خصصـــت طـــائرة هليوكوبتر للوزارة . . ولم أستخدمها وحدى ولكن كنت أصطحب معـــى فيهـــا جميع المســـئولين فى الوزارة حتى يتسنى لى اتخاذ القرارات وتنفيذها فورا فى موقع العمـــل دون الحاجة الى الرجوع للقاهرة حيث يوجد مقر الوزارة .

عندما كنت أذهب الى اى منطقة ، من مناطق محافظات التعمير كنت أعقد مؤتمرا أناقش فيه كل شىء على الطبيعة مع الناس ، وأصدر أثناءه القرارات للعمل على حل المشاكل التى تطرح ، ويقـــوم التنفيذيون الذين معى بتنفيذها فى نفس اللحظة . .

لم ألجأ الى الأساليب الروتينية البيروقراطية التقليدية العفنة ، كأن استمع الى المشكلة وأعد بدراستها ثم أكلف لجنة لتقديم تقرير ، واللجنة تعقد الاجتماع تلو الاجتماع وتتفق وتختلف . . وتدور فى دوامة ليس لهـــا اخر ، وليس لها الا نتيجة واحدة وهـــى تعقيد الأمـــور أكثر ممـــا هـــى معقدة . .

لم ألف حول الروتين ولم أترك الروتين يدور حولى ثم يدور كلانا فى حلقة مفرغة دون أن أصل إلى هدف . . فقد كنت أجمـــع كل المســـئولين واطرح عليهم جميع الأمور لنناقشها معا وما ننتهى اليه من قرارات كنا نبدأ على الفور فى تنفيذه .

عرفت أن هذه الطريقة وحدها هى أقوى الأسلحة التى تمكننا مـــن مواجهة الروتين ، أى أن نقفز من فوق أسواره ونتخطاه ، لأننا لو شغلنا أنفسنا بهدم هذه الأسوار ، لفتح الطريق فان وقتنا وجهدنا سيضيع دون أن نتمكن من هـــدمها . . ففـــطنت الى أننا لو تعـــاملنا مـــع الروتين . .

ستصيبنا عدواه بل سندمنه ونجد انفسنا أسرى له ، وهذا ما رفضته وما أزال ارفضه فى كل عمل أقوم به .

فمثلا . . عندما كنت أجد نفسى فى حاجة لأن أبحث موقف مواد البناء . . لم اعتمد على المذكرات والتقارير التى تتحول فى النهاية الى ملفات بدلا من حل المشاكل تصبح عبئا علينا ، تزدحم بها الغرف وتحتاج الى مزيد من الدواليب . . ولكن كنت أجمع جميع المختصين ونضع أمامنا المشاكل . .

فبالنسبة لاحتياجاتنا من الحديد مثلا ، كنت اسأل أسئلة محددة كم طنا تنتجه مصانعنا فى العام ؟ فيقولون لى مائة ألف طن مثلا .

وكم طنا نقوم باستيرادها ؟ يجيبون : مائة ألف طن أيضا .

واعود لأسأل وكم ألف طن يحتاجها العمل ؟ وتأتينى الاجابة مائتان وخمسون الف طن . . أى اننا نحتاج الى خمسين الف طن أخرى ، لكى نغطى احتياجات وزارة الاسكان لممارسة عملها العادى .

وأسأل ايضا . . كم الف طن تحتاجها عملية المشروعات الجديدة فى مجال العمير يقولون مائة الف طن مثلا . .

أى ان احتياجاتنا ثلثمائة وخمسون ألف طن ، تنتج منها مائة ألف طن ، وتستورد مائة ألف . . أى اننا نحتاج الى استيراد مائة وخمسين الف طن أخرى . . حتى نغطى كل الاحتياجات .

وعلى الفور كنت أصدر قرار استيراد الكميات الازمة ، ليس بالكاد ولكن بزيادة عشرين الف طن أخرى احتياطى حتى لا نتعرض لأى نقص فى احتياجاتنا .

وكنت اتبع ذلك الاسلوب ليس بالنسبة لسلعة واحدة من مواد البناء ولكن بالنسبة لها جميعا فمثلا سألت عن سبب ازمة الزجاج وقتها والتى وصل سعر المتر فيها الى اربعة جنيهات بينما كان سعره فى الخارج ستين قرشا .

فوجدت الاجابة فى نقص الاستيراد .

فقررت استيراد كميات هائلة منه وصلت الى اربعة ملايين متر ،

وانخفض سعره الى ثمانين قرشا . . فعلت هذا الامر بالنسـبة للزنك .
والخشب الذى استوردت منه ستمائة الف متر بدفعة واحدة .

درست فى ذلك الوقت مع المحافظين احتياجات محافظاتهم من مواد البناء . . وعملت على توفيرها . . وانهيت السوق السوداء فى كل مكان . . باغراق السوق بما هو أكثر من الاحتياجـات . . وهـذا هـو الطـريق الوحيد . .

لم اعترف ولن أعترف بما يقولون انه أزمات . . بل هناك سوء إدارة والمسألة لا تحتاج الى أكثر من التنظيم لحل معظم مشاكلنا . .

إن ذلك هو كل ما فعلته عندما قررت أن اقفـز مـن فـوق اسـوار الروتين ، دون أن أصطدم به .

مع الأجانب . . ايضا

وخلال تلك الفترة الحافلة بالعمل لم أتأخر مرة واحدة ، عن استقبال أى أجنبى يطلب مقـابلتى ، رغبة منه فى الدخـول معنا فى مشروعات مشتركة ، وشـجعتهم رحـابة صـدرنا على أن يسـتفسروا منا عن كل ما يتسـاءلون عنه فى كل مجـالات الاسـتثمار التى تخـرج عن دائرة اختصاص الوزارة . . ومع ذلك لم نعتذر لأى منهم مرة ، ولكن كنا نسهل لهم كل ما يريدونه ، لأن المصلحة فى النهاية هى مصلحة مصر . .

ونواب الشعب

وفى نفس الوقت كنت كوزير مسئول ، أحرص على مقابلة كل عضـو من أعضاء مجلس الشعب ، فى أى وقت كان يريد فيه مقابلتى ولأى أمـر من الأمور ، والشىء الذى احمد الله عليه أنه . . لم يخرج أى منهـم مـن مكتبى مرة وهو غير راض سـواء كنت قـد اسـتجبت الى مـطالبه أو اعتذرت له بعدما اقدم له الحجج التى تقنعه . .

وذات مرة جاءنى أحد النواب الصعايدة يقـول لى مـا أزعجنى ولم يهدأ بالى الا بعد ان تأكدت بنفسى من تنفيذ ما طلبه . .

قال لى : إن إحدى قرى دائرته ، لم يجـدوا فيهـا مـاء لتطهير جثة

مواطن انتقل الى رحمة الله . .

وتأثرت جدا بما قاله لى ، وتركت لحظتها كل شيء وتفـرغت تمـاما لذلك الموضوع ، ولم أتركه من ذهنى الا بعد أن تأكدت مـن تركيب طلمبة مياه جـديدة ، بدلا مـن الطلمبة القـديمة ، التى كسرت وأصـبحت غير صالحة للعمل . .

ومع أن تلك الواقعة قد انتهت الا أن صورة الوفـاء المصرى لا تزال ماثلة أمام عينى . . حيث وصلتنى مئات البرقيات من أبناء هذه القرية ، وجاءنى أكثر من وفد منهم يشكروننى على واجب قمت به نحوهم . . هو حق أصيل لهم . . ولكنه الوفاء ! !

هكذا كانت اداراتى لوزارة الاسكان والتعمير . . قرارت فـورية . . وتنفيذ أسرع . . دون الدخـول فى متاهـات الروتين . . والمناقصـات والمكاتبات والمعاينات واللجان . . وما الى ذلك من الاجراءات الفاشلة .

اكتشفت المأساة

وبهذه المناسبة أذكر قصة لا أجد مثالا افضل منهـا لأدلل بهـا على مأساة البروقراطية والروتين التى ابتليت بها مصر .

وقف أحد المواطنين فى أحد المؤتمرات ، يروى مـأساته مـع دواوين الحكومة عندما تقدم بالمطالبة بصرف تعويض له عن بيته الذى انهـار . . وروى كيف انه ظل ثلاثة اشهر كاملة ، يبحـث عن حقـه مـن أجـل أن يحصل عليه . . مع أن الدولة هى التى قررته له ، وهى بصدد مساعدته ، ومساعدة غيره ، من أجل أن تعود الحياة الى منطقة القناة من جـديد . . قال المواطن والألم يعتصره ويعتصرنى معه إنه ظل ثلاثه أشهر . يقولون له . . تعال بكره . . فيذهب ليقـولوا له . . تعـال ، الاسـبوع القـادم . . فيذهب ليقولوا له . . الأسبوع الذى يليه . . فيذهـب ليحيله مـوظف الى موظف . . ومن أسبوع لأسبوع . .

ولم تكن تلك هى حالة ذلك المواطن وحده ، ولكن كانت حالة كل مـن كانت لهم تعويضات ، عن تلفيات أصابت منازلهم فى منطقة القناة . .

وعندما استمعت الى قصة ذلك المواطن ، لم أجد أمامى الا أن اقفـز

به ومعه من فوق أسوار الروتين دون أن نواجهه . .

قمت فى نفس المؤتمر باجراء مواجهة بين جميع الأطراف وواجهت المشكلة فى وقتها . .

كانت خطوات الموضوع تتلخص فى أن أى مواطن يريد أن يصرف تعويضا يتقدم بطلب الصرف . . وبعد ذلك يقوم مهندس لمعاينة المنزل المطلوب صرف التعويض له . . ثم يكتب ذلك المهندس تقريرا . . ثم تقوم بعد ذلك الشئون الاجتماعية باجراء بحث اجتماعى . . ثم توافق المحافظة على الصرف من حيث المبدأ . . ويبدأ بعد ذلك اتخاذ اجراءات الصرف .

وبعد أن عرفت الخطوات ، بدأت فى نفس المؤتمر ، ابحث الوقت الذى تستغرقه كل خطوة . . فسألت عن الوقت الذى تستغرقه المعاينة مادام أن المهندس والمنزل فى مدينة واحدة . . قالوا : يوما . .

فقلت ساعة واحدة . . ليس أكثر .

ولكى اثبت لهم ما أقول قمت باجراء عملى . . اثبت فيه صحة ما قلت .

ثم سألت بعد ذلك المختص بالشئون الاجتماعية عن الوقت الذى يستغرقه إجراء البحث الاجتماعى بعد أن يكون المهندس قد قام بالمعاينة وكتابة التقرير . . فأجاب باستعداده للتنفيذ الفورى . . بشرط موافقة المحافظة . .

وسألت المحافظة عن الوقت الذى يلزمها لكى تعطى هذه الموافقة .

فقالت فى نفس اللحظة . . وفى نفس المؤتمر حسبنا الوقت اللازم ، لمثل هذا الاجراء من بداية وحتى نهايته ، ليحصل المواطن على حقه ، فوجدناه ساعتين فقط ، بعد ان كان ثلاثة اشهر .

وقررت فى نفس الجلسة ، الا تتعدى المدة التى يتم فيها صرف مستحقات أى مواطن أربعة وعشرين ساعة فقط . .

واعلنت ان أى تأخير يحدث ، بعد أن تبين ان المسألة لا تحتاج الا لساعتين فقط ، مددتها الى أربع وعشرين ساعة ، فان أى مسئول عن

تأخير أى مواطن عليه أن يتحمل مسئوليته بشكل مباشر

وقلت للمواطنين فى المؤتمـر أن أى مـواطن لا يتمـكن مـن صرف مستحقاته بالشكل الذى اتفقنا عليه ، يجب أن يخطرنى فقط ، وسأتولى انا بنفسى الأمر بعد ذلك نيابة عنه . .

وفعلا انتظم كل شىء ، ولم أسـتمع الى شـكوى أخـرى بعـد تلك الشكوى فى مثل ذلك الموضوع .

ومن هذه الواقعة لم أقتنع بأى مبرر حتى الان يجبرنا على أن نقف أمام الروتين مستسلمين عاجزين مع إنه بامكاننا أن نقفـز مـن فـوق أسواره ونتركه خلف ظهورنا ونتقدم الى حيث توجد أهدافنا . . لأن نرى الافاق الجديدة التى اكتشفتها وسعيت اليها . .

مشكلة الطرق

بتلك الروح واجهت مشكلة إنشاء الطرق الجـديدة ، على اعتبار أن الطرق شرايين حيوية ، لابد منها لتحقيق الاتصـال فيمـا بين الأمـاكن والمجتمعات .

وعندما أردت إنشاء طريق جـديد مـلاصق لطـريق القـاهرة الاسماعيلية . . وطـريق القـاهرة السـويس . . لكى يكون كل منهمـا مزدوجا . . وجدت من يقـول لى لابد مـن الاسـتئناس ، بآراء الخبراء والمستشارين . . ولابد من عمل الجسات اللازمة ، والتجـارب الضرورية قبل أن يتم البدء فى التنفيذ . .

واعترضـت على ذلك التصرف البيروقـراطى على اعتبار أن ذلك الراى يمكن أن يكون مقبولا ، وضروريا إذا كنا سنقوم بانشـاء طـرق جديدة فى ارض ليست لنا عليها طرق من قبل . . ولكن فى مثل هذه الحالة التى اقترحها فلسنا فى احتياج لمثل هـذه الأمـور لأن الأرض معـروفة وأجريت عليها الاختبارات من قبل . . وأن الطرق الموجودة مرت عليهـا عشرات السـنين ولا تزال متينة ، وجيدة ، وصـالحة ، لذلك فـان نفس مواصفات أرضها هى مواصفات الأرض الملاصقة لها تماما .

ولم أقف أمام هذه العمليات الروتينية التى تحتاج الى وقت طويل ،

وبدأت التنفيذ الفورى ، وتم الانتهاء من تنفيذ الطريقين فى وقــت قياسى واحد . .بل وقمنا بتوسيع طريق الاسماعيلية ــ بورسعيد . . وكنت انوى أن أفعل نفس الأمر بالنسبة لطريق القاهرة الاسكندرية الصحراوى . . وأتمنى أن يأتى اليوم الذى أرى فيه هــذا الطــريق وقــد أصــبح بدوره مزدوجا . وكذلك طريق الصعيد .

هل مصر للبيع ؟!

تلك هى تجربتى فى الوزارة . . والتى لا أستطيع الحكم عليها . . ولكن كل ما استطيع أن اقوله أننى عملت بما يرضى الله ، وما يرضى ضميرى وما يرضى مصر . . مصر التى رفضت أثناء توليتى وزارة الاسكان والتعمير أن تكون للبيع ، لأى أحد وبأى ثمن كان ذلك فى وقت من أحرج لحظات تاريخها . . تصور فيه الاخرون انها يمكن أن تقدم سيادتها مقابل بضعة ملايين من الجنيهات . . ونسوا انهم إذا كانوا هم يقفون فوق كومة من الفلوس ، فان مصر تقف فوق قمة هرم من الأمجاد . . ولا يمكن ان تطأطىء راسها الذى يطاول السماء . . وكانت لى مع ذلك الموضوع قصة كانت سببا فى صدور قانون منع بيع الأراضى للاجانب . . عندما اراد نائب أول رئيس الوزراء فى ذلك الوقت والذى تولى منصب رئيس الوزراء بعد ذلك أن يبيع قطعة ارض من أعز أراضى مصر . . تصديت له حتى لا تكون هذه بداية لبيع مصر للآخرين . . الذين يستغلون ظروفها . . فيصبح أبناؤها بعد ذلك غرباء على أرضها ! !

وطمأننى الرئيس السادات عندما اتصل بى تليفونيا ليقول لى :

إن أى شبر فى مصر ليس للبيع . . بكل ما فى الأرض من ثروة يا عثمان . .

فما هى القصة ؟

ذات يوم وصلنى « رول » اجتماع مجلس الوزراء ، وكان الاجتماع صباح اليوم التالى . .

وكان من المفروض أن يصل جدول أعمال الاجتماع . . « الرول » قبل

الجلسة ليس بأقل من يومين ، ما دام الاجتماع عاديا وليس طارئا حتى يتمكن الوزراء من التعرف على مختلف الموضوعات التى ستتم مناقشتها ، ليختار اى منهم من بينها الموضوعات التى يرغب فى مناقشتها سواء من حيث أهميتها العامة . . أو لأنها تتعلق بمجال عمل وزارته ، حتى يستطيع دراستها ، واستيعابها وتجميع المعلومات حولها ذلك ما لم يحدث فى جميع اجتماعات مجلس الوزراء التى دعيت بحكم منصبى كوزير لحضورها .

وذات يوم وصلنى « رول » اجتماع مجلس الوزراء . . وكان الاجتماع فى صباح اليوم التالى وكان يتضمن جدول الأعمال بند « ما يستجد من أعمال » . .

واثناء سير جلسة مجلس الوزراء . . وصلتنى قصاصة ورق تحت بند ما يستجد من أعمال تقول . . هناك شركة كويتية تريد أن تشترى أرضا بالقاهرة . . ومستعدة لأن تدفع أربعين مليون دولار ثمنا لها . . وأن الحكومة ستستخدم هذا الثمن فى بناء مساكن شعبيةتساهم فى حل مشكلة الاسكان . .

وحددت الورقة مواقع تلك الأراضى وهى من « القطع الممتازة جدا فى القاهرة » . .

وانتظرت أملا فى أن يتحدث اى من الوزراء فى ذلك الموضوع ، الذى طرح فجأة فى بند ما يستجد من اعمال ، وكأنه أمر طارىء جدا ، وذو اهمية قومية خاصة ، تستدعى الا ينتظر إدراجه فى جلسة مجلس وزراء قادمة « الأمر الذى فرض إدراجه ، فى بند ما يستجد من أعمال فى جدول أعمال تلك الجلسة » . .

ولم يتفوه اى وزير بكلمة واحدة . . لا بالسلب . . ولا . . بالايجاب ! !

وتسجل محاضر اجتماعات مجلس الوزراء ذلك الموقف لكل من يريد ، التأكد من صحة تلك المعلومة . . إلا أننى التمست لكل منهم العذر ، مع اعتبار ان الورقة تقول « إن ثمن هذه الأراضى ستستخدمه الحكومة فى بناء مساكن شعبية . . كنوع من التعمية التى خدعتهم ، وجعلتهم

يصمتون جميعا . . وكأنهم «بلعوا الطعم» . .

ولكنهم تنبهوا بعد أن اعترضت الى ما يمثله الموضـوع مـن اهمية لذلك كان قرار مجلس الوزراء هـو تأجيل نظـر الموضـوع إلى جلسـة أخرى . .

وكان لابد أن اتحدث بعـد ان أصـبح الموقـف كذلك لأن الموضـوع خطير . . ولا ينبغى السكوت عليه . . مهما كانت الاسـباب ومهمـا كانت النتائج . . لأن المسألة تتعلق بمصر وسيادة مصر التى لم تسـتسلم أبداً لأعتى المحن ، ولا يصح ان تستسلم أمام زوبعـة اقتصـادية ، فـرضت عليها أن تمر بمحنة عابرة . . لابد أن تجتازها كمـا اجتازت كل المحـن التى اعترضت طريق مسيرتها وخرجت منهـا قـوية عمـلاقة مـرفوعة الرأس . . ترفع معها رأس كل من حولها ليس لكى يطاولها . . ولكن لكى يستمد منها احترام الآخرين له . .

لذلك قلت . . لرئيس الوزراء الذى كان يشـغل منصـب نائب اول رئيس الوزراء وقتها إن هذه الأراضى ، ذات مواقع ممتازة فى القاهرة . . وان الموضوع يحتاج الى دراسة وليس هناك ما يدعو لهذا الاستعجال . . لذلك أطلب أن تتاح الفرصة الى عقد اجتمـاع مجلس وزراء آخـر حتى نتمكن من أن نحيط علما بالموضوع بشكل أكثر موضوعية . .

وكان أن ترتب على ذلك مناقشة طويلة بينى وبينه . . وكنت أتابعـة بذهول شديد وهو يقول :

إن الثمن مغر جدا . . ولا نملكه ، بينما نحن فى أشـد الحـاجة اليه ، لكى نستخدمه فى بناء مساكن شعبية . . لاسكان عشرات المواطنين الذين يحتاجون الى السكن . .

واعتصرنى الالم مـن أنه يتحـدث كمـا لو كانت مصر قـابلة للبيع والشراء ، ونتحدث عنها بلغة الأسعار المغرية وأنا أقول له :

إن الذين تريد أن تبنى لهم المساكن الشـعبية أول مـن يرفضـون لو علموا ، إن مصر لجأت لأن تبيع نفسـها ، مـن أجـل إسـكانهم . . وسيفضلون النوم فى العراء اذا كانت هذه هى الطـريقة الوحيدة لتوفير

المساكن لهم . .

واستطردت أقول له : إن المصريين الذين تريد أن تبنى لهم هذه المساكن لم يجف دم ابنائهم بعد على أرض سيناء من أجل استرجاع ارض حبيبة «فكيف يقبلون بيع أرض أحب ؟ :

إن أعز ما تعتز به مصر أن الغزاة جاءوا ورحلوا على مر التاريخ كله ، وبقى ترابها مصونا لا يمس . . فكيف نبيعه نحن اليوم بكامل إرادتنا ؟ .

وحاول أن يلعب معى على وتر علاقاتى بالعرب عندما قال :

إن الذين سيشترون هذه الأراضى عرب مثلنا وأخوة لنا . .

ولكننى قاطعته بعد أن عرفت إلى أين شطح فكره . . وقلت له :

ان الأرض بالنسبة لمصر كالعرض . . فهل يريدون لنا إخوتنا أن نفرط فى عرضنا ؟

وإذا أرادوا فهل مما تفرضة أواصر الاخوة بين الأخوة . . أن يفرط اى منهم فى عرضه للاخر . . لكى يرضيه ؟ . .

ولكنه أصر على تحقيق هدفه ، وإن كان قد اتخذ مدخلا اخر فى تلك المرة عندما قال :

إن المسألة ليست بهذا الشكل ، ولا تحتمل كل ما تذهب اليه . . خاصة اننا نطرق باب سياسة الانفتاح الاقتصادى وهى سياسة جديدة ينبغى أن نشجعها ، حتى نمكن لها وسائل النجاح . . وقلت له مندهشا :

إن سياسة الانفتاح . . لخير مصر . . وليس لبيعها . .

وهنا حاول أن يلعب على وترحاجتنا الشديدة الى المبلغ حتى يجعلنى اسلم له . .

وكان أن قطعت خط الرجعه عليه عندما قلت له :

تحت أى ظرف فان هذا المبدأ مرفوض من أساسه حتى لا تكون هذه الواقعة بداية خطيرة ، لأمر نستسهله فى البداية ، ولا نستطيع تصحيحه فى النهاية . . بعد أن يكون الزمام قد فلت من أيدينا . .

واستطردت أقول له :

إن هذه الواقعة لو مرت بهذا الشكل فانها ستصبح قـاعدة ، يهتدى بها كل من قد يأتى بعدنا ويجد اولادنا أنفسهم وقد أصبحوا غرباء على أرضهم التى امتلكها غيرهم . . ولا يجدون امامهم إلا أن يبحثوا لهم عن وطن آخر . . وبالتأكيد لن يجدوه . .

فماذا يقول عنا أبناؤنا . .

واستطردت وانا أقول له إن فلسطين قد ضاعت بهـذه الطـريقة . . وبدلا من أن نستفيد من تجربتها نسعى لأن نحـول مصر إلى فلسـطين اخرى . .

ولا أعرف لماذا هو كان مصراً الى ذلك الحد . . فبعد كل ما قـاله عاد يقول مرة اخرى :

ولكن من أين لنا بتدبير المبلغ فى الوقت الذى نحتاج فيه الى بناء هذه المساكن .

وكأنه اراد أن يضعنى أمام أمر واقع . . وهنا كان لابد أن أضع حدا للمناقشة فسألته كم تريد . . ؟

فأجابنى بطريقة تفيد كما لو كان قـد اراد ان يقـول لى هـل لك أن تتصرف . . بمعنى اخر اراد إفحامى . . فقال . .

أربعون مليونا من الدولارات . . وهنا كان لابد ان اضعه فى حجمـه فقلت له :

غدا سوف أدبر لك الوسيلة التى تضع تحت تصرفك ، أربعين مليون دولار لكى تبنى بها المسـاكن التى تريدهـا . . وان اردت مـائتى مليون دولار أخرى سوف أدبرها أيضا . . أما متر مربع واحد من أرض مصر . . لأى احد . . ليس من أبناء مصر . . فهذا هو المسـتحيل الذى اقـف دونه حتى اخر لحظة فى حياتى وكان من المفروض أن تنتهى المناقشة عند ذلك الحد . . ولكنه راح يتحدث فيما هو ليس من شأنه وهو يقول :

من اين ؟

قلت : هناك مؤسسات منتشرة فى جميع دول العالم . . طالما يوجد فى

مصر الاستقرار فهى مستعدة لتدبير هذه المبالغ بفوائد ميسره لتبنى بها المساكن الشعبية التى تريد بناءها . . وتصبح فى حل من الأربعين مليون دولار « كويتية » وتعيدها لأصحابها . .

ولكن لم يتقدم نائب رئيس الوزراء الذى أصبح رئيسا للوزراء بعد ذلك بالمشروع الى مجلس الوزراء مباشرة هذه المرة . . ولكنه تقدم به من خلال اللجنة الوزارية للانتاج . . وكنت عضوا فيها ووقفت نفس الموقف . .

مصر ليست للبيع

ولكنه حاول كسب ودى واقناعى ، لكى أوافقه على المشروع الذى تقدم به على اعتبار أننى صديق للعرب ، ولى معهم علاقات طيبة ، وليس أنا ، الذى اقف منهم مثل ذلك الموقف . .

وأوضحت له أننى لا أقف ذلك الموقف ضدهم . . ويجب ألا يفهموا ذلك . . اننى أقف هذا الموقف مع مصر . . فهم لهم على فضل كبير لا أستطيع أن انكره . . ولكن ليس هذا هو الموقف الذى أرد فيه الجميل . . وأعتقد أن هذا الموقف لا يضايقهم لأنهم سيتخذونه منى لو استبدلنا مواقعنا وأردت أنا شراء بلدهم . . فهل تكون بلدهم للبيع ؟ .

وكان أن قلت له : إن الارض يا سيادة نائب رئيس الوزراء مع مثل هذا الموقف مثل السيادة فهل سيادة مصر على ارضها موضوع مناقشة ؟ . .

وعاد من جديد

ولكن الموضوع لم ينته عند ذلك الحد . . فذات يوم بعد ان كانت قد هدأت تلك الزوبعة ـ بينما كنت جالسا فى مكتبى بالوزارة . . دق جرس التليفون وكان المتحدث نفس نائب اول رئيس الوزراء الذى تولى رياسة الوزارة بعد ذلك . . وبعد أن استقر كل منا عن صحة الاخر وأحواله وجدته يقول لى :

معى فى مكتبى صديق عزيز جدا عليك . .

قلت : من ؟

قال : وزير مالية الكويت . .

قلت : أهلا وسهلا . . أرجو أن تبلغه سلامى . .

قال : إنه يريد أن يراك . .

قلت : أهلا به . . وسأحضر فورا للسلام عليه والاطمئنان عنه وقاطعنى وهو يقول لى :

هو الذى يريد أن يزورك فى مكتبك ، لأنه يريد أن يحصل على مزيد من المعلومات منك ، عن تجاربك فى التعمير . .

قلت : يسعدنى . . وأنا فى انتظاره فى أى وقت يريد . . يشرفننى فيه . .

قال : وسأحضر أنا معه . .

قلت : بكل سرور . . عموما أنا مستعد لأن انتظر كما فى الوقت الذى تحددانه .

قال : الساعة السادسة مساء .

قلت : وهو كذلك . .

وانتهت المكالمة وأصدرت تعليماتى منذ الصباح لجميع المديرين ، بالتواجد فى ذلك الموعد لكى يتولى كل منهم ، شرح ما يقع فى اختصاصه ، للاخ وزير المالية الكويتى ، وكان من بينهم الدكتور مصطفى الحفناوى الذى تولى منصب وزير الاسكان فى وزارة الدكتور مصطفى خليل وكان وقتها رئيسا لهيئة التخطيط العمرانى . .

حضر الجميع فى الموعد المحدد ، ووصلت الساعة السادسة والربع بعد أن كنت فى اجتماع لجمعية رعاية الطلبة التى تتولى شئونها سيدة مصر الأولى السيدة جيهان السادات . . لأجد نائب رئيس الوزراء وضيفه فى انتظارى بمكتبى وبعد أن تبادلنا كلمات الود والترحيب قال وزير مالية الكويت :

نحن لنا عليك عتاب . .

قلت : خير إن شاء الله . . هل حدث منى ما يغضبك ؟

قـال : إنك تقيم فى الاسـماعيلية مـدينة الشـيخ زايد . . وتقيم فى السويس مدينة الملك فيصل . . وأين دورنا نحن ؟

قلت : هناك مدينة الصباح التى سوف نقيمها فى بورسعيد . . وتأخر التنفيذ بسبب طبيعة التربة هناك . . ليس الا . . حيث إن الأرض رخوة ، ولذلك فان المسألة تحتاج لبعض الوقت . .

واستطردت أقول له :

عموما فان الملك فيصل رحمة الله ـ سـاهم بمبلغ مـائة وخمسـين مليون دولار . . والشيخ زايد ساهم بمائة مليون دولار . . مساهمة مـن كل منهما فى اعادة تعمير منطقة القناة . .

قال : ونحن نساهم بمبلغ مائة مليون دولار .

قلت : جزاك الله كل خير . .

وفعلا أقمنا بها مدينة الصباح فى السويس بعد ما تعـذر إنشـاؤها لأسباب فنية فى بور سعيد . .

وبدأنا بعد ذلك الحوار فى شرح بعض الأمور التى أراد أن يسـتفسر عنها حول التعمير . . وبينما نحن منهمكون جميعا فى متابعة ذلك الشرح فوجئت بوزير مالية الكويت يخرج من جيبه قصاصة ورق صغيرة ، وراح يقدمها لى وهو يقول :

نحن لدينا شركة شباب الكويت ، وهذه الشركة تريد أن تسـاهم فى عملية الانفتاح الاقتصادى فى مصر . .

قلت : مرحبا بالكويت وشركتها وشبابها فى مصر . . وتحت أمرك فى تسهيل أية عقبة .

قال : توجد قطعة أرض تطل على نهـر النيل ، خلف قصر العينى . . تريد شركة شبابنا ان تقيم عليها فندقـا . . وحصـلنا على مـوافقة كل الأجهزة المعنية . . ولم يتبق الا موافقتك .

قلت : أرجو أن تترك لى هذا الأمر وهذه الورقة لمدة أسبوعين وربنا يسهل . .

فعز عليه أن يكون ذلك هو موقفى وكان يتوقـع ان أوقـع له على تلك

الورقة فى نفس اللحظة .. أو كأنه شعر بأن الخطة التى رسمت للحصول على موافقتى قد فشلت .. حيث جاء الى ومعه نائب اول رئيس الوزراء وكأنهما تصورا أنهما سيحرجاننى بزيارتهما لى فى مكتبى حتى يحصلا على موافقتى ..

وكان رد الفعل عنده .. أن شد الورقة من يدى ، بشكل استفزازى ..

وهنا تدخل نائب أول رئيس الوزراء قائلا : إن الشركة قد بدأت خطواتها فعلا منذ ستة أشهر .. وتريد أن تنهى اجراءاتها ..

وقال لى :

أنت عدو للبيروقراطية والروتين ، وليس هناك ما يدعو الى الانتظار .

وكم كنت مندهشا من موقف كل منهما وأنا اقول :

اذا كان شباب الكويت قد انتظر ستة أشهر فإن الأمر يهون ، إذا كان ما أطلبه مهلة لا تزيد عن اسبوعين .. ليس أكثر .. وتوجهت بحديثى بعد ذلك الى وزير مالية الكويت .. الذى انفعل وشد الورقة من يدى قائلا : هات الورقة .. والذى وجدته يتحدث بطريقة عصبية لم تعجبنى اعتبرتها اهانة لمصر كلها وليس لعثمان أحمد عثمان سواء باعتباره مواطنا مصريا او وزيرا مسئولا فى وزارة مصر .. وبحضور نائب أول رئيس الوزراء فقلت له :

لا يصح أن تتحدث بهذه الطريقة .. هل جئت الى هنا لكى تستعرض عضلاتك على مصر ، من فوق كوم من الفلوس ..

واستطردت وأنا أقول له :

إن كل ما عندك ، وما عند العرب جميعا ، وكل أموال العالم لا يمكن أن تشترى قطرة دم واحدة ، من دم أولاد مصر الذين استشهدوا من أجل كرامة العرب ..

وقلت له : لا يصح ونحن نتحدث باسم دماء أولادنا ان نقبل إهانة

مصر التى أعطوها أرواحهم ، التى صعدت الى السماء ومعها ارادة مصر عالية ، لاتقبل أن تركع الا الله وحده . . فكيف نسجد امام كومة فلوس كانت تلك الأرواح هى السبب فى أن ترتفع عشرة أضعاف .

ويجب أن يعرف الجميع أن عثمان لا ينسى فضل إنسان عليه . . ولكن اعترافه بذلك الفضل المفروض أن يدفع ثمنه عثمان . . ولا تتحمله مصر . .

وتكهرب الجو واحجم الجميع عن الكلام وكأن على رءوسهم الطير . . وطلبت فى لحظتها من جميع معاونى مغادرة حجرة مكتبى . . وبعد تلك الصدمة التى اردت منها له أن يفيق كان طبيعيا أن احول الموقف الى حالة من الانفراج مرة أخرى . . ورحت أداعبه ضاحكا :

مالى اراك متضايقا .

قال : لقد شتمتنى فى مكتبك . .

قلت : وهل تعتبر ما حدث شتيمة لك ؟

قال : نعم

قلت : لماذا لا نعترف جميعا بكلمة الحق . . وهل تعتبر دفاعى عن مصر إهانة لك ؟

واستطردت اقول له :

عموما اذا كنت قد اعتبرت أن ما حدث كذلك فنحن آسفون . . مع أن المسألة لا تتعلق بشخصك أو دولتك . . وأنت ليس طرفا فيها . . وما قلته ليس الا دفاعا عن سيادة مصر وكرامتها وأعتقد أنه ليس فى ذلك ما يغضبك . . بل لعلك كعربى تجد فيه ما يسعدك . .

ويهمنى هنا أن أسجل أن تلك الواقعة ، حدثت فى وقت كانت فيه مصر تعانى من عنفوان أزمتها الاقتصادية ، ولم تفرغ بعد من تضميد جراحها ، دفاعا عن سيادتها التى أراد الآخرون أن ينهشوها فى وقت ظنوا فيه ان معاناتها يمكن ان تفتح الطريق لتحقيق اغراضهم فيها .

وبعدها غادر وزير مـالية الكويت مـكتبى برفقـة نائب أول رئيس الوزراء الذى اصطحبه معه بعد أن كان قد اتفق معـى على أن يعـود فى اليوم التالى لزيارتى مرة أخرى ، حتى يمحو ما قد يكون قد علق فى ذهن أى من الحاضرين إن كان هناك جفوة أو مـوقف قـد نشـأ . . وأن كل ما حدث كان أمرا طارئا انتهى فى حينه ، فرحبت بزيارته وأنا أقول له :

هـكذا أريد أن يكون الود الذى بيننا . . يعترف على الأقـل بعـلاقة الند . .

والغريب فى تلك القصة ، أن الموقف لم يكن يستدعى موافقتى ، ولكن كل العقبة التى وقفت فى طريقهم ، وكان يمكنهم تجـاوزها . . هـى أننى كنت قد أصـدرت قـرارا وزاريا مضـمونه أن الأرض المملوكة للدولة ، لا تباع لأى أحد ، إلا بعد موافقة وزارة الاسكان والتعمير . .

وكان يمكن لمحافظ القاهرة ، إذا أراد أن يفعل كل شىء ، لأن القرار ليس ملزما له ، وليس فى القانون ما يمنعه ، من أن يفعل ما يريد ، فى هذا الخصوص . .

وفاتت هذه النقطة على رئيس الوزراء ، الذى لم أعرف حتى الآن . . لماذا هو كان مصرا على بيع هذه الأرض ؟ . .

والحمد لله . . إنها فاتت :

ولم تنته قصة قطعة الأرض هذه عند هذا الحد ، ولكن بينمـا كنا فى جلسـة مجلس وزراء برئاسـة نفس النائب الأول ، الذى تولى رياسـة الوزارة فيما بعد . . وجدته يرسل لى ورقة كتب فيها : إن الرئيس محمد أنور السادات وافق على بيع قطعة الأرض الى الشركة الكويتية . .

وكتبت له على نفس قصاصة الورق . .

السيد رئيس الوزراء . . لقد علمت وأرجو مناقشة هذا الموضـوع ، بعد انتهاء جلسة مجلس الوزراء .

وبعد انتهاء الجلسة ، لم يكن عندى من الوقت ما يسمح لى أن أذهب اليه ، فى مـكتبه لمناقشـة الأمـر معـه . . ولكننى أعرف أن الرئيس السادات ، لا يعـرف عن الموضـوع شـيئا . . ولو كان يعـرف لرفض

الموافقـــة . . ولكن لان رئيس الوزراء عرض عليه الموضـــوع . . جملة « وليس » تفصيلا . . وبصفته المسئول الاول بعده عن العمل التنفيذى . . وافق الرئيس له على طلبه ، بالطريقة التى عرض بها . .

ولم اذهب اليه ، ولم أقابله كما قلت له . .

ولكن بعد اسبوع وجدته يتصل بى تليفونيا ، ويطلب منى الحضـور الى مكتبه . .

فذهبت اليه وكان معه وزير مـالية الكويت ، وكان معهمـا السـفير الكويتى بالقـــاهرة ، ورابعهمـــا رئيس الشركة التى كان يريد رئيس الوزراء أن يبيعها الأرض . .

فسلمت على الجميع وجلست . . لأجد رئيس الوزراء يقول لى :

لقد حضروا من الكويت خصيصا لكى توافق لهم على الأرض . .

قلت : أى أرض ؟

قال : الأرض التى سبق عدم موافقتك عليها . . ووافــق الرئيس على بيعها لهم .

قلت له : يا ســيادة رئيس الوزراء . . نعــم الرئيس وافـــق ولكنه لا يعرف عن تفاصيل الموضوع شيئا . . وأعتقد انه عندما يعــرف أنهــا قطعة أرض خضراء . . فى قلب القاهرة . . فلن يوافق .

وهنا هاج رئيس الوزراء وفقد صوابه . . وتشنج وقال لى بعصـــبية شـــديدة : إن الرئيس وافـــق . . وأنا رئيس وزراء . . وأطلب منك الموافقة . . فكيف لا تنفذ ؟ !

قلت : نعــم أنت رئيس للوزراء . . ولكن مجلس الوزراء يتكون مــن خمسة وثلاثين وزيرا . . فليعرض الأمــر عليه وعندمـــا يوافــق مجلس الوزراء بأغلبية أعضائه . . سأوافق فورا ، لانها تصــبح فى ذلك الوقــت إرادة مجلس وزراء مصر ، الذى أعتقد أنه عندما يعرف التفــاصيل فلن يفعل .

فانفعل أكثر ، وهو يقول :

هل أنت تتخذ منى موقفا شخصيا ؟ .

ولم يزعزع انفعاله موقفى وأنا أقول له :

أبدا . . انا أتخذ موقفا موضوعيا ، لصالح مصر ، وسيادة مصر .

وعندما وجد وزير مالية الكويت الموقف قد تصاعد بهذا الشكل أراد أن يهدىء من حدته ، عندما قال : نحن على موعد . . قد حان . . ولابد أن نذهب اليه الان . .

وفعـــلا غادرا المكتب . . وغادرته معهمـــا . . وإن كان كل منا فى طريقه . .

وعندما وصلت الى مكتبى بالوزارة وجدت جرس التليفـون يدق . . وكان المتحدث على الطرف الاخر الرئيس محمد أنور السادات . . ويبدو أن رئيس الوزراء كان قد تحدث معه فى ذلك الخصـوص ، لأنني وجـدت الرئيس يسألنى :

هل حدثت مشادة بينك وبين رئيس الوزراء ؟

قلت : مناقشة . . ليس الا ياسيادة الرئيس .

قال الرئيس : انه رئيس للوزراء وعليك أن تذهب اليه لمراضاته .

قلت : أنا مستعد ياسيادة الرئيس . . ولكن الأمــر لا يتعلق بمســألة شخصية . . ولكنه يتعلق ببيع أرض مصر لغير أبنائها .

انفعل الرئيس فى التليفون . . ووجدته يخرج عن هدوئه كما لم يحدث من قبل وهو يقول لى :

ماذا جرى لك يا عثمان . . هل أنا الذى يبيع مصر ؟

قلت : لم أصدق ياسيادة الرئيس . . ولذلك اتخذت هذا الموقف .

وفعلا نفذت توجيهات الرئيس ، وذهبت اليه لمراضاته . . ولكن قطعة الأرض ، بقيت كما هى ، ولا تزال حتى الان وستظل كذلك دائما ، مصرية أصيلة جميلة . .

وكانت هذه القصـــة ســـببا فى أن يصـــدر قـــانون عدم بيع الأراضى للأجانب حتى لا نمشى فى القاهرة غرباء . . وبدأ الاعداد منذ ذلك الوقـــت لهذا القانون الذى رأى النور فى الوزارة التى اعتذرت لرئيســـها عن أن أقبل استمرار التعامل معه فيها . .

أكبر شرف فى حياتى

زارنى فى منزلى ، عدد من الزملاء المهندسين . .

كان ذلك فى شهر نوفمبر ١٩٧٩

وتعودت كلما زارنى بعض من المهندسين ، الا أتردد لحظة واحـــدة ، فى أن أقدم لهم ما أستطيعه ، فيما يطلبونه منى . . ســواء كنت أعرفهــم او لا أعرفهم . . لذلك أديت معهم واجب الضيافة كالعـــادة . . ولم أســـأل أيا منهم عن الدافــع الذى يكمـــن وراء تلك الزيارة التى تمــت على غير سابق موعد ، وانتظرت أن يفاتحنى أحدهم بخصوص الأمر الذى جاءوا من أجله . . وتطرق الحديث بيننا الى شتى الموضوعات ولم يفصـــح أى منهم لا من قريب ، ولا من بعيد ، عن أن أيا منهم له مصلحة شـــخصية ، من وراء تلك الزيارة ، وحاولت من جـــانبى أن أســـتوضح بطـــريق غير مباشر الهدف ، من زيارتهم ، حتى أرفـــع الحـــرج عنهـــم . . ولكن دون جدوى وكان أن تصورت أنها زيارة عادية . .

وكان موضوع نقابة المهندسين ، من بين الموضـــوعات التى تطـــرق اليها الحديث . . وألمح لى بعضهم من بعيد ، الى أن منصب النقيب أوشك أن يصبح شاغرا ، بسبب انتهاء المدة القانونية للدكتور مصطفى خليل . . وان الأمر يستدعى بالضرورة التفكير فى انتخاب نقيب جديد . .

واعتبرت ذلك الموضوع من بين الموضوعات العديدة والعـادية التى تحـدثنا عنهـا . . ولم أعلق بأى شىء ، ولكن عادوا مـرة أخـرى . . الى الحديث فى ذلك الموضوع . . وفاتحونى بشكل مباشر عندما قالوا لى :

إنهم جاءوا لمقابلتى بصفتهم وفداً ، يمثل وجهة نظـر عدد كبير مـن المهندسين ، ونيابة عنهم ، لكى يستطلعوا رايى ، بخصـوص الترشـيح لمنصب النقيب . .

واذكر اننى قلت لهم :

إن منصـب النقيب فى أى نقـابة مهنية كانت أو عمـالية ، منصـب كبير . . وقيمته ليست فى الكرسى ، ولكن فى الثقة الغـالية والكبيرة ، التى يطـوق بهـا ابناء المهنة زميلا لهـم . ويختارونه لأن يكون كبيرهـم ، بارادتهم دون ما فرض من أحـد . . لذلك فـكون زمـلائى المهندسـين يرشـحوننى نقيبا لهـم فـذلك شرف كبير ، وتكريم لا يدانيه اى تكريم ومنصب لا يعلوه أى منصب ، مهما كان كبيرا . .

واستطردت فى حديثى لهم : إننى أعرف قيمة هـذا الموضـوع ليس بما يمثله المنصب لكن بما يمثله من حب فى قلوب زملائى . . ولا يمكن لأى إنسان أن يعتذر عن ذلك الشرف الكبير . . ولكن اسـمحوا لى . . فـأنا مشغول جدا وتشدنى اهتمامات شتى ، وأن منصـب النقيب يسـتدعى تكريس وقت وجهد ، لانجاز المهام المنوطـة بصـاحبه . . ولو قبلت فـان مسئوليات جديدة وكبيرة ستضاف الى مسئولياتى المتعددة ، والمتشـعبة فى كل الاتجاهات وليس عندى الوقـت ، الذى يمـكن أن أعطيه فى هـذا الموقع . .

وكان أن استعرضت فى ذهنى أثناء المناقشة عددا من المسائل . . ولم يذهب فيها تفكيرى إلى امكانية نجاحى فى الانتخـابات مـن عدمـه . . كما يذهب أول ما يذهـب تفـكير كل مـن تراوده نفسـه ، لأن يقبل ذلك المنصب . . ولكن ما وقف امامه تفكيرى ، هو ان طاقتى لا تحتمـل عبئا ، جديدا ، يضاف الى ما فوق كاهلى من أعباء . . ولم أتعـود فى حياتى أن أتصدى لأى مسئولية من قبيل المنجهـة او الجـاه . . ولكن كان العـطاء

دائما هو رائدى . .

وتعودت كلما اجد عندى القدرة ، لأن اضيف جديدا فى أى مكان ولأى عمل اتقدم دون أن اتردد . . وإذا ما وجدت نفسى غير قــادر على ترك أى اثر خلفى يحكى قصة عطاء فاننى تعودت أن أقــف عند حــدودى ، وأن أحترم نفسى . .

وناقشت مــع نفسى أن منصــب النقيب ، منصــب أدبى كبير ، ولكى أفكر فى أن اتولاه لابد أن أعطيه . . ويســتلزم منى ذلك أن أتعــرف على طبيعة عمل النقابة والنقابيين ، وأن اهتم بهــم ســواء مــن حيث رفــع مستوى المهنة ، أو البحث عن الكيفية التى يمكن أن ترفع بهــا مســتوى ابنائها . .

وانتهيت الى أن هذه المهمة تتطلب ممــن يتصــدى لهــا الكثير الذى لا تساعدنى ، ظروف عملى على أن أقدمه . . لذلك قلت لزملائى : يشرفنى جدا هــذا التكريم مــن ابناء المهنة . . وسـبق أن كرمتنى الاســماعيلية بعضوية مجلس الشعب وأن هذا المنصب يلقى العديد مــن المســئوليات التى تضاف الى أعبائى بصفتى آبا روحيا ، لشركة المقاولون العــرب . . وهذه المسئولية وحدها كافية لأن تستوعب كل وقتى وجهدى . .

وقلت لهــم : هناك أيضــا الشركات الجــديدة . . التى أتولى عملية تأسيسها وإنشاءها فى الاسماعلية ، وغيرها والتى وصــل عددهــا الى أربعين شركة » فى ذلك الوقت . . وأن هــذه الشركات لا تزال تحتاج منى الى مجهود كبير لأنها حديثة التكوين ، وهى فى حــاجة الى مــزيد مــن الرعاية . . فلم تضع نفسها حتى الآن على الطريق الصحيح وتحتاج الى تنظيم ، ومشاكلها كثيرة . . ولابد أن أكون بجوارها ، حتى أستطيع حل تلك المشاكل .

ويضــاف الى هــذه الاعباء أن أصــــدقائى ، واحبائى كثيرون ، ولا أستطيع أن أتأخر عن أى منهم ، فى أى وقت ، وأى مــكان ، عندمــا يقصدنى فى أى أمر . .

واستطردت فى حديثى أقول لهم :

انالاارفض هذا المنصـــب فهــو شرف يتمنى كل انســـان أن يتوج به حياته . . ولكننى لا أعتبر هذا المنصب من قبيل المنظــرة . . ولكنه مــوقع عمل يحتاج الى بذل ، ولذلك فان الأمر بالنسبة لى يعنى . .

إذا .. توليت المنصب أن أقدم ما يرضى ضميرى . . ولن أســتطيع لذلك اقترح عليكم أن نبحث معا عن شخص ، آخـر يمـكن أن تســاعده ظروفه ، على أن يتصدى لهذه المسئولية . .

واصر زملائى على موقفهم . . وبعد جدال طويل فهمــوا منى أن ذلك المنصب شرف أتمناه ، ولكننى لست على اســتعداد لان أتصــدر لعمــل واجد نفسى عاطلا ، غير قادر على أن أعطيه . .

وتساءلنا معا عن الشخصية التى يمكن أن نضع ثقتنا فيها من بين زملائنا ،ونقف إلى جوارها نساندها . .

وكان أن اقترحت عليهم أن نفاتح الدكتور مصطفى خليل ، فى أمر أن يقبل التجديد مرة أخرى ، واعترضوا على الفــكرة فى البداية على اعتبار انه كان يشغل منصب رئيس الوزراء ، فى ذلك الوقــت ، وأن مســئولياته متعدده . . ولذلك فهم يتوقعون الا يقبل . .

وكان أن قلت لهم : ليس هناك ما يمنع من أن نفاتحه . .

وعندما تساءلوا عمن يستطيع أن يقوم بذلك الدور . . وعدتهم بأننى سأذهب لزيارته واتحدث معه فى ذلك الموضوع . .

وانتهت جلستنا عند ذلك الحد . . واستأذن الزمــلاء وانصرفــوا . . وهم ينتظرون منى أن أحيطهــم علمــا بمــا ســينتهى اليه راى الدكتور مصطفى خليل . .

وذهبت بعد ذلك الى الدكتور مصطفى خليل ، وناقشت معه الفــكرة ، واعتذر عن ترشيح نفسه ، لفترة جديدة على اعتبار أن منصــبه كرئيس للوزراء يستولى على كل وقته . .

وكان موقفه تماما ، كما تصور الزملاء . . وطرح فـكرة أن أرشــح نفسى . .

قلت له : ما سبق أن ناقشــته مــن قبل ، مــع الزمــــلاء الذين أتوا

لزيارتى ، بخصوص ذلك الموضوع . .

ورحنا نستعرض معا ، خلال جلستنا الأسماء البارزة ، من بين زملائنا المهندسين وانتهى رأينا على ترشيح الدكتور احمد محرم ، كما اقترحت على الدكتور مصطفى خليل . .

وحبذ الدكتور مصطفى خليل ، أن نستطلع راى بعض زملائنا المهندسين ، فى ذلك الترشيح . . وقمت بالاتصال بهم ، وأعرب الجميع عن ترحيبهم . .

وعدت بعد ذلك لزملائى الذين وعدتهم باننى سأتصل بالدكتور مصطفى خليل ، وسأحمل اليهم ما انتهيت اليه من راى . .

وعقدنا اجتماعا مصغرا شرحت لهم فيه ، ما دار بينى وبين الدكتور مصطفى خليل ووافق الجميع على ترشيح الدكتور أحمد محرم ، وأبدوا ارتياحهم الشديد ، لذلك الاختيار واتصلت بعد ذلك بالدكتور أحمد محرم ، لكى اتحدث معه ، فى شأن ما يراه بعض المهندسين من أن يقوم بترشيح نفسه ، لتولى مهام منصب نقيب المهندسين . .

وحاول أن يعتذر ، بسبب تعدد مشاغله ، ولكنه نزل فى النهاية الى رغبة الزملاء واعتبرت أن الموضوع انتهى ، عند ذلك الحد . .

(مفاجاة غالية)

وكانت بعد ذلك مفاجأة . . لم اتوقعها ، ولم تخطر لى ، فى يوم من الأيام ، على بال . .

فوجئت بوفد من مهندسى مصر ، يحمل معه قائمة ، تضم أسماء ، ثلاثة آلاف مهندس من بين أعضاء نقابة المهندسين . .

وكان ذلك بعد أن اتفقنا على ترشيح الدكتور أحمد محرم ، بحوالى عشرين يوما . .

وكانت القائمة تتضمن أسماء المهندسين ، وتوقيع كل مهندس امام اسمه . . ليس ذلك فقط ، ولكن أصروا على أن يكتبوا أمام توقيعاتهم ، أرقام بطاقاتهم العائلية أو الشخصية ، ولم يكن من بينهم مهندس

واحد ، مـن بين الثلاثة الاف مهندس ، الذين تضـمـهم شركة المقـاولون العرب . .

وطلب منى كل هؤلاء الزمـلاء ، أن أرشـح نفسى لمنصـب نقيب المهندسين . .

وهنا لابد أن اقف فى لحظة وفاء ، لكل هؤلاء الرجال لأقول :

إن الكلمات مهما كانت ذات قدرة على التعبير ، الا انها تصبح امام ذلك الموقف عاجزة عن ان تنقل الحقيقة التى ملأت كيانى . .

واعتبرت تلك القائمة شهادة شرف وتقدير لا تدانيها شـهادة مهمـا كانت قيمتها .

لكل واحد منهم دين فى عنقى . . ولكل واحد منهم فضل كبير ، سأظل مدينا له به مدى حياتى . .

وتراجعت جميع الحجج ، التى أبديتها أمام ذلك التكريم ، ووجـدت بداخلى طـاقة جـديدة كبيرة ، تطـالبنى بأن أكون وفيا ، لذلك الشرف الكبير . .

تراجعت جميع الحجج فى تلك اللحظة ، ولكن تقدم الى ذهنى ، موقف انسانى هزنى من كل وجدانى ، كان صاحب الفضل فيه ، مجردا عن كل هدف ، أو أى هـوى ، ولم تكن تربطنى به أدنى معـرفة صـلة ، أو حتى معرفة سابقة . . بل ان اسـمه نفسـه ، كان بالنسـبة لى أمـرا مثيرا للدهشة . .

كان أن وصلنى خطاب ، مـن جـامعة « ريكر بولاية مين بالولايات المتحدة الأمريكية ، فى الفترة التى كنت أتولى فيها وزارة التعمير . . ولم يسبق لى أن سمعت عن تلك الجامعة فى حياتى . . وجعلنى ذلك الأمـر ، استفسر من السفارة الأمريكية فى القاهرة عنها . .

وعرفت أن جامعة « ريكر » . . فى ولاية مين وكانت أول مـرة أعرف فيها ، أن هناك ولاية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، تحمل هذا الاسم . . وعرفت انها تقع بالقرب من كندا . .

ويفيد الخطاب ، بأن الجامعة تتبع ، تقليدا سنويا تمنح فيه درجة الدكتوراه الفخرية لشخصية من الشخصيات المعروفة ، فى مختلف دول العالم ، تتوافر فى مكوناتها مجموعة من الشروط ، كانت الجامعة قد وضعتها ، كأساس للاختيار ، لمن تنطبق عليه ، حتى ينال هذا التكريم . .

وتنتهى الجامعة فى خطابها بأن اختيارها ، وقع على « عثمان أحمد عثمان ، لينال هذا التكريم ، من الجامعة عن عام ١٩٧٦ . .

والأمر الذى اندهشت له كثيرا . . أن الخطاب يعدد الأسباب ، التى دفعت الجامعة لاختيارى لهذا التكريم . .

وكان من بين الأسباب ، معلومات جمعوها عنى ، لم أكن أعرفها أنا نفسى . . ومنها معلومات كنت قد نسيتها . . فكرونى هم بها . .

ووقفت طويلا عند عدد من الاسئلة أثارها فى ذهنى ذلك الخطاب :

كيف استطاعت هذه الجامعة ، ان تحصل على هذه المعلومات عنى ومن أين أتت بها . . وكيف عرفتنى ، دون أن أعرفها . . ولا أعرف حتى اين موقعها على الخريطة .

وسافرت فى الموعد المحدد ، واستقبلتنى الجامعة ، واستضافتنى ، واقامت حفلا كبيرا بهذه المناسبة . .

ارتديت زيا خاصا ، أعدته الجامعة ، ليرتديه كل من ينال شرف الترشيح للحصول على هذا التكريم . .

وكان ذلك اليوم ، من أعظم أيام حياتى . .

وتضاءل أمام الموقف ، الذى وجدت نفسى فيه ، كل ما فى الدنيا من مال . .

فضل عظيم . . جامعة فى بلاد تبعد عنا الاف الأميال ، تقدر قيمة ما قدمت ، فى مجال عملى ، من اخلاص وجهد ، دون أن يكون هناك سبب يدفعها ، الى ذلك التقدير . .

اعتبرت ذلك التكريم ، شهادة تقدير ، تحمل كلمة حق ، من محايد ، لم يطلب منه أحد أن يقولها . .

واعتبرت ان هذه الشهادة ، أسمى ما حصلت عليه فى حياتى كلها . .

وانكر اننى تعـرفت هناك ، على أسـتاذ مصرى ، يدرس فى نفس الجامعة ، وعندما سألته عن خلفيات نلك الموضوع أجـابنى بأنه لم يكن يعلم عنه شيئا ، الا عندما فاجأته الجامعة ، واسـتدعته لتحيطـه علمـا بما قررته ، لا . . لأن تضيف الى معلوماتها منه شيئا . .

تضاءل نلك الموقف الكبير جدا فى نفسى ، والذى اعتبرته أكبر مواقف حياتى ، أمام مفاجأة زملائى المهندسـين . . ولنلك اعتبرت أن القـائمة التى تحمل أسماءهم ، لوحة شرف ، تحمل سجلا بأعظم انجازات حياتى كلها . . وهو حبى للناس ، وحب الناس لى ، والذى وجـدت له تجسـيدا حيا ، فى نلك الموقف النبيل . .

وهنا . . وجدت نفسى فى أكثر مواقف حياتى صعوبة . .

واستغرقنى التفكير يومين كاملين ، لم تر فيهما عينى للنوم طعما . .

وتساءلت مع نفسى . .

ماذا أفعل ، أمـام هـذا الموقـف النبيل الذى اسـتولى على كل مشاعرى ، وجعل عقلى يتقهقر ، ويتوارى خلف قلبى ، الذى أخذ مـكان الصدارة ، ليتخذ هو القرار ، فى هذه المرة . .

واستولت على الحيرة . . لا ادرى ماذا افعل ، ولم أهتد الى قرار . . مـع اننى طـوال حياتى . . لا أحـب أبدا المواقـف المترددة ، وأميل الى الحسـم السريع للأمـور ، دون اغراق فى التمحيص ، والتدقيق والدراسة . . فأنا لست واحدا من أولئك الذين يحسبون الأمور كثيرا . . أو الذين يراجعون حساباتهم اكثر . .

وتوافدت بعد نلك ، وفود المهندسـين ، الذين سـعوا الى مقـابلتى ، سـواء فى منزلى او فى الاسـماعلية ، او فى اى مـكان ذهبت اليه ، وكنت أجدهم فيه . . ويصر جميعهم ، على ضرورة أن اقبل . . ولا يعرفون أننى فى قرارة نفسى ، لا ارفض بل أتمنى ، ولكن ظروفى لا تسـاعدنى ، على أن اتولى هذا المنصب ، ولا احـب ان أتولاه واتركه ، دون ان أعطـى ابناء المهنة ، من وقتى وجهدى ، ما يتناسب مع هذا التكريم الكبير . .

واذكر أننى ذهبت الى الدكتور أحمد محرم ولا يوجد بينى وبينه حجاب فى أى أمر اتحدث معه فيه ، وأردت أن أشركه معى فى التفكير فى كيفية مواجهة ذلك الموقف ، فوجدته ينضم الى الثلاثة آلاف مهندس ، ويعلن رغبته فى أن اتقدم بترشيح نفسى ، مع انه كان أول المقتنعين ، بأن ظروفى لا تسمح . .

واذكر اننى سافرت ، فى ذلك الوقت ، الى أسوان ، دون أن أحسم الموقف . . وكان الموضوع يسيطر على كل تفكيرى . . وقابلنى فى فندق « ابروى » الأستاذ أنيس منصور ، رئيس تحرير مجلة اكتوبر فسألنى : آراك مشغولا . . فماذا بك .

وكان أن رويت له القصة ، من الفها الى يائها ، لعلنى أجد عنده رأيا ، يساعدنى فى الخروج ، من ذلك الموقف . .

ووجدت ان رأيه ، يذهب الى ضرورة أن أبتعد ، مستندا الى انه ليس هناك نقيب من قبل فعل أى شىء . .

حضر أثناء حديثنا ، الأستاذ موسى صبرى ، رئيس تحرير الأخبار ، واشترك معنا فى المناقشة وكان متفقا مع رأى الاستاذ أنيس منصور ، وإن كان يدعمه ، بأن نقابة المهندسين كانت تعانى من بعض القلاقل فى ذلك الوقت . .

كان رأيهما مخلصا حقا . . ومن واقع الحرص على ، ولكن فاتهما أن يدركا . . أن تركيبة شخصيتى ، تتجه تلقائيا الى التعامل مع كل ما يتصور كل الناس ، انه صعب ، خاصة أننى كنت فى ذلك الوقت فى أسوان ، الى جوار السد العالى ، الذى يمثل قمة الصعب الذى واجهنى فى حياتى . . وحولت هناك المستحيل الى ممكن . . وذلك الأمر ، لا يعرفه أو يدركه ، الا عثمان أحمد عثمان ، لأنه هو وحده الذى يعرف ماذا بداخله بعد الله سبحانه وتعالى . .

وفاتهما أيضا . . أن رغبة ثلاثة آلاف مهندس ، لابد أن تلقى منى كل الاحترام والتقدير ويجب أن أنزل اليها ، مهما كلفنى الأمر . .

وكانت بعد ذلك المفاجأة التى حسمت كل الموقف . .

ذهبت الى النقابة الفرعية للمهندسين فى اسوان ، للالتقاء بمجموعة من الزملاء ، قيل لى إنهم فى انتظارى . . وفوجئت بأن وجدت ستمائة مهندس يعقدون اجتماعا ، ومعهم استمارة الترشيح لمنصب النقيب . . وأصروا على ألا اغادر مقر النقابة ، الا بعد التوقيع عليها . .ولم أجد أمامى إلا أن أفعل ما طلبوه منى . .

وقبلت . . باسم هؤلاء جميعا ، وباسم جميع مهندسى مصر الذين طلبوا منى الترشيح نيابة عنهم . .

ودخلت المعركة . . وبدأت الاستعداد لها . .

وكان أن بدأت بجمع المعلومات ، حول جميع العناصر المحيطة بالموقف ، كما تعودت فى كل عمل أقدم عليه دائما ، حيث أقوم بجمع المعلومات التى أحدد على أساسها ، الاطار الذى سأعمل من خلاله وعلى أساسه . .

وسألت لأعرف عدد مهندسى مصر . . فوجدتهم أكثر من مائة الف مهندس غير المهندسين الذين يعملون خارج البلاد . .

فان المهندس بحكم طبيعة عمله ، رجل غارق فيما هو مكلف به من أعمال . . وكثيرا ما ينسى نفسه . . ومعنى أنه لا يسدد الاشتراكات ، أنه يحرم من التمتع بالمعاش ، الذى تقرره النقابة له هو وأولاده من بعده . .

ولا يمكن أن اقتنع انا أو غيرى ، بأن هناك مهندسا يريد أن يحرم نفسه من معاش نقابته ويتعمد عدم تسديد الاشتراكات ، ولكن عمله يستوعبه الى الحد الذى ينسيه نفسه ، لذلك فهو فى حاجة الى من ينبهه ، ليتذكر مستقبله ، ومستقبل أولاده . .

وكانت تلك المسألة من أولى المسائل التى وضعتها فى اعتبارى . . وكان لابد أن ابحث عن وسيلة لعلاج هذا الخطر ، الذى ينزلق اليه أى مهندس ، دون أن يدرى . .

وبحثت عن اجابات لكل ما طرحته من تساؤلات ، ليس من أجل التخطيط للمعركة الانتخابية كما يفعل الآخرون ، ولكن من أجل وضع بداية أساس سليم ، لأسلوب جديد فى العمل النقابى ، يبدأ من عند نقابة

المهندسين ، بما يحقق صالح جميع أعضائها . .

وفكرت بعد ذلك فى أن أضع يدي على خريطة توزيع المهندسين ، فى مختلف الوزارات والأجهزة والمحافظات والقوات المسلحة . . وكان أن قررت بعد ذلك ، أن ألتقى بهم جميعا فى مواقع عملهم . . لذلك قمت باعداد برنامج لقاءات لى معهم ، يشمل جميع محافظات الجمهورية من الاسكندرية الى أسوان .

وعندما التقيت بهم لم يكن لقاؤنا يدور الا فى محور واحد . . وهو ضرورة أن يقوم المهندسون بتسديد جميع الاشتراكات الواجبة للنقابة . . ونبهتهم الى خطورة التراخى فى تسديد تلك الاشتراكات ، ووعدتهم بأن نبدأ جميعا ، مرحلة جديدة من العمل النقابى داخل نقابتنا . . وأن نضع لنا هدفا ، نلتف حوله ، ونسعى الى تحقيقه . .

قررت بينى وبين نفسى ، ضرورة أن أقتطع جزءا كافيا من وقتى وجهدى ، لكى أخصصه لنقابة المهندسين ، حتى استطيع أن أرد بعض الجميل ، الذى طوقنى به زملائى ، ولكى اتمكن من ان أقدم لنقابتنا شيئا . .

ورحت افكر فى المهندسين ، ومشاكلهم ، والامهم ، وآمالهم . . وطرحت عددا من الاسئلة كان لابد ان أجد ، لكل سؤال اجابة :

كيف يمكن أن نرفع مستوى مهنة المهندس . . وما هى الثغرات الموجودة ، والتى يجب ان نسعى الى سدها داخل النقابة . . وماذا يمكن ان نقدمه للمهندس المصرى ، داخل بلاده وخارجها . .

ووجدت البداية ، فى أن نوفر الامن ، والامان ، والاطمئنان . . اى أن نهيىء للمهندس المناخ ، الذى يمكن أن ننجز معه وله وبه ، أى عمل من الاعمال . .فالمهندس يقوم بتأدية أصعب وأخطر الاعمال . .

وعندما يتعرض للعجز أو الوفاة ، لابد أن يجد خلفه ما يؤمن حياته وحياة أسرته . . فليس من المقبول ان يقوم المهندس بانشاء كل ما على أرض مصر من انشاءات ومصانع ، ولايجد من يسأل عنه ، ومن يجفف عرقه . .

وكان لابد من البحث ، عن وسـائل ، زيادة مـوارد النقـابة ، حتى تستطيع أن تفى بالتزاماتها تجاه المهندسـين . . يحصـل المهندس على معاش ، من النقابة قـدره عشرون جنيهـا مثلا . . ولزيادته كان لابد أن تزيد موارد صندوق النقابة . . ولكن من أين ؟ !

وانتهيت الى ضرورة الا نسكت ، ولكن لابد ان نتحـرك . . واهتديت الى ضرورة ان نقيم بعض المشروعات ، التى تخدم نقـابة المهندسـين ، وتزيد دخل صندوق معاشاتهم . . فلا يصح ان يدير المهندسـون مختلف مشروعات البلاد ، فى كل المجالات والتخصصات ، ويقفوا بعد ذلك مكتوفى الأيدى أمام مستقبلهم الشخصى ، من خلال نقابتهم . .

وقلبت تلك الأفكار فى رأسى ، بينى وبين نفسى ، لكى انتهى الى خطة عمل نبدأ فى تنفيذها ، فور الانتهاء من عملية الانتخـابات ، التى مـرت هادئة جدا ، وكانت مصدر راحة نفسـية لى لا حـدود لهـا ، وسـعدت بنتائجها ، التى كانت استفتاء ، مـن نقـابة المهندسـين لأول مـرة فى تاريخها . .

فكيف حدث ذلك ؟ .

لفت نظرى فى تلك المعركة الانتخابية ، أن جميع المرشحين ضـدى ، لمنصب النقيب ، كانوا يباشرون دعاياتهـم كمـا لو كانوا متضـامنين ، وليسوا متنافسين . . فـكانوا يتحـركون معاً . . وينتقلون معاً ويذهبون الى مختلف الأماكن مع بعضهم . .

وكان المفروض أن يباشر كل واحد من هؤلاء ، حملته الانتخـابية ، مستقلا عن الآخر ، لأن كلاً منهم يسعى الى منصـب النقيب ، ويفترض فيه ان يتنافس من اجل الفـوز به . . لم يحـدث منهـم ذلك . . وكأنهـم رشحوا أنفسهم ، من أجل الوقوف فى طريق ، أن يصـل عثمـان أحمـد عثمان ، الى ذلك المنصب . . فراحوا يعملون ضده ،بدلا من أن يعمـل كل منهم على أن يكون لديه برنامج عمـل ، لاصـلاح النقـابة ، ولكى يقـدم لزملائه شيئا مفيداً . .

لماذا فعلوا ذلك ؟ . . . لا أعرف . . ولكن كل ما أعرفه ، انهم بدلا مـن

أن يستهدفوا خيرا لصالح زملائهم جعلوا من العمـل على عدم تمـكين عثمان احمد عثمان من منصب النقيب هدفا لهم . .

واعماهم جميعا حقدهم . . فراحوا يتخذون من النقابة مجـالا ، لأن ينفثوا فيه سمومهم . بدلا من أن يستجيبوا الى ندائها . . ولأن الشرفاء أدركوا حقدهم . . فلم يصمد هؤلاء أمام المهندسـين الذين داسـوهم فى طريقهم وانهاروا تحت أقدامهم ، وازالوا أنقـاض حقـدهم ، وأقـاموا مكانها كل ما تراه من مشروعات . . سمح المهندسون بتسـامحهم ، لكل من حاولوا حرمانهم منها لأن يأكلوا من ثمارها معهم . .

والمهم . . جاء يوم الانتخاب بعد أن بذل كل هؤلاء كل ما فى وسعهم ، وكان يوما رائعا . . من الأيام التى لا أنساها ، فى حياتى جميعا . .

تجمع أكثر من خمسة وعشرين الف مهندس ، فى مبنى النقابة ، لأول مرة فى تاريخها ، وامتلأت بهم النقابة ، عن آخرها . .

سألت ، قبل أن نجد أنفسنا أمام ذلك الموقف العظيم . .كم مهندسـا يحضر ، للادلاء بصوته ، فى كل مرة مـن المرات السـابقة ، لانتخـابات النقيب ، نتيجة للتجـارب السـابقة . وكانت الاجـابة : أنه فى أحسـن الأحوال . . لم يتجاوز عدد من جاءوا للادلاء بأصـواتهم أكثر مـن ثلاثة آلاف مهندس تقريبا . .

ولذلك قمنا بحساب حساباتنا ، أثناء الاستعداد لعملية التصـويت ، على ذلك الأساس وأصبحنا أمام موقف ، لا نحسد عليه . .

توافد المهندسون ، من مختلف المحـافظات . . ولم تعـد الصـناديق الانتخابية ، التى تم اعدادهـا كافية ، لأن يدلى كل بصـوته ، أمـام أى منها . . كان الأمر قد هـان ، لو كان مـن الممـكن أن يدلى المهندسـون بأصواتهم ، فى نقاباتهم الفرعية ، كما هو الحـال فى بعض النقـابات . . ولكن قانون نقابة المهندسين ، ينص على أن تتم الانتخابات مركزيا . .

وكان كما قلت . . أن فوجئنا بذلك الموقف ، الذى لا يسـعفنا الوقـت لتعديل أوضاعنا على أساس منه . . وكان أن نصـحت إخـوتى وأبنائى المهندسين بعد أن شـكرتهم ، بأن يغـادروا مقـر النقـابة ، حيث أن الاستعدادات الانتخابية ، لا تسمح بأن يتمكن كل منهم بالادلاء بصوته ،

وكان ذلك سببا فى الايدلى بأصــواته منهــم ، الا ثمــانية الآف مهندس فقط . . ولو كانت الانتخابات . قــد تمــت فى النقـــابات الفـــرعية ، فى المحافظات ــ كما هو الحال ــ فى بعض النقابات . لكان قــد ارتفــع ذلك العدد ، الى أضعاف أضعافه . .

وحصلت على سبعة الآف صوت ، من بين مــن أدلوا بأصــواتهم . . ولم يحدث أن حصل على تلك الأصوات أى مرشح ، فاز بمنصب النقيب من قبل . . وحصل جميع المرشحين ضدى على أقل من الف صوت . .

(تجربة جديدة)

وكان لابد أن أرتفع الى مستوى تلك النتيجة . .

خصنى المهندسون ، بما لم يخصوا به ، نقيبا من قبل . . واعطــونى من الثقة ، ما لم يحصــل عليهــا منهــم ، أحــد غيرى . . وكان لابد أن أعطيهم ، من وقتى ومن جهدى ، ما لم يعطه لهم أحد مــن قبل . .عطــاء يتناسب مع عطائهم . .

وكان لابد أن نبدأ بعمل مفيد ، وتجربة جديدة ، فى العمــل النقــابى كله . .

فكيف بدأنا . .

عقدت أجتماعا للمجلس الأعلى للنقابة ، والذى يتكون مــن ســتين عضوا . . ووضعت أمامهم اول مبدأ ، لكى يكون منهاجا لعملنا . .

ويتلخص المبدأ فى اننى ليس لى راى منفرد ، أعمل على فرض تنفيذه على الجماعة ، ولكننى اريد راى كل مــن أعضــاء المجلس . . وعلينا أن نناقش كل شيء . . ونقرر برضاء كامل ، كل ما هو فى صالح النقابة مــن قرارات . .

وقلت لهم : لكم على أن أطرح على مائدة الاجتماعات ، كل ما عندى من أفكار ، لكى تناقشوها من بين مــا يطــرح مــن أفــكار . . ولكم على أيضا . . أن أضع كل امكانياتى ، من أجــل تنفيذ ، كل مــا ينتهــى اليه مجلس النقابة ، من قرارات . .

ووجدنا أن اول ما ينبغى ان نبدأ به ، هو إعادة النظــر فى أســلوب

العمل التنظيمى داخل النقابة . .

كان المجلس الأعلى للنقابة يعقد اجتماعا شهريا من قبل بالقاهرة . . واتفقنا على أسلوب جديد ، ينطوى على ضرورة أن ينتقل المجلس ، مرة كل شهر ليعقد اجتماعه فى محافظة من المحافظات . .

وكان الهدف من ذلك هو أن نلتقى فى المحافظات ، بأعضاء النقابة الفرعية ، وأن نلتقى بالنقيب ، وأعضاء المجلس هناك . . لكى نتعرف على مشاكلهم ، وأن نستمع اليهم ، وأن نعايش ظروفهم ، وأن ندرس احتياجاتهم ، وأن نلتقى بالقيادات المسئولة ، فى محافظاتهم ، لكى نمد لهم معهم جسور التفاهم ، والتنسيق فى العمل . .

ونزلنا بالفعل الى المحافظات :

وكم كانت زياراتنا ايجابية . . وكم كان أثرها طيبا على المهندسين . . سواء كان ذلك بشكل مباشر ، أم بشكل غير مباشر . .

إن مجرد رؤيتهم لنا معهم ، على أرض الواقع يشعرهم بأننا قريبون منهم ، ولسنا بعيدين عنهم . . يشعر المهندس أن نقابته معه . . وبجواره . . جاءت اليه لكى ترفع معنوياته ، فى جو من العلاقات الانسانية والترابط ، الذى يخلق جو الأسرة الواحدة ، ويدعم الشعور بالانتماء . .

وتبدو هذه الأشياء صغيرة فى مظهرها ، لمن لا يحسن رؤيتها ، ولا يستطيع أن يرى ببعد نظره كل ما هو جميل من نتائجها ، وعظيم فى جوهرها . . ومن يكتشفها ويقتنع بها ، ويستطيع أن يدرك بنفاذ بصيرته مدى تأثيرها . .

ووضعت يدى عليها ، فأصبحت الأعمدة التى ارتفع فوقها صرح « المقاولون العرب .

وكان لابد أن نعمل على تغيير المفهوم الذى استقر من قبل ، ليس فى نقابتنا وحدها ، ولكن فى معظم النقابات . . عندما يصبح العمل النقابى بالنسبة لكل من يستطيع النجاح فى الانتخابات ، ليس أكثر من أن يتردد على مبنى النقابة ، بين الحين والحين كلما سمح وقته بذلك . . وينتهى

عندهم كل شيء ، بانتهاء المعـركة الانتخـابية ، وإعلان فـوزهم ، وكان دخولهم الانتخابات للوصول الى العضوية ، هو الهـدف الذى ينتهـى به كل شيء فور الحصول عليه . .

وكان أن تولد عن العمل بذلك المفهوم ، فهم خاطىء يصور أن مقـر النقابة ، ليس أكثر من ناد ، يذهب اليه العضو للتسلية . . ويلعب الطاولة مع زميل آخر ، كلما وجد عنده الاستعداد لذلك . .

ووجدت ضرورة أن تتفرغ ، هيئة مكتب النقابة ، المنبثقة عن مجلسها الأعلى بجميع أعضائها ، تفرغا كاملا للعمـل النقـابى ، الذى تقـدموا لتحمل مسئولياته ، وليس لممارسته فى الأوقات التى تسمح بها ظروفهم ، كما كان يحدث من قبل . .

ووجدت الحل فى العمـل على إنتدابهـم مـن الجهـات التى يعملون لديها ، لكى يتواجدوا فى النقابة بشكل منتظم ومنظم ، وفقا لجـدول أعد لذلك الغرض ، يحقق تواجدا حقيقيا لقيادات النقابة ، فى مقـرها بشـكل دائم ، لكى يجد المهندس الذى يقصد الى النقابة ، هو وأسرته المسئول ، الذى يعمل على حل مشكلته ، خـاصة فى الظـروف الصـعبة التى يجـد الانسـان نفسه فجـأة فى مـواجهتها . . ويتعين أن يجـد نقـابته ، فى تلك اللحظة ، لتقف الى جواره ، وتشد من أزره ، وتقدم له كل ما يساعده على أن يجتاز محنته . .

لاول مرة

كان ذلك فيما يتعلق بمجال ، العمل الاجتماعى ، داخـل النقـابة . . ولكن كان هدفنا الأساسى ، هو تحقيق عمل انتاجـى ، فى المقـام الأول ، لكى نرسى به تقاليد جديدة لممارسة العمل النقابى ، يجد بدايته فى نقـابة المهندسين ، ليكون بعد ذلك تحت يد وبصر كل من يريد أن يهتدى بها . .

وكان لابد فى نفس الوقت أن نعمل على رفـع مسـتوى المهنة ، على اعتبار أن ذلك لابد أن يكون هدفا أصيلا من أهداف ، أى عمل نقابى وسعنا

الى تحقيق ذلك ، من خلال الاتصالات المكثفة والواسعة ، مـع مـراكز

البحث العلمى والجامعات ، ومتابعة كل تطور جديد فى كل مجال ، والسعى من أجل الحصول على منح دراسية وبعثات للتدريب، فى مختلف التخصصات . .

ويحلو لى أن أقف لفترة أطول ، أمام الهدف الجديد الذى سعينا الى تحقيقه بالعمل على رفع مستوى ابن المهنة ، ماديا بزيادة دخل النقابة حتى نتمكن من أن نحقق زيادة المعاشات ، التى يحصل عليها المهندسون ، ولكى نقوم بتقديم المزيد من الخدمات لهم من ناحية أخرى . .

وكان بنك المهندس ، أول المشروعات التى طرحناها . . والحمد لله . . ظهر الى الوجود ، عملاقا يمارس اعماله بصفته بنكا وطنيا خالصا . .

وادعو أبنائى المهندسين ، الى أن يقفوا الى جوار بنكهم ، يساندونه ، ويتولونه بالرعاية ، ويفتحون حساباتهم فيه ، حتى يستطيع ان يستمر ، فى أداء رسالته . .

ويعتبر بنك المهندس ، ثانى تجربة وطنية ، فى مجال البنوك ، بعد بنك قناة السويس فى عهد الانفتاح الاقتصادى . .

واخترنا له الطريق السليم ، الذى يمارس نشاطه فيه بالوقوف خلف مشروعات النقابة ، يدعمها ، ويمد يده لها ، ويمكنها من الاستمرار فى أداء رسالتها ، ودورها وتحقيق النجاحات التى انشئت من أجلها ، لخير المهندسين ، وخير مصر كلها . .

كان لابد أولا من انشاء البنك ، حتى يؤمن تمويل أية مشروعات أخرى . . وقد كان . .وكان المشروع الثانى . . شركة المهندس للتأمين . . حتى لا يكون هناك مهندس من مهندسى مصر ، غير مؤمن عليه ، ضد عاديات الزمن ، ونوائب الدهر ، هو وأولاده من بعده حتى لا يصيبهم الضيم . .

وأصبح أيضا أحد مجالات التأمين التى امتد لها نشاط تلك الشركة . . التأمين على الشركات الجديدة ، التى تعمل لصالح النقابة . .

وامتدت يدنا بعد ذلك لكى ننشىء . . شركة الاسكان ، التى تتبنى

مشروع اسكان المهندس ويقوم هذا المشروع على أساس ، تمليك الشقة للمهندس ، مقابل مبلغ يتراوح بين ستة ، وسبعة آلاف جنيه . . على أن يدفع المهندس ، مبلغ الف جنيه فقط كمقدم ، والباقي يتم دفعه على اقساط مريحة . .

وكان أن اخذت فى اعتبارى ، فى ذلك المشروع ، نقطة غاية فى الأهمية . . وهى أنه اذا أصيب المهندس ، بالعجز أو الوفاة ، ولم تستطع أسرته تسديد ما تبقى على الشقة من اقساط ، فان شركة التأمين تدخل بدلا من المهندس ، فى تسديد الأقساط المستحقة . . وذلك حتى يظل ورثته فى مسكنهم ، فى مأمن واطمئنان ، دون أن يتعرض لهم أحد . .

ويضاف إلى المشروعات السابقة . . مشروع مزرعة المهندس ، التى تقوم على استثمار ثلاثين الف فدان على اعتبار انها أحد مشروعات الأمن الغذائى . .

وهناك ايضا . . مشروع شركة المهندس الوطنية للصناعات الغذائية . . بالاضافة الى مشروعات زراعية صناعية أخرى على رأسها مشروعات الانتاج الاستهلاكى ، التى لا ينبغى أن يقوم بتنفيذها الا المصريون فقط ، لأنهم أولى من غيرهم بتنفيذ هذه المشروعات .

وكان أن حرصت ايضا . . على أن تدخل مشروعات نقابة المهندسين ، مجالا جديدا يقدم خدمة جديدة ، تقدم لأول مرة فى مصر . . وتمثل ذلك المجال الجديد ، فى انشاء بنك المعلومات . .

ويدور نشاطه فى بداية الأمر ، فى إطار التفتيش على المهندسين ، وعلى عناوينهم ، سواء الموجود منهم داخل الجمهورية أو من يعمل منهم خارجها . . ويقوم بعد ذلك بتصميم استمارة وافية ، تتجمع فيها كافة المعلومات عن أى مهندس ، ويقوم كل مهندس بملء تلك الاستمارة . .

وفى ضوء ما يتم تجميعه من معلومات ، يتم تصنيف الأعداد المتخصصة ، فى مختلف المجالات ، حتى نتبين قدرتنا على المستوى الوطنى على تحقيق مزيد من الانجازات فى ذلك المجال ، وليس على مستوى النقابة وحدها . .

ويتولى بنك المعلومات مهمة البحث عن المهندسين المصريين ، الذين يعملون خارج مصر ، فى مختلف دول العالم . . وتبين أن عددهم يزيد على ثلاثين الف مهندس ، وأن جميعهم يرغبون فى تنمية مشروعات نقـــابتهم وبلدهم ، بما لديهم من خبرة ومال . .

وكان اول ثمـــار بنك المعلومـــات أننا قمنا بتكوين « شركة المصريين العاملين بالخارج » كاحدى مشروعات لجنة التنمية الشعبية ، بالحـــزب الوطنى الديمقراطى . .

واتضح لنا أن المستثمر الاجنبى الذى يقصد إلى مصر للاســـتثمار ، يذهب الى عشرات الأجهـــزة والجهـــات ليبحـــث عن معلومـــات يريد أن يستزيد بها معرفته عن أى مشروع يزمع إنشاءه فى بلادنا . .

وكثيرا ما يضيع وقت هذا المستثمر وهو يبحث عن هذه المعلومات فى مختلف الأجهزة وكثيرا ما كان يتملكه اليأس ، ويعود الى بلاده ، دون أن يقيم مشروعه ، وتكون النتيجة أن تحرم مصر من خبرته وأمـــواله ، التى كان يمكن أن تعود على مصرنا بالخير . .

وقررنا لهذا السبب أن نمد البنك بكافة المعلومات التى يحتاجها كل مستثمر خلال ساعتين فقط ، من وقت طلبه لها . . بعـد أن كان يدوخ فى دواوين الحكومة ، من أجل الحصول عليها . .

ونقدم بهذا العمل صورة مشرفـــة لبلدنا تشـــجع المســـتثمرين على الاستمرار ، بدلا من أن يعود كل منهـــم إلى حيث أتى . . ليس وحـــده ، ولكن ليحذر كل من يقابله ، حتى يقيه شر ما عرض له . .

وتمثل النتيجة فى النهاية خسارة لنا ، قبل أن تمثل خسارة للمستثمر الذى جاء ليضع خبرته وأمواله فى بلادنا . .

وانشأنا مشروع خـــدمات فى النقـــابة ، يقـــدم للمهندســـين كل احتياجاتهم ، من مختلف السلع ، دون أن يعانوا مـــن مشـــكله البحـــث عنها ، ليجدوها وقت أن يحتاجوا اليها . .

وتحولت نقابة المهندسين ، إلى خلية نحل تعمل ليل نهار . . وتحـــول مبناها الذى كان لا يعدو كونه منتدى للعب الطاولة ليصبح مصـــدر إيراد

لها ، بما تحصل عليه من إيراد من المشروعات ، التى تتخذ منهـا مقـارا لها . . ووصل هذا الايراد الى اكثر من ثمـانمائة الف دولار ، فى العـام الواحد . .

وكله من فضل الله سبحانه وتعالى . .

سؤال يواجهنى

وأجد من يسألنى :

من اين لك بالوقت الذى تستطيع أن تخصصه ، لكل ما تهتم به مـن اعمـال ومشروعات . . ؟ وكيف امـكنك أن تنجـز كل هـذه المشروعات الضخمة فى هذا الوقت القياسى ؟

ولا أجد ما أقـوله : إلا اننى نو تركيبة خـاصة . . ومـزاج مختلف . . ولا اقصد بنلك أننى أمتلك قدرات خارقة ، تفوق قدرات البشر العادية . . ولكن أقصد الظروف التى واكبت حياتى ، وانعكست على شـخصيتى ، وتركت اثارها بصماتها على تفكيرى ، واسلوب ممارستى .

عشت أربعين عاما رجل أعمال فى السـوق منذ أن تخـرجت فى كلية الهندسة ، وعملت فى مجال المقاولات وحتى الآن . . وأمضـيت كل هـذا العمر فى الاحتكاك بالاعمال والناس . . ولذلك فعلى هدى مـن محصـلة تجربتى . . واعتمادى على الله اتصرف . . والحمد الله . .

وكان لابد أن تنعكس هذه الخبرة وتؤتى ثمارها ، فى كل مجال عمل أقدم عليه . . ومن تلك المجالات نقابة المهندسين ، التى تحـولت الى خلية نحل ، تعمل ليل نهار . .

والحمد الله ـ تشهد النقابة إقبالا كبيرا من المهندسين على نقابتهم ، ومشروعاتها بشكل لم يسبق له مثيل . . سواء بالنسبة لها أو لغيرها من النقابات الأخرى . .

تحولت النقابة مع الأسلوب الجديد ، الذى اخترناه منهاجا لحياتنا ، إلى مؤسسة انتاج تبنى العـديد مـن المشروعات . . لخير المهنة ، ولخير أعضائها . . وخير مصر كلها . .

ويستوعب ما يتم إقامته من مشروعات أعدادا كبيرة من العمـالة . .

وتحقق مزيدا من الانتاج ، لسلع نحن فى حـاجة كبيرة اليهـا . . وتقـدم خدمات تعود بالخير على مواطنينا بدلا من أن تصبح النقـابة عبئا على البلاد ، تطالب بامتيازات لأعضائها من الدولة ، دون أن تلعـب هـى أى دور من أجل رفع مستوى اعضائها ، لتقـدم جـديدا بدلا مـن ان يكون رائدها الأخذ فقط ، كما كان دورها من قبل .

واتمنى أن يسود هذا المفهوم الجديد للعمل النقـابى ، حتى يتحـول دور النقابات ،من مجرد المطالبة ببعض المميزات التى تمـن بهـا الدولة على ابناء المهنة . . فتمثل فى نفس الوقت عبئا عليهـا الى أن يكون أبناء المهنة فيما بينهم قوة قادرة على الانتاج والمسـاهمة الايجـابية فى حـل مشاكل المجتمع . . بالعمل وليس بالكلام . .

وتبدى نقابة المهندسين استعدادها ، لأن تمد يدها للتعاون والتعامل مع كافـة النقـابات المهنية فى مصر . . سـواء الأطباء أو الصـيادلة أو المعلمـون ، أو التطبيقيون أو الصـحفيون أو التجـاريون او التطبيقيون . . وغيرهم وسائر النقابات الأخرى ، فى مصر .

وكان أن قمت باخطار تسع عشرة نقابة مهنية فى مصر ، بما قمنا به من مشروعات وما سنقوم به من مشروعات اخرى واعربت لها عن رغبة نقابة المهندسين ، فى مشاركة زميلاتها من النقابات المهنية الأخرى لها فى مشروعاتها التى تقيمها بما يعود بالنفـع على زمـلائنا أعضـاء هـذه النقابات . . ويعود أيضا ـ على مصر ، ويساعد على إرساء قواعد مفهوم جديد للعمـل النقـابى فى مصر نتحـول فيه الى منتجين نضـيف الى الانتاج . . لا . . أن تتراكم مـطالبنا بمـا ينوء به كاهـل الدولة وميزانيتها . . . وسيظل الباب مفتوحا للدعوة التى نمد من خـلالها الى الجميع يدنا . . حتى يكبر حجم المشروعات ويزداد عددهـا عمـا يخـدم قطاعا اكبر من أبناء مصر ، فيعم الخير على الجميع بدلا من أن تنفـرد نقابة المهندسين وحدها بهذه المشروعات ويظل باقى الزمـلاء واقفين فى طابور انتظار إحسان الدولة عليهم ، بما تيسر لها . . إذا تيسر . . ! !

ونجحنا فى الحصول على عشرة ملايين متر مربع فى المدن الجديدة ، لجميع النقابات المهنية ، وتقوم نقابة المهندسين بتخطيطها وتقسـيمها ،

لتعطى كل نقابة نصيبها حسب عدد أعضائها . . وخصصت النقابة جهازا يقوم بتخطيط هذه الأراضى كأول خطوة على الطريق ، والتى نتمنى أن تنتهى بأن تتحول هذه الأراضى الى عمارات ينتشر بها العمران فى المجتمعات الجديدة التى نحلم بها . .

كان تفكيرى ولا يزال فى إطار كل ما تناولته من أفكار . . لذلك عندما أصبحت نقيبا للمهندسين ، لم يكن عندى أدنى استعداد للبحث عن مزايا جديدة للمهندسين نحصل عليها من الدولة ، لأننى أعرف أن هذه المزايا هى بالتأكيد على حساب قطاعات أخرى لأنها تأخذ من إيراد الدولة ، الذى يجب أن توجهه الى صالح المواطنين جميعا . . لا إلى صالح فئة واحدة منهم .

وايضا . . ما دمنا قادرين على الانتاج وادارة المشروعات فلماذا لا نبدأ وننتظر فضل الاحسان . .

وكان بناء على ذلك ولا يزال اقتناعى ، بعدم الدخول مع الحكومة فى أى محاورات أو مطالبات ضيقة محدودة ، مثل تلك التى تعود الكثيرين على أن يجعلوا منها محورا للعمل النقابى ليس فى نقابة المهندسين وحدها ، ولكن فى سائر النقابات الأخرى . .

واقبل المهندسون على السير معى فى هذا الطريق . . وليس هناك دليل على ذلك سوى أن عدد الذين يدفعون الاشتراكات زاد من ثلاثة وعشرين الف مهندس ، عندما بدات معركة انتخابات النقابة ، التى رشحت فيها نقيبا . . وأصبح الآن مائة الف مهندس . . اندمجوا جميعا مع المشروعات الجديدة فيها ، وذابت مطالبهم الضيقة التى كانوا يقفلون الباب على أنفسهم فى داخلها . .

ليروا ما هو أبعد من الافاق الرحبة خلفها . .

فهل هذه التجربة صالحة لأن تكون مثالا للعمل النقابى الجيد والجديد ؟ ! .

* * *

الإنسان المصرى ثروتنا الحقيقية

زارتنى مجمـوعة مـن الطلبة المهتمين بدراسـة علم الادارة وكانوا بصحبة أستاذهم الذى ذكر لى : عدداً من النظريات وعدداً من الاسـاتذه الذين لهم باع طويلة فى هذا الحقل من حقول المعرفه . . وسألنى ما هـى نظرية المهندس عثمان أحمد عثمان فى الادارة ؟ !

ولم اجد ما اجيب به سوى اننى رجل اعمال ، وكل مـا امتلكه عبارة عن خبرة تجمعت لدى نتيجة مجموعة مـن التجـارب ، التى مـرت على حياتى . . لذلك فان طـريقتى فى الادارة ــ لا تكتب ولا تقـرأ . . ولكنهـا تمارس . .

واستطردت أقول للطلبة ولأستاذهم : ان ادارتى تتلخص فى ايمـان عميق بالله سبحانه وتعالى . . ثم بعد ذلك ثقة فى النفس . . وثقتى فى اننى مصرى ابن حضارة سـبعة آلاف عام . . واليت على نفسى بعـد ذلك ان أبذل مزيداً من العرق والاخـلاص فى العمـل ، مقتنعـا بأنه على قـدر ما يعطى الانسان ، على قـدر مـا يجنى مـن ثمـار . . ثم يتوج كل ذلك علاقات انسانية طيبة . . وان الانسان المصرى العملاق له طبيعة نفسية مميزة تمكن من يفهمها ، ويتعامل معه على أساسها ، من ان يحصل منه على ما يشبه المعجزات . .

ومهما أعطيت الانسان المصرى فهو رجل معطاء . . لابد أن يعطيك اكثر مما تعطيه . . لانه يحب ان يكون دائما صاحب فضل . .

فما دمت لا تبخل عليه . . فهو يضعك فى عينيه . . يخاف عليك . . ويحوطك برعايته . . ويذهب معك الى أى مدى . . ولكن بشرط ان تنجح فى أن تصل الى قلب معدنه الطيب . . فهو جوهرة . . لا تبوح باسرارها الا لمن يعرف قيمتها . .

واستطردت اقول لهم :

ان صلة الانسان بالناس هى جزء من صلته بربه ، لذلك لابد ان تكون طيبه . . يحب الخير لهم . . يعطف عليهم . . ويتعاطف معهم . . يخاف عليهم . . فيخافون عليه . . بدلا من ان يخاف منهم . . ويخافون منه . . فالانسان كله عواطف . . فعندما تسأل عن جارك يسأل عنك . . وعندما تجد انسانا يعانى وتقف الى جوارهْ فى محنته . . فلا تتصور انه يمكن ان ينسى لك فى يوم من الايام هذا الموقف مهما كانت الظروف . . واذا جاءك يوم وتعرضت فيه لمعاناة ، فانك ستجده الى جوارك كما وجدك الى جواره . .

فيجب ان يشعر كل من معك مهما كثر عددهم ، ومهما كان الفارق بينك وبينهم انك جزء منهم . . فلا تتعالى عليهم . . ولا تترك اننى اثر فى نفوسهم . . الا ويدل على انك واحد منهم . . اذا فعلت ذلك فستجد دون ان تشعر انهم رفعوك . . وكبرت بهم لانك معهم ومن بينهم . .

وقلت لهم ايضا : اننى تعلمت من تجاربى ان الناس ليسوا جميعا من نوعية واحدة . فمنهم من لا يمكن ان نجد عنده اى صدى لكل ما أقول . .

وتقابلت بهذه النماذج الشاذة فى مجتمعنا . . والحمد لله عرفت انهم شواذ عن القاعدة السليمة لجوهر الانسان المصرى . .

ولكننى عدت أنبههم الى انه قد يلتقى الانسان ، بمن يبدو لاول وهلة ، انه نموذج سيىء . . ولكن بالتجربة وبالمعاملة لا يملك إلا أن يكشف عن معدنه الأصيل بعد ان تستطيع أن تنظفه مما لحق به من غبار

أخفى جوهره خلفه . .

ولى مع الانســان المصرى قصص . . وقصص . . كان فى كل قصــة منها رجلا . . شهما . . اصيلا . . كله مروءة واحساس . . فهو قطعة مــن الالماظ . . وجوهره ينبغى أن ننفض مــا عليهــا مــن غبار ، وننقيهـــا ونلمعها ، لتظهر على حقيقتها . .

اين الجوهر ؟

هكذا فعلت . . ولم أكن سطحيا فى معــاملاتى مــع العــامل المصرى الذى اعتبر نفسى . . واعتبر كل ما وصلت اليه . . ليس الا ثمرة لتكاتفــه معى . .

وضربت للاستاذ وتلاميذه مثلا . . عندما قلت لهم :

كنت قد كسبت عطاء مدرسة البنات الابتدائية بالاسماعيلية فى بداية الخمسينات . . وكانت هذه المدرسة اول عملية كبيرة أتولى تنفيذها كأول تعامل لى مع الحكومة بحكم مهنتى كمقاول . .

وعندما كنت بصدد التشطيبات النهائية فى هذه المدرسة . . أســندت عملية تركيب البلاط الى صنايعى متخصص . . فى هذا المجال . . اســمه على عبد العزيز من السويس . . يتقن هــذا العمــل جيدا . . وله فيه باع طويل .

وكان على عبد العزيز قد تعامل معى بشكل محدود ، فى عمليه ســور مصنع سماد عتاقه ، ولكن لم يكن تعاملى معه بالشكل الذى يمكننى مــن الحكم عليه . . او معرفته المعرفة الجيدة . .

ووجدت من يعترض على ان اسند هــذه العملية اليه . . على اعتبار ان تجربتى معه لم تكن كافية للحكم عليه . . وانه رغم « شطارته » فهــو يعانى من عيب خطير . .

سألت عن هذا العيب . .

فقالوا لى : لا ينجز عملا يسند اليه دفعة واحدة وانه ســيحصل منك على مبلغ من المال ثم يعدك بانه ســيبدأ فى عملك حتى ينهيه . . وسرعان ما تجده قد ماطل . . وانصرف الى غيرك . . وهكذا . .

أى بلغة المقاولين . . هـواية هـذا الصـنايعى ان يضـع الناس فى « عبه » ويربطهم به . . ثم يبدأ بعد ذلك فى انهاء أعمالهم طبقا لما تسمح به ظروفه ، التى يقدرها هو وحده دون النظر الى ظروف الآخرين . .

ولم تكن كل هذه التحذيرات سببا فى ان اعيد النظـر فى اختيار على عبد العزيز ولكن جعلتنى أصمم على أن أسند هذا العمل إليه . . ومع أن هذا التصميم يبدو لأول وهلة إنه ضد مصلحتى . . ولكننى عندما عرفـت انه صنايعى ممتاز فى صـنعته أردت أن أتعـامل معـه لكى أرشـده . . وأعلمه . . كيف يسير فى الطـريق الصـحيح ، فى تعـامله مـع الناس مثلما تعلم أن يتقن مهنته ، لكى يتكامل عنده الجـانبان ، ويسـتطيع أن ينال ثقة الناس بدلا مـن شـكوكهم . . لأن الشـكوك كفيلة بأن تدمـر مستقبله دون أن يدرى . .

وقبل أن يتركنى طلب منى مبلغا من المال . . ودفعت له وقتها ثمانين جنيها . . وطلبت من رياض أسعد أن يحرر عليه ايصـالا بالاسـتلام . . واعترض رياض بسبب مـا يسـمعه عنه . . وحـاول إقناعى بألا أعطيه مليما واحدا ، إلا بقدر ما يقوم بتنفيذه فى مـوقع العمـل . . ولكن أمـام إصرارى لم يجد مفرا من أن ينفذ ما طلبته منه . .

وفى اليوم التالى بدأ على عبد العزيز فى تركيب البلاط . . وبعـد ثلاثة أيام بالضبط وجدته يغادر مكان العملية . .

ورحت أبحث عنه فى كل مكان فلم أجـده . . وكأنه كمـا يقـول المثل الشعبى . . « فص ملح وداب » . .

وبعد فترة وجدت من ينصحنى بأن أتقدم بشـكوى ضـده . . وهـذا ليس من طبيعتى ، فأنا حريص دائما على عملى . . وعلى أن أبتعـد عن المشاكل ، لأنها تؤخر ولا تقدم . .

وانتظرت عودة على عبد العزيز . . ولكن كان انتظارى إلى أجل غير مسمى . .

وبعد حوالى شهرين . . ذات يوم كنت خارجا من منزلى كعـادتى فى الساعة السادسة صباحا . . فـوجئت بعلى عبد العـزيز ومعـه رجـلان

آخران ينتظروننى أمام المنزل . . سلمت عليه بحرارة شديدة . . وسـألته عن صحته وأولاده . .

ولم أتحدث معه بخصوص المهمـة التى كان مـكلفا بهـا . . ولكننى حاولت أن أطمـئن منه على أن تغيبه طـوال الفترة التى غابهـا . . كان بسبب خير . .

قال : خير والحمد لله . .

قلت : ولماذا جئت فى هذا الوقت المبكر جدا . .

قال : أعرف إنك تخرج من المنزل فى هذا الميعاد ، فأردت أن ألتقى بك قبل أن تبدأ نشاطك . .

قلت : تحت أمرك فى أى شىء يا على . .

قال : أنا فى أشد الحاجة إلى مبلغ سـبعين جنيها . . فهـل أجـدها معك . .

قلت : أى مبلغ تريده يا على . .

وطلبت من رياض أسـعد أن يسـلمه المبلغ الذى يحتاجـه . . ولكن رياض حاول الرفض بشتى الطرق . . وقال لى أنه سيفعل مثلما فعـل فى المرة السابقة . . بل أن رياض أسعد وجد فى وجوده معنا فـرصته ، لكى نمسك به ولا نتركه يفلت إلا إذا حصلنا على مستحقاتنا طرفه . .

رفضت وجهة نظـر رياض . . وطلبت منه أن يسـلمه المبلغ دون أن يحرر عليه ايصالا بالاستلام فى هذه المرة . .

قامت قيامة رياض أسعد . . ولكنه لا يعرف إننى أردت أن أعلم على عبد العزيز . . وأن أحرك فيه تاريخ أمته الطويل العريق الأصيل . . فهـو ابن حضارة سبعة آلاف عام . . لم أقل له ذلك . . ولكن أردت أن أحركها فيه . . فأنا أعرف نوعية العامل المصرى . . وأعرف إنسانيته وشـهامته ونخوته . . لذلك أردت أن ألمس فيه هذه القيم . . أردت أن أضعه مـوضع حساب مع نفسه يراجعها لكى يتحرك داخله هـذا التراث العـظيم الذى ورثه . . وفعلا حصل على عبد العزيز على المبلغ وانصرف . . ولكن بعـد ثلاثة أيام ذهبت إلى مقر العملية ففوجئت به هناك يقـوم بتركيب البلاط

دون أن أطلب منه ، ودون أن يكون بينى وبينه سابق موعد .

بل أن عماله الذين كانوا يعملون معه فيما سبق كان لا يزيد عددهم على أربعة عمال . . ووجدت معه هذه المرة خمسة عشر عاملا . .

ولما سألته عن هذا العدد الكبير من العاملين . .

قال لى : لقد أردت أن انجز لك عمليتك . . لقد أخرتك اكثر مما يجب ، ولابد أن أعوض هذا التأخير . .

وسألته عما إذا كان يحتاج إلى فلوس . .

اجاب بالنفى . .

حاولت : إقناعه بأن يتسلم مبلغا من المال لكى يدفع أجور العمال ، خاصة أن عددهم أكبر مما تتحمله إمكانياته . .

ولكنه أصر على الرفض . . وعلى الا يتقاضى مليما واحدا ، قبل أن ينتهى من عمله كاملا . .

وطوال فترة تنفيذه للعملية . . وجدت فيه : إنسانا آخر . . ليس هو الانسان الذى قالوا لى عنه . . وتعاملت معه من قبل . .

وكم كنت سعيداً ليس لأن على عبد العزيز جاء يستكمل العمل . . ولكن لاننى نجحت فى أن أصل إلى جوهره الأصيل . .

وكانت هذه التجربة درسا مفيداً لعلى عبد العزيز . . غير كل مسار حياته بعد ذلك . . وانصلح حاله . . واستقام فى عمله . .

وأخذت بيده . . وسافر معى إلى المملكة العربية السعودية وقام بتركيب بلاط عدد من المشروعات الكبيرة . . وكذلك ذهب معى إلى الكويت وقام بتركيب بلاط مبنى البلدية ومجلس الأمة هناك . .

ذكاء إبن البلد

وكانت لى معه فى السعودية قصة طريفة تدل على مدى ما يتمتع به إبن البلد من ذكاء خارق . .

كنا نقوم بتركيب بلاط مطار الظهران . . وكنا قد حصلنا على هذه العملية من سلاح المهندسين الأمريكى الذى كان يتولى الاشراف على

تلك المهمة . .

وكانت معاملتهم قاسية جداً . . لدرجة أن كل مـــا قمنا بتنفيذه مـــن أعمال جيدة لم يرق لهم . .

وتسببت تلك المعاملة ، فى أن تضعنى فى حيرة شديدة ، لأننى وضعت أسعاراً رخيصة كعادتى واتضح لى أن المعاملة بذلك الشكل ، ســتتسبب لى فى خسارة كبيرة محققة . . وعندما لاحظ على عبد العزيز على التأثير الواضح . .

سألنى :

ماذا بك ؟

فرويت له قصة ذلك الموضوع . .

وكان ان قال لى : اتركنى أنا لكى أتصرف معهم . .

وسألته : ماذا ستفعل يا على . .

قال : سوف ترى . .

وتحسبت من أن يحاول أن يتصرف مع الأمريكان بشــكل يزيد مـــن أستفزازهم . .

ولكنه قال لى : أنا المسئول . .

وتركت على يتصرف . .

فماذا فعل ؟

كان يوجد معنا عامــل بوفيه « ضـــخم الجســـم » اســـتدعاه على عبد العزيز . . واتفق معه على أن يزاول العمــل مـــع العــاملين على أنه صنايعى بلاط . . وعندما يحضر المشرف الأمريكى لمعاينة التنفيذ ويبدى ملاحظاته على العمل . . يقوم على بصفع العامل على وجهه . . ثم يلقـــى العامل بنفسه على الأرض ، ويتظاهر بأنه مات . . ومهما تبذل معه مـــن محاولات .. لا يغير من وضعه . .

وعندما حضر المشرف نفذ على خطته . . وعندمـــا وجـــد المشرف أن الرجل وقع على الأرض . . فر هاربا من موقع العمل . . ولم يعد إليه مرة

أخرى ، بعد ذلك الحادث . . ولكنه كان يسأل عما حدث للعامل . . وكانت تصله الاجابة بأنه لم يمت ولكنه فى المستشفى تحت العلاج . .

وانتهينا من تركيب البلاط بالكامل ، دون أن نرى ذلك المشرف فى موقع العمل . .

وأنقذنى ذكاء « إبن البلد » المصرى من خسارة ضخمة كانت ستلحق بى . . ليس لأن عملنا ليس دقيقاً . . ولكن لأن المشرف كان متعنتا . .

ولم يكن حرص على عبد العزيز على عثمان أحمد عثمان إلا نتيجة حرصى عليه وجسور الود التى أقمتها معه . .

وكانت النتيجة كما ترى . .

وأصبح الحاج على عبد العزيز مقاولا كبيرا . . ومن أحسن المقاولين الذين نفعوا أنفسهم وبلدهم . . وأصبح بعد ذلك صاحب سيارات وعمارات . . وأعمال واسعة . . وفتح الله عليه كثيراً . . وأعطاه رزقاً كبيراً . .

ولكن السؤال الأهم . . هذا هو الانسان المصرى عندما يكشف عن معدنه الحقيقى فلماذا لا نبحث عن هذا المعدن الثمين ؟ إن التعامل مع العامل المصرى فن وعلم . . إذا كسبته الى جوارك . . فانه يضحى من أجلك بكل شىء . . وكسبه ليس بالاغداق عليه بالمال . . ولكن بالثقة فيه . . والصراحة . . والواقعية . .

إن تعامله كانسان مثلك . . وتحفظ له ادميته . .

فالعامل المصرى إنسان ذكى وحساس ، ويستطيع بفطرته أن يميز بين المعاملة التى يشوبها الاصطناع ، والمعاملة الطبيعية النابعة من القلب . . ولولا أنه لمس فى أن كل ما كنت وما زلت أفعله معه نابع من اقتناع ومن القلب ما كان قد أعطانى كل ما أعطاه لى ولبلده ولأمته . .

ولذلك أقول لشبابنا يجب الا يجعل من النماذج السيئة أساسا للأسلوب الذى يحدده لمستقبل حياته ولكن يتعامل بصفاء مع الجميع حتى هذه النماذج السيئة لأنها قد تعود إلى حظيرة مبادىء مجتمعنا . .

ولن تجد يا ولدى فى النهاية إلا محصلة إيجابية . . فهذه نصيحة أب

عاش هذه التجارب ، وليست اجتهادات فيلسوف قدح زناد فكره ، ليقدم لك هذه النصيحة . .

وقد تتعرض للخسارة مرة ومرة . . وقد يقابلك من يخـونك . . وقـد تتعامل مع منحـرف فتأمـن له ولكن لا يرتفـع إلى مسـتوى ثقتك . . فلا تجعل من هؤلاء معيارا للحكم على كل الناس ، لأنك لو فعلت ذلك فان المحصلة ستكون فى النهاية سلبية . . وستجد نفسك معـرضاً للخسـارة يوماً بعد يوم . . وإن لم تخسر فسـتجد أن خـطواتك تجـاه أهـدافك بطيئة . .

ولكن مثل هذه المواقف التى قد تتعرض لها ليست إلا من قبيل المحن التى يختبرك بها الله سبحانه وتعالى من ناحية . . ومـن ناحية أخـرى فانها هى التى تخلق الرجال وتقوى من شكيمتهم . . وتولد لديهم الارادة والعزم . . فلا يصح عندما تجد نفسك فى محنة ، أن تفعـل أكثر مـن أن تصبر . . فالحياة مشاكل . . والناس معـادن . . والممـارسة هـى التى تكسب الانسان الخبرة وتعطيه بعد النظر . . والمحن ما هـى الا الثمـن الذى ينبغى أن يدفعه أى إنسان طموح مقابل أن ينجح . .

مثال من الواقع

وضربت للاستاذ وتلاميذه مثالا من الواقع . . بعامل يعمل تحت ظل برنامجين مختلفين ، وقدرة هـذا الرجـل لا تزيد على حفـر ثلاثة امتار مكعبة فى اليوم .

برنامج لا يتعامل إلا مع الماديات وقواعد الحساب برنامج يأخـذ فى اعتباره كل العوامل الانسانية التى ذكرتها . .

يوضع البرنامج الأول على أساس أن يحدد للعـامل حفـر خمسـة أمتار مكعبة ، على أمل أن ينجز منها ثلاثة ، وبذلك يحقق الهدف المطلوب منه . . وهذا البرنامج فى رأيى خطأ . .

صحيح سيحقق فى النهاية الهدف ، ولكن لا يحقق لك الحصـول على اقصى طاقة يمكن ان يعطيها هذا العامل ، لأن البرنامج يضعف معنوياته ويملؤه باليأس . . لأن حجم العمل أكبر من إمكانياته . .

ويوضع البرنامج الآخر ، على أساس أن تحـدد له مترين مـربعين فقط . . وهنا يجد العامل المصرى نفسه ، أمام عمـل معقـول يسـتطيع إنجازه . . لأنه أقل من إمكانياته ، فترتفـع معنوياته ويقبل على العمـل بروح عالية . . لأن كفاءته فى اليوم هى حفر ثلاثة أمتار مكعبة ، والمطلوب منه حفر مترين فقط . . لذلك ينجز ما هو مـطلوب منه فى زمـن قياسى . . فيثق فى نفسه .

وهنا يتدخل رجل الادارة الناجـح الذى يعـرف أنه يريد مـن هـذا العامل حفر ثلاثة أمتار مكعبة وليس مترين فقط ، عندما يقـدم للعـامل حافزاً معنويا بتمجيد قدرته ، وشكره على الجهـد الذى يبذله فى إتقـان عمله . . ثم يطلب منه بعد ذلك حفر مترين مـكعبين ـ إضـافيين مقـابل مكافأة مادية معقولة إذا تمكن من إنجاز المهمـة . . وهنا ينكب العـامل على العمل بارادة من حديد ويبذل جهده . . ويعطى الطـاقات الكامنة فيه وينجز ما هو مطلوب منه . .

ويتضح الفارق الكبير بين البرنامجين . . برنامج يعطى فقـط كمية العمل المطلوبة مقابل الأجر الذى تم تقديمه للعامل ، ولكن على حسـاب معنوياته ، وكبت ملكاته ، دون أن تأخذ فـرصتها للظهـور . . وبرنامـج أعطى متراً مكعبا إضافيا ، مقابل المكافأة المحدودة التى منحت للعـامل ولكن جعلته يقدم على العمـل ، بروح عالية ، ونفس راضـية ، وفى نفس الوقت يحقق عائداً ماديا إضافيا . .

لذلك فاننى افهم الادارة على أنها إتاحة الفرصة للعامل لكى يثبت ذاته ولكى ينجح فلو نجح ترتفع معنوياته . . والنجاح يقـود إلى النجـاح . . وهكذا يزيد الانتاج . .

وقس على هذا المثال ما شئت . .

الوجه الاخر

واستطردت أقول للأستاذ وتلاميذه :

ومن ناحية ثانية لا ينبغى أن تنسـحب هـذه العـلاقات الطيبة على العاملين معك فقط . . بل يجب أن تنسحب أيضا على المجتمع الذى تعمل

فيه ، والمنطقة التى تزاول فيهــا نشــاطك . . فترتبط أهلهــا بك وترتبط بهم . . على أساس أن تتصرف فى حدود حجمك . .

إذا حملت نفسك ما هو فوق طاقتك فانك ترتكب خطأ فادحا فى حــق عملك . . فمثلا كلمــا كنت أتبرع لعمــل خيرى كان التبرع فى حـــدود إمــكانياتى . . ففــى بداية حياتى العملية كنت أتبرع بخمســة وعشرين قرشا . . ولما اتسع حجم أعمالى ارتفــع ذلك المبلغ إلى جنيه . . وعندمــا كبرت الشركة ازداد معها حجم عمل الخير بنفس القدر . . فبعــد أن كنا نقيم « مصلية للصلاة أو نقوم بفرش مســجد » أصــبحنا نقيم المســاجد ومرافق الخير فى كل مكان تذهب إليه شركة المقاولون العرب . . وتكونت بالشركة لجنة اسمها « لجنة البر » مهمتها إرسال مندوب إلى أى مــكان يقام فيه مسجد لكى تبحث مدى ما يمكن أن تقدمه الشركة من مســاعدة فى هذا المشروع . .

والحمد لله فان « المقاولون العرب » أقــامت حتى الآن بطــول مصر وعرضها أكثر من ١٠٠٠ جامع تحمل ألف مئذنة بالاضافة إلى المدارس والجمعيات التى تقيمها أو تساهم فيها فى كل مكان . . وهذا مــن فضــل الله . .

وهناك أيضا أهالى المناطق التى نقوم بتنفيذ أعمال فيهــا . . فــاننا نتعاون معهم ونستعين بهــم وبامــكانياتهم فى العمــل . . فيســتفيدون ونستفيد نحن بجهودهم . . إلى جانب ما يمكن أن ندخله إلى المنطقة من خدمات وتحسينات . . كل هذه الأمور تقيم جســورا مــن المودة والمحبة بيننا وبين هؤلاء جميعا . . ولا يستطيع أن يقدر قيمة ما يمكن أن يحققه هذا الأمر من عائد ، إلا كل من يستطيع أن يصــل بنفــاذ بصــيرته إلى أعماق الانسان المصرى .

فقد يتصور قصير النظر أن هذه نفقات بلا فائدة . . ولكن مــن يرى أبعد من تحت قدميه ، يلمس مدى ما ينعكس على العمل مــن إيجــابيات تزيد من عائد الانتاج بشكل كبير . .

اهل السويس

وضربت للاستاذ وتلاميذه مثالا لتأكيد تلك الحقيقة عندما قلت لهم :

كنت أقـوم باعادة بناء كفـر أحمـد عبده فى بداية حياتى العملية . . وكانت هذه العملية فى منطقة السويس . . فذهبت سـياراتى إلى أقـرب محجر هناك لاحضار زلط ،فتعرض لها أهل المنطقة ومنعوها من دخول المحجر ، بحجة أن سياراتهم فقط هى التى من حقهـا دخـول المحجـر ولا يجوز أن تدخل إليه سيارات غيرها . .

وحدثت مشادة بين أهل المنطقة ورجالى ، وبلغنى النبأ وأسرعت إلى هناك . .

وكان يمكن أن أتمسك بحقى فى دخول سـياراتى إلى المحجـر لكى تحمل أية كمية منه . . وليس لذلك التصرف من نتيجة ، سـوى مضـيعة الوقت الذى أنا فى أشد الحاجة إليه ، لانجاز أعمالى . . وكذلك فقـدانى لمودة أهل المنطقة التى سيصبح لى فيها أعداء بدلا من أن يكون لى فيها أصدقاء . . ولكننى فضلت أن أذهب إلى حيث مكان المشادة . . وسـألت عن تفاصيل ما حدث . .وعرفت القصة وقفت إلى جانب اهالى المنطقة . . بدلا من أن أقف إلى جانب رجالى . . وطلبت من أهل المنطقـة أن نجلس معا لكى نتفاهم حول المشكلة . . فوافقوا . . وكان لابد أن أبدأ بالمدخـل الذى يجد له صدى عندهم فقلت لهم :

إن سياراتكم هى التى ستعمل وحدها فى هذا العمل ، ولا سـيارات غير سياراتكم . . فأنتم أهل المنطقة . . ومن حقكم أن تعملوا وأن تستفيد سياراتكم قبل غيرها . .

فهدأوا وبدأ عليهم الارتياح الشديد .

ثم سألتهم كم مترا مكعبا يمكن أن تنقلها سياراتكم فى اليوم . .

أجابوا : خمسمائة متر . .

قلت : مبروك عليكم تنفيذ هذا العمل . . وابدأوا مـن الآن ولا شريك لكم . .

ولكن عدت أقول لهم : إن حجم العمل عندى يحتاج إلى ١٠٠٠ متر مكعب ـ فهل تستطيعون تدبير وسيلة من قبلكم لنقل الكمية الباقية . .

قالوا : لا

قلت : هل لى ان انقلها بوسيلتى الخاصة ؟

أجابوا : موافقون . .

قلت : على بركة الله . .

وانتهى الخلاف . . وبدأت من تلك اللحظة علاقة ود ومحبة بينى وبينهم على أحسن ما يكون وذهبت معهم إلى ما هو أبعد . . لقد قمت بتجديد سياراتهم على حسابى الخاص ، وقدمت لهم كل عون أستطيعه . .

وكانت النتيجة انهم قاموا بتخفيض ثمن النقلة . عن الثمن الذى كنا قد اتفقنا عليه عند بداية العمل . . من تلقاء أنفسهم دون أن أطلب منهم .

واصبحوا اكثر حرصا منى على عملى . .

ذهبت الى السويس ولا إعرف فيها احدا . . وخرجت منها وأنا صديق لكل أهلها . . بل وتداخلت معهم واصبحت لى علاقات أخذ وعطاء مالية معهم . .

وكان لى صديق هناك اسمه حماده ربيع ، كنت أذهب إليه كلما احتجت إلى أموال لاقترضها منه . . وأقوم بسدادها عندما يحين موعد صرف مستخلصاتى من العملية . . ولم يتأخر الرجل يوما واحداً . . ولم يرد طلبى ولو مرة واحدة . .

وأذكر إننى احتجت ف العمل الى مبلغ خمسمائة جنيه . . وكانت مناسبة عيد . . وتأخر صرف المستخلصات . . وكان لابد أن يقبض العاملون معى مستحقاتهم لمواجهة متطلبات العيد . .

وكان لى صديق آخر يعمل بالتجارة هناك . . فذهبت إليه لاقترض منه خمسمائة جنيه . . وحصلت على المبلغ على الفور . . وعندما عرضت

عليه ايصالا باستلامه . . رفض بشدة . . وأصر على الا يحصل على ما يثبت حقه . . وقال لى . . لا أطلب منك رد هذا المبلغ إلا وقت أن تستطيع ولا تشغل نفسك بأمر سداده . .

هكذا تعاملت مع الناس . .

ولكن كل ما أريد ان اقوله لأبنائى الشباب أن الأمر كله رهن بطريقة التصرف وكان من الممكن أن اتصرف فى الموقف الصغير بطريقة استفزازية . . قد تحقق لى الحصول على ما أحتاجه من زلط بوسيلتى الخاصة . . دون الاستعانة بسيارات أهل المنطقة . . ولكن هل كانت ستحقق لى كل هذا الحب الذى نشأ بينى وبين كل أهل السويس . .

هنا يكمن الفارق الأساسى بين النجاح والفشل . .

. واستطردت أقول للأستاذ وتلاميذه :

حرصت على أن تكون إدارتى نابعة من الواقع وليست إدارة مستوردة . . وحرصت على أن أنشىء مدرسة قائمة بذاتها . . وحرصت على حمايتها من اى دخيل تربى فى مدرسة أخرى على غير مبادئها . . سواء أخلاقيا أو فنيا . .

وفوق كل هذا حرصت على أن يشترك العاملون معى ، فى كل ما أحصل عليه من أرباح . . فلابد وأن يذوقوا ثمرة عرقهم ، لكى يبذلوا المزيد من هذا العرق . .

حرصت أيضا على شرف الكلمة . . فلابد أن تكون لك كلمة يجدك الناس دائما عندها . . فهذا هو السبيل الوحيد ، إلى الثقة التى هى أساس كل شىء فى التعامل مع الآخرين . .

إن الثقة غالية . . وهى أكبر راس مال يمكن أن يكونه أى إنسان . . وكانت الثقة راسمالى الأول الذى كان سببا فى أن تتراكم لدى بعد ذلك رؤوس الأموال الأخرى . .

وكانت الأمانة هى أول طريق لى لبناء كل هذه الثقة . .

١٣ مليون ريال سعودى

إن أهم أخلاقيات العمل فى المقاولات هى صدق النوايا والأمــانة . . ويجب أن تعلم أن خيانة قرش واحــد قــد تكون ســببا فى أن تدفــع كل مستقبلك ثمنا لما حدث منك . . وإذا كنت مخلصا فان مكسب قرش واحد قد يتضاعف ويصبح ملايين الجنيهات . .

فلابد أن يكون الانسان أمينا . . لأن الأمانة صفة هــامة جـدا مــن الصفات التى يجب أن يتحلى بهــا أى انســان ، يريد ان يبنى لنفســه مستقبلا مشرقا ، على قواعد من الثقة المتينة .

إن العائد الذى يعود على الانسان بسبب أمانته يصل إلى أضــعاف العائد المحدود ، الذى يعود إليه عندما تسول له نفسه أن يفعل ما لا يرضى الله . . حتى هذا العائد السريع سرعان ما يضيع ويضيع معه كل شىء . . فلا تطمع يا ولدى إلا فى الله فعنده الكثير . . وكنوزه لا تفنى . . وأولها كنز القناعة الذى يفتح لك كل الكنوز بلا حساب . .

واسوق هنا مثالا من الواقع يؤكد صدق ما أقول :

فى أواخر عام ١٩٥٨ كنت بالقاهرة . . وصلتنى برقية مــن المهندس عبد العظيم لقمــة رئيس عملياتى فى الرياض فى نلك الوقــت ، يطلب منى السفر إلى المملكة العربية السعودية . .

وسافرت إلى الرياض ، والتقيت بالمهندس عبد العــظيم لأعرف منه السبب الذى استدعانى من القاهرة بخصوصه . .

وعرفت منه إنه استدعانى لأن وزارة الدفاع السعودية ، أرســلت له خطابا تطلب فيه مبلغ ثلاثة عشر مليون ريال سعودى ، مســتحقات لهــا طرفنا ، لأننا كنا قد صرفنا مستخلصا بهذا المبلغ عن طريق الخطأ .

وسألت عبد العظيم عن السبب الذى أدى إلى نلك الخطأ . .

قال : إن جميع تعاملاتنا معهم تتم عن طــريق الفــرع الرئيسى للبنك الذى نتعامل معه فى جده . . وكلمــا كانت لنا مســتحقات طــرف وزارة الدفاع السعودية ، فانها تقوم بتحويلها إلى هذا الفرع . . ويقوم الفــرع

بدوره بارسال إشعار لنا يفيدنا فيه بقيمة المبلغ المحول لنا من وزارة الدفاع ويقوم بنقله إلى أرصدتنا فى البنك ، ويدخل فى حسابنا لصالحنا . . وحدث إنه كان قد وصلنا إشعار من البنك بأن وزارة الدفاع حولت لحسابنا مبلغ ثلاثة عشر مليون ريال . . وبعد أسبوع وصلنا إشعار آخر يفيد بتحويل ثلاثة عشر مليون ريال لحسابنا . .

وفهمنا نحن أن الاشعار الجديد ، بخصوص نفس المبلغ الذى وصلنا بخصوصه الاشعار الأول . . ولكن الذى حدث هو أن وزارة الدفاع السعودية ، قامت بتحويل هذا المبلغ لصالحنا مرتين . . كل مرة باشعار مستقل . . وظل الموقف على هذا الحال . . نحن نفهم أن الاشعارين بخصوص مبلغ واحد . . بينما الذى حدث أن وزارة الدفاع حولت لصالحنا مرتين . . والمبالغ جميعها فى البنك . . ووضع المبلغان فى رصيدنا دون أن نتبين الخطأ . . وعندما سألت عبد العظيم لقمة . . كيف حدث ذلك ؟

قال : إن محاسب الشركة عادة ما يركز كل همه فى البحث عن مستحقات الشركة لدى الغير . . أما ما يكون قد دخل فعلاً فى حساب الشركة فلا يهتم بمراجعته كثيراً ليتبين ما إذا كانت به زيادة من عدمه ، لأنه يعتبره مبالغ تحت اليد . . ولا يتم بحث إجراء حساباتها إلا بعد فترة من الزمن عند إجراء حسابات عامة . . أو حسابات خاصة بالعملية التى يحدث فيها مثل هذا الأمر . . لذلك فمن الصعب جداً كشف هذا الخطأ فى حينه خاصة أن الشركة ضخمة ومتشعبة ومنتشرة فى أماكن كثيرة فى الظهران والخرج . . والرياض وجدة والدمام . .

وعندما سألت عبد العظيم ، عن الطريقة التى تصرف بها قال لى : إن محاسب وزارة الدفاع السعودية استدعاه وأخبره بذلك الموضوع وشرح له وجهة نظرهم . . ووعده عبد العظيم ببحث الأمر . .

وعندما عاد الى الشركة طلب من المحاسبين مراجعة الموقف بالكامل . . وثبت أن هذا المبلغ دخل فعلا فى حسابنا عن طريق الخطأ ليس لأننا وجدنا ما يثبت أن هذا المبلغ قد دخل إلى حسابنا عن طريق الخطأ . . ولكن وجدنا أن رصيد حساباتنا عن العمليات التى قمنا

بتنفيذها ، يتضمن زيادة هى قيمة هـذا المسـتخلص الذى تكرر صرفـه مرتين . . لذلك قـرر الا يتصرف إلا بعـد أن يضـع الصـورة كاملة بين يدى .

قلت : إذن انت متأكد مما تقول . .

قال : نعم .

وذهبنا فى صـباح اليوم التالى ، ومعنا محـاسب الشركة إلى وزارة الدفاع السعودية ، لانهاء هـذا الموضـوع معهـا . . وذهبنا فى الصـباح كما اتفقنا . .

التقينا بالحاج جمعة المحـاسب المختص فى الوزارة بحسـاباتنا . . وهو ما يزال على قيد الحياة . .

وجدت الرجل مهزوزاً . . وعلى وشـك الانهيار . . ويرتجـف . . لأن المبلغ كبير . . والأهم من هذا كله إنه ليس هناك مـا يثبت اننا حصـلنا على هذا المبلغ عن طريق الخطأ إلا ضميرنا فقط . .

وسألت الحاج جمعة ، وكان معه معاونه الحاج حسـين السـمكرى رحمه الله . .

ماذا حدث يا حاج جمعة ؟

فروى لى الواقعة بالتفصيل . . ثم أضاف يقول :

إن هذا المبلغ فى ذمتك . . وتستطيع أن تنكره كما تستطيع أن ترده . . فأنت صاحب القرار ، ولك أن تتصرف كيفما يحلو لك لأن الخطأ خـطؤنا وليس لدينا ما يثبت أحقيتنا فى المبلغ . . ولكن انت الذى لديك ما يثبت أن هذا المبلغ مبلغك ، مع أنه دخل خطأ الى حساباتك . .

وكانت مفاجأة للرجل عندما قلت له : أنا لا اقبل الحرام . .

جرت الدماء فى وجه الرجـل . . واسـتعاد تمـاسكه وقـال دون أن يدرى . . صحيح . .

ضحكت وأنا أقول له :

صحيح يا حاج جمعة . .

وسألته : هل أجد عندك ورقة بيضاء . .

قال : كل أوراق الوزارة تحت أمرك . .

قلت ضاحكا : أريد ورقة بيضاء واحدة . .

فأعطانى الرجل ورقة وأخرجت قلمى من جيبى ، وكتبت عليها إقرارا منى بخط يدى ، لوزارة الدفاع السعودية ، يفيد بأننى تسلمت مبلغ ثلاثة عشر مليون ريال . . وأن المبلغ طرف شركتى . . ومستعد لأن يخصم لحسابكم من المستخلصات التى تستحق لنا طرفكم . .

وعندما سلمت الورقة للرجل وقرأها نهض من فوق مقعده ، وجميع العاملين معه يحيوننى ويحتضنوننى ويقبلوننى . .

والتفوا حولى بعد أن التقطوا أنفاسهم التى حبسوها طويلا . .

تصوروا إنه ليس من المعقول أن يرد مقاول مثل هذا المبلغ الكبير . . خاصة إنه دخل حساباته بطريقة صحيحة مائة فى المائة . . وتصوروا ان المحاولة التى تمت منهم هى محاولة يائسة ولكن فعلوها من قبيل جس النبض . . لذلك كان تصرفى مفاجأة كبيرة بالنسبة لهم . . مع أنه كان تصرفا عاديا بالنسبة لى . .

ولم يقف رد الفعل عند حد مكتب الحاج جمعة كبير محاسبى وزارة الدفاع السعودية ، ولكن ملأ الخبر المملكة كلها بطولها وعرضها . . وكانت هذه القصة على كل لسان . . بل كانت حديث المجتمع السعودى كله بمختلف مستوياته . .

فماذا كانت النتيجة؟

لم افعل اكثر من اننى كنت امينا مع ربى ونفسى . . ولم أطمع فى ذلك المبلغ الذى يمكن أن يسيل عليه لعاب أى إنسان . . ولكن طمعت فى رضاء الله . . فأرضانى وأعطانى اضعاف اضعاف هذا المبلغ ليثبت إيمانى . .

وحظيت بثقة غير عادية ، من كافة الجهات ، وعلى كل المستويات وكانت هذه الثقة سببا فى أن تسند إلى شركتى أعمال كثيرة جديدة أخرى بالاضافة إلى الأعمال التى كنت أقوم بتنفيذها . .

ولم يخطر ببالى وقت أن تصرفت بهذا الشكل ، أن النتيجة ستكون بهذا الفعل . . . . ولكن كان تصرفى تلقائيا . . وكانت النتيجة طبيعية . . راعيت الله . . فرعانى . . والحمد لله . .

إذا طلبت فأطلب من الله . . وإذا طمعت فلا تطمع إلا فى وجهه سبحانه وتعالى . .

« ولسوف يعطيك ربك فترضى » . .

ولكن بشرط سلامة النوايا واستقامة القصد . .

وقلت فى نهاية حديثى لاستاذ الجامعة وتلاميذه . . هذه هى طريقتى فى الادارة . . والتى تجسدت أسمى نماذجها فى القصة الآتية :

عينة للانسان المصرى

منذ عامين وصلنى خطاب من إحدى سيدات مصر . . ومن الطريقة التى كتب بها الخطاب ، تفهم أنها كلفت أحدا غيرها بكتابته . .

ومع هذا الخطاب مرفق تحويل شيك بمبلغ ٣٧٠٠ جنيه باسم المهندس عثمان أحمد عثمان . .

وادهشنى جداً أن أجد برفقة هذا الخطاب شيكا بهذا المبلغ باسمى . . مع أننى لم أعرف هذه السيدة ولم أرها من قبل . .

وحاولت قراءة الخطاب لعلنى أجد بين سطوره ما يجيب على حيرتى . . فعرفت أنها حصلت على هذا المبلغ من الدولة ، بعد أن أستشهد ابنها فى حرب أكتوبر . .

وقالت لى فى الخطاب إنها لا تستحق هذا المبلغ ولا تحتاجه . . ولكنها تتمنى أن تبنى فى قريتها مسجدا يحمل اسم شهيدها . .

وتقول السيدة فى خطابها إننى سمعت عنك إنك رجل طيب وصالح ولم تستأمن احدا على القيام بهذه المهمة غيرى ، لذلك أرسلت لى المبلغ وكلفتنى بتنفيذ المهمة . .

وعندما فرغت من قراءة خطابها . . فوجئت بالدموع تسيل من عينى . . لقد هز تصرف هذه السيدة الطيبة كل مشاعرى ليس بما قالته

لى من كلمات فى خطابها . . ولكن بتصرفها . . فهى لم تتعامل معى . . ولكن فقط سمعت عنى . . ولذلك أرسلت لى المبلغ دون أن تعرف ماذا يمكن ان يحدث منى بعد ذلك ودون أن يكون لديها أى دليل يثبت حقها طرفى . .

إن هذا التصرف كبير جداً ومؤثر جداً . . فان كل ما معها وضعته فى ظرف خطاب ، وأرسلته إلى عثمان أحمد عثمان الذى لم تعرفه . . وفى مثل هذه المواقف تتساوى الملاليم مع الملايين . .

ولم أجد فى تصرف هذه السيدة ، إلا تعبيرا عن أصالة الانسان المصرى ، وطيب معدنه ، الذى تعاملت معه دون أن أعبأ بالقشور ، التى قد تخفى هذا المعدن عند البعض . .

وعلى الفور ارسلت أحد المهندسين من شركة المقاولون العرب ، إلى قرية هذه السيدة . . والتقى بها . .

وحاول أن يحذرها من ان تفعل مثل هذا التصرف مرة أخرى مع . . أحد لم تعرفه من قبل . .

وكان رد السيدة . . ماذا حدث فى الدنيا يا ولدى . . إن الدار أمان . . وهل عثمان محتاج لسيدة مثلى ، لكى يستولى منها على هذا المبلغ . . وهو الرجل الذى تعود أن يقدم الخير دائما فى كل صوره . .

وفعلا تولت شركة المقاولون العرب ، بناء المسجد فى القرية وباسم الشهيد . .

واعدت لها المبلغ الذى ارسلته لى ، وطلبت منها ان تنفقه فى أى وجه من أوجه الخير الأخرى ، التى تراها هى ترحما على شهيدها وشهيد مصر كلها . .

وكان ذلك اقل ما يمكن أن افعله ، أمام هذه السيدة العملاقة التى عبرت عن كل ما فى شعب مصر من أصالة هو أن أستجيب لرغبتها وأرد لها مبلغها . .

هذا هو وفاء الشعب المصرى ، الذى أنا مدين له بكل ما أملك وبكل ما حققت . . بل ومدين له بحياتى ذاتها . .

واسجل على هذه السطور عرفانى له وافضاله على . . لقد أعطانى اكثر مما أستحق . .

والحمد لله

واختتمت حديثى مع الأستاذ وتلاميذه وأنا أقول لهم :

ترى هل تعتبرون أن هذا أسلوبا من أساليب الادارة ؟

قيادة الرجال

خلصت من تجربتى إلى أن قيادة الرجال سهلة . . وصعبة فى نفس الوقت . . وإذا أردنا خلق قياديين فى أى مجال ، يجب أن نكتشف عندهم هذه الخاصية ، قبل أن يقع اختيارنا عليهم . . حيث أن دور الدراسة هنا ، يقف عند حد تلميع الموهبة وإظهارها عند الانسان دون أن يستطيع زرعها فيه . .

فمثلا كسب ثقة من يعملون معك مسألة صعبة وسهلة . . فاذا نجحت فى أن تغرس الاطمئنان فى قلوبهم . . فيمكنك أن تجد طريقك إلى كسب ثقتهم . . وإذا كسبتها فانك تحقق بذلك مكسبا كبيراً ، حيث أن الثقة أول أركان تمكينك من أن تقود الفريق الذى تتولى أمره قيادة ناجحة . . فبالثقة يتعاونون معك ويطمئنون إليك ويستمعون إلى كلامك . . وينفذون ما تطلبه إليهم من أعمال ، وبذلك تستطيع أن تضعهم على الطريق السليم ليؤدى كل منهم دوره الحقيقى الذى يستطيعه بكل ما لديه من إمكانيات ، دون أن تكون هناك طاقة ضائعة . .

وهذه الثقة لا تستطيع أن تكسبها بفرض نفسك ، علي من حولك . . ولكن بحسن معاملتك وقدرتك على أن تعرف المداخل الحقيقية للشخصيات التى تتعامل معها . . والأساليب التى يستريحون لها . .

وعرفت من تجربتى الطويلة أن أول مطلب للانسان هو الحرية . . بمعنى إنه يريد أن يكون حراً . . ينجز بمحض إرادته الحرة . . وهذه الارادة لا يمكن أن تأتى إلا عن طريق الاقناع . . وعندما يقتنع الانسان يبدع . . وتظهر مواهبه وتتألق ملكة الخلق والعطاء عنده ، لأنه يجد نفسه فيما يفعله . . مادام مقتنعاً به . .

وكان للعامل المصرى فى « المقاولون العرب » موقف وطنى مع الحرية ، التى حرصت على أن يتنفس نسيمها دائما لكى يعطى مما أعطاه الله من ملكات . . عبر عنه عندما راح يدافع عن ذاته . . ذاته التى جردته منها مراكز القوى ، عندما أصبح كل منا ليس حرا فى أن يفكر . . ولا فى أن يعمل . . ولا فى أن ينتقل . .

لقد حددوا أقدار الناس وأرزاقها وأعمالها . . وقتلوا ملكات الانسان المصرى الخلاقة فى كل المجالات . . ولم تصبح الحرية فى عهدهم إلا حرية التصفيق لهم والهتاف بحياتهم . . وعبادة أصنام اشتراكية فقرهم . . وكادوا أن يحولوا البلد كلها إلى منافقين وسلبيين . . لأنه من لا ينافق لابد أن يصبح سلبيا . . ومن يخرج عن هاتين الصفتين ، لابد أن يجد نفسه وراء الشمس ، فى أحد المعتقلات . . لا يعلم عنه أحد شيئا . .

زرعوا الحقد والسلبية . . وذلك ما نعانى من آثاره حتى الآن . .

وإن كان الأمر اصبح مختلفا تماما . . إلا انه لكى نعيد الناس إلى طبيعتهم فان المسألة تحتاج إلى وقت . .

فمصر اليوم ليست هى مصر الأمس . . لقد اصبح المناخ مختلفا . . مناخ كله حرية وانطلاق . . مناخ كله أمن وأمان واطمئنان . . وأصبح كل فرد حر فى أن يعمل وأن يفكر وأن ينتقل ، وأن يكسب ، بشرط أن يدفع للدولة ما لها من حقوق .

وأصبحت مصائر الناس فى أيديهم وليست فى أيدى غيرهم . .

هذا المناخ الجديد فى مصر كلها ، والذى تربى على أساس منه أبناء « المقاولون العرب » ، كان سببا فى أن يتحركوا ، لحماية شركتهم من أحداث الشغب التى قامت بها قلة حاقدة فى أحداث ١٨ ، ١٩ يناير فى محاولة من الشيوعيين ، للوثوب فوق المكاسب التى يحققها الشعب ، فى ظل الحرية والديمقراطية مع الرئيس محمد أنور السادات .

وكان للشركة فى ذلك الوقت معدات قيمتها ثلاثون مليون جنيه فى القاهرة وحدها . عبارة عن أخشاب وأوناش وخلاطات . . وسيارات . . وما إلى ذلك . .

وعندما علمت بخبر ما حدث فى القاهرة قلت فى نفسى . . عوضنا على الله فى هذه المعدات . لأننى أعرف أنها ستكون هدفا لهؤلاء المخربين الذين أرادوا هدم مصر وتخريبها .

وبعد أن انفض « مولدهم » . . سألت عن مصير هذه المعدات . . وكانت النتيجة عكس ما توقعت تماما . .

فوجدت أن مجموع ما أصاب الشركة من خسائر لا يتجاوز خمسة الاف جنيه فقط تتمثل فى كمية محدودة من الأخشاب . .

ولما سألت عن السبب الذى جعل الخسائر فى هذا الحجم الذى لا ينكر . . وجدت الاجابة . . فى وفاء العامل المصرى وحرصه على شركته . .

تصدى العمال للمخربين . . والتفوا حول معداتهم . . ولم يمكنوا أيا منهم من الوصول إليها للنيل منها رغم تكرار محاولاتهم . .

ولو كان فى نفوس ابناء الشركة ، غير الحب والولاء والحرص ، لكان بامكان العمال ان يدمروا هم بأنفسهم تلك المعدات فى مثل هذا الظرف ، دون أن يحتاج الأمر لأن تصل اليها أيدى هؤلاء المخربين . . وكان بامكانهم أن يتحججوا بما حدث . .

ولكن وقف الرجال وحموا معداتهم وشركتهم ، وتصدوا . . ولم يكن تصديهم الا وليداً لما فى نفوسهم من قيم ربطت أبناء الشركة بعضهم البعض ، وبشركتهم . .

وهذه هى ثمار ما بنيته فى « المقاولون العرب » داخل الانسان قبل أن تبنى « المقاولون العرب » ، كل ما ارتفع على أكتاف ابنائها من بنيان . .

(محمود . . وإسماعيل)

إن الانسان المصرى كما جربته أصيل وعريق ، ولا يمكن أن يعطى لك إلا اذا أحس بك . . ولا يمكن أن يحس بك إلا إذا أحسست به ولمس هو منك هذا الاحساس . . فلا تتصور أنت أو غيرك ، إنك قادر على خداع العامل المصرى . . فهو ذكى يستطيع بفطرته التى لا تخونه ، أن

يفرق بين الصدق فى القول وبين « الضحك على الدقون » . .

فان قيادة فرض السيطرة والقوة والأمر والنهى ، تؤتى نتائج عكسية تماما . . لا تفلح مع العامل المصرى كما جربته ووجدته اكثر ميلا إلى أسلوب « إبن البلد » . . والبساطة والتواضع فهو إنسان طيب عشرى مخلص . . إذا أحبك ضحى بكل شىء من أجلك . وعندما جاء إبنى المهندس محمود عثمان ، وإبن عمه المهندس إسماعيل عثمان لكى أحكم لهما فى امر بينهما . . لم انصف أيا منهما على الآخر . . ولكننى وجدت فى ذلك فرصة لكى أزرع فيهما تلك التجربة الكبيرة التى تعلمتها . . .

حدث بينهما خلاف فى وجهة النظر حول تقدير علاوة العاملين ، فى مصنعهما الذى يعمل فى مجال مواد البناء . .

المهندس محمود عثمان يرى ضرورة أن يحصل أحد العاملين ، على عشرة جنيهات . . بينما لا ينبغى أن يحصل الآخر إلا على خمسة جنيهات فقط ، كعلاوة سنوية حيث لا يصح أن يتساوى المجد بغير المجد . . وهو فيما قال . . كان على حق . .

والمهندس إسماعيل عثمان يرى أن هناك لوائح تحكم العمل فى المصنع ، ويتبقى تطبيق اللوائح ليحصل العاملان على علاوة متساوية ، ولا يحصل احدهما على أكثر مما يحصل عليه الآخر . . ويقول إن التفرقة بينهما قد تكون سببا فى أن يضن صاحب العلاوة الأقل بمجهوده فلا يعطى كل طاقته . . وهو فيما قال . . كان أيضا على حق . .

ولكننى لم أنصف أيا من وجهتى النظر . . ولكن نبهتهما إلى أن هناك مقاييس ومعايير اخرى اكبر وأهم من هذه المعايير التى يحتكمون بشأنها . . فما يراه كل منهما ليس إلا امرا شكليا بسيطا جدا . .

وكان أن قلت لكل منهما :

الأهم هو كيفية ربط العامل بك . . يحبك وتحبه . . لابد أن يشعر بقيمته . . واهميته وانه أحد الأعمدة التى يقوم عليها العمل . . فهذا عنده أهم بكثير من العلاوة . . تلك هى تجربتى . . الانسان المصرى لا يبحث عن المال بقدر ما يبحث عن ذاته . . لذلك لابد ان تقربا العمال منكما . .

وأن تعيشا بينهم لكى يرتبطوا بكما . .

واستطردت أقول لهما :

إن سؤالك للعامل عن بيته وأولاده . . ومتابعتك لأخباره ، ووقوفك معه فى أزماته يكفيه . . فلا يصح أن تشعره بأنه عامل عندك ، ولكن لابد أن يلمس أنه صديقك . .

حرصت على أن يتعلم كل منهما النهج الصحيح حتى لا يضلا . .

إن قدرات الناس كأقدارهم لا يمكن شراؤها بالمال مهما كانت قيمته أو حاجة الانسان إليه . . ولكن بالحب تحصل منه حتى على حياته . . فاذا نجحت فى أن تكسب حب من يعمل معك ، فانه سيحرص عليك ويصبح المال آخر ما يفكر فيه . . بل لو عرض عليه أحد غيرك ضعف ما يتقاضاه منك لا يضحى بك ولا بعشرتك . .

حدث معى هذا الموقف عشرات المرات . . فمن تشتريه بالمال يبيعك بأبخس الأسعار !

وقلت لهما : لا تجعلا يا ولدى هذا المبدأ رائدكما فهو مدمر . . فعليكما بكسب عواطف الناس وحبها . . لا . . بشراء جهدها . . إذا فعلتما ذلك فلن يفرطوا فيكما بل سيضحون من أجلكما لأن عواطفهم ليست للبيع بأى ثمن . .

لقد رفع العديد من أصحاب المهن التى نتعامل معها أسعارهم بالقياس إلى غيرهم . . ولكننى فضلت أن نستمر فى التعامل معهم . . ذلك لأن العلاقات الانسانية التى بنيناها معهم لا تقدر بمال . . فهم منا ونحن منهم . . يدافعون عنا ويمثلون امتداداً طبيعيا لنا . .

واستطردت اقول لهما : إن العلاقات الانسانية فى أسمى صورها هى المدخل الوحيد والصحيح للادارة الناجحة ، التى تقود عملا ناجحا . . نستطيع أن نمكن له من خلال أشياء صغيرة وبسيطة غير مرئية لا يستطيع أن يراها أى إنسان . . ولكن ذلك الذى يراها ويستطيع أن يدرك أبعادها يكون قد امتلك كل كنوز الدنيا ووهبه الله خيراً عظيما . .

فأبسط الأمور عندما يقابلك فى طريقك شخص لا تعـرفه . . وتبادره بكلمة « صباح الخير » لا تتصور مدى ما يمكن أن تتركه هذه المبادرة من آثار طيبة فى نفسه . .

أمور صغيرة ولكنها كبيرة . . ومن مجموع هذه الأشـياء البسـيطة قام أضخم صرح للمقاولون العرب . . قام على اسسه كل مـا بنيته مـن بيان وكيان مادى ومعنوى ، فى كل مكان . . حتى أصبحت هذه الأشـياء الصغيرة بمثابة القانون أو الدستور الذى يحـكم العمـل فيهـا قبل كل ما عداه من قوانين أخرى ولوائح تنظم سير العمل . .

وهكذا فان قيادة الرجال أو بالأحرى التعامل مع الرجـال ، لابد أن تزنه بميزان الذهب لأنه ثمين . . فقيادة الرجال ليست بالمهمة السهلة . . وليست بالمهمة الصعبة . . ولكن يجب أن تعرف كيف ؟ .

كيف لا تدفع أحدهم إلى أن يغضب منك . . ولكن تدفعه لأن يغضـب من أجلك ؟

وقد يقابلك فى حياتك إنسان جاف فى معـاملته . . فـلا تعـامله بمثل ما يعاملك . . ولكن عامله بالحسنى . . فستجده يخجـل مـن نفسـه . . ويصحح من أسلوب معاملته بسبب حسن معاملتك له . .

كان وما يزال هذا هو أسلوبى فى معاملة الآخرين والتعامل معهم . . وهذا الأسلوب لم ينقص من قدرى بل أعطانى ما لم أكن أحلم به . .

فمثلا عندما كنت أشارك العمـال فى العمـل « مثلى مثل أى عامـل منهم . . لم يقلل ذلك من شـأنى بل جعلنى أكبر فى نظـرهم أكثر . . وزاد احترامهم لى . . وتوطدت أواصر الحب بينى وبينهم . .

(الناس معادن)

إن الناس ليسوا من نوعية واحدة . . فقد يقابلك الشرير فـلا تدر له ظهرك . . حاول معالجته . . وإصلاح حالة بقـدر مـا تسـتطيع . . فـإن نجحت كان بها ونعمت . . وإن لم تنجح معه فلا تشـغل نفسـك به كثيراً وأتركه . . ولا تضيع وقتك وجهدك فى الخصومة معه . . فوراءك وأمـامك الكثير الذى يجب أن تنصرف إليه ، لتنجز مـا أنت بصـدده مـن مهـام

واهداف ، لأن وقوفك مع هذا الشخص ، لن يعود عليك بنتائج أكثر من أن يشدك إلى الوراء ويجعلك تدور فى دوامة خلافه وصراعه فيستوعبك . . وهذا غير مطلوب . . ولا تضعه فى عين المعاداة كما يقولون . ولكن اتركه وستجد غيره العشرات من النماذج الطيبة ، دون ان تجعل حكمك على تجربته ، ينصرف إلى علاقاتك الأخرى ، فيشوه صورة الآخرين عندك ، وهذا خطر لا يصح أن تنحرف إليه ، دون أن تدرى فتحكم على نفسك ، قبل أن تحكم على غيرك ، ويصبح كلاكما ضحية تجربة شريرة ، لا ينبغى أن تكون مقياساً لكل المعاملات . .

هكذا كانت تجربتى ووجدت أن أكثر من ٩٠٪ ممن تعاملت معهم لا يحملون إلا كل الصفات الخيرة . .

وجدتها فرصة لكى أزرع فيهما بعضاً مما تعلمته فى حياتى . . فذكرت لهما تجربة مثيرة حدثت معى وكان بطلها نشالا حولته إلى أمين يعمل فى خزائن « المقاولون العرب » .

إتصل بى ذات يوم فى التليفون الاستاذ أحمد رجب ـ الصحفى المعروف ، يطلب منى تعيين رجل يعرفه . . وأخفى عنى أن هذا الرجل من (أصحاب السوابق) وإنه كان متخصصا فى ارتكاب جرائم النشل وله تسعة وثلاثون سابقة .

وأصدرت قرار تعيينه . . وعندما التقيت بالرجل حكى لى عن كل جوانب حياته ، بما لها وما عليها . . واحسنت معاملته عندما عرفت ظروفه . . وتاب إلى الله . . وأدى فريضة الحج . . ولم يصبح موظفا عاديا فى الشركة ولكن اصبح يعمل فى قسم خزائن « المقاولون العرب » يمسك بيده عشرات الآلاف من الجنيهات . .

وكان أن اتصل بى أحمد رجب بعد فترة ، لكى يطمئن على الرجل الذى أخفى عنى ظروفه ، وينبهنى إلى ما له من سوابق . . فوجىء بأننى عرفت كل تفاصيل حياته ، وإنه كان يرتكب جرائم النشل . . ولكن المفاجأة الكبرى كانت لأحمد رجب عندما عرف ان هذا النشال أصبح أحد الأمناء على خزائن « المقاولون العرب » . .

هذا هو الانسان المصرى الاصيل . . رغم إنحرافه لأسباب اجتماعية خارجة عن إرادته ، عندما وجد من يتفهم ظروفه ، ويفتح له قلبه ، كشف عن طيب معدنه .

إن الانسان المصرى كبير وعملاق . . ويحتاج فقط لأن نفهمه . . فاذا فهمناه ، فهو قادر على صنع المعجزات . . وليست هناك معجزة أكبر من أن يتحول نشال ، إلى أمين . .

* * *

الجانب الآخر

ولم يكن حرصى على حسن معاملتى للعاملين معى . . ولكن كنت وما ازال حريصا على حسن معاملتهم لبعضهم ، الأمر الذى جعلنى أجعل منهم أسرة واحدة ، يشعرون بآلام بعضهم ، وهم على بعد مئات الأميال . . ويفرحون لبعضهم بعضا فى كل مكان . .

فمثلا عندما كنت أجد فى بعض العمليات ، مجرد بوادر عدم الانسجام ، بين بعض العاملين ، كان لا يهدأ لى بال ، إلا بعد أن أنتقل بنفسى إلى موقع العمل ، وأقوم بتصفية ما قد يكون بينهم من سوء فهم او تفاهم ، واحرص على إعادة جو الود بينهم . .

يستغرب البعض إذا قلت إننى كنت أشعر بعدمالانسجام هذا ، دون أن يقول لى أحد . . كيف ؟

كنت أقوم بمتابعة الأداء ومعدلات التنفيذ فى العملية ، التى يحدث فيها هذا الخلاف بين العاملين . . ومن خلال تلك المتابعة ، كان يتبين لى منحنى الانتاج . . وعندما كنت ألمس فيه أدنى إهتزاز ، كان أول ما يتبادر إلى ذهنى ، أن هناك عدم إنسجام فى علاقات القائمين على العملية . .

وعندما كنت أقوم بتصفية الموقف وتنقية الجو . . كنت ألمس النتائج فى تقارير المتابعة ، فكان الانتاج يزداد عما كان عليه الحال ، حتى قبل أن يحدث ذلك الخلاف . .

ولم أتصد لحل تلك الخلافات من منطلق القيادة والرياسة ، ولكن من

منطلق الأبوة . . فلا تتصور مـدى مـا يتركه تلك الأسـلوب مـن أثر فى النفس . .

فمثلا عندما كان يختلف إثنان . . فان كان المخطىء هو الصغير كان يخجل من نفسه ، عندما كنت ألومه على انه لا يصح أن يخطىء فى حقوق من هو اكبر منه . . وكان الكبير يشعر بأنه قد رد إليه اعتباره . .

وإذا كان المخطىء هو الكبير ، فـكنت ألومـه على أنه لا ينبغـى أن يخطىء ، فى حق من هو أصغر منه . . فالكبير يجب أن يرحم الصـغير ، والصغير يجب أن يحترم الكبير . .

وكان يعود الانسجام ، ويسود جو الحـب بفضـل هـذا الأسـلوب الأسرى ، فى حل المشاكل .

ولم أرجـع إلى اللوائح والقـوانين ، أو ان أسـتخدم أسـلوب الجزاءات ، ابغض الأساليب إلى حياتى ، ولكن كنت أرجـع إلى جـذور المشاكل ، لكى أجد لها الحلول التى تتفق ليس مع القـانون ، ولكن مـع طبيعة الانسان المصرى ، صاحب القيم والتقاليد العريقة . .

ويجب أن نضع فى إعتبارنا أن الجميع ليسوا من طبيعة واحـدة . . فمنهم من هو ضـيق الأفـق ، ولكن سـليم النية . . فيجـب أن نتمتع فى مواجهته بسعة الصـدور ونتحمله . . أى يجـب أن نفهـم طبائع الناس ونتعامل معهم على أساس منها ، فـالنجاح الحقيقـى يتمثل فى فهمـك لنفسية العاملين معك . .

فمثلا عندما كنت أشرب كوبا من الشـاى مـع أحـد السـائقين . . أو اتناول معه طعام غذائه . . لا تتصور المفعول السحرى والنتائج ، التى تترتب على مثل هذا التصرف . . فبدلا من أن ينقـل هـذا السـائق أربع حمولات فى اليوم ، كنت أجده ينقل خمس حمـولات ، فتجـاوز مـا هـو مطلوب منه مقابل الأجر الذى يتقاضاه ، دون أن ادفع شـيئا اكثر مـن إننى أقتربت منه .

لذلك اقول لك يا ولدى ، إذا اردت أن تصبح رجـل أعمـال ناجـح ، أيا كان مجال عملك . . إذا أردت أن تحقق الملايين من المال ، فلا تجعـل

الفلوس هى هدفك فى الحياة . . لأنها لن تأتى إليك . . ولكن إجعل هدفك القيم والمثل وحب الناس . . كن مليونيرا فى أخلاقك ومعـــاملاتك أولا . . يسعى إليك المال من حيث لا تدرى وبلا حساب . .

هـــذا هـــو الطـــريق ، إذا أردت أن تصـــبح كبيراً . . أو إذا أردت أن تتحول إلى مليونير .

فالقيادة ليست بالأمر السهل . . فهـــى تحتاج إلى مـــرونة وتمـــرس وخبرة . . وقدرة . . ولم أضرب رأسى فى الحائط حتى ولو مرة واحـــدة . . وقد تعودت أن أكون مرنا . . سهلا . . فـــكلما وجـــدت طـــريقا غير معبد أو ممهد ، تركته وأنتقلت على الفور إلى البحث عن طـــريق آخـــر . . ولم أخذ المسائل فى يوم من الأيام ، مـــأخذ العناد والتشـــبث بالرأى . . ولكن كثيراً ما تراجعت كلما اكتشفت أن الطريق الذى أسير فيه . . يحتاج إلى إعادة نظر .

العامل المصرى والمخترع الروسى

إن الثقة لا ينبغى أن نتبادلها فقـــط مـــع الكبار . . ولكن يجـــب أن نتبادلها مع الصغار أيضا ، إبتداء من الساعى والســـائق ، فهـــم أركان لا تقل أهمية فى العمل أو العملية ، عن أكبر مســـئول . . وكثيراً مـــا كان الساعى أو السائق أو العامل البسيط سببا فى أن أكتشف أشـــياء كبيرة فى العمل . . يساعدنى اكتشافها على تصـــحيح أوضـــاعى وإعادة ترتيب أعمالى . .

وأسوق على ذلك الدليل :

أثناء العمل فى السد العالى ، بينما كانت السيارات تقوم بنقـــل ناتج الحفر لشق المجرى الجديد لنهر النيل ، وإلقائه لسد المجـــرى القـــديم . . حدثت أكثر من حادثة ملفتة للنظر . . كانت ســـببا فى أن أســـهر الليالى ، أفكر فى أمر حدوثها وسببه ، وكيفية تلافى هذا الســـبب . . ولم أهتد إلى رأى . . وظلت المشكلة مقلقة بالنســـبة لى . . خـــاصة أن انزعاجـــى كان شديدا لأن مثل هذه الحوادث تكررت أكثر من مرة فى أيام قليلة . .

فماذا كان يحدث ؟

عندما كانت السيارة تذهب إلى موقع تفريغ حمولتها . . كان السائق يحاول أن يتخذ الوضع السليم لالقاء الحمولة فى عرض النهر . . وإذ بالسيارة فجأة تهوى إلى الخلف وتقع من فوق حافة النهر الذى تفرغ حمولتها من فوقه إلى أعماقه ولم أجد مبرراً لهذا الذى يحدث خاصة أن السيارة جديدة والسائق ماهر . .

وهذا الموضوع من الممكن أن يؤتى آثاراً خطيرة على العمل ، إذا ما تكرر حدوثه بهذا الشكل .

وبينما كنت غارقا فى حيرتى ، وجدت عاملا ميكانيكا فى أحد المواقع ، التى كنت اقوم بزيارتها ، وطلب مقابلتى . .

وحاول من كانوا معى منعه . . فصرخ بأعلى صوته وهو يقول أنا أعرف لماذا تتساقط سياراتنا الواحدة بعد الأخرى فى نهر النيل . .

وحاول من معى تجاهله واعتبروه مجنوناً . . وحاولوا إبعاده عنى . .

ولكن بحكم خبرتى مع العامل المصرى ومعرفتى له . . استوقفنى هذا الميكانيكى العملاق واستدعيته ، وجلست معه لأسمع منه ما يريد أن يقوله . . فلا يصح أن نتجاهل رأياً دون أن نسمعه مهما كان شأن صاحبه . . فقد يكون هذا الرأى مفيداً . .

وكان فى ذلك الوقت قد انتهى الفنيون من دراسة الموقف وأعدوا تقريراً تأكدوا فيه من سلامة السيارات . . وإن ما يحدث ليس عيبا فى السيارات ولكن لأسباب أخرى . .

ما هى . . ؟ لم يتوصل إليها أحد . .

صممت أن أستمع إلى وجهة نظر هذا العامل إلى آخرها .

فماذا قال ؟

قال لى إن خرطوم الفرامل فى هذه السيارات ، مصنوع من المطاط . . فعندما تقف السيارة فوق منحدر وهى محملة . . ويدوس السائق على الفرامل . . فان هذا الخرطوم يقطع . . فتصبح السيارة بلا فرامل فتهوى من فوق هذا المنحدر إلى النيل . .

وسألته . . وما هو العلاج ؟

فأجابنى بأنه بسيط وسـهل ، ولا يكلف شـيئا ، ولا يتعـدى قيامنا باستبدال خرطوم المطاط بخرطوم آخر يصنع من النحاس .

وعندما سألته عمن ذا الذى يستطيع أن يقوم بذلك العمل ؟

قال : أنا مستعد لأن أجرى التجربة .

قلت :أين ؟

قال : هنا فى ورشنا . . وتركت له الفـرصة ، لكى يجـرى تجـاربه ، ووعدته بأننى فى انتظار نتائجه . .

وفعلا أجرى هذا الميكانيكى العملاق تجاربه . . ونجحـت التجـارب التى قدمها عندما طبقناها على سـيارة . . وعلى أسـاس مـن نجـاح تجـاربه ، قمنا بتعميم هـذا الاختراع فى خـرطوم الفـرامل فى جميع اللوريات التى كانت تعمل فى العملية . .

ومن يومها لم تحدث حادثة واحدة من تلك الحـوادث التى أزعجتنى وكان يمكن أن يترتب عليها المزيد مـن النتائج الخـطيرة التى لا تحمـد عقباها . . هذا هو العامل المصرى البسيط الذى لم يدرس الهندسـة . . ولم يدرس فى الجامعة . . نجح فى إجراء تعديلات جوهرية على السيارات اللورى الروسى ، التى فشل الخبراء الروس أنفسـهم ، فى إيجـاد علاج لما تبين من أخطاء فنية فى تصميمها .

جانب بسيط . . لكنه مضىء

وإذا ما كنت بصدد الحديث عن كفاءة العامل المصرى وإخـلاصه فى عمله ، لابد أن أروى جانبا آخر مـن شـخصيته . . مـن بين الجـوانب المضيئة فيه والتى حرصت على تنميتها وعدم كبتها لذلك أطلقتهـا مـن عقالها فكان كل هذا العطاء . .

وكانت حالة المجارى فى القاهرة قد ساءت فى منتصف السـتينات . . وطـرحت الدولة لاصـلاحها مشروعا أسـمته (مشروع الـ ١٠٠ يوم) ويتلخص هذا المشروع فى عمل ماسورة مؤقتة تبدأ من وسط القـاهرة ،

ثم تعبر إلى الجيزة لتصب هناك . . كنوع من الاسعاف الأولى لمجـارى العاصمة . .

وأسند هذا المشروع إلى شركة المقاولون العـرب ، حيث كان يحتاج تنفيذه إلى شركة كبيرة تستطيع إنجازه فى أسرع وقت ممكن . .

وكنت حريصا على أن أتفقد العمل فى المشروع بشكل مستمر . .

وفى ذلك الوقـت كانت السـلطات الحـاكمة فى مصر قـد ابتدعت « موضه » جديدة هى عدم ركوب السيارات الكبيرة ليس بالنسـبة لهـم ولكن بالنسبة للناس . .

وكنت أول مـن أمتثل لهـذه « الموضـة » ، لأننى فى غنى عن دوشـة الدماغ . . لذلك استبدلت سيارتى بسيارة صغيرة (فيات ١١٠٠)

وكان يعمل معنا فى ذلك الوقت الدكتور أحمد محرم ، حيث كان يقوم مكتبه باعداد التصميمات اللازمة لعمليات الشركة .

واصطحبته معى ، الى موقع العمل كما تعودت كل يوم . .

وذهبنا بسـيارتنا الصـغيرة إلى منطقـة العمـل ، وعبرنا كوبرى الجامعة . . وعندما وصلنا إلى الكوبرى الذى يليه . . وجدنا أن المقاولون للعرب كانوا قد أغلقوا الطريق لتوهـم ، لكى يقـوموا بعمليات الحفـر وتركيب المواسير فى هذه المنطقة .

وكان يقف فى هذا المكان خفير صـعيدى مـن خفـراء المقـاولون العرب . .

طلبت من الخفير أن يفتح لنا الطريق . . فرفض . .

أعدت الطلب مرة أخرى . .

فأصر على رفضه . .

حاولت إقناعه . .

قال لى ممنوع أن يمر أى إنسـان مـن هـذا المكان ، بعـد أن تم إغلاقه . . مهما كان هذا الانسان . . لأن التعليمات صدرت لى ، بمنع أى سيارة من العبور من هذا المكان ، لأن العمل سيبدأ هنا على الفور .

قلت له : يا ابنى افتح لنا الطريق ، لكى نتمكن من تفقد سير العمل . .

قال : لا : أنا أنفذ الأوامر الصادرة لى ، بمنع كل من يريد العبور من هذه الفتحة .

وتدخل الدكتور أحمد محرم وقال للخفير : هل تعرف من الذى يكلمك . . ويطلب منك أن يعبر من هذه الفتحة . .

فرد عليه : يعنى مين . . والله . . لما يكون عثمان أحمد عثمان نفسه . . ما أنا معديه . .

قال له الدكتور أحمد محرم : هذا هو عثمان أحمد عثمان . .

فرد عليه الخفير : أنت بتضحك على . . علشان تعدى . . لكن برضه . . لا . .

وعرفت على الفور إنه حديث فى العمل ، لأنه لو كان معنا من فترة ، لكان تمكن من أن يتعرف على بسبب كثرة تواجدى فى موقع العمل مع العاملين . .

وسألنى الدكتور أحمد محرم بعد هذا الحوار . . ماذا ستفعل ؟

قلت : ليس أمامنا بسبب إصراره إلا أن نغير طريقنا ، ونبحث لنا عن طريق آخر بعيداً عنه . . فله عذره . . إنه يمارس عمله . . وينفذ ما أمر به . . ويجب علينا أن نحترم إرادته .

وفعلا عدنا بسيارتنا ، لكى نبحث عن طريق يوصلنا إلى حيث مكان العمل . .

وكم كان إعجابى بهذا العامل الذى يعرف واجبه . . وكم كنت سعيداً به . . وكم كان مثلا للعامل المصرى الملتزم بعمله وأوامر رؤسائه . .

كنت سعيداً به رغم إصراره على منعى من المرور . . لذلك عندما وصلت إلى حيث يوجد المهندس ، الذى كان يعمل معه هذا العامل ، طلبت منه أن يرقيه ، ويمنحه مكافأة بسبب اهتمامه بعمله وحرصه على تأدية واجبه . .

تلك هى نظريتى التى آمنت بها وعملت على أساسها طوال حياتى لأن رئيس مثل هذا العامل لو خرق القاعدة ، وأوجد بها إستثناء ، فكأنه يقول لمثل هذا العامل افعل « الخطأ » ويشجعه عليه . . وليس هذا مطلوبا ؟ . .

لذلك تصرفت على ذلك النحو . .

عملاق فى كل مكان

العامل المصرى عملاق . . خاصة عندما تقارنه بأى عامل آخر فى أى مكان فى العالم ، ولا أقول ذلك لمجرد ترديد بعض العبارات ، التى يرددها أولئك الذين يحاولون تملق العمال . . ولكن لما أقوله معى مواقف جربتها بنفسى وقصص أروى هنا ما تيسر منها لمجرد إعطاء المثل . .

كنت أقوم بتنفيذ عملية كبيرة فى ليبيا ، وقت أن كان يتربع على عرشها الملك السنوسى ، وكان يحكم مصر وقتها نظام الحكم السابق .

وحدث خلاف بين نظام الحكم فى مصر ونظام الحكم فى ليبيا . . وعلى أثره استدعانى عبد الحميد البكوش ، الذى كان يشغل منصب رئيس الوزراء هناك فى ذلك الوقت ، وطلب منى تصفية جميع أعمالى فى ليبيا ، وكان ذلك لأسباب سياسية . . وكانت هناك عملية لم تستكمل بعد فطلبت منهم الانتظار إلى ما بعد الانتهاء منها . . ولكنهم اقترحوا استجلاب عمال من بلاد أخرى .

واستجبت إلى مطلبهم . .

وقررت أن أستجلب عمالا من بلاد أخرى ، لكى نقوم بانجاز ما لم يتم الانتهاء منه فى العملية ، وقمت بارسال مهندسين من الشركة ، إلى كل من مالطة وقبرص واليونان ، للتعاقد مع عاملين من هذه الدول . .

وبعد أسبوعين عادت هذه الوفود لتقول لى : ليس هناك لاستكمال العمل من سبيل سوى العامل المصرى الصابر الصامد العملاق . .

فماذا وجدوا هناك ؟

وجدوا أن نجار المسلح المالطى ، يطلب مرتبا قدره مائتا جنيه ، فى ذلك الوقت ، بينما كان مرتب نجار المسلح المصرى ، لا يزيد عن خمسين

جنيها . . ليس ذلك فحسب . . بل أن هذا النجار المالطـي ، يطلب منا أن نوفر له ، شقة يسكن فيها هو وزوجته وأولاده على حسابنا . . وندفع له ثمن تذكرة الطائرة ذهابا وإيابا هو وجميع أفراد أسرته . . وأحد شروط التعاقد أيضا أن يعمل هذا النجار المستورد ، ثمانية ساعات فقط تتخللها ساعة راحة . . ثم ندفع له مبلغا مقدما وهو ما يزال في بلده .

ثم بعد كل هذه الشروط ، لا يحضر إلى العمل ، إلا بعد ثلاثة شهور ، من تاريخ التعاقد معه .

أملت مالطة علينا هذه الشروط ، بينما كنا نحن هناك يُقيم كل ثمانية منا في شقة واحدة . . ليس العمال فقط ، ولكن كبار المسئولين أيضا ، من مديرهم إلى خفيرهم ، بما فيهم عثمان أحمد عثمان نفسه .

نفس الموقف وجدناه في قبرص . . وفي اليونان . .

كلمة حق

وإذا كان لأحد فضل على نهضة البلاد العربية كلها ، فإن الفضل يعود للعامل المصرى . . لأن رخص سعره ليس في صالح المقاول ولكن في صالح صاحب العمل وحده . . لأن المقاول عندما يتقدم لكسب عملية من العمليات فهو يضع أسعاره ، على ضوء سعر العمالة اللازمة لتنفيذ العملية . . وكلما كان أجر العامل رخيصا ، كان سعر تنفيذ العملية الذى يتقدم به المقاول رخيصا أيضا . . والعكس صحيح . .

وبفضل السعر الرخيص للعمالة المصرية ، كانت النهضة الحديثة في البلاد العربية . .

فحيثما كنا نذهب كانت الشركات الأجنبية ، التى تسيطر على الأعمال في هذه البلاد تحمل متاعها وترحل . .

ولم تستطع أى منها أن تقوى على منافسة شركة المقاولون العرب ، وليس لذلك سبب سوى العامل المصرى العملاق ، الذى حقق لشركة المقاولون العرب كل هذه المكانة .

حدث ذلك عندما ذهبت الى الكويت ، ووجدت فيها خمس شركات

إنجليزية كانت تحتكر كل أعمال المقاولات هناك، وتقتسمها فيما بينها.. حتى انهم كانوا يسمونهم الشركات الخمس.

وكنت أول مقاول يدخل بينهم.. ويتمكن من تحطيم حصارهم، وإحتكارهم للعمل، هناك، ولم يستطيعوا منافستي.. وفتحت الباب بعدى لمقاولين مصريين.. ولم تجد هذه الشركات الخمس أمامها مفراً، من أن تصفى أعمالها، وتغلق فى الكويت أبوابها..

نفس الموقف حدث فى السعودية.. كان كل المقاولين هناك أمريكان.. وكانت الشركة التى تحتكر العمل هناك تسمى «بيكر»، وعندما ذهبنا نحن لم تستطع أن تصمد فى مواجهتنا.. وخلال عامين فقط صفت أعمالها.. وتركت السعودية..

نجحت فى كسر احتكار الشركات الأجنبية فى معظم الدول العربية.. وكان أقوى أسلحتي فى كسر هذا الاحتكار، بل وإجبار تلك الشركات على تصفية أعمالها، هو سعر العامل المصرى الرخيص من ناحية.. وكفاءته الكبيرة من ناحية أخرى..

فالعامل المصرى قيمته كبيرة.. فهو الذى يبنى ويعمر ليس مصر وحدها.. ولكن المنطقة العربية كلها.. وما بها من نهضة الآن ليس إلا نتيجة لحبات عرقه..

فاذا ما كان يذهب إلى العرب باحثا عن رزقه.. فهو أيضا يبعث نهضتهم.

وبحكم خبرتي وممارستي عندما ادخل اى مبنى فى أى مكان.. أعرف للوهلة الأولى من الذى قام بانشائه.. هل هو مصرى.. أو سورى.. او المانى.. أو من اى جنسية فى اى مكان..

وإذا سألتنى كيف تستطيع أن تعرف؟

أقول لك أن المبنى المتقن الذى يقام على الأسس الهندسية السليمة لابد أن يكون الذى انشأه عمال مصريون.. لأن اى عامل فى أى دولة لم يصل فى هذا المجال: إلى هذه الدرجة من الاتقان التى وصل إليها العامل المصرى..

القوى العاملة

مقبرة للشباب

سألنى احد ابنائى الطلبة . . بماذا أنصحه وهو على أبواب التخرج من الجامعة ؟

ولم اجد ما أجيب به على سؤاله سوى أن أروى له واقعة حدثت معى ، وتركت له أن يستخلص منها ما يريد أن يحصل عليه من نصائح ، يريد أن يجعل منها بداية لطريق حياته بعد تخرجه من الجامعة .

قلت له : فى بداية الخمسينات ، حضر إلى مكتبى رجل دين وقور ، وكان معه إبنه الذى كان يريد أن يجد له فرصة عمل معى . .

سألت الشاب عن مؤهله .

فأجابنى : ليسانس الحقوق .

وكانت الشركة فى نلك الوقت فى بداية عهدها ، ولا يتحمل فريق العاملين فيها إضافة صاحب مؤهل غير منتج عندنا وقتها . .

ووقفت حائراً بين رغبتى فى تلبية مطلب نلك الشيخ الوقور . . وبين

إمكانيات الشركة التى لا يتسع العمل فيها ليتحمل مثل مؤهل إبنه . .

ولم أستطع حسم الموقف فى تلك المقابلة . . فطلبت من الشاب أن يكرر الزيارة بعد أسبوعين . . لعلنى أجد لهذا الموقف مخرجا . .

وعندما عاد الشاب قلت له إننى أريد أن أجد لك يا ابنى عملا معنا ، ولكن الشركة لا تحتاج إلى مثل تخصصك . .

وكانت مفاجأة لم أكن اتوقعها عندما هم الشاب واقفا . . وأخرج من جيبه شهادة الليسانس التى يحملها . . ومزقها من تلقاء نفسه . . والقى بها فى سلة المهملات . .

وانتظرت لأعرف ماذا سيفعل بعد ذلك ؟ ! . .

فوجدته يقول لى : أنا مستعد لأن أعمل فى ادنى الأعمال التى تحتاج إلى مجهودى لأصبح قوة منتجه فى الشركة . .

كبر فى نظرى هذا الشاب بما يحمله من مبادىء فى داخله ، يتضاءل أمامها اى مؤهل .

وبادرته قائلا : اجلس يا بنى . . سأفتح أمامك كل الفرص لتثبت ذاتك ، وتفصح عن ملكاتك .

وبدأ هذا الشاب الطريق من بدايته . . متناسيا أنه يحمل ليسانس الحقوق ، ولكنه لم ينس أنه يحمل طموحا كبيراً وأنه وجد لنفسه هدفا بعيداً . . أصر وصبر وثابر من أجل الوصول إليه . . وتدرج فى العمل بكفاءته وقدراته إلى أن أصبح رئيسا لقسم المشتريات بالشركة وعندما انشأنا شركة الشرق الأوسط ، التى تعمل فى مجال الأمن الغذائى ، برأسمال قدره خمسة ملايين جنيه ، وأصبح خالد المالكى صاحب هذه القصة رئيسا لمجلس إدارتها . .

ثم استطردت اقول للطالب : يا ولدى انا لست صاحب نظريات ولكننى رجل من الله على بكنز ثمين من التجارب . . أقول لك على ضوئها ، لا تنتظر القوى العاملة لكى تحيلك إلى المعاش ، فور تعيينك فى وظيفة تقيدك بها وفيها ، وتقتل ملكاتك ، وتقبر إمكانياتك مقابل قروش تتقاضاها كل شهر . . لا تشبع ولا تغنى من جوع .

إن القوى العاملة ، لا انظر إليها إلا كنوع من الضمان الاجتماعي ، يفسد على الشباب مستقبله ، ويحرم بلده من كل إمكانياته . . وهو في عنفوان قدرته وعطائه . .

ورحت أقول لابني الشاب . . وأقول من خلاله ـ لكل الشباب من خريجي الجامعات ، والمعاهد المتوسطة ، والمدارس الفنية المتوسطة أن يلقوا خلف ظهورهم ، فكرة الاعتماد على الدولة لتوظيفهم ، بل يجب أن يفهموا أن الدولة هي التي ينبغي أن تعتمد عليهم . . لاهم الذين يعتمدون عليها . . إنهم شبابها وهم طاقتها . . وهم مستقبلها .

وواصلت حديثي أقول له : أنصحك يا ولدي بالانطلاق والبحث عن العمل ، الذي يحقق لك العائد الذي يتناسب مع عطائك ، دون أن تنتظر في طابور الموظفين الطويل ، فيضيع جهدك وعمرك ، في البحث عن علاوة وترقية دون أن تفطن إلى القدرات الهائلة ، التي بداخلك والقادرة على صنع المعجزات . .

واستطردت أقول : أن نظام القوى العاملة لم تضعه الدولة لتحقيق مصلحة الشباب . . ولكن الدولة كانت في وقت من الأوقات في حاجة إلى حماية كرسي الحاكم ، فأرادت أن تربط الناس بها ، وتعطيهم لقمة عيشهم من يدها . . ليس لكي تطعمهم ، ولكن لكي تجعلهم يدورون في فلكها بغض النظر عن الخسارة التي يمكن أن تلحق بهم أو ببلدهم ، نتيجة هذا الأسلوب الذي استخدموه في تحطيم طاقات الشباب ، وقفل الطريق أمام مواهبهم وطموحاتهم وآمالهم . .

وقلت لولدي : وأقول من خلاله لكل أولادي الشباب الذين يقفون على أعتاب المستقبل :

إن الحياة طريق طويل جدا لا يمثل الحصول على المؤهل العلمي نهايته ، كما يتصور البعض . . ولكن المؤهل لا يمثل إلا جواز مرور يسمح للشاب بمقتضاه ، أن يمر من بوابة الحياة ، ليسير على أول منحنى في دربها الطويل . . ليس هناك من مسئول عنه غير قدراته وإمكانياته . . ليست المادية فقط ، ولكن إمكانياته الكامنة فيه من ملكات ومواهب

وإصرار وطموح .

فقد يقطع فى اليوم ميلا . . وقد يقطع عشرة أميال . . وقد يتوقف اليوم . . لينطلق غداً . . وقد يكبو فى حفرة . . ولكن سيجد بعدها أرضا ممهدة ، قد تكون مليئة بالمطبات فى البداية . . ولكن مادام يوجد العزم والارادة فستكون نهايتهما . . خيرا كثيراً . .

وقلت له : إن الشاب سيلتقى على هذا الطريق مع مختلف أشكال الناس ونوعياتهم ومستوى ثقافاتهم . . سيلتقى بالفلاح والعامل . . بالمهندس والملاحظ . . بالمحامى والمحاسب . . بالحداد والنجار . . وما إلى ذلك من كل هؤلاء . . وبقدر قدرة الشاب على التعامل مع كل حسب مستواه ، وتركيبته الشخصية والنفسية ، ومستوى عقليته يتعامل مع كل بالأسلوب الذى يتناسب معه على مقدار قدرة الشاب على كل ذلك على قدر ما ينجح فى قطع مسافة أطول على الطريق . . ويدرك نهايته أو قل قمته أسرع من غيره .

وحذرت إبنى الشاب وأنا اقول له :

ونتيجة معاملتك أما أن تجد من يعترض طريقك . . إذا أسأت فهم الدرس الذى أشرحه لك وإما إذا وعيت كل ما فى الدرس من أبعاد فانك ستجد أن معظم من يلتقى بك سيسارع بتقديم المساعدة لك ويدفعك إلى الامام . .

تلك هى الخبرة التى اكتسبتها من الحياة . . وأستطيع أن أقول على ضوئها رأيا واضحا فى قضية القوى العاملة .

الطريق الصحيح

أقول لشبابنا أبدأ بالبحث عن نفسك ليس بوظيفة فى دواوين الحكومة . . ولكن بفرض نفسك وشق طريقك بالأمل والكفاح . .

لا تحرج يا ولدى من أن تذهب إلى صاحب العمل . . وتقدم له نفسك . . ولا تيأس من ذلك الذى يرفض الاستعانة بجهودك ، لانه ليس فى حاجة اليك . . ولكن أبحث عن غيره . . وغيره . . وستجد بالتأكيد لنفسك مكانا . . إن أى صاحب عمل فى حاجة إلى كل مجتهد .

لا تتمسك بشهادتك . . ولا تصر على أن تعمل فى عمل يتناسب مع هذا المؤهل . . وليس هذا الرأى دعوة منى لك لكى تتخلى عن تخصصك . .

ولكن يكفى أن تعلم يا ولدى إنه لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . فكونك حصلت على مؤهل من أى نوع ، فان هذا المؤهل أتاح لك الحصول على المزيد من العلم والمعرفة فى العديد من المجالات . . هذا العلم الذى ينير لك طريقك . . وسيساعدك علمك على أن تستوعب أى عمل تعمل فيه أسرع من غيرك الذى لم ينل أى قسط من التعليم .

إن استيعاب حامل ليسانس الآداب لمهنة الخراطة بحكم اتساع أفقه ، أسرع بكثير من استعداد شاب لم ينهل من العلم إلا قليلا . . وعندما يمتهن صاحب المؤهل هذه المهنة فانه سيضيف إليها ، من نوقه وعلمه ، ليس فى مجال التخصص فقط ، ولكن فى طريقة معاملته مع الناس . . وقدرته على أن يدرك المواقف ، ويتصدى للمشاكل ، بعقل مفتوح .

لذلك أذهب يا ولدى إلى أى صاحب عمل دون أن تتمسك بمؤهلك ، والتحق بأى عمل . . وبالتأكيد ستضيف إلى هذا العمل بما حصلت عليه من ثقافة . .

حاول يا ولدى ، ولا تتكبر على العمل . ولا يكن هدفك فى الحياة أن تجلس خلف مكتب . . لأن هذا المكتب سيقضى على مستقبلك .

وإذا فعلت ما أنصحك به لن تصبح يوماً ما مسئولا كبيراً فى العمل الذى قد تبدأ فيه خفيراً . . ولكنك ستصبح صاحب عمل . .

وقد بدأت حياتى « صبى ميكانيكى » فى الاسماعيلية ، منذ ان كنت تلميذاً فى المدرسة وهذا ليس عيبا . . ولكن العيب أن تخطىء فى حق نفسك ، ولا ترى لك مستقبلا أبعد من الوظيفة الحكومية التى ستدفن فيها نفسك وإلى الأبد . .

يجب يا ولدى أن تحصل على نصيبك العادل ، نتيجة لمجهودك ، ولن تحصل على هذا النصيب إلا إذا تحررت من عقدة ضرورة أن تصبح

موظف حكومة . .

ويكفى أن أقول هنا أن هناك سائقين فى المقاولون العرب ، يصل دخل السائق منهم إلى أربعمائة جنيه فى الشهر . . فهذا حقه . . وثمار عرقه . .

فلماذا لا تبحث يا ابنى عن نفسك ، وتطرق كل الأبواب ، التى سيفتح لك منها باب بالتأكيد ، بدلا من أن تنتظر القوى العاملة ، التى لا تعطيك إلا ما يدخل فى حدود الاعانات ، التى توزعها وزارة الشئون الاجتماعية على المحتاجين .

وبهذه المناسبة لا يسعنى إلا أن اقف قليلا عندما يسمونه بنظام القوى العاملة . .

موقف لصالحك

فكيف نشأ هذا النظام ؟

نشأ هذا النظام عندما التزمت الدولة بتوفير فرصة عمل لكل خريج . . وهذا أمر جميل ومحمود . . ولكن ماذا حدث ؟

حدث أن الدولة لم تلتزم بايجاد فرصة عمل منتج يحقق الشاب ذاته من خلالها ، ويحصل على العائد الذى يستحقه مجهوده منها . . وفى نفس الوقت تستفيد الدولة من طاقات القوة الضاربة فيها وهم الشباب . . فتوظف جهودهم فى مختلف المجالات المنتجة ، فى الاقتصاد والزراعة والخدمات ، لكى يزيد الانتاج وتنتعش أحوال البلاد . .

لم تفعل الدولة ذلك ، ولكن تحول الالتزام بايجاد فرصة عمل لكل شاب إلى التزام بتعيين كل شاب . . وهناك فارق كبير بين الالتزامين . . فالالتزام الأول يضيف إلى الاقتصاد القومى . . أما الالتزام الثانى فانه يأخذ منه . .

واتجهت الدولة إلى تخصيص اعتمادات فى ميزانياتها . . تسميها اعتمادات تعيين الخريجين وتقوم بتعيينهم فى مختلف الوزارات والمصالح ، دون أن تلتفت إلى ضرورة الاستفادة بجهودهم ، وتكدست بهم دواوين الحكومة ومكاتبها . . دون أن يكون لوجودهم فيها ضرورة ،

ودون أن تكون هذه المكاتب والدواوين المكان الحقيقي الذى يجب أن يتواجد فيه أمثال هؤلاء الشباب . .

وبدلا من أن يصبح هؤلاء منتجين ، أصبحوا فى غالبيتهم عالة على الدولة . . وعبئا تحسب حسابه ، وتفكر فى كيفية إيجاد الحلول له . .

ولم تجد من الحلول ما هو مجد ، إلا أن تحمل الميزانية عاماً بعد عام إعتمادات جديدة .

وللأسف تتفاخر الحكومة ، تلو الحكومة بأنها إعتمدت مبالغ كذا . . وكذا . . لتعيين الخريجين . . دون أن يجد أحد فى نفسه الشجاعة ليعلن عن المشكلة الحقيقية ويطلب ضرورة مواجهتها .

مع أن ما يحدث جريمة بشعة ترتكب فى وضح النهار ، ضد مستقبل هؤلاء الخريجين ، وضد مستقبل بلدهم . . ولا أعرف ما إذا كان يدرى القائمون على أمر ذلك الموضوع ، أم لا يدرون .

وكانت النتيجة إن أصبحت الدولة غير قادرة ، على أن توفى هؤلاء المعينين حقوقهم الحقيقية . . واكتفت بأن تمنح الشاب بضعة جنيهات . . ثم تضع له نظاماً للترقى والعلاوات ، لا يضيف إلي دخله سنويا إلا بضعة ملاليم . . وعليه أن ينتظر فى طابور الترقى سنوات وسنوات . .

فمادام هؤلاء وهم خيرة القوى المنتجة فى البلاد تحولوا إلى موظفين . . فمن الذى يستطيع إن يزيد الانتاج غيرهم . . ومادامت هناك عدم زيادة فى الانتاج فمن الصعب جداً أن نجد زيادة فى الأجور والمرتبات . .

وبذلك أصبح حال الموظف كما نراه الآن . .

ومقارنة بسيطة بين أحسن الخريجين حظا ، ممن تتولى القوى العاملة تعيينهم . . وبين ما يتقاضاه أقل عامل زراعى ، على إعتبار أن اجور العمالة فى الزراعة هى أقل مستويات الأجور ، تتضح الحقيقة المرة التى وضعنا شبابنا فيها دون أن يجد أى منا الشجاعة لأن ينبه إلى ضرورة السير فى الطريق السليم ووجد النظام الحالى نفسه فى حيرة . . كيف يتخلص من ذلك المرض الذى فهمه الشباب على أنه الدواء . .

كان السبب الذى دفع الحكومات فى النظام الذى سبق الرئيس السادات إلى هذا النظام هو أن تربط الخريجين إلى المكاتب بسلاسل، كتلك الحبال التى نجد فى بعض دواوين الحكومة الموظفين يربطون بها الكراسى إلى المكاتب.. وليس لها من هدف سوى أن تضمن ولاء هؤلاء الخريجين، ولم تجد سبيلا لكسب هذا الولاء، إلا بتخدير الشباب بما سمته القوى العاملة، وتعيينهم وتكديسهم فى الدواوين، دون أن توجد لهم الفرص الحقيقية التى يجدون أنفسهم من خلالها ويظهرون ملكاتهم ويعبرون عن طموحاتهم..

ودابت الحكومات على كسب ود الناس، باعلانها تعيينها للخريجين العام بعد العام، دون أن تفكر فى خلق العمل المنتج لأى من هؤلاء..

وكانت النتيجة التى نراها الآن.. وهى أن عائد اقل عامل لا يقل عن ثلاثة جنيهات فى اليوم أى تسعين جنيها فى الشهر.. وهذا الدخل يعادل ما يتقاضاه مدير عام فى الحكومة..

لذلك فأنا ضد سياسة القوى العاملة فى تعيين الخريجين، حيث لا حاجة لجهودهم.. ومع سياسة ضرورة إيجاد فرص عمل منتجة، للخريج يجد منها عائداً عادلا عن مجهوده من ناحية.. وتحقق الدولة فائضا نتيجة هذا المجهود من ناحية أخرى..

ولا أنصح أى شاب أن ينتظر فى طابور القوى العاملة، ليتسول منها بضعة ملاليم.. وهو صاحب الساعد القوى والفتوة القادرة.. ولكن عليه أن يسعى ويبحث عن نفسه التى لابد أن يجدها.. مع فرصة متساوية، مع قدراته.. تعطيه ما يتوق إليه فى الحياة.

فيا ولدى أنت تبدأ صغيراً ثم تكبر.. وذلك بخلاف أن تولد كبيراً فالصغير يكبر ويأخذ دورة نموه الطبيعية، فتشتد عزيمته ويصلب عوده.. غير ذلك الذى يولد كبيراً فيولد بغير تجربة.. لذلك يختفى سريعا دون أن يأسف عليه أحد.

كيف نبنى مصر؟

فى بداية ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . . إنتشرت موجة قـوية لحـث المواطنين على المساهمة فى مشروعات صناعية جديدة ووجد هذا الاتجاه قبولا كبيراً عند الناس . . وأقبلوا على إنشـاء العـديد مـن الشركات المساهمة .

وكم كان هـذا الاتجـاه طيباً وجميلا . . للفـرد . . والجمـاعة . . والمجتمع . .

وكم كنت أتمنى أن يسيروا فى الطـريق الذى بدأوه حتى نهـايته . . دون أن يجروا البلاد إلى مـا لا قبل لهـا به . . ويجـردوها مـن أمضى أسلحتها فى معركة بناء نفسها . . أموال أبنائها . . وجهود رجالها .

ولكنهم حرصوا على أنفسهم . . وتحرك فيهـم حقـدهم . . وأرادوا بالتأميم وسيلة تحمى الكرسى . . وأرادوا ولاء الناس بثمـن بخس كانت مصر ضحيته . . والناس أيضـا . . عندمـا أوهمـوهم أن التأميم مـن أجلهم . . وإن وسائل الانتاج ستصبح ملكا لهم . . وأنهـم سـيحصلون على كل حقوقهم . . واستخدموا الناس بدلا من أن يخـدموهم . . وكانت النتيجة الطبيعية المتوقعـة مـا نصرخ منه جميعاً الآن ، بعـد أن أدركنا فداحة المصير الذى قادونا إليه ، وسرنا وراءهم مخدرين بما رفعوه مـن شعارات جوفاء . . كان عائدها مرارة نتجرعها . . ونارا نكتوى بها . .

ليتهم استمروا

لو كان التشجيع قـد اسـتمر كمـا بدأ . . وطـوروه . . لكان خيراً كثيراً . .

لأن معنى ذلك أن كل مواطن يخرج من تحت البلاطة كل ما عنده من أموال ، ويشارك بها فى النهضة التى تحدث . . سواء عن طـريق مشروع

خاص يتولاه بنفسه ، أو عن طـريق اشـتراكه مـع آخـرين فى شركة مساهمة . . تعمل فى أى من المجالات التى يجد لديه الرغبة فى أن يستثمر أمواله فيها . .

لو حدث ذلك . . لكانت النتيجة مزيدا مـن المشروعات . . ومـزيدا مـن الاستثمارات فى كل الاتجاهات فى الزراعة . . والصناعة . . والمقاولات . . والتجارة . . والاقتصاد . . وما إلى ذلك من مجالات . .

كانت ستظهر مع هذه المشروعات الملكات . . والقدرات . . والمواهب العملاقة لدى الشعب . . لأن الجو والمناخ يساعدان على أن تنمـو وتكبر وتزهر وتثمر ثمرا طيبا . .

وعندما تضاف الأموال إلى المواهب . . يصـبح الابتكار والتحـديث علامة بارزة تصنع التقدم وتطرد التخلف .

وكان يمكن فى مثل هذا الجو أن يتبلور دور إيجابى للدولة ، ورائد فى نفس الوقت .

كان يمكنها أن تدخل مساهما فى العديد مـن تلك المشروعات طبقـا لاختيارها ، وأهمية تلك المشروعات بالنسبة لها .

وكان بامكانها ان تضع خطة وتنظيما وتنسيقا . . تحدد على أساسه المشروعات التى يجـب الاسـتثمار فيهـا . . والمشروعات ذات الأهمية بالنسبة لاحتياجات الدولة والناس . . وتلعب الدور المساعد على تكامـل هذه المشروعات . .

وكان لها أيضا أن تضع من القـوانين مـا هـو قـادر على توجيه الاستثمارات ، طبقا لاحتياجاتها مثل تشجيع الاستثمار فى مجـال معين بمنحه تيسيرات كبيرة . . وتحويله عن مجـال آخـر عن طـريق فـرض ما تراه من قيود . . سواء عن طريق الضرائب أو الجمـارك . . ومـا إلى ذلك من الاجراءات .

وكان من حقها أن تضع قانون الضرائب الذى تراه متناسبا مع هذا النظام الاقتصادى وتفرض الضرائب بالنسب التى تراهـا على مختلف

مجالات الاستثمار ، لتحقيق التوازن بينها . . وعن طريق الضرائب ايضا تحصل على أية نسبة من العائد تريدها من أجل استخدامها لاصلاح المرافق ، والانفاق منها على المجالات التى تتولى هى وحدها أمرها . . ولها أن تتصاعد بهذه النسبة إلى أى حد تقرره . . وبذلك تحصل الدولة على حقها العادل دون أن تتدخل مباشرة فى أمور الناس .

وكان لها أيضا أن تضع إلى جوار قانون الضرائب . . قانون الجمارك الذى تراه مناسباً ، لتشجيع الاستيراد فى المجالات المطلوبة . . وتحجيمه فى المجالات الأخرى . . وتحصل منه على العائد المناسب لها .

وكان لها أن تضمن حقوق العمال بشتى الطرق التى تحلو لها . . والقوانين التى تراها . . كأن تضع حداً أدنى للأجور والمرتبات . . وكان تضع شروطا لتدرج هذه المرتبات ونسبا للعلاوات . . وكأن تحرم فصل أى عامل من عمله إلا بناء على شروط موضوعية تحمى العامل من التعسف . . وكأن تضع قانونا يضمن لهم نسبة من صافى الأرباح . .

وكأن تلزم صاحب العمل بأن يقوم بأداء خدمات معينة لهم . . كالتأمين عليهم . . وعلاجهم . . وإيجاد جو من العلاقات الانسانية مناسب لهم . . وكأن تضمن للعامل تعويضا مناسباً ، إذا ما تعرض لأية مخاطر أو أضرار . . وكأن تحصل من صاحب العمل ، على نسبة من صافى ارباحه ، وتوجيهها إلى صندوق رعاية الذين لا يجدون عملا إلى أن ينجحوا فى الحصول على عمل . . أو إلى أن توفر لهم الدولة فرص عمل عن طريق تشجيعها لانشاء المزيد من المشروعات . . بدلا من أن تلتزم بأن تجعلهم عبئا على الانتاج بينما يجب ان يكونوا سببا فى تحقيق المزيد منه . .

وأمامنا الآن مثال واضح طبقا لما هو معلن من أرقام . . إن الخريجين . . بدأوا فى الاتجاه للعمل فى مشروعات القطاع الخاص بنسبة كبيرة . . اكبر من ٥٠ ٪ . .

أى أن المشروعات الجديدة استوعبت أعداداً كبيرة منتجة . . لولا هذه المشروعات لكانوا جميعا عبئا على الدولة ، ملتزمة بتعيينهم بغض النظر عما اذا كانوا قوى منتجة أم لا . . كما أن هؤلاء جميعا قد

حصلوا على عائد كبير يتناسب مع جهودهم ولم ينتظروا الاعانات التى تمنحها الدولة لهم . .

وبدلا من أننا نرى الآن العديد من الشركات تتقدم للخلف بسبب سوء إدارتها . . كنا نرى شركات يقوم على أمرها أصحابها لأنهم أحرص الناس عليها . . ويهمهم تنميتها . . وتحقيق التوسعات فيها . . ويخافون عليها . . وبفضل ما يحققونه من ترابط بين العاملين فيها . . تستطيع ان تواصل بنجاح آداءها لدورها .

وبدلا من البطالة المقنعة التى تنتشر فى كل مكان . . لكانت كل شركة لا تستوعب إلا القوى اللازمة للعمل فعلا والمنتجة .

والأعداد التى لا تجد لها مكاناً بدلا من أن تتكدس فى المكاتب ، وتصبح عالة على غيرها لكانت تحولت إلى قوى منتجة فى مشروعات جديدة .

وعموماً كنا لا نجد هذه الاعداد لان التوسع فى تلك المشروعات التى كانت قد بدات منذ بدأت تلك الدعوة ، التى قتلوها فى مهدها ، كانت تستوعب كل هذه الأعداد ، كقوى منتجة ، وليست عبئا على العملية الانتاجية .

الطريق المظلم

لم يسيروا فى هذا الطريق

وساروا فى طريق آخر . .

والنتيجة كما ترى . . كل الناس فى حالة مادية معقولة . . إلا موظف الحكومة والقطاع العام . . وليس ذلك إلا بسبب تكدس أبناء مصر القادرين على العطاء فى هذا السجن الكبير . .

ولكن لو كانت الدولة قد سارت فى الطريق الصحيح ، الذى عدلت عنه ليفتح السادات الآن أبوابه . . لكان عدد موظفى الحكومة والقطاع العام محدوداً إلى الحد الذى يمكن الدولة من أن تحقق لكل منهم دخلا معقولا ، يتناسب مع احتياجاته ، ويتناسب مع ما يحصل عليه الآن زميله الذى يعمل فى مجال القطاع الخاص من عائد .

قالوا لنا أن التأميم وسيلة لاصلاح حال الناس . . فـأصبح حـالهم أكثر سوءاً . . وإلا فبماذا نفسر الحال الذى وصل إليه موظف الحـكومة والقطاع العام بمقارنته بزميله موظف القطاع الخاص . .

ولا ينبغى أن يفهم أحد اننى ضد القطاع العام فى مجموعه . . فهناك مشروعات من المقبول . . بل مـن الضرورى أن تخضـع للملكية العـامة كصناعة الحديد والصـلب . . والصـناعات الحـربية . . والسـكك الحديدية . . ومـرافق الخـدمات . . ومـا إلى ذلك مـن المشروعات التى لا يقدم عليها الأفراد من ناحية . . والتى لا يستطيعون القيام بهـا مـن ناحية أخرى على وجـه التحـديد أنا ضـد التأميم ولكن للدولة أن تقيم ما تراه من مشروعات طالما ليست على حساب الأفراد . .

من اجل مصر افتحوا كل الابواب

لذلك فمن واقـع خبرتى الطـويلة ارى ضرورة تشـجيع القـطاع الخـاص ، وأن نفتح له كل الأبواب . . ليس لخير أصـحابه ولكن لخير مصر . . لأن اى صـاحب مشروع خـاص يهمـه أن يكبر مشروعه وأن تتضخم ثروته . . وكبر المشروع لا يترجم إلا إلى إنتاج وفرص عمالة .

ونخطىء إذا فهمنا أن صاحب مشروع القـطاع الخـاص كل همـه تحقيق المكسب وبأى ثمن . . بل كل همـه أن يتسـع مشروعه . . ويكبر ويتمدد . . ولا يجد سعادته فيمـا يجـده بين يديه مـن أمـوال . . ولكن فيما يحققه مشروعه من توسعات . .

وهذه التوسعات ليس لها من نتيجه ، سوى زيادة الانتاج وتجويده ، ليقدر على المنافسة . . ومن ناحية أخرى كلما زاد حجم المشروع زاد عدد العاملين فيه . . وكلما زادت قدرته على استيعاب أعداد كبيرة من العمالة المنتجة التى تعطى أكثر مما تأخذ . . وكلما كان العـامل منتجـا . . كان أجره مرتفعا . . بدلا من العمالة المكدسـة فى المكاتب ، لتأخـذ معـاشات شهرية ، وهى فى عنفوان الفتوة والشباب « وتحتاس » الدولة لكى توجد لهم الملاليم التى يقبضونها وهم راضون بذلك . . ولا أعرف كيف ؟ .

أى انه لابد ان نفتح الطـريق امـام القـطاع الخـاص . . ولابد أن نستخدم الضرائب للحصول على حـق الدولة مـن صـاحب المشروع . .

وقانون العمل فى حماية العاملين فى المشروع . .

فى نفس الوقت لابد أن نهز القطاع العام هزة عنيفــة مــن أعمــاق أعماقه ، لكى ننفض من فــوق كاهله كل مــا علق به مــن أعباء شــلت حركته . . ولا أجد طريقا لأن يتخلص القطاع العام مما هــو فيه غير أن يسير فى طريق القطاع الخاص فيعمل بنفس أسلوبه وإن نضــعه وجهــا لوجه فى منافسة صريحة مع القطاع الخاص . . فهــو ليس طفــلا مــدللا يجب أن تستمر الوصاية عليه . .

ولا يتأتى ذلك الا بتحديدنا أهدافا لكل مشروع ، نطلب من العــاملين فيه وخاصة قيادته تحقيقها ، ونضع زمنا محددا لتنفيذ هذه الأهــداف ، ثم نترك بعــد ذلك المشروع ، دون أن نتدخــل فى شــئونه ، ونترك لمن فيه الصلاحية لادارته . .

وارى بحــــكم خبرتى أن يتولى إدارة كل مشروع أبناء نفس المشروع . . وأن نلفظ الاسلوب القــديم . . أســلوب تبادل القيادات بين مختلف المشروعات . . لأن إبن المشروع هــــو أعلم مــــن غيره بعمله وبمشروعه وبالعــاملين معــه . . ويســــتطيع أن ينطلق به إلى تحقيق الأهداف المطلوب تحقيقها . .

من هذا المنطلق كان كل تحفــظى على التأميم . . ليس خــوفا مــن التأميم فى حد ذاته ولكن خوفاً على مصر من آثاره . .

لذلك عندما سألنى نظام الحكم السابق ، ذات مرة فى السد العــالى ، عن مطالبى عندما بهره نظام عملنا فى السد العالى وضخامة إنتاجنا .

قلت له :

ليست لى أية مطالب إلا مطلب واحد . .

قال ما هو ؟

قلت آلا يتدخل أحد فى شئون الشركة من غير أبنائها .

وكان أن اســتجاب إلى ذلك المطلب الذى اعتبره صــــغيرا . . وكان تحقيق تلك الرغبة سببا فى أن تصبح المقاولون العرب على ما هــى عليه الآن . .

ولم يكن هدف التأميم مصلحة مصر . .

لأن مصلحة مصر فى أن يجد كل إبن من أبنائها نفسه فيها . . سواء صاحب مشروع . . أو عاملا فى مشروع يحصل منه على عائد متناسب مع ما يبذله من مجهود . . وفى كلا الحالين يجد الطريق مفتوحا أمـــامه ليثبت ذاته ويؤتى كل ما عنده ، من ملكات وقدرات وطاقات وإمكانيات ، يحصل مقابلها على عائد مادى معقول ، بدلا مـــن أن يبحـــث ليذهـــب إلى دولة اخرى يجد فيها تلك العائد . .

ولكن التأميم كان لصالح أصحاب السلطان . .

لقد كان من مصلحتهم تحويل مصر كلهـــا إلى ســـجن كبير . . يدار بكامله من خلالهم فلا يجد أى مواطن لقمة عيشه إلا فى أيديهم . . ولا يجد مستقبله إلا فى وظيفة من فضل إحســـانهم . . ولا بديل له إلا الملاليم التى يجودون بها عليه . . ومن لم يرض بذلك فعليه أن يذهب إلى حيث يريد . . ولن يجد ما يريده . . لأن كل مقدرات مصر فى أيديهم وليس فى إستطاعته أن يغادرهـا إذا أراد . . يجد نفسه لا حول له ولا قوة ، إلا أن يعود إليهـــم مكسوراً ذليلا . . يرضى بما ينعمون به عليه . . ويجد نفسه مضـــطراً لأن يدور فى فلكهم « أراد » أو لم يرد . .

وعن طريق التأميم أصبح الكرسى هو الحاكم بأمر الله ، فى كل شىء ، فهو الذى يعين كل من يريد عملا ، لأن جميع فـــرص العمـــل بين يديه . . فبعيدا عنه لا يجد أحد قوت يومه ، وعندما يعـطيه صـــاحب الكرسى لابد وأن يصبح مدينا له بذلك . . فهو صاحب الفضل عليه . .

كما أن قيادات المؤسسات يصبح قرارها بكلمة منه . . فيعين فـــلانا هنا . . وعلانا هناك . . ويرفت من يشاء . . وينقل من يشاء . . ويصـــبح بيده كل زمام الأمور . . .

وبذلك يستطيع إحكام قبضته بيد من حديد ، على مقـــاليد كل شىء . . ويصبح هو السيد الذى يمنح ويمنع . .

ومن هنا فلابد أن يركع الجميع تحت قدميه .

وبذلك يضمن إستمرار كرسيه ، لأن مفتاح الســـجن الذى حبس فيه

كل الشعب ، أصبح فى جيبه .

وبذلك كان التأميم وبالا على مصر كلها . . صوروه للناس انه الخير كله . . وخدروهم وضحكوا عليهم . . وكانت النتيجة هى أن هانت علينا مصر بعد أن أجبرونا على أن ندير لها ظهورنا إلى ان وصل بنا الحال إلى ما حدث لنا سنة ١٩٦٧ .

ولابد وان نكشف لشبابنا النقاب عن كل شيء ، حتى يعرف أين الطريق السليم . . وحتى ينهل من الفكر المستقيم . .

إن الشباب عجينة طيبة . . ولا يصح أن نتركه نهباً لأى أفكار ، غير الأفكار التى نجد لها أساساً فى ديننا لكى تشكله بالشكل الذى لا يبعد الشباب عن الدرب الذى يجب أن يسير عليه .

هذه اخلاقياتهم

وعندما بدأت الثورة فى السير فى الطريق الذى تراجعت عنه . .

تحمست جداً . . لذلك الاتجاه . . وسعيت إلى اصدقائى لكى احمسهم . . وأطلب مشاركتهم لكى نساهم جميعاً فى بناء بلدنا .

باختصار بدأت فى ذلك الوقت نفس العمل الذى أقوم به الآن . . وسرعان ما قطعوا الطريق ، وحاولوا قتل هذه الروح عندى فى مهدها . . فانقذتها من بين أيديهم إلى أن جاء السادات وأطلقها من عقالها لتعطى كل ما عندها .

كان أن تصورت إنهم جادون . . فتشجعت واقمت عددا من المصانع . . مثل مصنع القنالتكس ومصنع الخيوط الطبية . . وشركة الورش البحرية . . ومصنع لأقلام الرصاص . . إلى جانب الشركة الأم . . شركة المقاولات الكبيرة . . ومصنع للآلات الثقيلة للحفر والردم . . ومصنع سيارات ومصنع مواسير ومصنعين لعدادات النور والمياه .

وجمعت من أصدقائى كل ما كان لديهم فى ذلك الوقت . . ولم أكن اعرف أننى أضعه فى سلة لا قرار لها . .

وفى مصنع اقلام الرصاص ، دخل مساهما معنا ، مسئول كبير كانوا قد غضبوا عليه وأبعدوه عنهم ، وهو منهم . . فلجأ لنا وقال لى :

انا معى خمسة عشر الف جنيه . . أريد أن ادخل بهـا شريكا فى أى من المشروعات التى تعتزمون القيام بها .

فوافقت . . تكريمـا له وعين رئيسـا لمجلس إدارة مصـنع أقـلام الرصاص الذى وجهت رأسماله إليه . .

وذات يوم جاءنى يطلب منى بيع أسهمه .

سألته لماذا ؟

قال لى : أنا فى حاجة لهذا المبلغ . . لكى أدفعه ثمنا لعزبة اشتريتها .

حاولت بحسن نية إقناعه بالاستمرار معنا ولكن دون جدوى . . مـع أن المصنع كان من المصـانع الممتازة . . ومـن المشروعات التى تحقـق عائدا كبيرا . . إلا أنه أصر . . بل وصل إصراره إلى حد الالحاح . . ومع إلحاحه لم أجد مفرا من أن أشترى منه أسهمه . . وأسـلمه المبلغ الذى كان قد دفعه .

ولم يمر على تلك الواقعة إلا شهر واحد . . وتم تأميم الشركة .

لقد عرف هـذا الثائر أن الشركة سـتؤمم ، لذلك فضـل أن يهـرب بماله . . ويترك غيره يغرق . .

هؤلاء هم الثوار . . أصحاب المبادىء التى يطبقونها على غيرهم . . ويعفون منها أنفسهم .

المرحلة الأليمة

وكان تأميم هذا المصنع بداية لاسدال السـتار على فصـل جميل ، بدأته الثورة . . ليبدأ بعده الفصل الذى اسـتمر طـويلا ، ولا نزال حتى الآن نحـاول إزالة آثاره التى تراكمـت على مسرح بلادنا . . فحـرمت مصر . . لا من جهودى وحدى ، ولكن مـن جهـود كل المخلصـين الذين أقبلوا عليها من أبنائها . . الذين فتح لهم الرئيس السادات الطريق مـن جديد ليأتوا من كل فج عميق . .

جاءوا ليبدأوا الآن ، الطريق الذى كان يجب أن يسـيروا فيه منذ أن أعلنت الثورة عنه . . ولكن المناخ اختلف فعـادوا إلى شرانقهـم . . التى انطلقوا منها مع المناخ الجديد .

عادوا وكلهم ندم وألم ، على السنوات التى ضاعت من بلدهم ، دون أن يساهموا فى بنائها . . بل وعانت مصرهم بسببها الكثير . .

إن آثار مـا غرقـت مصر فيه لم تنته عند يوم تولى الرئيس السادات . . ولكن يوم تولى الرئيس السـادات كان بداية إزالة الآثار . . وحتى الآن . . وإن كان قد تخلص من معظمها . .

عندما نبدأ اليوم مـا بدأناه ، منذ ثلاثين سـنة . . ومنعـونا مـن أن نواصـل السـير فيه . . حتى عندمـا عدنا لنبدأه تحملنا عبء إزاحـة الأنقاض التى تراكمت على الطـريق . . فلم ينصرف جهـدنا إلى البناء فقط ولكن إلى إزالة الأنقاض ايضا . .

ولكن الحمد لله أن أراد الله بمصر خيراً . . وانقذها من أن تغوص فى الوحل بكاملها بعد أن غرقت فيه حتى أذنيها . .

علمتنى التجربة

علمتنى تجربتى الكثير . .

ومن بين ما تعلمته . .

آمنت بالمنافسة الحرة طريقا لصنع التقدم . . ومهدا للرخاء . .

آمنت بالمنافسة الحرة مجـالا يسـتطيع الانسـان معـه أن يبدع ويبتكر . .

يعطى جهده . .

ويجد نفسه . .

أيا كان موقعه من العملية الاقتصادية . . عاملا . . أو مالكا . .

علمتنى التجربة . .

إن الاقتصـاد الشـمولى الذى يعتمـد على ملكية الدولة لوسـائل الانتاج ، يزرع الحقـد بيَن الناس . . ويقتل ملكاتهـم على الخلق

والعطاء . ويحول الانســـان إلى ترس فى آلة الانتاج . . ويسـلب إرادته بالكامل .

علمتنى التجربة . .

إن التنافس سمة من سمات البشر عندما يحب الانسان أن يحسـن من وضعه . . وأن يرفع من مستواه . . ماديا . . وفكريا . . ومعنويا . .

وانتهيت الى تصور كامل . .

أجد فى هذا التصور ما يوضح كل ما اجملته فيما قدمت ، ولا طـريق أمام مصر إلا قوتها البشرية ، فهى سلاحها ورأسمالها . . وبها نقتحـم كل المجالات . . ونغزو كل مكان فيها لنرسم صفحة الرخـاء ليس فـوق الوادى ولكن على وجه الصحراء أيضا . .

ولى هنا وقفة . .

شهادة للتاريخ

لماذا استطعت أن اقيم لمصر كل مـا أقمته مـن مشروعات ليس لى فيها سهم واحد . الآن فقط ؟ مع أن عثمان احمد عثمان الذى بدأ سـنة ١٩٥٢ . . هو لم يتغير . . والاموال . . كانت موجودة كمـا هـى الان . . والرجـال الذين يسـاهمون فى المشروعات الجـديدة إسـهامهم ليس بجديد . .

فلماذا لم يفعلوا من قبل ما يفعلونه الآن ؟

لقد بدأنا ومنعونا . . حرموا بلدنا من جهودنا . . وحـرمونا مـن أن نبنيها . .

أظلموا مصر وظلموها .

جاءوا بالتأميم فأخذوا ما أخذوه واخفـى المصريون مـن أصـحاب الأموال من أموالهم ما أخفوه . . واختفـت مـع أمـوالهم أفـكارهم . . واختفت معهم المشروعات التى كان يمكن أن يقيموها . . فحـرمت مصر من أن تستفيد منهم ومن أموالهم . . فمنهم مـن وضـع أمـواله تحـت البلاطة ومنهم من هرب بها وبجلده معها خوفا من بطشهم .

واصبحت الدولة هى كل شيء . . تزرع وتصنع وتتاجر . . مـــع انهـــا صانع سيىء وتاجر أسوأ . . وزارع لم ير الحقل فى حياته . .

وخلاصة القـــول خـــاف الناس على أنفســـهم وأمـــوالهم فآثروا ان يبتعدوا . . وتركوا المجال للتأميم والحراسات والمعتقلات .

وللحقيقة لم يفعل الناس ما فعلوه من تلقاء انفسهم . . ولكن قوانين الدولة نفسها أغلقت الطريق أمامهم . . حتى من أراد الا يبتعد منهـــم . . وقف لا حول له ولا قوة .

وكانت النتيجة أن خسرت مصر كثيرا .

ولم يجد عثمان احمد عثمان ومن على شاكلته من يفتح له الطـــريق لكى يعطى أكثر وأكثر بل ان ما أعطيته وأنا فى ظل كل ما فـــرضوه على ، مع أنه كبير وكثير ، إلا أنه كان تحت تهـــديد ســـيوفهم . . وتســـلطهم . . ورغما عن أنف إرادتهم ، التى أرادت بما تعـــرضت له مـــن مضـــايقات إلا أبنى السد العالى وألا استكمل قواعد الصواريخ . . مع إنهما كانا من اعز امانيهم . . وأمانى مصر كلها . . ومع كل ما حققه المقاولون العـــرب لمصر . . إلا ان عثمان احمد عثمان كان يعتبر مجمـــدا طـــوال ســـنوات ما قبل السادات . . والسنوات التى ظل يرفع فيها السادات الانقاض من طريق البناء ليفتح الباب أمام ابناء مصر ليشاركوا فى صـــنع مســـتقبل بلدهم . .

لذلك فعندما فتح السادات الباب الذى لا يستطيع أن يفتحـــه رجـــل غيره ، انطلق عثمان ليعطى بلده هو ومن على شاكلته كل ما عنده .

فماذا فعل السادات حتى يفتح الباب ؟

اهم ما فعله السادات فى هـــذا المجـــال . . كان أن خلق جـــو الأمـــن والأمان . . فكل مواطن أصبح آمنا على نفســـه . . وعلى مـــاله . . وعلى يومه . . وعلى غده . . قلبه كله اطمئنان . .

باختصار . . ودع الخوف الى غير رجعة .

اعاد إلى الناس حرياتهم كاملة غير منقوصة . . يمارسونها فى إطار القانون الذى ينظم علاقات البشر فيمـــا بينهـــم . . وفيمـــا بينهـــم وبين

الدولة . .

حرية الناس فى أن تتكلم ، وحـريتها فى أن تعمـل . . حـريتها فى أن تشارك فى بناء بلدها . . وتساهم فى إعادة بعثها . .

ألغى الحراسات . . وأعاد للناس ثقتهم فى أنفسـهم وفى بلدهـم . . حول مصر إلى نهار مضىء يرى كل منا فيه أين هو ؟ وأين الآخرون ؟ . . ويرى مستقبله . . ويطمئن إلى نفسه مما حوله . .

أغلق المعتقلات . .

أعطى الدستور . .

أعاد مصر للمصريين . . وأعاد المصريين الى مصر . .

أعطى الحق لكل انسان . . تماما كما يفرض عليه الواجب . .

أصبح هدفه مصر . . بعد أن كان هدف من سبقه الكرسى . .

ومكن بهذا كله ليس لنفسه ولكن لنا جميعا . . ومهد لنا الطريق لكى نبدأ دون أن يلتفت أى منا وراءه . . فظهره مؤمن تماما ولن يجـد فى يوم من الأيام من يدفن فيه خنجرا .

وكان هذا الجو نقطة البداية لنا جميعـا . . بداية جـديدة . . فى مناخ جديد .

كان هذا المناخ سببا فى أن تخرج مدخرات الأفراد لتسـاهم فى بناء مصر . .

وكان سـببا فى أن يقبل أبناء مصر ، مـن مختلف دول العـالم بأموالهم ، وأفكارهم ، وعلمهم ليساهموا فى إعادة بنائها .

والحمـد لله مصر غنية بأبنائهـا الذين كانوا يرغبون فى عطـائها . . وكانوا يحرمون منه .

لقد مكننى المناخ الجديد الذى أوجده الرئيس السـادات كمـا مـكن غيرى من أن أتنفس . . ونتنفس جميعـا . . هـواء طيبا نقيا . . فـرحت أعطى مصر خبرة أربعين عاما عشتها رجل أعمال تعلمـت منهـا . . أن صـاحب المشروع هـو أقـدر الناس على إدارته . . فهـو الذى يتولاه

بالرعاية . . وهو الذى يخطط له . . وقلبه عليه . . وهو الذى يسعى لا تساعه . . ويحرص عليه . . لذلك فهو الحريص الأول على أن ينجح . . وإن وجده غير ناجح فسيعمل على تصفيته قبل أن يصاب بالخسارة .

وتعلمت أيضا . . العكس تماما فى المشروع العام . . فلا يهم القائم عليه من أمره شيئا . . مادام يتقاضى مرتبه كل أول شهر . . ومادام يحقق منه أهدافه الشخصية . . خاصة أن الدولة هى التى تتكفل به وبالمشروع . . ثم لماذا هو حريص على نجاح هذا المشروع ؟

وما هو العائد عليه أكثر من مرتبه الذى يتقاضاه ؟ وعموما فهو مطمئن إذا انهار المشروع فلن ينهار هو . . ولن ينتقص من مرتبه شىء . . بل ستوجد له الدولة وظيفة أخرى فى موقع أفضل يتولى تدميره كما دمر ما سبقه .

وتعلمت أيضا . . إن صاحب مشروع القطاع الخاص . . يدافع فى مشروعه عن أمواله . . وعن سمعته . . ومستقبله . . فكل شىء فى المشروع موضع اهتمامه . . ومحل نظره . . إن مشروعه جزء منه . . لذلك فان هذه المشروعات لابد أن تنجح . . ولا تعمل إلا إذا نجحت . .

ولكى تنجح لابد أن تكون قادرة على المنافسة . . منافسة المشروعات الأخرى المشابهة لها والتى تعمل فى نفس مجالها . . ولا تستطيع منافستها . . إلا إذا كانت أسعارها أرخص . . وإنتاجها أجود . .

وليس هناك من مستفيد من هذه الأسعار والجودة ، إلا المستهلك بعكس الحال فى ظل الاحتكار . . الذى فى ظله يرفع المنتج السعر بالشكل الذى يريحه . . ويقدم السلعة بالجودة التى يراها مهما كانت نوعية ذلك المنتج أو الناتج .

والمستهلك ليس أمامه إلا أن يشترى هذه السلعة . .

وكان ذلك سببا فى أن تنهار جودة الانتاج ، فى ظل القطاع العام ، وتصل إلى ما وصلت إليه لأن المنتج واحد . . وليس هناك من ينافسه . .

وكان أن دفعت الثمن الصناعة المصرية ، التى فاتها الكثير من التطور الذى سبقتها به دول العالم المتقدم .

وعلمتنى التجربة . .

إنه ليســت هناك دولة فى العــالم تريد أن تتقــدم ، دون أن تدعو كل أبنائها بكل إمكانياتهم المادية والفكرية والفنية للمســاهمة فى تنميتهــا ، وذلك لأكثر من سبب :

أولها أن الجهد الحكومى وحده مهما كانت إمــكانياته ، فهــو جهــد محدود لا يمكن أن يؤتى ثماراً يانعة ومستمرة . . وأمامنا تجــارب دول كثيرة . . يتقدمها الاتحاد الســوفيتى الذى قــاده هــذا الطــريق إلى أن يستورد غذاءه من الولايات المتحدة الأمــريكية . بعــد أن كانت أوكرانيا مصدراً لتصدير القمح الذى يشتريه السوفيت الآن . .

ويهمنى أن أؤكد هنا على حقيقة هامة هى أنه . يكذب . . ويكذب من يقول أنه قادر على أن يحصل من أى إنسان على كل ما عنده ، من جهــد وعطاء مهما كان دون إرادة صاحب هذا الجهــد . . ومــن غير أن يكون راغباً وراضيا عما يفعل .

قد تكون قادراً على استخدام الناس ، ولكن لا توجد قوة غير نابعــة من داخلهم تجبرهم لأن يفصحوا عن ملكاتهم . .

وليس الاعتماد على الجهد الحكومى هو الطــريق الذى يمــكن مــن خلاله الحصول على عطاء الناس . .

المساهمة الحقيقية

إذا تساءلنا . . كيف يمكن أن يساهم المواطنون مساهمة حقيقيه فى بناء بلدهم ؟

نجــد الاجــابة فى . . ضرورة أن يحصــلوا على حــــرياتهم أولا . . يختارون العمل الذى يريدونه . . والمشروعات التى يساهمون فيها . .

وعندما نتيح لهم هذه الفرصة . . تنطلق جهودهم جنبا إلى جنب ، مع جهود الدولة . . إن لم تتقدمها . .

وبذلك نحقق . . مساهمة حقيقية منهم تصــل لأن تمــكنهم مــن أن يساهموا باخلاص فى تنمية بلدهــم ، فى العــديد مــن المشروعات ، التى يقبلون عليها فى كافة المجالات . . وعن طــريق هــذه المشروعات نعفــى

الحكومة ، من تنفيذ العديد مما يجب إنجازه إعتمادا عليها . . ويمكنها أن تتفرغ إلى تركيز اهتمامها على مشروعات أخرى . . ليس ذلك فقط ولكن توفر مواردها أيضا . . فمثلا إذا ما كانت خطة التنمية تحتاج إلى مائة مليون جنيه لتنفيذها . . ففى حالة اعتماد الدولة كاملا على الحكومة والقطاع العام ، تصبح وحدها مطالبة بأن توفر هذه المبالغ . . ولكن عندما تفسح المجال للمواطنين ليساهموا فى تنفيذ هذه الخطه . . يصبح العبء مشتركا . . كأن ينفذ الأفراد مشروعات قيمتها خمسين مليون جنيه .

وبذلك نعفى الميزانية العامة للدولة من عبء نصف ما تستهدفه من مشروعات . . فما الضرر الذى يعود على الدولة إذن ، عندما تعتمد على جهود أبنائها وتعطيهم فرصتهم ؟

بل الأكثر من ذلك . . إنها عندما تجد الأفراد يساهمون فى تنفيذ عدد من المشروعات . . تصبح هى أكثر قدرة لتركيز جهودها على المشروعات الكبيرة . . كمشروعات المرافق والخدمات والصناعات الثقيلة .

ثم من ناحية أخرى . . بدلا من أن تصبح مسئولة عن إيجاد فرصة عمل لألف خريج . . تصبح مسئولة عن إيجاد فرصة عمل لخمسمائة خريج ، عندما تستوعب مشروعات القطاع الخاص الخمسمائة الأخرى . . فيخفف العبء عنها لأن القطاع الخاص ، يتحمل معها جزءاً من إلتزاماتها .

ومن ناحية ثالثة . . إن مثل هذه المشروعات تتخصص فى إنتاج العديد من المنتجات التى يحتاجها الشعب فى إستهلاكه . . فتقوم بتوفيرها بدلا من أن يشتكى الناس من نقصها . كما أن توافرها فى السوق يرحم ميزانية الدولة من عبء إستيرادها . .

ففيما مضى حرموا الدولة والشعب من أن يستفيد أى منهما من كل هذه الامكانيات وأصبحت الحكومة تتولى كل شىء . . حتى عمليات التجارة . . واستغنت عن الاستفادة بدعوة أبنائها لبناء بلدهم بما تيسر لهم . . أى دولة تلك التى يمكن أن تفعل ذلك ولا تفقد نفسها ! !

الانفتاح فى بورسعيد

فتح الرئيس السادات باب الانفتاح . . وأصبح الوضـــع مختلفـا . . واسوق الدليل هنا من بورسعيد . .

ماذا حدث فى بورسعيد . . ولها . . مع سياسة الانفتاح ؟

بورسعيد مدينة ساحلية بموقعها . . ومعـروف أن « السـواحلية » أنشط . . وأكثر قدرة على الحركة . . وأسرع من غيرهم . لأنهم يحتكون بالأجانب . . كما أن السفن القادمة إلى موانيهم والذاهبة منها ، مرتبطة بتوقيتات معينة . . الأمر الذى يعـطيهم خفـة فى الحـركة . . وسرعة فى التفكير وسهولة فى المعاملة . . وتجدهم يتعاملون بشرف وأمانة . . وهـم دائما عند كلمتهم . .

وأتذكر عندمـا عينت وزيرا للتعمير . . جـاءنى مـن يقـول لى : إن بورسعيد مدينة متعبة . . وان التعامل معها ليس سـهلا . . لقـد واجـه أهلها نظام الحـكم السـابق وهـو فى أوج عظمته . . ولم يترددوا فى أن يسألوه . . أين الأرز ؟

ولكن تجربتى مع أهالى بورسعيد أثبتت عندى عكس ما سـمعته ، فأنجزت أول أضخم إنجازات وزارة التعمير فى بداية عهدها هناك . . ولم أختلف مع أهلها حتى ولو مرة واحـدة . . فهـم دائمـا على مسـتوى المسئولية . . وقـادرون على تنفيذ مـا يطلب منهـم . . وفى أى وقـت . . ومهما كانت صعوبة الجهد . .

وكان وما يزال اقتناعى . . أن بورسعيد نافذة رخاء هامة جـدا . . ليس لمصر وحدها . . ولكن لأفريقيا من ورائها . . والمنطقة العربية مـن حولها . .

وعندما أصدر الرئيس السادات قرار تعيينى وزيرا . . ناقش معـى رغبته فى ان يجعل من بورسعيد منطقة حرة ، لكى يعيد إليهـا حيويتهـا التى افتقدتها . . لذلك وضعت هذا الموضوع فى مقدمة المسائل التى كانت تسيطر على تفكيرى فى ذلك الوقت .

وسافرت خصيصا إلى فرنسا لهذا الغرض . . لكى أتعرف هناك . . وعلى الطبيعـة على المدينة السـاحلية التى تحـولت هناك إلى منطقـة حرة . . وبهرتنى كثيراً . .

وقمت بارسال بعثات إلى بلاد اخـرى ، لديهـا مـدن شـبيهة ببور سعيد ، حولتها إلى مناطـق حـرة . . ومـن بين هـذه الدول سنغافورة . .

وكان أن زرت قبل أن أعين وزيراً للتعمير العديد من المناطق الحـرة فى العالم . . منها البحرين . . وهونج كونج . .

وفى الوقت الذى كانت تشغل بالى بور سعيد فى كيفية تحـويلها إلى منطقة حرة . . كانت الدراسات على اشـدها فيمـا بين آراء تطـرح . . وأبحاث تجرى . . وأساتذة يبعثون بالنصيحة . . وظل الحـال على هـذا المنوال ، منذ عام ١٩٧٤ إلى نهاية عام ١٩٧٥ .

وكان أن سـألنى الرئيس السـادات عن الراى الذى انتهيت اليه فى مسألة تحويل بور سعيد إلى منطقة حرة . .

قلت للرئيس : إنه بالطـريقة التى يريدهـا الخبراء فلن تتحـول بور سعيد إلى منطقة حرة قبل مائة عام من الآن . . أمـا إذا أردنا حـلا عمليا وسريعا فليس هناك من سبيل سوى أن نغلق الطريق أمام كل هذه الاجتهادات .

سألنى : كيف ؟

قلت : بأن نعلن بأن المدينة قد أصبحت منطقة حرة . . ونقيم بوابات على مداخلها . . على كل بوابة نقطة جمارك . . كل ما يخرج منها لابد أن يخضع لقانون الجمارك . . وكل ما يدخلها . . فهـو بعيد عن تطبيق هـذه القوانين .

وبعبارة أخرى فان جميع ما يدخل إلى بور سعيد من سلع ومنتجات من مختلف دول العالم لا يخضع للجمارك تحت أى سبب من الأسباب . . ولكن كل ما يخرج من هذه السلع والمنتجات من المدينة إلى باقـى مصر لابد أن يطبق عليه قانون الجمارك . .

وفعلا تم تنفيذ هذا الراى . . واقيمت نقط للجمارك على منافذ المدينه .

ولك أن تحكم الأن بعد زيارة سريعه لبور سعيد على مدى ما وصلت اليه . . وما حققته والذى تعطيه الآن لمصر كلها . .

وعندما طرحت على الرئيس هذا الراى . . لم أطرحه من قبيل الاجتهاد . . ولكن كنت اعرف أنه بمجرد الاعلان عن أن بور سعيد مدينة حرة ، ستصبح هدفا لكل رجال الأعمال من مصر إلى خارجها . . وعندما تصبح هدفا ستكون محورا للتجارة . . ومركزا للصناعة . . وكلا الامرين ، لا نتيجة لهما إلا . . انتعاش للمدينة ولأهلها . . ثم إنها ستصبح بعد ذلك هدفا لشعب مصر كله ــ يذهب اليها لعله يجد ما يحتاجه فيها . .

ثم تعود الحيوية والحياة إليها بشكل تلقائى . .

وهنا نتساءل : ترى لو أن بور سعيد لم تصبح مدينة حرة . . فهل كان سيصبح حالها كما هو الآن ؟ وترى لو أن مصر ما تزال تسير على القوانين « إياها » والمبادىء المستوردة التى عانيناها . . هل كانت بور سعيد ستحقق إنطلاقتها . . وترى لو كنا مازلنا نكبل رجال الأعمال بسلاسل الاشتراكيه . . فهل كانت جهودهم ستنطلق إلى بور سعيد ؟ !. .

ولكن الحمد لله . . لقد نجحت سياسة الانفتاح ، لأنها تتفق مع طبائع البشر ، ولا أفهم الانفتاح إلا على أنه حركة ونشاط ، ورواج فى البلد كلها ، نتيجة مزيد من الانتاج ، وزيادة فى فرص العمالة . .

الانفتاح للجميع

وفتح الباب على مصراعيه لكل الناس . . ولكن لم يدخل منه إلا كل من يعمل عملا حرا . . سواء كان هذا العمل زراعيا . . أو صناعيا . . او حرفيا . . أو تجاريا . . ودخلت معهم فئه من موظفى الحكومه والقطاع العام . . تلك الفئه التى رفضت أن تظل حبيسة الدرجة والترقية . . وكل هذه الأمور لا يمكن أن تمثل منتهى سياسة الانفتاح . .

ولكن لابد أن يكون الانفتاح للجميع وبالجميع . . وأن يكون الانفتاح

لصالح المواطن الذى يعانى قبل المواطن الذى يستطيع . .

كيف ؟

مثلا عندما نتحدث عن الاسكان . .

نجد فى بلدنا المواطـن الذى لا يسـتطيع أن يبنى لنفسـه شـقه . . والمواطن الذى لا تمكنه إمكانياته من أن يدفـع الايجـار الباهـظ لتلك الشقه . . هذا النوع مـن المواطنين لابد أن تسـاعده الدولة فى أن يجـد المسكن المناسب له عن طريق دعم الاسكان الشـعبى وإيجـاد مسـاكن الاسكان المتوسط . . الذى يلائم الفئه التى تستطيع أن تتحمل تبعاته . . أما الشقه الفاخره التى يستطيع أن يدفع إيجارها كل من يسـكنها لابد أن يساهم أصحابها فى دعم الاسكان الشـعبى والمتوسـط عن طـريق تحديد نسبه ١٠٪ أو ١٥٪ من ثمن الشقة . . توجه إلى الاسكان الشعبى لكى يتم البناء بها لغير القادر . . بالتأكيد لن يعجز من يدفـع مـائة ألف جنيه عن أن يدفع زيادة فى الثمن مقدارها عشرة آلاف جنيه وبذلك نأخذ ممن معه لندعم من ليس معه . . وبذلك نجـد حـلا لمشـكله الاسـكان بالتدريج ، دون أن تتدخل الدوله إلا فى التخطيط فقط . . ودون أن تتحمل أو تحمل نفسها مزيدا من الأعباء . .

*

وهناك أيضا الاجراء الذى يجب أن يتقدم كل الاجـراءات . . وهـو قانون ضرائب سليم يستطيع أن يعبر بحـق عن أنه أداة لتحقيق العـدل الاجتماعى . . بأن نأخذ من القادر ، لكى نعطى المحتاج . . لأنه مواطن له حق على بلده . . ولابد أن توفر له حداً أدنى من الحياة الكريمة . .

كما أن نفس القانون يصبح فى نفس الوقت وسيلة المجتمـع لتحقيق التوازن فى عمليات التنمية . .

ولكى يصبح قـانون الضرائب قـادرا على أداء الدور المطلوب منه ، لا يجب أن يترك أمر أعداده لمجموعه مـن الفنيين الذين يعتمـدون على ما قرأوه مـن نظـريات وأفـكار . . ولكن لابد أن يأخـذ فى اعتباره رأى الطرف الأساسى ، فى تطبيق هذا القانون ، وهـو الممـول الذى يجـب أن نعود اليه ونناقشه فى هذا القانون . . ونستأنس برأيه حتى ولو لم نأخـذ

به . . ولكن لابد أن نخلق جو الثقة المتبادلة ، بينه وبين الضرائب كقانون وجهاز . .

وإذا نجحنا فى التوصل الى قانون ضرائب متوازن . . نستطيع عن طريقه أن نحقق الانسجام الطبيعى اللازم داخل المجتمع عندما نوجه ما نحصل عليه من ضرائب الى حل مشاكل الدولة ، وعلى رأسها مشكلة مجموعة الموظفين وعمال القطاع العام وهم الفئة الوحيدة التى تحتاج الى رعاية حقيقية من الدولة . .

وعندما أتحدث عن قانون الضرائب المتوازن . . فمن واقع تجربتى الشخصية . . والتى أسوق من واقعها المثال التالى . .

لقد بدأت نشاطى فى مدينة الاسماعيلية . . وعندما اتسع نشاط الشركه نقلت مقرها الرئيسى إلى القاهرة . . وعقب ذلك طلبت نقل محاسبتى ضريبياً من الاسماعيلية الى القاهرة . . وطلبت من مصلحة الضرائب فى الاسماعيلية أن تحاسبنى حتى نهاية سنة ١٩٥٤ « لقفل » حسابى هناك . . ولأبدأ من جديد فى القاهرة . .

واستغرقت عمليه الاجراءات أكثر من سنة كاملة . . وعندما ضقت بتصرف مصلحة الضرائب ، ذهبت إلى المسئول فيها ، لأعرف سبب عدم حسم هذا الموضوع رغم مرور كل هذا الوقت . .

فقال لى : نريد منك أن تدفع مبلغ ثمانية وثلاثين ألف جنيه أخرى بالاضافة إلى ما دفعته حتى نستطيع أن « نقفل » حسابك . .

ورغم معرفتى أن هذا الرقم أكبر بكثير مما هو مطلوب منى . . لم أجد مفرا من أن أقول له أنا موافق .

وكان دافع موافقتى اننى لست على استعداد لأن يضيع وقتى مع الضرائب . . وورائى من أعمالى ما هو أهم . . وبالتأكيد . . هذا منطق كل رجل أعمال . .

وذهل رجل الضرائب من استجابتى بلا أدنى مناقشة . . ولما حاولت معرفة سبب ذهوله فيما بعد . . قال لى :

لقد قدرنا هذا الرقم . . لكى تبدأ من عنده المساومة . . لأننا نفترض

فيك ألا تعترف به . . وبعد المفاوضات نستطيع أن نحصل منك على الرقم الحقيقى الذى ينبغى أن تدفعه ! ! .

وكل ما حدث فى مثل هذه الواقعة . . أن الثقــة منعــدمة بين الممــول ومصلحة الضرائب . . وانعدام الثقة لابد وأن تكون له نتائج سيئة . .

لذلك لابد من بناء الثقــة بين مصــلحة الضرائب والممــول ، كشرط أساسى لكى ينجح قانون الضرائب فى تحقيق الهدف الكبير منه . . بعد أن أصبح ليس وسيلة لجمع المال . . ولكن أداة لتحقيق التوازن فى المجتمــع بكل ما تشمله الكلمة مــن معنى ، ســواء فيمـــا يتعلق بتشــجيع الانتاج أو حصول الدولة على حقوقها من القادرين ، ومساعدتها لغير القـــادرين من بين أبنائها .

إن مصر ليست فقيرة . . فهى من أغنى دول العالم . .

ولكن إمكانياتها فى حاجه الى تنظيم . . تنظيم ليس اكثر . . لأن فقر مصر مفروض عليها وليس سمة من سماتها . .

* * *

لما كان الانفتاح هو إعادة صياغة جديدة للحياة الاقتصادية . . فلابد أن تحدث أثناء عملية إعادة الصياغة « خلخلة » لابد منها . .

وفى مثل هذه الظــروف لابد أن تطفــو على الســطح ظـــواهر غير طبيعية . . لا يصح أن نأخذ منها مقياسا للأمور فنعمم نتائجها مع أنهـــا عرضية . . من هذه الظواهر مجموعة تستطيع أن تحقق غناء فـــاحشا فى سرعة مذهلة . . فكما أن للحروب . . تجـــاراً . . فـــلابد أن يكون للســـلام تجار . . وايضا للانفتاح تجار . .

ومن هذه الظواهر أيضا الاقبال على النواحى الاستهلاكية بشـــكل كبير . . وهذا أمر طبيعى أن يحدث بعد طول حرمان . .

ولكن عندما تستقر الأمور . . وتمر هذه الفتره . . لن نجد الغــش . . ولا يستطيع الاستمرار الا ما هو ثمين . .

ويعود التوازن مرة أخرى . . وتبدأ الحياة فى السير طبقا للمفـــاهيم الجديدة . . والصياغة الجديدة وكم كانت سعادتى بعينة من عمـــال مصر تفتحت عيونهم لترى من جديد الطريق السليم الذى تسير فيه بلادهم بعد

أن رفعوا العصابة التى كان العهد البائد قد وضعها فوق عيونهم .

زارنى مجموعة من عمال مصر العمالقة فى حلوان يحملون لى شكوى من بعض الأمور التى تضايقهم فى شركتهم . .

سألتهم :

هل شركتكم قطاع عام أو أنها كانت قطاعا خاصا ثم تم تأميمها ؟

قالوا لى : لقد كانت قطاعا خاصا

قلت : ماذا كان موقفكم عندما تم تأميمها ؟

قالوا : وزعنا الشربات . .

قلت : والآن ما هو رايكم ؟

قالو : نحن نلعن اليوم الذى أصبحت فيه الشركة قطاعاً عاماً . .

قلت : لماذا ؟

قالو : لقد ضحكوا علينا . . وبحثنا عن أى شىء مما قالوه لنا فلم نجده . . ويكفى أن نقول لك أن زملاءنا فى القطاع الخاص أحسن منا حالا من جميع النواحى ـ ونتمنى أن يأتى اليوم الذى تعود فيه الشركة إلى القطاع الخاص مرة أخرى . .

قلت : لماذا هذه الأمنية ؟

قالوا : إن الشركة قد انهارت . . وتسير من سيىء إلى أسوأ . . ونحن معها ولكن لو كان قد تولى أمرها صاحبها . . لسار بها من حسن إلى أحسن . . ونحن معها . . وما كان حالنا هو الحال الذى وصلنا اليه الآن . . ليتهم ما كانوا قد أمموا هذه الشركة . . ولكن كانوا اكتفوا فقط بأن يضعوا لنا القوانين التى تحفظ حقوقنا . .

وهؤلاء العمال على حق فى كل كلمة قالوها : لقد عرفوا الحقيقه . . وإكتشفوا بأنفسهم الخدعة . . إن التأميم لم يكن لصالحهم . . ولكن لصالح من كان يحكمهم . . لأن صالحهم ليس فى التأميم ، ولكن فى قوانين تحمى حقوقهم ، وتنظم لهم مع صاحب المشروع علاقاتهم بالشكل الذى يؤمن مستقبلهم ، ويمكنهم من الحصول على العائد

المناسب لعرقهم وجهدهم . .

لقد كانت مصانعنا قبل التأميم تدار بأيد مصرية . . وعمالة مصرية . . ومهندسين مصريين . . وكانت صناعاتنا من أحسن الصناعات . . وانتاجنا أجود من مثيله الأجنبى . .

كان سيد يس رحمه الله ـ صاحب مصانع الزجاج رجلا مكافحا نجح فى إقامة صناعة زجاج ممتازة فى مصر . . كانت أكواب الشاى أو الماء التى تنتجها مصانعه من أجود الأصناف العالميه . . أين هى الآن ؟ . . وكيف أصبحت ؟ .

ذهبت وذهب معها . . ولكن بقيت هذه القصة التى أرويها ليعلم الجميع ان الأرزاق بيد الله سبحانه وتعالى . . ولا يستقيم الأمر ، إذا أخذ البشر توزيع الأرزاق على عاتقهم كما حدث فى مصر . . فرفعت البركة من الأرض . .

كان سيد يس صديقا لخالى . . وهو اكبر منى سنا وذات مرة سمعته يروى له هذه القصة :

قال سيد يس : قمت باستيراد مركب خامات زجاج من انجلترا . . وكانت الحرب العالمية الثانية فى ذلك الوقت على أشدها بين الحلفاء والمحور . . وكنت مؤمنا على الحمولة لدى إحدى شركات التأمين . . وأبلغت أن المركب غرقت فقامت شركة التأمين باستيراد حمولة بديلة للحمولة التى غرقت . . ووصلت الحمولة الجديدة إلى ميناء الاسكندرية . . وبعدها مباشرة وصلت المركب الأولى التى أبلغونى بأنها غرقت بحمولتها . . فقمت بسداد المبالغ التى دفعتها شركة التأمين من أجل استيراد حمولة جديدة واستلمت حمولة المركبين ! !

واستطرد يقول :

وكانت عمليات القرصنة البحرية على أشدها . . والأسعار فى تصاعد مستمر . . والمخاطر متوقعة فى أى وقت . . وكانت مصانعى فى حاجة شديدة للمادة الخام . . ولو كنت دفعت ملايين الجنيهات لكى تأتينى الحمولة الاضافية ما كنت حصلت عليها . . وكانت مصانعى قد توقفت . . وأصبحت خسارتى بالملايين . : ولكن الحمد الله الذى رتب

ما لا أستطيعه . . وأعطانى ما أحمده عليه . .

رجل مثل هذا الرجل لماذا يؤمـم ؟ وإرضـاء لمن ؟ . . وأين (كباية) يس الممتازة .

ليس وحده ولكن كل رجال الأعمال النين كانوا على شـاكلته وهنا أحب أن أقول : ليس هناك رجل أعمال لا يريد لشركته النجاح . . وليس هناك رجل أعمال يقف من السـلطة مـوقفا معـاديا . . ولا يسـتجيب لتعليماتها بمجرد الاشـارة إليه . . ولذلك لم يكن هـدفهم تأميم كل مـن لحقتهم تلك القوانين ، ولكن لكى يجدوا فى ذلك وسيلة تمكن قبضتهم من المواطنين والعمال . . فأمموا هؤلاء حتى لا يجـد أحـد فـرصة عمـل عندهم . . وليكونوا هم المالكين لكل فرص العمل فيتحـكموا فى الناس . . ولا أفهم لماذا أخذ نظام الحكم السابق تلك المواقف من رجـال الأعمـال إلا فى ذلك الاطار وماذا كان يضير مصر لو سارت فى الطريق الذى تسير فيه الآن . ولكن كان الأمر سيضيرهم هم لأن التحكم فى أقدار الناس لن يكون بين أيديهم . . إنهم كانوا يستهدفون إحكام قبضتهم على الشـعب بالدرجة الأولى . . لأنه لو كان هـدفهم هؤلاء . . فـانهم ليسـوا بعيدين عنهم . . وقلبوا الآية وبدلا من أن يقولوا الحقيقه ، وأنهـم حـولوا مصر إلى سجن كبير ، قالوا إنهم يحرصون على الشعب ، ولم يقـولوا أنهـم أرادوا حبسه حتى يتاكدوا من بقاء كراسيهم .

ولكن الحمد لله . . تم عدل الصورة وأصبح الحال مختلفـا . . وأقمنا مشروعات ضخمة كبيرة وكثيرة زاد عددها عن مائة وخمسـين مشروعا سواء فى الاسماعيلية . . أو فى شركة المقـاولون العـرب . . أو فى نقـابة المهندسين . . أو لجنة التنمية الشعبية . . كل هذه الشركات مسـاهمات قطاع خاص بالكامل . . ولم تساهم فيها الحكومة بسـهم واحـد . . ولم تتكلف لها شيئا . . وهى بكاملها وليدة جهود مـواطنين مصريين أحبوا بلدهم فأعطوها . . وفتحوا آلاف فـرص العمـل أمـام أبناء وطنهـم ليحصلوا على عائد مناسب لعرقهم بعد أن فاتهم الكثير مع مـن أرادوا التحكم فى أرزاقهم . .

إن هذه الشركات فى مصر . . وبأموال أبناء مصر .. وعائدهـا لمصر

وإنتاجها لمصر . . لتوفير احتياجات الشعب . . ولتحقيق فرص عمالة لأبنائه .

إن هذه المشروعات دعوة لكل قرش ولكل مواطن فى مصر ، لأن يؤدى دوره فى خدمة بلده ورفاهية شعبه بعد أن سطع نور الفجر وإنقشع الظلام الذى حجب الرؤية عن هؤلاء . . فأصبحوا يرون بلدهم . . فرأتهم . . وراحوا يأخذون بيدها . . فأخذت بيدهم ، من أجل مستقبل أفضل لها ولهم . .

لقد شرفنى أن أرتبط بمصر ويرتبط اسمى بالعديد من إنجازاتها الوطنية الضخمة ومشروعاتها الجديدة ، التى لا أمتلك فى أى منها إلا سهما واحدا هو سهم الحب والعطاء .

* * *

لغز . . الانسان المصرى

ولذلك ، فمن أول قراءة لتجربة أربعين سنة كاملة منذ بدأت قدماى تطأن السوق كمقاول أستطيع أن أقول : مصر كبيرة بتاريخها . . مصر كبيرة بتراثها . . مصر كبيرة بنيلها . . مصر كبيرة بأبنائها . . كبيرة بكل شىء فيها . .

لقد خلقها الله سبحانه وتعالى . . وأعطاها مقومات النجاح التى مكنتها من أن تقيم أول وأعظم حضارة صنعها الانسان .

أقول ذلك لأننى وضعت يدى على عناصر قوة مصر . . وتعاملت مع كل من تعاملت معهم . . فى داخلها . . وفى خارجها على أساس من هذا الفهم . .

إذ قلنا إن مصر صاحبة تاريخ . . فإن هذا التاريخ لم يأت من فراغ . . ولكن بسبب ما أوتى الانسان المصرى من قدرات . .

إذن الانسان المصرى لديه ملكات خاصة . . إن لم نجدها ، فيجب أن نبحث عنها .

وإذا ما كانت عوامل التعرية والأيام قد أخفتها . . فلابد أن نظهرها . . ومن يستطع أن يفهم هذه الامكانيات . . ويتعامل معه على أساسها . . يستطع أن يحصل منه على الكثير . . ويستطيع أن يحقق

معه وبه المستحيل .

واعتقد أنه فى رايى أن اى مستحيل يمكن أن يصادفنا لن يرقى إلى المستحيلات التى صنعها قدماء المصريين . . وهى موضع دراسة العالم كله . . فمنها ما كشف سرها . . ومنها ما لا يزال غامضا أمامه ، رغم كل ما أحرزه الانسان الحديث من تطور .

ومن لا يفهم هذه القوة فى الانسان المصرى . . تلك القوة التى صنعت كل هذا التاريخ . . يكون قد فاته الكثير . . ويظل الانسان المصرى لغزا بالنسبة له . .

وكان عدم فهم كل من تولى أمر مصر لطبيعة شعبها سببا فى كل ما أصابها . .

فمن حكموها قبل نظام الحكم السابق ليسوا منها . . ولم يفهموا شعبها . . ونظام الحكم السابق . . أعماه تسلطه ، فلم ير أبعد من تحت قدميه . . فلم يبحث فى هذا الانسان ليعرف عظمته . . مع أنه كان كثير الحديث عنها . . تحدث عنها ولم يكتشفها . . ولم يتعامل معها . . فأضاع على الشعب فرصة ثمينة . . وفاته معه من عمره الكثير . .

ومع إن مصر بدات محاولات أخذ مكانها اللائق بها عقب ثورة ١٩٥٢ بشكل يمكنها من أن تحقق قفزات جريئة وسريعة على طريق الحضارة الحديثة لتعوض ما فاتها . . ولكن للأسف الشديد من تولى أمرها قصر نظره . . فلم يستطع أن يلمس عظمة الانسان المصرى . . أو يقف على ما بداخله من طاقات كامنة تحتاج إلى من يفجرها . .

وليس هناك من يستطيع أن يفجر طاقات الشعب المصرى كما علمتنى التجربة . . إلا إذا جاء اليه ومعه الحرية .

الحرية وحدها هى التى تخرج به إلى الآفاق الرحبة ليبدع . .

فالحرية هى المدخل الحقيقى الذى يوفر الأمن والأمان والاستقرار . . الذى يؤهل الانسان لأن يكون طبيعيا مع نفسه . . وأن يقترب من الآخرين ويقترب الآخرون منه . . يفهمونه . . ويفهمهم . . ويتعلمون الغوص بين لآلىء أعماقه . .

وكان غياب الحرية فيما قبل السبعينات سببا فى أن يفشل نظام الحكم السابق فى الوصول الى التمكن من إطلاق ملكات الانسان المصرى . . بالشكل الذى لمسته أنا فيه من واقع تجربتى معه على إمتداد اربعين عاما كاملة . .

الزراعة . . اولا

ويجب أن نتعلم من تاريخ مصر . . أن أول حضارة لها قامت على الزراعة . . لذلك كان يجب الا نهمل الزراعة . . والا ندير لها ظهورنا كما فعلنا طوال السنوات الماضيه . . فكانت النتيجة أننا نستورد معظم غذائنا من الخارج فى الوقت الذى يجرى فيه بين ربوع بلادنا نهر النيل العظيم الذى قال عنه المؤرخون « ماذهب اليه إنسان وخيب آماله أبدا » !

لذلك يجب أن نركز تركيزا أساسيا على الزراعة فى كافة صورها . . وعلى الانتاج الحيوانى على اعتبار أنه يقوم على توافرها . . حتى نحقق ما يكفينا من الانتاج . . ونصدر مايزيد عن حاجتنا . .

ولا يصح أن نكتفى بالوادى وحده . . ولكن يجب أن نذهب الى الصحراء أيضا لكى نحول وجهها الأصفر الشاحب الى لون أخضر تملؤه النضرة والحياة والحيوية . .

وإذا كان لنا أن نركز على الصناعات . . فيجب أن تحتل الصناعات الزراعية الصدارة . . الصناعات الزراعية بكل ما لهذه الكلمة من شمول . . ميكنة زراعية . . رى حديث . . بذور منتقاه . . الصناعات الغذائية بكل أنواعها . . صناعات الأسمدة . . وما إلى ذلك من كل ما يدور حول الزراعة ويتعلق بها من صناعات .

وما التجربة الرائدة التى نقوم بها لغزو الصحراء الا إتساق مع هذه الحضارة . . عندما رحنا نقيم مجتمعا زراعيا كبيرا فى صحراء الصالحية . . ونقيم مزارع الشباب التى اقمنا منهما مزرعتين نموذجيتين . . فى سيناء واحدة منهما على مساحة الف فدان كبداية لمزارع الشباب فى كل محافظة . . وقرية ميت أبو الكوم الجديدة . . ومشروعات النوبارية التى نخلق فيها مجتمعات جديدة لأول مرة يسكنها

شباب الخريجين . .

قد يقول قائل أن من سبقونا اتجهوا الى الصحراء . .

ولكن أقول له لم يعرفوا الطريق السليم . . وضلوا الوسيلة الحقيقية . . كان الأجدر بهم أن يستصلحوها ليزرعها الناس . . لأنهم أقدر على أن يخرجوا من بطن الأرض كل ما فيها . . ولكنهم راحوا يزرعونها بواسطة الدولة فأفسدوا القيمة الحقيقية التى يمكن أن تعطيها الأرض للانسان . .

ويجب أن نركز ايضا على صناعة البناء والتشييد وكل مستلزماتها وعلى راسها الاسمنت . .

إن اليونان التى لا يتجاوز عدد سكانها سبعة ملايين نسمة . . تنتج إثنى عشر مليون طن من الأسمنت . . بينما لا تنتج مصر إلا ثلاثة ملايين ونصف مليون طن مع أن تعداد سكانها يزيد على الاربعين مليونا ، ولديها العمالة اللازمة والمواد الخام المستعملة فى نفس الصناعة .

* * *

وجدنا الطريق

لقد بدأنا ويجب أن نستكمل مسيرتنا . . فان طريقنا سليم . . ويتضح لى ذلك مما علمته لى تجربتى كرجل أعمال . . أن راس المال جبان . . ولديه حساسية قوية . . وقدرة كبيرة على رؤية المستقبل . . ويسارع إلى أن « ينفد بجلده » مع أول بادرة يرى أنها تهدده . . ويقبل على الاستقرار كلما يشعر بالأمن والأمان . .

بالأمس هرب راس المال ، وترك ميدان العمل . . ولم يساهم فى أى من المشروعات التى كان ينبغى أن يدلى بدلوه فى العمل فيها . . واليوم يقبل رجال الأعمال على مصر من كل مكان فى بلاد العالم . . عرب . . وأجانب . . وليس هناك مؤشر على سلامة الطريق الذى نسير فيه اقوى من هذا الدليل . .

لذلك اقول علينا أن نعتمد على الجهود الذاتية ومساهمات الأفراد .

إن الدولة ليست هى الحكومة . . ولكن الدولة هى المواطن الذى يجب أن تعطيه الحكومة فرصة كاملة دون أن تتدخل فى شئونه الا بالقدر الذى

يلزم لتدخلها . . إن المواطن هو مقياس تقدم الدولة . . ولا يبنى أى بلد فى العالم الا مواطنوها . .

إن لمصر مقومات تنفرد بهـا عن غيرهـا . . ولكن لا يمـكن لهـذه المقومات أن تؤدى ثمارها الا إذا توفر شرط ضرورى هو الحرية والأمن والأمان الذى يبحث عنه رأس المال . . أى رأسـمال فى أى مـكان مـن الدنيا . .

وعندما يجد رأس المال سواء المصرى أو الأجنبى الأمـان فى مصر ، كما يجده فى الدول الأخرى . . أو يجده فيهـا بدرجـة أكبر مـن أى دولة أخرى . . سنجده يختار بشكل تلقائى أن يأتى الى هنا نظرا لما تتمتع به بلادنا من ميزات لا توجد فى غيرها تجعل منها هدفا لكل رجال الأعمال ، مادامت تجد مشروعاتهم من يؤمنها لا من يؤممها . . وتتقدم اليد العاملة الرخيصة فى مصر كل هذه المميزات ، حيث هـى أرخص منهـا فى أى بلد أخر فى المنطقة أو غيرهـا . . ورأس المال يبحـث دائمـا عن العمـالة الأرخص . . ولن يجدها إلا فى مصر .

كما أن جو مصر الممتاز الذى لا تجده فى أى دولة من دول العـالم . . يمثل ميزة إستراتيجية بالنسبة لها . . فهى لا تعرف الحـرارة الشـديدة التى تعانى منها بعض البلاد خلال معظم فصول السـنة . . ولا تعـرف البرودة الشديدة التى تعانى منها بلاد أخرى .

كما أن مـوقع مصر ممتاز ، حيث هـى مـركز تلتقـى عنده جميع القارات . . يحتل ميزة أخرى . .

ويثبت هذا الرأى ما سمعته من عشرات رجال الأعمال الذين التقيت بهم . . أحدهم المانى ، ناقشنى فى رغبته فى أن يغلق مصـنعه فى بلاده . . وينشىء مصنعا بديلا له فى مصر . . وعندما سألته عن السبب . . قال لى : إن جوكم أفضل . . وأجوركم ارخص . . واى مـكان فى العـالم اريد ان اصدر اليه منتجاتى . . أو أريد أن استورد منه خاماتى . . سـأجده بين يدى . .

إلتقيت أيضا مع رجل أعمال أمريكى . . ناقشنى فى رغبته فى أن يقيم

مصنعا للقمصان الجاهزة فى مصر لكى يصدره الى أمـريكا نفسـها . .
ولما سألته عن السر . . قال : أعددت دراسات جدوى اقتصادية مقارنة . .
ودراسات جدوى للمشروع عندمـا يقـام فى مصر . . على أنه سـيصدر
لأمريكا . . ودراسات جـدوى للمشروع فى أمـريكا . . على أنه سـينتج
لها . . ووجدت أن العملية الاقتصادية اذا تمـت فى مصر ، فـان العـائد
سيكون أكبر . . وسعر القميص سـيكون أرخص بالنسـبة للمسـتهلك
الأمريكى ذاته . .

وفاتحنى رجل أعمال ثالث فى أن يقيم مصنعا للملابس الجـاهزة فى
مصر . . وسألته : لماذا اخترت مصر بالذات ؟

أجابنى بكلمة واحدة ، هى : الاستقرار

وهذه الأمثلة الثلاثة ما هى إلا عينة عشوائية من أمثلة كثيرة . .

السلام . . والبناء

ثم لا يصح أن ننسى ما نتج من آثار إيجابية عميقة وكبيرة عن دعوة
مصر للسلام . . ونبذها للحرب كوسيلة لحل الخـلافات . . فـوق أنهـا
دعمت ثقة العالم فيها . . وكسبت احترامه لها . .

فبالسلام إلى جانب الحرية والاستقرار والأمان نسـتطيع أن نبنى
بلدنا . . خاصة إذا علمنا أن ثمن الطـائرة وصـل الى اثنين وسـبعين
مليون جنيه . . فى الوقت الذى أقمت فيه مصنعا للمنتجـات الزراعية . .
والمشروبات الغازية . . واللحوم . . وهو مصنع كبير جـدا . . ولم تتعـد
تكاليفه ستة ملايين جنيه . . أى إن ثمن طـائرة واحـدة يقيم اثنى عشر
مصنعا مثل هذا المصنع . .

وعلى طريق السلام ، قابلنى رجل أعمال أمريكى اسمه « كندل » من
ولاية داكوتا الأمريكية . . جاء الى مصر ليلتقـى بالرئيس السـادات . .
وليعبر عن إعجاب الشعب الأمريكى به . . وبمصر معه فى ظل السلام . .
ويبدى اسـتعداده لكى يسـاهم فى أية مشروعات تقيمهـا مصر سـواء
برأسماله أو خبرته فى مجال أعماله .

المعركة الخضراء

اعتذرت فى نوفمبر سنة ١٩٧٦ عن الاستمرار فى العمل الوزارى . . وأنا راضى النفس . . ومستقر الضمير . . وهادىء البال . . بعد أن انجزت المهمة التى كلفت بها على أكمل وجه . .

عمرت منطقة القناة من بور سعيد إلى الاسماعيلية . . وأعيد أهلها إليها . . وعادت الحياة الطبيعية فيها . . بعد أن تخلصت من كل ما تعرضت له من دمار .

وعدت إلى حيث بدأت . .

عدت إلى منزل العائله فى ٣٤ شارع عدلى بالقاهره عائلة « المقاولون العرب » بعد أن نفذت بها وباسمها هذا التكليف الوطنى الكبير . .

وجلست فى مكتبى اراجع نفسى . . وأعيد ترتيب أفكارى وتنظيم أوراقى .

وكنت قبل تولى المنصب الوزارى مقاولا يسعى وراء رزقه . . ورزق كل أفراد عائلته الكبيرة . . من هذا المنطلق كنت اطرق كل الأبواب من أجلهم . . ومن أجل البحث لهم عن العمل فى أى مكان . . سواء فى الداخل أو الخارج .

ولكن اعتبرت تولى هذا المنصب تكريما من الدولة لى . . وكان على أن أحتفظ بقيمة هذا التكريم . . خاصة أننى توليت هذا المنصب فى أكبر دولة عربية . . لذلك قررت أن اترك هذه المهمة لشركة « المقاولون العرب » . . تمارسها سواء فى مصر أو فى المنطقة العربية . . خاصة أنها أصبحت كيانا كبيرا . . وقادرة على أن تتحمل مسئولياتها كاملة وحدها

دون حاجة منها الى . . بعد أن مكنت لها فى كل مكان . .

عشرون مليون دولار واعتذرت عنها

وأنكر فى ذلك الوقت أن جميع الأخوه العرب فى الدول العـربية التى عملت بها من قبل ، قد ارسلوا لى يعرضون على أن اذهـب الى بلادهـم لمباشرة أعمالى عندهم . . فمنهم من أراد تكريمى ومنهـم مـن فهـم أن خروجى من الوزارة كان بسبب عدم رضاء على . . فـأراد ان يقـف إلى جوارى . .

ومن بين هؤلاء من أرسل لى عن طـريق وزارة الخـارجية . . حيث فوجئت فى يوم من الأيام كما سبق وذكرت باسماعيل فهمـى يحمـل لى رسالة كريمة من رجل كريم هو الشيخ خليفه حاكم قطر يعرب فيهـا عن رغبته فى أن أقبل العمل معه هناك . .

وفوجئت أيضا برسالة من رجل شهم أصيل . . هـو الشـيخ سـعد العبد الله ولى العهد ورئيس وزراء الكويت . . تفيد الرسالة أن سموه قام من تلقاء نفسه ، باسناد عملية إنشاء مدينة عسـكرية كبيرة ، فى الكويت إلى عثمان أحمد عثمان شخصيا ، دون علمـه . . ودون أن تطـرح هـذه العملية فى عطاء كما هى العادة فى مثل الأعمـال الكبيرة . . وخـاصة فى الكويت حيث يطرحون اى عملية صغيرة أو كبيرة فى عطـاء مهمـا كانت الظروف أو الأسباب . .

وكانت قيمة تلك العمليه تسعين مليون دولار ولا تقـل أرباحهـا عن عشرين مليون دولار . . لا تدخل جيبا الا جيب عثمان أحمد عثمـان دون أن يشاركه فيها أحد . . ودون أن يلوك إسمه لسان اى أحد . .

اعتذرت عن تنفيذ هذه العملية الكبيرة التى أسندت لى شـخصيا . . وفضلت أن تسـند إلى شركة المقـاولون العـرب . . وطلبت مـن أبنائى الذهاب إلى الكويت ، وإنهـاء كل مـا يتعلق بالعملية مـن إجـراءات . . والتعاقد باسم شركة المقـاولون العـرب ، دون أن يطـرأ ذكر اسـمى إطلاقا . .

وقبل ذهابهم بيومين ، انتقل الشيخ الصباح حاكم الكويت إلى رحمة

الله ، وتولى من بعده الشيخ جابر الأحمد . . وتولى الشيخ سعد العبد الله منصب رئيس الوزراء . . وكان يشغل منصب وزير الدفاع عندما أسند لى هذه العملية . .

وبينما كان مشغولا بمسئولياته الجديده . . كان وفد « المقاولون العرب » قد أنهى كل الاجراءات . . وبدأوا فى تنفيذ العملية . .

ورفعوا فوق المواقع « لافتات » المقاولون العرب ، التى تلازمهم فى كل مكان يذهبون اليه .

وبعد فترة . . تنبه الشيخ سعد العبد الله إلى أن « المقاولون العرب » هى التى تقوم بتنفيذ العملية . . وليس عثمان أحمد عثمان بصفته الشخصية . . وأرسل لى رسولا خاصا يبلغنى أنه لا يريد « المقاولون العرب » . . ولا دخل له بهم . . ولكنه يريد عثمان أحمد عثمان .

فقلت لرسول سموه إننى أشكر الشيخ سعد على مشاعره الكريمة والكبيرة نحوى وأحييه وإذا كنت قد أسندت إلى « المقاولون العرب » التنفيذ . . فذلك لأننى المسئول عنها . . وعن التزامها بدقة الموعد . . وجودة التنفيذ . .

أما نبل أخلاق سموه ، فسيظل يطوق عنقى مدى حياتى . .

* * *

اين نحن الآن ؟

وكان أن فاتحنى الرئيس السادات فى أمر أن أتولى الاشراف على الأمن الغذائى فى الدولة وكنا فى ذلك الوقت قد بدأنا تجربة رائدة فى الاسماعيلية لم تكن قد إتضحت أبعادها بعد وإن كنت قد واصلت السير على طريقها فيما بعد ومن وقتها وحتى الآن وإلى الغد إن شاء الله . .

ولبداية هذه التجربة قصة :

كان أول مشروع فكرنا فى إنشائه فى الاسماعيلية مع بداية عهد الانفتاح سنة ١٩٧٤ ، هو مشروع إنشاء شركة نقل على إعتبار ما للنقل من أهمية حيوية ، كبداية لأية مشروعات . . كان ذلك فى بداية تجربة الانفتاح الاقتصادى . .

ولم تكن الناس قد أمنت بعد بالفجر الجديد الذى هــل على مصر . . ولأن ما أصابها وأصاب مصر معها ، فى فترة مــن الفترات ، كاد أن يقتل الحافز والدافع عندها . .

لذلك استغرق تكوين هذه الشركة حوالى عامين ورغم كل علاقـــاتى مع الناس ورغم ثقتهم الشديده فى . . إلا أننى وجدتهم جميعــا محجمين عن الاشتراك فى أى مشروع . .

ولم يكن المطلوب منهم وقتها أكثر مــن ثلاثين ألف جنيه هـــى بداية راسمال الشركة .

جمعــــت ثلاثين الف جنيه « بطلوع الروح » فى بداية التجـــربة . . واستغرقت منى مهمة إقناع المساهمين عامين . .

وجمعــت خمســـين مليون جنيه راس مـــال البنك الوطنى للتنميه الشعبية فيما بعد فى اقل من يومين . . ولم اجمع راس مــال هــذا البنك وحده ولكن مئات الملايين غيره التى هى مجموع رءوس أموال الشركات الجديدة التى نحن بصدد إنشائها من أجل بناء مســتقبل افضــل لبلدنا واولادنا .

بل الأكثر من ذلك أننى نجحت فى ان أجمع فى جلسة واحدة خمســة ملايين جنيه مساهمات من المواطنين فى مشروعات هى لخير بلدهـــم . . وتكرر . . ويتكرر ذلك الموقف باستمرار .

وأكتفى هنا لكى اترك للقارىء يستنتج وحــده . . كيف كنا . . وأين اصبحنا ؟

وليجيب بنفسه على سؤال . . هل نحن على الطريق الصحيح ؟ ؟ !

وبعد أن اصبح لدينا اسطول النقل . . كان علينا أن نبدأ بعــد ذلك فى تنفيذ مختلف مشروعات الأمن الغذائى التى نخطط لانشائها .

وكان أول مشروعاتنا . . شركة كبيرة للدواجن . . لأن ازمة اللحــوم كانت قد استفحلت فى مصر فى ذلك الوقت . . وأصبحت « الفراخ » بالذات نادره « لاتباع الا فى الجمعيات الاستهلاكية » وبكميات قليله . . تتزاحــم عليها طوابير المواطنين . . فمنهم من يحصل على « فرخة » ومنهـــم مــن يضيع وقته وجهده . . ويكتفى بأن يراهـــا فى يد مــن اشـــتراها . . ولأن

مشروعات الدواجن ذات إنتاج سريع ، عن أية مشروعات لحوم أخرى . . حيث أن دورة إنتاجها لا تستغرق اكثر من أربعين يوما . . لذا قمنا على الفور باجراء الدراسات الاقتصادية للمشروع ونفذناه . . ونجحت الشركة وأصبح إنتاجها ليس لأبناء الاسماعيلية وحدها ولكن لأبناء مصر كلها . . وبسعر فى متناول الجميع . .

وكان لمعدات تلك الشركة قصة عندما استوردت الدولة معدات كبيرة .

وظلت هذه المعدات فى صناديقها على طريق مصر / اسكندرية لا تجد من يسأل عنها لمدة تصل إلى العامين . .

وعندما علمت بأمر هذه المعدات . . ذهبت إلى وزير الزراعة . . وناقشته فى أن تستخدمها شركة دواجن الاسماعيلية ، وعرضت عليه أن تدخل وزارة الزراعة شريكا معنا فى هذا المشروع بقيمة هذه المعدات . .

ووافق الوزير ونقلنا المعدات إلى الاسماعيلية ، وإستخدمناها . . وأصبحت جزاء من مشروع منتج استفادت منه الدولة والمواطن بعد أن كانت المعدات ملقاة لا يعرف أحد ماذا كان سيصبح مصيرها . .

وأخذت الشركة بعد تكوينها على عاتقها أن تنمى فى أهل المنطقة حب تربية الدواجن وتسمينها . . لكى يجد كل بيت إحتياجاته من اللحوم وقت أن يريدها . . يجدها من إنتاجه دون أن يحتاج إلى شرائها . . وخاصة أننا استهدفنا تعزيز موقف الفلاح كمرب للدواجن نعتمد عليه كمنتج لها وليس كمستهلك للحومها . .

واقمنا أيضا مشروعا لانتاج البيض جنبا إلى جنب مع مشروع التسمين . .

تكامل المشروع

بدأت شركة الدواجن فى إعطاء إنتاجها . . ولكنها وجدت نفسها تحت رحمة إمبراطورية التجار ، هى والمستهلكين معها . . عندما بدأ التجار يتحكمون فى أسعار منتجاتها ويضعونها والمستهلكون معها . . بين فكى كماشتهم . .

راحوا يبخسون الشركة حقها . . حيث هي مضطرة لأن تبيع مالديها من إنتاج . . بعد أن أصبح جاهزا للاستهلاك . . وليس هناك من مشتر للكميات الكبيرة إلا التجار الذين تحالفوا من أجل أن يشتروا إنتاجها بأرخص الأسعار . . ولا طريق أمامها الا ان تبيع لهم . .

لذلك كان لابد أن تخضع لشروطهم ، ولم يكتف التجار بذلك ولكنهم راحوا يستكملون دورة استغلالهم لتنتهى عند المستهلكين الذين يبيعون لهم . بالسعر الذى يفرضونه عليهم .

كانت تتولى الشركة عمليات التربية من الألف الى الياء . . ولا تحصل إلا على أقل القليل .

ويدفع المستهلك « دم قلبه » ، ويستنزف جيبه مع أن المشروع أنشىء من أجل توفير هذا النوع من الغذاء له . .

وكأن كلا من الشركة والمستهلك يعمل لحساب التجار ؟

وتخلصنا من ذلك الموقف عندما إستوردنا مجزراً آليا ، يقوم بذبح إنتاج الشركة من الدواجن . . وكان لابد لنا من أن نحفظها لكى نحتفظ بها ، لنبيعها فى الوقت المناسب ، وبالسعر المناسب ، حتى نفوت على التجار أغراضهم . . فأنشأنا شركة التبريد . .

وإستفادت الاسماعيلية والمنطقة كلها ، من إمكانيات شركة التبريد ، فى مجال كل احتياجاتها . . ومنها الثلج . .

وحرصت على أن تكون طاقة شركة التبريد كبيرة ، تخدم كل مايقام من مشروعات فى المنطقة . . لذلك عندما أنشئت شركة الاسماعيلية ، للمنتجات الزراعية أصبح إنتاجها فى مأمن من أن يتعرض لأية مخاطر ، بفضل شركة التبريد . .

التنمية الزراعية

كما قررنا إنشاء شركة الاسماعيلية للتنمية الزراعية التى تقوم بزراعة عشرين ألف فدان . . تنتج الخضراوات التى تحفظها فى الثلاجة . . لكى تباع فى الأسواق فى الوقت المناسب حتى لا نتعرض لتحكم تجار الخضراوات فى إنتاجنا ، وحتى لا نعيد تجربتنا مع تجار

الدواجن . . تلك التجربة التى أطلت علينا برأسها من جديد ، عندما أردنا أن نبيع أبقار التسمين ، التى قمنا بتربيتها فى شركة التنمية الزراعية لتنمية الثروة الحيوانية . .

أنشأنا مشروع تسمين الماشية . . وبدأ المشروع فى إعطاء إنتاجه . . ووجدنا أنفسنا مرة أخرى بين يدى التجار . .

وخضعنا لشروط التجار الذين فرضوا علينا الأسعار التى تريحهم . . مرة واحدة . . ولكن بعد ذلك قمنا باستيراد مجزر آلى . . يذبح العجل ، ويمكننا من أن نستفيد بكل شىء فيه ، إلا النفس فقط فهو الذى يذهب هباء . . ثم نضعه فى الثلاجة لنبيعه فى الوقت المناسب . .

زراعة الأسماك

واقتحمنا أيضا مجال تربية الأسماك ولهذا المشروع قصه . .

زارنى أحد رجال الأعمال الأمريكان فى مكتبى وأثناء زيارته سألنى :

ما هى المشروعات التى تهتمون بها ؟

قلت : مشروعات الأمن الغذائى . .

قال : وهل من بين هذه المشروعات مشروعات لتربية الأسماك .؟ .

قلت . . نحن نقوم بتربية الدواجن . . وتسمين الماشية . . وإنتاج البيض . . أما الأسماك فنكتفى باصطيادها . .

قال : إن مشروعات تربية الأسماك من أفضل المشروعات . . وإذا كنتم تعتبرون أن إنتاج الدواجن سريع . . فإن إنتاج الأسماك أسرع . . وتكاليف مشروعاتها أقل . .

وغادر ذلك الرجل مكتبى . . وبقيت الفكرة فى راسى . . وبادرت بالتحرك فى هذا الاتجاه . .

وقمت باتصالات مع أمريكا ودول أوروبا والصين . وبالدراسة المقارنة لمشروعات تربية الأسماك فى مختلف دول العالم . . ثبت لى أن الصين تتفوق فى هذا المجال عن غيرها . .

ولم أنتظر . . وبادرت بالاتصال بالصين واتفقت معها . . وأرسلت لنا خبراءها فى هذا المجال . . وقمنا بانشاء شركة لتربية الأسماك . .

والحمد لله بدأ إنتاجها . . وهو وفير . . ورخيص . . ونجحت التجربة التى سنقوم بتعميمها فى مصر كلها . .

واستجاب اولادى

ولم تقف التجربة الجديدة التى بدأتها عند حد الأربعة عشر مشروعا التى اقيمت فى الاسماعيلية وحدها .

فاذا ما كانت الاسماعيلية بلدى التى بدأت منها . . فان « المقاولون العرب » هى أحلامى التى جسدتها .

لذلك اتجهت الى أبنائى فى الشركة ، استحثهم على الاشتراك فى مشروعات تنتج فى مصر .

إننى أعرف أن دخولهم مرتفعة . . وأعرف انه لدى كل منهم من صغيرهم الى كبيرهم ، فائض من عائده ، الذى حصل عليه نتيجة عرقه وعمله . .

وبدأت على الفور معهم . . وساعدتهم . . ويسرت لهم السبل . . وأعطيتهم من خبرتى كل ما مكنهم من أن يقيموا بمدخراتهم خمسة وعشرين شركة . . يعمل معظمها فى مجال الأمن الغذائى . .

وتركزت معظم هذه المشروعات فى الاسماعيلية التى أصبحت منطقة يرتادها الذين يحجون اليها من مختلف دول العالم . .

وتبين لى أن كل من يقصد الاسماعيلية من رجال الأعمال الاجانب يذهب اليها مع بداية النهار . . ويغادرها عند آخره ، لأن فنادق الاسماعيلية غير مناسبة لمبيتهم ، الأمر الذى يضطرهم الى الذهاب الى القاهرة كل مساء للمبيت فيها ، مع أن ظروف ارتباطاتهم تستدعى ذهابهم الى الاسماعيلية مرات أخرى ولأيام متتالية . .

كان هذا الأمر يتسبب فى مزيد من المعاناة لرجال الأعمال ، الذين يجب أن نوفر لهم كل سبل الراحة . . لذلك فكرت فى ضرورة انشاء شركة

سياحية ، وكان أول مشروعاتها فنبقــا ســياحيا كبيرا مــن الدرجــة الأولى . .

وحتى نتمكن من تحقيق تكامل مشروعاتنا أنشأنا شركة للتصــدير والاستيراد . . لتولى تصدير منتجاتنا . . وتقوم باســتيراد احتياجــاتنا حتى لا نحتاج للغير فى هذا المجال . . وحتى لا نترك فــرصة لأحــد لكى يستثمر جهودنا ، ويســتفيد منهــا مــع أننا قــادرون على تنمية جميع قدراتنا ، بالشكل الذى يوفر الخدمة المناســبة ، لجميع مشروعاتنا فى كل المجالات . .

وسرنا فى نفس الطريق أيضا مع نقابة المهندسين . . عندما أضــفت الى دورهـا الاجتماعى ، دورا إنتاجيا لصالح أعضائها ومصر كلها ، من خلال المشروعات الجديدة التى قمت بتنفيذها .

كبرت هذه الشركات جميعا . . وكبرت الثقــة فيهــا . . ليس فى مصر وحدها . . ولكن عند الاجانب أيضا . .

وعندما أردنا أن نتوسع فى شركة دواجن الاسماعيلية . . جــاء الينا البنك الدولى ، يعرض رغبته فى أن يســاهم فى بعض شركاتنا . . دون أن نسعى اليه . . وعندما جاءنى مندوب البنك سألته عن سبب رغبتهم فى أن يساهموا فى شركاتنا ؟

قال لى : ان تجربتكم موضع اهتمام البنك . . ونحن مبهورون بها . . ومعجبون بالجهد الذى يبذل فيها . . لذلك قررنا أن نمنحكم قرضا قيمته سبعة ملايين دولار لكى تستثمروها فى هذه المشروعات ، حتى تتمــكنوا من تحقيق المزيد تلو المزيد ، من التوسعات فيها .

ولم يقف دور البنك الدولى عند هذا الحــد . . ولكنه طلب أن يدخــل معنا شريكا فى شركة الأسماك . . ووافقنا على أن يساهم بمبلغ نصــف مليون دولار فقط . . وقرر أن يقــرض الشركة ثلاثة مــلايين دولار حتى يساعدها على أن تتمكن من تحقيق أهدافها ، بعد مــا وقــف البنك على جدية ما نقوم به من إنجازات . .

واصبحت تجربة الاسماعيلية الآن ملكا لمصر كلها . . يقتفى كل مــن

يريد أن يسير على طريق الأمن الغذائى أثرهـا . . لقـد نمـت هـذه التجربة . . وتنمو الآن بالجهود الذاتية . . دون أن تكلف الدولة شيئا . .

ونحن على استعداد لتقديم العون لكل من يريد . . ونسـاعد كل مـن يرغب فى أن يعرف . كيف يبدأ السير على هذا الطـريق ؟ . . ولم نبخـل على كل المحافظات التى طلبت منا دراسة تجربتنا لتقيم تجـربة ممـاثلة لها .

إن تجربة الاسماعيلية تتضمن مفهوما أهم بكثير ، مـن المشروعات الكبيرة التى نبتت هناك . .

هذا المفهوم هو أن المصريين قادرون على أن يفعلوا كل شىء . . وهم قادرون على أن يحققـوا أمنا غذائيا حقيقيا ، فى كل مـكان مـن مصر ، عندما تتاح لهم الفرصة التى يجب أن نعطيها لهم فى كل مـوقع . . حتى نستطيع أن ننتج احتياجاتنا مـن الغـذاء بأنفسـنا ، دون اعتمـاد على الحكومة . . وحتى نعفى ميزانية الدولة من أن تتحمل آلاف الملايين التى تخصصها لبند استيراد الغذاء . .

تمت الخطوة الأولى . . ونجحـت . . وليس أمـامنا بعـد ذلك إلا أن نستكمل السير على الطريق .

وراء طلعت حرب

وحتى تكتمل حلقات سلسلة هذه المشروعات كان لابد لهـا مـن بنك يمولها ويقف خلفها ـ خاصة بعد أن أصبح راسمالها مجتمعة فى طريقه الى الملايين . . فقمنا بانشاء بنك قناة السويس . . ولانشـاء هـذا البنك قصة . .

كنت أجلس فى مكتبى بالمقاولون العرب ، ذات يوم أتصـفح جـريدة الأهرام . . ووقعت عيناى على خبر يقول : أن أحد البنوك الأجنبية التى جاءت إلى مصر طبقا لقانون الاستثمار . . حقق أرباحا مقدارها مليونا جنيه ، فى أول سنة يعمل فيها .

كنت فى صباى وشبابى من المعجبين برجـل الاقتصـاد المصرى . . « طلعت حرب » ، وجعلت منه مثلى الأعلى . . وتمنيت أن أسير على نفس

الطـريق الوطنى الذى ســار فيه . . فـأسس لمصر عددا مـن الشركات العملاقة التى أدت لها أجل الخدمات . .

وكان بنك مصر أول بنك وطنى مصرى ، يقيمه مصرى ، فى مـواجهة البنوك الأجنبية التى كانت تعمل فى البلاد . .

واذا كنت قد تعلمت عملية تأسـيس الشركات بشـكل عام . . الا أن البنوك بالذات لم أكن أعرف عن نشاطها الا ما يتعلق بتعاملاتى معها . .

أثارنى ذلك الخبر ، وأثار عندى أكثر من سؤال . . وكان أهمها :

كيف أن هذا البنك يحقق كل هذه الأرباح الضخمة فى سنة واحدة من تاريخ انشائه . . بينما نحن لا ننتظر عائدا من أى مشروع نقيمه الا بعـد مرور عدة سنوات ؟

وتبادرت الى ذهنى ، الخطوات التى نتبعها ، فى أى مشروع ، عندما نبدأ فى دراسـة المشروع . . ثم عملية اسـتيراد معـداته . . وعملية تركيبها . . ثم لا يعطى المشروع انتاجه الا بعد فترة من الزمن . . خاصة أن هذا البنك أجنبى . . لا هم له إلا تحقيق الأرباح فقط ، ولا تهمه مسألة تنمية البلد الذى يعمل فيه . . ولا علاقـة له بمـا فيه مـن مشـاكل . . ولا بما يتطلع اليه من طموح . .

وبحثت عن اجابة لهذا السؤال . .

لذلك حاولت الاتصـال بخبراء البنوك فى مصر . . وعرضـت عليهـم فكرة أننى أرغب فى انشاء بنك جديد مثل هذا البنك . . ولكن ليس هـدفى الأول هو تحقيق الربح كما يفعل هذا البنك . . انما أريد أن يساهم البنك الجـديد فى تنمية مصر . . ويجمـع مـدخرات المواطنين . . ويقـوم باستثمارها فى مختلف المشروعات التى تعود على بلدنا بالخير والنفع . .

حدث ذلك فى الوقت الذى كنت قد بدأت فيه مشروعات الاسماعيلية ، التى كان لابد لها من بنك يقف الى جوارها . .

وقمنا باعداد دراسة الجدوى الخاصة بانشـاء البنك . . وعرضـت الفكرة على بعض رجال الأعمال الذين كنت أجـد لديهـم المقـدرة على المساهمة فى انشائه . . وعرضنا أسهمه للاكتتاب ، وكانت قيمتها أربعـة

ملايين جنيه . . على اعتبار أن يتم تغطيتها خلال ثلاثة شـهور . . ولكن تمت تغطية الاكتتاب خـلال ثلاثة أيام . . ليس بأربعـة مـلايين جنيه ، ولكن . . بعشرة ملايين جنيه . .

وأصـبح بنك قناة السـويس ، مـن البنوك العمـلاقة فى مصر حيث وصلت أرباحه الى ستة ملايين جنيه فى السنة . . ووصل حجـم الودائع فيه الى مائة وخمسين مليون جنيه ! !

والأمر الذى أفخر به فى هـذا البنك ، أنه ليس مـن بين مسـاهميه أجنبى واحد . .

وعندما وجدت الفكرة قد حققت كل هذا النجـاح ، قـررت أن ننشىء على غرار بنك قناة السويس بنكاً جـديدا ، أسـميناه « بنك المهندس » ، كأحد المشروعات التى قمنا بانشائها فى النقابة . .

إن البنوك الوطنية هى التى تحس بظروف أمتهـا . . وتخـاف على أموالها . . وتوظف إمكانياتها فى خدمة اقتصـادها ، ومشروعات التنمية فيها . وتقف وراء اقتصاد بلدها عندما يتعرض لأية مخاطر ، لكى تدافع عنه . . بينما البنوك الأجنبية لا هم لها أكثر من أن تهرب مع أول فـرصة تلوح لها ومعها كل ما جمعته من أموال .

* * *

فى التنمية الشعبية

وعندما كلفنى الرئيس السادات بان اتولى شئون لجنة التنمية الشعبية فى الحزب الوطنى الديمقراطى كان لابد ان ابدا فى الانطلاق من عند هذه التجارب التى نجحت . . كنت قد تعودت منذ زمـن على تكوين الشركات . . ولم يصبح تكوين الشركة بالنسبة لى مشكلة . . كما أن الناس إطمانت فى جو الأمـان والاسـتقرار ، وبدات تسـاهم مساهمات ايجابية وفعالة فى كل ما أقمناه ونقيمه من الشركات . .

وحددنا لتلك الشركات اتجاها وطنيا خـالصا ، بحيث لا نحتاج الى الاجانب الا بالقدر الذى تستدعيه حاجتنا الى الخبرة . .

ورحنا نوظف تلك الشركات فى مختلف المجالات التى يحتاجهـا بلدنا . . سواء كانت زراعية أو صـناعية او اقتصـادية او تجـارية

او خدمية او اجتماعية . .

وفتحت الباب لكل المصريين القادرين على المساهمة ، فى المشروعات الجديدة سواء برءوس اموالهم او بخبراتهم . .

ونجحنا حتى الآن فى اتخاذ الاجراءات اللازمة ، لانشاء اكثر من مائة شركة عن طريق لجنة التنمية الشعبية ، منها ما وجد طريقه الى التنفيذ فعلا . . ومنها ما بدا فى اعطاء انتاجه ، ومنها ما تم اقرار دراساته ، ومنها ما هو تحت الدراسة .

واصبحت مشكلة التمويل غير ذات بال ، حيث اقبل المصريون على بلدهم بكل اموالهم . . والأمر الجميل فى كل هذه المشروعات اننا نقوم بتنفيذها بعيدا عن اى تدخل من الحكومة . .

مناخ السادات وازمة التنظيم

وكل ما حدث ويحدث ليس الا استثمارا حقيقيا للمناخ الذى أوجده أنور السادات فالتقت فى مناخ الأمن والأمان . . الاموال والخبرة . . والقدرة على التنظيم وتكوين الشركات وتوجيهها الى الوجهة التى يجب أن تعمل فيها . . ورغبة المصريين فى المشاركة فى تنمية بلدهم . .

واصبح الأمر لا يحتاج إلا لمن يتولى عملية التنسيق بين كل هذه العوامل حتى تستطيع أن تحقق استثمارها . .

أن مصر مرت بتجربة أن تتولى الدولة شئون كل شىء . . وأثبتت هذه التجربة فشلها . .

ولما كان قد فات مصر الكثير لكى تلحق بتجربة العالم الغربى ، فان رأس المال فيها ، رغم رغبته ، لا يعرف كيف يوظف نفسه فى مشروعات او انشاء شركات . .

وكان لابد من حل . .

ووجدت الحل ، الذى أجد من يصفه ، بأنه نظرية جديدة لتنمية المجتمعات النامية . . الا اننى لست من هواة النظريات ولكنى رجل عمل . . من هواة التنفيذ . .

لقد وجدت المصريين راغبين فى ظل الانفتاح ، فى المساهمة فى مشروعات بلادهم . . ووجدت بلدنا فى حاجة الى العديد من المشروعات . .

وبحكم نقص الخبرة وجدتهم غير قادرين على ارتياد تلك المجالات . . وكان لابد من تجميع أموال المصريين ، فى شكل شركات مساهمه ، يتم تكوينها وتنظيمها وتوظيفها وكان من فضل الله على أن مسألة تكوين الشركات ، أصبحت بالنسبة لى هواية . . وكانت لى تجارب عديدة وكبيرة فى هذا المجال . .

لذلك قمت باعداد الدراسات الاقتصادية ، للعديد من الشركات وطرحتها على المواطنين الذين قاموا بتغطية اسهمها ، ثم بحثت لها عن الفنيين الذين يتولون إدارتها . .

هذا ما فعلته وما افعله بالضبط . .

لقد اكتشفت ان مشكله مصر الحقيقية ، تكمن فى التنظيم فقط . . ماعدا ذلك من مشاكل فهى مشاكل غير حقيقية . .

واضرب لذلك مثلا . .

إن مصر تعانى من مشكله اللحوم . . وبالدراسة تبين لى أن مصر ، ليس فيها مشكله حقيقية ، يمكن أن نسميها « مشكلة لحوم » . . كيف ؟

إن المنتج الاساسى للحوم فى مصر . . هو الفلاح الذى ينتج ما يزيد عن ٩٥٪ من الانتاج . . وكان لابد من أن نقيم علاقة منظمة معه . . فهو يسارع ببيع كل ما عنده من عجول صغيرة . . إما لانه يحتاج الى ثمنها لكى يغطى به احتياجاته . . وإما أنه لا يجد لها الكميات اللازمة من العلف . .

ويتسبب بيع هذه العجول البتلو فى نقصان الثروة الحيوانية القابلة للتسمين . . وهنا تخلق مشكلة اللحوم . .

وكان إن وجدت الحل ، فى أن نقيم جسورا مع ذلك المنتج . . بأن نتعاون مع الفلاحين الذين يربون الرءوس العشار . . ثم بعد ذلك نسأل الفلاح عما اذا كان سيقوم بتربية ما لديه من عجول . . وهنا يجب

تشجيعه وأن نمده بما يحتاجه من علف . . أما اذا كان سيقوم ببيعه لعدم قدرته على الحصول على العلف . . فيجب أن نوفر له الأعلاف اللازمة . . وإذا كان يريد بيعه بسبب احتياجه الى ثمنه ، فيجب أن نشتريه منه ونستبقيه عنده للتسمين ، ونمده بكميات العلف اللازمة . . وإذا كان يريد التخلص تماما من العجل ، فاننا نشتريه منه لحساب إحدى الشركات التى تعمل فى مجال الامن الغذائى ، لتقوم بتربيته الى أن يتم تسمينه . .

وفى نفس الوقت نعمل على توفير كميات العلف اللازمة باستيرادها مؤقتا الى أن يتم تصنيعها . . حيث من الضرورى أن نعمل على تنمية مثل هذه الصناعة . .

وفى مجال الثروة الداجنة أيضا ، يجب أن نعتمد على الفلاح بشكل اساسى . . اى أن نوفر له الكتاكيت اللازمة . . ونتركه يتولى تربيتها . . ونتولى نحن إرشاده والاشراف على تقديم الخدمات التى تلزمه . .

جهود الرجال

وكما نجحنا فى أن ننظم عملية مساهمات رؤوس الأموال فى خدمة اقتصاد بلادنا ، لصالح جماهير شعبنا . . لابد أن ننجح أيضا فى تنظيم مساهمات جهود الأفراد ، فى بناء بلدهم . . وخاصة فى المجتمعات الجديدة . .

لذلك فاننى ارى أن نقوم باستصلاح الاراضى . . وأن نسلمها للشباب مستصلحة ، بعد أن نوفر له فيها كل الخدمات اللازمة ، من الميكنة الزراعية ، الى البيت الذى يقيم فيه . . ثم نشجعه على تربية الماشية أو الدواجن أو اى من أنواع الطيور وأن نوفرها له ، لكى يتولى تربيتها ، ثم نشتريها منه ، بعد أن تصبح جاهزة للذبح . . ونخصم الثمن الذى كانت تساويه وقت أن سلمناها له ، ونترك له باقى العائد لأنه يمثل ثمار جهده وعرقه . .

إن ابناءنا جادون فى تعمير بلدهم وتنميتها . . ولكن علينا أن نرشدهم الى الطريق السليم ، وأن نأخذ بيدهم ،

ماذا حدث
فى الصالحية ؟

طريق البغلة يا عثمان

لن أمل الدعوة الى أن نخرج لنرى مصر بعين ، ترى مـا هـو بعـد الوادى الذى ظللنا نركز عليه أبصارنا طوال السنوات الماضية . .

كان أن شدتنى تجربة ما بعـد ابو سـمبل . .فى قسـطل . . وكذلك فى ادينذان . . وفى وادى كركر . . ووادى كلابشة . .

عندما ذهبت مع الرئيس السادات إلى هذه المناطـق فى يناير سـنة ١٩٧٩ . . رأيته يزرع فى كل منها شجرة . وكان معنا المهندس حسب الله الكفراوى وزير التعمير .

عدنا بعد ذلك بعام فوجدنا الشـجرة أصـبحت آلاف الأشـجار . . وعمرت هذه المناطق ودبت فيها الحياة .

ويقوم الأهالى بتجـربة الزراعة هناك بأنفسـهم ، وليس للدولة أى دور كما كان يحدث من قبل ، عندما كانت الدولة تدس انفهـا بمناسـبة وبغير مناسبة فيما يخصها ومـا لا يخصـها . . لا يحتاجـون هناك الى الدولة إلا فيمـا يتعلق بالنصـح والارشـاد والتوجيه . . وتوفير الامكانيات . .

اخضرت الارض . . وانتجت فى هذه المناطق بشكل رائع ، وشاهدت بنفسى منتجات الأرض بسواعد الرجال . . منتجات لم أر لها مثيلا فى جودتها من قبل . .

وتتضح مدى سلامة هذا الطريق عندما تقارن ذلك المثال ، بمثال آخر كله مرارة وألم .

كان أن انفقت الدولة على استصلاح حوالى ٩٠٠ ألف فدان ما قيمته ٦٣٠ مليون جنيه فى وقت كان فيه الجنيه . . يقال عنه أنه « جنيه » .

ولم يزرع من هذه المساحة ، التى تكلفت كل هذه النفقات أكثر من ١٪ . . وذهبت المبالغ إلى جيوب أولئك الذين جعلوا من الدولة قيما على كل شيء . .

ولهذا الموضوع معى قصة . .

استدعانى الرئيس السادات فى أحد الأيام ، لكى أرافقه فى رحلة اراد أن يتفقد فيها بعض مناطق الاستصلاح ، واصطحب معه وزير الزراعة فى ذلك الوقت .

وعندما كانت الطائرة تحلق فوق هذه المنطقة سأل الرئيس الوزير :

كم مساحة الأرض المستصلحة هنا ؟

أجاب الوزير : ٩٠٠ ألف فدان يا سيادة الرئيس .

واستمرت رحلتنا بالطائرة فوق هذه المنطقة أكثر من ساعة ونصف . . فلم نجد فيها أى نوع من الزراعة إلا ما ندر .

وسأل الرئيس الوزير : ترى كم فدانا من هذه المساحة تتم زراعتها فعلا ؟

وتدخلت فى تلك اللحظة محاولا التخفيف من الموقف . . وتوليت الإجابة نيابة عن الوزير .

فقلت : حوالى ٧٪ يا سيادة الرئيس .

بينما كانت المساحة المزروعة فعلا لا تزيد عن ١٪ بأى حال .

فاستنكر الرئيس هذه الاجابة . . الأمر الذى جعلنى أشير بيدى إلى مساحة طولية كانت مزروعة وأنا أقول للرئيس :

هناك مساحة مزروعة وزرعها جميل يا سيادة الرئيس .

وبدت هذه المساحة ، كما لو كانت شارعاً على شكل شريط طويل .

وقاطعنى الرئيس وهو يقول :

لا يا عثمان . . دا طريق البغلة . .

ولم أكن أعرف شيئًا عن طريق البغلة من قبل .

ويبدو أن الرئيس لاحظ اندهاشى . . فاستطرد يشرح لى :

كانت توجد فى هذه المنطقة عزبة . . وكان ناظر العزبة رجلا تركياً . . وكانت هناك مسافة بين بيته ومكتبه . . كان يقطعها راكبا بغلة . . فسمى هذا الطريق الذى يوصل بين بيت ناظر العزبة ومكتبه ، بطريق البغلة . .

وزرعوا هذا الطريق خصيصا لناظر العزبة حتى يرى الخضرة على يمينه ويساره كلما سار فى الطريق .

ثم عاد الرئيس بعد ذلك ليسأل الوزير مرة أخرى :

كم مليونا من الجنيهات تكلفها استصلاح هذه الارض ؟

فأجاب الوزير : ٦٣٠ مليون جنيه . .

ولم أعلق وقتهـا بشىء . . وإن كنت قـد أسـفت كثيرا . . ولم يكن ما حدث الا تحريضا سافراً على الانحراف . . فهذا يعـطى ذاك . . وذاك يأخذ من هؤلاء . . إلى آخره . .

عدنا من هذه الرحلة الاستطلاعية . . وسافر الرئيس بعدها بيومين إلى الاسماعيلية وكنت معه .

وعرضت عليه أن يستطلع بطـائرته المنطقـة مـا بين الاسـماعيلية وفايد . .

فوجد كل المنطقة مليئة بالزراعة الناجحة . . وكانت مساحة أرضـها اكثر من ١٢٠ الف فـدان . . قـام المواطنون باسـتصلاحها وزراعتهـا بجهودهم الذاتية ، دون أن تتكلف الدولة أو الحـكومة فى اسـتصلاحها

مليما واحدا . .

وأبدى الرئيس إعجابه الشديد بروعة ما رأى . .

ولكنه فوجىء عندما قلت لسيادته ان الدولة تطارد هؤلاء المواطنين ، لمطالبة كل منهم بأن يدفع لها ألف جنيه ، ثمناً لكل فدان أرض فى هذه المنطقة . .

إن الحكومة أرادت أن تحاسبهم على سعر الفدان مستصلحا . . مع انها لم تتكبد فى سبيل اصلاحه أية مشقة . . وكأن الاولى بها أن تبيعه لهم بسعره قبل أن يقوموا باستصلاحه .

وكان قرار الرئيس أبعد مما اردت . .

أردت أن يدفع المواطنون فقط ثمن الأرض قبل أن يستصلحوها . .

ولكن الرئيس قارن بين الرحلتين . .

رحلة رأى فيها أرضا جرداء انفقت عليها الدولة ملايين الجنيهات . .

ورحلة رأى فيها خضرة وحياة فى أرض لم تمتد يد الدولة إليها ولكن ، قام المواطنون باستصلاحها وزراعتها . .

وكان قراره بأن من يستصلح الارض يزرعها ، ولا يدفع للحكومة أى ثمن لها . .

* * *

وكانت البداية زجاجة بيبسى

وكانت هذه الرحلة بداية جديدة لانطلاقنا نحو صحراء مصر . . لنزرع فوق رمالها الأمل . .

وكان لهذه البداية قصة طريفة . . .

بينما كانت تشغلنى مسألة كيفية غزو الصحراء بالطرق العلمية السليمة على أن يتم ذلك بالجهود الذاتية دونما تدخل من الدولة . . زارنى وفد مفوض من شركة البيبسى كولا الأمريكية لكى يتفاوض معى بخصوص إنشاء مصنع بيبسى كولا فى مصر ، فقبلت الفكرة من حيث المبدأ .

ولكن علقتها على شرطين . .

أولهمـــا : الا يحصــل الشريك الأجنبى على أكثر مــن ١٠٪ مـــن المشروع ، وهو ما يعادل حق المعرفة . .

ونسبة الـ ٩٠٪ لابد وأن تكون للشريك المصرى .

حدث ذلك منى بينما مشروعات المياه الغــازية ، التى تمــت فى عهــد الانفتاح من غير مشروعاتنا تصل نسبة الشريك الأجنبى فيها ، إلى أكثر من ٩٠٪ . .

وثانيهــا : أن الشركة فى الولايات المتحــده لا تقــوم فقــط بانتاج المياه الغازية . . ولكن المياه الغازيه لا تمثل إلا أحد اهتماماتها . . بل أن هــذا الاهتمام يعتبر من الاهتمامات الثانوية للشركة . . حيث أن الشركة تقوم بمشروعات زراعية . . ومشروعات تصـــنيع زراعى . . ومشروعات ألبان . . ومشروعات تربية ماشية على نطاق كبير . .

لذلك قلت لهــــم : إذا كنتم تريدون إقــــامة مشروع البيبسى كولا ــ فلا مانع لدينا ، ولكن بشرط أن تقيموا معنا مشروعات مشتركة اخرى ، مثل تلك المشروعات التى تقع فى مقدمة اهتماماتكم . .

ولم يستطع الوفد الذى جاء لمفاوضتى أن يتخــذ القــرار . . وطلبوا منى مهلة من الوقت لكى يعودوا إلى بلادهم ، ويعيدون دراســة الموقــف من جديد ، على ضوء الشروط التى وضعتها لهم ولم تكن فى حسبانهم . .

وبعد فترة عادوا وهم يقبلون ، ما اشترطته عليهم ، وبدأنا معهم .

أنشــأنا مصـــنع البيبسى كولا ، فى نفس الوقـــت الذى جــــاء فيه الأمريكان ، ليبدأوا معنا تجربة جديدة جدا فى الزراعة .

بدأوا معنا فى منطقة الصـــالحية . . وقــد نجحــت التجـــربة التى استخدمت فيها الطرق الحديثة جدا فى الزراعة والتى لم نكن نعرفها من قبل . .

وكانت فى الصالحية بداية أن تجد مصر طريقها الصحيح نحو معركة غزو الصحراء الحقيقية .

فكيف حدث ذلك؟

كان لابد أن نزحف إلى الصحراء، بعد أن أصبحت المساحة المزروعة، لا تفي باحتياجات المواطنين، بسبب عدم زيادة الرقعة الزراعية، بما يتناسب مع الزيادة في السكان..

وكان لابد أن نتصدى لتلك المشكلة، وأن نبحث عن حلول لها لكى نؤمن توفير الطعام لكل مواطن عن طريق الانطلاق لتحقيق الثورة الخضراء وغزو الصحراء، لتحقيق الأمن الغذائي..

وهبت شركة المقاولون العرب للتصدى لتلك المشكلة.. فراحت تستخدم في اقتحام الصحراء، أحدث ما في العالم من تكنولوجيا..

وكان لابد أن نبدأ من حيث انتهى الآخرون، لكى نستفيد من تجارب الدول المتقدمة والتى حققت لنفسها الاكتفاء الذاتي، وفائضا للتصدير..

وفتشنا في تجارب كل الدول لكى نختار النموذج الذى يصلح لأن نطوعه، للتطبيق في بلادنا..

ووجدنا أن الولايات المتحدة الأمريكية هي صاحبة التجربة، التى يمكن أن نهتدى بها عندنا..

وقامت إدارة المشروعات الزراعية، بالمقاولون العرب بزيارة الولايات المتحدة، لكى تدرس على الطبيعة هناك، التجربة لتنقل ما هو صالح منها..

وتبين لنا أن ظروف ولاية الأريزونا متشابهة مع ظروف الصحارى، ونوع التربة، وقلة الأمطار..

وقمنا بتكوين شركة المزارع المصريه، التى قامت بالدراسات والتجارب التجريبية على مساحة ٥٠ فدانا..

ثم ألف فدان.. ثم ٤ آلاف فدان.. ثم عشرة آلاف فدان..

ونجحت التجارب، لكى تستمر مسيرة المقاولون العرب في زراعة ثلاث وحدات زراعية متكاملة مساحة كل منها ٥٠ ألف فدان..

نقطة البداية

وأجريت التجارب على البطاطس والطماطم والباذنجان والفلفل والكوسة والخيار، وبقية أنواع الخضروات بالاضافة الى الذرة والفول السوداني وفول الصويا والشعير والقطن وعباد الشمس والسمسم وغيرها . .

وأثبتت التجارب ، ملاءمة التربة والظروف البيئية ، لزراعة كل الاصناف السابق ذكرها وأعطت التجارب نتائج تزيد على مثيلاتها في زراعات المحافظات المجاورة للمنطقة . .

ولأن الرى هو من أهم العوامل المؤثرة ، في الانتاج الزراعي ، فقد تمت دراسة كافة نظم الرى ، وتم اختيار أسلوبي . . الرى بالرش . . والرى بالتنقيط . .

وثبت أن أسلوب الرى بالرش والمحورى يوفر ٣٥٪ من كميات المياه المستخدمة في الرى السطحي ، ويوفر ١١٪ من مساحة الأرض المستخدمة في إقامة الترع والمصارف . .

والأهم من ذلك كله فان هذا الأسلوب ، يحقق زراعة الأراضي على طبيعتها الطبوغرافية ، ووفق مناسيبها المختلفة . . الأمر الذى يوفر التكاليف الباهظة التى تنفق في تسويتها . . واستصلاحها .

ويتميز هذا الأسلوب بقلة تكاليف تشغيل واستهلاك وصيانة المعدات ، عن تكاليف طرق الرى الأخرى ، بالاضافة إلى القضاء على ظاهرة ارتفاع منسوب الماء الأرضي ، الذى يقلل الانتاجية . .

واتجهنا الى تصنيع الاجهزه والمعدات ، المستخدمة في هذه الطريقة للرى محليا ، الأمر الذى يمكننا من ضمان وجودها ووجود قطع غيارها في مصر ، بالاضافة إلى تخفيض أسعارها . . وحقق انتاج هذه الاجهزة ، وفراً في التكاليف مقداره ٢٥٪ من قيمة الاستيراد من الخارج . .

ويبدأ المشروع باستزراع المحاصيل المختلفة للأسواق المحلية وللتصدير الى الخارج ، ذلك إلى جانب تربية الحيوان ، وإيجاد التوازن

المطلوب بين الانتاج النباتى ، والانتاج الحيوانى وإقـامة صـناعات زراعية غذائية ومنتجات الألبان لتحقيق أعلى كفاءة انتاجية . .

وأعطى المشروع عائداً مناسباً من السنة الاولى . .

ولا شك أنه باتباع هـذه الأسس وهـذا النمـوذج يمـكن للشركات الكبرى ذات المعدات والامكانيات الضخمة ، أن تغزو الصحراء وتزرعها ثم تقوم ببيعها بعد ذلك لصغار المزارعين الذين يحصلون على الخـدمات والرعاية اللازمة للانتاج من شركات الخدمات . .

وبذلك يمكن تكوين المجتمعات الزراعية الحـديثة ، وتحقيق الأمـن الغذائى المنشود . .

ووجدنا فى الصالحية نقطة البداية الحقيقية ، لغزو صادق للصحراء ، يجبرها على أن تخرج اغلى الثمار من بطنها . .

إن قيمة ما حـدث فى الصـالحية ، لا يتمثل فى المسـاحة التى تمت زراعتها ، ولا فى المساحة التى نستهدفها هناك ، والتى تصـل إلى مـائة وخمسين ألف فدان . .

ولكن القيمة الحقيقية لما يحـدث هناك . . هـو أنه يمثل اكتشـافنا للطريقة الحديثة والسليمة ، لزراعة الصحراء ، بشـكل يجعلهـا تعـطى سريعا ثمارها ، وكذلك لا نتكبد الملايين فى نفقات استصلاحها دون عائد كما كان يحدث من قبل . .

ويصبح بعد ذلك الطريق مفتوحا ، لكل مـن يسـتطيع أن يزرع وأن يجنى الثمار . .

إن كل ما تم فى السنوات السابقة سواء فى الصالحية ، أو فى غيرهـا من المشروعات التى بدأناها ، كان من قبيل التجربة . . سواء فى مـزارع الأسـماك فى منطقـة التل الكبير . . أو شركات تربية الدواجـن والبيض وشركات تسمين الماشية فى الاسماعيلية . .

وأعطت التجربة الآن ، كل نتائجها الصالحة للتعميم ، فى كل مـكان من أرض مصر من شمالها إلى جنوبها ، ومن شرقها إلى غربها .

وبذلك نكون قد وجدنا نقـطة البداية . . وبدأنا الانطـلاق . . وبعـد

سنوات تعد على اصابع اليد الواحدة بإذن الله سنجد غذاءنا مـــن جميع الأصناف بين أيدينا . . وسنصدر الفـــائض عنا إلى كل بلاد الدنيا التى تحتاج اليه . .

فأين نحن الآن بالضبط من الهدف الذى نسعى وراءه ؟

نجحنا فى أن نضع أيدينا على المشكلة الام التى تتولد عنهـا معـظم المشاكل وهى مشكلة التنظيم ، ونجحنا فى ان نضـــع أيدينا أيضـا على نقطة البداية السليمة نحو بناء مصر الحديثة على أروع ما يكون البناء .

اكتشفنا فى الاسماعيلية مما أجريناه هناك من تجارب أين المدخــل الصحيح لحل أزمة الغذاء . . وباحت الصـــحراء فى الصـــالحية بسرهـــا وعرفنا كيف نحول الرمال الى جنات خضراء . .

ولم يتبق أمامنا الآن إلا أن نبدأ فى تعميم مـــا أعطته التجـــارب مـــن نتائج . .

إن جل الجهد يستغرقه البحث عن نقـطة البدء . . ولكن عندمـــا يتم العثور على تلك النقطة يصبح الطريق مفتوحا . .

وما نحن بصدده الآن بالضبط هو :

ان ننقل تجربة الصالحية إلى كل مكان صـــالح للزراعة فى مصر وأن نقيم فى تلك الأماكن مجتمعات جديدة تقوم على الزراعة وعلى الصناعات الزراعية ونجد دور التنظيم يبرز هنا فى الكيفية التى نعمـــل بهـــا والتى أرى أنها تتلخص فى أن تستصلح الأرض ونوفـــر فيهـــا جميع وســـائل الزراعة الحديثة ونقيم أسس المجتمع الجـــديد المتكامـــل ثم نطلب مـــن ابنائنا الذهاب إلى أرضهم لكى يزرعوهـــا ويقيمـــوا مشروعات الأمـــن الغذائى من كل الأنواع فوقها . .

واصبحت لدينا الآن دراسات الجدوى الاقتصادية لكل ما نحتاج إليه من مشروعات فى مجـــال الغـــذاء والاســـكان ولدينا نتائج تجـــربة الاسماعيلية التى أصبحت صالحة لان يتم نقلها بالكامل إلى كل مكان فى مصر . .

ويبرز هنا دور التنظيم حيث ينبغى الا نترك تلك المسألة للعشـــوائية

المطلقة ولكن لابد أن يوجد التنسيق السليم بين مختلف المحافظات بحيث تقوم كل محافظة بتولى المشروعات التى تتناسب مع طبيعتها . .

تعلمنا من تجربة الاسماعيلية أن يكون هناك بنك يتولى مساندة ما نقيمه من مشروعات فيها . . لذلك كان أول عمل كبير قمنا به فى لجنة التنمية الشعبية هو إنشاء البنك الوطنى للتنمية برأسمال يصل الى المائة مليون جنيه . . وقمنا بإنشاء بنوك وطنية فى مختلف المحافظات لابد أن تشملها جميعا . .

وتتولى بنوك التنمية تمويل المشروعات التى سنشرع فى إنشائها بالاضافة الى مساهمات بيوت المال المصرية ومساهمات المواطنين . .

إننى أستهدف مساهمة المواطن العادى لاننى أعتبره هو الممول الرئيسى لمشروعات المستقبل . .

ويطل علينا مرة أخرى التنظيم الذى يسمح لنا بتجميع كل تلك الخيوط بشكل متناسق وسليم يمكننا من أن ندفع جميع جهودنا فى الاتجاه الذى حددناه وعثرنا عليه من جديد بعد أن تهنا عنه فى كل ما فات من سنين . .

وستفتح كل هذه المشروعات أبوابها لكل أبناء مصر ليجد كل منهم فرصة عمل منتجة ومساوية لما يبذله من مجهود .

كان هذا هو الاساس الذى بدأت من عنده تجربة التنمية الشعبية التى لابد أن تبلغ منتهاها باذن الله مع تحقيق فرصة عمل كريمة لكل مواطن وبيت سعيد ولقمة عيش هنيئه من ناتج أيدينا ، ثم نصدر بعد ذلك كل ما يفيض . .

* * *

هل أنا سياسى ؟

وقفت عند نفق الشهيد أحمد حمدى ، قبيل مقدم الرئيس السادات لافتتاحه . كأول طريق يربط مصر بسينائها فى القرن العشرين . وجاءنى فى تلك اللحظة من يتحدث معى عن السياسة وعن أساليبها . وعن رجالها . وعن ممارستها وفنونها والذين لهم باع طويل فيها . . وسألنى أين انت من كل هؤلاء يا عثمان ؟

وبدلا من أن أجيب له على سؤاله وجدت نفسى مشدودا الى ساحة حافلة بالذكريات . . غالبتنى وغلبتنى ، واستولت على كل فكرى . . وأخذتنى من بين رجالى . . فبدلا من أن أعيش معهم فرحة انجازاتهم . . رحت أسبح فيما لم يكن على بالى . والذى فجره بداخلى هذا السؤال الذى لم أقدم إجابة عليه لصاحبه وقتها وإن كنت قد أجبت عليه لنفسى وأقدم إجابتى الآن إلى كل جماهير شعبنا . . ولكن تزاحمت لحظتها فى راسى افكار ، ومواقف ، ومعارك ، وأحداث . .

كنت فى ذلك الوقت بالقرب من كفر أحمد عبده . . حيث توجد أول معركة بناء خاضتها شركتى ضد الاحتلال الانجليزى ، وتذكرت . . كيف كان دخول السويس بتصريح من الانجليز ، لا يحرك فى السياسيين ، فى ذلك الوقت أدنى مشاعر الوطنية . . بينما كانوا يتصارعون على كراسى الحكم ، التى استولت على كل اهتماماتهم . .

وعدت فى تلك اللحظة الى طفولتى ،التى حلمت فيها بأن أمتلك شركة مقاولات كبيرة لها نفس إمكنيات الشركات الاجنبية ، التى كانت تعمل فى منطقة القناة . . وكيف أن هذه الشركة قامت وأصبحت كيانا وكانت هى التى قامت بعملية أول توسيع لقناة السويس سنة ١٩٥٨ . . وهى التى ساهمت فى عمليات تطهيرها وتوسيعها وتعميقها عقب عمليات اكتوبر ١٩٧٣ . وعند الاسماعيلية رأيت هناك كيف أننا نجحنا فى أن نكتشف نقطة البدء نحو أمن غذائى حقيقى . . وذهب بصرى الى الصالحية حيث وجدنا نقطة البدء السليمة لغزو الصحراء .

وامتدت ذكرياتى إلى بور سعيد التى حضرت خصيصا من السعودية لكى أسعى لأن يكون لشركتى شرف المشاركة فى إعادة تعميرها . . وهناك تذكرت قصتى مع وزارة التعمير وكيف نجحنا فى إعادة تعمير منطقة القناة فى أقل من عام وإعادة مليون مواطن إلى ديارهم . .

وطافت ذكرياتى بمنطقة بحيرة التمساح . . وعادت بى خمسين عاما إلى الوراء ، حيث كانت تلك المنطقة مخصصة للجيش الانجليزى . . للاستحمام ليس إلا . . وكان ممنوعا على أى مصرى أن يقترب منها . . وأصبحت الآن مقرا للورش البحرية ، التابعة لفرع المقاولون العرب بالاسماعيلية . . وتضم ٤ آلاف عامل مصرى ، يقومون هناك بصناعة القاطرات البحرية ، التى تصل حمولتها إلى ٥٠٠ طن . . وحولوا المنطقة ، إلى قلعة ، من أرقى قلاع صناعة العالم ، فى هذا المجال . . تذكرت فى تلك اللحظة أيضا ، قلاع الصناعة الضخمة والمنتشرة فى كل مكان من مصر ، والتى ارتفعت على أكتاف أبنائى فى المقاولون العرب . .

كنت أعيش مع تلك الذكريات عند هذا النفق الذى يسمح بمرور ٢٠٠٠ سيارة فى الساعة الواحدة من سيناء وإليها فى طريق مزدوج على عمق ٣٥ مترا تحت سطح الماء ، بالشكل الذى يحقق الربط الحقيقى بينها وبين أمها دون أن يؤثر ذلك على سير الملاحة فى القناة . . وأن المقاولون العرب هى التى حولت فكرته إلى كيان ملموس ملأ القلب والعين .

كانت ترتسم فى ذهنى فى تلك اللحظات صورة السد العالى وهو يقفل مجرى نهر النيل . . ليفتح لمصر كلها نافذة واسعة على الرخاء . .

ونظرت لحظتها إلى السماء لأشكر الله ، فتذكرت سد الصواريخ ، التى أقام قواعدها رجال المقاولون العرب ، فى وجه طيران إسرائيل وتذكرت الدشم التى حمت طائراتنا من أن تتعرض لما كان قد أصابها من قبل فى عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ . .

كنت أجلس فى تلك اللحظة عند أحد المعابر الذى أقيم مكانه هذا النفق . . فرأيت فى شريط الذكريات معديات العبور التى صنعت فى ورش

المقاولون العرب فى شــبرا ، والتى حملت مــدافع الماء لتفتح الثغــرة فى الساتر الترابى لتقام فى مواجهتها كبارى العبور ، وتفتح معهــا الباب ، أمام مصر كلها ، لكى تعبر مــع الســادات إلى تحقيق ذاتهــا التى ظلت طويلا تبحث عنها . . ومن شبرا إتجهت ذكرياتى الى كورنيش النيل .

فرأيت من بعد ، صورة كوبرى أكتوبر العملاق ، ومجمــوعة الكبارى العلوية ، التى اقمناها وما نزال نقيم العديد منها فى العاصمة . .

السياسة والسياسيون

فى تلك اللحــظة كانت ذكرياتى فى القــاهرة بالقــرب مــــن مجلس الوزراء . . ولا أعرف لماذا اتجهــت الى مقــر مجلس الوزراء بالذات . . لاتذكر حديثا كان قد دار هناك ، حول السياسيين والسياسة . .

وتذكرت ساعتها ، مــن بين مــا حفــل به عملى الوزارى الاول مــن أحداث مناقشــة كانت قــد دارت فى اللجنة الوزارية للانتاج ، بينى وبين إسماعيل صبرى عبد الله وكان وقتها وزيرا للتخطيط . . وشهد المناقشة كل من الدكتور عبد العزيز حجازى والدكتور محمد عبد القــادر حــاتم ، حيث كان يتولى منصب نائب أول رئيس الوزراء . ولا أعرف لماذا تذكرت هذه المناقشة بالذات . . وفى تلك اللحظة بالذات . .

كان إسماعيل صبرى عبد الله يتحدث عن الروس وعن إنجازاتهم فى مصر ، من خلال علاقاتهم بنظام الحكم السابق . وقــاطعته وقتهــا وأنا أقول له :

لاتذكر سيرة هؤلاء . . أو سيرة من كان معهم ، أو الذين سمحوا لهم بأن يتركوا فى مصر خلفهم كل ذلك الخراب . .

واندهشت كثيرا ، وأنا أسمعه يقول ، على مشهد من جميع أعضــاء اللجنة :

انا ماركسى مصرى . .

لذلك قلت له :

ماركسى . . نعم . . إنما ماركسى مصرى . . فذلك مــا لا أســتطيع أن

أفهمه . . إن كلمة ماركسى . . تعنى الكفر والالحاد . . فكونك ملحد فهــذا شأنك . . إنما ملحد مصرى فهــذا مــا أعترض عليه . . لأنه ليس فى مصر من بين من ينتمون إليها من أبنائها ملحد واحد . .

وتدخل الدكتور عبد العزيز حجازى ، فى المناقشة وهو يقول :

إن كل عهــد له ســلبيات . . وله إيجــابيات . . وكان للعهــد الماضى إيجابياته كما كانت له سلبياته . .

ولم أنتظر ، حتى ينتهى مما كان يقوله . . فبحكم تجربتى المرة ، مــع النظام السابق ، لم أر له أية إيجابيات . . اللهم إلا بعض الشعارات التى خدعوا بها الشعب والشباب . .

وقلت له :

أية إيجابيات تلك التى يمكن أن نتذكرهــا ، كلمــا تذكرنا المصــيبة الكبيرة ، التى لحقت بنا سنة ١٩٦٧ ، عندما ضاعت كل سيناء ، وضاعت معها كرامة مصر وأمتها . . بل ضاعت معها ثقتهــا فى نفســها ، وأدارت ظهرها للامل ، وانطوت على يأسها . . إلى أن جاء السادات ليرفع مــن الوحل رأسها . .

واستطردت وأنا أقول له :

أية إيجابيات ، تلك التى يمكن أن نتذكرهــا ، ونحــن نتصــدى الآن لرفع كل الأنقاض التى خلفها ، ذلك العهــد ، ويتقــدمها إســتنزاف كل موارد مصر ، من أجل أن نتخلص من تلك المصيبة التى تركها لنا ، وبدلا من أن نوجه جهــودنا إلى بناء بلدنا ، أصــبحنا نوجههــا إلى تحــرير أرضنا ، التى ضاعت بسبب قــرار طــائش منه ، حــرضه على إتخــاذه الروس ، لكى يمكنوا قبضتهم من مصر ، عندمــا تجــد نفســها بحــكم ظروفها فى حاجة اليهم . .

كانت جلسة صاخبة ، إنتهت المناقشة فيهــا عند ذلك الحــد . . ولكن إسماعيل صبرى جاءنى بعد الجلسة ليقول لى . .

أنت تقول إننى ملحد . . أنا أعرف ربنا أكثر منك . .

وانفجرت لحظتها وأنا أقول له . .

« ياريت » . . ليتك كذلك . . وهل هناك ملحـد يعـرف الله ؟ . . وكيف يمكن الجمع بين المتناقضين . .

وكان يشعل وقتها سيجارا . .

فقلت له : وهـل هناك شـيوعى يدخـن سـيجار . . ويتمتع بالغنى الفاحش الذى ترغد فيه . . ؟ أم ان شيوعيتكم ، هـى توزيع الفقـر على الشعب ، واقتسام النعمة فيما بينكم ؟

وبعد تلك المناقشة ، انتحى بى الدكتور عبد القادر حاتم جانبا ، وهو يقول لى :

انت لست سياسيا يا عثمان .

وراح يحدثنى الرجل باخلاص ، عن مفهوم السـياسة السـائد بين الناس ، ويطلب منى أن استوعبه ، وأن أدور فى فلكه .

وكان أن قلت له :

أنا لا أفهم السياسة بمعنى النفاق . . ولا أفهمهـا بمعنى الالتواء . . ولا أفهمهـا أن « أضـحك » لك وفى يدى خنجـر أعددته ، لكى أطعنه فى ظهرك . . ولا أفهمهـا بمعنى الكذب . . ولا أفهمهـا بمعنى القـدرة على التلاعب بالالفـاظ ، ولوى الحقـائق . .ولا أفهمهـا بمعنى الصراع بين الناس على السلطة . . ولا افهمهـا على أنهـا دسـائس ومـؤامرات . . ولا أفهمها على أنها « لف ودوران » ومناورات .

واستطردت أقول له :

إذا كان ما تقوله هو المفهوم الوحيد للسياسة ، فيسـعدنى الا أكون سياسيا . . واتمنى الا أكون فى يوم من الأيام كذلك . .

وقلت له : اننى أرى السياسة عمـلا . . وإنتاجـا . . والذى يريد أن يكون سياسيا فى نظرى ، لابد وان ينتج ، ويشعر بآلام وآمـال المواطـن ويبحث من أجل إيجاد الحلول لمشاكله ، فى المأكل والمسـكن . . وإيجـاد فرص العمل المناسبة له . .

وواصلت حديثى معه وانا اقول :

إذا كان البعض يعتبر صراحتى ليست سياسية . . إلا اننى أرى السياسة ، وضوحاً وصراحة . . وإستقامة . . وإيمانا بالله سبحانه وتعالى والعمل على هدى دينه . .

وتركته وانصرفت وأنا اقول لنفسى :

إننى افهم السياسة على أنها عطاء وإخلاص . . هذا هو خطى منذ الاربعينات . . ولم اغش احدا ولم اضحك على احد . . منذ ان بدأت بعشرة قروش إلى أن وصلت إلى الملايين . .

واستطردت أقول لنفسى :

إن بلداً شعبها بطنه خاوية ، لا تنتظر منه إلا الحقد . . لذلك أرى السياسة فى رفع مستوى الشعب ، وملء بطنه أولا وقبل كل شىء . .

إننى أرى السياسة مبادىء واخلاقا وقيما ، لأن هذه هى الوسائل الوحيدة التى يمكن أن تبنى أمة .

ان السياسى ينبغى أن يسعى إلى احترام الناس ، وليس إلى خداعهم . . واحترام الناس ، ليس له طريق الا الجدية . .

إن السياسة أخلاق ، والاخلاق لا تتجزأ .

إن السادات كان حريصا على أن يكون صريحا وان يتمثل بكل هذه القيم فكان له كل ذلك الحب من كل الناس .

وكان وما يزال رائدى أن اسعى إلى تصفية اى خلاف بينى وبين اى إنسان حتى أرضى نفسى وأرضيه . . لا أن انتظره اترصده لأضع خنجرا فى قلبه . . هذه هى السياسة فى نظرى . .

إننى أرى السياسة فى حب الانسان للناس ، وحب الناس له . . وحرصه على من معه ، حتى يحرص عليه . . وأن يشعر بالانتماء لعمله ، وهدفه وبلده ، وأن يرتبط بكل طموحاتها ، وأن يعطيها كما تعطيه . .

إننى أرى السياسة بناء وتعميراً . .

باختصار أرى السياسة فى العمل ، على راحة الناس فى كافة المجالات . . لا أن يتعقب السياسيون كل منهم الآخر ليصرعه حتى يجلس مكانه . .

الرياضة . . والسياسة

وفجأة خرجت ذكرياتي من مقر مجلس الوزراء حيث كان الحديث عن السياسة . . وذهبت الى نادى الزمالك حيث توجد الرياضة . .

ولا أعرف ما هى العلاقة بين السياسة والرياضة . . حتى أتذكر تلك القصة ، فى نفس اللحظة . .

ولكن لابد وان يكون هناك سبب قد يبدو للقارىء من بين السطور .

كان أن توليت رياسة النادى الاسماعيلى عام ١٩٦٥ .

وكان أعضاء مجلس الادارة يمارسون العمل ، بنفس أساليب السياسة ، التى ارفضها ودار الحديث السابق حولها . .

وجدت أعضاء مجلس الادارة ، يعملون فى ظل نظام « الشلل » . . هذا يحقد على ذاك . . وفلان يدس « لعلان » . . وهؤلاء ينقلون لأولئك ، عن الآخرين ما لم يكن قد حدث منهم .

وهذه ليست هى طريقة ، عثمان أحمد عثمان . . لذلك طلبت تغيير اعضاء مجلس الادارة . .

وتصور الجميع ، أن التغيير ، سوف يتسبب فى انهيار النادى الاسماعيلى ، لأنه لا يمكن له أن يستغنى عن هؤلاء الذين يضمهم مجلسُ إدارته .

وكانت صدمة شديدة لهم جميعا ، عندما قلت لهم :

إذا كان تغيير هؤلاء بأسلوب أدائهم الذى أرفضه سيتسبب فى انهيار النادى الاسماعيلى فليس هناك عندى أدنى مانع فى أن ينهار ، مقابل ان نزرع فيه قيما ومبادىء واخلاقا . .

واستقال مجلس الادارة طبقا لطلبى ، وتم تكوين مجلس إدارة جديد ، على أسس من . . الصدق . . والاخلاص . . والأمانة . . والقيم . . والمبادىء . . ووعدتهم أننا سنفوز بالدورى العام ١٩٦٧ اذا انتهجنا كل هذه الفضائل .

وكان أن اختطف الموت فى تلك الايام المرحوم « رضا » وكان « رحمه

الله » رياضيا بارعا ، وكان يمثل العمود الفقرى لفريق الكرة بالنادى . .

وتصور الجميع أن النادى سيضل الطريق من بعــده . . ولكن القيم التى حرصت على أن تسود النادى ، كانت سببا فى أن يتجاوز الأزمــة ، وأن ينجح فى الفوز بالدورى العام ١٩٦٧ . . كما وعدتهم . .

وفرحت الاسماعيلية بالدورى العام . . ولكن فرحتها لم تســتمر . . لأن مصر أصيبت بنكبة كبيرة . . سموها النكسة . .

وفرض علينا أن نهاجر من بلدنا . . ونزلنا ضيوفا عند أبناء مختلف محافظات مصرنا . .

وكم كان حرصى على فريق نادى الاسماعيلى . . لذلك ارتجفت مــن أن يتشتت أولادى . . وسعيت لأن أوجد لاعضــائه مــكانا بالقــاهرة . . وسمع بذلك المهندس حسن حلمى رئيس نادى الزمــالك ، وأصر الرجــل على أن يستضيف فريق الكرة بالنادى الاسماعيلى استضافة كاملة من مبيت . . وأكل وجميع الشــئون الادارية . . وأصــبحت مـــلاعب نادى الزمالك تحت تصرفهم . . بل تولى النادى مهمة تدريبهم . .

وإستضاف نادى الزمالك أبناء نادى الاسماعيلى لمدة سنة ونصــف سنة كاملة . . ورفض المهندس حسن حلمى ، أن يتقاضى مليما واحداً . .

وحرص معى على أن يحصل أبنائى ، على كأس افريقيا ، فقــدم كل ما من شأنه ، فتح الطريق أمامهم ، وتسهيل كل ما كان من شأنه تحقيق النجاح فى أداء مهمتهم . .

فعل حسن حلمى ، كل ذلك ، فى الوقت الذى كان يبنى فيه كما عرفت فيما بعد مدرجات نادى الزمالك . . ولم يطلب منى أدنى مساعدة . . مــع أن « المقاولون العرب » كان فى إمكانها لو كان قد طلب أن تعفيه مــن تلك المهمة ، وأن تقوم ببنائها نيابة عنه ، وعن نادى الزمالك كله . .

وارجو الا يفهــم أحــد « إننى زملكاوى . . فــأنا أحــب « الأهلى » والأولومبى والأتحاد ، والترسانة . . وجميع الأندية الرياضية فى مصر . . احبهم جميعا واقف إلى جوارهم واقدم كل ما اســتطيعه مــن وســائل المساعدة لهم . .

ولكننى أردت فقــط ، أن أضرب مثلا ، للرجــولة والشـــهامة . . والقدوة . . والمبادىء والأخلاق ، التى تحلى بها المهندس حسن حلمـى ، ورفاقه أعضاء مجلس إدارة نادى الزمــالك . . وجميع أعضـــاء النادى ومشجعيه . . فلهم جميعا دين فى عنقى أتمنى من الله سبحانه وتعالى أن يأتى اليوم الذى أرد فيه لهم بعضا من جميلهم . .

وتذكرت ما كان حدث فيما بعد من الروبى عندما لعــب الأهلى مــع الاسماعيلى وأتى من الأفعال ما لا يليق بأخلاقيات الرياضـــة . . وكيف أننى حرصت فى اللقاء التالى على أن أجلس مع أعضــاء الفــريق ، لكى أطلب منهم أن يتحلوا بأخلاقيات الرياضة السمحه . . وطلبت من الروبى بالذات عدم اللعــب . . ورغم اعتراض العــديدين ، إلا أننى أصررت على تنفيذ قرارى ، ولم يلعب الروبى ، وتعادل الأهلى مع الاسماعيلى . .

وكانت نتيجة مشرفة .

هذا هو المنهج الذى أسير عليه فى حياتى .

إن الأخلاق لا تتجزأ ، والقيم لا تتجزأ . . إنها فى السياسة كما هــى فى الرياضة . . بل يجب أن نمارس السياسة بروح الرياضـــة . . عطــاء وإخلاصا ، وإتقانا ، ونتنافس من أجل إظهار الأفضل . . وحتى يستمتع الجمهور أكثر . .

وعلى السياسى أن يسعى لأن يستمتع المواطن بأدائه ولا يمــكن أن يتحقق ذلك إلا اذا فهمنا السياسة على إنها عطاء وعمل وأخلاق . .

اعظم نياشين حياتى

وعشت مع كل تلك الذكريات ، فى ذلك الوقــت ، الى أن حــان مــوعد زيارة الرئيس لافتتاح النفق . . وإن كان لم يحن مــوعد انتهــائى مــن البحث عن إجابة للسؤال الذى كان ســببا فى أن تتوارد فى ذهنى كل تلك الذكريات .

وكرمنى الرئيس بوشاح النيل . .

وكنت قد حصلت من قبل من مصر على وسام الجمهورية من الطبقة

الثانية ، ووسام الجمهورية من الطبقة الأولى ، ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى ، ونيشان آخر رفيع .

وحصلت على وسام رفيع من الأردن ، ووسام رفيع من المملكة العربية السعودية ووسام رفيع من فرنسا ، ووسام رفيع من ايطاليا ، ووسام رفيع من ألمانيا ، ووسام رفيع من إيران .

وكل هذه الأوسمة هي ملك لأبنائي في المقاولون العرب ، وليست ملكي . . فهي على صدورهم جميعا ، لانهم هم أصحابها الحقيقيون . .

اما أغلى وسام حصلت عليه في حياتي من الرئيس السادات ، كان وسام التقاليد الأصيلة للممارسة السياسية السليمة ، الذي منحه لي عندما أطلق يدي ، مثل يد غيري ، لكي يعطي كل منا بلده بقدر ما يستطيع ، دون أن يحسب للأفاعي السياسية التقليدية أدنى حساب .

كانت مراكز القوى جمدتني ولم تتح لي الفرصة ، لكي أعطي بلدي كل ما عندي وبدلا من أن أعطي المزيد ، تحولت الى الدفاع عن نفسي ، وعن الشركة . . فأعطاني السادات الفرصة كما أعطاها للجميع . . وما تراه الآن من مشروعات ليس إلا نتيجة لتلك الفرصة . .

شخصيات عالمية

وعندما كان السادات يكرمني بوشاح النيل ، تذكرت في تلك اللحظة ، عددا من الشخصيات العالمية ، التي التقيت بها في حياتي ، بينما كان يجول بخاطري شريط ذكرياتي ، في محاولة مني لأعرف . . أين أنا من السياسة ؟

التقيت في عام ١٩٧٥ مع برونوكرايسكي مستشار النمسا ، وكنت وقتها وزيرا للتعمير .

وسألني الرجل عن أوجه التعاون ، التي يمكن أن تتعاون فيها بلاده مع بلادي .

فقلت له : إننا نحتاج في مجال التعمير ، إلى الأخشاب .

وقال لي الرجل :

أن سوق الأخشاب يعانى من حالة ركود فى بلادنا ، وانتم تحتاجون إليه . . لذلك فاننا نضرب عصفورين بحجر واحد . . نتعاون مع بلدكم . . وفى نفس الوقت نروج بضاعتنا الراكدة . .

أراد الرجل أن يتعاون مع صديقه فى المجال الذى يخدم من خلاله بلده . .

وتذكرت أيضا فى تلك اللحظة ، لقائى مع هلموت شميت المستشار الألمانى ، وتذكرت حديثه عن حرصه على مصالح بلده . . عندما قال للرئيس السادات . . أن بلاده تنتج قاطرات السكك الحديدية . . وإنها تعانى من ركود فى تلك السلعة فى ذلك الوقت . .

وكانت مصر فى حاجة الى قاطرات . . فاقترح الرجل أن تشترى مصر ما تحتاجه من تلك القاطرات من بلاده ، على أن تسدد ثمنها طبقا لما تسمح به ظروفها .

وبذلك يكون قد تعاون مع مصر . . فمدها بما تحتاجه منه . . وفى نفس الوقت ، أنقذ مصانع بلاده من التوقف ، ومن أن يتسبب ذلك فى إنتشار البطالة فى بلاده .

وخطر على بالى فى تلك اللحظة أيضا ، لقائى فى باريس مع الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان ، الذى راح يتحدث معى عن أوجه التعاون التى كان ينبغى أن تتعاون فيها بلاده مع مصر . . وكيف أنه يريد أن يمد تلك الجسور بما يحقق مصالح البلدين . .

وكان الملك حسين على العكس تماما من تلك النماذج ، عندما التقيت به أكثر من مرة . . إنه يفهم السياسة على أنها مكر ودهاء . يفهمها بالطريقة التى دار حديث مجلس الوزراء السابق الاشارة إليه بخصوصها . .

وكان أن قارنت فى تلك اللحظة بين تلك النوعيات من الرجال . .

رجال مخلصون لبلادهم وعلى استعداد لأن يمدوا يد التعاون الى غيرهم . . فى وضوح وصراحة . . ورجال لا يفهمون السياسة إلا على إنها التواء . ووصول الى الكرسى أو استمرار الجلوس عليه حتى

ولو كان ذلك على جثث شعوبهم . .

الأخلاق . . والعمل والسياسة

إنتهى الاحتفال ولكننى واصلت رحلة ذكرياتى فى محاولة منى للاجابة على السؤال الذى بدأت به هذه الرحلة وتذكرت فى تلك اللحظة قصة كانت قد حدثت بينى وبين المهندس حلمى عبد المجيد نائب رئيس مجلس إدارة المقاولون العرب فى بداية عمله معى .. كان المهندس حلمى عبد المجيد قبل أن يتم تعيينه فى شركتى يعمل مهندس أبحاث بكلية الهندسة وليست له أدنى خبرة بأعمال المقاولات . .

ولكننى توسمت فى حلمى عبد المجيد الأخلاق والاخلاص والصدق والأمانة . . لذلك رأيت أن أفتح أمامه الباب على مصراعيه وأن أتيح له جميع الفرص . .

وقد كلفته بالاشراف على عملية كبيرة وكانت أول وأكبر عملية أحصل عليها فى القاهرة وكانت فى منطقة الأميرية وكانت تصل قيمتها إلى حوالى مليون جنيه . .

حاول حلمى الاعتذار على أساس من نقص خبرته فى مجال المقاولات ولكن كانت تلك الخبرة عندى تحتل آخر المقاعد فى منهج حياتى الذى تتقدمه القيم والأخلاق والرغبة فى العمل لذلك صممت على أن يتولى الاشراف على العملية . .

واستطاع حلمى عبد المجيد أن يثبت ذاته بأمانته وإخلاصه وأعطى العملية كل اهتمامه . .

وفى نهاية العملية وجدتهم يقولون لى إن العملية خسرت مائتى ألف جنيه . . ولم أصدق . . لأن أمانة حلمى عبد المجيد وصدقه كانتا ستدفعانه لأن يصارحنى بموقف العملية لو كان مهزوزا . . كما أننى كنت أتابع التنفيذ بنفسى ولم ألاحظ على العملية أية بوادر تشير الى تلك النتيجة . .

وطلبت مراجعة الحسابات من جديد وتبين صدق ما اقتنعت به . . حيث ثبت أن كمية من الحديد قيدت مرتين وسجلت على حساب تلك العملية . .

وكسبت العملية مائتى ألف جنيه بعد أن كانت تبدو أنها خسرت ذلك المبلغ . .

لقد استطاع حلمى عبد المجيد أن يكتسب الخبرة أثناء الممارسة ونجح . . ولكنه كان لا يمكن أن يكتسب الأمانة والصدق والاخلاص إلا اذا كان قد تربى على تلك القيم التى وجدت عندى استجابة ففتحت لصاحبها الطريق فأعطى . . وما أعطاه كان كثيرا .

وتساءلت ترى ماذا يمكن أن تكون النتيجة لو فتحنا الطريق أمام الأمناء الشرفاء فى كل مكان كما فعلت فى المقاولون العرب وترى ماذا يمكن أن تكون النتيجة لو جعلنا من تلك القيم أساس كل شيء . . ونفتح الطريق فى كل مكان أمام جيل من هؤلاء قادر بأمانته واخلاصه وايمانه أن يعطى وأن يكتسب الخبرة التى نتحجج بأننا فى حاجة الى أصحابها الذين يفتقرون الى القيم . .

كانت تلك هى الأسس التى قام فوقها صرح المقاولون العرب العملاق . . واذا اعتبرنا أن ما حدث فى المقاولون العرب تجربة . . أليست تلك التجربة صالحة للتعميم بعد كل ما أعطته من نتائج . .

وكم أحس بما يتحدث عنه الرئيس السادات عندما يتناول تلك القيم . . انها هى الطريق الوحيد السليم . . ولو أن مصر اتخذت منها منهاجا لها . . ستصبح كلها كالمقاولون العرب . . تعطى . . وتنجز . . وتبنى وتصنع المستقبل الذى تحلم به لكل إنسان فيها . .

وسألت نفسى :

ترى ماذا يمكن أن تكون النتيجة ، لو اعتبرنا أن العمل والأخلاق هما المفهوم الجديد ، الذى ينبغى أن نمارس السياسة على أساسه ؟ .

وبدلا من أن أجيب على هذا السؤال وجدت نفسى أسيرا لفكرة أخرى رحت استعرضها فى مقدمة رأسى . .

نعم . . أنا بعض من فيض عطاء مصر . . مصر التى اعطتنى كل شيء . . مصر التى يكفينى أن أتمتع بشرف الانتساب لها . . ورحت أفخر فى كل مكان بأننى ابن حضارتها وواحد ممن يمثلون امتداد لتاريخها . .

إنها مصدر ثقتى فى نفسى والذى كان مصدرا لكل ما تراكم بعد ذلك بين يدى . .

وكان من فضل عطائها أن أعطتنى الانسان المصرى العملاق الذى اكتشفت جوهره فأطلقت طاقاته فأعطانى . . وكان ما أعطاه كثير . .

وكان لابد وأن أرد الجميل . . ولم أجد طريقا لذلك غير أن أكون وفيا لمصر ، وللانسان المصرى الذى لم ألجأ اليه وخذلنى فى يوم من الأيام . .

أعاد الرئيس السادات مصر للمصريين وأعاد المصريين لمصر وفتح الطريق واسعا لكل من يستطيع من أبنائها أن يضيف لبنة إلى صرح بنائها . . وهنا كان لابد وأن أجد لنفسى دورا أعطى من خلاله بلدى كما أعطتنى حتى يستريح ضميرى . .

ورحت أبحث عن المجال الذى يمكن أن أكون فيه أكثر عطاء من غيره فوجدت أن القدرة على الترتيب والتنظيم أفضل ما خصنى الله به من مواهب . . ووجدت فى نفس الوقت أن كل مشاكل مصر مقدور عليها إذا نجحنا فى أن نوجد حلا لمشكلة التنظيم فيها . .

وظهرت قدرتى على التنظيم فى مجال تكوين الشركات وإنشائها أكثر من أى مجال آخر . . فرحت أبحث عن الشركات التى تحتاجها بلادى لتعمل فى المجالات التى تعانى نقصا فى انتاجها وتمثل أهمية كبيرة بالنسبة لها وهى مجالات الغذاء والكساء والاسكان . . وكان طبيعيا أن يبدأ مشوارى الجديد من عند الاسماعيلية التى بدأت فيها رحلتى الى الحياة والى المقاولات وكذلك من عند شركة المقاولون العرب كتيبة المجهود الرئيسى فى جيش تعمير مصر . . وكذلك من عند نقابة المهندسين التى طوقتنى بأعظم شرف فى حياتى . . فأنشأت من خلال كل هؤلاء وبأموالهم حوالى ٥٠ شركة تعطى إنتاجها لسد حاجات مصر وتفتح فرص العمل فيها لكل أبنائها . .

واستكملت المسير على نفس الطريق عندما شرفنى الرئيس السادات برياسة لجنة التنمية الشعبية للحزب الوطنى الديمقراطى فأنشأت أكثر من ٨٠ شركة .

وهناك شركات أخرى إن شاء الله فى الطريق . .

ولن التفت ورائى طالما مصر هى رائدى . . إن الكلاب تنبح والقافلة

تسير . . وطالما ما يزال عندى ما أعطيه لبلدى فلن أرجع وفاء منى لما لها عندى وهو كثير .

وكم اعجب عندما أسمع من يقول أن عثمان احمد عثمـــان ينشيء كل هذه الشركات لنفسه مع أنه لوكان هدف نفسى كان يكفينى شركة واحدة من كل هذه الشركات أو على الاقل كنت اســتجيب لاى دعوة فى خـــارج مصر من بين كل ما قــدم لى مــن دعوات ولكننى فضــلت مصر فى أحلك ظروفها وظروفى معها واعتذرت عن كل العروض وصممت على الا اتركها حتى ولو وصل الحال بى لأن أسير حافيا على « أرصفتها » .

وانشأت كل هــذه الشركات لمصر وليس لى . . والمســاهمة الوحيدة ذات القيمة التى ساهمت بها فى جميع الشركات التى اسســتها هــى فى بنك قناة السويس ولا تتعدى ١,٥ ٪ من رأس المال . أما ما عدا ذلك مــن مساهمات فهى أسهم رمزية تعد على أصابع اليد ســاهمت فيهــا تلبية لرغبة الأصدقاء من محبى مصر الذين قالوا لى على حد تعبيرهــم « على سبيل البركة . . وفضلت أن اسميها سهم الحب والعطاء . .

والشركات كلها موجوده وكل من يجد مساهمة ذات قيمـــة لعثمـــان احمد عثمان فى أى منها فعليه أن ينشرها علينا بالوثائق إذا أراد . .

ورغم ذلك فاننى أوجه الدعوة هنا لكل مصرى يستطيع ســواء مــن أولئك الذين يهــاجموننى أو أى مــن أبناء مصر لأن يقيم مثل هـــذه الشركات لحسابه الشخصى لأن حصيلتها فى النهاية لمصر سواء كان ذلك بما تضيفه من انتاج أو ما تستوعبه من فرص عمالة . .

وبدلا من أن يضيع كل هؤلاء وقتهم فى مهاجمتى عليهــم أن يقيمــوا شيئا نافعا لأنفسهم ولبلدهم فهذا هو مجال العطاء الحقيقــى لكل مــن يريد أن يعطى بدلا من أن يجند نفسه ليشوه ما يعطيه غيره . .

وفى نهاية تلك الرحلة التى أجريت خلالها تلك المناقشة الهامة جــدا مع نفسى قلت :

كن كالنخيل كلما القوه بالطوب يعطى أطيب الثمر .

اذا كان هذا هو مفهومى للسياسة فانه يترتب على ذلك أننى اقــف

طويلا أمام أمر لا أفهمه . .

كثيرا ما أسمع أو أقرأ جملة . . ولا أعرف مـــا اذا كانت تلك الجملة تكتب وتردد عن قصد أو عن غير قصد . . ولكن الشيء الذى أعرفه أنهـــا تستفزنى لأننى بحثت لها فى كل القواميس عن معنى وما أزال أواصــل بحثى حتى الآن ولعلنى أجد من يدلنى . .

يقولون إن فلانا « يعمل بالسياسة » . . ويقولون أيضــــا . . « قيادات العمل السياسى » فهل السياسة مهنة . . أم هى حرفة .

إن هذه التعبيرات خلفها لنا العهد البائد ويجب أن تنتهى من حياتنا تماما حتى لا يفهم أبناؤنا أن السياسة مهنة فى حـــد ذاتهـــا أو أن هناك مجال عمل اسمه السياسة . .

إن السياسة تجد لنفسها مكانا فى كل مكان عندما نجد فيها مــرادفا للعمل والأخلاق . . أما كون السياسة احترافا فان هـــذا المفهــوم كان فى عهد ما قبل السادات . . أما فى عهد السادات فان السياسى يجب أن يكون هو الذى يعمل عملا مفيدا ومنتجا لبلده ولنفسه يساهم فى حل مشـــاكلها ومشاكل شعبها بجهده وعرقه وفكره وماله .

إن ممارسة السياسة فى مواقع العمـــل وليســـت بالتزاحـــم أمــــام ميكروفونات الخطب . . وممـــارسة الســـياسة بالوضـــوح والصراحـــة والأخلاق وليس بالمكر والالتواء .

هذه هى السياسة كما يفهمها أنور السادات وكما يريد تطبيقهـــا . . وهذه هى السياسة كما مارستها وكانت المقاولون العرب نتيجـــة طبيعية لها .

الخاتمة فصل جديد

وجدت فى العمل من خلال لجنة التنمية الشعبية ، طريقا لأن أطبق مفهومى للسياسة فى تنمية بلادى . . وتصورت أننى سأعطى كل ما عندى ، من خلال هذا المجال . .

ورحت أواصل السير ، على الطريق الذى بدأناه ، من أجل أن ننظم جهود مساهمات المصريين ، بأموالهم . . وخبراتهم وسواعدهم فى بناء بلدهم . . من خلال شركات نقوم بانشائها ، ومشروعات نتولى تنفيذها ، لاقتحام مشاكلنا التى تتقدمها ، مشاكل الغذاء والكساء والاسكان . .

ونجحنا فى أن نضع أيدينا ، على نقطة البداية ، التى سننطلق منها ، الى الآفاق التى نرجوها . . وبدأت مشروعاتنا ، تؤتى ثمارها . .

وكم أنا سعيد بهذا العمل ، الذى أقوم به . . من خلال الجهود الشعبية الوطنية دون أن نكبد ميزانية بلدنا ، أو نحمل حكومتها أية أعباء ، فيما نحن بصدده من مشروعات . . كم انا سعيد به لأنه الطريق الوحيد لبناء مصر بأسرع . . وعلى أروع ما يكون البناء .

واستمرت جهودنا الى أن زار الرئيس منطقة الصالحية فى ٢٩ يناير ١٩٨١ . . حيث إكتشف رجال المقاولون العرب هناك نقطة البدء نحو الانطلاق الى غزو الصحراء . .

وكم كنت سعيدا ، لأن الرئيس كان سعيدا ، بالتجربة الرائده ، التى وجدها ملء العين . .

وانتهت زيارة الرئيس للصالحية . . وفى المساء ذهبت معه ، ومع

السيد حسنى مبارك الى الاسكندرية ، لمشاركة قائد القـوات البحـرية احتفاله بعقد قران كريمته . .

وعدنا من الاسـكندرية ، وفى مـطار أبو صـوير نزل الرئيس مـن الطائرة لكى يستقل هليوكوبتر الى الاسماعيلية . . وظل السيد حسـنى مبارك فيها ، لكى يسـتكمل رحلته الى القـاهرة . . وأثناء توديعـى له ، فوجئت به يقول لى :

مبروك يا عثمان

فقلت : الله يبارك فيك يا فندم . .

تصورت أنه كان يهنئنى ، على نجاح تجربة الصالحية . .

ولكنه عندما وجدنى أستقبل الخبر بشكل عادى جـدا . . عاد يقـول لى :

ربنا يوفقك فى مسئوليتك الجديدة . .

فاندهشت وسألت السيد النائب :

أى مسئولية . . . ؟

قال ضاحكا : أن الرئيس أصدر قرار تعيينك ، نائبا لرئيس الوزراء لشئون التنمية الشعبية . .

حاولت الاعتذار ، على اعتبار أننى أقـوم بدورى مـن خـلال لجنة التنمية الشعبية ، واننى لم أقصر فى تنفيذ أى تكليف وطنى يسند لى . .

ولكن النائب قال لى :

إنه قرار الرئيس . . فهو يرى مصلحة البلد اكثر وضوحا . .

وتزاحمت فى رأسى عشرات الأسـئلة . . وبدت على الحيرة . . ويبدو ان النائب ادرك ذلك فبادرنى يقول :

لا تعبأ بأى شىء . . واعتمد على الله . . ونحن معك . .

وسـافر النائب إلى القـاهرة واصـطحبت الرئيس السـادات الى الاسماعيلية . . وفى الطريق حاولت أن أعتذر للرئيس على أسـاس اننى أقوم بدورى من خلال الحزب بمرونة أكثر دون ارتباط بموقع تنفيذى . .

ولكنه قاطعنى وهو يقول :

دى مصلحة البلد يا عثمان . .

ولأننى أعرف طبيعته ، فلم أناقشه فى قراره . .

وكان على أن أبدأ الاستعداد ، للقيام بذلك الدور الجديد الذى شرفنى به . .

وبدأت العمل فعلا . . ونحن الآن بصدد وضع خطة متكاملة للتنسيق ، بين جهود جميع المحافظات . . سواء الحكومية ، أو الشعبية . . خطة تأخذ فى اعتبارها حل مشكلة التنظيم الذى أعتبره قمة ما يعترض طريقنا من مشاكل ، لكى نواصل السير على طريق تحقيق المهمة الجديدة . .

وهكذا شاء ربى أن يجعل خاتمة هذا الكتاب فاتحة فصل جديد فى حياتى وأن تكون هذه الكلمات الصفحة الأولى فيه .

أسأل الله النجاح . .

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى كل من له مكانة في قلبي

وموقف كريم معي

هناك مواقف كثيرة، وأحداث كبيرة لم تجد لها
مكانا على هذه الصفحات شارك معي فيها رجال
قد أجد من بينهم من يتضايق من سبب
عدم تناول قصته من بين غيرها

لذلك أقول أنني تخيرت هنا فقط المواقف
التي تعبر أكثر من غيرها على أنها تحمل معالم بارزة
على طريقي.. ولم أجد مفرا من أن أتناول الشخصيات
التي أراد لها الله أن تكون أطرافا في تلك المواقف
ليس لأنهم أقرب إلى قلبي من غيرهم ولكنهم
ارتبطوا بها وأكبر من أحداث

ووقفت كثيرا أيام ما يمكن أن يضمه الكتاب
من وثائق وعلى قدر الإمكان تخيرت ما هو
أكثر دلالة من غيره

ولأنه لم يكن يخطر على بالي في يوم من الأيام
أن أكتب هذه الصفحات فلم أحتفظ بالمزيد
من الصور التي تعبر عن مواقف ورجال لهم في
حياتي أعظم العرفان

حسن أحمد عنان

٥/٤/٨٧

كلمة الرئيس السادات فى العيد الثانى للثورة الخضراء فى الصالحيه

نحن على موعد فى هذا المكان اليوم و بعد اجتماعى بمجلس الوزراء الموسع بالأمس الذى ضم الوزراء والمحافظين ، ألتقى بكم لكى تحملوا الى أهلى وشعبى هذه البشرى ظللت أبحث طيلة سنوات ثلاث عن نقطة البداية لنقتحم مشكلتى الطعام والاسكان ، ولا يحق لى أن أتكلم فاليوم يوم الجنود الذين قاموا بهذا العمل الذى نراه من حولنا كله بأحدث مافى العصر من تكنولوجيا .

المقاولون العرب أقوى شركة عندنا

طلبت من المقاولون العرب وهم أقوى شركة قطاع عام عندنا ، طلبت منهم محاولة ايجاد المدخل السليم لاقتحام هاتين المشكلتين بأحدث الأساليب العملية و تكنولوجيا العصر فسافرت الوفود وجابت جميع أنحاء اوروبا وأمريكا ، و بالذات أمريكا حيث الظروف الملائمة هناك مع ظروفنا الطبيعية . ولقد تحققت المعجزة وعرفنا الطريق السليم ولم يبق الا الجهد والعرق والبذل والعطاء .

فالله سبحانه وتعالى رزقنا الأرض والماء والجو الملائم والانسان المصرى والطريق أمامنا مفتوح الآن .

واليوم يتجلى الحق بأروع صوره بالنسبة للأمن الغذائى ، فنرى اليوم الصحراء الكاملة تعطى الزرع الذى نراه بأعيننا الآن بعد عام واحد و بعد عامين على الأكثر تعطى الحدّية الزراعية .

ماحققته المقاولون العرب يعتبر معجزة بكل المقاييس

وقال الرئيس اذا كان فدان الفاصوليا أو الفول السودانى أعطى ٢ طن فى ٧٠ يوما وكل طن بـ ١٠٠٠ دولار يعنى الفدان بيدر محصول بـ ٢٠٠٠ دولار فى ٧٠ يوما من أحسن المحاصيل وأجودها مما دعا الدول الى طلب التصدير اليها فى أى وقت و بأى كمية نظرا لجودة الانتاج والتغليف ودقة المواعيد ، وهذا فى حد ذاته معجزة كبرى بكل أبعادها . ولذلك نحن جميعا مجدون ومعنا شعبنا كله لكى نصل فى العام الى ١٥٠ ألف فدان لتتغيّر الصورة بالنسبة لمصر واقتصاديات مصر و بتوافر الغذاء بالوفرة الكاملة ، يتوافر التصدير لصيانة كل ماسنبنيه من تكنولوجيا حديثة هنا واقامة المدن والمجتمعات الجديدة .

فمع كل ٥٠ ألف فدان تقام مدينة يسكنها ٦٦ ألف نسمة ، فلمّا نزرع ١٥٠ ألف فدان تقام ثلاث مدن جديدة ، ودە المعدّل اللى لابد أن نصل اليه بأذن الله بالجهد الذى تقوم به المقاولون العرب ، وعشان كده أنا طالب أنه فى نفس الوقت اللى المقاولون العرب هنا قايمه بيه بيكمّلوا الـ ٥٠ ألف فدان ويدخلوا على المائة والمائة وخمسين ألف أيضا فى الوادى الجديد وفى أسوان بتقوم المجتمعات الجديدة والشركات الأخرى بنفس الأسلوب ، وخلاصة ماوصل اليه المقاولون العرب وهو جهد لا يمكن أن يوصف الا بأنه معجزة بكل المقاييس ، فالأرض تزرع بعد ثلاث شهور من تركيب جهاز الرى عليها ، فهذا أمر خارق اللى كان بيحتاج الى عشر سنوات ومئات الملايين ، وقد جندت كل السلطات والامكانيات لانجاز هذا المشروع .

وشكر سيادته كل العاملين بالمشروع وخبراء أمريكا ورؤساء شركاتها الذين ساهموا فى المشروع وحيّا الشعب الأمريكى الصديق الذى وقف معنا وقت الشدة . وقرر سيادته رفع ملكية الفرد بالصحراء الى ٣٠٠ فدان ، وقال أولادى فى المقاولون العرب اللى حققوا المعجزة و بنوا السد العالى والنفق وساهموا بجهد كبير فى توسعات القناه وغير ذلك من المشروعات الوطنية الكبرى التى اقترنت بأسمهم أتوجه لهم باسم شعبنا كله و باسمى بكل العرفان والتقدير و بأطلب من الشركات الأخرى فى القطاع العام أن تحذو حذوهم وتأخذ منهم الذاتا والخبرة كلها ،

الشركات التي أسستها منذ تخرجي من كلية الهندسة وحتى الان وبلغ عددها اكثر من ١٥٠ شركة

أولا : شركات أسستها قبل التأميم

تم تأميمها وبلغ عددها ١٥ شركة :

* عثمان احمد عثمان ــ مهندس ومقاول
* عثمان احمد عثمان وشركاه
* الشركة الهندسية للصناعات والمقاولات العمومية
* المقاولون العرب لانشاء السد العالي
* المقاولون العرب عثمان احمد عثمان وشركاه

وهي الشركة الأم التي تعمل حتى الان بعد ان تم تأميمها وليس لي سهما واحدا في رأسمالها .

* مصنع اقلام الرصاص
* مصنع الخيوط الطبيه
* مصنع الموازين
* مصنع القنالتكس
* شركة الترسانه البحرية
* مصنع عدادات المياه
* مصنع عدادات النور
* مصنع المواسير

....

شركات كانت تحت التأسيس عند التأميم

* مصنع الالات الثقيله للحفر والردم
* مصنع السيارات

....

ثانيا : شركات اسستها في الدول العربية

وبلغ عددها ٤ شركات

* المقاولون السعوديون عثمان احمد عثمان وشركاه .
* الهندسه الكويتيه ــ عثمان احمد عثمان وشركاه .
* الليبيه للمقاولات والتعمير ــ عثمان احمد عثمان وشركاه .
* ابوظبي عثمان احمد عثمان وشركاه

....

١٣٢ شركة .

* المقاولون العرب للاستثمار
* الشركة المصرية الايرانيه للمقاولات
* الشركة العربية للمنتجات الخشبية
* شركة مصر للتعمير
* شركة الاسماعيلية للسياحه
* المركز الطبي للمقاولون العرب
* شركة المقاولون العرب للصناعات الكهربائية (آراب)
* شركة الاسماعيلية لنقل البضائع
* الشركة العربية لتجميع وتصنيع معدات البناء
* شركة العاشر من رمضان للانشاءات
* شركة فنادق حدائق الاهرام (بيراميدز فاكيشن فيلجز)
* الشركة المصريه لمنتجات الالومنيوم (اليو مصر)
* شركة اكرو مصر للشدات والسقالات المعدنيه (اكرو مصر)
* الشركة المصرفيه العربية الدولية
* دار طباعة المقاولون العرب
* شركة المزارع المصريه ــ الصالحية
* شركة دويتز الاسماعيلية
* شركة مصر / اسوان لصيد وتصنيع الاسماك
* البيت الإستشاري العربي الدولي
* شركة الاسماعيلية للمجازر الاليه
* شركة الاسماعيليه للملابس الجاهزه
* شركة الاسماعيلية للالبان
* شركة الاسماعيلية العقارية
* شركة المهندس للتأمين
* بنك المهندس
* شركة الاسماعيليه للمزارع السمكيه
* شركة الاسماعيليه للطوب الطفلي
* شركة الصناعات الهندسية المعمارية (ايكون)
* شركة الشرق الاوسط لاستصلاح الاراضي وتنمية الصناعات الزراعية والحيوانية

* مدينة الفنون بالاسماعيلية
* السعودية المصرية للتعمير
* شركة مصر للمياه الغازيه وحفظ الاغذيه (مصروب)
* بنك قناة السويس
* شركة الاسماعيلية ــ مصر للتبريدات
* شركة الاسماعيلية ــ مصر للدواجن
* شركة الاسماعيلية ــ مصر للتنمية الزراعية
* الشركة المصرية لتطوير صناعة البناء (ليفت سلاب مصر)
* شركة القناة للتأمين
* شركة المقاولات والصناعات التخصصية عثمان احمد عثمان وشركاه
* بنك المقاولون العرب الاسلامي
* شركة تجميع المعدات " ايماك "
* شركة عماك
* شركة المهندس للتأمين
* بنك المعلومات
* شركة اسكان المهندس
* شركة الاسماعيلية للاستيراد والتصدير

....

* البنك الوطني للتنمية
* بنك السويس الوطني للتنمية
* بنك الدقهلية الوطني للتنمية
* بنك بورسعيد الوطني للتنمية
* بنك القليوبية الوطني للتنمية
* بنك الغربية الوطني للتنمية
* بنك اسيوط الوطني للتنمية
* بنك كفرالشيخ الوطني للتنمية
* بنك بني سويف الوطني للتنمية
* بنك قنا الوطني للتنمية
* بنك اسوان الوطني للتنمية
* بنك الجيزه الوطني للتنمية
* الصندوق الوطني للتنمية الشعبية
* الشركة الوطنية للامن الغذائي
* شركة بورسعيد الوطنيه للامن الغذائي
* شركة الجيزه الوطنية للامن الغذائي

* الاسماعيلية الوطنية للامن الغذائي
* كفرالشيخ الوطنيه للامن الغذائي
* شركة اسيوط الوطنيه للامن الغذائي
* شركة الغربية الوطنية للامن الغذائي
* الوطنية للاسكان للنقابات المهنية
* الوطنية للحاويات بميناء بورسعيد
* شركة بورسعيد الوطنيه لنقل البضائع
* شركة قنا الوطنية للنقل السياحي
* شركة الاسماعيلية الوطنيه للتسويق والتصدير
* الوطنية للمصريين العاملين بالخارج
* الشركة الوطنية للطباعة والنشر
* شركة اسيوط الوطنية للاسكان
* الوطنية لاستغلال شاطئ ومياه النيل
* الشركة الوطنية للنقل البحري
* الوطنية لمستلزمات الطفوله والحضانة
* الشركة الوطنية للوازم الصيادين
* الوطنية للاستثمارات السياحية
* الشركة الوطنية للطيران
* الوطنية لانتاج الحرير الطبيعي
* الشركة الوطنية لمزارع الجمبري
* الشركة الوطنيه للزيوت وعباد الشمس
* الشركة الوطنية لتصنيع المخلفات
* الشركة الوطنية للزجاج والبللور
* الشركة الوطنية لانتاج سكر الذره
* المهندس الوطنيه لصناعة المكرونه والشويت
* الشركة الوطنية لمبيدات الآفات
* الشركة الوطنية للملابس الجاهزه
* الشركة الوطنية للمصانع العائمه
* شركة قنا الوطنية للطوب ومواد البناء
* الشركة الوطنية لتعليب وتجميد منتجات الخضر والفاكهة
* شركة الفيوم الوطنيه للطوب ومواد البناء
* الشركة الوطنية للصناعات والانشاءات
* الشركة الوطنية لتعبئة الاسمنت ببورسعيد
* الشركة الوطنية لانتاج الاسمنت
* الشركة الوطنية للصناعات الصغيره
* الشركة الوطنية لصناعة الاثاث

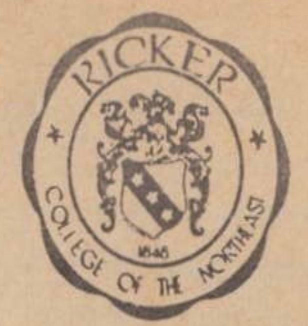
* الشركة الوطنية لصناعة الاعلاف
* الوطنية للخدمة الالية الزراعية
* المهندس الوطنية للمنتجات الغذائية
* الشركة الوطنية للنخيل
* الشركة الوطنية للقرى المنتجة
* شركة الدقهلية الوطنية للدواجن
* الشركة الوطنية لتربية الماشية
* الشركة الوطنية لغابات الزيتون
* الشركة الوطنية لغابه الخروع وصناعاته
* الشركة الوطنية لاسماك النيل
* الوطنية لزراعة السيزال وانتاج الياف
* شركة الشرق الاوسط الوطنية للخدمات
* الاسماعيلية الوطنية لتنمية الثروه الحيوانية
* شركة اسوان الوطنية للدواجن
* شركة المهندس الوطنية للتنمية
* بورسعيد الوطنية لتنمية الثروة السمكية
* الشركة الوطنية لانتاج التقاوى
* الغرفه الوطنية لانتاج البروتين
* الشركة الوطنية لخدمات الدواجن
* الشركة الوطنية لخدمات الماشية
* الشركة الوطنية للميكنة الزراعية
* الشركة الوطنية لمزارع الشباب

....

عشرة مشروعات اجتماعية للتنمية الشعبية :

* اللجنة الوطنية للقضاء على الاميه
* اللجنة الوطنية لانشاء معهد الكبد
* اللجنة الوطنية لخدمات المسجد الجامع
* لجنة انشاء الجامعة الوطنية
* اللجنة الوطنية لرعاية الانضباط ومكارم الاخلاق
* اللجنة الوطنية لمحطات خدمة السيارات
* اللجنة الوطنية لمحطات خدمة الاسكان
* اللجنة الوطنية لتشغيل خريجي الجامعات
* اللجنة الوطنية للمؤتمر الدولي للتنمية الشعبية
* اللجنة الوطنية لمركز بحوث التنمية





1848 1976

OSMAN AHMED OSMAN

عثمان احمد عثمان

درجة الدكتوراه الفخريه فى القانون

عثمان احمد عثمان •• كما انك تعمل فى حفر الانفاق والقنوات ، وفى بناء الخزانات والمصانع وحدات الاسكان والكبارى •• ، فانك ايضا تعمل فى بناء بلدك •

ومع الوعى التام بالسبق التاريخى للمصرى كبناء ، فانك رجل ذو حلم •• حلم بانشاء مؤسسة عربية بحتة للمقاولات ، تكون نواة لمجموعة من الشركات ذات مستويات عالية تمكنك من منافسة أفضل مؤسسات المقاولات فى العالم • ومن خلال عملك بجد ، ومن خلال العمل الجاد لاخويك ، ومن خلال تعاون مجموعة من الخبراء الفنيين المهره ، فانك قد حققت هذا الحلم ، بل وأكثر منه •

وباستخدام قوى بشرية لعدد يقرب من العشرين ألفا ، فانك قد أقمت الخزانات ، وأزحت التراب ، وأرسيت الاساسات ، ومددت الأنابيب وأنظمة الصرف الصحى ، وحسنت الموانى وارتفعت بتسهيلاتها وأنشأت المصانع والمدارس ليس فقط فى مصر بل وأيضا فى ليبيا والمملكة العربية السعودية والكويت والارن • وعلى مدى مساعيك هذه عاملت العاملين معك بكل اعتبار وعدالة •• فقدمت لهم تأمينا للرعاية الصحية ، ومنحا دراسية لابنائهم ، وفرصا اجتماعية ورياضية متنوعة • وقد سدد العاملون رعايتك لهم من خلال عملهم الجاد وولائهم •

ومن المشروعات التى ن‍فذتها خزان أسوان ، وميناء القاهره الجوى ، وكوبرى الجيزه على النيل والمستشفيات العسكرية ، وتطوير قناة السويس ، والاسكان الشعبى ، وغير ذلك الكثير •• وكل عمل منها يقف شاهدا على جدية العمل والاستقامة فى تلك المؤسسة التى أنشأتها عقب تخرجك من كلية الهندسة بجامعة القاهرة فى عام ١٩٤٠ •

وقد عبرت جميع هذه المشروعات بطريقة عملية عن اخلاصك لبلدك ، وعن تصميمك على ان تراها مندفعه فى طريقها الى الامام • وفى نوفمبر ١٩٧٣ تحملت ايضا مسئوليات الوظيفة العامه حين قبلت تولى المنصب الذى أنشىء حينئذ وهو منصب وزير التعمير ، الذى أسندت اليه وزارة الاسكان بعد فتره وجيزة •

عثمان احمد عثمان •• ونظرا لادراكك بعيد المدى لما يمكن انجازه فى اطار التقاليد القديمة للمصرى كبناء •• ، ونظرا لذكائك وتصميمك على تحويل الحلم الى حقيقة ••

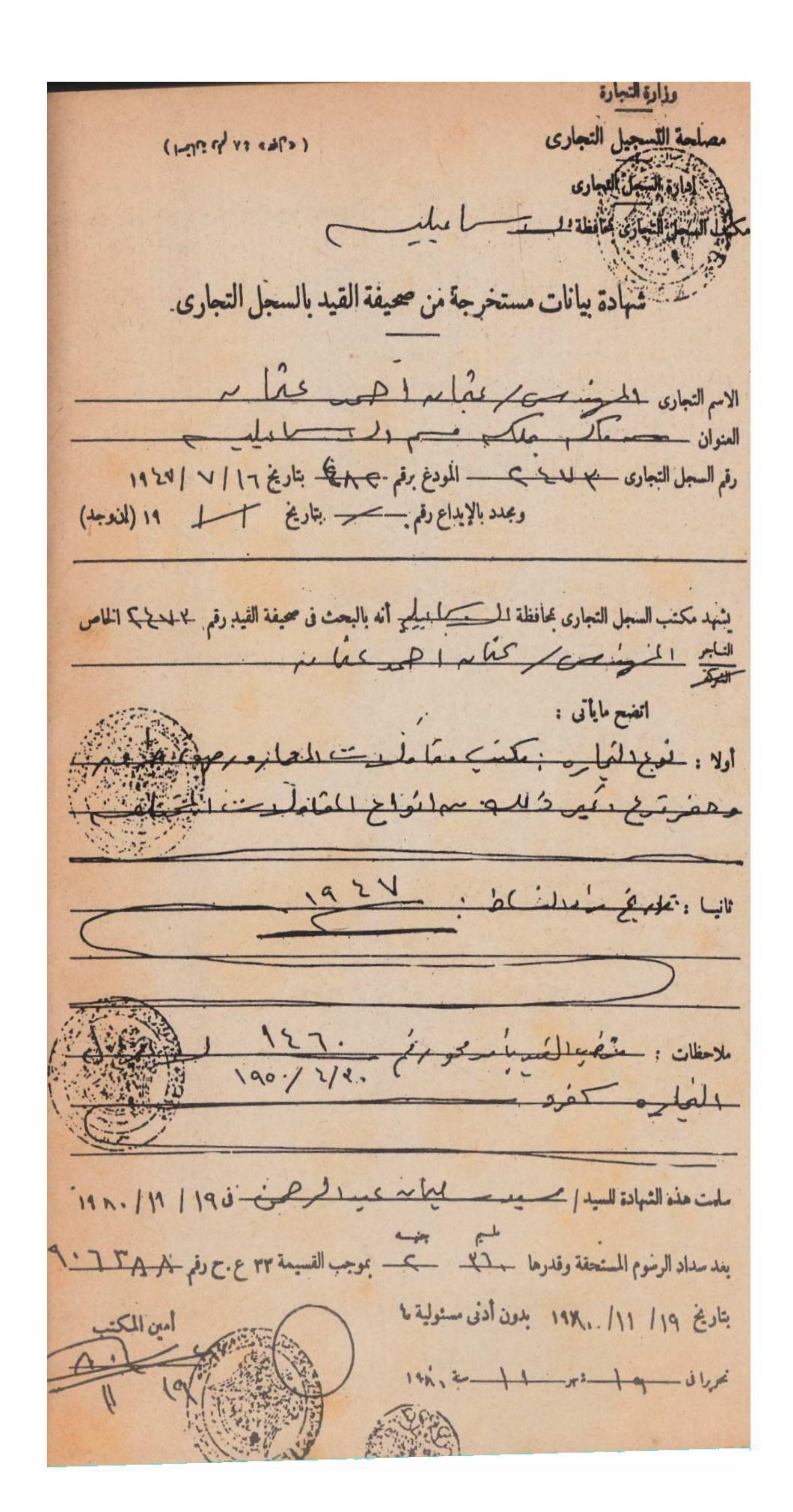
فان جامعة ريكر تفخر بأن تقدم اليك درجة الدكتوراه الفخرية فى القانون •

June 6, 1976



William D. Abbott

WILLIAM D. ABBOTT, Ed.D
President



وزارة التجارة

مصلحة التسجيل التجاري

إدارة السجل التجاري

مكتب السجل التجاري بمحافظة الإسماعيلية

شهادة بيانات مستخرجة من صحيفة القيد بالسجل التجاري

الاسم التجاري المؤسسين / عباس أحمد عثمان

العنوان محل كائن بجلكم قسم الإسماعيلية

رقم السجل التجاري ٢٢٢٤ المودع برقم ٣٨٤ بتاريخ ١٦ / ٧ / ١٩٤٧

وجدد بالإيداع رقم ـ بتاريخ / / ١٩ (المتوجد)

يشهد مكتب السجل التجاري بمحافظة الإسماعيلية أنه بالبحث في صحيفة القيد رقم ٢٢٢٤ الخاص

التاجر / الشركة المؤسسين / عباس أحمد عثمان

اتضح ما يأتي :

أولا : نوع التجارة : مكتب مقاولات المجاري والصرف وحفر ترع وغير ذلك من أنواع المقاولات المختلفة

ثانيا : تاريخ بدء النشاط : ١٩٤٧

ملاحظات : شطب القيد بالمحو رقم ١٤٦٠ في ٢٠ / ٦ / ١٩٥٠ لترك التجارة كلية

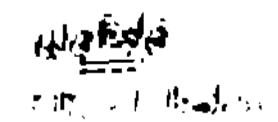
سلمت هذه الشهادة للسيد / سعيد لبانة عبد الرحمن في ١٩ / ١١ / ١٩٨٠

بعد سداد الرسوم المستحقة وقدرها ٢٦٠ مليم ـ جنيه بموجب القسيمة ٣٣ ع.ح رقم ٩٠٦٣٨٨

بتاريخ ١٩ / ١١ / ١٩٨٠ بدون أدنى مسئولية ما

أمين المكتب

تحريرا في ١٩ / ١١ شهر سنة ١٩٨٠



بسم الله الرحمن الرحيم

إلى كل من قدموا حياتهم ودماءهم فداء للعمل - إلى من بذلوا الجهد والعرق ..
إلى من ضحوا بأرواحهم ... نقدم لهم جميعًا الوفاء .. أصدق الوفاء ...
إلى الذين استشهدوا في عملهم تحت راية أسرة المقاولون العرب .. إلى الذين
لم يدفعوا فقط ضريبة البناء من جهدهم وإخلاصهم وتفانيهم فحسب .. ولكنهم
تسابقوا في أن يدفعوها أيضًا من صحتهم ودمائهم وحياتهم ... إلى الذين قدموا حياتهم
باستبسال وفدائية وبطولة وشجاعة وإنكار للذات - نحن دائما معكم .. وكلما
زادت أعمالنا - وكلما حازت الشركة على مزيد من الثقة في جميع أنحاء العالم - كلما زاد
تقديرنا لكم .. ووفاءنا لكم .. أنتم يابناة السد العالي .. أنتم يامن أقمتم للمصانع والكباري
وكبرى المشاريع في داخل مصرنا العزيزة وفي جميع أنحاء الوطن العربي .. أنتم يامن
شاركتم بعملكم ليل نهار تحت نيران العدو في أعمال المجهود الحربي التي كان لها دور
رئيسيًا في النصر الذي حققته قواتنا المسلحة في حرب رمضان المعظم .. أنتم يامن
ساهمتم في إقامة أعظم المشاريع - وأردتم لهذه المشاريع الخلود - وكان أن
خلدت فعلا ليس فقط بروعة عملكم ، ولكن أيضًا بصدق تضحياتكم واستشهادكم
في سبيلها - لقد خلدت أعمال المقاولون العرب بكم ... وخلدتم أنتم أيضًا معها على مر
الزمن .. لكم جميعًا نطلب من الله عز وجل المغفرة والرحمة وأن يسكنكم فسيح جناته
ونعدكم بشرف دمائكم وأرواحكم - أننا سنقبل بكل عزم وتصميم على معركة التعمير
بمزيد من التضحيات ومزيد من الشهداء فداء للوطن - وإلى كل أسرة من أسر هؤلاء
الشهداء الأبطال - أقدم لها الشكر والعرفان بالجميل -
إلى كل أسرة أقدم لها أيضا الوفاء والأمل - فنحن جميعًا دائمًا معكم وبجانبكم ...
أما أنتم يا أبنائي العاملين بالشركة - أقدم لكم هذا السجل الذي يضم قائمة الشرف ....
جنود المقاولون العرب .. أبناء مصر الحبيبة .. ولطالما فكرت في إصداره منذ سنوات -
ولكن ما دفعني لإنجازه وشجعني على الاسراع في إبرازه هو استبسال أولادنا أبطال
معركة رمضان المعظم والتي ردت لمصر وللعروبة كرامتها ولشعبنا اعتباره
وقدرته - ونحن في تقديرنا لهؤلاء الأبطال نكرم فيهم أطهر المعاني
وأصدقها .. معاني الاخلاص والايمان والوفاء .. أصدق الوفاء ..
وتحية مباركة لهم في جنة الخلد .. وتحية لبطل معركتنا رمز البطولة
والاخلاص والوفاء الرئيس محمد أنور السادات -

مهندس / عثمان أحمد عثمان

صدر العدد الأول من سجل الوفاء عام ١٩٧٤

هذه الكلمة لرب الأسرة المهندس عثمان احمد عثمان
وفيها كان الطريق لتخليد شهداء الشركة .. وننشرها
في العدد الثاني تأكيدًا للهدف الكريم -

من سجل الوفاء

حامد عباس أحمد (ساعى)

من مواليد ١٨٩٨ - النوبة

التحق بالشركة عام ١٩٥٦

بالادارة العامة وكان مثالا طيبًا

للأمانة والاخلاص فى العمل.

توفى إلى رحمة الله وهو بالمعاش.



محمود عبد الحى (مدير الأمن)

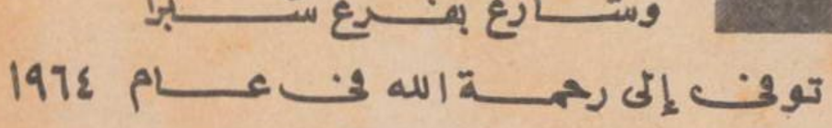
التحق بالشركة عام ١٩٥٩ كمدير مساعد لفرع

القناة وتولى إدارة الأفراد. وإدارة الأمن

خلدته الشركة وأطلقت اسمه

على قاطرة بحرية

وشارع بفرع شبرا



توفى إلى رحمة الله فى عام ١٩٦٤

زكى بيومى عطية (ملاحظ)

من مواليد ١٨٩٢ - الزقازيق

التحق بالشركة عام ١٩٤٤ -

عمل بالسعودية والسد العالى والادارة

الفنية وشارك فى أكبر المشروعات الهندسية.

توفى الى رحمة الله فى ١٤/٤/١٩٦٩ وهو بالمعاش.



مع الرئيس محمد أنور السادات الذى أحس بكل نبضة فى أسلوبه الذى يريد به بناء مصر لأننى جربته وكانت المقاولون العرب نتيجة له .



عندما انحنى رأس نظام الحكم السابق فى مصر للمرة الوحيدة فى حياته أمام عطاء سواعد مصر فى السد العالى.



مع الرئيس السادات فى حديث ودى مع جلالة الملك خالد . . ثم التفت الرئيس إلى شقيقه سمو الأمير عبد الله للترحيب به .

مع جلالة الملك فيصل « رحمه الله » . . كان لا ينقاد وراء أحد ولا يفعل الا ما كان يراه فى صالح بلاده وأمته . . أحب مصر كان رجلا والرجال قليل . .





مع الرئيس السودانى جعفر نميرى ▲

مع السلطان قابوس سلطان عمان ▼



فى حديث ودى مع عبد السلام عارف «رحمه الله» رئيس العراق الأسبق والذى قال لى : ليس أحب على قلبى بعد العراق . . . إلا مصر يا عثمان .. وعلى يمينى شقيقه . . . الرئيس عبد الرحمن عارف .

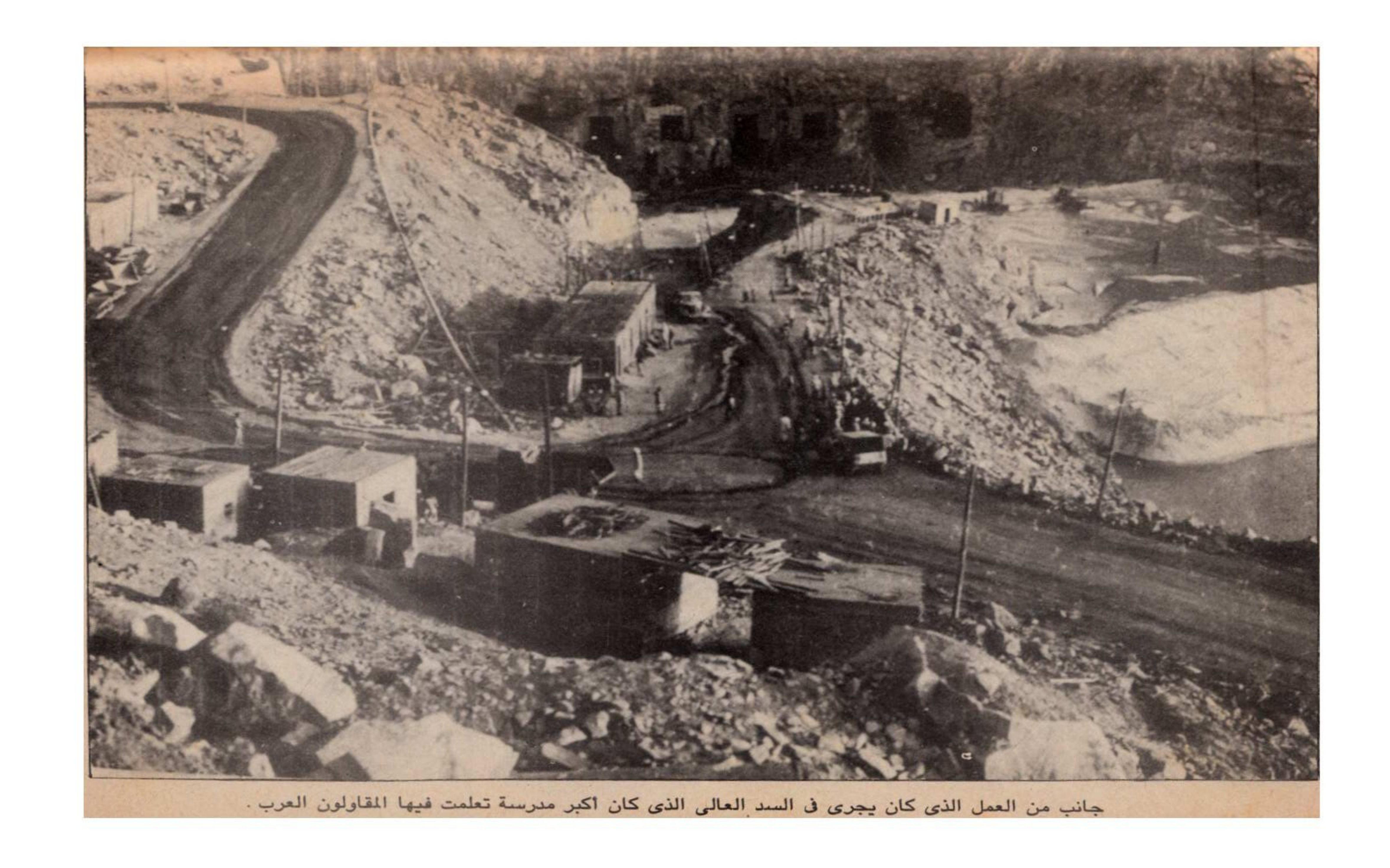
مع الملك حسين ملك الأردن .



مع الشيخ زايد ابن سلطان حاكم دولة إمارات الخليج .. ندرس أحد المشروعات ونحن نجلس على الأرض تعبيراً .. عن البساطة العربية .

مع الشيخ عيسى .. أمير البحرين .

مع روبرت مكنمارا رئيس البنك الدولى للانشاء والتعمير .



جانب من العمل الذي كان يجري في السد العالي الذي كان أكبر مدرسة تعلمت فيها المقاولون العرب.



المرحوم د. ابراهيم أحمد عثمان .. شهيدنا الأول .

المرحوم محمد أحمد عثمان .. شهيدنا الثانى .

المهندس عثمان أحمد عثمان

المهندس حسين أحمد عثمان رئيس المقاولون العرب الآن .

أول – أكبر – مقر للمقاولون العرب كان حلما كالشركة تمنيته للعاملين معى وليس لى .. وبعد عام حققه الله سبحانه وتعالى ..

كانت رحلتى أن
وأشقائى شاقة جدا دفعن
ثمن الخبرة التى حصلن
عليها خلالها شهيدي
سقطا فى الطريق حت
يتحقق حلمنا الكبير .



من اليمين بهلول أول سائق فى الشركة ثم المرحوم الحاج زكى بيومـى أول مـلاحظ ثم عثمان أحمد عثمان أول مهندس ثم رياض أسعد أول إدارى . ▲



من اليمن المهندسين صلاح حسب الله واحمد سليمان وحسين عثمان .. وعلى يسارى المهندس بهجت حسنين .. تحولوا جميعا بعرقهم من أجراء عندى إلى شركاء لى ..

كفر أحمد عبده وعلى يمينى فضيلة الشيخ على حسب الله . ▼





فى مدرسة الصبية التى أنشأتها لتعليم أبناء العاملين مختلف المهن والحرف لتخلق منهم رجالا نافعين .



مع الشيخ حافظ سلامة رجل الدين وصاحب الموقف فى الدفاع عن السويس عندما تعرضت لمحاولة اسرائيل الفاشلة لاحتلالها فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

.. وإلى اليمين المهندس حلمى عبد المجيد نائب رئيس مجلس إدارة المقاولون العرب .





من اليمين المهندسان عثمان وحسين عثمان سنة ١٩٣٨ والنشأة الدينية .. وبعض من العرفان لله والوفاء لأهلنا وعشيرتنا فى الاسماعلية .. مستشفى آل عثمان ومدرسة د. إبراهيم عثمان الثانوية الصناعية.



مع النادى الاسماعيلى عندما توليت رئاسته سنة ١٩٦٥ وحصل على الدورى العـام فى مصر وعلى كأس أفـريقيا رغم آلام الهـزيمة سـنة ١٩٦٧ . . بعد سنتين كما وعدته . . لأن عملنا كان على أساس من الأخلاق والعمل الذى يقود إلى النجاح فى كل مجال . . فهو فى السياسة كما فى الرياضة كما فى كل الأعمال . . فى كل زمان ومكان .

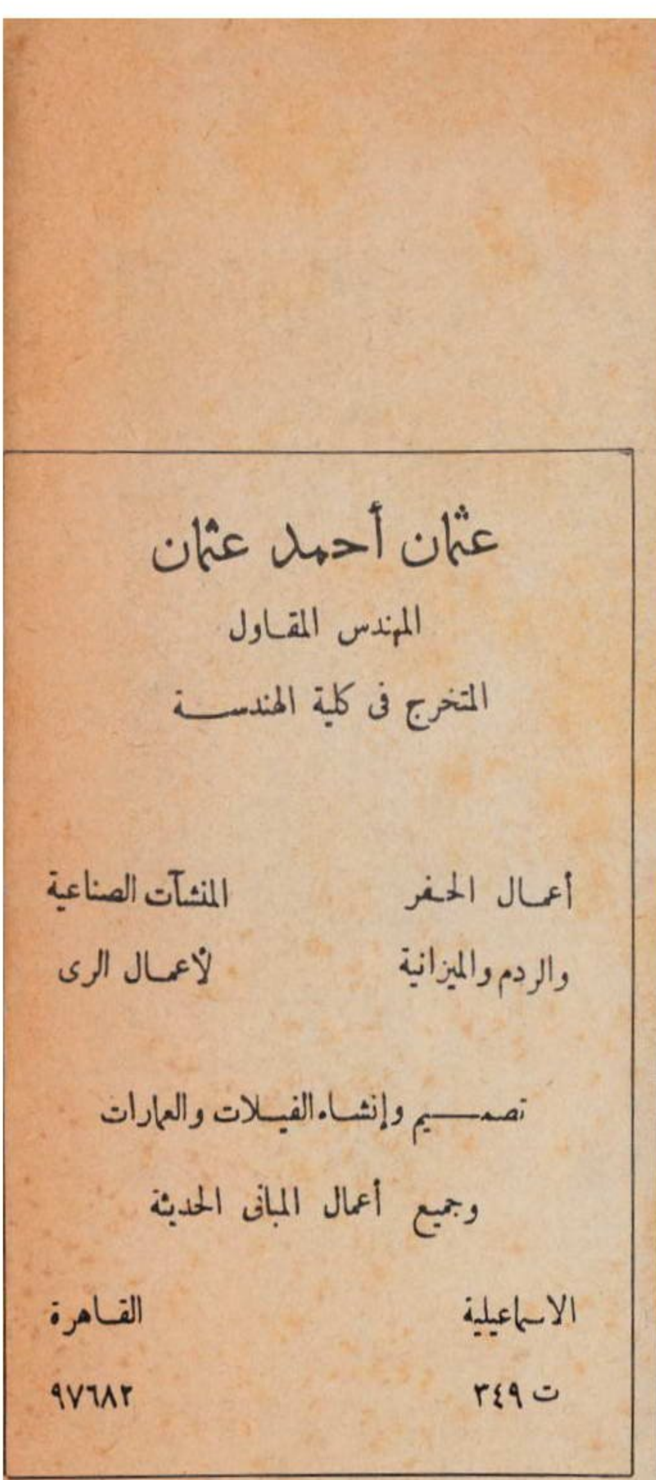


مع أول حفيد لى .. عثمـــان يحيى أبو الغيط .

فى الصالحية حيث وجدت مصر نقـطة الانطلاق لغزو الصحراء .

فى حج بيت الله الحـ
وعلى يسارى زو
« الحـاجة » ســ
اسماعيل وهبى .







هكذا بدأت حياتى العملية وأعطيت عملى كل نفسى فاعترفت بما قدمته لمهنتى آخر بلاد الدنيا فمنحتنى جامعة ريكر الأمريكية درجة الدكتوراه الفخرية .



مع وزير الزراعة الأمـريكى الذى يمسـك بيده انتاج بلده مـن الذرة وإلى جـواره المهندس اسماعيل ابراهيم عثمان ويظهر فى الصورة أشرف غربال سفير مصر فى أمريكا . . وبالعمل أصبح فى أيدينا نفس إنتاجهم من صحرائنا بعد ٥ سنوات .



رقم الايداع ١٩٨١/٢٥٦٦

الترقيم الدولى ٠-بـ٦-٢٦-٧٢٢٢-٩٧٧ ISBN



هذا الكتاب

مات والده ، ولم يكن قد تعدى الثلاث سنوات من عمره .

وفى صباه .. ولم يكن قد تجاوز الثامنة .. اضطر ليكسب بعض رزقه ، ليسهم فى نفقات أسرته .. فعمل « صبى ميكانيكى » بخمسة وعشرين قرشا فى الأسبوع .

وفى بيت خاله بالإسماعيلية . . نبتت أول بذور دعوة الإخوان المسلمين بقيادة الشهيد حسن البنا مدرس اللغة العربية والدين بالمدرسة الابتدائية الذى كان تلميذاً بها .

قبل أن يتخرج من كلية الهندسة اشتهر من أبناء الإسماعيلية بعم عثمان الطحان ، حين شارك فى ماكينة طحين !

وفى شبابه بعد أن تخرج من الكلية بتفوق آثر العمل بالمقاولات على العمل بهيئة التدريس بها ليبدأ حياته من الصفر .. إلى أن اشتهر بلقب المعلم .. وظل هذا اللقب من معالم حياته وكفاحه . واستطاع أن يؤسس أكبر شركة مقاولات فى الشرق الأوسط .. « المقاولون العرب » . .

واجه الحرمان .. والفقر .. ولم يمد يده لأخواله الأثرياء لفرط ما حرصت عليه أمه ألا يعتمد - بعد الله - .. إلا على كده وعرقه مع باقى إخوته .

وواجه الإنجليز فى « كفر أحمد عبده » خلال نضال الفدائيين فى منطقة القناة .. وهو مقاول صغير ليعيد بناءها بين فوهات المدافع وحصار الدبابات . وواجه السوفييت .. فى السد العالى .. وفى حظائر الطائرات . وواجه إسرائيل فى حرب الاستنزاف .. وحرب أكتوبر فى قواعد الصواريخ ، واستشهد من رجاله المئات من شهداء العمل .

وتصدى لمراكز القوى فى ثورة التصحيح تحت لواء قائدها الرئيس السادات .

ودافع عن مصر .. فى كل موقع عمل .. وقاد معركة التعمير تحت شعار .. « لا يبنى مصر إلا أبناء مصر » .. وكان وراء قانون عدم بيع الأراضى للأجانب .

والتصق بتراب الوطن على أرض بلده - الإسماعيلية - فى إيمان عميق بالله . . وفى قصة كفاح لا يهدأ ، داخل الوطن وخارجه بين أرجاء الوطن العربى . . وكان نموذجاً معبراً لابن البلد . . فى كل موقع من مواقع العمل والكفاح ، وصورة صادقة لابن مصر .. ارتبط بأرضها وترابها .. وتاريخها . ذلك هو عثمان أحمد عثمان . . صبى الميكانيكى . . المعلم . . المهندس . . المقاول . . الوزير .. رائد التعمير والأمن الغذائى والتنمية الشعبية .

وتلك هى قصة ضمها هذا الكتاب بقلمه . . بعد أن كتب أحداثها بعرقه .









www.ibtesama.com